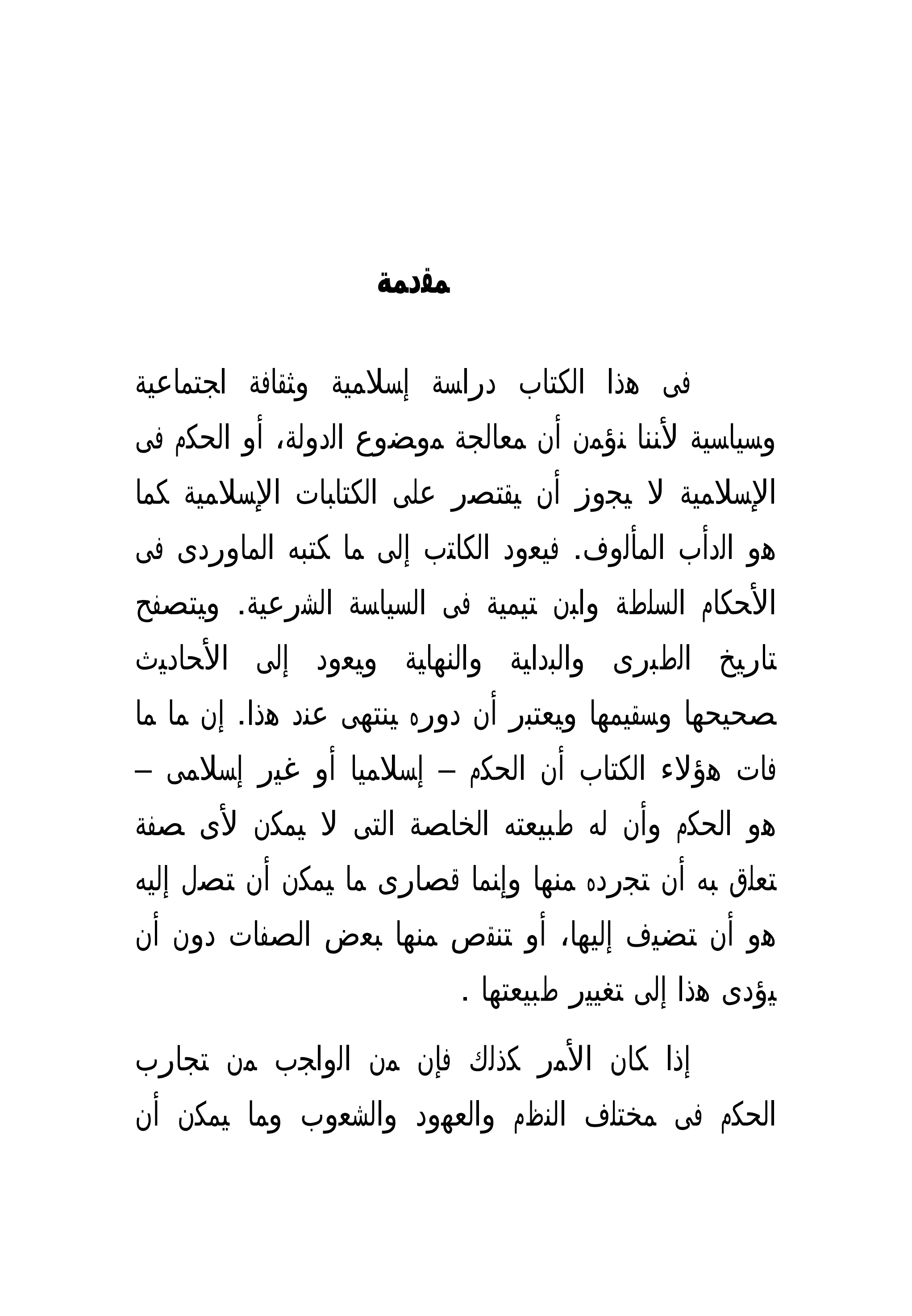
الإسلام
دين وأمة

جمال البنا

الإسلام دين و أمة

جمال البنا



مقدمة

فى هذا الكتاب دراسة إسلامية وثقافة اجتماعية وسياسية لأننا نؤمن أن معالجة موضوع الدولة، أو الحكم فى الإسلامية لا يجوز أن يقتصر على الكتابات الإسلامية كما هو الدأب المألوف. فيعود الكاتب إلى ما كتبه الماوردى فى الأحكام السلطة وابن تيمية فى السياسة الشرعية. ويتصفح تاريخ الطبرى والبداية والنهاية ويعود إلى الأحاديث صحيحها وسقيمها ويعتبر أن دوره ينتهى عند هذا. إن ما ما فات هؤلاء الكتاب أن الحكم – إسلاميا أو غير إسلامى – هو الحكم وأن له طبيعته الخاصة التى لا يمكن لأى صفة تعلق به أن تجرده منها وإنما قصارى ما يمكن أن تصل إليه هو أن تضيف إليها، أو تنقص منها بعض الصفات دون أن يؤدى هذا إلى تغيير طبيعتها .

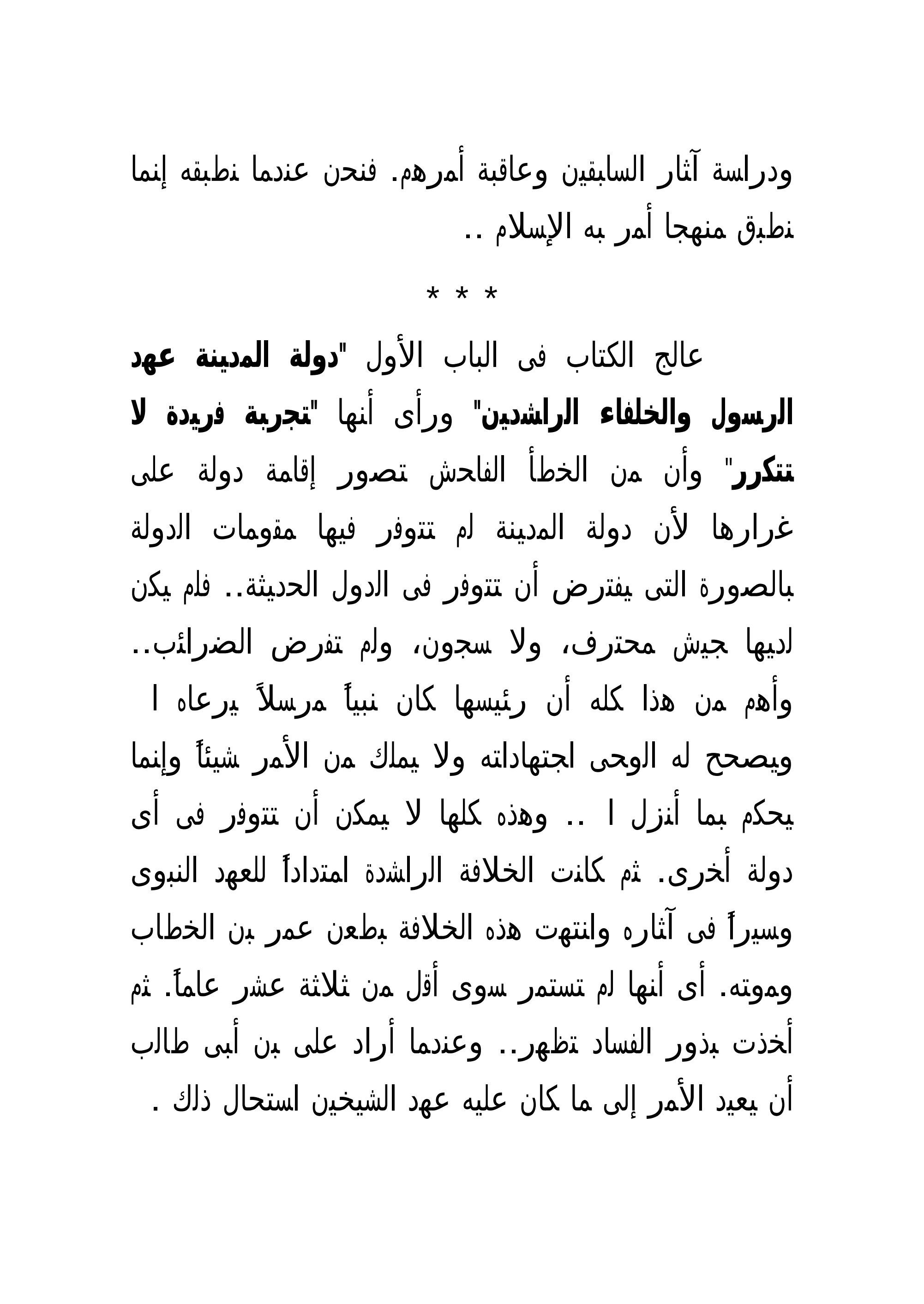
إذا كان الأمر كذلك فإن من الواجب من تجارب الحكم فى مختلف النظم والعهود والشعوب وما يمكن أن

يبديه ذلك التفهم من أعماق الحكم وجوانبه المتعددة ثم دراسة تفاعل الإسلام مع طبيعة الحكم، ومدى نجاحه فى كبح جماحها وحسن توجيهها .

وأدت بنا دراسة الحكم منذ أن ظهر من أقدم العصور حتى العهد الحديث إلى المبدأ المحورى الذى حكم سياق وروح الكتاب. ألا وهو **"إن السلطة التى هى خصيصة الدولة تفسد الأيديولوجيا (أو العقيدة) وأن هذا الإفساد هو فى طبيعة السلطة ولا يمكن أبداً أن تتحرر منه. وأن أى نظام يقترن بها بفكرة إصلاحها لابد وأن تفسده.. وأن أى نظام يحاول تطويعها لابد وأن تطوعه، وبدلاً من أن يكون سيدها يصبح تابعها .**

هذا المبدأ القاهر هو الذى جعلنا نقول إن الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة .

ويجب الإشارة إلى أن هذا المنهج الذى أغفله الكتاب الإسلاميون، ورأى البعض فيه منهجاً علمياً أو موضوعياً مستقلاً عن الإسلام هو فى حقيقته إسلامى لأن القرآن الكريم قرن إنزاله الكتاب بإنزاله "الحكمة" وأمر بالسير فى الأرض



ودراسة آثار السابقين وعاقبة أمرهم. فنحن عندما نطبقه إنما نطبق منهجا أمر به الإسلام ..

* * *

عالج الكتاب فى الباب الأول "**دولة المدينة عهد الرسول والخلفاء الراشدين**" ورأى أنها "**تجربة فريدة لا تتكرر**" وأن من الخطأ الفاحش تصور إقامة دولة على غرارها لأن دولة المدينة لم تتوفر فيها مقومات الدولة بالصورة التى يفترض أن تتوفر فى الدول الحديثة.. فلم يكن لديها جيش محترف، ولا سجون، ولم تفرض الضرائب.. وأهم من هذا كله أن رئيسها كان نبياً مرسلاً يرعاه ا ويصحح له الوحى اجتهاداته ولا يملك من الأمر شيئاً وإنما يحكم بما أنزل ا .. وهذه كلها لا يمكن أن تتوفر فى أى دولة أخرى. ثم كانت الخلافة الراشدة امتداداً للعهد النبوى وسيراً فى آثاره وانتهت هذه الخلافة بطعن عمر بن الخطاب وموته. أى أنها لم تستمر سوى أقل من ثلاثة عشر عاماً. ثم أخذت بذور الفساد تظهر.. وعندما أراد على بن أبى طالب أن يعيد الأمر إلى ما كان عليه عهد الشيخين استحال ذلك .

بهذا الباب حل الكتاب مشكلة الحكم فى الإسلام "فحقاً" إنه كان هناك دولة فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء، ولكن هذه الدولة كانت تجربة فريدة لا تتكرر. فلم تتوافر لها مقومات لابد منها فى الدولة الحديثة. بينما أضيفت لها مقومات (حكم الرسول لها) لا يمكن أن تتوافر فى العصر الحديث فالقياس عليها باطل ..

وفى الباب الثانى – السلطة تفسد الأيديولوجيا – تحدث الكتاب عن التفرقة ما بين الأمة والدولة، وأن العلاقة الفارقة بينهما هى السلطة التى لا تتوافر للأمة والتى تجعل الدولة جهاز قمع أو إرشاء ثم بين فى خمسة فصول كيف أن السلطة أفسدت الخلافة الإسلامية فحولتها إلى حكم عضوض. وكيف أنها أفسدت التشيع العلوى فحولته إلى تشيع صفوى وكيف أنها أفسدت المسيحية من ديانة المحبة فجعلتها محكمة تفتيش وكيف أفسدت اليهودية وحولتها إلى صهيونية. وكيف أفسدت الاشتراكية فجعلت منها مدرسة الحكم الشمولى .

يعود الكتاب فى الباب الثالث إلى المجال الإسلامى **"الدولة الإسلامية فى العصر الحديث بين التنظير والتطبيق"**

فيشير فى فصل إلى جمال الأفغانى وحسن البنا باعتبارهما أفضل من كتب عن الحكم الإسلامى. ويبرز نقطة هامة هى أن حسن البنا الذى صك صيغة "الإسلام دين ودولة" كان من واقع كتاباته ديمقراطيا يتقبل دستور مصر سنة ٢٣ وأن طالب بتعديله ثم ينتقل إلى محاولات تنظير الدولة الإسلامية فيتحدث عن المودودى. وسيد قطب. والإمام الخمينى وفكرة "ولاية الفقيه" وأخيراً فإنه يتابع جماعات الرافضة الجديدة وبوجه خاص جماعة التكفير والهجرة الرائدة. ثم حزب التحرير ...

ويختم الباب بفصل عن تجربة إقامة الدولة الإسلامية فى العصر الحديث، يستعرض تجربة "السعودية" وتجربة الجزائر، وتجربة السودان، ويقف طويلاً عند تجربة إيران التى يراها أنجح هذه التجارب وأن كانت تتعرض لمأزق خطير. وينتهى إلى أن العناصر الذاتية التى فرضت نفسها على "التنظير" وأفقدته الصفة الموضوعية، وأن محاولات الدولة الإسلامية فى هذه الدول ليس فيها المقومات الجوهرية للدولة الإسلامية، وأنها تكاد تكون أسوء من نظم سياسية فى أوربا وأمريكا. ففيها القمع، وكبت الحريات والسجون

والفساد المالى والثراء الفاحش والفقر المدقع، وانتفاء المعارضة السياسية الحرة، وفيها السجون التى تحتشد بالمخالفين وتمارس فيها أساليب التعذيب فأين الإسلام !! .

ويختم الكتاب بالباب الرابع "**إنما تتقدم الأمم بدعوات الأنبياء.. وجهود الجماعات والهيئات والعلماء والمخترعين**" يكشف عن أن الأنبياء كانوا أول من حرر الجماهير والجماعات من النظم الوثنية. ويبرز الدور القيادى للأنبياء، وأنهم قدموا المثال لما يجب أن يكون عليه القائد .

وفى العهد الوسيط يتحدث الكتاب عن وجود الهيئات والجماعات من أحزاب ونقابات وهيئات إصلاح الخ... وأثرها فى تقدم الأمم ويضرب المثل بالحركة النقابية فى بريطانيا. وأخيراً يظهر كيف أن العلماء والفلاسفة والمخترعين من نيوتن حتى أديسن هم الذين بدءوا العصر الحديث وأقاموه لحمة وسدى وجمعوا بين العلم والعمل وجعلوا العلم فى خدمة الحياة فأثروها وأناروها بالكهرباء، وجعلوا الحياة الدنيا جنات تجرى من تحتها، وجاوزوا ما وصل إليه سليمان فى القديم .

فهذه الجهود التى بدأها الأنبياء وختمها العلماء هى سبب تقدم الأمم وهى التى كانت من القوة بحيث كبحت جماح السلطة ووجهتها وجهة الخدمة وليس السيطرة .

* * *

فى ختام هذه المقدمة أعترف للقارئ أننى ترددت قبل وضع عنوان "الإسلام دين وأمه وليس دينا ودولة" لعلمى بمدى اعتزاز فريق كبير من الجمهور الإسلامى بفكرة الدولة الإسلامية، ولأن كلمة دولة قد تتضمن أطيافاً عامة، ولكن لما كانت "السلطة" هى فى النهاية جوهر الدولة، فلم يعد مناص من الانتهاء إلى عنواننا حسماً لآثار هذا العنصر المدمر. وقد آن للمسلمين أن يعلموا أن كل ما خرج عن إطار الاعتقاد دخل فى إطار الاجتهاد وما دمنا لا نتحدث عن ا تعالى أو طبيعته أو ذاته، وما دمنا لا نجحد الوحى والرسل واليوم الآخر فلا جناح علينا إذا أخضعنا الموضوعات الأخرى للاجتهاد وإذا كانت الدولة الإسلامية ترتبط فى أذهان البعض بذكريات مجيدة، فإنها تتضمن أيضا سوءات عديدة .

ولابد أن نقلع – ونحن نجابه المستقبل – من التأثر بالماضى أو محاولة فرضه على الحاضر ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ

لَها ما كَسبتْ ولَكُم ما كَسبتُم ولا تُسأَلُون عما كَانُوا يعملُون﴾.

{١٤١ البقرة} .

فها كذا يعلمنا القرآن ...

الباب الأول
الدولة الإسلامية فى
عصر الرسول والخلفاء الراشدين

كانت – ولا تزال – تلك التجربة التاريخية الفريدة التى قام بها الرسول عندما تطلبت الأوضاع منه أن يتولى إدارة المدينة، وأن يكون سيدها المطاع، وحاكمها المتبع، ثم ما قام به أبو بكر وعمر بعده فى السير على أثره والاهتداء بهديه – تقول إن هذه الحقبة لا تزال فى الفكر السياسى الإسلامى حية – متوهجة، تتخذ مثالاً عملياً وواقعاً على أن الإسلام "دين ودولة"

فهل هذه هى الحقيقة.. أو أن الحقيقة هى ما ذهب إليه الشيخ على عبد الرازق إلى أن الإسلام لا علاقة له بأصول الحكم. أو أن الحقيقة هى ما ذهب إليه المودودى وسيد قطب وحزب التحرير أن الإسلام هو الحاكمية الإلهية، هو الشريعة، هو الخلافة .

إن هذا الفصل يجيب على ذلك بفضل المعالجة التى تلمس كل أبعاد الموضوع وتلحظ أثر الأحداث وتفاعلها مع النصوص وما أدى إليه هذا من توافر خصائص متميزة لم تتوافر فى حكم آخر. لم ُتسبق وتستحق تصنيفاً خاصاً، إذ فى الوقت الذى يجتمع فيها بعض وظائف الدولة، فإنها تتجرد من وظائف أخرى تعد حيوية فى كل دولة، بالإضافة إلى أنها لم تستمر قرابة خمس وعشرين سنة. منها عشرة فى حياة الرسول والباقى فى خلافة أبى بكر وعمر. وعندما طعن عمر، طعنت الخلافة الراشدة معه. وانطوت صفحتها، لأن عثمان حاد عن سيرة الشيخين، ولأن على عندما أراد أن يعود بها سيرتها الأولى تأبت عليه، بل ودفع حياته ثمناً لذلك..

من أجل هذا يمكن القول إنه حدث فعلاً فى تاريخ الإسلام أن قامت دولة إسلامية فى المدينة المنورة لمدة خمس وعشرين سنة، ولكنها لما كانت دولة خاصة جداً وتخالف مألوف الدول أبرز صفاتها، فإنها لم تدم سوى تلك المدة. أما ما تلاها فإنه كان الطريق إلى الملك العقيم العضوض الذى استمر حتى سقوط الخلافة التركية سنة ١٩٢٤ ولا تحسب

هذه الدولات على الإسلام لأنها لم تقم على أسس إسلامية، وإنما هى جزء من تاريخ الدول الإسلامية هذه المنطقة ادعت انتسابها للإسلام، ولكنها فى حقيقة الحال جزء من التاريخ السياسى الذى يقوم على الغصب والحروب والسيطرة والاستحواز على الأرض واستعباد الجماهير، وبالتالى فإن من الخطأ الكبير تصور إمكانية إقامة دولة إسلامية على غرار دولة المدينة فى عهد الرسول أو فى عهد الخلفاء الراشدين. لأن الصفات الاستثنائية التى اتصفت لا يمكن أن تتكرر وأولها إن دولة المدينة كان على رأسها رسول يوحى إليه وهذا ما لا يمكن بالطبع أن يتكرر .

الفصل الأول

دولة المدينة أيام الرسول

تجربة فريدة لا تتكرر

- ١ -

قبل أن تظهر دولة المدينة

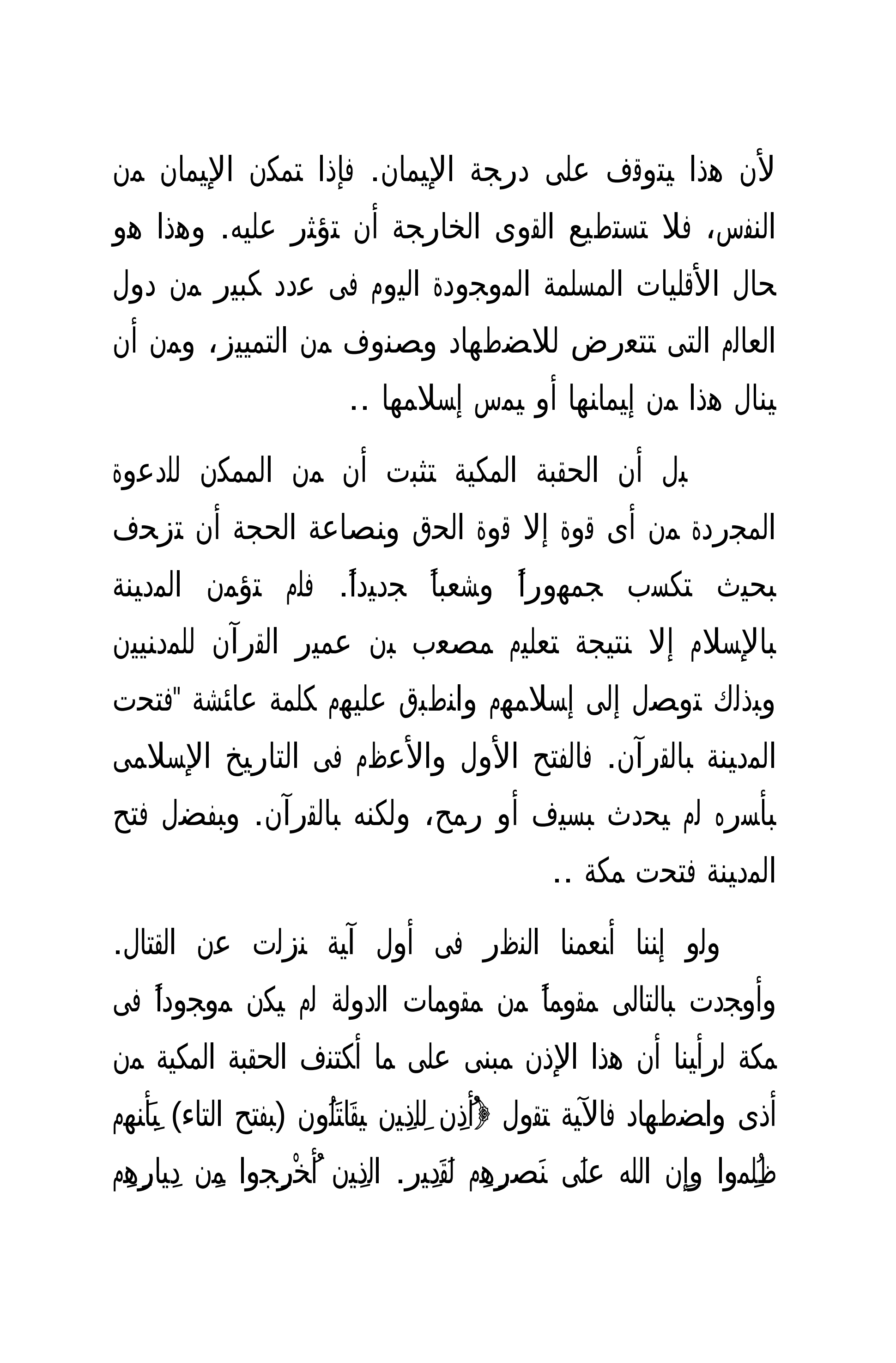
ألف كثير من الكتاب والدعاة أن يبدءوا عرضهم لقضية الحكم فى الإسلام بالحديث عن دولة المدينة التى أقامها الرسول ﷺ وواصلها الخلفاء الراشدون. وهذا وإن كان بالنسبة للحكم صحيحاً إلا أنه لا ينفى أن الإسلام لم يبدأ فى المدينة وإنما فى مكة وأن الرسول قضى فى مكة مدة أطول مما قضاها فى المدينة – وأن أكثر من نصف القرآن نزل فى تلك المرحلة التى لم يكن هناك دولة – بل كان الإسلام ملاحقاً بالاضطهاد من القرشيين ..

إن من المحقق أن دعوة الإسلام التى تنزل بها الوحى الأمين نزلت فى مكة، وأن الرسول دعا المكيين إلى

الإيمان بها. وأن الإسلام برز متميزاً، له جوهره الخاص وهو الإيمان با تعالى الواحد الأحد كما جاء فى القرآن. والإيمان بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب والإيمان برسالة الرسول وهذه المقومات التى تمثل جوهر الإسلام هى ما نزل على الرسول بمكة – ولم ينزل عليه أن يؤسس دولة – أو يجند جنداً أو يخوض قتالاً الخ... بل لم ينزل عليه إلا ما يعد مكملاً للعقيدة دون أن يمثل إضافة فى لب وجوهر العقيدة .

ومن المؤكد أيضاً أن هذه المدة الطويلة كانت مدرسة الإيمان التى تعلم فيها قادة الإسلام ومرنوا على الصلابة والصبر والثبات وقبول التضحية، وهى الخلائق التى يفترض وجودها فى بناة الدول ..

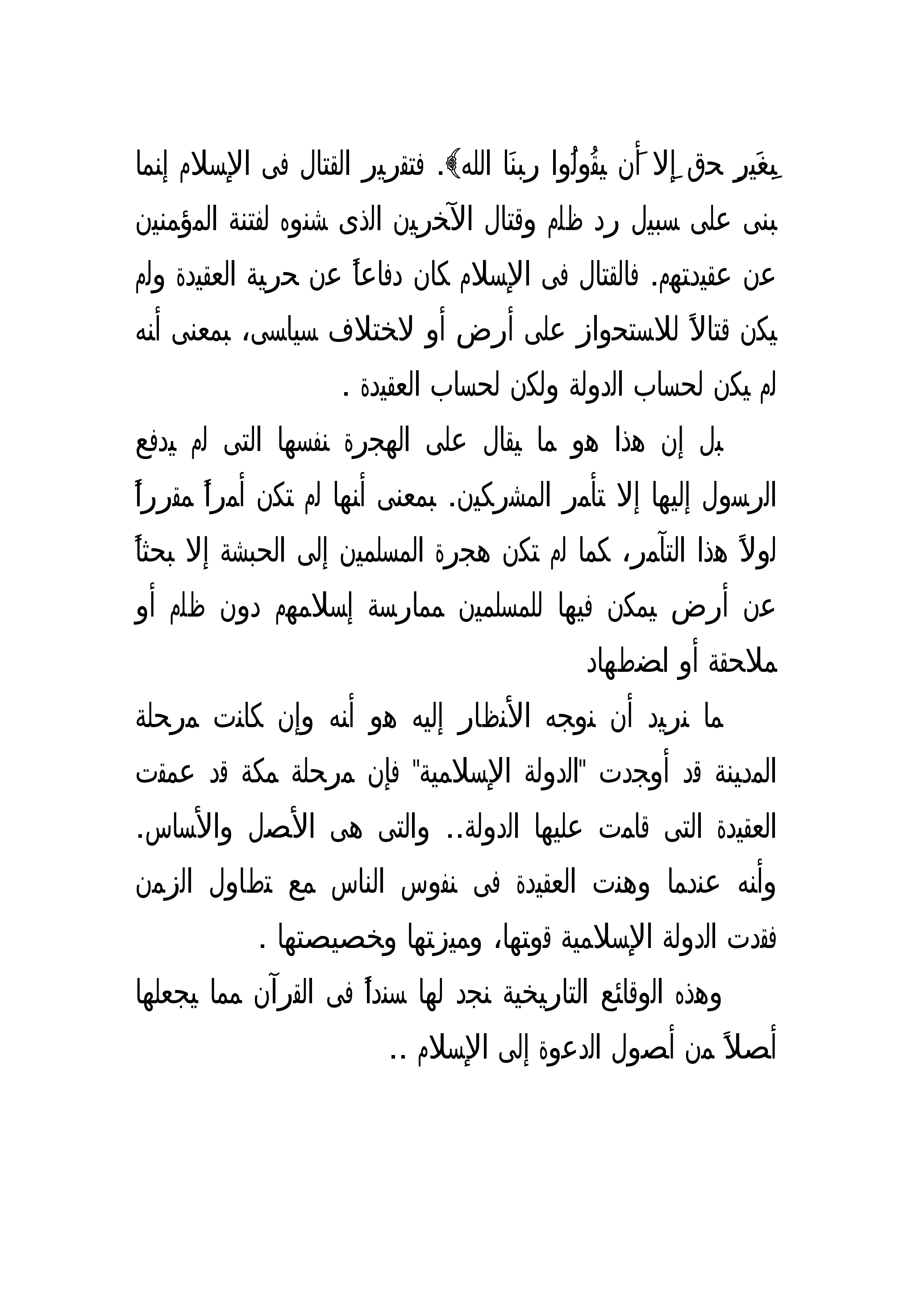
ومعنى هذا أن **الحقبة المكية أثبتت أن من الممكن أن يوجد الإسلام دون أن تكون له دولة. بل حتى وهو ملاحق مضطهد من الأعداء** وهذا ما يضعنا فى صميم القضية. فالإسلام كدعوة، كعقيدة كخلق ليس فى حاجة إلى دولة على وجه الضرورة، لأنه إيمان والإيمان اقتناع نفسى لا تستطيع الدولة أن تدعمه وتقويه، ولا أن تقاومه وتمحوه



لأن هذا يتوقف على درجة الإيمان. فإذا تمكن الإيمان من النفس، فلا تستطيع القوى الخارجة أن تؤثر عليه. وهذا هو حال الأقليات المسلمة الموجودة اليوم فى عدد كبير من دول العالم التى تتعرض للاضطهاد وصنوف من التمييز، ومن أن ينال هذا من إيمانها أو يمس إسلامها ..

بل أن الحقبة المكية تثبت أن من الممكن للدعوة المجردة من أى قوة إلا قوة الحق ونصاعة الحجة أن تزحف بحيث تكسب جمهوراً وشعباً جديداً. فلم تؤمن المدينة بالإسلام إلا نتيجة تعليم مصعب بن عمير القرآن للمدنيين وبذلك توصل إلى إسلامهم وانطبق عليهم كلمة عائشة "فتحت المدينة بالقرآن. فالفتح الأول والأعظم فى التاريخ الإسلامى بأسره لم يحدث بسيف أو رمح، ولكنه بالقرآن. وبفضل فتح المدينة فتحت مكة ..

ولو إننا أنعمنا النظر فى أول آية نزلت عن القتال. وأوجدت بالتالى مقوماً من مقومات الدولة لم يكن موجوداً فى مكة لرأينا أن هذا الإذن مبنى على ما أكتنف الحقبة المكية من أذى واضطهاد فالآية تقول ﴿أُذِن لِلذِين يقَاتَلُون (بفتح التاء) بِأَنهم ظُلِموا وإِن الله علَى نَصرِهِم لَقَدِير. الذِين أُخْرِجوا مِن دِيارِهِم



بِغَيرِ حق إلا أن يقُولُوا ربنَا الله﴾. فتقرير القتال فى الإسلام إنما بنى على سبيل رد ظلم وقتال الآخرين الذى شنوه لفتنة المؤمنين عن عقيدتهم. فالقتال فى الإسلام كان دفاعاً عن حرية العقيدة ولم يكن قتالاً للاستحواز على أرض أو لاختلاف سياسى، بمعنى أنه لم يكن لحساب الدولة ولكن لحساب العقيدة .

بل إن هذا هو ما يقال على الهجرة نفسها التى لم يدفع الرسول إليها إلا تآمر المشركين. بمعنى أنها لم تكن أمراً مقرراً لولاً هذا التآمر، كما لم تكن هجرة المسلمين إلى الحبشة إلا بحثاً عن أرض يمكن فيها للمسلمين ممارسة إسلامهم دون ظلم أو ملاحقة أو اضطهاد

ما نريد أن نوجه الأنظار إليه هو أنه وإن كانت مرحلة المدينة قد أوجدت "الدولة الإسلامية" فإن مرحلة مكة قد عمقت العقيدة التى قامت عليها الدولة.. والتى هى الأصل والأساس. وأنه عندما وهنت العقيدة فى نفوس الناس مع تطاول الزمن فقدت الدولة الإسلامية قوتها، وميزتها وخصيصتها .

وهذه الوقائع التاريخية نجد لها سنداً فى القرآن مما يجعلها أصلاً من أصول الدعوة إلى الإسلام ..

- ٢ -

نصوص قرآنية ونبوية

من الطبيعى أن نسترشد أول ما نسترشد فى موضوع الدولة والحكم بما جـاء فى القرآن الكريم أو روى عن الرسول باعتبارهما المصدرين الأصليين للإسلام، وأن كل ما يأتى بعدهما تبع لهما .

وكما سنرى هذه الأسانيد – وهى آيات وأحاديث تجعل الرسول مبلغاً ومبينا، وبشيراً ونذيراً وداعيا إلى ا بأذنه وسراجاً منيراً – كما تجعله رحمه للعالمين، ومن باب أولى – رحمة للمؤمنين، وتجرده من كل هيمنة أو أن يكون جباراً أو مسيطراً، أو حتى وكيلاً، وهى صفات تبعده – بداهة – عن السلطة بل إنها تجرده من أى سلطة ...

كما تجعل هذه الآيات الهداية من ا " أنك لا تهدى من أحببت". كما تجعل الأفراد هم الذين يؤمنون ويكفرون بمحض إرادتهم بحيث تكون قضية الإيمان والكفر قضية فردية تعود إلى صاحبها وليست من قضايا النظام العام

ويسير هذا بالنسبة للشعوب والأديان والأفراد. فقد أراد ا
تعددية الأديان، ولو شاء لجعل الناس أمه واحدة، وليس من
الإسلام فى شئ أن تتجادل الأديان أو أن يدعى بعضها
الأفضلية والامتياز أو أنه يحتكر الهداية والآيات تقضى بأن
ا تعالى هو – وحدة – الذى سيفصل فيما كانوا فيه يختلفون
يوم القيامة ويتسق مع هذا كله أن القرآن الكريم لم يضع حداً
دنيويا على الردة ...

وهذه الآيات فى مجموعها تبعد الرسل والأديان عن
الحكم والسلطة قدر ما تقربهم من الأمة ...

ولا يستغرب بعد هذا أن لا يكون فى القرآن إشارة
إلى دولة أو حكومة. ودائما نجد التأكيد والتكرير على "
الأمة..

كما يتفق مع هذا أن تكون كلمة الحكم التى ترددت
فى القرآن بمعنى القضاء ومن ثم فإنه يتبعها بحرف "بين" أما
عندما يطلقها عامة فإنه ينسب الحكم تعالى.. وليس لأحد
من البشر ...

وفيما يلى هذه الآيات والأحاديث ..

١. الرسول مبلغ.. وليس حاكما :

- ﴿ما على الرسول إلا البلاغ وا يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ {٩٩ المائدة}

- ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء ا ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ {١٨٨ الأعراف}

- ﴿وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون﴾

  {٤١ يونس}

- ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير وا على كل شئ وكيل﴾ {١٢ هود}

- ﴿وإن ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البـلاغ وعلينا الحساب﴾ {٤٠ الرعد}
- ﴿فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ {٩٤ الحجر}
- ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ {٨٢ النحل}
- ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً **(٥٦)** قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً **(٥٧)** وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ {٥٨ الفرقان}
- ﴿نحـن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخـاف وعيـد﴾ {٤٥ق}
- ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون **(٥٢)** أتواصوا به بل هم قوم طاغون **(٥٣)** فتول عنهم فما أنت بملوم **(٥٤)** وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ {٥٥ الذاريات}

- ﴿والذيـن اتخـذوا من دونه أوليـاء ا حفيـظ عليهم وما أنت عليهم بوكيـل﴾ {٦ الشورى}

- ﴿أما من استغنى **(٥)** فأنت له تصدى **(٦)** وما عليك ألا يزكى﴾ {٧ عبس}

- ﴿فذكر إنما أنت مذكر **(٢١)** لست عليهم بمصيطر﴾ {٢٢ الغاشية}

٢. الهداية من ا ...

- ﴿ليس عليك هداهم ولكن ا يهدى من يشاء﴾ {البقرة ٢٧٢}
- ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين وا أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل ا ومن يضلل ا فلن تجد له سبيلاً﴾ {٨٨ النساء}
- ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين **(٩٩)** وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن ا ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾

{٩٩- ١٠٠}

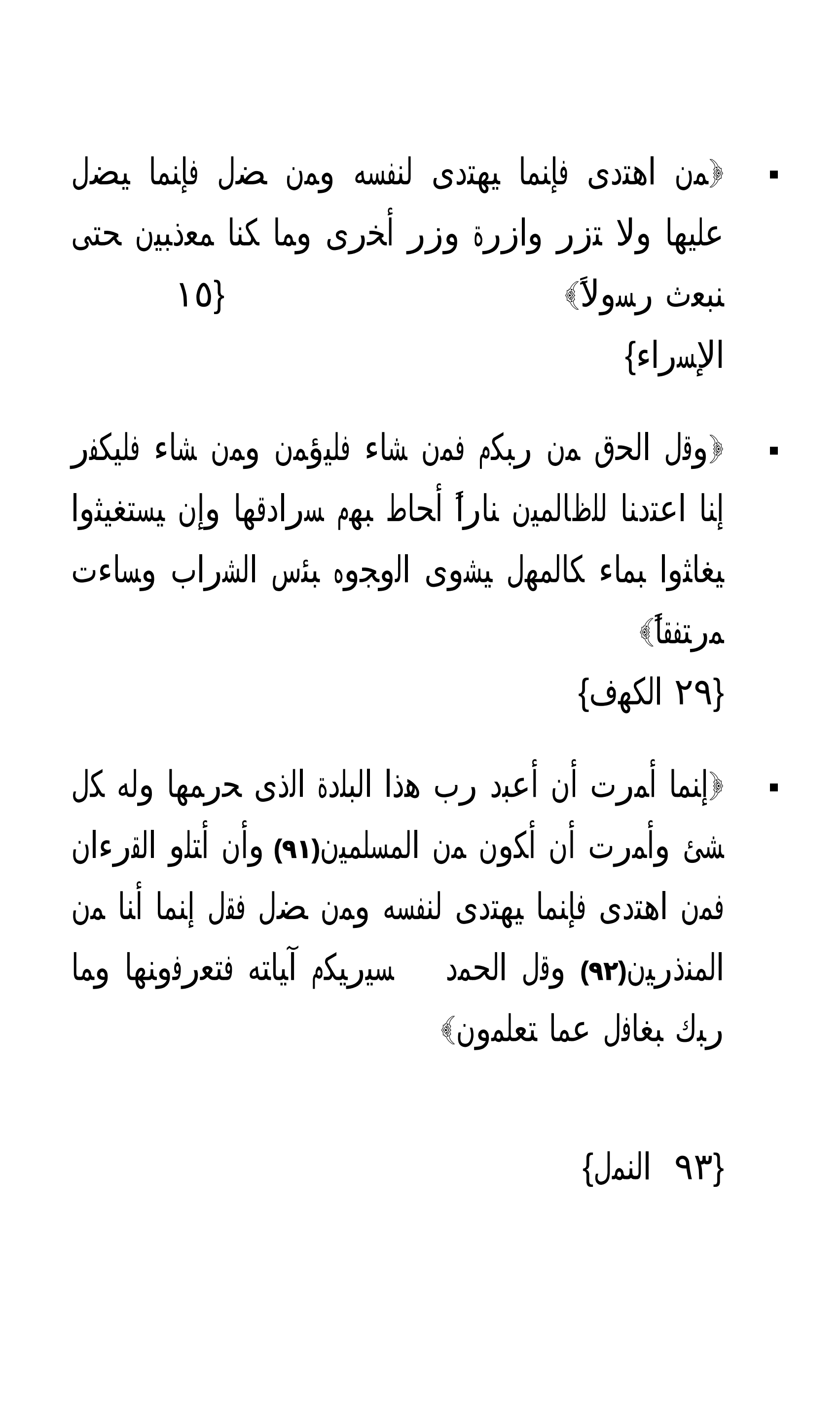
﴿أنك لا تهدى من أحببت ولكن ا يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتديـ ن﴾{٥٦القصص}

- ﴿أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا فإن ا يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن ا عليم بما يصنعون﴾ {٨ فاطر}

٣. الإيمان والكفر قضية شخصية ..

- ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن با فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها وا سميع عليم﴾ {٢٥٦ البقرة}

- ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ {١٠٨ يونس}



- ﴿من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ {١٥
الإسراء}

- ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾
{٢٩ الكهف}

- ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذا البلدة الذى حرمها وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين**(٩١)** وأن أتلو القرءان فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين**(٩٢)** وقل الحمد سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعلمون﴾

{٩٣ النمل}

- ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون﴾ {٤٤ الروم}

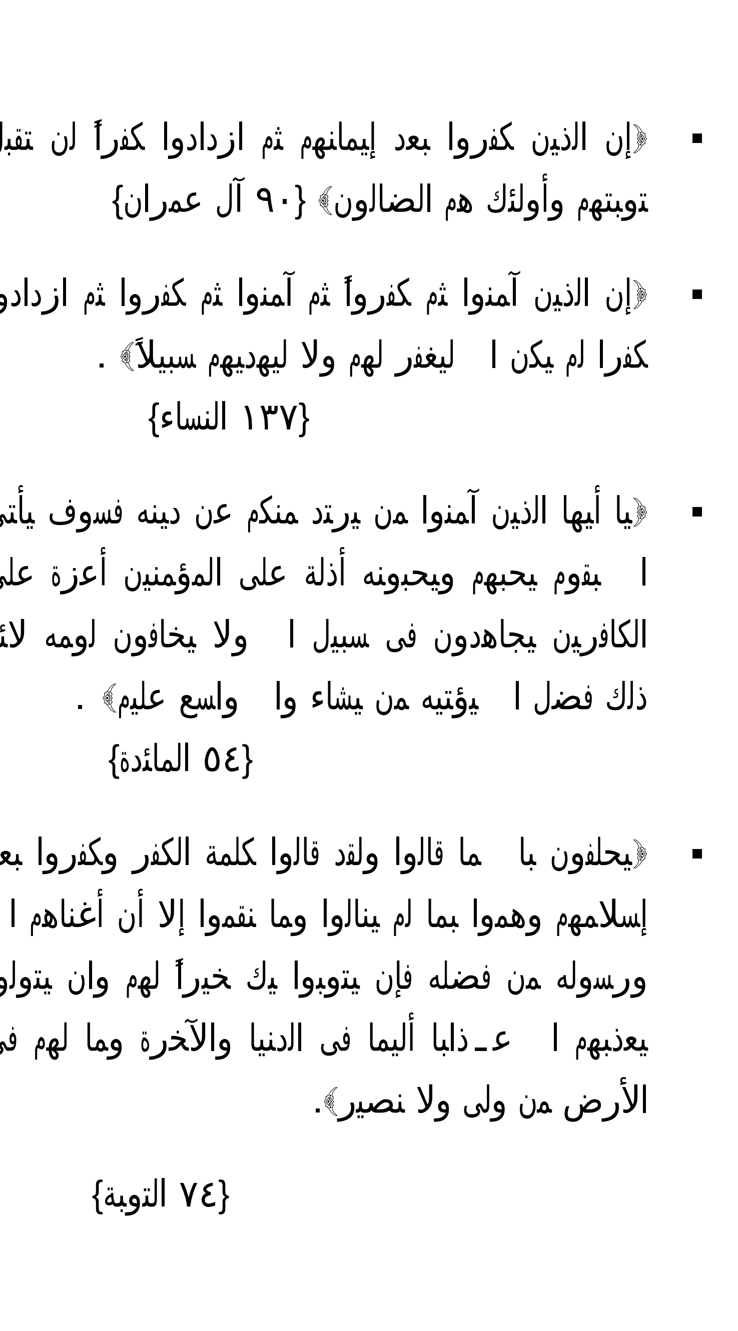
- ﴿هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ {٣٩ فاطر}

- ﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل﴾ {٤١ الزمر}

٤. لا يوجد حد دنيوى على الردة ..

- ﴿أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ . {١٠٨ البقرة}

- ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ . {٢١٧ البقرة}



- ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ {٩٠ آل عمران}

- ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن ا ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾ .

  {١٣٧ النساء}

- ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى ا بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل ا ولا يخافون لومه لائم ذلك فضل ا يؤتيه من يشاء وا واسع عليم﴾ .

  {٥٤ المائدة}

- ﴿يحلفون با ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم ا ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا يعذبهم ا عـذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير﴾.

{٧٤ التوبة}

- ﴿من كفر با   من بعد إيمانه إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليه غضب من ا   وله عذاب عظيم﴾ .   {النحل ١٠٦}

- ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول له وأملى لهم﴾   {محمد ٢٥}

٥. لا يوجد فى القرآن دولة، ولكن أمة ..

لم ترد كلمة "دولة" فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة كانت بصدد الفىء ﴿كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ كما جاءت إحدى اشتقاقاتها ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾

ولا نجد فى معاجم اللغة لكلمة دولة معنى إلا بالمعنى الذى أوردها القرآن الكريم أو بمعنى الغلبة ..

فى مقابل هذا نجد القرآن يستخدم كلمة أمة فى ٤٩ موضعاً ويجعل هذه الكلمة الوصف الجماعى للناس، وللمؤمنين. ويضيق المجال بالطبع عن إيراد كل هذه الآيات وحسبنا منها ..

- ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾
{١٣٤ البقرة}
- ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾
{٤١ النساء}
- ﴿ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ {٣٤ الأعراف}

- ﴿ولكل أمة رسول، فإذا جـاء رسولهم فقضى بينهم بالقسط وهـم لا يُظلمون﴾ {٤٧ يونس}
- ﴿وكذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾ {٣٠ الرعد}
- ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾ {٩٢ الأنبياء}
- ﴿وأن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فأتقون﴾ {٥٢ المؤمنون}

ويمت إلى هذا بصلة أن القرآن الكريم – وكما سنرى السنة – تطلق على الرسول أو القائم بالأمر تعبيراً مشتقاً من الأمة وهو "الإمام" فلا يعرف الإسلام (قرأنا وسنة) كلمة ملك أو حاكم ولكن إمام وأئمة ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ {٧٣ الأنبياء}

- ﴿قال إنـى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾ {١٣٤ البقرة}

وكذلك حديث "الأئمة من قريش" ..

٦. الحكم فى القرآن بمعنى القضاء ..

- ﴿وأن حكمت فأحكم بينهم بالقسط﴾ {١٢ المائدة}
- ﴿أنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك ا ﴾ {١٠٥ النساء}
- ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ {٥٨ النساء}
- ﴿وإذا دعوا إلى ا ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾ {٤٨ النور}
- ﴿وأن جاءوك فأحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ {١٢ المائدة}
- ﴿خصمان بغا بعضنا على بعض فأحكم بيننا بالحق﴾ {٢٢ ص}
- ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ {٦٥ النساء}

- ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم ا ثم يتولوا من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ {٤٣ المائدة}
- ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ {٦٠ النساء}
- ﴿وأن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا إصلاحاً يوفق ا بينهما﴾ {٣٥ يونس}

كما يلحظ فى كل الآيات التى جاء فيها الأمر بالحكم بين الناس أن هذا الحكم مقيد بما أنزل ا . فالحاكم قاض يحكم بين الناس بقانون هو ما أنزل له ولا يحل له أبداً أن يحكم بخلاف ذلك، وهناك آيات عديدة تحذر الرسول من أن يحكم بالهوى أو أن يفتن عما أنزل ا .

وهكذا نرى الحكم هو أولا قضاء وما يوحى إليه ذلك من البعد عن معنى الحكم السياسى وحكم القادة والملوك وما

يتسم به من متداعيات بعيدة عن معنى العدالة قدر ما هى قريبة من معنى الجبروت والسلطة .

وليس الحكم كقضاء غريباً أو جديداً على الأديان فقد ظل "القضاة" يحكمون بنى إسرائيل فى الفترة من موت يشوع حتى اختيار شاول أول ملك للهنود وتبلغ هذه الفترة نحو أربع مائة سنة على وجه التقريب، ولم يكن هؤلاء.. حكاماً أو قواداً عسكرين، ولكنهم كانوا أفراداً متميزين من صميم الشعب .

وقد صك القرآن الكريم تعبيراً جديداً عندما قال "أولى الأمر" "أطيعوا ا والرسول وأولى الأمر منكم"، وأولى الأمر تعود إلى "منكم" وبالتالى تسع لعديد من الأفراد ..

وهذا اصطلاح يعود إلى أصل أعم هو مجرد كلمة "الأمر" التى تستخدم فى السنة، وكذلك فى القرآن الكريم (حوالى ٧٢ مرة) بمعنى الحكم كما يدل على ذلك سياق الآيات :

- ﴿ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم الخ..﴾ {١٢٨ آل عمران}
- ﴿هل لنا من الأمر من شئ﴾ {١٥٤ آل عمران}

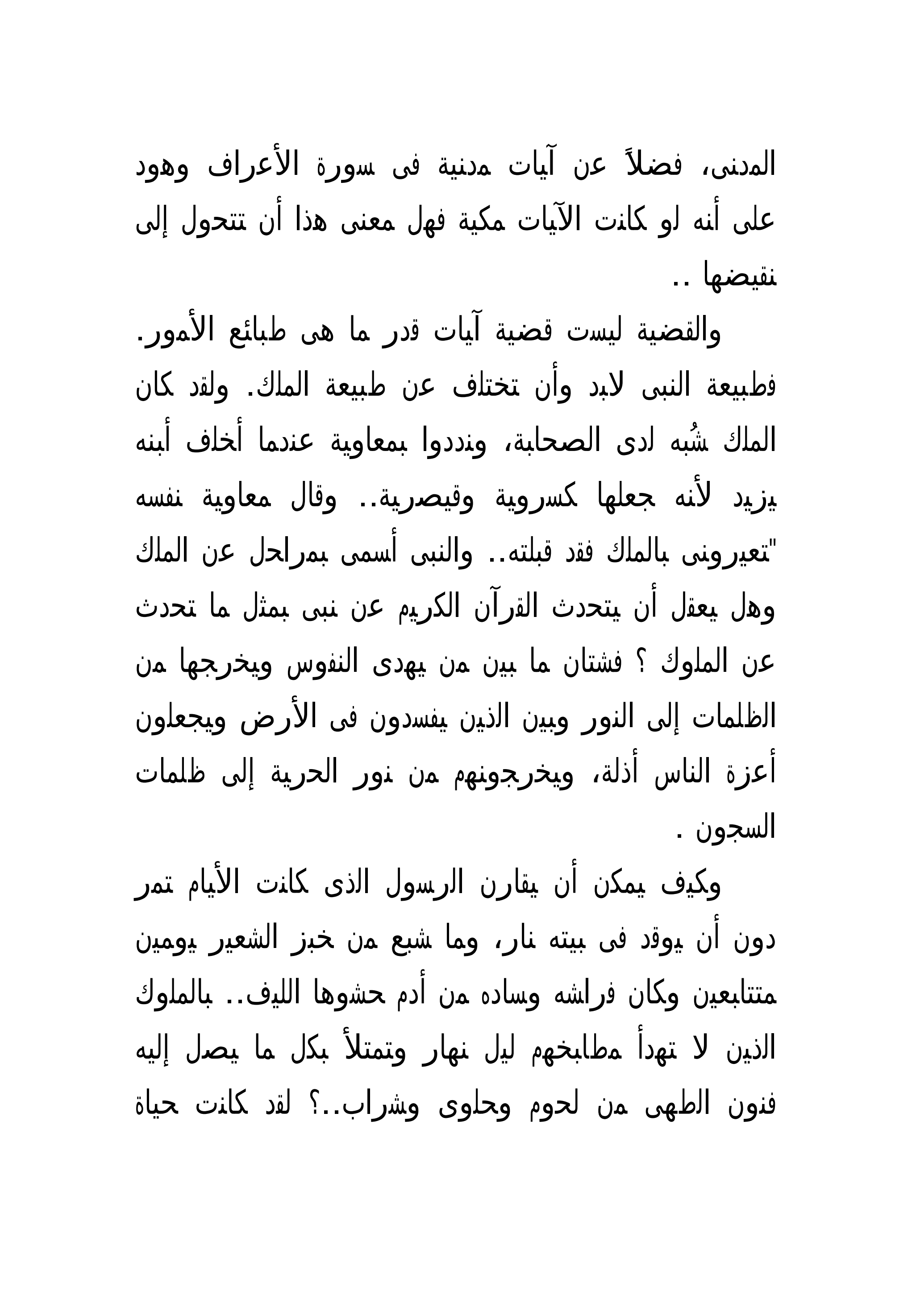
- ﴿فأعف عنهم وأستغفر لهم وشاورهم فى الأمر﴾ {١٥٩ آل عمران}

كما ذكرت فى السنة مناسبات عديدة أشهرها ما جاء فى حديث العباس عندما مرض الرسول ﷺ فطلب من على بن أبى طالب أن يسأل الرسول "فيمن يكون هذا الأمر فإن كان فينا الخ..." .

فتحدث عن "ملك يأخذ كل سفينة غصبا" وعن ملك يقول "أنا أحيى وأميت" وتحدث عن "فرعون وهامان" وقارون وندد بهم بأقسى العبارات ثم وصم الملك بحكم أظهر خصيصة الملك.. ﴿قَالَتْ إِن الْمُلُوك إِذَا دخَلُوا قَرية أَفْسدوها وجعلُوا أَعِزةَ أَهلِها أَذِلةً وكَذَلِك يفْعلُون﴾. {الآية ٣٤ النمل}

من هنا يتضح أن مدح القرآن الكريم لطالوت، وملكة سبأ هو استثناء مما يكون عليه الملوك من بغى وظلم مما يعد طبيعة فيهم ..

لقد قيل أن الآيات التى تجعل الرسول مبلغا، ومبشراً، ونذيراً، وليس حاكماً أو ملكا آيات مكية، ولكن الحقيقة أن فيها آيات مدنية فى سورة آل عمران والمائدة والنساء والرعد والنور والتغابن وبعضها مما أنزل فى آخر العهد



المدنى، فضلاً عن آيات مدنية فى سورة الأعراف وهود على أنه لو كانت الآيات مكية فهل معنى هذا أن تتحول إلى نقيضها ..

والقضية ليست قضية آيات قدر ما هى طبائع الأمور. فطبيعة النبى لابد وأن تختلف عن طبيعة الملك. ولقد كان الملك شُبه لدى الصحابة، ونددوا بمعاوية عندما أخلف أبنه يزيد لأنه جعلها كسروية وقيصرية.. وقال معاوية نفسه "تعيرونى بالملك فقد قبلته.. والنبى أسمى بمراحل عن الملك وهل يعقل أن يتحدث القرآن الكريم عن نبى بمثل ما تحدث عن الملوك ؟ فشتان ما بين من يهدى النفوس ويخرجها من الظلمات إلى النور وبين الذين يفسدون فى الأرض ويجعلون أعزة الناس أذلة، ويخرجونهم من نور الحرية إلى ظلمات السجون .

وكيف يمكن أن يقارن الرسول الذى كانت الأيام تمر دون أن يوقد فى بيته نار، وما شبع من خبز الشعير يومين متتابعين وكان فراشه وساده من أدم حشوها الليف.. بالملوك الذين لا تهدأ مطابخهم ليل نهار وتمتلأ بكل ما يصل إليه فنون الطهى من لحوم وحلوى وشراب..؟ لقد كانت حياة

العرب بسيطة وكان هو أشدهم بساطة وقد رأى بعين النبوة عهد الثراء الذى سيأتى "وتصور عهداً " إذا غداً أحدكم فى حله وراح فى حله ووضعت بين يديه صحفه ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ..

* * *

هذا هو موقف القرآن الكريم، فما هو موقف السنة ؟

لقد رأينا إن الرسول يتفق مع القرآن تماماً فى رفضه الملك، والحكم والسلطة، ولعلنا نذكر أنه رفض كل ما عرضه عليه كبار قريش وثراتها من مال أو جاه أو ملك، وأنه فى حياته فى المدينة، وقد كان سيدها المطاع والمحبوب لم يتكلف شيئاً، وعاش كما كان دائماً، متقشفاً – متواضعاً .

ويتفق ما جاء عن الرسول مع ما جاء فى القرآن الكريم، ففى كثير من أحاديثه ندد بالحكم، والولاية فقال "ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل أو بوبقه الجور" وتحدث عن الولاية "أولها ملامة وأوسطها ندامة وأخرها خزى يوم القيامة" "أنها أمانة وخزى وندامة يوم القيامة إلا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها" "نعمت المرضعة، وبئست الفاطمة" وقال "ليس من والى أمه

قلت أو كثرت لا يعدل فيها إلا كبه ا تبارك وتعالى فى النار، وقال لا يسترعى ا تبارك وتعالى عبداً رعية فيموت يوم يموت وهو لها غاش إلا حرم ا عليه الجنة. وقال "يا عبد الرحمن (ابن سمرة) لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها" وقال "ويل للأمراء، ويل للعرفاء ويل للأمناء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شئ.. وقال "تجدونه من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الشأن حتى يقع فيه" وقال "شر الرعاة الحطمة" ووضع مبدءاً عاماً بالنسبة للطاعة "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق"، ومبدءاً بالنسبة للولاية "لا يولى من يطلبها"، وتبرأ من يدخلون على الأمراء فيصدقون كذبتهم ويعينونهم على ظلمهم ..

حقا هناك أحاديث تحض على الالتزام بالبيعة وتندد بالذين يرفضونها، وهناك أحاديث تحذر من النكث بها.. وهذه لا تخالف تلك (أى الأحاديث التى تعزف عن الولاية) ولكنها تصور الطبيعة المعقدة للمجتمع، التى تتطلب نوعاً من التنظيم. وفى الوقت نفسه فإنها تحذر من أن يتورط الدعاة

فى هذا التنظيم. لأن هذا التنظيم الذى ينتهى – عند درجة معينة – إلى السلطة – لابد وأن يفسد الدعاة ...

* * *

من هذه الآيات العديدة نلمس عزوف القرآن الكريم عن فكرة الحكم، والملك، والسلطة، وتأكيده أن الرسول ليس إلا مبلغاً ومبشراً ونذيراً وليس له من مهمة، أو سلطة، إلا "البلاغ" وإن القرآن الكريم لم يستخدم تعبير "دولة" ولكن "أمة" ولم يستخدم تعبير حاكم أو ملك ولكن إمام وجعل الحكم أشبه بالقضاء، وأن الرسول نفسه لم يدع لنفسه ملكا – ولم يسير سيرة ملك أو حاكم، وأنه عندما خير أختار أن يكون عبداً نبياً، وليس ملكاً ..

- ٣ -

دولة المدينة أيام الرسول

رغم كل ما أوردناه فى الفصل السابق من آيات قرآنية تحصر دور الرسول فى البلاغ وتجرده من إى سلطة، ورغم الأحاديث النبوية التى تندد بالحكم والولاة، فهناك واقعة تاريخية ثابتة هى أن الرسول مارس فى السنوات العشر له فى المدينة كثيراً من سلطات الحكم، وأقام نموذجاً فريداً لدولة تفوق ما قدمته أثينا فى القديم، وما حاولته النظم السياسية حتى الآن ...

ونحن لا نجادل فى هذه الواقعة، ولكننا نقول باختصار. إن دولة المدينة "وإن كنا نتحفظ على تعبير "دولة المدينة " ونضعه بين قوسين، وإن توفر لها بعض مقومات الدولة، فإن البعض الآخر لم يتوفر لها، وأن الرسول ﷺ فى قيامه بمهام الحكم فإنه كان يقوم بها – لا كحاكم – بل كرسول. فضلاً عن أن كافة الملابسات التى تكتنفها تجعلها

تجربة فريدة لا تتكرر، ولا يمكن القياس عليها، وأقصى ما يمكن أن تقدمه هى أن تكون مصدراً لاستلهام القيم التى قامت عليها والتقاليد التى وضعتها ..

إن خصوصية دولة المدينة تضم جانبين الأول الملابسات التى ظهرت فيها هذه "الدولة". والثانى طبيعة المنشئ والمؤسس لهذه الدولة .

أولا: الملابسات التى أدت إلى ظهور دولة المدينة :

لنبدأ من البداية ...

استجاب لدعوة الرسول فريق من الأوس والخزرج كانوا يزورون مكة موسم الحج وطلبوا أن يرسل معهم إلى المدينة من "يعلمهم القرآن" فأرسل معهم مصعب بن عمير الذى تولى الدعوة للإسلام وتلاوة القرآن الكريم : حتى جاء فى الموسم الثانى وفد كبير (٧٣ رجلاً وامرأتان) أسلموا وبايعوا الرسول على حمايته، كما يحمون نساءهم ..

وتطورت الأحداث. فقد ترامى إلى سمع قريش إسلام الأنصار وانتشار الدين الجديد، وكانوا قد يأسوا من استماله

الرسول.. فبدأوا فى رسم الخطط لاغتياله بطريقه لا تجعل له سبيلاً للثأر. وتوصلوا إلى ذلك عندما أوكلوا عملية الاغتيال لعدد من شباب قبائل قريش حتى "يضيع دمه بين القبائل" ..

وتعين على الرسول أن يهاجر إلى المدينة ...

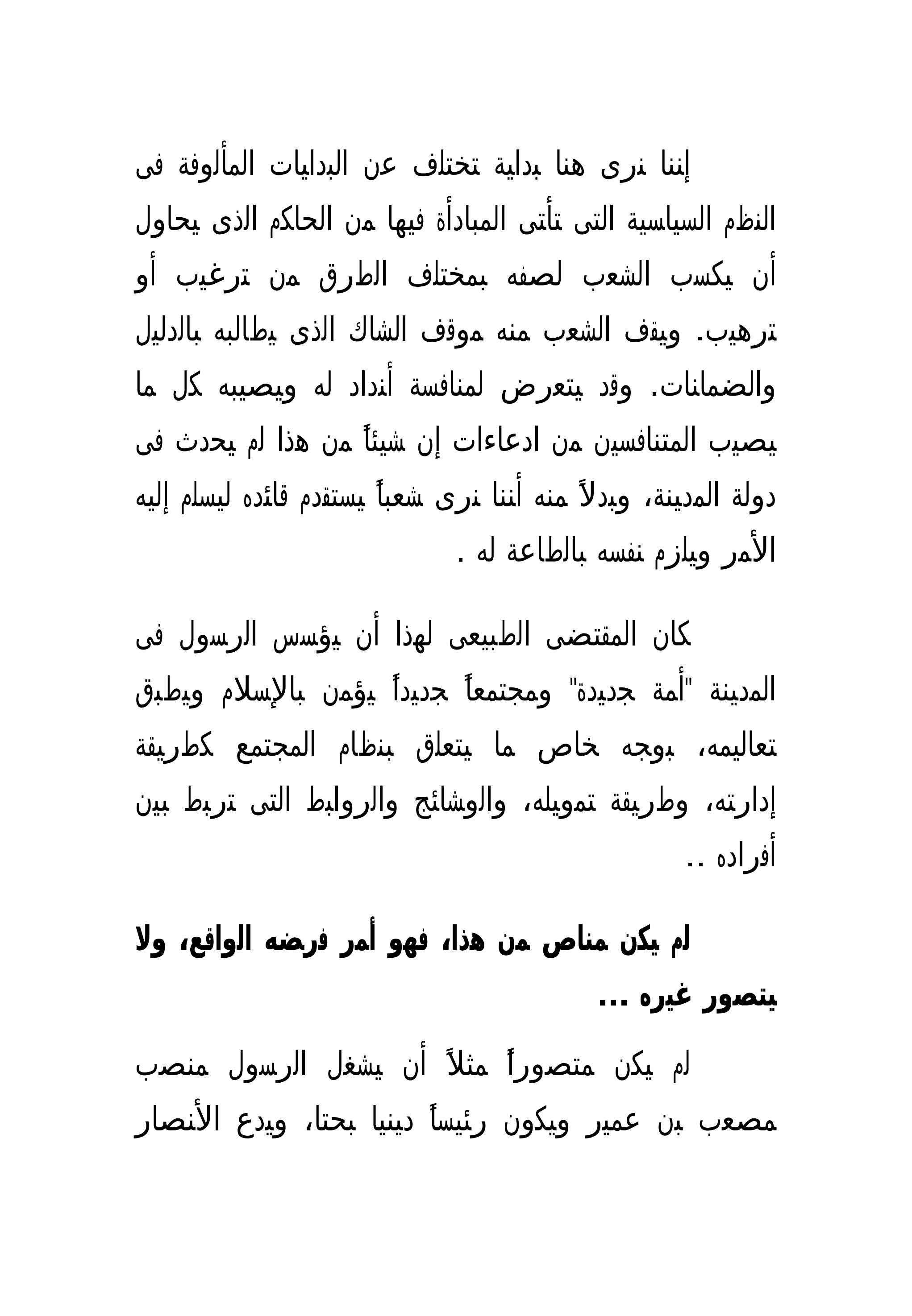
وهاجر الرسول ﷺ فى الوقت المناسب تماماً بعد أن حبكت قريش مؤامرتها، بحيث أنه لو تأخر لتحقق ما رسموه..

هاجر النبى ومعه أبو بكر، بينما كان المؤمنون فى المدينة ينتظرون مقدمه ثلاثة أيام، فلما وصل استقبلوه بالنشيد المعروف ...

طلع البـدر.. علينا　　　من ثنيات الـوداع

أيها المبعوث فينـا
جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة
مرحباً يا خير داع .



إننا نرى هنا بداية تختلف عن البدايات المألوفة فى النظم السياسية التى تأتى المبادأة فيها من الحاكم الذى يحاول أن يكسب الشعب لصفه بمختلف الطرق من ترغيب أو ترهيب. ويقف الشعب منه موقف الشاك الذى يطالبه بالدليل والضمانات. وقد يتعرض لمنافسة أنداد له ويصيبه كل ما يصيب المتنافسين من ادعاءات إن شيئاً من هذا لم يحدث فى دولة المدينة، وبدلاً منه أننا نرى شعباً يستقدم قائده ليسلم إليه الأمر ويلزم نفسه بالطاعة له .

كان المقتضى الطبيعى لهذا أن يؤسس الرسول فى المدينة "أمة جديدة" ومجتمعاً جديداً يؤمن بالإسلام ويطبق تعاليمه، بوجه خاص ما يتعلق بنظام المجتمع كطريقة إدارته، وطريقة تمويله، والوشائج والروابط التى تربط بين أفراده ..

لم يكن مناص من هذا، فهو أمر فرضه الواقع، ولا يتصور غيره ...

لم يكن متصوراً مثلاً أن يشغل الرسول منصب مصعب بن عمير ويكون رئيساً دينيا بحتا، ويدع الأنصار

من خزرج وأوس ويهود على ما كانوا عليه. لأن هذا كان يمثل ازدواجية فى السلطة ما بين الرئيس الدينى والرئيس القبلى.. ولم يكن الأنصار أنفسهم يقبلونه لأنهم أسلموا نفوسهم وللرسول الذى جاء "بالأمر المطاع" .

كان لابد من إقامة "أمة" متميزة فى المدينة ومجتمعاً إسلاميا يطبق شعائر الإسلام التى كان منها الزكاة، وكان أيضا من الضرورى حماية هذه الأمة الناشئة من ملاحقات قريش ..

فلننظر ماذا فعل الرسول ﷺ بالترتيب بمجرد نزوله المدينة ..

أنه **أولا:** بنى المسجد، وأشترك فى بنائه مع الصحابة من مهاجرين وأنصار فرمز بذلك إلى الطابع الإيمانى لهذه الأمة.. الذى يجعل من المسجد المنتدى العام الذى يأوى إليه المؤمنون ليس فحسب لأداء الصلوات، ولكن للمشاركة فى القضايا العامة ..

ثم **ثانيا:** قام بعملية تآخى ما بين المهاجرين والأنصار بحيث يكون لكل مهاجر أخ أنصارى وبالتالى

ينصهر الجميع فى أخوة الإيمان وتتقاص التفرقة والتمييز بينهم كمهاجرين وأنصار ..

ويعرض ابن هشام لهذه العملية.. "تآخوا فى ا أخوين أخوين، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال: هذا أخى فكان رسول ا ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلى بن أبى طالب رضى ا عنه أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد ا وأسد رسوله ﷺ وزيد بن حارثة، مولى رسول ا ﷺ أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين الطيار فى الجنة، ومعاذ بن جبل أخو بنى سلمة، أخوين" .

قال ابن هشام :

وكان جعفر بن أبى طالب يومئذ غائباً بأرض الحبشة.

قال ابن إسحاق :

وكان أبو بكر الصديق رضى ا عنه، بن أبى ُقحافة، وخارجة بن زهير، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين، وعمر بن الخطاب رضى ا عنه، وعتبان بن مالك، أخو بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين. وأبو عبيدة بن عبد ا بن الجراح، واسمه عامر بن عبد ا ، وسعد بن معاذ ابن النعمان أخو بنى عبد الأشهل، أخوين وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن الربيع، أخو بلحارث بن الخزرج، أخوين، والزبير بن العوام، وسلمة ابن سلامة بن وقش، أخو بنى عبد الأشهل، أخوين ويقال: بل الزبير وعبد ا بن مسعود، حليف بنى زهرة، أخوين، وعثمان بن عفان، وأوس ابن ثابت بن المنذر، أخو بنى النجار، أخوين، وطلحة بن عبيد ا ، وكعب ابن مالك، أخو بنى سلمة، أخوين، وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبى ابن كعب، أخو بنى النجار أخوين، ومصعب بن عمير بن هاشم، وأبو أيوب خالد بن زيد، أخو بنى النجار، أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر بن وقش، أخو بنى عبد الأشهل، أخوين، وعمار بن ياسر، حليف بنى مخزوم، وحذيفة بن

اليمان، أخو بنى عبد عبس، حليف بنى عبد الأشهل، أخوين، ويقال ثابت بن قيس بن الشماس، أخو بلحارث ابن الخزرج، خطيب رسول ا ﷺ وعمار بن ياسر، أخوين وأبو ذر، وهو برير بن جنادة الغفارى، والمنذر بن عمرو المعنق ليموت، أخو بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج، أخوين .

قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من العلماء يقول: أبو ذر: جندب ابن جنادة .

قال ابن إسحاق :

وكان حاطب بن أبى بلتعة، حليف بنى أسد، بن عبد العزى، وعويم بن ساعدة، أخو بنى عمرو بن عوف، أخوين، وسلمان الفارسى، وأبو الدرداء، عويمر بن عامر، ويقال عويمر بن زيد ..." انتهى الاستشهاد من ابن اسحق .

ثم ثانياً قام بوضع وثيقة هامة هى التى تطلق عليها بعض المراجع القديمة "صحيفة الموادعة" وما أطلقت عليها المراجع الحديثة دستور المدينة ..

وتبدأ الوثيقة ..

هذا كتاب محمد النبى رسول ا   بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم ..

" أنهم أمة واحدة من دون الناس " ..

وتسرد الوثيقة بعد ذلك أسماء فصائل الأنصار "بنو عوف، وبنو الحارث، وبنو ساعدة، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس.. ويذكر أمام كل فصيل من هذه الفصائل أنهم يتعاقلون [(١)] بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين

ثم هناك عده مواد تقضى على المؤمنين بأن لا يتركوا محتاجاً دون سد حاجته، وأن تكون أيديهم على كل باغ "ولو كان ولد أحدهم" وأن ذمة ا   واحدة ويجبر عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ثم تعرض لليهود فيقول :

---

(١) إى يواصلوا ممارساتهم الخاصة بالديانات، والإضافة الإسـلامية هى " بالمعروف والقسط بين المؤمنين " .

وإن من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

ثم تسرد الوثيقة أسماء كل اليهود والحلفاء لفصائل الأنصار وتعطيهم مثل ما ليهود بنى عوف .

وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الآثم .

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وتحيل الصحيفة التحاكم فيما إذا وقع حدث أو اشتجار يخاف فساده إلى ا ، وإلى محمد رسول ا .

هذا ملخص موجز لنص هذه الوثيقة الهامة التى تثير العجب لأكثر من داع .

١. هناك أولا الحرص على جعلها مكتوبة، مع أن العرب كانوا كما قال الرسول "أمة أمية" وأن المسلمين ما كانوا يكتبون إلا القرآن فالحـرص على كتابتها إشارة إلى كونها "دستور" لكل الذين يسكنون المدينة ...

٢. وإن صيغتها المحدودة تشبه صيغة القوانين والمعاهدات التى يلحظ فيها الدقة والوضوح وأنها تضع منذ ألف وأربعمائة سنة مبدأ الأمة الواحدة المختلفة الأديان والمختلفة الأعراق وتحتفظ لكل مجموعة بخصائصها داخل إطار الأمة، وتعطى كل فرد حق "المواطنة".

وهذا شئ لم تحققه معظم دول العالم حتى اليوم ..

٣. إبراز مضمون التكافل، سواء كان فى التعامل أو سد حاجة المحتاج "بالمعروف والقسط" وبروز "البر دون الآثم" ..

وأخيراً، فإن طبيعة هذه الوثيقة وروحها تمت إلى "الأمة" التى كررتها أكثر من مرة – قدر ما تبعد من الدولة.

لأن طابعها الإنسانى يهدم السدود بين الأجناس أو التجزءات والمحرمات التى تفرضها الدولة على غير مواطنيها .

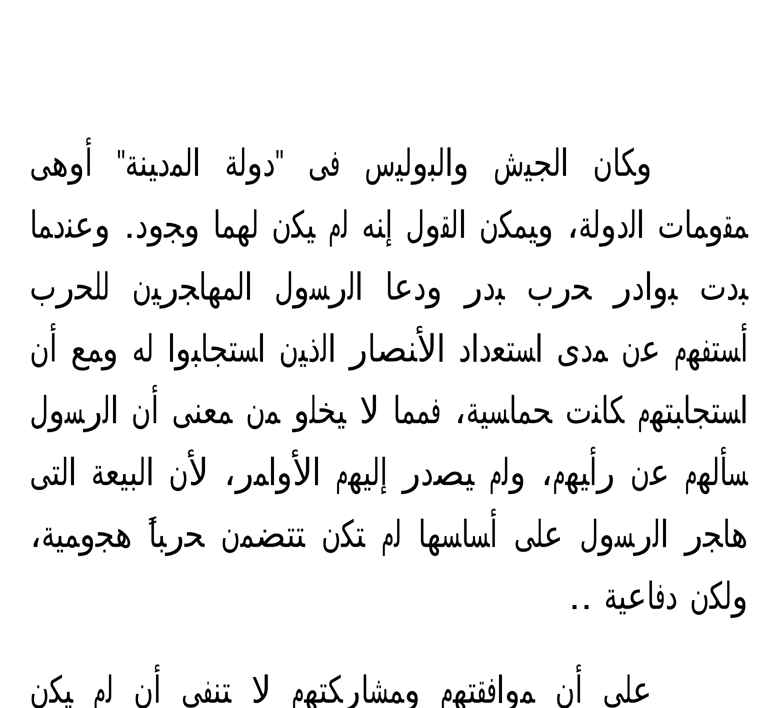
وهكذا فإن الرسول عنى بإقامة المسجد وآخى بين المهاجرين والأنصار ثم وضع دستور الأمة.. ولم يفعل كما يفعل كل من يلى الحكم فيستأثر بقيادة الجيش ويقصى أعداءه عن مراكز النفوذ الخ.. ويتولى السيطرة على أجهزة الأمن الخ... إن شيئاً من هذا لم يخطر ببال الرسول ﷺ لأنه كان مستبعداً بحكم القيم الإيمانية.. وبحكم الواقع الساذج الذى كان يجعل "المجتمع" قبيلة، وبالأكثر أمة ولكن دون أن يصل بها إلى "الدولة" وأجهزتها وسلطانها ..

وما من مثل يوضح خصوصية العلاقات التى ربطت بين عناصر هذه الأمة التى تقوم على إيمان عميق كالذى فعله أحد الأنصار عندما عرض على أخيه المهاجر ليس فحسب شطر أرضه وماله، بل أن يتنازل عن إحدى زوجتيه ليتزوج بها المهاجر، الذى بدوره شكر أخاه الأنصارى وقال له "دلنى على السوق" واستطاع بعمله أن يستغنى عن كل ما عرضه الأنصارى عليه. فهذه الروح الواحدة بين الاثنين

كانت فى أنسجة البناء العظيم الذى أقامة الرسول فى المدينة والذى أسقط كل المحددات والمقومات باستثناء الإيمان والعمل الصالح .

* * *

وقد يكون أهم من هذا أن **أبرز ما يميز الدولة هى "الحكومة" وأبرز ما فى الحكومة هى السلطة. وما عدا هذين يغلب أن يكون مشتركا ما بين الدولة.. والمجتمع.** كالمعيشة على أرض واحدة أو التحدث بلغة واحدة.. أو توفر مصلحة واحدة الخ.. فهذا كله يمكن أن يوجد فى مجتمع دون أن يكون "دولة" وإنما تكون الدولة فعلاً عندماً تظهر الحكومة، ولا معنى للحكومة إلا عندما تتوفر لها السلطة التى تتمثل فى الجيش المحترف الذى يفرض الطاعة له فى الداخل ويحميه من العدوان عليه من الخارج والسجون التى يحبس فيها المخالفون والعقوبات التى توقع على الذين يقترفون الجرائم وبقدر بروز الحكومة وسلطتها بقدر بروز معنى "الدولة" .



وكان الجيش والبوليس فى "دولة المدينة" أوهى مقومات الدولة، ويمكن القول إنه لم يكن لهما وجود. وعندما بدت بوادر حرب بدر ودعا الرسول المهاجرين للحرب أستفهم عن مدى استعداد الأنصار الذين استجابوا له ومع أن استجابتهم كانت حماسية، فمما لا يخلو من معنى أن الرسول سألهم عن رأيهم، ولم يصدر إليهم الأوامر، لأن البيعة التى هاجر الرسول على أساسها لم تكن تتضمن حرباً هجومية، ولكن دفاعية ..

على أن موافقتهم ومشاركتهم لا تنفى أن لم يكن هناك جيش محترف، ولكنها القبيلة التى يشترك رجالها فى القتال عندما تتطلب الظروف ذلك سواء كان دفاعاً عن حوزتها أو كان طلبا للمغنم. وكانت تحارب بطريقتها الخاصة من كر وفر دون أن يكون لها نظام وتقسيم من جنود وضباط وألقاب عسكرية إلى آخر هذا التقسيم الفنى الذى وصل إلى أوجه فى الجيش الرومانى حيث نجد الجيش المحترف والحرس اليريتورى .

ولم يكن فى دولة المدينة سجن، وعندما أسر المسلمون ثمامه بن أثال من بنى حنيفه ربطوه فى سارية المسجد، حتى أطلقه الرسول وحلت "المقاطعة" محل السجون. كما فى حالة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وأمر الرسول بمقاطعتهم. فكانوا فى سجن "هذه المقاطعة" التى عزلتهم عن أقرب الناس إليهم، كما تعزل السجون نزلاءها .

وأدى عدم وجود الجيش المحترف، أو السجن والأغلال التى تبلور معنى السلطة وإرهابها ما بين بريق السيوف وظلام السجون وسنرى أيضاً – فيما يتعلق بشخص المنشئ لهذه الدولة – أى الرسول – ما يتفق فى شخصه مع المعنى الذى يبعد عن الرهبة والسلطة قدر ما يرتكز على الإيمان الطوعى .

حقاً إن الرسول ﷺ خاصة فى المرحلة الأخيرة، وبعد أن حصل على الاستجابة المبدئية من الأنصار فى معركة بدر كان يتصرف تصرف قادة الجيوش، وأظهر حنكة سياسية نادرة واستخدم الضغوط والاستئلاف آونة أخرى

بحيث دانت له العرف ولكن الجيش الذى استخدموه كان هو الجيش البدائى القبلى الذى يجتمع عندما يحدث قتال ويتفرق بعده.. ثم طاعة الرسول لم تكن مفروضة عليهم، ولكنها كانت قبولا طوعياً لإيمانهم بأنه "رسول ا " الذى اصطفاه ا ، وأرسله، وأيده، فكيف يتصور مخالفته ...

ومن الخصائص التى تميز الدولة فرض ضرائب وتحصيلها بالقوة.. ولم يأخذ هذا الحق فى المدينة صورة الضرائب المألوفة. وإنما تمثل فى الزكاة التى "تؤخذ من غنيهم لترد على فقيرهم" كما لم تكن هذه الضريبة تودع فى الميزانية العامة للدولة "التى لم تظهر حتى خلافة عمر فى شكل "بيت المال" وإنما كانت توزع على المحتاجين والفقراء فى المجموعة التى أخذت منهم ومع أن الزكاة حق مفروض لمستحقيها وليست منة أو إحسانا ولهذا كان من حق – أو من واجب – الدولة تحصيلها، فإن هذا ما كان يتم غصبا، وإنما برضا وقبول من تؤخذ منهم، ووجه الرسول عماله لأن لا يأخذوا "كرائم أموالهم" وعندما ما لم يتبين أحد العرب حكمتها فقال "ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أخت الجزية" وأرجأ تسليم زكاته، ثم فطن إلى خطئه فجاء بها، فإن الرواية تقول إن

الرسول رفض أخذها حتى توفى.. فلما جاء بها لأبى بكر رفض أخذها حتى توفى أبو بكر وجاء بها إلى عمر الذى رفض أخذها ومات الرجل فى خلافة عمر. وإن كان قد روى عن الرسول ﷺ ما يختلف عن هذا فى إجبار من يرفض، بل وأخذ ضعف ما يكون عليه. كما أن أبا بكر شن حربه للرفض الجماعى من بعض قبائل العرب لدفع الزكاة ويحتمل أن يوجد فرق ضئيل بين أن تكون حالة فردية وتمرد جماعى .

ثانيا: طبيعة منْشئ – دولة المدينة – الرسول وما يميزه عن الحاكـــم / الملـك ...

إذا انتقلنا من الملابسات التى أدت إلى ظهور دولة المدينة بالصورة التى أخذتها بالفعل، والتى وإن شابهت الدولة فى بعض الوظائف، فإن طريقة ممارستها تختلف كثيراً عن مألوف ممارسات الدول لها، نقول إذا انتقلنا من هذا الجانب إلى الجانب الآخر الذى أعطى "دولة" المدينة طابعها الخاص. إلا وهو الصفة المميزة لمنشئ دولة المدينة وقطب الرحى فيها وهو الرسول، فإننا سنجد ما يتفق مع الطابع العام للملابسات التى أحاطت بتكوين هذه الدولة التى أعطتها طابعها الخاص ..

فلم يدخل الرسول المدينة دخول فاتح غاز، ولم يرث الملك كابراً عن كابر.. ولكنه دخلها من باب النبوة وأكتسب طاعة أهلها بحكم الإيمان الطوعى ولم يكن فى هذا، ما يتطلب سطوة، أو رهبة، أو سلطة، وما كان يتفق معه أن يكون للرسول زى الملوك وسمتهم وأن يقف على رأسه الحراس وعلى بابه الحجاب فهذا كله يخالف طبيعة الرسل والأنبياء وأن كان يعد من بروتوكول الدولة ومراسيمها، وكانت طبيعة الرسول تستبعد كل هذا بل وتناقضها بحيث أمر الرسول أن لا يطروه كما أطرت النصارى عيسى بن

مريم، وأوصاهم أن يقولوا عنه "عبد ا ورسوله" وكره المداحين وقال "إذا لاقيتم المداحين فأحثوا فى وجوههم التراب" وأعلن أن ا تعالى يكره من يحب أن يتمثل له الرجال وقوفاً، وقال حسب المرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع، وعندما تملكت الرهبة فى مجلسة امرأة خفـض روعها وقال لها "هونى عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ...

لم يكن له قصر أو بيت، ولم يكن له حرس، وكان قصر الرسول حجرات فى المسجد لم يكن لها أبواب، وكان بعض الأعراب يتطفلون عليها حتى نزلت آية الحجاب حاميه له ولزوجاته من هذا التطفل .

وهم يقولون أن الرسول مارس – كأى حاكم – سلطة تطبيق للقانون وتنفيذ العقوبات ..

وقد كان من الممكن أن نقول إن من يقوم بذلك لا يقال له حاكم، ولكن قاض ..

ولكننا لا نزج بهذا الدفع رغم وجاهته، لأن الطريقة التى مارس بها الرسول هذه الوظيفة تختلف جذريا عن الطريقة التى يمارس بها الحكام العاديون هذه الوظائف .

إن الرسول لم يكن ليطبق الحد إلا بعد أن يحاول درأ الحد بكل الطرق التى تصل إلى حد تلقين المتهم الإنكار فأين هذه الطريقة من الطريق المقررة عندما تنصب الشباك للمتهم وتستخدم وسائل التجسس عليه حتى يضبط "متلبساً بالجريمة".

من هنا فإن المهم ليس ممارسة الرسول لبعض الوظائف التى يمارسها الحكام، ولكن طريقة الممارسة التى تختلف مخالفة جذرية عن الطريقة التى تمارسها الدول .

* * *

وهناك شئ أهم من هذا كله ..

ذلك أن هذا المؤسس للدولة كان يتلقى توجيهات وحى ليست فحسب يرسم له الطريق، ولكن أيضا تؤدبه وتلازمه الجادة، وتحول بينه وبين الاستسلام للضعف البشرى. وهذه التوجيهات ليست "سرية" أو لا يعلم بها إلا الرسول، ولكنها علنية، لأنها آيات من القرآن يتلوها جمهور المسلمين ليل نهار، وهذا شئ لا يمكن أن يحدث بالنسبة لملك وهو ما يجعل رأس هذه "الدولة" نمطا فريداً بين الرؤساء والملوك، ولعلها المقصودة بما يروى عن النبى ﷺ "أدبنى ربى فأحسن تأديبى" ..

وأى "ملك" تصدر إليه الأوامر "بأن يخفض جناحه للمؤمنين .."

- ﴿لا تَمدن عينَيك إِلَى ما متعنَا بِهِ أَزواجا مِنْهم ولا تَحزن علَيهم واخْفِض جنَاحك لِلْمؤْمِنِين﴾ {٨٨ الحجر} .

- ﴿واخْفِض جنَاحك لِمن اتبعك مِن الْمؤْمِنِين﴾ {٢١٥ الشعراء} .

لقد استخدم القرآن الكريم تعبير "خفض الجناح" ليصف مسلك الأبناء نحو الأباء. فإن يستخدم التعبير نفسه ليصف مسلك الرسول نحو أتباعه، فإنه فى هذا يحدد العلاقة بين حاكم ومحكوم بما لم تصل إليه أى ديمقراطية ...

واقـرأ أيضا ...

- ﴿ما كَان لِنَبِي أَن يكُون لَه أَسرى حتى يثْخِن فِي الأَرضِ تُرِيدون عرض الدنْيا والله يرِيد الآخِرةَ والله عزِيز حكِيم. لَولا كِتَاب مِن اللهِ سبقَ لَمسكُم فِيما أَخَذْتُم عذَاب عظِيم﴾. {٦٧ – ٦٨ الأنفال} .

- ﴿واصبِر نَفْسك مع الَذِين يدعون ربهم بِالْغَداةِ والْعشِي يرِيدون وجهه ولا تَعد عينَاك عنْهم تُرِيد زِينَةَ الْحياةِ الدنْيا

ولا تُطِع من أَغْفَلْنَا قَلْبه عن ذِكْرِنَا واتبع هواه وكَان أمره فُرطًا﴾ {الكهف ٢٨} .

- ﴿عفَا الله عنْك لِم أَذِنتَ لَهم حتى يتَبين لَك الذِين صدقُوا وتَعلَم الْكَاذِبِين﴾ {٤٣التوبة} ..
- ﴿استَغْفِر لَهم أَو لا تَستَغْفِر لَهم إِن تَستَغْفِر لَهم سبعِين مرةً فَلَن يغْفِر الله لَهم ذَلِك بِأَنهم كَفَروا بِاللهِ ورسولِهِ والله لا يهدِي الْقَوم الْفَاسِقِين﴾. {٨٠ التوبة} ..
- ﴿عبس وتَولى. أَن جاءه الأعمى. وما يدرِيك لَعله يزكى. أَو يذكر فَتَنْفَعه الذكْرى. أَما من استَغْنَى. فَأَنْتَ لَه تَصدى. وما علَيك أَلا يزكى. وأَما من جاءك يسعى. وهو يخْشَى. فَأَنْتَ عنْه تَلَهى﴾ {١ – ١٠ عبس}
- ﴿ولَو شَاء ربك لَآمن من فِي الأَرضِ كُلهم جمِيعا أَفَأَنْتَ تُكْرِه الناس حتى يكُونُوا مؤْمِنِين﴾ {٩٩ يونس} ..
- ﴿وإِن كَان كَبر علَيك إِعراضهم فَإِن استَطَعتَ أَن تَبتَغِي نَفَقًا فِي الأَرضِ أَو سلما فِي السماءِ فَتَأْتِيهم بِآيةٍ ولَو شَاء الله لَجمعهم علَى الْهدى فَلَا تَكُونَن مِن الْجاهِلِين﴾ {٣٥ الأنعام} ..

وحتى فى سلوكه مع زوجاته ..

- ﴿يا أيها النبي لِم تُحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجِك والله غفُور رحِيم﴾ {١ التحريم} ..

وأنظر إلى هذا الملام، أو قل الوعيد ...

- ﴿وإن كادوا ليفْتِنُونك عن الذِي أوحينا إليك لِتفْتري علينا غيره وإذًا لاتخذُوك خلِيلا. ولولا أن ثبتْناك لقد كِدت تركن إليهم شيئًا قلِيلا. إذًا لأذقْناك ضِعف الْحياةِ وضِعف الْمماتِ ثُم لا تجِد لك علينا نصِير﴾. {٧٣ – ٧٥ الإسراء} .

لا يتصور فى نظم الحكم أن تصدر إلى الملك توجيهات من مصدر أعلى (وأين هذا المصدر الأعلى من الملك) – بمثل هذه الصراحة والصرامة – تلزم الحاكم أو الملك حدوداً وتوجه إليه الملام على بعض تصرفاته، وتكون هذه التوجيهات علنية يقرأها الشعب ليل نهار ويرددونها فى صلواتهم .

وكان الوحى يصحح للرسول بعض تصرفاته، كما فى حالة أسرى بدر، وفى صلاة على جسد كبير المنافقين بن أبى فلم يكن الرسول جراً حرية مطلقة فى إصدار القرارات والأحكام، كما لم يكن الأمر أمر المسلمين أنفسهم وإن كان الرسول والمسلمون لهاما نصيبهما، ولكن الوحى، ويمكن أن نقول "القرآن" كان دعام النظام الذى قام فى المدينة، وكان

الحكم فيها هو حكم القرآن أو كما يمكن أن نقول حكم القانون.

من ناحية أخرى، فإن القرآن أثنى على الرسول وامتدحه بما لم يمتدح فرداً آخر فقال ﴿وأنك لعلى خلق عظيم﴾ وقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، وقال: ﴿فبما رحمة من ا لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ ..

وأعتبر اصطفاءه وإرساله منة كبرى على المؤمنين ﴿لَقَدَ من الله علَى الْمؤْمِنِين إِذْ بعثَ فِيهم رسولا مِن أَنْفُسِهم يتْلُوا علَيهم آياتِهِ ويزكيهم ويعلمهم الْكِتَاب والْحِكْمةَ وإِن كَانُوا مِن قَبلُ لَفِي ضلالٍ مبِينٍ﴾ {١٦٤ آل عمران}

وأوجب على المؤمنين طاعته والالتزام بشىء من الأدب تجاهه ﴿يا أَيها الذِين آمنُوا لا تَرفَعوا أَصواتَكُم فَوقَ صوتِ النبِي ولا تَجهروا لَه بِالْقَول كَجهرِ بعضِكُم لِبعضٍ أَن تَحبطَ أَعمالُكُم وأَنْتُم لا تَشْعرون﴾ {٢ الحجرات}

وقال ﴿وما كَان لِمؤْمِنٍ ولا مؤْمِنَةٍ إِذَا قَضى الله ورسولُه أَمرا أَن يكُون لَهم الْخِيرةُ مِن أَمرِهِم ومن يعصِ الله ورسولَه فَقَد ضل ضلالا مبِينًا﴾ {٣٦ الأحزاب}

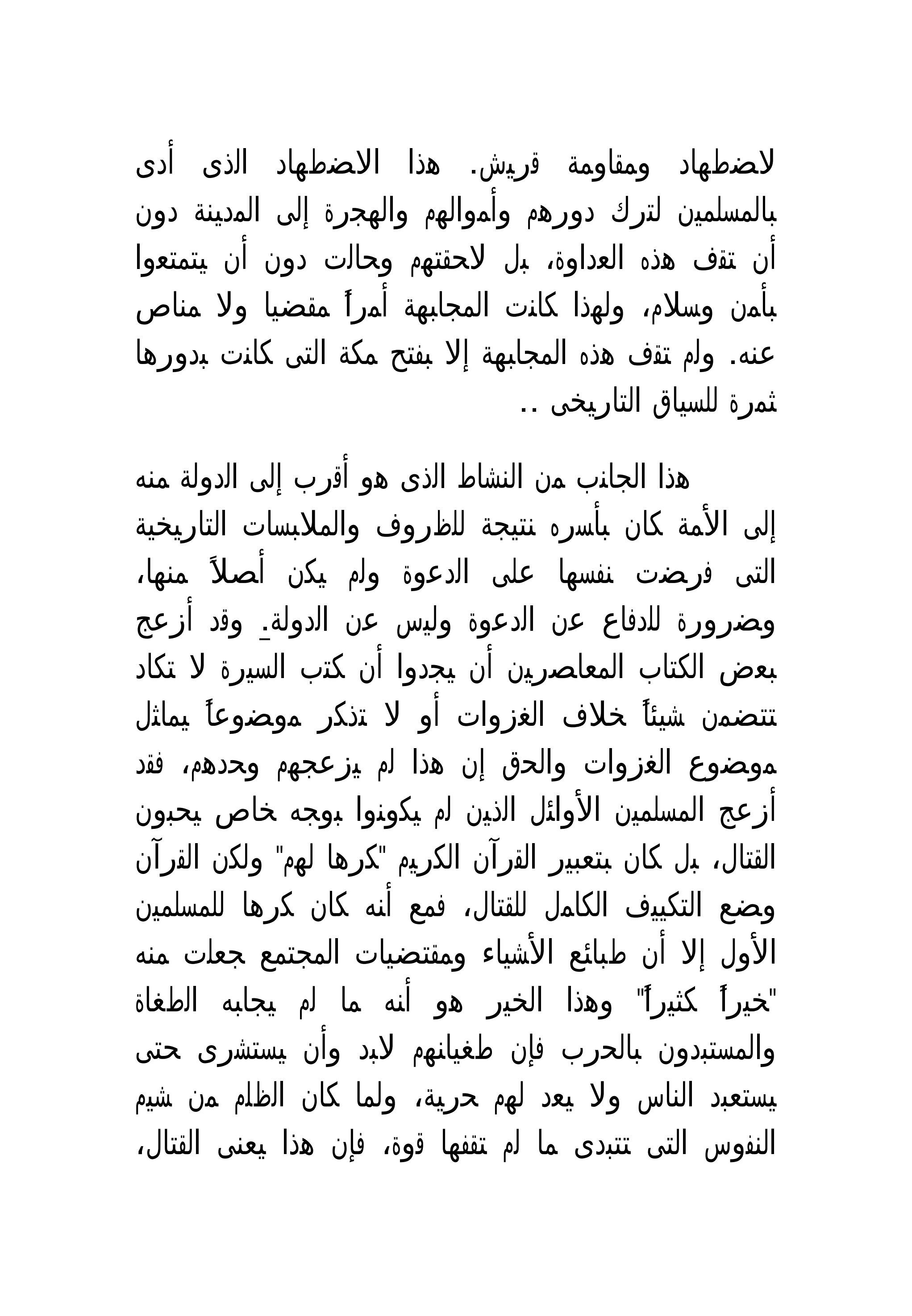
وقال ﴿فَلا وربك لا يؤْمِنُون حتى يحكموك فِيما شَجر بينَهم ثُم لا يجِدوا فِي أَنفُسِهم حرجا مِما قَضيتَ ويسلموا تَسلِيما﴾ {٦٥ النساء}

وهذه الآيات جعلت طاعة الرسول فرضاً دينيا وواجباً على المؤمنين بنص القرآن، بحيث لم يعد شائبة خلاف فى هذه الناحية ..

وهكذا نرى أن وضع الرسول وضع خاص جداً وفريد، ولا يمكن القياس عليه وقد أخطأ بعض الدعاة عندما لم يلحظوا الصفة الاستثنائية للرسول، واستشهدوا بواجبات الطاعة للرسل كمثال لما يجب أن تكون عليه طاعة الأعضاء لقائد الجماعة أو "الخليفة" أو "الإمام" أو "رئيس الجماعة" فهؤلاء جميعا لا يستحقون على جماهيرهم الطاعة التى أستحقها الرسول على المؤمنين باختصاص ا له. وقد كان لهذا المزلق الذى وقعت فيه معظم الدعوات الإسلامية المعاصرة آثار وخيمة على ديمقراطية الأداء فيها .

* * *

هناك جانب لا يجوز إغفاله، ويغلب أن يساء فهمه خاصة من المستشرقين، إلا وهو الغزوات التى شغلت الكثير من اهتمامات الرسول والمسلمين، ولا يمكن فهم هنا الجانب إلا فى ضوء الظروف والملابسات التى حكمت الدعوة نتيجة



لاضطهاد ومقاومة قريش. هذا الاضطهاد الذى أدى بالمسلمين لترك دورهم وأموالهم والهجرة إلى المدينة دون أن تقف هذه العداوة، بل لاحقتهم وحالت دون أن يتمتعوا بأمن وسلام، ولهذا كانت المجابهة أمراً مقضيا ولا مناص عنه. ولم تقف هذه المجابهة إلا بفتح مكة التى كانت بدورها ثمرة للسياق التاريخى ..

هذا الجانب من النشاط الذى هو أقرب إلى الدولة منه إلى الأمة كان بأسره نتيجة للظروف والملابسات التاريخية التى فرضت نفسها على الدعوة ولم يكن أصلاً منها، وضرورة للدفاع عن الدعوة وليس عن الدولة_ وقد أزعج بعض الكتاب المعاصرين أن يجدوا أن كتب السيرة لا تكاد تتضمن شيئاً خلاف الغزوات أو لا تذكر موضوعاً يماثل موضوع الغزوات والحق إن هذا لم يزعجهم وحدهم، فقد أزعج المسلمين الأوائل الذين لم يكونوا بوجه خاص يحبون القتال، بل كان بتعبير القرآن الكريم "كرها لهم" ولكن القرآن وضع التكييف الكامل للقتال، فمع أنه كان كرها للمسلمين الأول إلا أن طبائع الأشياء ومقتضيات المجتمع جعلت منه "خيراً كثيراً" وهذا الخير هو أنه ما لم يجابه الطغاة والمستبدون بالحرب فإن طغيانهم لابد وأن يستشرى حتى يستعبد الناس ولا يعد لهم حرية، ولما كان الظلم من شيم النفوس التى تتبدى ما لم تقفها قوة، فإن هذا يعنى القتال،

والقتال هنا يعنى حماية للحرية وهو ما يعبر عنه القرآن "لكى لا تكون فتنة" أى لكى لا يفتن أناس عن عقيدتهم بالقوة. فالإسلام لم يمجد الحرب للحرب، ولكنه رأى فيها ضرورة، إذا كانت كريهة، فإنها تحمى الحقوق والحريات .

وقد ظهر الإسلام فى قوم كان النهب والسلب والغارة على الآخرين أحد موارد رزقهم فحرمها وحسم شافة ذلك وأحل السلام والأمن بين الناس، كما أنه عندما سمح بالحرب للأسباب التى سبق ذكرها فإنه هبط بسوءاتها إلى أقصى ما يمكن، وتقبل أشد الأعداء – عندما آمنوا – كأخوة متحابين وقضى على العداوة القديمة كأن لم تكن لأن الإسلام يجب ما قبله ولم يكن هذا هو شأن "الثأر" فى الجاهلية أو الدول عادة مع أعدائها .

هذه الجوانب كلها لقضية القتال الإسلامية، لم يكن مناص من مجابهتها، وما كان يمكن هذه المجابهة أن تتم إلا بالسيف، وإلا بمعنوية عالية، فجاءت الآيات القرآنية تستحث المسلمين للدفاع وتثير فيهم الحمية والقوة حتى لا يستسلموا أو يضعفوا. والتقصى الدقيق لكل آيات القتال بدء من السورة التى أذنت بالقتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم قد ظلموا وأن ا على نصرهم لقدير﴾ {٣٩ الحج} حتى سورة التوبة كلها

نصوص دفاعية حتى ما يبدو منها متشدداً للحيلولة دون "الفتنة" أى فتنة المسلمين عن دينهم .

وعندما تفرض الظروف المبررة للحرب من دفاع عن النفس، والمال، والعقيدة على طرف الحرب فلابد من رفع الروح – المعنوية ومن الاستعداد للقتال ومن إحسانه بما يكفل الانتصار، فالحرب جد لا هزل فيه، لأن الهزل يعنى الهزيمة والعار والنهاية، وهى قطعاً أسوأ مما تحدثه الحرب من مآسى ..

ويجب أن يلحظ أن القتال ليس إلا جزءاً من "الجهاد" الأكثر شمولاً وأعم معنى، والذى جاءت بصدده وحثت عليه الآيات، وهو يعطى أعلا معنى للإيجابية والفعالية فى الحياة بحيث لا تكون الحياة سلبية، وبهذا المعنى فإن كل ما جاء عن الجهاد فى الإسلام إنما ينصب فى خانة الحياة ويثريها ..

وفى النهاية نجد أن دولة المدينة رزقت ملابسات فى التأسيس لا تتأتى لغيرها، وانسحبت أثارها عليها بحيث كانت سياقاً تاريخيا جمع بين الرسول وضرورة الحكم وانتهت بموت الرسول، لأنه لا رسول بعده .

وأن رأس هذه "الدولة" الفريدة كان رسولاً يستلهم الوحى الذى يوجهه ويؤدبه ويعاتبه، بقدر ما كان يوجب على المؤمنين طاعته. وهذا بالطبع ما لا يتأتى لأى دولة أخرى .

ومع هذا فلم تكن دولة المدينة دولة بالمعنى السائد الذى نجده فى معظم النظم السياسة، فليس لها جيش محترف ولا سجون مشيدة ولا بوليس ولا تفرض ضرائب. وليس هناك دولة متكاملة المقومات لا توجد فيها هذه .

وهذه الطبيعة الفريدة هى التى أمكن بفضلها الجمع ما بين النصوص التى تندد بالحكم والملك، وبين قيام الرسول بمسئولية الحكم. لأنه لم يكن حاكماً بقدر ما كان قاضياً، وداعيا إلى ا بأذنه ولأن دولة المدينة لم تكن كبقية الدولات

وهذا لا يمنع من أن الرسول خلال تجربته وضع مبادئ وأصول تعد أثمن ما تعتز به دولة. ويمكن أن تكون من أسس نظام الحكم الإسلامى مثل الشورى. ومحاسبة الحكام واستهداف العدل والعفو عن المخالفين والحرص على كرامة الإنسان الخ ...

وكان واجباً على الهيئات الإسلامية أن تضع هذه الاعتبارات ُنصب عينيها عندما تقول إن الإسلام دين ودولة. كان يجب عليها أن تقول إن دولة الإسلام دولة رحمة وعدل

ونور دولة ليس فيها أجهزة قمع من سجون وبوليس ولا لها جيش محترف ولا تفرض ضرائب حتى لا تحدث المهازل التى حدثت باسم الإسلام فى تجارب لإقامة دولة لا تختلف فى شئ عن الدولة الرأسمالية أو الشيوعية. ففيها سجون، وفيها تعذيب، وفيها تكميم الأفواه وضرب المعارضة.. ولا تنفق معظم أموالها لرعاية الشعب ولكن لشراء الأسلحة وبناء السجون.. فأى دولة إسلامية هذه ...

الفصل الثانى

الخلافة الراشدة

برزخ بين رحمة الحكم النبوى

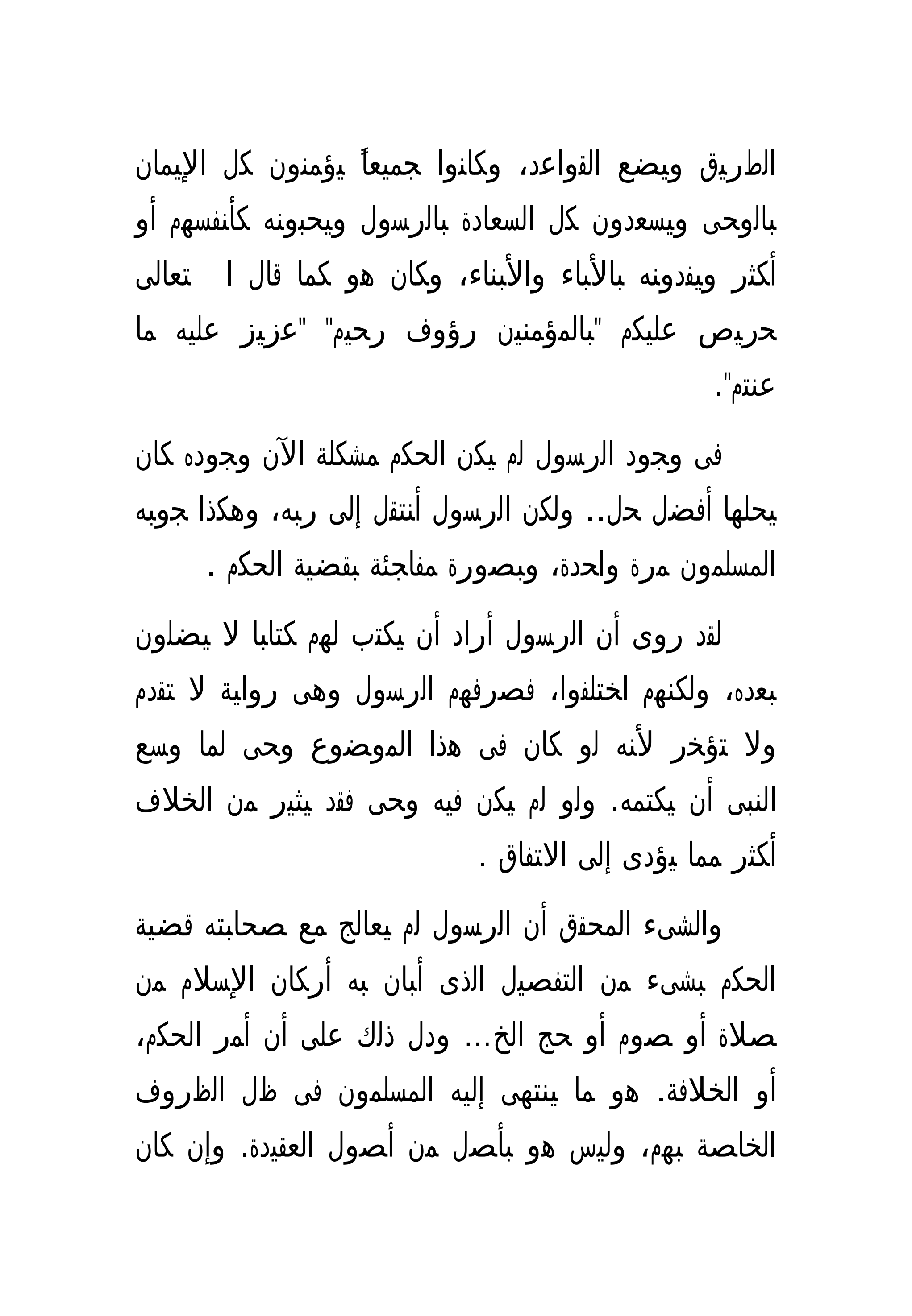
وغشومة الملك العضوض

- ١ -

المسلمون يواجهون المستقبل

وصف أحد الصحابة اللحظة المقبضة التى حرم فيها المسلمون من رؤية الرسول والحديث معه والاستماع إليه عندما صعدت روحه إلى باريها وقارن بينها وبين اللحظة المبهجة عندما دخل المدينة فقال "لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول ا ﷺ المدينة أضاء فيها كل شئ. فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم فيها كل شئ.. وما نفضنا أيدينا من التراب وأنا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا " .

ولم يكن فى هذا مبالغة. فعندما كان الرسول بينهم فإنهم آمنوا العذاب.. ﴿وما كان ا ليعذبهم وأنت فيهم﴾. وآمنوا الضلال لأن الوحى كان يتنزل عليه ويرسم له


الطريق ويضع القواعد، وكانوا جميعاً يؤمنون كل الإيمان بالوحى ويسعدون كل السعادة بالرسول ويحبونه كأنفسهم أو أكثر ويفدونه بالأباء والأبناء، وكان هو كما قال ا تعالى "عزيز عليه ما عنتم" حريص عليكم "بالمؤمنين رؤوف رحيم".

فى وجود الرسول لم يكن الحكم مشكلة الآن وجوده كان يحلها أفضل حل.. ولكن الرسول أنتقل إلى ربه، وهكذا جوبه المسلمون مرة واحدة، وبصورة مفاجئة بقضية الحكم .

لقد روى أن الرسول أراد أن يكتب لهم كتابا لا يضلون بعده، ولكنهم اختلفوا، فصرفهم الرسول وهى رواية لا تقدم ولا تؤخر لأنه لو كان فى هذا الموضوع وحى لما وسع النبى أن يكتمه. ولو لم يكن فيه وحى فقد يثير من الخلاف أكثر مما يؤدى إلى الاتفاق .

والشىء المحقق أن الرسول لم يعالج مع صحابته قضية الحكم بشىء من التفصيل الذى أبان به أركان الإسلام من صلاة أو صوم أو حج الخ... ودل ذلك على أن أمر الحكم، أو الخلافة. هو ما ينتهى إليه المسلمون فى ظل الظروف الخاصة بهم، وليس هو بأصل من أصول العقيدة. وإن كان

من الممكن أن يدخل فى الشريعة التى مناطها العقل وهدفها العدل.. كما انتهى إليه تحقيقنا لها[1] ..

وقيل أن هناك أحاديث تشير إلى "الخلافة" ونحن ننظر إليها بحذر ونعتقد أن معظمها منحول وضع بعد حياة الرسول لخدمة أغراض سياسية. وعندما نقرأ حديثا "عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى" فنحن نقطع بأنه الجزء الأخير منه موضوع وأن آثار الوضع ظاهرة "بالعين المجردة" دون تدقيق وتحقيق لأن طابع التحريض على اتباع "الخلفاء الراشدين المهديين" مما لا يمكن أن يقوله الرسول. فتعبير الخلفاء الراشدين تعبير متخاف عن عهد الرسول. وأقوى أحاديث الرسول عما يتبعه المسلمون هو ما جاء عن القرآن. ويقل عنه شيئاً ما أضيف إلى القرآن من سنة النبى.." أما أن يضيف إلى إطار الالتزام سنة الخلفاء

---

(١) أنظر هذا التحقيق فى كتاب استراتيجية الدعوة الإسلامية فى القرن الواحد والعشرين" ونتيجة له يكون الحكم فـى الإسـلام إحـدى قضايا المجتمع التى تعالج معالجة عقلية موضوعية مع استلهام القـيم الإسلامية .

الراشدين المهديين فهذا ما لا يمكن أن يقوله – حتى وإن زعموا أن الحديث حسن صحيح ..

وما يرويه الشيعة عنه أنه عهد إلى على فإنه لا يثبت حتى لو صدقت الأحاديث التى تعطى علياً فضلاً خاصاً كما فى حديث غدير خم والثقلين وغيرهما. ومن المسلم به أن على كرم ا وجهه كان أثيراً لدى الرسول، وكانت شجاعته ومواهبه محل تسليم من الجميع وحسبه أن الرسول عندما آخى ما بين المهاجرين والأنصار جعله أخاه.. وأنه عندما ولاه المدينة عندما خرج فى إحدى الغزوات وأراد على المشاركة فى الغزوة "قال له "أما ترضى أن تكون منى كما كان هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى" فالفضل الخاص لعلى لم يكن متكورا، ولكنه لا يعطى له حق الخلافة لأن الأحاديث لم تصرح بهذا، ولأن من المبادئ الرئيسية المقررة فى الإسلام أن النسب وحده لا يصلح مبرراً لتوليه المناصب أو تقلد المسئوليات. وهو مبدأ نجده مكرراً فى القرآن وفى حديث الرسول[1] .

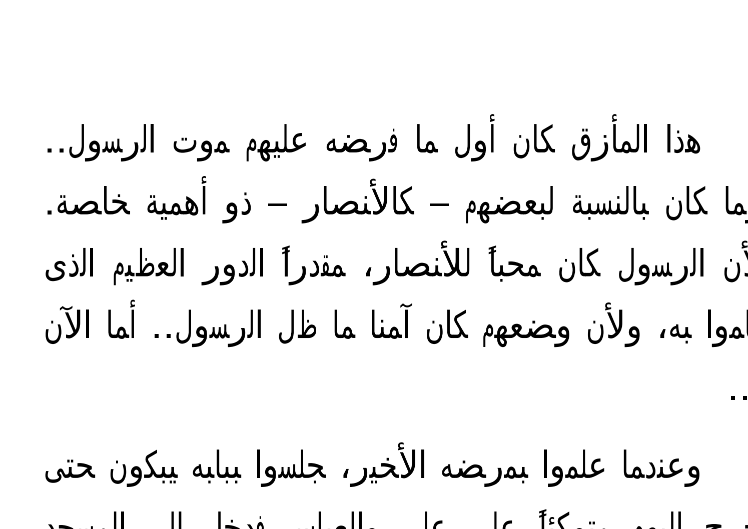
---

(٢) ستعالج تلك النقطة فى أحد الفصول التالية فى الكتاب .

المشكلة ليست فحسب أن الصحابة وجدوا أمامهم مستقبلاً مجهولاً يكون عليهم أن يستكشفوه. المشكلة أن حكم الرسول كان حكماً استثنائيا. فالرسول كان أصلاً رسولاً ونبياً، مهمته الدعوة إلى الإسلام والتعريف به، ووسيلته إلى ذلك هى أساساً الحكمة والموعظة الحسنة. ولكن التطورات فرضت عليه أن يلى الأمر وأن يصبح رأساً لتجربة فى الدولة فريدة[1] ولا تتكرر ولا يمكن لأحد بعده أن يقوم بها كما قام بها .

---

(٣) من هذا نعلم أن الشيخ على عبد الرازق لم يكن دقيقاً عندما قال فى "الإسلام وأصول الحكم" "أن محمدا ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة، وأنه لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها. ما كان إلا رسولاً كإخوانه من الرسل. وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ولا داعيا إلى ملك. أن ظواهر القرآن المجيد تؤيد بأن النبى ﷺ لم يكن له شأن فى الملك السياسى وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان". إذ كان واجباً عليه أن يقول إن هذا وأن كان الأصل. فإن السياق جعله رأساً لدولة، وأن اختلفت عن سائر الدول بحيث تكون كما ذكرنا تجربة فريدة لا تتكرر .



هذا المأزق كان أول ما فرضه عليهم موت الرسول.. وما كان بالنسبة لبعضهم – كالأنصار – ذو أهمية خاصة. لأن الرسول كان محباً للأنصار، مقدراً الدور العظيم الذى قاموا به، ولأن وضعهم كان آمنا ما ظل الرسول.. أما الآن ...

وعندما علموا بمرضه الأخير، جلسوا ببابه يبكون حتى خرج إليهم متوكئاً على على والعباس فدخل إلى المسجد واجتمع الناس وقال إنه لم يمت نبى قط إلا خاف وراءه تركة وأن تركتى فيكم الأنصار.. أوصيكم بتقوى ا والإحسان إليهم فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم فى العسر واليسر ونصروكم فى النشط والمكره فاعرفوا لهم حقهم وأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم" .

والآن وقد لحق الرسول بربه. فلا عجب إذا اجتمعوا ليدرسوا الموقف فى سقيفة بنى ساعده، وهى دار ندوة الأنصار ...

- ٢ -

سقيفة بنى ساعدة
السجال الذى حدد مستقبل
وطبيعة الدولة الإسلامية

اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة التى كانت بمثابة دار الشورى للخزرج كبرى قبائل الأنصار ليتدارسوا الموقف وفى ذهنهم أن يولوا سعد بن عباده – كبير الخزرج الأمر ...

وتروى المصادر قصة هذا الاجتماع فنقول :

أن النبى ﷺ لما قبض اجتمعت الأنصار رضى ا عنهم إلى سعد بن عبادة فقالوا له إن رسول ا ﷺ قد قبض فقال سعد لابنه قيس رضى ا عنهما إنى لا أستطيع أن أسمع الناس كلاماً لمرضى ولكن تلق منى قولى فأسمعهم. فكان سعد يتكلم ويحفظ ابنه رضى ا عنهما قوله فيرفع

صوته لكى يسمع قومه. فكان مما قال رضى ا عنه بعد أن حمد ا تعالى وأثنى عليه: يا معشر الأنصار إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب إن رسول ا ﷺ لبث فى قومه بضع عشر سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان فما آمن إلا القليل وا ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول ا ﷺ ولا يعرفوا دينه ولا يدفعوا عن أنفسهم حتى أراد ا تعالى لكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ورزقكم الإيمان به وبرسوله ﷺ والمنع له ولأصحابه والإعزاز لدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على من تخاف عنه وأثقله على عدوكم من غيركم حتى استقاموا لأمر ا تعالى طوعاً وكرها وأعطى البعيد المقادة صاغراً داحراً حتى أثخن ا تعالى لنبيه بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب توفاه ا تعالى وهو راض عنكم قرير العين فشدوا أيديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاوهم به فأجابوه جميعاً أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول وكفى بعد ذلك ما رأيت بتوليتك هذا الأمر فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضى[1] .

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين المعروف بالإمامة والسياسة لأبن قتيبـة –

في هذه اللحظة الحاسمة فوجئ الأنصار بدخول أبى بكر وعمر بن الخطاب وأبى عبيده بن الجراح ...

لو لم يدخل أبو بكر فى هذه اللحظة بالذات، أو لو أنه تأخر بعض الشىء.. لقضى الأمر وتغيرت مستقبل الدولة الإسلامية تماماً ..

ولكن أبا بكر كان مسيراً إلى قدره.. كانت يد ا وراء دخوله ...

دخل أبو بكر فتغير الموقف تماماً ..

تقول المصادر :

"أراد عمر رضى ا عنه أن يبدأ بالكلام وقال: خشيت أن يقصر أبو بكر رضى ا عنه عن بعض الكلام فلما تيسر عمر للكلام تجهز أبو بكر رضى ا عنه وقال له على رسلك فستكفى الكلام فتشهد أبو بكر رضى ا عنه وأنتصب له الناس فقال إن ا جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق فدعا إلى الإسلام فأخذ ا تعالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه فكنا معشر المهاجرين أول الناس

للإمام المؤرخ أبى محمد عبد ا بن مسلم ج١ ص٥ .

إسلاما والناس لنا فيه تبع ونحن عشيرة رسول ا ونحن مع
ذلك أوسط العرب أنساباً ليست قبيلة من قبائل العرب إلا
ولقريش فيها ولادة وأنتم أيضاً وا الذين آووا ونصروا
وأنتم وزراؤنا فى الدين ووزراء رسول ا وأنتم إخواننا فى
كتاب ا تعالى وشركاؤنا فى دين ا عز وجل وفيما كنا فيه
من سراء وضراء وا ما كنا فى خير قط إلا كنتم معنا فيه
فأنتم أحب الناس إلينا وأكرمهم علينا. وأحق الناس بالرضى
بقضاء ا تعالى والتسليم لأمر ا عز وجل لما ساق لكم
ولإخوانكم المهاجرين رضى ا عنهم وأحق الناس فلا
تحسدوهم وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة وا
ما زلتم تؤثرون إخوانكم من المهاجرين وأنتم أحق الناس أن
لا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم وأبعد أن لا تحسدوا
إخوانكم على خير ساقه ا تعالى إليهم وإنما أدعوكم إلى أبى
عبيده أو عمر وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر وكلاهما
له أهل. فقال عمر وأبو عبيده رضى ا عنهما ما ينبغى
لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر أنت صاحب الغار
ثانى أثنين وأمرك رسول ا  بالصلاة فأنت أحق الناس
بهذا الأمر فقال الأنصار وا ما نحسدكم على خير ساقه ا

إليكم وأنا لكما كما وصفت يا أبا بكر والحمد ا ولا أحد من خلق ا أحب ألينا منكم ولا أرضى عندنا ولا أيمن ولكننا نشفق مما بعد اليوم ونحذر أن يغلب هذا الأمر من ليس منا ولا منكم فلو جعلتم اليوم رجلاً منا ورجلا منكم بايعنا ورضينا على أنه إذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت من هذه الأمة كان ذلك أجدر أن يعدل فى أمة محمد ﷺ وأن يكون بعضنا يتبع بعض فيشفق القرشى أن يرفع فينقض عليه الأنصارى ويشفق الأنصارى أن يرفع فينقض عليه القرشى فقام أبو بكر فحمد ا وأثنى عليه وقال: أنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم فى الإسلام. رضيكم ا تعالى أنصاراً لدينه ولرسوله وجعل إليكم مهاجرته فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لانفتات دونكم بمشورة ولا تنقضى دونكم الأمور. فقام الحباب بن المنذر بن زيد بن حرام رضى ا عنه فقال: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم فإنما الناس فى فيئكم وظلالكم ولن يجبر مجبر على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أنتم أهل العزو والثروة وأولوا العدد والنجدة وإنما ينظر الناس ما تصنعون

فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وتقطعوا أموركم أنتم أهل الإيواء وإليكم كانت الهجرة ولكم فى السابقين الأولين مثل ما لهم وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم وا ما عبدوا ا علانية إلا فى بلادكم ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم فأنتم أعظم الناس نصيباً فى هذا الأمر وإن أبى القوم فمنا أمير ومنهم أمير. فقام عمر رضى ا عنه فقال: هيهات لا يجمع سيفان فى غمد واحد إنه وا لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا ينبغى أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم وأولى الأمر منهم. لنا بذلك على من خلفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا معتمد بباطل أو متجانف لأثم أو متورط فى هلكة. فقام الحباب بن المنذر رضى ا عنه فقال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم ما سألتم فأجلوهم عن بلادكم وولوا عليكم وعليهم من أردتم فأنتم وا أولى بهذا الأمر منهم فإنه دان لهذا الأمر من لم يكن يدين له بأسلافنا. أما وا إن شئتم لنعيدنها جذعه

وا لا يرد على أحد ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف قال عمر بن الخطاب: فلما كان الحباب هو الذى يجيبنى لم يكن لى معه كلام لأنه كان بينى وبينه منازعة فى حياة رسول ا ﷺ فنهانى عنه فحلفت أن لا أكلمه كلمة تسوؤه أبداً. ثم قام أبو عبيده فقال: يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى فلا تكونوا أول من يبدل ويغير .

ثم إن أبا بكر قام على الأنصار فحمد ا تعالى وأثنى عليه ثم دعاهم إلى الجماعة ونهاهم عن الفرقة وقال إنى ناصح لكم فى هذين الرجلين أبى عبيدة بن الجراح أو عمر فبايعوا من شئتم منهما. فقال عمر: معاذ ا أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا أنت أحقنا بهذا الأمر وأقدمنا صحبة لرسول ا ﷺ وأفضل منا فى المال وأنت أفضل المهاجرين وثانى أثنين وخليفته عليه السلام والصلاة أفضل دين الإسلام فمن ذا ينبغى أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك أبايعك فلما ذهبا يبايعانه سبقهما إليه قيس الأنصارى فبايعه فناداه الحباب بن المنذر: يا قيس بن سعد عاقك عائق ما اضطرك إلى ما صنعت حسدت ابن عمك على الأمارة قال لا وا لكنى كرهت أن أنازع قوماً حقاً لهم فلما رأت الأوس

ما صنع قيس بن سعد وهو من سادات الخزرج وما دعوا إليه من المهاجرين من قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير رضى ا عنه لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة لازالت لهم بذلك عليكم الفضيلة ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر رضى ا عنه فقاموا إليه فبايعوه فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة فقال: فعلتموها يا معشر الأنصار أما وا لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء. قال أبو بكر: أمنا تخاف يا حباب قال ليس منك أخاف لكن ممن يجئ بعدك، قال أبو بكر: فإذا كان ذلك كذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك ليس لنا عليكم طاعة. قال الحباب: هيهات يا أبا بكر إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم[1] .

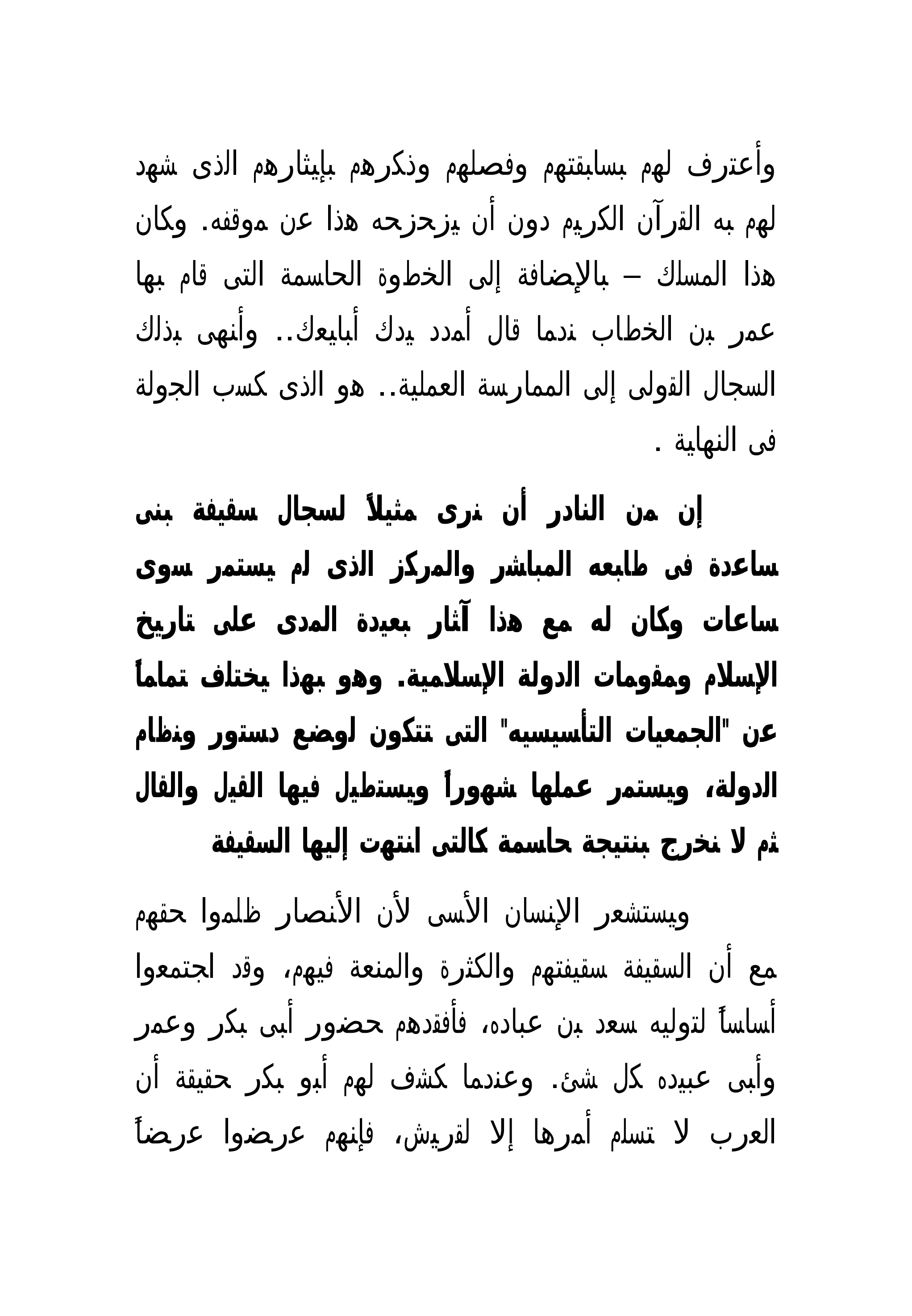
وهكذا انتهى سجال السقيفة. هذا السجال الذى وضع صورة مستقبل الدولة الإسلامية. فقد أخذ بمبدأ البيعة التى لم يكن لها معنى إلا سيادة الشعب، وأن الحاكم لا يكون

---

(١) المرجع السابق ص٧، ٨، ٩ .

حاكماً إلا عندما يقبله الشعب ويبايعه، وبذلك استبعد مبدأ الوراثة، ومع أن المبدأ لم يجر أصلاً فإن تجاهل سجال السقيفة له أثبت أنه غير مطروح للمناقشة لأن الجميع فهموا تماماً أن المبدأ يخالف روح وأساسيات الإسلام. وفى الوقت نفسه استبعدت فكرة منا أمير، ومنكم أمير.. لأنها تمثل ازدواجية وانقساما، بل حتى الفكرة التى عرضها أبو بكر نفسه نحن الأمراء.. وأنتم الوزراء.. لم يتمسك بها الأنصار أو يعرضونها للمناقشة – وهو تقصير منهم لعله لو استدرك لحال دون انفراد المهاجرين بالسلطة ولكن يبدو أنه – فى غياب التهيج – لم يكن له محل كما يذكر أن أبا بكر لم يحتج بالحديث الذائع "الأئمة من قريش" لأنه كان أذكى من أن يدفع به – وأغلب الظن أن الحديث موضوع أوانه إنما يعنى ما عرضه أبن خلدون بلباقة وبصورة موضوعية "أنهم أوسط العرب أنساباً" وليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولاده" وهو ما أبرزه بعد ذلك بوقت طويل أبن خلدون فى مناقشته لهذا الحديث .

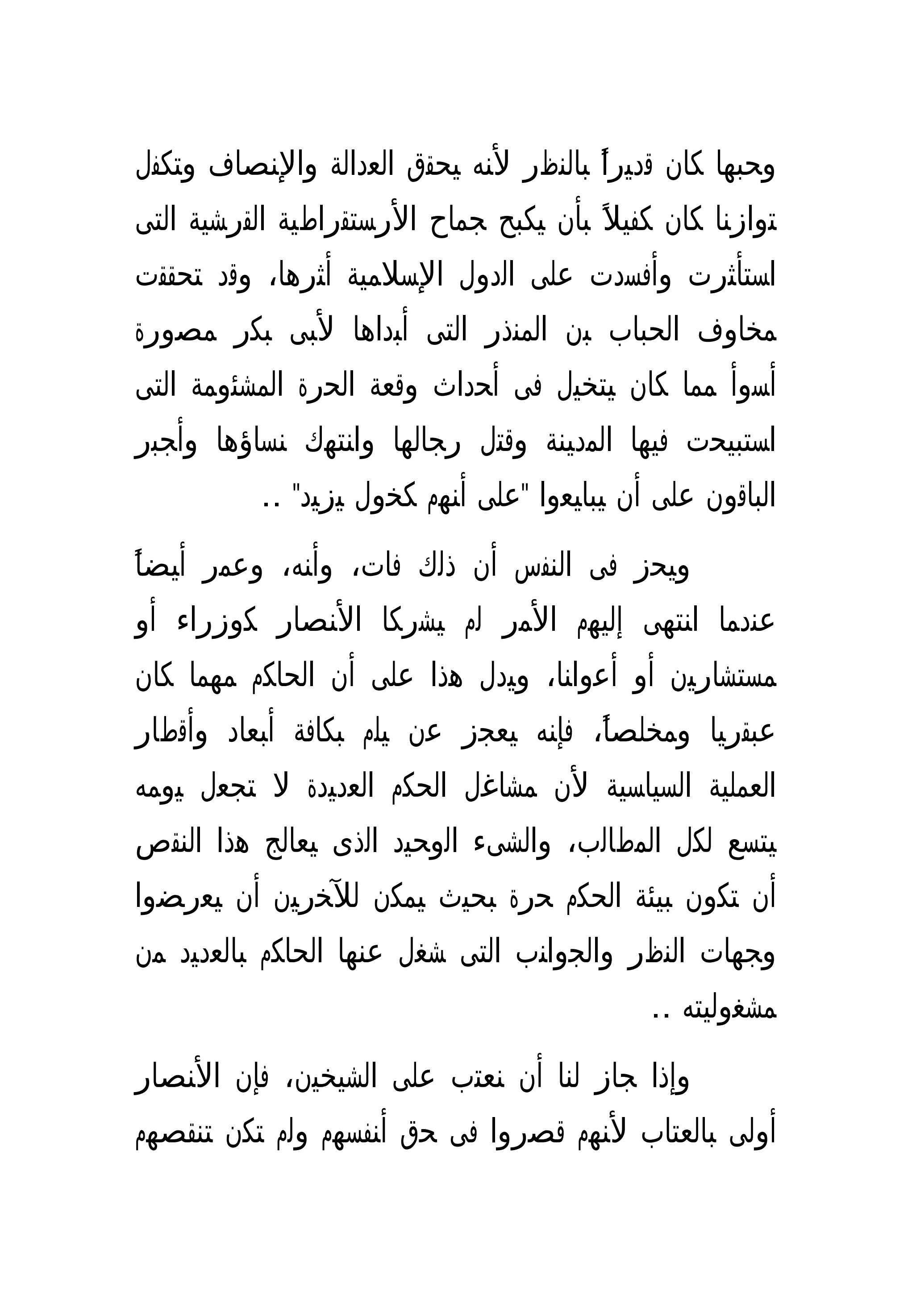
كما يظهر السجال الصفتين البارزتين فى أبى بكر إلا وهما الكياسة والحزم، فإنه نوه بالأنصار أكثر من مرة



وأعترف لهم بسابقتهم وفصلهم وذكرهم بإيثارهم الذى شهد لهم به القرآن الكريم دون أن يزحزحه هذا عن موقفه. وكان هذا المسلك – بالإضافة إلى الخطوة الحاسمة التى قام بها عمر بن الخطاب ندما قال أمدد يدك أبايعك.. وأنهى بذلك السجال القولى إلى الممارسة العملية.. هو الذى كسب الجولة فى النهاية .

إن من النادر أن نرى مثيلاً لسجال سقيفة بنى ساعدة فى طابعه المباشر والمركز الذى لم يستمر سوى ساعات وكان له مع هذا آثار بعيدة المدى على تاريخ الإسلام ومقومات الدولة الإسلامية. وهو بهذا يختلف تماماً عن "الجمعيات التأسيسيه" التى تتكون لوضع دستور ونظام الدولة، ويستمر عملها شهوراً ويستطيل فيها القيل والقال ثم لا نخرج بنتيجة حاسمة كالتى انتهت إليها السقيفة

ويستشعر الإنسان الأسى لأن الأنصار ظلموا حقهم مع أن السقيفة سقيفتهم والكثرة والمنعة فيهم، وقد اجتمعوا أساساً لتوليه سعد بن عباده، فأفقدهم حضور أبى بكر وعمر وأبى عبيده كل شئ. وعندما كشف لهم أبو بكر حقيقة أن العرب لا تسلم أمرها إلا لقريش، فإنهم عرضوا عرضاً



وحبها كان قديراً بالنظر لأنه يحقق العدالة والإنصاف وتكفل توازنا كان كفيلاً بأن يكبح جماح الأرستقراطية القرشية التى استأثرت وأفسدت على الدول الإسلامية أثرها، وقد تحققت مخاوف الحباب بن المنذر التى أبداها لأبى بكر مصورة أسوأ مما كان يتخيل فى أحداث وقعة الحرة المشئومة التى استبيحت فيها المدينة وقتل رجالها وانتهك نساؤها وأجبر الباقون على أن يبايعوا "على أنهم كخول يزيد" ..

ويحز فى النفس أن ذلك فات، وأنه، وعمر أيضاً عندما انتهى إليهم الأمر لم يشركا الأنصار كوزراء أو مستشارين أو أعوانا، ويدل هذا على أن الحاكم مهما كان عبقريا ومخلصاً، فإنه يعجز عن يلم بكافة أبعاد وأقطار العملية السياسية لأن مشاغل الحكم العديدة لا تجعل يومه يتسع لكل المطالب، والشىء الوحيد الذى يعالج هذا النقص أن تكون بيئة الحكم حرة بحيث يمكن للآخرين أن يعرضوا وجهات النظر والجوانب التى شغل عنها الحاكم بالعديد من مشغوليته ..

وإذا جاز لنا أن نعتب على الشيخين، فإن الأنصار أولى بالعتاب لأنهم قصروا فى حق أنفسهم ولم تكن تنقصهم

القوة والمنعة ويبدو أن ما أشرنا إليه من تقصير فى حق الأنصار لم يفت تماماً الشيخين فقد شغلاً عنه، ولكنه فيما يبدو – كان هما من همومهم. وقد تمنى أبو بكر وهو يجود بنفسه لو أنه سأل الرسول عن الأنصار وهل لهم فى هذا الأمر نصيب فلا يظلمون نصيبهم. كما أن عمر قال فى آخر وصية له عندما طعنة أبو لؤلؤة للخليفة من بعده "وأوصية بالأنصار خيراً – الذين تبوءا الدار والإيمان من قبلهم، وأن يقبل من محسنهم وأن يعفى عن مسيئتهم" ..

ولعل ا تعالى أراد للأنصار أن يكونوا فى سقيفة بنى ساعدة ما كانوه عندما استقبلوا المهاجرين وآثروهم على أنفسهم فاستحقوا مدح ا لهم ﴿والذِين تَبوءوا الدار والإيمان مِن قَبِلِهم يحِبون من هاجر إِلَيهم ولا يجِدون فِي صدورِهِم حاجةً مِما أُوتُوا ويؤْثِرون علَى أَنْفُسِهم ولَو كَان بِهِم خَصاصةٌ ومن يوقَ شُح نَفْسِهِ فَأُولَئِك هم الْمفْلِحون﴾. {٩ الحشر} ..

- ٣ -

انتهى الوحى وبدأ التاريخ

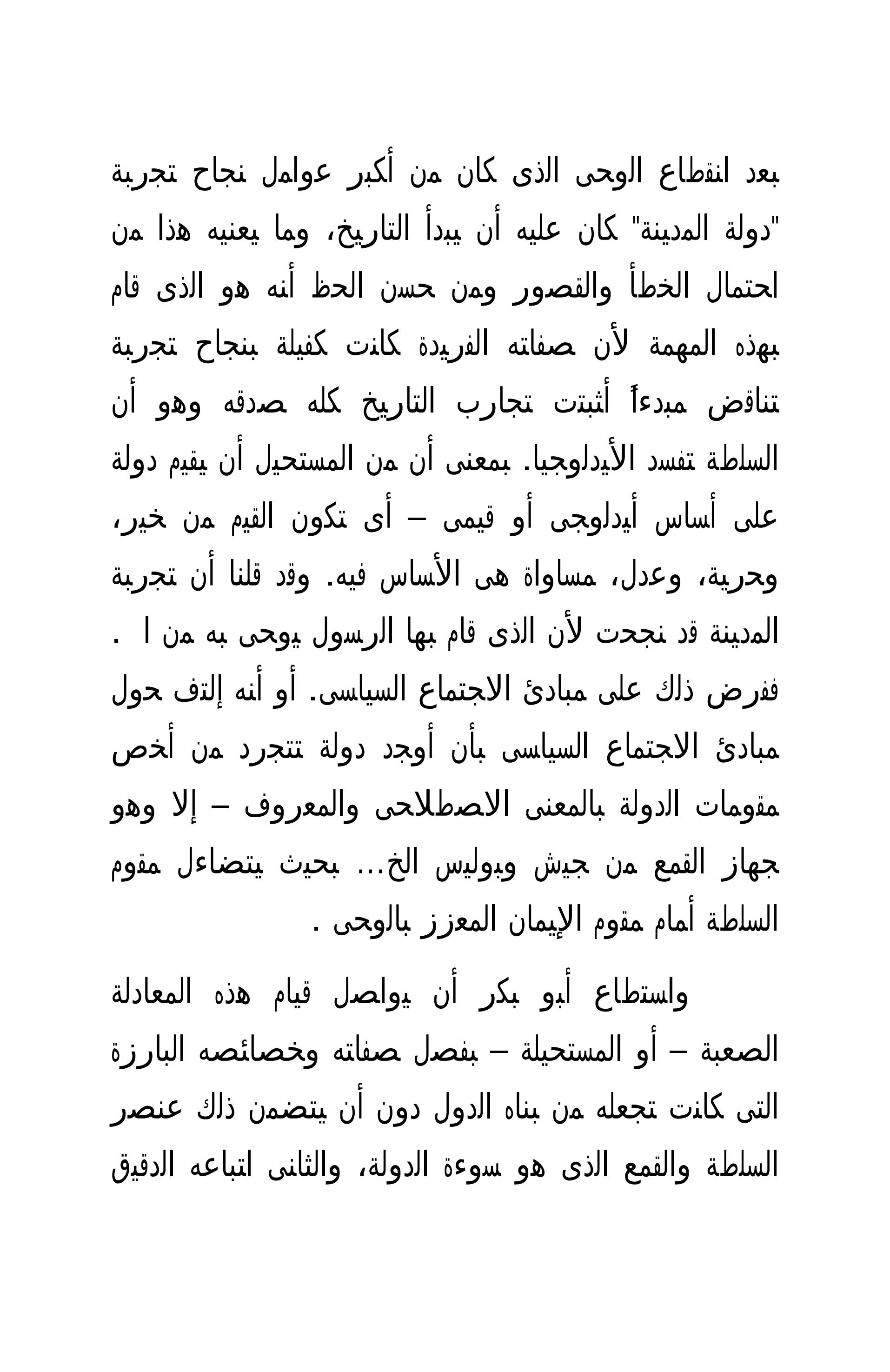
أبو بكر المتبع الآمن يسير فى أثار الرسول

من سعد الهيئات والدول أن يكون الرجل الذى يبدأها رجلاً نابغاً توفرت فيه صفات "بناة الإمبراطوريات" كأفضل ما تكون. ومن نحسها أن يكون هذا الرجل هزيلاً اختير لجاه أو بفضل نسب أو لعصبية حمقاء جعلت مثل عيينة بن حصن سيد قومه.. لأن فترة التشكيل الأولى لها أهميتها الكبرى – وعلى حسنها أو سوءها تنعكس الآثار على الأجيال .

كان أبو بكر بلا جدال أفضل صحابة محمد، واكفأ من يختار لشغل هذا المنصب الهام وتقلد تلك المسئولية الخطيرة، وقد أثر طول صحبته للرسول تأثيراً عميقاً، وطبعته بطابعها وجعلته يعلن أنه "متبع لا مبتدع" لأنه آمن أن اتباعه للرسول سيكفل له الهدى وسيؤمنه من الضلال، وكان هو نفسه ممتازاً توفرت له أهم صفتين لازمتين لمن يؤسس دولة، هما الكياسة والحزم. وقد توفرتا له بفضل الطبيعة التى جبا ا   عليها وبفضل صحبته الطويلة للرسول

عندما كان الإسلام بين أيدى ثلاثة هم محمد، وخديجة وأبو بكر. فكل واحد من الثلاثة كان له دور كبير فى نجاح دعوة الإسلام. الرسول لأنه ثبت على المبدأ ورفض المغريات وقال كلمته التاريخية "وا وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ما تركته". وخديجة التى جعلت بيت الرسول بيت الدعوة ووفرت له الأمن والآمان والسكينة والحب الذى يغسل عن نفسه اضطهادات أعدائه. بينما يقوم أبو بكر باكتشاف العناصر الصالحة وضمهم للدعوة الناشئة زهرة رجالاتها من مختلف القبائل، ومن العبيد والمستضعفين على سواء، ولو تقصينا لوجدنا أن أهم الشخصيات التى أدت أدواراً بارزة فى تاريخ الإسلام هم من كسبهم أبو بكر للإيمان بالإسلام "فقد كان منهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد ا وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيده بن الجراح، وغيرهم وكان معظمهم شباباً فى مقتبل العمر وأتاح هذا لهم الفرصة ليؤدوا دوراً كبيراً فى مستقبل الدولة الإسلامية .

المسئولية الثقيلة التى كان على أبى بكر أن ينهض بها هى أنه كان الأول الذى وقع عليه أن يقيم "دولة إسلامية"



بعد انقطاع الوحى الذى كان من أكبر عوامل نجاح تجربة "دولة المدينة" كان عليه أن يبدأ التاريخ، وما يعنيه هذا من احتمال الخطأ والقصور ومن حسن الحظ أنه هو الذى قام بهذه المهمة لأن صفاته الفريدة كانت كفيلة بنجاح تجربة تناقض مبدءاً أثبتت تجارب التاريخ كله صدقه وهو أن السلطة تفسد الأيدلوجيا. بمعنى أن من المستحيل أن يقيم دولة على أساس أيدلوجى أو قيمى – أى تكون القيم من خير، وحرية، وعدل، مساواة هى الأساس فيه. وقد قلنا أن تجربة المدينة قد نجحت لأن الذى قام بها الرسول يوحى به من ا . ففرض ذلك على مبادئ الاجتماع السياسى. أو أنه إلتف حول مبادئ الاجتماع السياسى بأن أوجد دولة تتجرد من أخص مقومات الدولة بالمعنى الاصطلاحى والمعروف – إلا وهو جهاز القمع من جيش وبوليس الخ... بحيث يتضاءل مقوم السلطة أمام مقوم الإيمان المعزز بالوحى .

واستطاع أبو بكر أن يواصل قيام هذه المعادلة الصعبة – أو المستحيلة – بفصل صفاته وخصائصه البارزة التى كانت تجعله من بناه الدول دون أن يتضمن ذلك عنصر السلطة والقمع الذى هو سوءة الدولة، والثانى اتباعه الدقيق

ومواصلته لسياسة الرسول ودعمه فى هذا أن أصداء الوحى كانت لا تزال تتردد حتى بعد أن انقطع الوحى نفسه، وكان القرآن الكريم غضا طريا لم تبتذله الأفواه ولم تشوهه التفسيرات، وصورة الرسول لا تزال ماثلة أمام المؤمنين. وبفضل هذه العوامل الاستثنائية استطاع أبو بكر أن يواصل "تجربة المدينة" كما استطاع ذلك عمر من بعده لتوفر العوامل نفسها، وإن كان بدرجة أقل، ولكن الأمر وقف عند هذا.إن أصداء الوحى قد خفتت بقدر ما تصاعدت نوازع السلطة، فضلاً عن أن الذى اختير للخلافة بعد عمر كان آخر واحد يصلح لها: عثمان، ولهذا فإن تجربة "دولة المدينة" التى أقامها الرسول واستطاع أبو بكر وعمر أن يمداً فيها وأن يعطياها ثلاثة عشر عاماً بعد وفاة الرسول.. قد توقفت، ولم تتكرر أبداً، ولا يمكن أن تتكرر حتى الآن لأنه مع عدم وجود العوامل الاستثنائية التى أشرنا إليها فلابد أن تفسد السلطة الأيدلوجيا، لابد أن يفترس الملك العقيدة ..

عندما نذكر إنجازات أبى بكر وهى عديدة رغم قصر مدة خلافته التى لم تستكمل سنوات ثلاث. فقد يكون أبرزها هو الخطاب الذى أفتتح به عهده وأعلن فيه قواعد

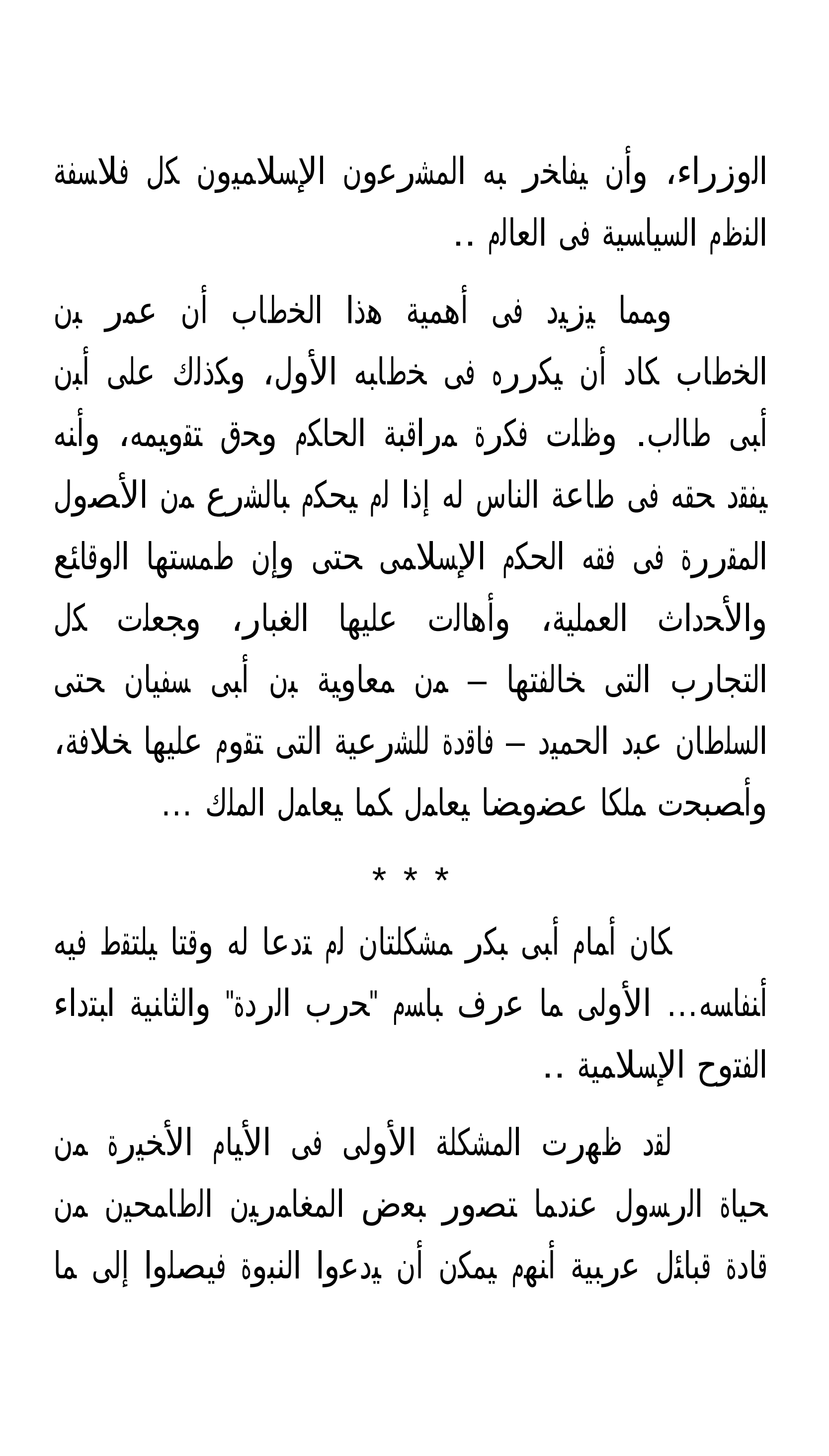
ومبادئ الحكم الإسلامى وواجبات وحقوق الحاكم وعلاقته بالشعب. وقد ألقى هذا الخطاب بعد أن أنتهى يوم السقيفة المشحون ...

والخطاب موجز مركز ..

أيها الناس :

قد وليت عليكم ولست بخير منكم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى. الصدق أمانة. والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أخذ له حقه. والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء ا لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم ا بالذل. أطيعونى ما أطعت ا ورسوله، فإن عصيت ا فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم ا ...

إن هذا الخطاب الذى يقرر صراحة حق المحكومين فى أن "يقوموا" الحاكم، وأنه لا يكون له طاعة إذا خالف الدستور الذى انتخب على أساسه "وهو طاعة ا والرسول" كان جديراً بأن يحفظه عن ظهر قلب طلبه المدارس وأن يكتب بالذهب ويعلق فى البرلمان ورآسة الجمهورية ومجلس



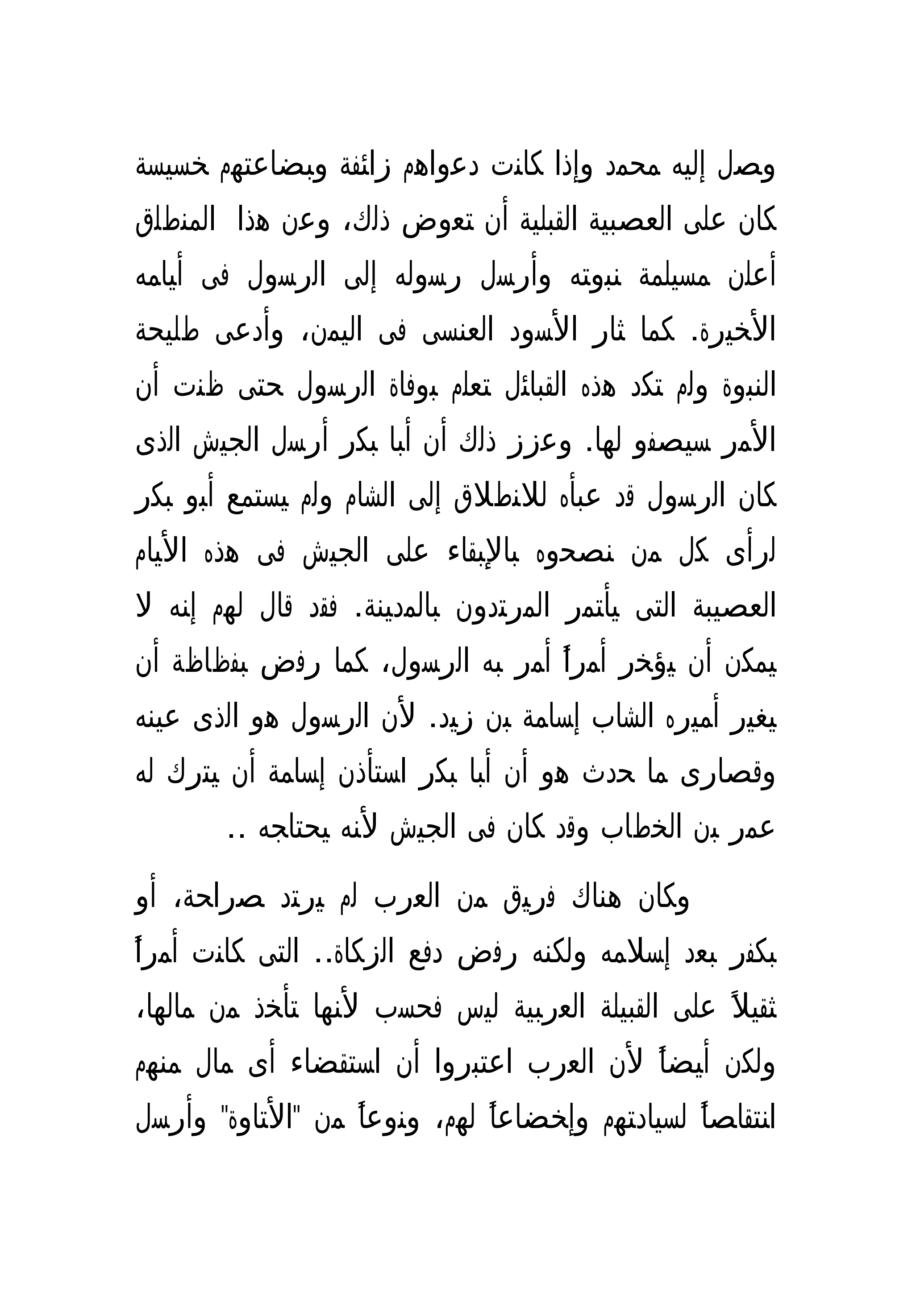
الوزراء، وأن يفاخر به المشرعون الإسلاميون كل فلاسفة النظم السياسية فى العالم ..

ومما يزيد فى أهمية هذا الخطاب أن عمر بن الخطاب كاد أن يكرره فى خطابه الأول، وكذلك على أبن أبى طالب. وظلت فكرة مراقبة الحاكم وحق تقويمه، وأنه يفقد حقه فى طاعة الناس له إذا لم يحكم بالشرع من الأصول المقررة فى فقه الحكم الإسلامى حتى وإن طمستها الوقائع والأحداث العملية، وأهالت عليها الغبار، وجعلت كل التجارب التى خالفتها – من معاوية بن أبى سفيان حتى السلطان عبد الحميد – فاقدة للشرعية التى تقوم عليها خلافة، وأصبحت ملكا عضوضا يعامل كما يعامل الملك ...

* * *

كان أمام أبى بكر مشكلتان لم تدعا له وقتا يلتقط فيه أنفاسه... الأولى ما عرف باسم "حرب الردة" والثانية ابتداء الفتوح الإسلامية ..

لقد ظهرت المشكلة الأولى فى الأيام الأخيرة من حياة الرسول عندما تصور بعض المغامرين الطامحين من قادة قبائل عربية أنهم يمكن أن يدعوا النبوة فيصلوا إلى ما



وصل إليه محمد وإذا كانت دعواهم زائفة وبضاعتهم خسيسة كان على العصبية القبلية أن تعوض ذلك، وعن هذا المنطلق أعلن مسيلمة نبوته وأرسل رسوله إلى الرسول فى أيامه الأخيرة. كما ثار الأسود العنسى فى اليمن، وأدعى طليحة النبوة ولم تكد هذه القبائل تعلم بوفاة الرسول حتى ظنت أن الأمر سيصفو لها. وعزز ذلك أن أبا بكر أرسل الجيش الذى كان الرسول قد عبأه للانطلاق إلى الشام ولم يستمع أبو بكر لرأى كل من نصحوه بالإبقاء على الجيش فى هذه الأيام العصيبة التى يأتمر المرتدون بالمدينة. فقد قال لهم إنه لا يمكن أن يؤخر أمراً أمر به الرسول، كما رفض بفظاظة أن يغير أميره الشاب إسامة بن زيد. لأن الرسول هو الذى عينه وقصارى ما حدث هو أن أبا بكر استأذن إسامة أن يترك له عمر بن الخطاب وقد كان فى الجيش لأنه يحتاجه ..

وكان هناك فريق من العرب لم يرتد صراحة، أو بكفر بعد إسلامه ولكنه رفض دفع الزكاة.. التى كانت أمراً ثقيلاً على القبيلة العربية ليس فحسب لأنها تأخذ من مالها، ولكن أيضاً لأن العرب اعتبروا أن استقضاء أى مال منهم انتقاصاً لسيادتهم وإخضاعاً لهم، ونوعاً من "الأتاوة" وأرسل

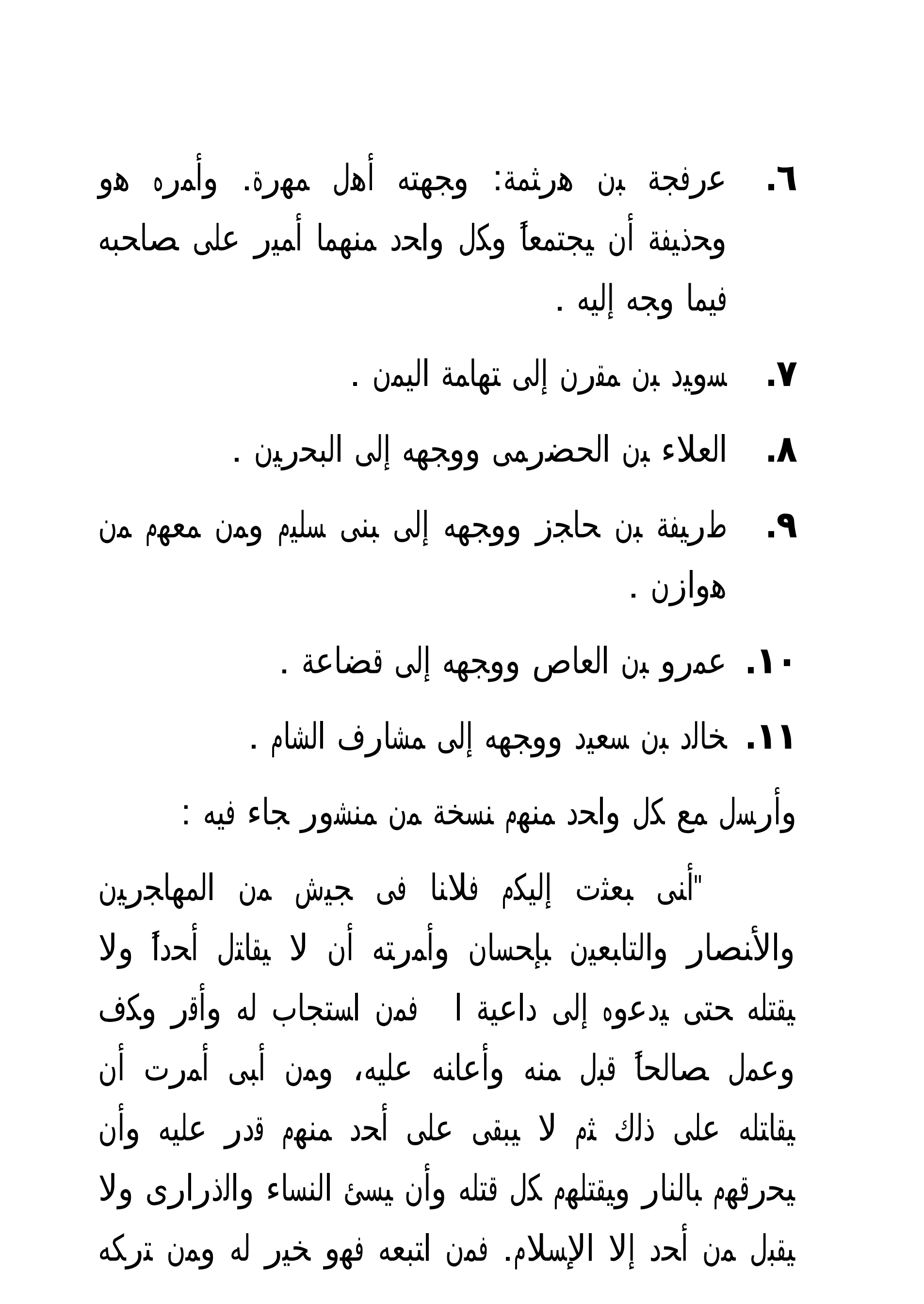
هؤلاء مندوبين لأبى بكر يسألونه إعفاءهم من الزكاة وكان من مهام هؤلاء استطلاع الوضع الأمنى ومدى حصانة المدينة من هجوم عليها الخ... ورفض أبو بكر بقوة "أن يفرق بين الصلاة والزكاة" وكان فى هذا يطبق مبدءاً من مبادئ الدولة من منطلق "الدعوة" إذ الحقيقة أن هذه القبائل، والقبائل المرتدة ضاقت بحكم الإسلام ورفضت أن تذعن لقيمة وأن تنتظم فى وحدته، كانت تريد أن تعود إلى حكم القبيلة القديم الذى يعطيها حقها فى حكم نفسها بنفسها وتطبيق أعرافها الموروثة وعاد هؤلاء برفض أبى بكر، وبأن ليس فى المدينة من جيش يحميها. وفى الوقت نفسه فإن أبا بكر تنسم نياتهم فجمع البقية الباقية من المهاجرين والأنصار وجعلهم على "أنقاب" المدينة، وعبأ بقية الناس فى المسجد، وعندما هاجمت مقدمات القبائل الثائرة المدينة اصطدموا بحرسها الذى هزمهم فعادوا مدحورين إلى إخوانهم ...

وبعد أربعين يوماً عاد جيش إسامة بعد أن أدى مهمته. وهنا شمر أبو بكر ليؤدب هؤلاء الثوار، سواء منهم من أرتد صراحة.. أو من رفض الزكاة. خاصة وأن بعضهم

قتل المؤمنين بينهم فعقد أحد عشر لواء لأحد عشر أميراً وأمر كل واحد أن يسير ليقاتل إحدى القبائل المتمردة ..

وهؤلاء هم أمراء هذه الألوية :

1. خالد بن الوليد: وجهه إلى قتال طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة، فإذا فرغ من أمره قصد مالك بن نويرة بالبطاح .
2. عكرمة بن أبى جهل: وجه به إلى مسيلمة الكذاب باليمامة .
3. شرحبيل بن حسنة وجهه فى آثر عكرمة بن أبى جهل، فإذا فرغ من أمر مسيلمة قصد قضاعة .
4. المهاجر بن أبى أمية: وجه به إلى جنود الأسود العنسى بصنعاء اليمن ومعاونة الأبناء على قتالهم. والأبناء هم مولدة الفرس باليمن آمنوا وثبتوا على إيمانهم وذريتهم بها إلى اليوم .
5. حذيفة بن محصن: وجهه إلى أهل دبا بعمان .



٦. عرفجة بن هرثمة: وجهته أهل مهرة. وأمره هو وحذيفة أن يجتمعاً وكل واحد منهما أمير على صاحبه فيما وجه إليه .

٧. سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن .

٨. العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين .

٩. طريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن .

١٠. عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة .

١١. خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وأرسل مع كل واحد منهم نسخة من منشور جاء فيه :

"أنى بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية ا فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله وأن يسئ النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه

فلن يعجز ا . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الآذان. فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وأن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى" .

كما كتب إلى قواده عهداً من صورة واحدة وهى :

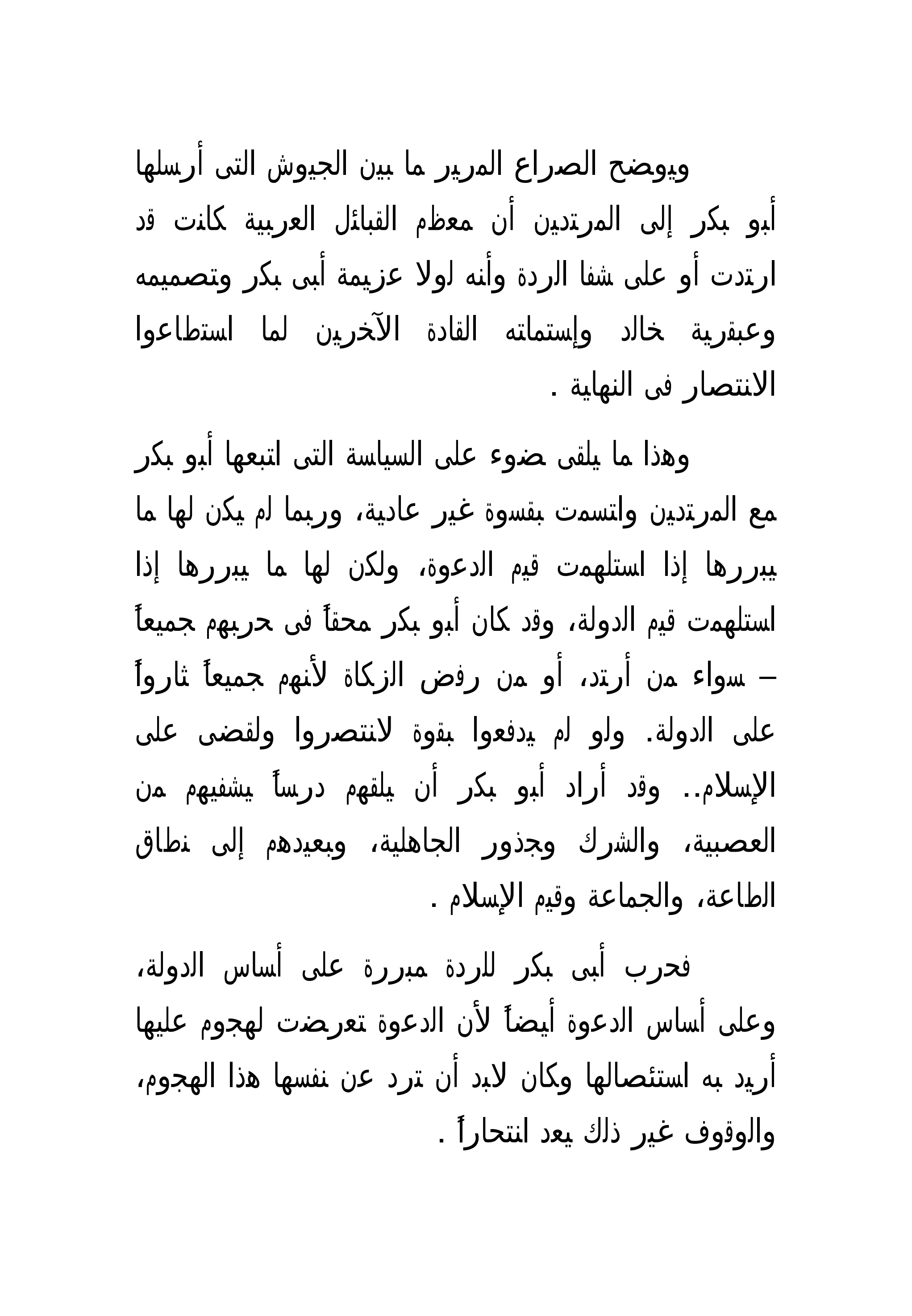
هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول ا ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتق ا ما استطاع فى أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد فى أمر ا ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر ا عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر با على الإقرار بما جاء من عند ا فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان ا حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب داعية ا قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه

وعلمه. ومن أبى قاتله فإن أظهره ا   عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء ا   عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيونا ولئلاً يؤتى المسلمون من قبلهم. وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول[١] .

وقد سارت هذه الجيوش وأدت مهمتها بنجاح وإن كان مسيلمة وقواته وقبيلته التى تعصبت إليه على أساس أن "كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر" هزموا جيش عكرمة وجيش شرحبيل بن حسنة – فوجه أبو بكر خالداً لحرب مسيلمة. واستطاع خالد الانتصار بعد معركة شديدة وقتل مسيلمة – قتله وحشى الذى كان قد قتل حمزة فى أحد وشهدت أم عمارة – الصحابية الجليلة التى شهدت بدراً وأحداً – هذه الموقعة الحامية، وبترت فيها ذراعها .

---

(١) تاريخ الإسلام – الخلفاء الراشدون – تأليف الأستاذ عبد الوهاب النجار ص٤٤، ٤٥، ٦٤ .



ويوضح الصراع المرير ما بين الجيوش التى أرسلها أبو بكر إلى المرتدين أن معظم القبائل العربية كانت قد ارتدت أو على شفا الردة وأنه لولا عزيمة أبى بكر وتصميمه وعبقرية خالد وإستماته القادة الآخرين لما استطاعوا الانتصار فى النهاية .

وهذا ما يلقى ضوء على السياسة التى اتبعها أبو بكر مع المرتدين واتسمت بقسوة غير عادية، وربما لم يكن لها ما يبررها إذا استلهمت قيم الدعوة، ولكن لها ما يبررها إذا استلهمت قيم الدولة، وقد كان أبو بكر محقاً فى حربهم جميعاً – سواء من أرتد، أو من رفض الزكاة لأنهم جميعاً ثاروا على الدولة. ولو لم يدفعوا بقوة لانتصروا ولقضى على الإسلام.. وقد أراد أبو بكر أن يلقهم درساً يشفيهم من العصبية، والشرك وجذور الجاهلية، وبعيدهم إلى نطاق الطاعة، والجماعة وقيم الإسلام .

فحرب أبى بكر للردة مبررة على أساس الدولة، وعلى أساس الدعوة أيضاً لأن الدعوة تعرضت لهجوم عليها أريد به استئصالها وكان لابد أن ترد عن نفسها هذا الهجوم، والوقوف غير ذلك يعد انتحاراً .

ولكن فى أسلوب هذه الحروب، ارتفع صوت الدولة على صوت الدعوة. وظهرت أولى سوءات السلطة، وشتان ما بين عنف، وقسوة، أبى بكر وبين "أذهبوا فأنتم الطلقاء" حتى وإن كانت الظروف مختلفة... وعلى كل حال فالمفروض أن يختلف مسلك رجل الدولة عن مسلك رجل الدعوة فى الحرب وإلا فأى فرق بينهما ...

* * *

والقضية الثانية التى كان على أبى بكر أن يحدد موقفه فيها هى قضية "الفتوح" ومدى تبريرها من منطلق الدولة، والدعوة أما من منطلق الدولة فهذا ما لا يصعب إيضاحه. فمن طبائع المجتمع البشرى أن تأخذ العلاقات ما بين الدول التى تتلاقى حدودها إما طابع الحرب أو طابع السلم الذى تحدده معاهدات قد تكون نتيجة لحرب سابقة لأن الذى يحكم العلاقات ما بين الدول هو صراع البقاء.. الذى يدفع الدولة القوية إلى حرب الدولة الضعيفة واستلحاقها والذى يدفع الدولة الصغيرة إلى استرضاء جارتها القوية واكتساب أمنها منها لقاء مبلغ من المال أو إعطائها امتيازات أو غير ذلك فإذا كانت الدولتان متقاربتان فى الحجم والقوة

فقد تربط بينهما متكافئة حتى يظهر فى إحداها قائد طموح يعتدى على جارته المسالمة .

ومن ثم فإن غزو الدولة العربية الناشئة التى كانت تتمتع بطاقة كبيرة من الحيوية الحضارية. كان أمراً طبيعياً للغاية خاصة وأن الفساد كان قد ضرب الجارتين الكبيرتين الفرس والروم ...

ولكن قد يختلف الأمر من منطق الدعوة ..

فإن ا تعالى أمر رسله بالدعوة وأن يقفوا عند البلاغ، ولهاهم عن أى محاولة لإجبار، أو إكراه أو سيطرة، وأوضح لهم مغبات ما ينشأ فى نفس الداعية من رغبة فى كسب الجموع والاستكثار من الاتباع. لأن هذا ينم من عاطفة ذاتية (حتى ولو كانت لحساب الدعوة) فضلاً عن أنه يعرضها لمزالق التنازل والترخص والتساوم.. بل إن القرآن كان صريحاً كل الصراحة فى أن الهداية إنما هى من ا وحده. وأن الرسول لا يهدى من أحب وغيرها من نصوص أوردناها فى مستهل هذا البحث ..

وكان مما يتفق مع هذه الخطوط أن يرسل الرسول رسلاً ليبلغ الملوك والقادة دعوته، ويدعوهم إلى الإسلام ويحملهم مسئولية من قبلهم، إذا رفضوا ..

ولكن ظهر عامل جديد ..

أن الدعوة وأن لم يكن لها أن تقاتل فى سبيل نشر دعوتها ولكنها قد تتعرض هى نفسها لقتال الذين يريدون استئصالها.. ولابد عندئذ للدعوة من أن تدفع هذا العدوان وأن تقاتل من يقاتلها. وهذه هى الصورة التى أخذتها غزوات الرسول فى الجزيرة العربية، وكذلك حرب الردة التى اكتسبت دولة "الدعوة" قدراً من القوة نتيجة لانتصارها على المرتدين.. رأت أن من واجبها أن تبلغ الدعوة للدول المجاورة بعد أن فشلت محاولة الرسول تبليغهم عن طريق رسله..

عندئذ ظهرت فكرة أن يصل جيش إسلامى إلى مشارف الحدود ليدعوا شعوب هذه إلى الإسلام فإذا اسلموا عاد الجيش إلى قواعده.. بعد أن أصبحوا بإسلامهم جزء من دولة الدعوة ...

ولكن ظهر ان هذه فكرة غير عمليه ..

فالجيش لا يمكن أن يتصل بالجماهير، لأن الجماهير فى قبضة قادته. فقنع الجيش بدعوة القادة إلى الإسلام .

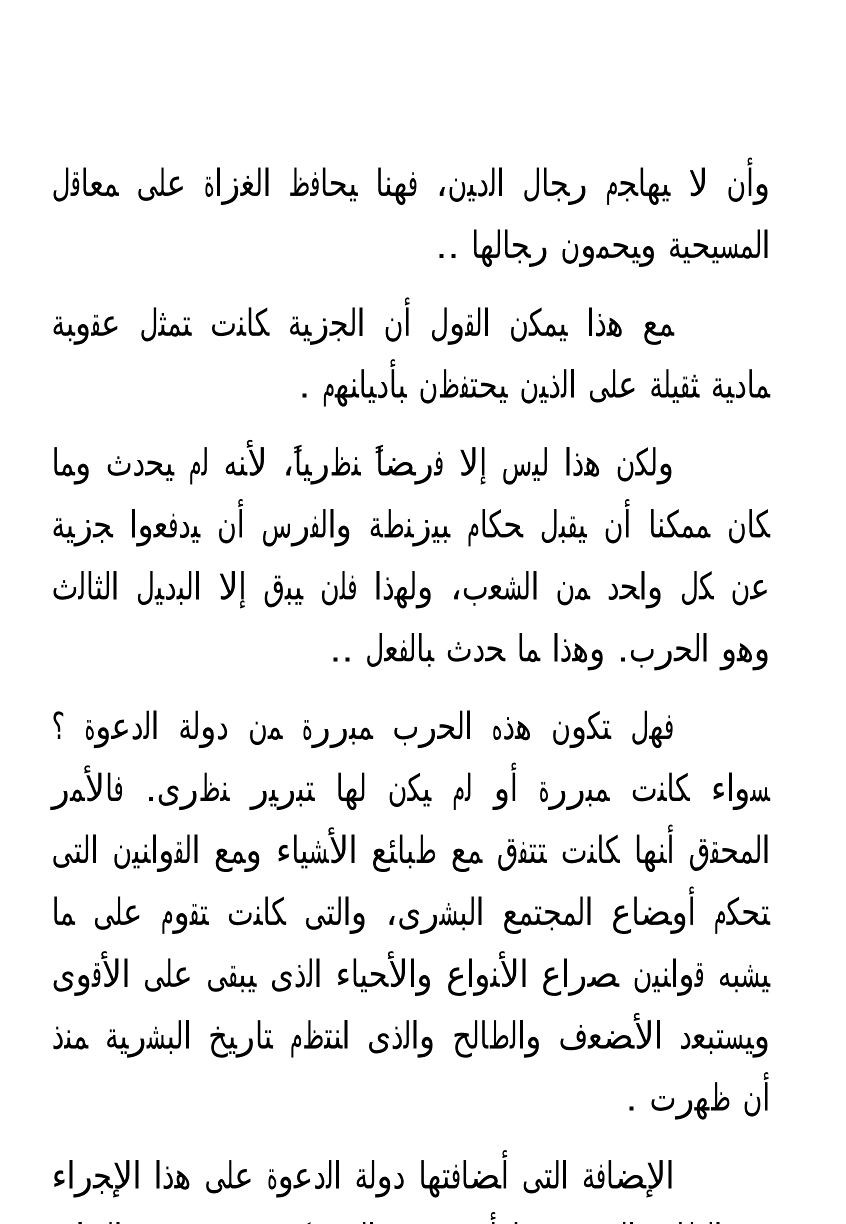
ولكن القادة رفضوا الإيمان بالدين الجديد الذى يدعو إلى مساواتهم بالجماهير، والحكم بالعدل ..

عندئذ ماذا يكون الموقف ..

هل ينسحب الجيش بعد أن رفض الحكام الدين الجديد. لما كان هذا أمراً شاذاً من كافة الوجوه، فقد اهتدى العرب إلى حل هو فرض الجزية عندما يرفض الدين .

وكانت مبررات ذلك عديدة ..

منها أن هذه الفتوحات لم تستهدف فرض الإسلام على الشعوب والجماهير بقوة السيف، ولو كانت هذه الفكرة قائمة فى ذهن المسلمين لكان قبولهم جزية من جماهير الدول المفتوحة لقاء احتفاظهم بدينهم – رشوة. ومما يؤيد أن الفكرة من الفتوح لم تكن أسلحة البلاد المفتوحة وصية أبى بكر – وفيما بعد عمر للجيش بأن يحافظ على الكنائس والأدبره،



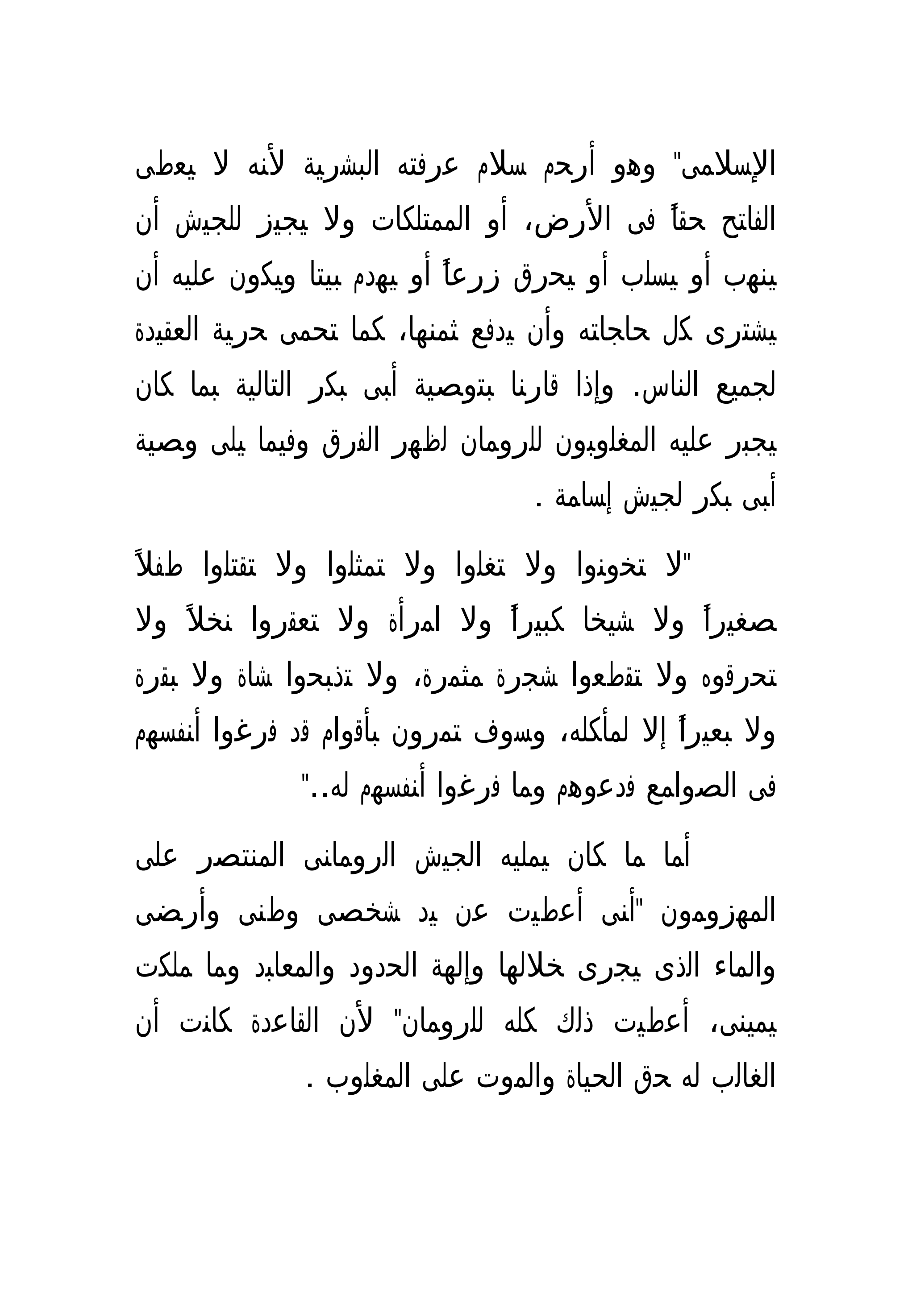
وأن لا يهاجم رجال الدين، فهنا يحافظ الغزاة على معاقل المسيحية ويحمون رجالها ..

مع هذا يمكن القول أن الجزية كانت تمثل عقوبة مادية ثقيلة على الذين يحتفظن بأديانهم .

ولكن هذا ليس إلا فرضاً نظرياً، لأنه لم يحدث وما كان ممكنا أن يقبل حكام بيزنطة والفرس أن يدفعوا جزية عن كل واحد من الشعب، ولهذا فلن يبق إلا البديل الثالث وهو الحرب. وهذا ما حدث بالفعل ..

فهل تكون هذه الحرب مبررة من دولة الدعوة ؟ سواء كانت مبررة أو لم يكن لها تبرير نظرى. فالأمر المحقق أنها كانت تتفق مع طبائع الأشياء ومع القوانين التى تحكم أوضاع المجتمع البشرى، والتى كانت تقوم على ما يشبه قوانين صراع الأنواع والأحياء الذى يبقى على الأقوى ويستبعد الأضعف والطالح والذى انتظم تاريخ البشرية منذ أن ظهرت .

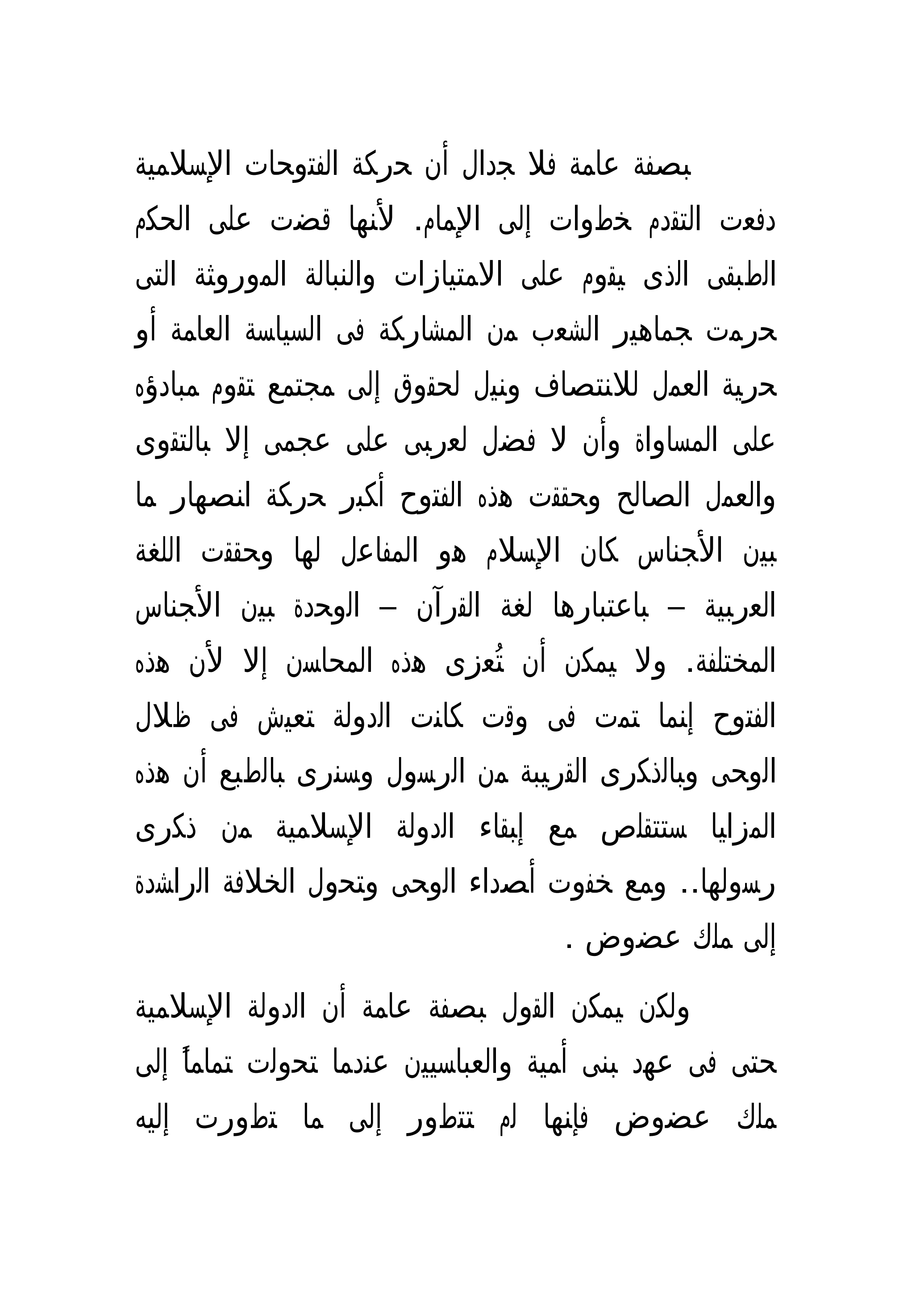
الإضافة التى أضافتها دولة الدعوة على هذا الإجراء هو الطابع الرحيم فما أن تنتهى المعركة حتى يسود "السلام



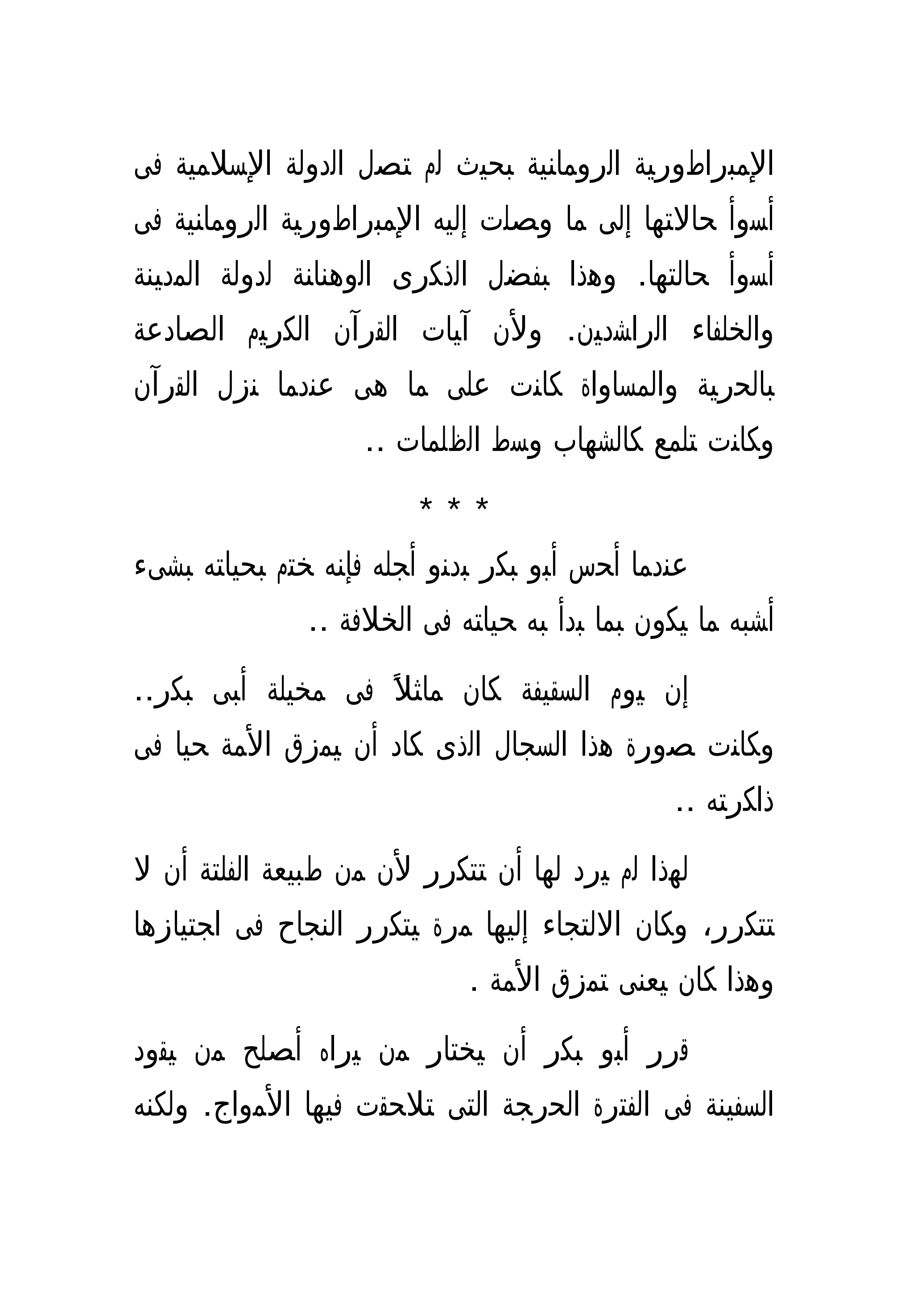
الإسلامى" وهو أرحم سلام عرفته البشرية لأنه لا يعطى الفاتح حقاً فى الأرض، أو الممتلكات ولا يجيز للجيش أن ينهب أو يسلب أو يحرق زرعاً أو يهدم بيتا ويكون عليه أن يشترى كل حاجاته وأن يدفع ثمنها، كما تحمى حرية العقيدة لجميع الناس. وإذا قارنا بتوصية أبى بكر التالية بما كان يجبر عليه المغلوبون للرومان لظهر الفرق وفيما يلى وصية أبى بكر لجيش إسامة .

"لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخا كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.."

أما ما كان يمليه الجيش الرومانى المنتصر على المهزومون "أنى أعطيت عن يد شخصى وطنى وأرضى والماء الذى يجرى خلالها وإلهة الحدود والمعابد وما ملكت يمينى، أعطيت ذلك كله للرومان" لأن القاعدة كانت أن الغالب له حق الحياة والموت على المغلوب .


بصفة عامة فلا جدال أن حركة الفتوحات الإسلامية دفعت التقدم خطوات إلى الإمام. لأنها قضت على الحكم الطبقى الذى يقوم على الامتيازات والنبالة الموروثة التى حرمت جماهير الشعب من المشاركة فى السياسة العامة أو حرية العمل للانتصاف ونيل لحقوق إلى مجتمع تقوم مبادؤه على المساواة وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح وحققت هذه الفتوح أكبر حركة انصهار ما بين الأجناس كان الإسلام هو المفاعل لها وحققت اللغة العربية – باعتبارها لغة القرآن – الوحدة بين الأجناس المختلفة. ولا يمكن أن تُعزى هذه المحاسن إلا لأن هذه الفتوح إنما تمت فى وقت كانت الدولة تعيش فى ظلال الوحى وبالذكرى القريبة من الرسول وسنرى بالطبع أن هذه المزايا ستتقاص مع إبقاء الدولة الإسلامية من ذكرى رسولها.. ومع خفوت أصداء الوحى وتحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض .

ولكن يمكن القول بصفة عامة أن الدولة الإسلامية حتى فى عهد بنى أمية والعباسيين عندما تحولت تماماً إلى ملك عضوض فإنها لم تتطور إلى ما تطورت إليه


الإمبراطورية الرومانية بحيث لم تصل الدولة الإسلامية فى أسوأ حالاتها إلى ما وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية فى أسوأ حالتها. وهذا بفضل الذكرى الوهنانة لدولة المدينة والخلفاء الراشدين. ولأن آيات القرآن الكريم الصادعة بالحرية والمساواة كانت على ما هى عندما نزل القرآن وكانت تلمع كالشهاب وسط الظلمات ..

* * *

عندما أحس أبو بكر بدنو أجله فإنه ختم بحياته بشىء أشبه ما يكون بما بدأ به حياته فى الخلافة ..

إن يوم السقيفة كان ماثلاً فى مخيلة أبى بكر.. وكانت صورة هذا السجال الذى كاد أن يمزق الأمة حيا فى ذاكرته ..

لهذا لم يرد لها أن تتكرر لأن من طبيعة الفلتة أن لا تتكرر، وكان الالتجاء إليها مرة يتكرر النجاح فى اجتيازها وهذا كان يعنى تمزق الأمة .

قرر أبو بكر أن يختار من يراه أصلح من يقود السفينة فى الفترة الحرجة التى تلاحقت فيها الأمواج. ولكنه

لم يشأ أن يستأثر بالأمر – وفى الوقت نفسه فإنه لم يعلن عن نيته لأن الإعلان عنها قد يؤدى إلى استثارات تعرقلها، وربما تحول دونها – فاستشار على حده عدداً من كبار الصحابة.. وكلهم أجمع على أن أصلح مرشح هو عمر بن الخطاب .

وهكذا أرسل فى أيامه الأخيرة – إلى عثمان بن عفان ليكتب وصيته وأملى عليه ...

"بسم ا الرحمن الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافه إلى المسلمين أما بعد" ثم أغمى عليه فكتب عثمان "فإنى استخلف عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً" ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على. فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس أن أفتلت فى غشيتى. قال نعم. قال جزاك ا خيراً عن الإسلام وأهله .

قال الطبرى ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم: أترضون بمن استخلف عليكم ؟ فإنى وا ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة.

وأنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا[1] " ..

ثم دعا أبو بكر عمر خاليا وأوصاه وأطال ولما خرج عمر من عنده. رفع يديه وقال "اللهم أنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضر بى من أمرك ما حضر، فأخلفنى فيهم فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح اللهم لهم ولاتهم وأجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته " .

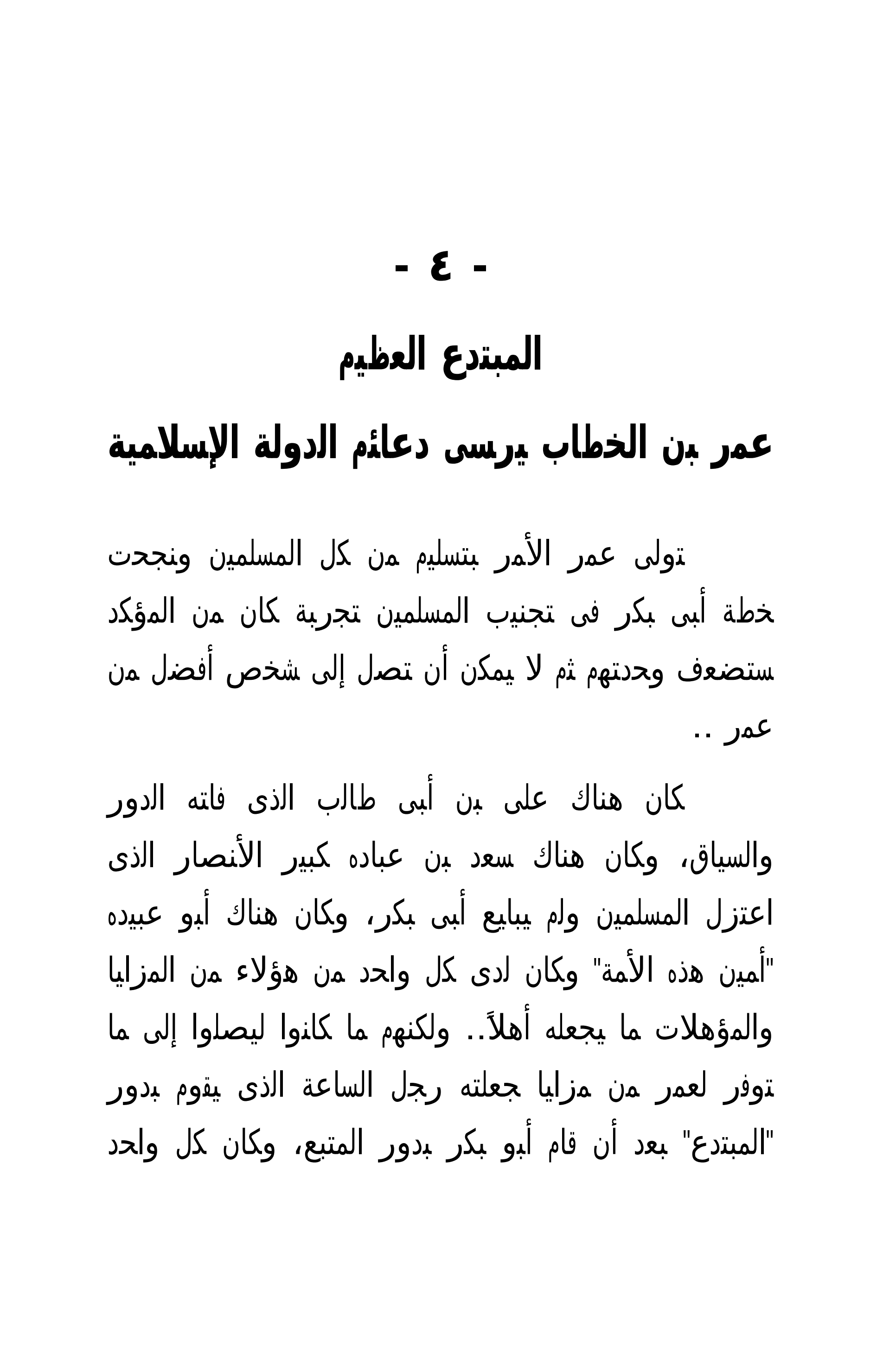
أحسن أبو بكر فى النهاية، كما احسن فى البداية ووقى الأمة فتنة التمزق فى الحالين، وكان فى اختياره عمر كالزوج الذى أحسن إلى أبنائه مقدماً عندما اختار أما لهم سيدة رصينة ممتازة ...

وفيما بين هذه البداية الموفقة والخاتمة الحسنة، فإنه أنقذ الدولة الإسلامية من هلاك محقق عندما كادت الردة أن تذهب بها أشلاء ..

---

(١) المرجع السابق للأستاذ عبد الوهاب النجار. ص١١٢ .

ولم يكن أبو بكر ملاكا، أن طبيعته التى تمتزج فيها الكياسة مع الحزم جعلته ينجو من كثير من المزالق. وصحبته الطويلة للرسول أعطته ملكه الهداية ولكنه كان بشراً دون وحى، وكان فيه من نقص البشر حده تتملكه فى لحظات قليلة دعا المسلمين إلى تحملها منه .



- ٤ -

المبتدع العظيم

عمر بن الخطاب يرسى دعائم الدولة الإسلامية

تولى عمر الأمر بتسليم من كل المسلمين ونجحت خطة أبى بكر فى تجنيب المسلمين تجربة كان من المؤكد ستضعف وحدتهم ثم لا يمكن أن تصل إلى شخص أفضل من عمر ..

كان هناك على بن أبى طالب الذى فاته الدور والسياق، وكان هناك سعد بن عباده كبير الأنصار الذى اعتزل المسلمين ولم يبايع أبى بكر، وكان هناك أبو عبيده "أمين هذه الأمة" وكان لدى كل واحد من هؤلاء من المزايا والمؤهلات ما يجعله أهلاً.. ولكنهم ما كانوا ليصلوا إلى ما توفر لعمر من مزايا جعلته رجل الساعة الذى يقوم بدور "المبتدع" بعد أن قام أبو بكر بدور المتبع، وكان كل واحد

منهما محقاً فى الدور الذى اختاره لنفسه. كان على أبى بكر أن يكون متبعاً لحداثة العهد بالرسول.. وليأمن الضلال أمام التجربة الجديدة، وكان على عمر أن يكون مبتدعاً بعد أن نجحت التجربة، وكبرت، وترامت حدودها ونشأت لها قضاياً لم يكن للعرب عهد بها. فكان من الضرورى أن "يبدع" حلاً...

والفقهاء يقولون إن البدعة السيئة إنما تكون فى مجال العبادات والشعائر وما تضمنه القرآن الكريم أما فى شئون الحياة الدنيا، فإن المضمون السنى للبدعة لا يسرى عليها. وهذا كلام ما كان يمكن أن يقف عنده عمر، وسنرى أنه سيبتدع فى العبادات كما ابتدع فى الدنيويات. بحيث لا يقل ما ابتدعه فى مجال الأولى عما ابتدعه فى مجال الثانية، بل إنه أطلق "بدعة حسنة" على اجتهاده فى جمع الناس لصلاة التراويح، وكان كل ما ابتدعه فى المجالين أكبر وأعظم مما يطيق المسلمون بعده، وأن حضوره وشخصيته هو الذى كفل لهذه التجديدات الوجود، فلما استشهد أهال المسلمون عليها التراب وكأنهم دفنوها عندما دفنوا عمر ...

ولعل أول هذه التجديدات مما لا يبدو ذا خطر وإن كان له آثاره الخطيرة، فقد أطلق المسلمون على أبى بكر خليفة رسول ا بتأثير اللحظة التى تمت فيها بيعته وكأنهم لا يريدون أن يهجروا، ذكرى رسول ا وأحبوا أن يكون حيا على الشفاه كما هو حى فى القلوب .

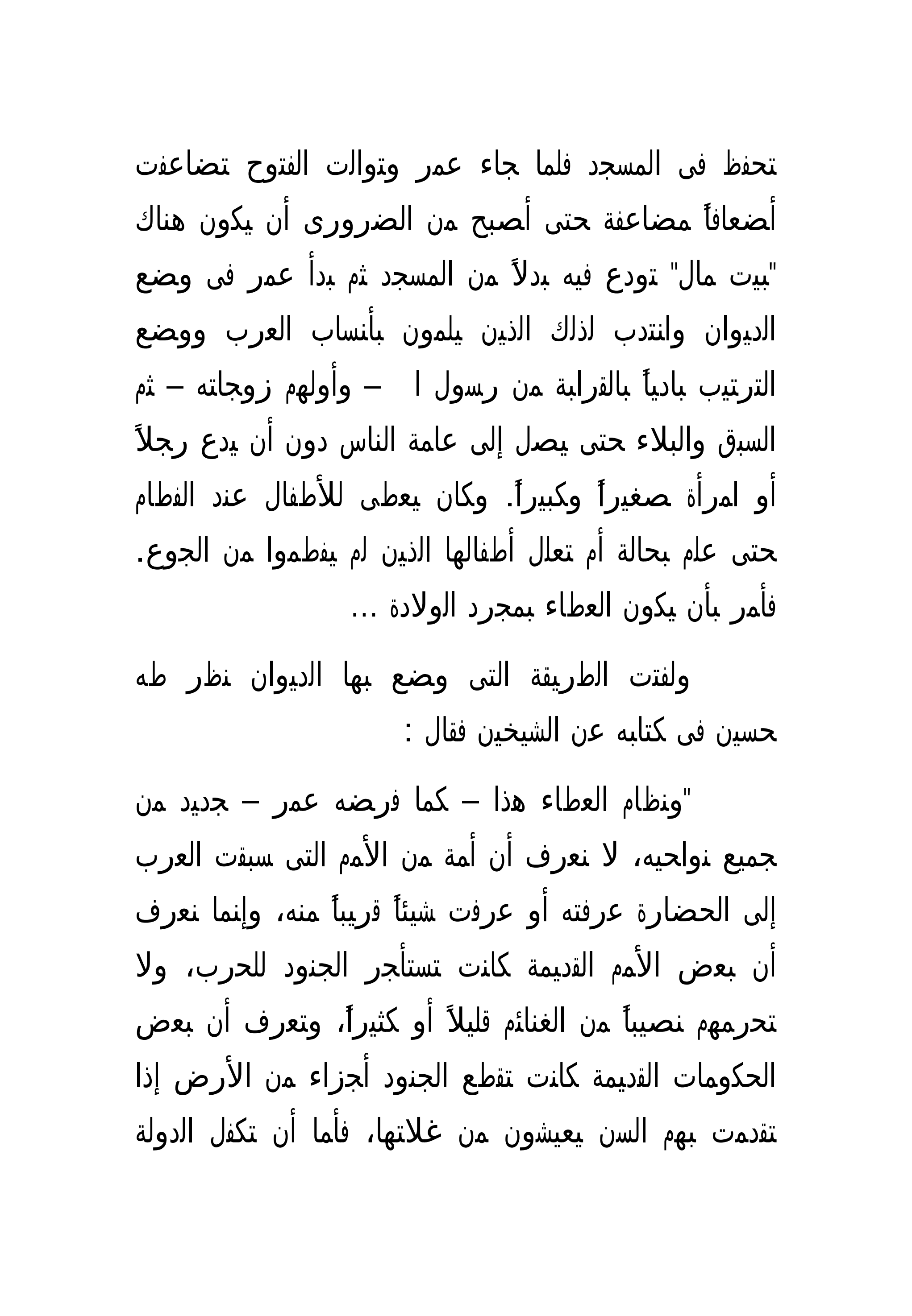
ولكن التعبير لم يكن دقيقاً ولعلنا لا نخالف الحقيقة إذا قلنا إنه تعبير خاطئ. فقد كان الرسول خاتم الرسل ولا رسول ولا نبى بعده فكيف يمكن أن يقال خليفة رسول ا ؟ وكان للرسول منزلة خاصة، وله على المؤمنين طاعة وتسليم، لا يجوز أن يكون لأحد، ولكن تعبير "خليفة رسول ا " قد يوحى بأن يكون له الطاعة التى كانت لرسول ا . وعمليا فإن المعنى سمح بأن يتطور إلى "خليفة ا " وظل ا .. والحاكم الذى يحكم باسم ا . وفى هذا من الخطر ما فيه .

وكان من حظ عمر أن يخلص من هذا اللقب وأن يحمل لقبا عملياً وواقعياً "أمير المؤمنين" وكلمة أمير تقف ما بين "الإمام" و "الحاكم" ففيها نبره من الإمامة دون أن يكون

فيها بعض المتداعيات السيئة لكلمة الحاكم. وبهذا انتفت أى صفة "رسوليه" لمن يتولى الأمر .

ولا يتسع المجال للحديث عن كل تجديدات هذا المبتدع العظيم لأننا لا نقدم تاريخاً وإنما نتحدث عن حظ الدولة الإسلامية من النجاح، وأنها لا تنجح إلا عندما تكون عن كثب وقرب من الرسول. ثم ترزق شخصيات موهوبة مؤمنة مثل أبى بكر وعمر. أما إذا بعد العهد ولم ترزق هؤلاء الموهبين، أو حتى لو رزقتهم (كما كان الحال فى على بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز) فإن الأمر لا يصفو لهم ولا يستمر معهم.. فإننا إنما أبحنا لأنفسنا الحديث عن هذه التجديدات لا نعرضها كسرد تاريخى وإنما لنثير جوانب فيها لم تحظ بعناية المؤرخين، ومن الخير ونحن نعالج الموضوع أن يلم بها القارئ ..

لقد كانت الصورة التى وضع بها عمر "الديوان" تثير الدهشة وتظفر بالإعجاب والتقدير لأنها جاوزت أرقى ما ذهبت إليه "دولة الرعاية" فى العصر الحديث. وكان أبو بكر قد بدأ عملية "العطاء" عندما بدأت الفتوح وأرسلت إلى المدينة "خمس الغنائم" والجزية أو ما تبقى منها، وكانت هذه الأموال


تحفظ فى المسجد فلما جاء عمر وتوالت الفتوح تضاعفت أضعافاً مضاعفة حتى أصبح من الضرورى أن يكون هناك "بيت مال" تودع فيه بدلاً من المسجد ثم بدأ عمر فى وضع الديوان وانتدب لذلك الذين يلمون بأنساب العرب ووضع الترتيب بادياً بالقرابة من رسول ا – وأولهم زوجاته – ثم السبق والبلاء حتى يصل إلى عامة الناس دون أن يدع رجلاً أو امرأة صغيراً وكبيراً. وكان يعطى للأطفال عند الفطام حتى علم بحالة أم تعلل أطفالها الذين لم يفطموا من الجوع. فأمر بأن يكون العطاء بمجرد الولادة ...

ولفتت الطريقة التى وضع بها الديوان نظر طه حسين فى كتابه عن الشيخين فقال :

"ونظام العطاء هذا – كما فرضه عمر – جديد من جميع نواحيه، لا نعرف أن أمة من الأمم التى سبقت العرب إلى الحضارة عرفته أو عرفت شيئاً قريباً منه، وإنما نعرف أن بعض الأمم القديمة كانت تستأجر الجنود للحرب، ولا تحرمهم نصيباً من الغنائم قليلاً أو كثيراً، وتعرف أن بعض الحكومات القديمة كانت تقطع الجنود أجزاء من الأرض إذا تقدمت بهم السن يعيشون من غلاتها، فأما أن تكفل الدولة

رزق المسلمين جميعاً على ذا النحو، فلسنا نعرفه فى التاريخ القديم، وما أظن أن الحضارة الحديثة، وفقت إليه .

وكل ما وصلت إليه الحضارة الحديثة فى بعض البلاد ووصلت إليه بآخرة، إنما هو التأمين الاجتماعى الذى تؤخذ نفقاته من الناس، فيرد عليهم بعد ذلك حين يحتاجون فى بعض الأمر إلى العلاج حين يمرضون، وإلى كفالة الحياة للشيوخ، والضعفاء، والعاجزين عن العمل لكسب القوت، وإلى تأمين العمال من أخطار العمل، وتأمين الذين يخدمون الدولة، والهيئة الاجتماعية على رزقهم حين تنقضى خدمتهم، فأما أن يكون لكل فرد من أفراد الأمة نصيب مقسوم من خزانة الدولة. فشئ لم يعرف إلا منذ عمر رحمه ا (١) .

وكانت سياسة عمر لعماله – أو بالتعبير الحديث – الولاة الذين يرسلهم لحكم الأمصار العظيمة مثل الشام والكوفة والبصرة ومصر واليمن الخ... سياسة رجل دولة يعلم حق العلم أثر ما فى الحكم والسلطان من مغريات تضعف أمامها النفس البشرية ولا يستقيم حالها إلا بالمتابعة

---

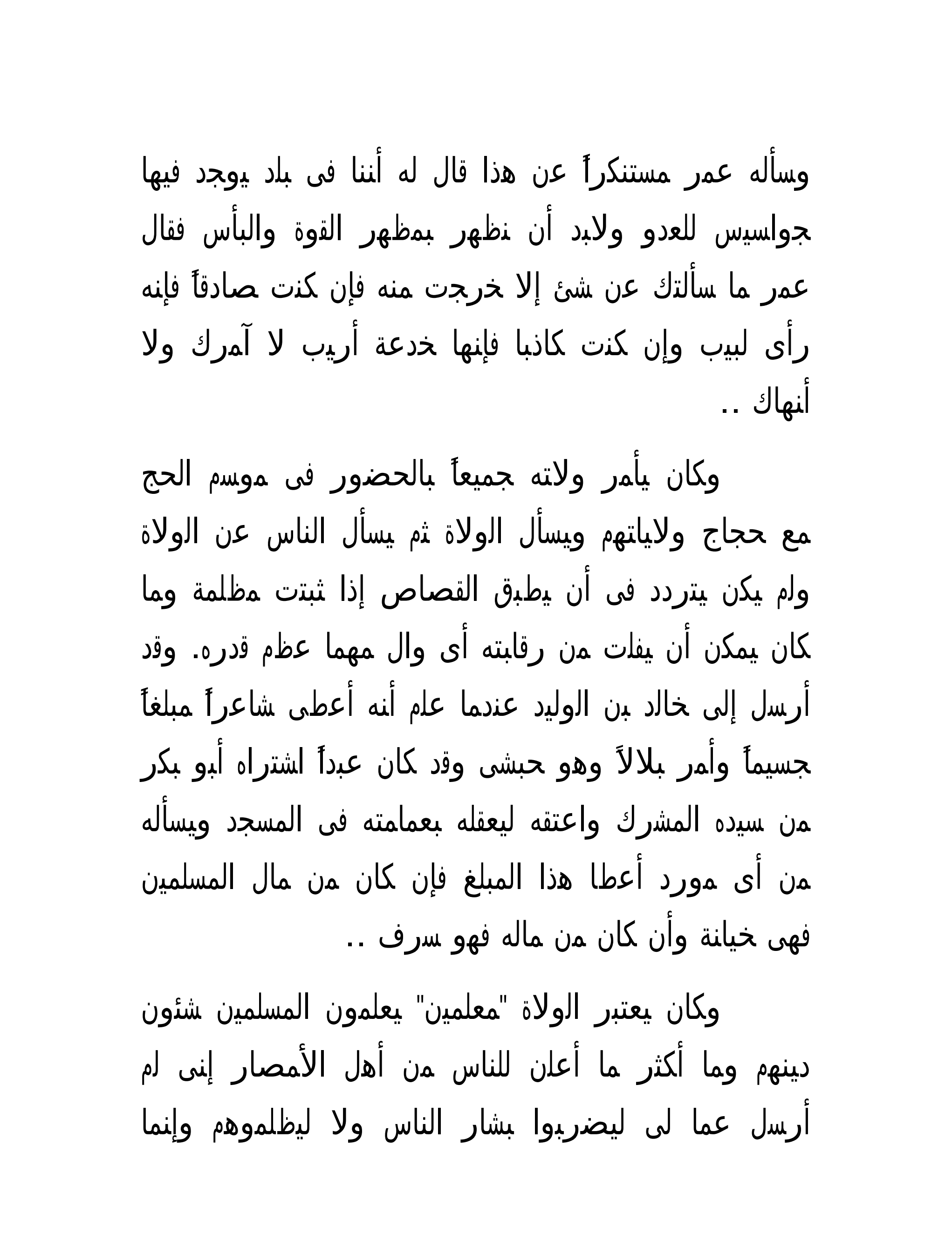
(١) الشيخان "موجزة" طبعة ١٩٧٧ للدكتور طه حسين ص ١٦٨ .

اليقظة والموالاة المستمرة. وكأنى بعمر يفترض أن كل وال لابد وأن يخضع بدرجة أو بأخرى لأغراء السلطة .

وكان إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً وأشهد عليه رهطا من المهاجرين يشترط فيه أن لا يركب برذونا، ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون ذوى الحاجات، فإن فعل شيئاً من ذلك حلت عليه العقوبة، وبناء على هذا كان يرسل مفتشين للتثبت من تطبيق هذه الشروط وفى كثير من الحالات كان هؤلاء المفتشين يقاسمون الولاة أموالهم وعندما علم بأن سعد بن أبى وقاص بنى لبيته باباً أرسل مندوبه "محمد بن مسلمه" وأمره بأن يحرق الباب فوراً وقبل أن يتكلم مع سعد بكلمه لأنه يكره أن يكون بين الحاكم وشعبه باباً يحتجب وراءه فأين هذا مما انتهت إليه الأمور فى العهد العباسى .

له حاجب دونه حاجب
وحاجب حاجبه يحتجب !!

وما كان يجوز عليه تعلات الحكام ولعل الوالى الوحيد الذى استطاع أن يخدعه بكياسة هو معاوية الذى عندما استقبله فى موكب يركب الجياد ويرتدى ثياباً قيمه



وسأله عمر مستنكراً عن هذا قال له أننا فى بلد يوجد فيها جواسيس للعدو ولابد أن نظهر بمظهر القوة والبأس فقال عمر ما سألتك عن شئ إلا خرجت منه فإن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب وإن كنت كاذبا فإنها خدعة أريب لا آمرك ولا أنهاك ..

وكان يأمر ولاته جميعاً بالحضور فى موسم الحج مع حجاج ولاياتهم ويسأل الولاة ثم يسأل الناس عن الولاة ولم يكن يتردد فى أن يطبق القصاص إذا ثبتت مظلمة وما كان يمكن أن يفلت من رقابته أى وال مهما عظم قدره. وقد أرسل إلى خالد بن الوليد عندما علم أنه أعطى شاعراً مبلغاً جسيماً وأمر بلالاً وهو حبشى وقد كان عبداً اشتراه أبو بكر من سيده المشرك واعتقه ليعقله بعمامته فى المسجد ويسأله من أى مورد أعطا هذا المبلغ فإن كان من مال المسلمين فهى خيانة وأن كان من ماله فهو سرف ..

وكان يعتبر الولاة "معلمين" يعلمون المسلمين شئون دينهم وما أكثر ما أعلن للناس من أهل الأمصار إنى لم أرسل عما لى ليضربوا بشار الناس ولا ليظلموهم وإنما

أرسلتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويقسموا بينهم فيئهم ويقيموا أمرهم كله على العدل .

وكان عمر يخشى على قادته النابغين أن يفتنوا بالناس أو أن يفتن الناس بهم. وكان هذا هو سبب عزل خالد بن الوليد وتشديد المراقبة على سعد ابن أبى وقاص وليس هناك شك فى صحة نظر عمر فى هذا وأنه كان يقدم تبريراً مرضيا لهؤلاء الولاة "كرهت أن أحمل الناس على فضل عقله" وكان الوحيد الذى أفلت من ذاكرة عمر فى هذا هو معاوية الذى خدعه بإجابة لبقة رغم أنه يعلم بالطبع سرائر وطباع الأمويين. وكان ذلك خليقا أن لا يبقيه فى منصبه هذه المدة الطويلة وليس من حل لهذا التصرف إلا أن التطور يفرض نفسه ويستطيع أن يخدع أذكى العقول وكان معاوية وتأسيسه "الشامى" هو ممثل التطور .



وقد أراد أن يعلم عماله العفة عن المال العام، فأخذ نفسه بصور من التحوط. فقد أرسل أبو موسى الأشعرى واليه على البصرة إليه بمال مع أبنيه عبد ا وعبيد ا وصرح لهما بأن يشتريا من سلع البصرة ويبيعانها فى

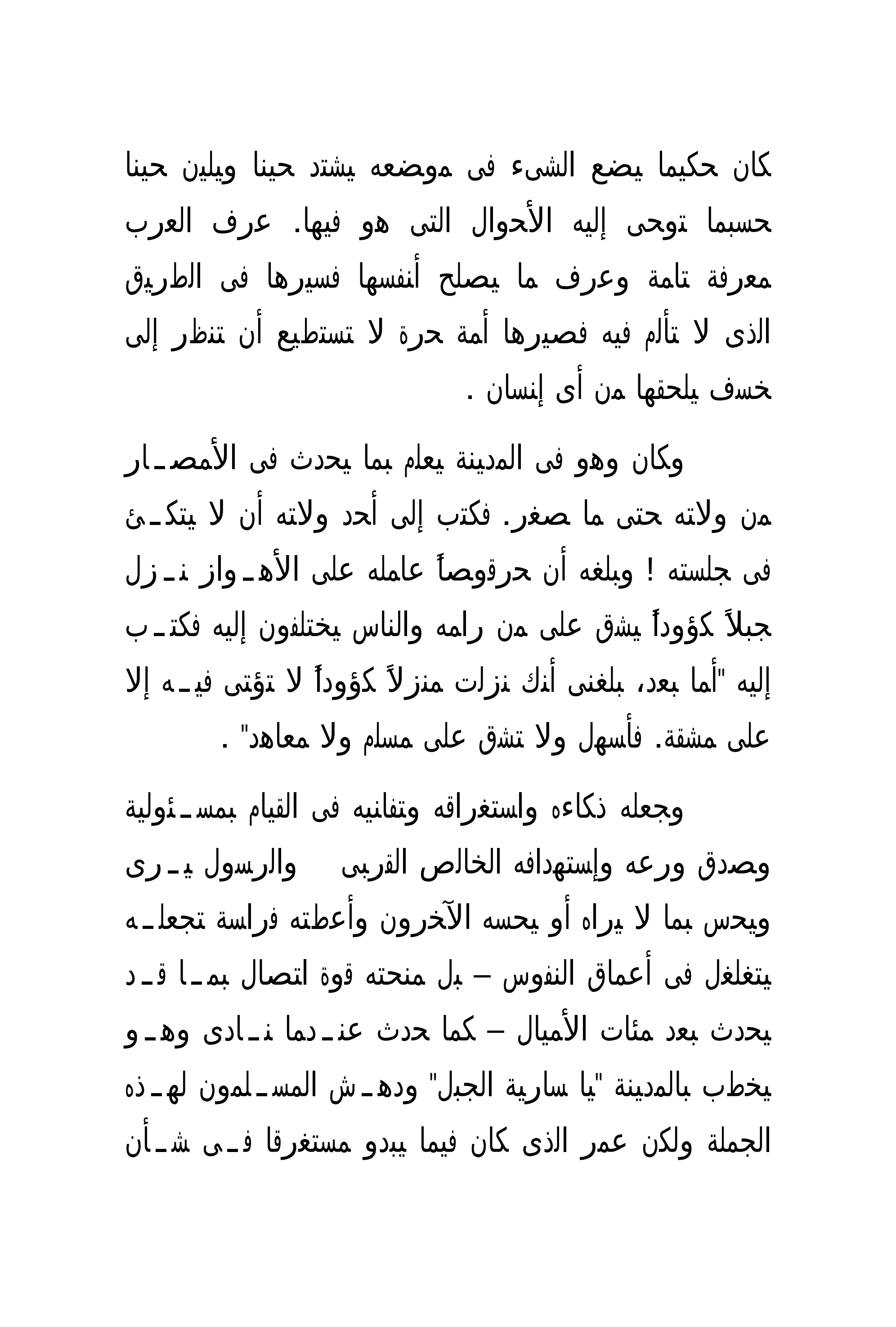
المدينة فيأخذا الربح ويؤديا المال. فلم يقبل عمر ذلك وطالب ولديه بما ربحاه فقال له ابنه عبيد ا "ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا. لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فأصر عمر حتى اقترح جلساءه أن يأخذوا النصف ويضاف النصف الآخر لبيت المال. وهذا ما يسمونه قراضا وهو أول قراض فى الإسلام". وأهدت ملكة الروم زوجته أم كلثوم بهدايا منها عقد ثمين. فما انتهى به البريد إليه حتى أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال: أنه لا خير فى أمر أبرم عن غير شورى من أمورى. قولوا فى هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم. فقال قائلون: هو لها بالذى أهدته وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك. وقال آخرون قد كنا نهدى الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً، فقال: ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها فى صدرها فأمر. بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها .

وكان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وأن الناس ينظرون

إليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم با لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت له العقوبة. ولعله فى هذا كان يتأول الآية ﴿يا نِساء النبي من يأْتِ مِنْكُن بِفَاحِشَةٍ مبينَةٍ يضاعفْ لَها الْعذَاب ضِعفَين وكَان ذَلِك علَى اللهِ يسِيرا﴾. {٣٠ الأحزاب} .

وكان عمر – كما يقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه "الخلفاء الراشدون" لا يستأثر بالأمر دون المسلمين ولا يستبد عليهم فى شأن من الشئون العامة. فإذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ويجيل الرأى معهم فيه ويستشيرهم. ومن مأثور قوله لا خير فى أمر أبرم من غير شورى. وكان مسلكه فى الشورى جميلاً. فإنه كان يستشير العامة أول أمره فيسمع منهم، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول ا وأصحاب الرأى منهم ثم يفضى إليهم بالأمر ويسألهم أن يخلصوا فيه إلى رأى محمود، فما استقر عليه رأيهم أمضاه وعمله .

كان عمر يحب رعيته حباً جما ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفا عن أموالهم عادلاً بينهم مسويا بين الناس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر مما له ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله



كان حكيما يضع الشىء فى موضعه يشتد حينا ويلين حينا حسبما توحى إليه الأحوال التى هو فيها. عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها فى الطريق الذى لا تألم فيه قصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان .

وكان وهو فى المدينة يعلم بما يحدث فى الأمصـار من ولاته حتى ما صغر. فكتب إلى أحد ولاته أن لا يتكـئ فى جلسته ! وبلغه أن حرقوصاً عامله على الأهـواز نـزل جبلاً كؤوداً يشق على من رامه والناس يختلفون إليه فكتـب إليه "أما بعد، بلغنى أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيـه إلا على مشقة. فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد" .

وجعله ذكاءه واستغراقه وتفانيه فى القيام بمسـئولية وصدق ورعه وإستهدافه الخالص القربى   والرسول يـرى ويحس بما لا يراه أو يحسه الآخرون وأعطته فراسة تجعلـه يتغلغل فى أعماق النفوس – بل منحته قوة اتصال بمـا قـد يحدث بعد مئات الأميال – كما حدث عنـدما نـادى وهـو يخطب بالمدينة "يا سارية الجبل" ودهـش المسـلمون لهـذه الجملة ولكن عمر الذى كان فيما يبدو مستغرقا فـى شـأن

معركة كانت تدور وقتئذ بين سارية بن حصن والفرس فرأى الفرس وهم يهاجمون سارية بأعداد كثيفة ووراءه جبل فنادى بأعلى صوته "يا سارية الجبل" ليلفته للاعتصام بالجبل وسمع سارية الصوت واعتصم بالجبل حتى أنقذ من هجوم الفـرس وهى حالة يسمونها "التلباثى" بحيث ينفذ البصر عبر الأجواء، ولكن هذه حالة خاصة بالطبع، أما فراسة عمر التى تميز بها فهى التى كانت تمكنه من أن تنسم واقعة حدثت بحكم نفسـية صاحبها التى كان عمر يفهم دخائلها تماماً. وهنـاك حالتـان تمثلان ذلك. فقد زار أبو سفيان ابنه معاوية وعندما عاد وقع فى ذهن عمر أن ابنه معاوية وصله فقال "اجزنا يا أبا سفيان" فقال ما أصبنا شيئاً فنجزيك" فمد عمر يده فأخذ هائماً بيد أبى سفيان وبعثه مع رسول إلى هند زوجة أبى سفيان وقال قـل لها ابعثى الخريجين فبعثتهما. ووجد عمر فيهما عشرة آلاف درهم فطرحها فى بيت المال. أما الواقعة الثانية فقد هم عمر بعزل عامله على العراق المغيرة بن شعبة وتوليه جبير بـن مطعم مكانه. وشعر المغيرة بحاسته المرهفة بذلك فطلب من جليس له أن يدس امرأته وكانت معروفة بالتقـاط الأخبـار حتى سميت "لقاطه الحصى" لتعرف الحقيقة من زوجة جبير،

فذهبت إليها وسألتها عن المكان الذى يقصده جبير فى سفره فأخبرتها أنه ينوى العمرة فقالت لقاطه الحصى أنه كتم عليك أمره ولو كانت لك منزلة عنده لأخبرك بالحقيقـة فغضـبت امرأة جبير ودخل عليها وهى مغضبة فلم تـزل بـه حتـى عرفت سر سفره وأخبرت لقاطه الحصى وعـرف المغيـرة فذهب إلى عمر وفاتحه بما علم فقال له "كأنى بك يا مغيـرة قد فعلت كبت وكتبت، وأنشدك ا هل كـان كـذلك فقـال المغيرة اللهم نعم. (عبقرية عمر للعقاد) ..

فهذه الحوادث وأمثالها تظهر لنا أن عمق إيمانه قـد صفت طبيعته وطهرت سريرته حتى أصبح يرى ما لا يراه الآخرون، كما أنها تبرز لنا جانبا من جوانب اهتماماته هـو حرصه على الرجال الأكفاء الذين يجتمع لهم القوة والأمانـة وعندما كان فى مجلس يذكر فيه كل واحد ما يتمنـون قـال عمر "ولكنى أتمنى بيتا مملوءاً بأمثال أبى عبيدة بن الجراح. وسألهم يوماً عمن مرشح يوليه فقالوا كيف تريده فقـال "إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنـه أميـرهم وإذا كـان أميرهم كان كأنه رجل منهم" ولعمرى أن هـذا لخيـر مـا

يوصف به مرشح لولاية، وما ينم عن معرفة دقيقـة بأقـدار الرجال .

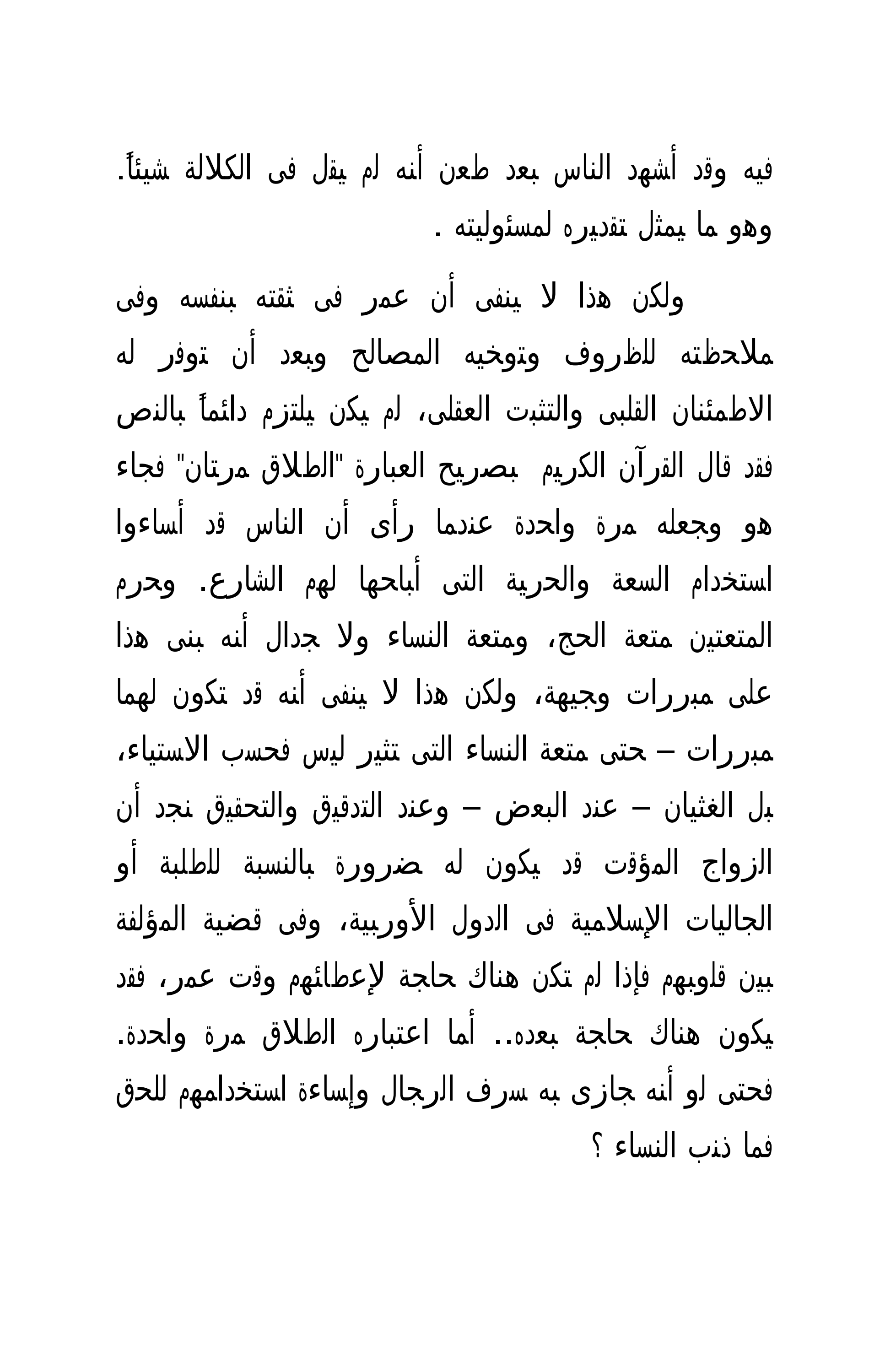
* * *

أما إبتداعاته فى المجال الدينى الخالص وبالذات طريقته فى فهم النصوص واستخلاص الحكم، فإنها كانت سابقة لوضع أصول الفقه الذى ظهر بعده بقرابة مائة عام، وكان أعمق فهما له، وقد شرح ذلك بإفاضة الدكتور محمد بلتاجى فى كتابه القيم "منهج عمر بن الخطاب فى التشريع" وقال إن الذى لفت نظره أول مرة إلى ذلك هو الشيخ على حسب ا وهو أحد الأساتذة الكبار فى أصول الفقه. إذ قال أن عمر – وإن سبق زمانه نشأة علم أصول الفقه بأكثر من قرن من الزمان – فإنه بصورة عملية عبقرية لا مثيل لها قد تجاوز مقولات هذا العلم ومقرراته التى انتهى إليها علماء الأصول بعده، لأن فهمه وتطبيقه لروح النصوص الشرعية ومقاصدها المبتغاة كان ذا طابع منفرد بحق. يحسبه الجاهل خروجاً على مضمون النص ومخالفته له وإنما هو عند التحقيق الفهم العبقرى الذى يجمع بين المفهوم الصحيح للنصوص وتحقيق مقاصدها المبتغاة وتحقيق مصالح الناس

المعتبرة فى الوقت نفسه. أو باختصار العمل بروح الشريعة لا بمنطوقها قط.. ولو أن أئمة الفقه الشافعى وأبو حنيفة الخ... بدءوا حيث انتهى عمر، وقد سبقهم بالطبع وفيه مقنع ورضا... لأتجهوا بالفقه الوجهة المثلى. ولكن الذى حدث هو أنهم نكصوا على أعقابهم وشغلوا بقيل وقال واستعبدتهم النصوص آونة والسند آونة أخرى .

وكان عمر لا يقبل حديثاً إلا بشاهدين – باستثناء بعض كبار الصحابة الذين يوثق بهم كعبد الرحمن بن عوف أو أبو عبيده الجراح أو سعد بن أبى وقاص، ولو أن علماء الحديث أخذوا بما كان عمر يأخذ به ولهم فيه أسوة حسنة – لخلصنا من مشكلة أحاديث الآحاد، وكان لهم سند قوى فى أن الإسلام لا يقبل إثبات واقعة إلا بشاهدين عدلين. وقد تكون بضعة جنيهات فكيف إذا كان الحديث يتضمن مبدءاً تقطع به أعناق وتطلق به نساء ويلزم الناس الطاعة للحكام الخ ...

على أن عمر ما كان يتخذ قراراً إلا بعد الاطمئنان القلبى والتثبت العقلى. وما لم يتحقق فيه هذان فما كان يبت



فيه وقد أشهد الناس بعد طعن أنه لم يقل فى الكلالة شيئاً. وهو ما يمثل تقديره لمسئوليته .

ولكن هذا لا ينفى أن عمر فى ثقته بنفسه وفى ملاحظته للظروف وتوخيه المصالح وبعد أن توفر له الاطمئنان القلبى والتثبت العقلى، لم يكن يلتزم دائماً بالنص فقد قال القرآن الكريم بصريح العبارة "الطلاق مرتان" فجاء هو وجعله مرة واحدة عندما رأى أن الناس قد أساءوا استخدام السعة والحرية التى أباحها لهم الشارع. وحرم المتعتين متعة الحج، ومتعة النساء ولا جدال أنه بنى هذا على مبررات وجيهة، ولكن هذا لا ينفى أنه قد تكون لهما مبررات – حتى متعة النساء التى تثير ليس فحسب الاستياء، بل الغثيان – عند البعض – وعند التدقيق والتحقيق نجد أن الزواج المؤقت قد يكون له ضرورة بالنسبة للطلبة أو الجاليات الإسلامية فى الدول الأوربية، وفى قضية المؤلفة بين قلوبهم فإذا لم تكن هناك حاجة لإعطائهم وقت عمر، فقد يكون هناك حاجة بعده.. أما اعتباره الطلاق مرة واحدة. فحتى لو أنه جازى به سرف الرجال وإساءة استخدامهم للحق فما ذنب النساء ؟

على أن هذه الجرأة التى جعلت اجتهادات عمر شجا فى حلق الفقهاء هى التى تثير فينا الإعجاب وتدفعنا إلى الأقدام. وأن نقتدى به فى الأقدام والاجتهاد لا أن نقلده فيما انتهى إليه بالفعل ...

* * *

كان كل شئ يسير بالتوازن ما بين قطبى الدعوة والدولة، وفى إطار التوجيهات الإسلامية فالجيوش الإسلامية تنطلق كل يوم لتكسب أرضاً جديدة ولتنتصر فى موقعة جديدة، وعمر بن الخطاب يسير فى طرقات المدينة "بمرقعته ودرته" ويجلس مع كبار الصحابة ويضع النظم والترتيبات التى تكفل النظام لهذا التضخم الكبير والسياق الحثيث للأحداث ..

ولكن كان هناك شئ ما يحيك فى نفس عمر.. شئ يثير فيه التوجس والخوف من المستقبل. فحتى هذه الفتوحات مع كل ما تعنيه من إعلاء لكلمة الإسلام، وإنقاذ الجماهير المستعبدة فى إسار الحكم الطبقى والإمبراطورى.. كانت لها مضاعفاتها. فقد جاءت بأفواج تلو أفواج من "الموالى" حتى سدت طرقات المدينة، وجعلته يستعيذ من سبى "جلولاء" كما

كان خمس الغنائم يتكدس فى بيت المال. وقد جاءت الفتوح بسوارى كسرى. وألبسهما عمر بن الخطاب بنفسه فى يدى سراقه تحقيقا لوعد الرسول ﷺ وحصل "شويل[1] " على أسيرته التى كانت عندما رآها غادة فاتنة.. وكان عمر يتساءل فى نفسه إلى أين ستنتهى هذه التطورات التى فتحت أمام الناس أبواب مغلقة وعوالم كانت مجهولة ..

كان عمر قد أرسل الجنود ليكونوا رسل هداية وتعريف بالدين وإنقاذ للشعوب من الحكم الطبقى الجائر، ولكنه رأى هؤلاء الجنود وقد أتخموا بالغنائم.. فهل هذا نعمه أو هو نذير بخطر محيق... فى فترات كان يتمنى لو أن بينه وبين فارس سداً. ولم يكن يسعد بتوالى الفتوح. وقد رفض

---

(١) يقولون أن رسول ا عندما ذكر أن المسلمين سيفتتحون ملك فارس الحيرة سأله أحد الجالسين ويدعى "شويل" أن يعطيه المسلمون كرامة بنت عبد المسيح وكان قد رآها فمال إليها فوعده الرسول بذلك فلما فتحت الجرة على يد خالد بن الوليد، وكان شويل فى الفتح وشهد له شهود بوعد الرسول فتمسك خالد بتسليم كرامة فرفضوا، ولكنها قالت لهن "هونوا عليكم وأسلمونى فإنى سأفتدى نفسى فأخذها شويل، وكانت قد أصبحت عجوزا فزهد فيها وعندما عرضت عليه ألف درهم سر وأطلقها وأخذ الألف. فقالوا له لو طلبت أكثر لأجابتك فقال وا ما كنت أظن أن هناك عدداً أكثر من الألف !!

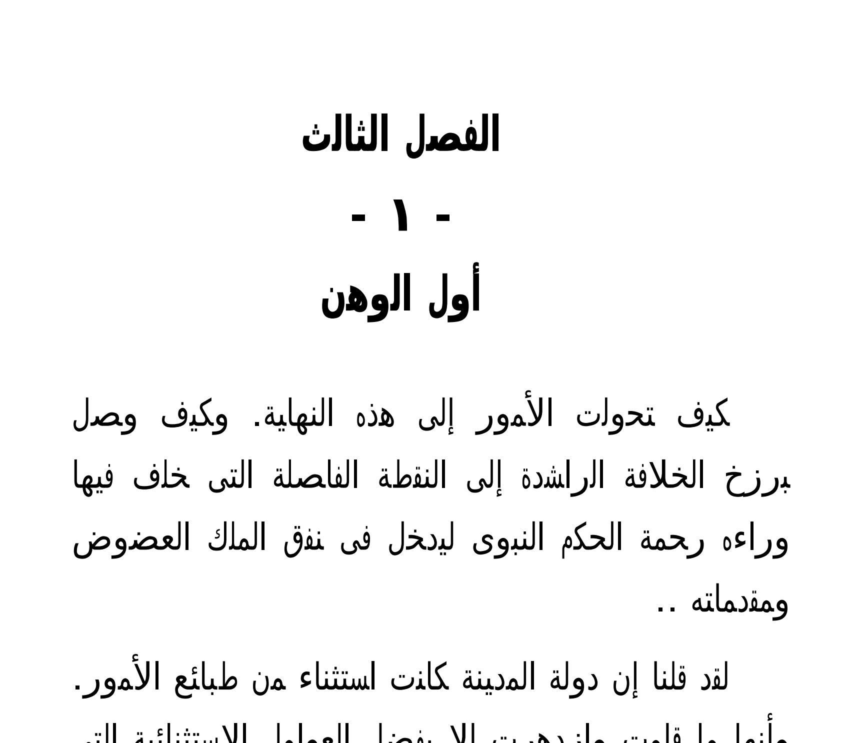
رفضاً باتا أن يركب العرب البحر وينطلقوا عبر أمواجه بعد أن وصف عمرو بن العاص وأن الناس فيه "دود على عود .

ولم يسعد بانهمار الأموال على المدينة. بل أنه بكى عندما رأى أكداساً منها تلمع وتبرق ولما سئل كيف يبكى والمناسبة مناسبة شكر وسرور قال "وا ما أعطى ا هذا أقواما إلا ألقى بأسهم بينهم" وجعلته هذه الثروات، وامتداد الفتوح يشك هل هو خليفة أم ملك – رغم كل ما كان يحذره وما كان يحرص عليه من اتباع العدالة بين الناس وأخذه نفسه وأهله بصور بالغة من التقشف فكان يكون "وا لا أدرى أخليفة أنا أم ملك، فإن كنت ملكا فإن هذا أمر بعظيم.. فقال قائل يا أمير المؤمنين أن بينهما فرقا قال ما هو قال الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا بضعه إلا فى حق وأنت بحمد ا كذلك والملك يعسف الناس بالناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا فسكت عمر ولم يكن فى هذا ما يطمئن هواجسه ومخاوفه. وحكم بأن الدولة قد وصلت إلى أحد مفاصل التطور، أو كما قال هو "كالجمل البازل الذى لا يكون بعده إلا الضعف والتدهور" .

كان يحس أن هناك أزمة تتجمع غيومها فى الأفق القريب وكان يقف بكل جهده حتى لا تتفاقم. ولكن لما كانت تعبيراً عن وصول المجتمع العربى إلى درجة من التطور لا تصلح معها سياسة "دولة المدينة" فقد ظل هاجس هذا التطور يقلقه، وكان يعلم أن كل ما يقوم به من متابعة ورقابة وملاحقة لعماله لا يكفى واعتزم أن يزور الأمصار مصراً مصراً ويقضى فى كل منها شهراً حتى يطمئن بنفسه على تحقيق العدالة "على الطبيعة" كما تبين أن طريقة أبى بكر فى تقسيم العطاء على أساس المساواة أفضل من تقسيمه على أساس الاستحقاق لأن الأخيرة أسفرت عن تضخم الثروات لدى البعض ..

وكان من الإجراءات الحاسمة التى أراد بها أن يحول دون حدوث الفتنة احتجازه لسروات قريش ومشيخة الصحابة ووجوه الناس بالمدينة. وعدم السماح لهم بلأنسياب إلى الأمصار لأنه كان متأكداً أن ذلك سيحدث فتنة هؤلاء بما فى الأمصار من مدنية ومتاع الخ... وفتنة أهل الأمصار بلقاء صحابة الرسول.. وقال "أن قريش يريدون أن يجعلوا مال

ا   دولة بينهم أما وابن الخطاب حى فلا. إلا وأنى قائم لهم بحرة المدينة فآخذ بحجزهم أن يتهافتوا فى النار .." .



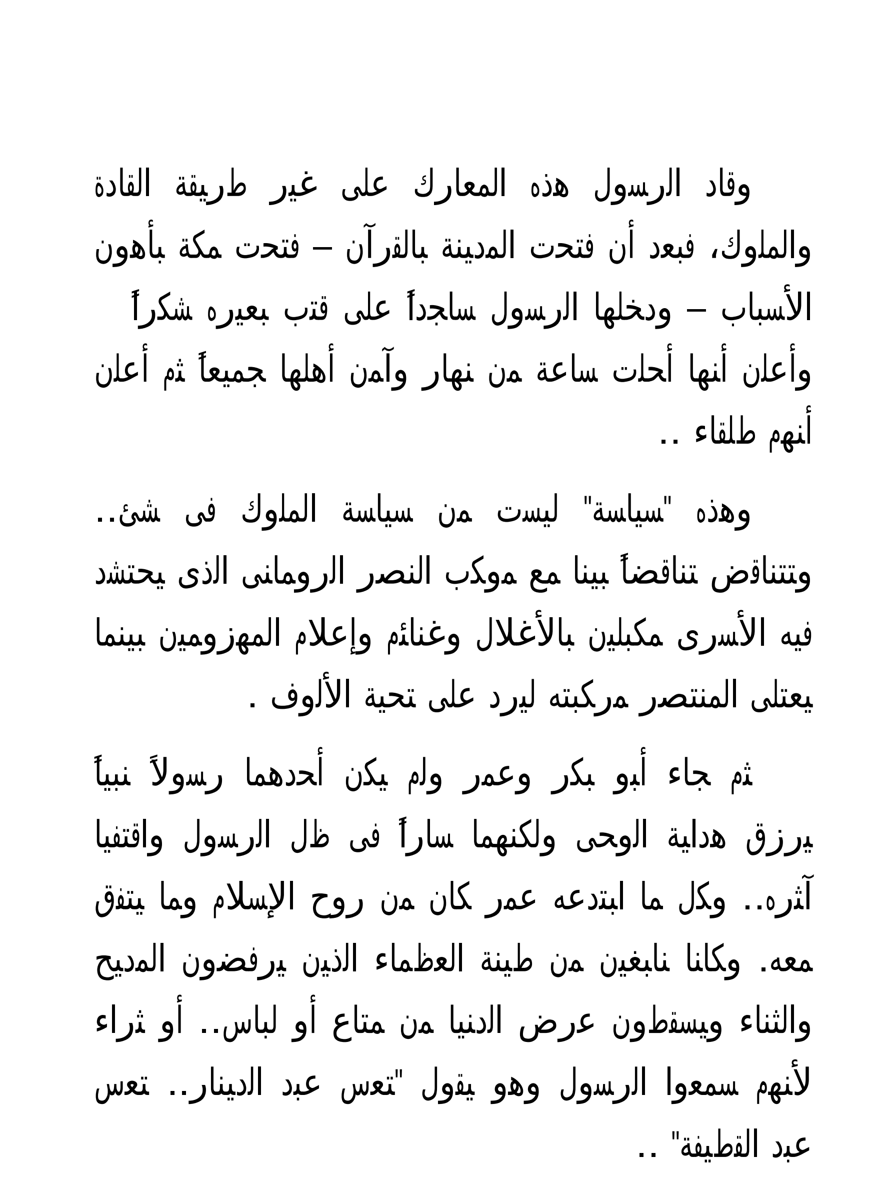
الفصل الثالث

- ١ -

أول الوهن

كيف تحولت الأمور إلى هذه النهاية. وكيف وصل برزخ الخلافة الراشدة إلى النقطة الفاصلة التى خاف فيها وراءه رحمة الحكم النبوى ليدخل فى نفق الملك العضوض ومقدماته ..

لقد قلنا إن دولة المدينة كانت استثناء من طبائع الأمور. وأنها ما قامت وازدهرت إلا بفضل العوامل الاستثنائية التى أشرنا إليها أكثر من مرة من التأسيس النبوى الذى كان النبى فيه رسولاً و "حكما" بين الناس فيما شجر بينهم سواء كانوا مؤمنين أو مشركين أرادوا استئصال الإسلام وجر المؤمنين إلى القتال الذى كان كرها لهم، ولكن ليس منه مناص، بل أن التملص منه لا يعنى سوى سيادة الاستبداد وانتفاء حرية العقيدة.. ولا خير فى مثل هذه الحياة.



وقاد الرسول هذه المعارك على غير طريقة القادة والملوك، فبعد أن فتحت المدينة بالقرآن – فتحت مكة بأهون الأسباب – ودخلها الرسول ساجداً على قتب بعيره شكراً وأعلن أنها أحلت ساعة من نهار وآمن أهلها جميعاً ثم أعلن أنهم طلقاء ..

وهذه "سياسة" ليست من سياسة الملوك فى شئ.. وتتناقض تناقضاً بينا مع موكب النصر الرومانى الذى يحتشد فيه الأسرى مكبلين بالأغلال وغنائم وإعلام المهزومين بينما يعتلى المنتصر مركبته ليرد على تحية الألوف .

ثم جاء أبو بكر وعمر ولم يكن أحدهما رسولاً نبياً يرزق هداية الوحى ولكنهما ساراً فى ظل الرسول واقتفيا آثره.. وكل ما ابتدعه عمر كان من روح الإسلام وما يتفق معه. وكانا نابغين من طينة العظماء الذين يرفضون المديح والثناء ويسقطون عرض الدنيا من متاع أو لباس.. أو ثراء لأنهم سمعوا الرسول وهو يقول "تعس عبد الدينار.. تعس عبد القطيفة" ..

وعندما يشرف على الأمر هؤلاء العباقرة المؤمنين فإن إيمان الناس يصفوا وتتملكهم قوة الأسوة فيؤثرون الآخرة

على الدنيا ويعفون من المغانم وتستقيم طبيعتهم ويتغلبون بقوة الإيمان – على الضعف البشرى.. وعلى "الفجور" المغروس فى النفس البشرية .

ولكن إلى متى ...

أن محمداً بعد ليس إلا "رسولاً قد خلت من قبله الرسل" فكتب عليه الموت كما كتب على الناس جميعا "إنك ميت وإنهم ميتون" ..

ولحق به أبو بكر كما لحق به عمر ...

وكان من الطبيعى أن ينحسر مد الإيمان "وأن تنتهى قوته الدافعة ومناعته الحصينة عند الناس" ...

إن السؤال الهام الذى يفوت الكتاب الإسلاميين الذين يتحدثون عن القوة الخارقة للإيمان هو: إلى أى وقت يستمر هذا الإيمان. وتستمر وقدته ودفعته ؟ ففى التجربة التى نحن بصددها ظل هذا الإيمان ثلاثين عاماً ثم أخذت وقدته ودفعته تفقدان قوتهما شيئاً فشيئاً .

والقضية ليست هى أهمية الإيمان، فلا جدال فى أنه القوة التى تدفع الجماهير لعظائم الأعمال، كما يرفع الوقود الطائرة من الأرض إلى عنان السماء.. ونحن نؤمن بهذا ولكننا – بحكم الخبرة ومعرفة السوابق التاريخية – نجزم أن الإيمان العظيم الذى يمثل القوة الدافعة ليس هو الدأب المستمر ولا هو الحال الطبيعى، ولابد أن يأتى وقت – طال أو قصر – تنفد فيه القوة الدافعة وتنطفئ فيه الوقده المشتعلة ..

هذا ما يوجب علينا أن نضع هذا العامل فى حسابنا فنعمل على تجديد الإيمان وتزويده بوقود جديد. وفى الوقت نفسه فلابد أن تكون توقعاتنا – فى المدى البعيد – هى فى حدود الإطار الطبيعى للنفس البشرية من ناحية، ولأصول المجتمع البشرى وما يحفل به من تعدديات وتيارات الخ من ناحية أخرى بحيث تستبعد الصورة الملائكية أو المثالية التى تلصق بالأذهان وتقترن بالإيمان. إن هذه الصورة وأن كانت حقيقية ولابد منها فى فترة ما، فإنها لا تستمر طويلاً، ولابد أن تعود الأمور إلى سياقها الطبيعى ..

* * *

ومن المحتمل أن لو كان عثمان فى مثل عبقرية عمر لمد فى عمر الخلافة الراشدة سنين عدداً. ولكن الذى حدث وجعل الانحسار حتما مقضيا، هو أن عثمان كان نقيضاً لعمر فى كل شئ تقريبا. ومن ثم فإن سياساته أدت إلى انحسار الإيمان، وانحسار الإيمان أدى إلى اغتياله واغتياله فاقم الأمور وبدأت "الفتنة الكبرى" ..

والحقيقة أن عثمان لم يكن فحسب نقيضاً لعمر. بل أنه كان **إيذانا بالانتقال من "الموضوعية" التى كانت طابع الخلافة إلى الذاتية التى هى طابع الملك..** والتى كانت متأصلة فى بنى أمية كما سيلى. لأن عثمان رغم سابقته ومزاياه كان يحمل وراثة تجعل الذاتية فيه تغلب الموضوعية.

لإيضاح هذا نقول إن عامة الناس عندما يتركون لأنفسهم فإنهم يتصرفون تبعاً لما تهوى الأنفس. فيحبون الثراء والرغبة فى الامتلاك إلى درجة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة" ويؤثرون الاستمتاع ليس فحسب بطيبات الحياة الدنيا، بل بكل ما يمكن أن تأتى به الدنيا من فنون وصور الاستمتاع إلى آخر مدى.. كذلك فإن النفس تهوى

السيادة. وأن تأمر فتطاع وأن يتملقها الناس بالمديح والإطراء وأن تكون لها حرية فى العطاء والمنع والأخذ والرد. وعندما ترد أخيلة المجد على فرد ما فلكى تحمل أسمه أو أن يفتح من البلاد، ويقهر من العباد أكثر مما فعل غيره الخ ...

وما تركت النفس البشرية لطبعها فإنها تسلك هذا السبيل لأن الإنسان ضعيف أمام الأغراء خاصة وأن هناك شيطاناً مريداً يسرى من الإنسان مسرى الدم يدفع به إلى منازع الغواية ويزين له الشهوات.. فإذا كان تاجراً اشترى بأرخص الأسعار وباع بأغلاها. وإذا كان صانعاً استغل عرق العمال فأطال فى ساعات العمل وبخس الأجور. وإذا كان حاكماً استبد بالناس ونكل بالمعارضين واستحوز على الثروات، بل أنه كرجل يستغل قوته فى إخضاع زوجته وأولاده، وهو لا يرفض أن يستثمر أمواله فى معاملات مشبوهة أو صناعات أسلحة مدمرة، أو مشروبات مسكرة. أو إشاعة لشهوات الجنس بالأفلام العارية الخ... ولا يمكن أن يغير هذا المسلك وأن يتجاوز ذاته إلا بفضل قوة خارج الذات الإنسانية، وأعظم من الذات الإنسانية وتتبلور فيها القيم والموضوعية وهى ما يقدمه الإيمان با تعالى. خالق هذا الكون وأصل

القيم والإطلاق والتجريد الخ... ولما كان العقل البشرى أعجز من أن يأخذ عن الألوهية فكرة دقيقة، فإن ا تعالى أرسل رسله ليعرفوا البشر عليه بفضل شعاع يبدد الظلمات، وبذلك يمكن أن يتغير المسلك الذاتى بسوءاته إلى مسلك موضوعى يلحظ القيم ويتجاوز الذات ...

وحدث هذا بالنسبة للعرب بفضل الرسالة النبوية التى انتشلتهم من تقاليد الجاهلية الذاتية إلى آفاق الموضوعية الربانية وقيمها وبفضل هذا قامت ثورة الإسلام.. وظهرت دولة المدينة – تجربة فريدة فى التاريخ الإنسانى .

كان أمر قريش قبل بعثة الرسول ببضعة عقود من السنين يعود إلى قصى بن كلاب الذى هيمن على مكة والبيت وكانت إليه الحجابة "أن تكون مفاتيح البيت عنده والسقاية (يعنى سقاية زمزم وكانوا يصنعون منها شرابا فى موسم الحج بعسل أو لين) والرفادة "الطعام الذى يجمع لأهل الموسم) والندوة "دار الشورى" واللواء "أى القيادة فى الحرب" وعندما مات قصى برز من أبنائه عبد مناف. وولد لعبد مناف عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل. فولى السقاية والرفادة هاشم دون أخويه عبد شمس والمطلب وروى أن

عبد شمس وهاشم كانا تؤمين ملتصقين فصل بينهما بسلاح فقال العرافون أن سيكون بينهما دم إلى الأبد! وقامت منافسة ما بين هاشم وعبد شمس رجحت فيها كف هاشم من كافة الوجوه بحيث خصوا هاشم بالسقاية والرفادة دون عبد الشمس .

ويموت هاشم فيرث أبنه عبد المطلب مناصبة دون عبد شمس. ويموت عبد شمس ليخلفه ابنه أمية ..

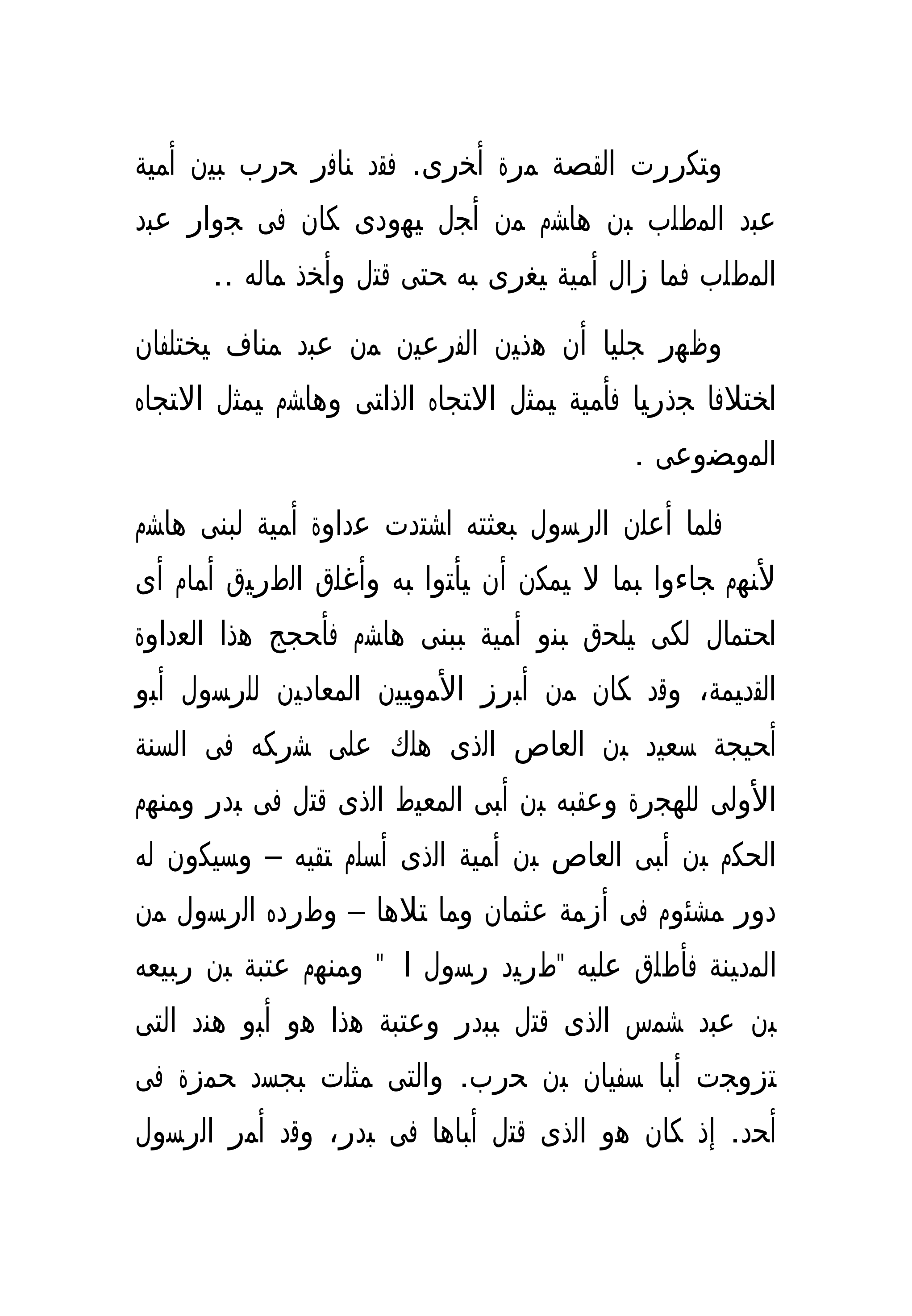
وقامت منافسة حادة ما بين عبد المطلب وأمية لأن الخلاف فى الطبائع جعل عبد المطلب يمثل "الموضوعية" وأمية يمثل "الذاتية" ..

ومع أن الصورة المثلى للموضوعية هى ما تأتى به الأديان عن ا تعالى فإن طبيعة عبد المطلب كان فيها كل خلائق وصفات "موضوعية" الدين إلا وهى قيم الخير والحب والسلام والإيثار والانطلاق من هذه القيم والعمل بها، وكأنما أراد ا تعالى لنبيه أن يرث هذه الطبيعة حتى يكللها الوحى عند محمد – حفيد عبد المطلب بحيث يصادف هذا الوحى الطبيعة المهيئة له

وعلى نقيض هذه الطبيعة كانت طبيعة أمية – الذاتية تمثل الأثرة وحب النفس والكسب والحرص على الدنيا والحكم على الأمور من هذه المنطلقات. ولهذا فلم يكن غريبا أن يشتغل معظمهم بالتجارة وأن يحصلوا على ثروات طائلة ..

وحاول أمية أن يفعل مثلما كان يفعل هاشم من إطعام بكرم وسخا، وطيبة نفس، وكان هاشم يقدم الخبز واللحم والسمن والسويق والثمر.. وعجز أمية عن أن يماثل هاشم فى ضيافته لأنه كان يتكلفها وقامت "منافرة" بينهما أيهما أفضل يكون على الخاسر فيها أن يدفع خمسين ناقة سود الخدمة لتنحر، وأن يجلو عن مكة عشر سنين وكان الحكم بينهما فى هذه المتنافر هو الكاهن الخزاعى بعسفان فحكم لهاشم على أمية. فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها وخرج أمية إلى الشام ..

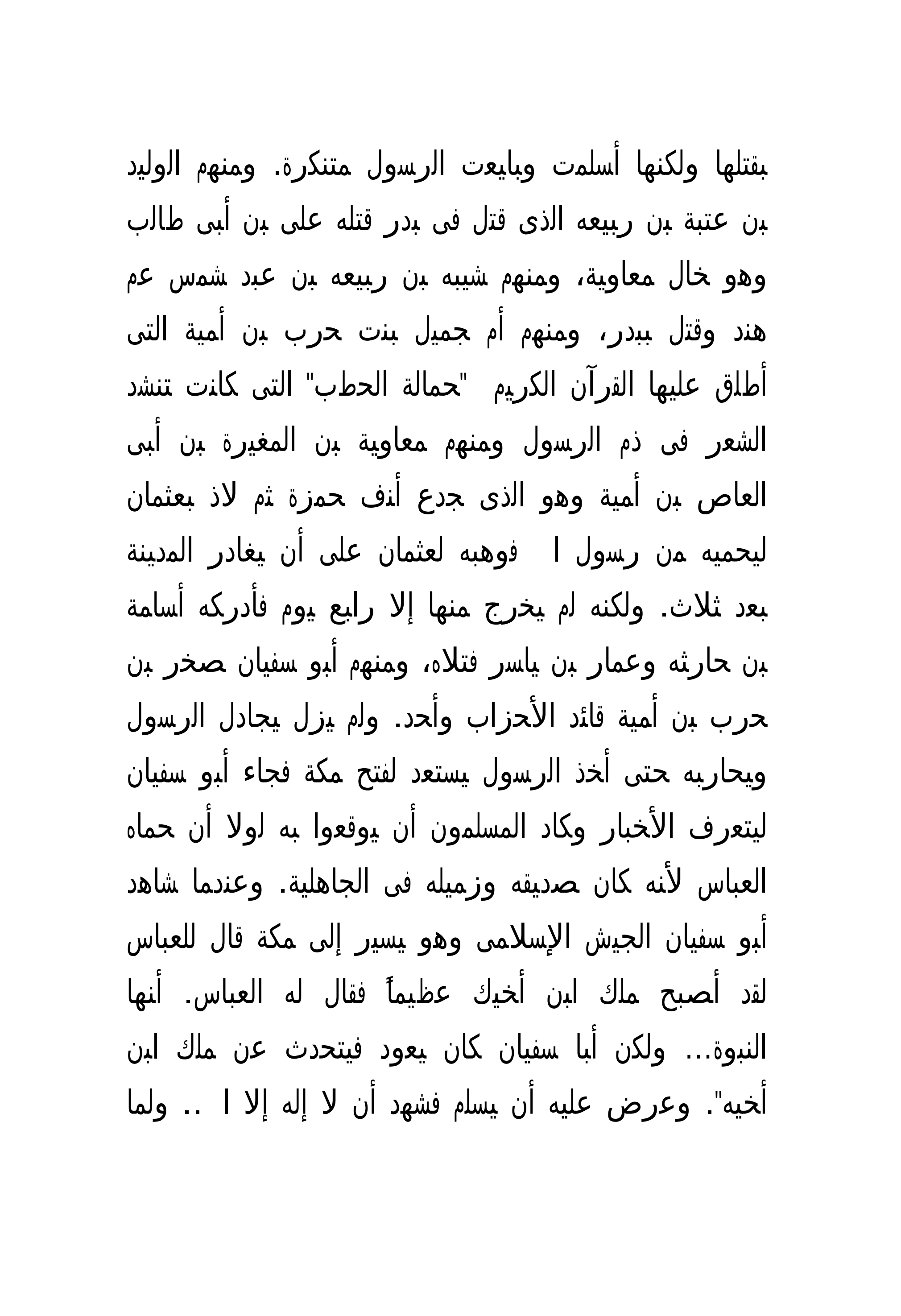
هل كان خروج أمية إلى الشام حدثا عارضاً. أو كان إيماء لما سيحدث لحفيده "معاوية" فيما بعد "معاوية"؟ أقام أمية بالشام عشر سنوات يغلب أنها دعمت طبيعته الذاتية وخلائقه المادية، والتجارية. وكانت الشام وقتئذ يحث حكم البيزنطيين.



وتكررت القصة مرة أخرى. فقد نافر حرب بين أمية عبد المطلب بن هاشم من أجل يهودى كان فى جوار عبد المطلب فما زال أمية يغرى به حتى قتل وأخذ ماله ..

وظهر جليا أن هذين الفرعين من عبد مناف يختلفان اختلافا جذريا فأمية يمثل الاتجاه الذاتى وهاشم يمثل الاتجاه الموضوعى .

فلما أعلن الرسول بعثته اشتدت عداوة أمية لبنى هاشم لأنهم جاءوا بما لا يمكن أن يأتوا به وأغلق الطريق أمام أى احتمال لكى يلحق بنو أمية ببنى هاشم فأحجج هذا العداوة القديمة، وقد كان من أبرز الأمويين المعادين للرسول أبو أحيجة سعيد بن العاص الذى هلك على شركه فى السنة الأولى للهجرة وعقبه بن أبى المعيط الذى قتل فى بدر ومنهم الحكم بن أبى العاص بن أمية الذى أسلم تقيه – وسيكون له دور مشئوم فى أزمة عثمان وما تلاها – وطرده الرسول من المدينة فأطلق عليه "طريد رسول ا " ومنهم عتبة بن ربيعه بن عبد شمس الذى قتل ببدر وعتبة هذا هو أبو هند التى تزوجت أبا سفيان بن حرب. والتى مثلت بجسد حمزة فى أحد. إذ كان هو الذى قتل أباها فى بدر، وقد أمر الرسول


بقتلها ولكنها أسلمت وبايعت الرسول متنكرة. ومنهم الوليد بن عتبة بن ربيعه الذى قتل فى بدر قتله على بن أبى طالب وهو خال معاوية، ومنهم شيبه بن ربيعه بن عبد شمس عم هند وقتل ببدر، ومنهم أم جميل بنت حرب بن أمية التى أطلق عليها القرآن الكريم "حمالة الحطب" التى كانت تنشد الشعر فى ذم الرسول ومنهم معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية وهو الذى جدع أنف حمزة ثم لاذ بعثمان ليحميه من رسول ا فوهبه لعثمان على أن يغادر المدينة بعد ثلاث. ولكنه لم يخرج منها إلا رابع يوم فأدركه أسامة بن حارثه وعمار بن ياسر فتلاه، ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قائد الأحزاب وأحد. ولم يزل يجادل الرسول ويحاربه حتى أخذ الرسول يستعد لفتح مكة فجاء أبو سفيان ليتعرف الأخبار وكاد المسلمون أن يوقعوا به لولا أن حماه العباس لأنه كان صديقه وزميله فى الجاهلية. وعندما شاهد أبو سفيان الجيش الإسلامى وهو يسير إلى مكة قال للعباس لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً فقال له العباس. أنها النبوة... ولكن أبا سفيان كان يعود فيتحدث عن ملك ابن أخيه". وعرض عليه أن يسلم فشهد أن لا إله إلا ا .. ولما

طلب منه أن يتم "محمداً رسول ا " قال أما هذه ففى النفس منها شئ فقيل له آمن ويلك قبل أن تقتل.. فآمن ..

من هنا يتضح أن عداوة بنى أمية لبنى هاشم عريقة وأنها امتدت إلى عداوة الإسلام بحيث أصبح بنو هاشم يمثلون الإسلام وما فيه من موضوعية وبنو أمية يمثلون الدنيا وما فيها من ذاتية وأن هذا كان فى أصل العداوة التى عبر عنها الشاعر :

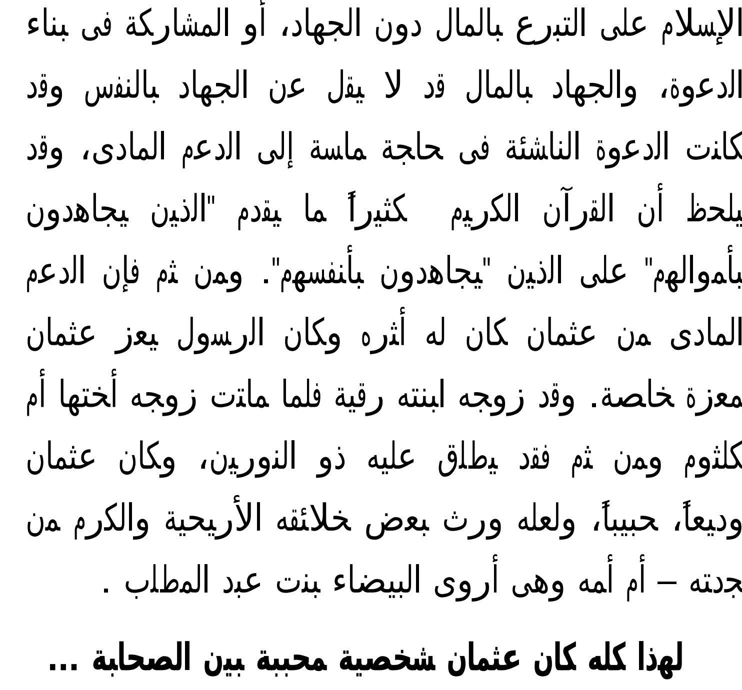
عبد شمس قـد أضرمت لبنـى
هاشم ناراً يشيب منها الوليد
فأبن حرب للمصطفى، وابن هند[1]
لعلى، وللحسين يزيـ ـ ـد .

* * *

من هذه الشجرة الدنيوية، الذاتية نشأ عثمان بن عفان لأنه بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ولكنه كان الاستثناء فى حدود ما يمكن للاستثناء أن يسمح به فقد أسلم عن صدق وحب، وأن لم ينزع هذا الإيمان من نفسه حب

---

(١) ابن حرب هو أبو سفيان وأبن هند هو معاوية .



الدنيا والاستمتاع بالحياة، واقتصرت مساهمته فى نصر الإسلام على التبرع بالمال دون الجهاد، أو المشاركة فى بناء الدعوة، والجهاد بالمال قد لا يقل عن الجهاد بالنفس وقد كانت الدعوة الناشئة فى حاجة ماسة إلى الدعم المادى، وقد يلحظ أن القرآن الكريم كثيراً ما يقدم "الذين يجاهدون بأموالهم" على الذين "يجاهدون بأنفسهم". ومن ثم فإن الدعم المادى من عثمان كان له أثره وكان الرسول يعز عثمان معزة خاصة. وقد زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أختها أم كلثوم ومن ثم فقد يطلق عليه ذو النورين، وكان عثمان وديعاً، حبيباً، ولعله ورث بعض خلائقه الأريحية والكرم من جدته – أم أمه وهى أروى البيضاء بنت عبد المطلب .

لهذا كله كان عثمان شخصية محببة بين الصحابة ...

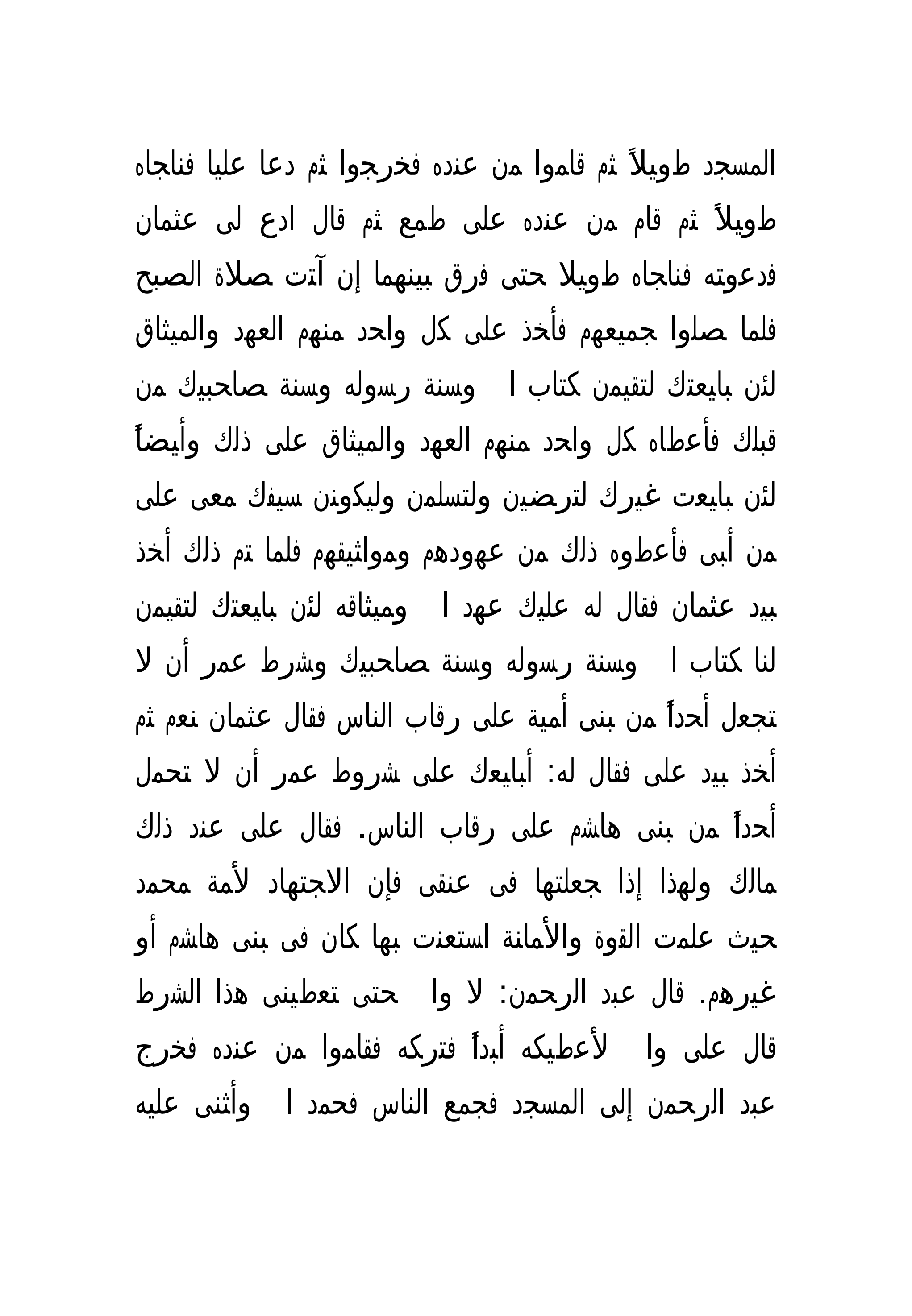
* * *

عندما طعن عمر بن الخطاب وهو يتهيأ لصلاة الفجر، كان أول ما حرص عليه المسلمون هو أن تقام الصلاة. فأقيمت الصلاة وأديت بأقصر آيتين فى القرآن بينما كان الخليفة المطعون ينزف دما وكان الشىء الثانى عندما استبان للجميع أن عمر سيترك هذه الحياة الدنيا هى الاستخلاف.

فقالوا له استخلف ونصحته عائشة عندما أرسل إليها ليستأذنها فى أن يدفن بجوار صاحبيه فى حجرتها فأذنت له وقالت لرسوله، قل له أن يستخلف ولا يدع أمة محمد ضياعاً ولما أكثر الناس قال إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى أى أبو بكر الصديق وأن لم استخلف فلم يستخلف من هو أفضل منى (أى الرسول) ورأى أن يخرج من هذه المسئولية الضخمة وحتى لا تتكرر محنة سقيفة بنى ساعدة التى عاشها وقال عنها أنها كانت فلته. ارتأى وهو يجود بنفسه أن يدع الأمر بين يدى ستة من الصحابة تركهم الرسول وهو راض عنهم هم على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير.. ووضع تعليماته فى هذا الوقت الحرج كأفضل ما تكون.. فأمرهم بالتشاور ثلاثة أيام. وأمر أبا طلحة أن يجلس مع خمسين من الأنصار لمراقبة العملية وقال إذا أرتضى الخمسة شخصاً ورفضه السادس فاقتلوه.. فإذا تقاسمت الآراء ما بين ثلاثة وثلاثة فيؤخذ رأى عبد ا بن عمر وليس له من الأمر غير ذلك ..

وأتضح أن كل واحد من الخمسة (لم يكن طلحة موجوداً وقتئذ) حريصاً على أن تكون له الولاية. وعجب أبو طلحة

الذى أمره عمر بحراسة المجموعة لأنه كان يتصور أنهم سيتدافعونها – أى سيدفع كل واحد منهم بالولاية إلى الآخر ورعاً وإيثاراً.. فإذا بهم يتدافعون عليها أى يريدها كل واحد لنفسه. ودرءاً لهذا الخلاف أعلن عبد الرحمن بن عوف أنه يعزل نفسه عنها إذا ترك له الباقون القيام بالمهمة. فقبلوا فقال لهم عبد الرحمن اجعلوا أمركم إلى ثلاث منكم فجعل الزبير أمره إلى على وجعل طلحة أمره إلى عثمان وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف. قال الموسور بن مخرمة فقال لهم عبد الرحمن كونوا مكانكم حتى آتيكم وخرج يتلقى الناس فى أنقاب المدينة متلثما لا يعرفه أحد فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاهم إلا سألهم واستشارهم أما أهل الرأى فأتاهم مستشيراً وتلقى غيرهم سائلاً يقول: من ترى الخليفة بعد عمر؟ فلم يبق أحدا يستشيره ولا يسأله إلا ويقول عثمان فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان قال المسور جاءنى رضى ا عنه عشاء فوجدنى نائماً فخرجت إليه فقال: ألا أراك نائما فوا ما اكتحلت عينى بنوم منذ هذه الثلاثة أدع لى فلانا وفلانا (نفراً من المهاجرين) فدعونهم فناجاهم فى



المسجد طويلاً ثم قاموا من عنده فخرجوا ثم دعا عليا فناجاه طويلاً ثم قام من عنده على طمع ثم قال ادع لى عثمان فدعوته فناجاه طويلا حتى فرق بينهما إن آتت صلاة الصبح فلما صلوا جميعهم فأخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق لئن بايعتك لتقيمن كتاب ا وسنة رسوله وسنة صاحبيك من قبلك فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك وأيضاً لئن بايعت غيرك لترضين ولتسلمن وليكونن سيفك معى على من أبى فأعطوه ذلك من عهودهم ومواثيقهم فلما تم ذلك أخذ بيد عثمان فقال له عليك عهد ا وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن لنا كتاب ا وسنة رسوله وسنة صاحبيك وشرط عمر أن لا تجعل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس فقال عثمان نعم ثم أخذ بيد على فقال له: أبايعك على شروط عمر أن لا تحمل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس. فقال على عند ذلك مالك ولهذا إذا جعلتها فى عنقى فإن الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها كان فى بنى هاشم أو غيرهم. قال عبد الرحمن: لا وا حتى تعطينى هذا الشرط قال على وا لأعطيكه أبداً فتركه فقاموا من عنده فخرج عبد الرحمن إلى المسجد فجمع الناس فحمد ا وأثنى عليه

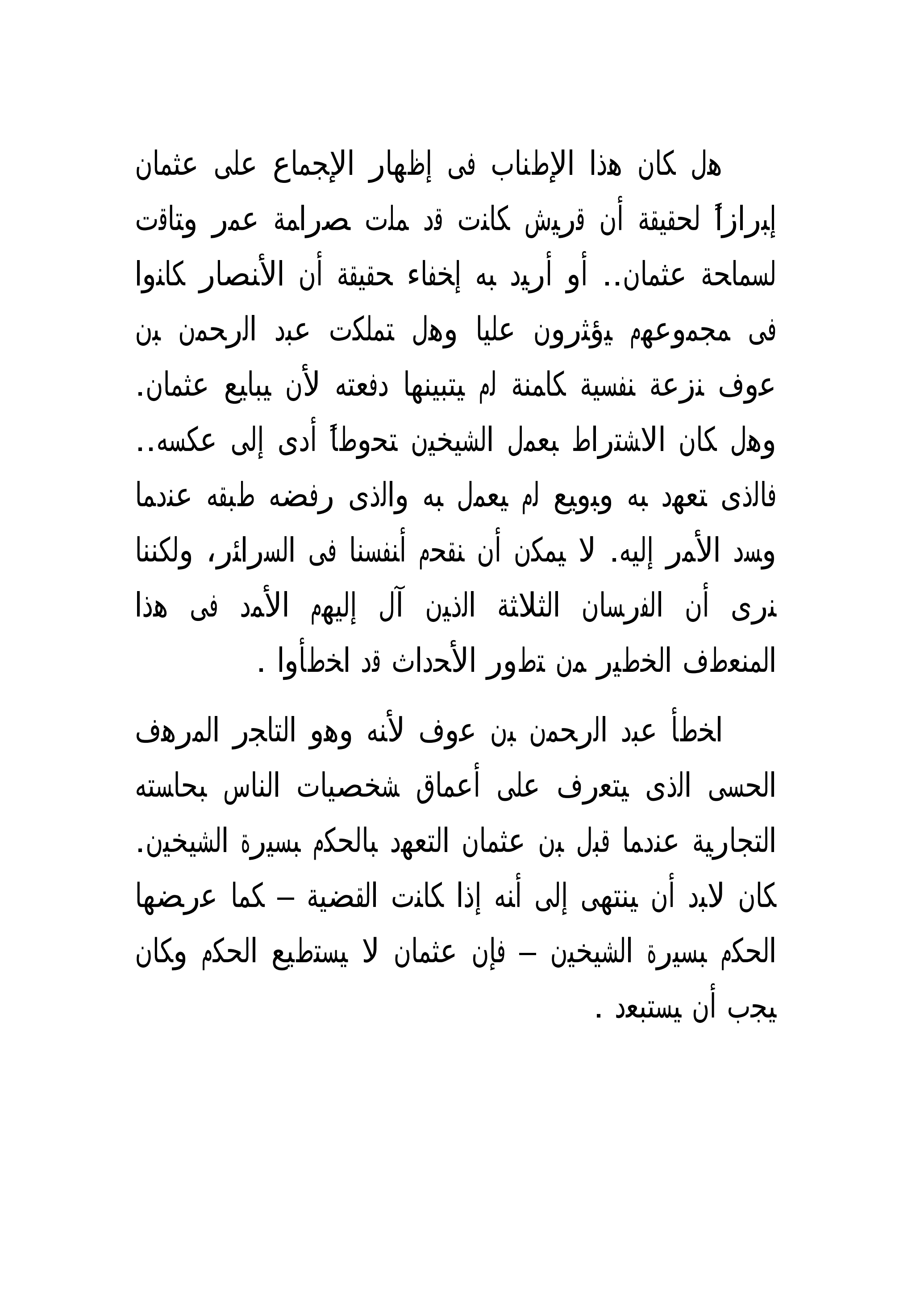
ثم قال: إنى نظرت فى أمر الناس فلم أراهم يعدلون بعثمان فلا تجعل يا على سبيلاً إلى نفسك فإنه السيف لا غير. ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعا .

وتورد بعض المصادر – كالبداية والنهاية – القصة فتقول :

ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضى ا عنه يستشير الناس فيهما (أى فى على وعثمان) ويجمع رأى المسلمين برأى رؤس الناس وأقيادهم جميعا وأشتاتا، مثنى وفرادى، ومجتمعين سراً وجهراً حتى خاص إلى النساء المخدرات فى حجابهن، وحتى سأل الولدان فى المكاتب وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة، فى مدة ثلاثة أيام بلياليها فلم يجد أثنين يختلفين فى تقدم عثمان بن عفان، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد أنهما أشاراً بعلى بن أبى طالب، ثم بايعا مع الناس على ما سنذكره، فسعى فى ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير من نوم إلا صلاة ودعاءاً واستخارة، وسؤالاً من ذوى الرأى عنهم، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضى ا عنه، فلما كانت الليلة يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب جاء إلى

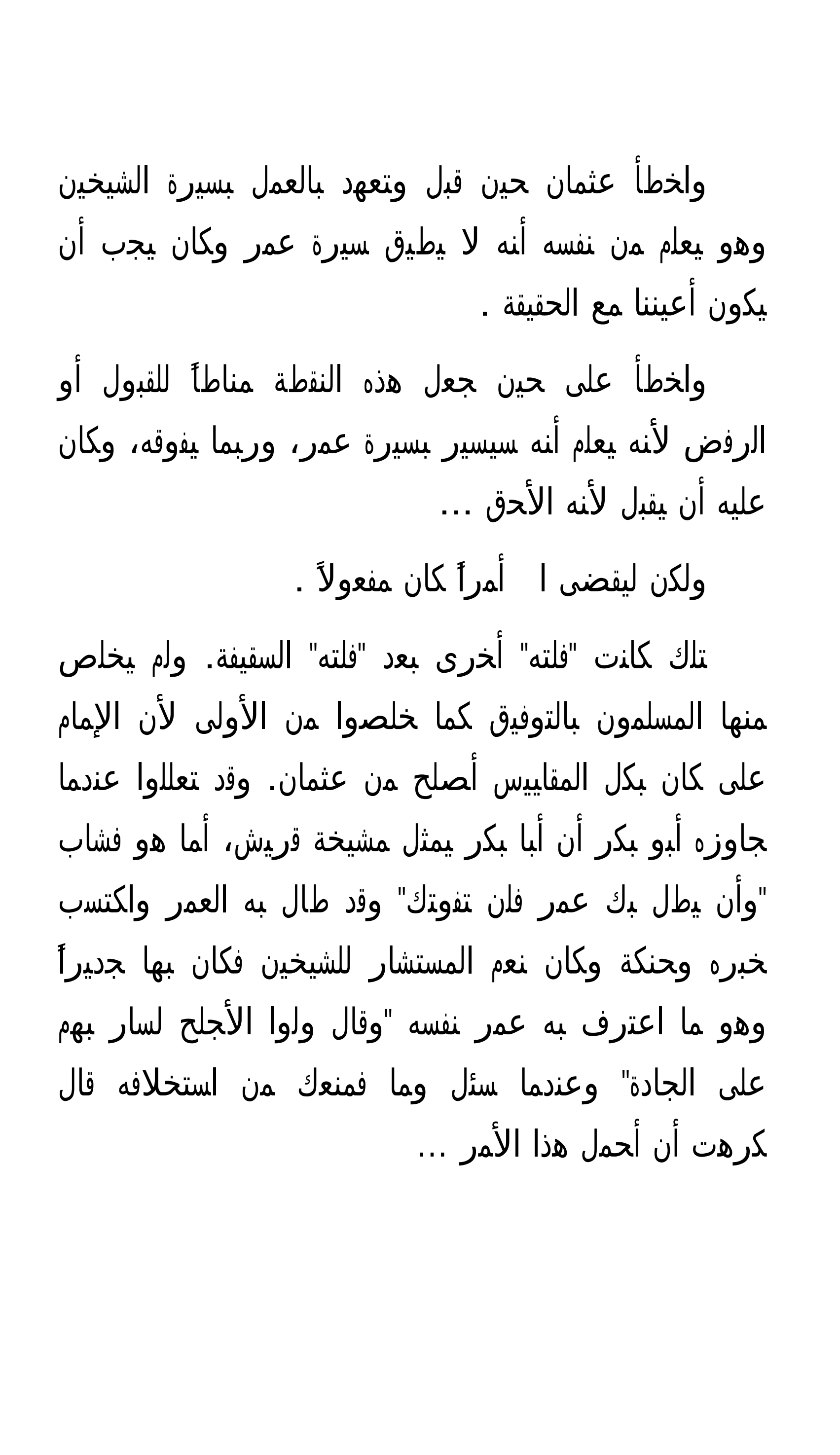
منزل ابن أخته المسور بن مخرمة فقال: أنائم يا مسور؟ وا لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث، أذهب فادع إلى علياً وعثمان قال المسور: فقلت بأيهما أبدأ ؟ فقال بأيهما شئت، قال فذهبت إلى على فقلت أجب خالى فقال أمرك أن تدعو معى أحداً ؟ قلت: نعم! قال: من ؟ قلت: عثمان بن عفان، قال: بآينا بدأ ؟ قلت لم يأمرنى بذلك، بل قال أدعو لى أيهما شئت أولا، فجئت إليك قال فخرج معى فلما مررنا بدار عثمان بن عفان جلس على حتى دخلت فوجدته يوتر مع الفجر، فقال لى كما قال لى على سواء، ثم خرج فدخلت بهما على خالى وهو قائم يصلى، فلما أنصرف أقبل على على وعثمان فقال إنى قد سألت الناس عنكما فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً ثم أخذ العهد على كل منهما أيضاً لئن ولاه ليعدلن ولئن ولى عليه ليسمعن وليطيعن، ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التى عممه رسول ا ﷺ وتقلد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودى فى الناس عامة الصلاة جامعة، فامتلأ المسجد حتى غص بالناس، وتراص الناس وتراصوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس إلا فى أخريات الناس – وكان رجلاً حيياً

رضى ا   عنه – ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول ا   ﷺ فوقف وقوفاً طويلاً، ودعا دعاء طويلاً، لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال: أيها الناس إنى سألتكم سراً وجهراً بأمانيكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين إما على وإما عثمان فقم إلى يا على، فقام إليه فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مبايعى على كتاب ا   وسنة نبيه ﷺ وفعل أبى بكر وعمر؟ قال: اللهم لا ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى، قال فأرسل يده وقال: قم إلى يا عثمان فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعى على كتاب ا   وسنة نبيه ﷺ وفعل أبى بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم! قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان فقال اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم أنى قد خلعت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان. قال وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر، قال فقعد عبد الرحمن مقعد النبى ﷺ وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية، وجاء إليه الناس يبايعونه، وبايعه على بن أبى طالب أولاً " انتهى .



هل كان هذا الإطناب فى إظهار الإجماع على عثمان إبرازاً لحقيقة أن قريش كانت قد ملت صرامة عمر وتاقت لسماحة عثمان.. أو أريد به إخفاء حقيقة أن الأنصار كانوا فى مجموعهم يؤثرون عليا وهل تملكت عبد الرحمن بن عوف نزعة نفسية كامنة لم يتبينها دفعته لأن يبايع عثمان. وهل كان الاشتراط بعمل الشيخين تحوطاً أدى إلى عكسه.. فالذى تعهد به وبويع لم يعمل به والذى رفضه طبقه عندما وسد الأمر إليه. لا يمكن أن نقحم أنفسنا فى السرائر، ولكننا نرى أن الفرسان الثلاثة الذين آل إليهم الأمد فى هذا المنعطف الخطير من تطور الأحداث قد اخطأوا .

اخطأ عبد الرحمن بن عوف لأنه وهو التاجر المرهف الحسى الذى يتعرف على أعماق شخصيات الناس بحاسته التجارية عندما قبل بن عثمان التعهد بالحكم بسيرة الشيخين. كان لابد أن ينتهى إلى أنه إذا كانت القضية – كما عرضها الحكم بسيرة الشيخين – فإن عثمان لا يستطيع الحكم وكان يجب أن يستبعد .



واخطأ عثمان حين قبل وتعهد بالعمل بسيرة الشيخين وهو يعلم من نفسه أنه لا يطيق سيرة عمر وكان يجب أن يكون أعيننا مع الحقيقة .

واخطأ على حين جعل هذه النقطة مناطاً للقبول أو الرفض لأنه يعلم أنه سيسير بسيرة عمر، وربما يفوقه، وكان عليه أن يقبل لأنه الأحق ...

ولكن ليقضى ا أمراً كان مفعولاً .

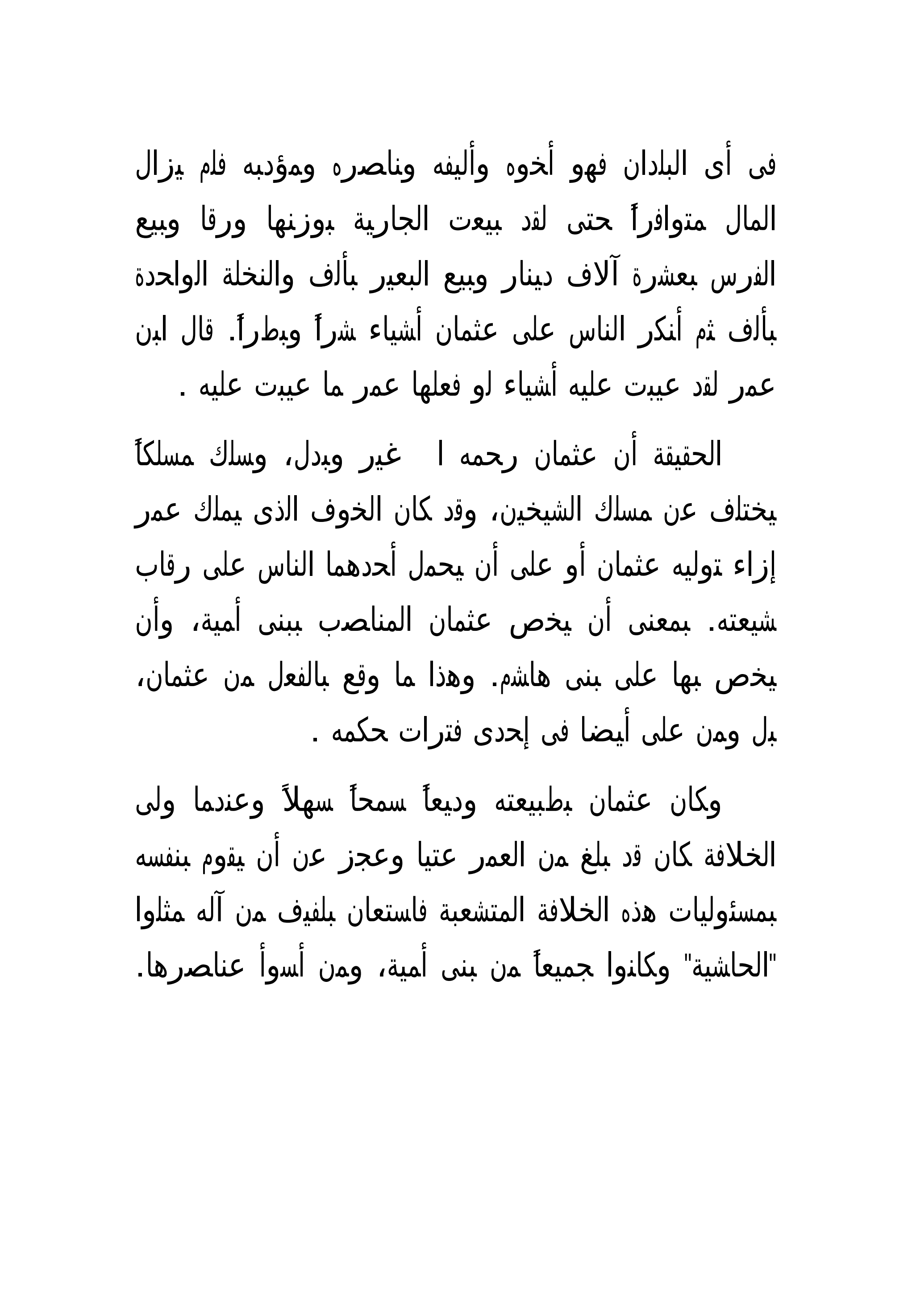
تلك كانت "فلته" أخرى بعد "فلته" السقيفة. ولم يخاص منها المسلمون بالتوفيق كما خلصوا من الأولى لأن الإمام على كان بكل المقاييس أصلح من عثمان. وقد تعللوا عندما جاوزه أبو بكر أن أبا بكر يمثل مشيخة قريش، أما هو فشاب "وأن يطل بك عمر فلن تفوتك" وقد طال به العمر واكتسب خبره وحنكة وكان نعم المستشار للشيخين فكان بها جديراً وهو ما اعترف به عمر نفسه "وقال ولوا الأجلح لسار بهم على الجادة" وعندما سئل وما فمنعك من استخلافه قال كرهت أن أحمل هذا الأمر ...

كان خطئاً تاريخيا، وإليه يعود كل الخلافات والإنشقاقات والحروب.. وهو مثال نادر يوضح لنا كيف أن الخطأ فى قرار يمكن أن يغير مصاير أمه ..

* * *

كانت السنوات الست الأولى من خلافة عثمان كما يقول ابن قتيبه فى الإمامة والخلافة من أسعد السنوات التى عرفها المسلمون الذين أخذهم عمر بالشدة حتى ملوه وملهم فجاء عثمان ليبدأ عهد "الاسترخاء" والراحة ...

روى بن قتيبه عن الحسن البصرى قال شهدت عثمان وهو يخطب وأنا يومئذ قد راهقت الحلم فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصح وجها ولا أحسن نضرة منه فسمعته يقول أيها الناس اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافية، أيها الناس اغدوا على كسوتكم فيغدون فيجاء بالحلل فتقسم بينهم حتى وا سمعت أذناى يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل ثم يقول يا معشر المسلمين اغدوا على الطيب فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره والعدوان وا منفى والأعطيات داره والخير كثير وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنا من لقى



فى أى البلدان فهو أخوه وأليفه وناصره ومؤدبه فلم يزال المال متوافراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقا وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف ثم أنكر الناس على عثمان أشياء شراً وبطراً. قال ابن عمر لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

الحقيقة أن عثمان رحمه ا غير وبدل، وسلك مسلكاً يختلف عن مسلك الشيخين، وقد كان الخوف الذى يملك عمر إزاء توليه عثمان أو على أن يحمل أحدهما الناس على رقاب شيعته. بمعنى أن يخص عثمان المناصب ببنى أمية، وأن يخص بها على بنى هاشم. وهذا ما وقع بالفعل من عثمان، بل ومن على أيضا فى إحدى فترات حكمه .

وكان عثمان بطبيعته وديعاً سمحاً سهلاً وعندما ولى الخلافة كان قد بلغ من العمر عتيا وعجز عن أن يقوم بنفسه بمسئوليات هذه الخلافة المتشعبة فاستعان بلفيف من آله مثلوا "الحاشية" وكانوا جميعاً من بنى أمية، ومن أسوأ عناصرها.

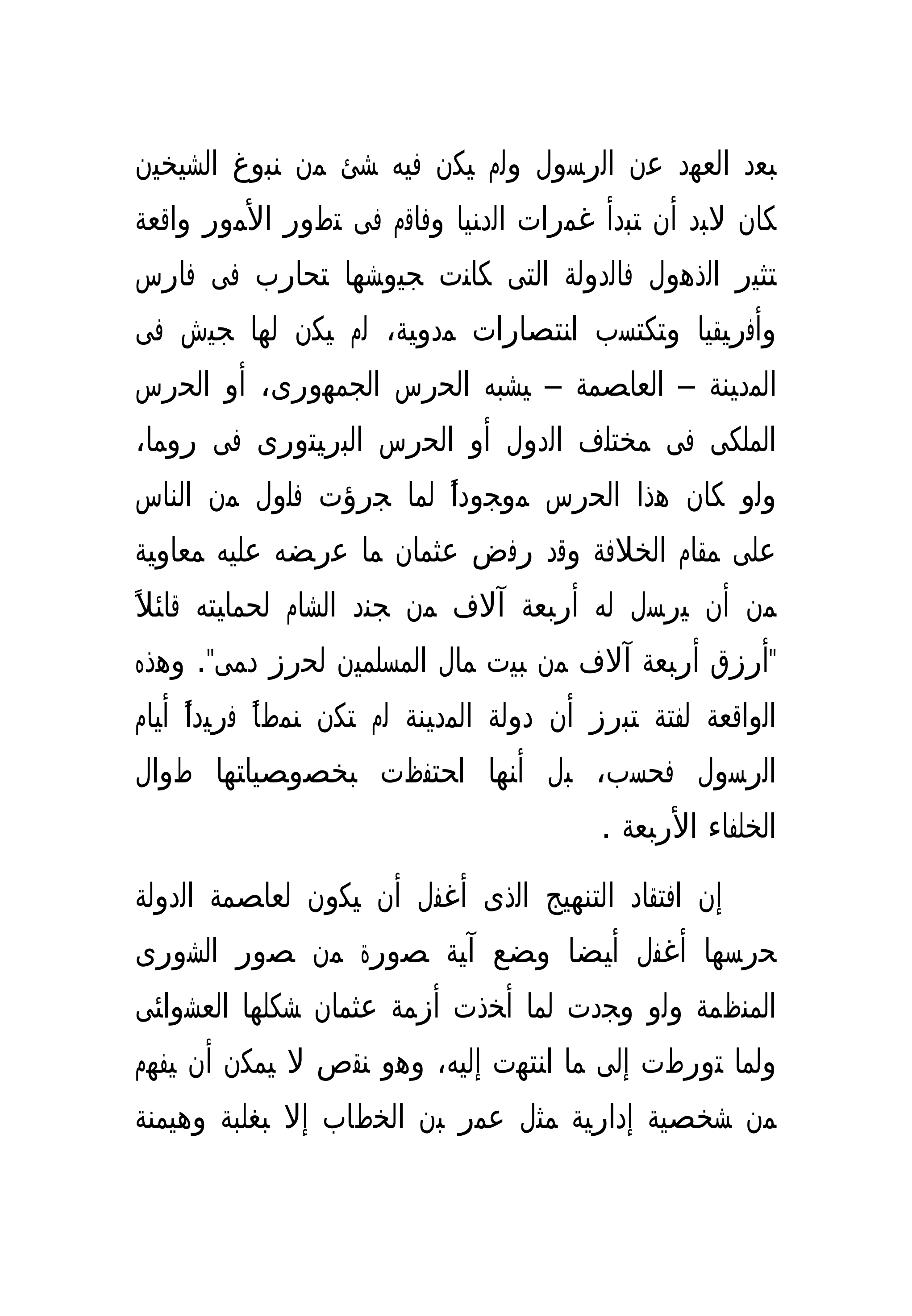
وكان أبرزهم مروان بن الحكم وأفسد مروان على عثمان أمره واستبد بالأمر دونه[1] .

ولكن أهم من هذا أن دفعة الإيمان كانت قد انحسرت وعادت النفوس إلى طبائعها دون أن تجد تلك القوة التى تكبح التطلعات. وكانت الجماهير فى عهد أبى بكر وعمر حديثه عهد بالرسول وكانت الأسوة به تدرأ عنهم كثيراً من الشرور، وكان أبو بكر وعمر نابغين.. فلما أتى عثمان وقد

---

(١) إنصافاً لعثمان رضى ا عنه نقول إنه وإن لم يسر على سنة الشيخين، فإن ا تعالى رعاية لسبقه فى الإسلام وما قدمه فى أيامه الأولى أدخر له مأثرة عظيمة وفريدة قدم بها للإسلام خدمة جلى لم يقيم بها أبو بكر أو عمر تلك هى أنه جمع القرآن مما كان قد دون عليه من عظم، أو رق، أو خشب، أو صدور الرجال، ووجد القراءة ووضعه فى ترتيبه المألوف بحيث ظهر المصحف المعتمد المقرر الذى استبعد ما كان بعض الصحابة قد ضمنوه – من قبيل الشرح – أو كتبوه بلهجة قبائلهم – وبهذا العمل العظيم وقى المسلمين فتنة من أعظم الفتن التى حاقت بالأديان السابقة. وكفل للمسلمين ظهور القرآن كما أنزل ا – رغم الأقاويل والتخرصات .

وتلك بعمرى، مأثرة تجعل منزلة عثمان لا تقل عن صاحبة، حتى وأن قصر عنهما فى ممارسة فنون الحكم .


بعد العهد عن الرسول ولم يكن فيه شئ من نبوغ الشيخين كان لابد أن تبدأ غمرات الدنيا وفاقم فى تطور الأمور واقعة تثير الذهول فالدولة التى كانت جيوشها تحارب فى فارس وأفريقيا وتكتسب انتصارات مدوية، لم يكن لها جيش فى المدينة – العاصمة – يشبه الحرس الجمهورى، أو الحرس الملكى فى مختلف الدول أو الحرس البريتورى فى روما، ولو كان هذا الحرس موجوداً لما جرؤت فلول من الناس على مقام الخلافة وقد رفض عثمان ما عرضه عليه معاوية من أن يرسل له أربعة آلاف من جند الشام لحمايته قائلاً "أرزق أربعة آلاف من بيت مال المسلمين لحرز دمى". وهذه الواقعة لفتة تبرز أن دولة المدينة لم تكن نمطاً فريداً أيام الرسول فحسب، بل أنها احتفظت بخصوصياتها طوال الخلفاء الأربعة .

إن افتقاد التنهيج الذى أغفل أن يكون لعاصمة الدولة حرسها أغفل أيضا وضع آية صورة من صور الشورى المنظمة ولو وجدت لما أخذت أزمة عثمان شكلها العشوائى ولما تورطت إلى ما انتهت إليه، وهو نقص لا يمكن أن يفهم من شخصية إدارية مثل عمر بن الخطاب إلا بغلبة وهيمنة

فكرة دولة الدعوة على فكرة دولة السياسة، وكان كافيا فى دولة الدعوة أسلوب الشورى الذى اتبعه أبو بكر وعمر. لأن التركيز لم يكن على الدولة ككيان خاص له وجوده المستقل، وما يتطلبه هذا الوجود المستقل من آليات وضوابط وأجهزة الخ... قدر ما كان على قيام الدولة بالدعوة سواء فى الخارج أو الداخل، ويحتمل وجود عزوف لا شعورى فى نفس عمر بن الخطاب عن إقامة دولة "كسروية" أو "قيصرية" تكتسب قوتها على حساب الشعب، وهو النمط الذى كانت الجيوش الإسلامية تحاربه وتسقطه. وليس هذا تبريراً لأنه يعد من وجوه النقص التى فاتت على عباقرة الدولة الإسلامية، ولكنه تصوير للحالة النفسية لهؤلاء العباقرة. وكيف أنها جعلتهم رسلاً لدعوة وليس بناة لإمبراطورية.. ولو وضع عمر مجلساً استشارياً يلحظ فيه المهاجرين والأنصار وبقية العرب لتغير الحال بالطبع .

ومما يثير الدهشة تشرذم كبار الصحابة إزاء هذه التطورات الخطيرة التى جعلت مجموعات الثوار تحاصر بيت عثمان وتمنع عنه الماء وكان يمكن لو انتظموا أن يقهروا المتآمرين.. وأن يلزموا عثمان تصحيح اخطاه

بصورة حاسمة، خاصة وأنه إنما اكتسب البيعة على أساس العمل بسنة الشيخين. ولو دعاهم عبد الرحمن بن عوف أو لما تخاذلوا. ولكن يبدو أن وهن الإيمان الذى تطرق إلى نفوس هؤلاء القادة عجز عن صهر الطبيعة الفردية كما حدث أيام الرسول، فعادت مرة أخرى .



- ٢ -

الفتنة الكبرى

نتيجة لهذه العوامل كلها، أعنى.. أخطاء عثمان الفادحة وضعفه واستسلامه لحاشية السوء. وتشرذم كبار الصحابة ومشيختهم وانتشار الفتن والدسائس بين الدهماء والغوغاء.. كل هذا سمح بحصار عثمان، ومنع الماء عنه، ثم التسور على المنزل وقتل عثمان وهو جالس يقرأ فى مصحفه تحوط به نساءه وتدفع عنه زوجته نائلة بنت الفرافصة حتى قطعت أصابعها.. ثم لا يقف الأمر عن هذا الحد، بل تمنع الصلاة عليه ودفنه فى البقيع، حتى حمله بعضهم على لوح خشبى وساروا فى ظلمات الليل، ومعهم أبنته عائشة تحمل مصباحاً فى حق حتى أتوا به جسر كوكب حفروا له حفره فدفنوه ولم يلحدوا وحفوا عليه التراب وكان بعض الخوارج يريدون رجمه ودفنه فى مقابر اليهود بدير سلع .

هذا المشهد المروع الذى ما كان يخطر بالبال كشف عن هشاشه بناء دولة المدينة قدر ما كشف عن استشراء

الفوضى، وانطلاق الأهواء وفساد النفوس وبدء الفتن التى وصفها حديث نبوى "كقطع الليل المظلم مشتبهات لا تعرف أيا من أى .

فلم يسبق أن ساقتهم الأحداث إلى هذه النهاية، ولا يقاس بها ما تعرضت له وحدة المسلمين فى سجال سقيفة بنى ساعدة، ولم يقتل عمر مسلم يمكن أن يحاجه أمام ا بكلمة لا إله إلا ا أو بصلوات أداها، كما كان عمر يقول، فقد قتله مجوسى من الموالى. أما قتل عثمان فشئ شنيع، فظيع أنها الفتنة التى تفتح باب الفتن لا تعرف أيا من أين. إنها الفتنة الكبرى.. أو هى الباب الذى انفتح لهذه الفتنة .

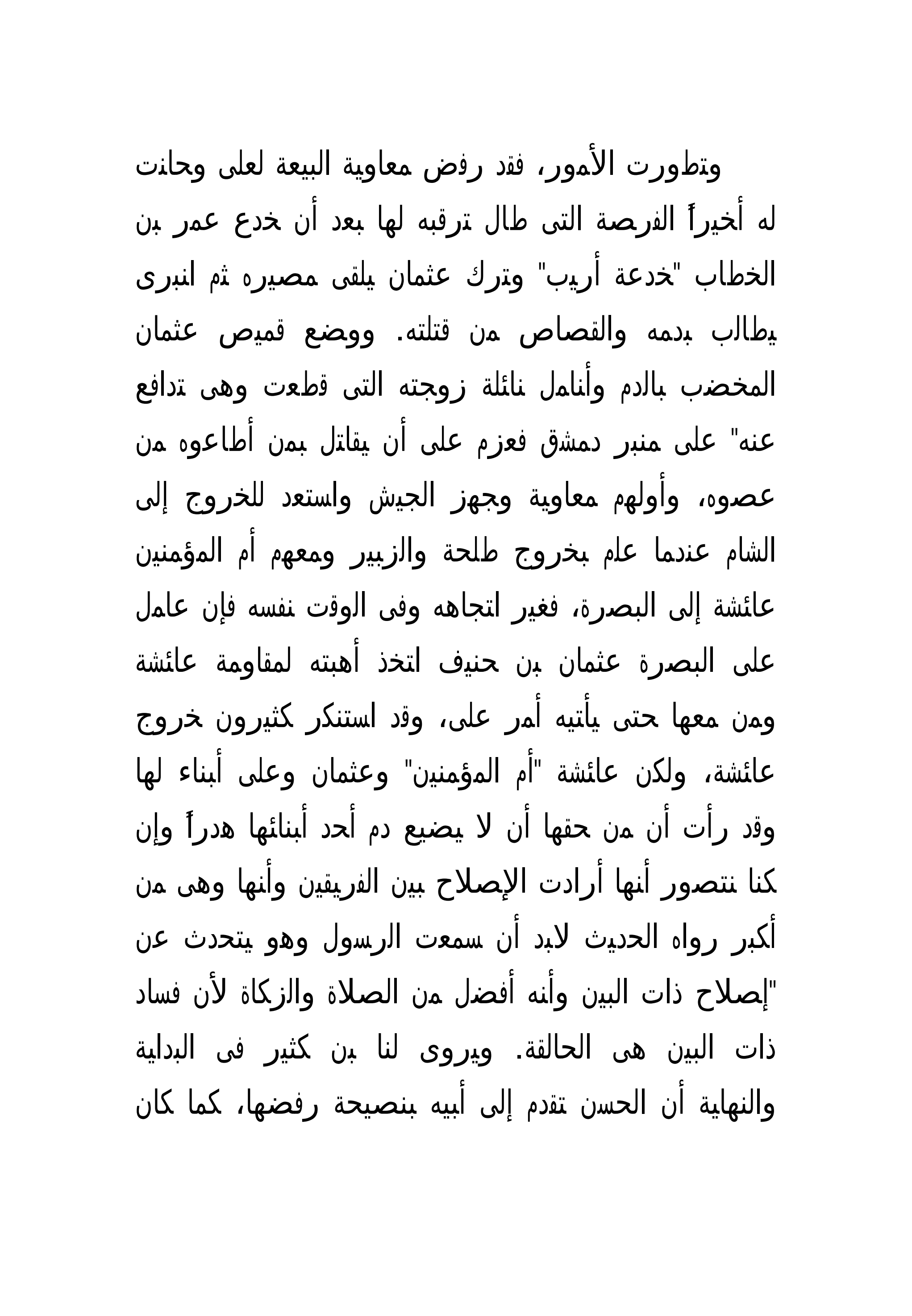
وجد الجميع أنفسهم فى خضم هذه الفتن لا يعلمون كيف يخلصون وبوجه خاص الذين أرادوا الخلاص من ورطتهم بقتل عثمان إلا مبايعة الإمام على. فهو الوحيد الذى يتمتع بثقة الجميع، ولكن الإمام على لم يكن بالغفلة التى يقبل فيها بيعة هؤلاء وقال لهم أن الأمر ليس لهم ولكن للمهاجرين والأنصار. ولابد أن يتم فى المسجد وبعد إجماع الناس .

وتمت بيعة على فى هذا الجو المضطرب. وقد تغيب بعض الصحابة كما لم تصل بعد بيعة الأمصار. الكوفة والبصرة ومصر والشام الخ ...

هل كان من الممكن أن ينتحى الإمام على ويرفض البيعة كما نصحه بذلك فى بعض الروايات أبنه الحسن؟ إنه ما كان يستطيع، لأن هذا وأن كان سينقذه فإنه سيشيع الفوضى. فلم يكن مناص من أن يتقدم حتى ولو اعتبروه كبش الفداء ..

وما أن تقبل البيعة حتى ظهرت القضية الشاغلة قضية دم عثمان والاقتصاص من قتلته. وكيف يمكن الاقتصاص من القتله وهم يحكمون المدينة. وقد ظلت المدينة خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب وهو من الذين اشتركوا فى قتل عثمان.. لم يكن من الممكن ولا المعقول إثارة هذه القضية. وكانت إثارتها لا تعنى سوى إثارة فتنة أعظم .

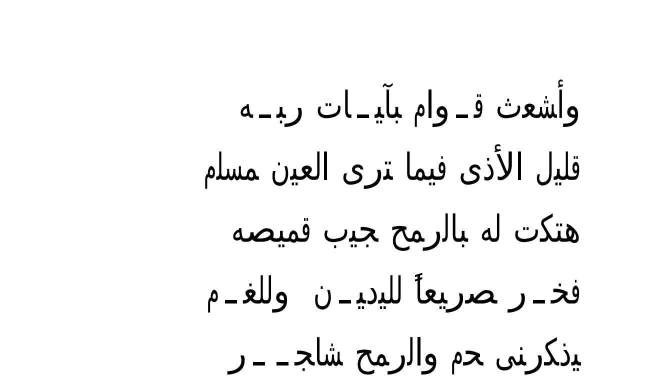
ولكن الشيطان كان قد استحوز على الناس ونسوا ا فأنساهم أنفسهم. وذهبت بشاشة الإيمان وحل محلها لدد الخصومة ..


وتطورت الأمور، فقد رفض معاوية البيعة لعلى وحانت له أخيراً الفرصة التى طال ترقبه لها بعد أن خدع عمر بن الخطاب "خدعة أريب" وترك عثمان يلقى مصيره ثم انبرى يطالب بدمه والقصاص من قتلته. ووضع قميص عثمان المخضب بالدم وأنامل نائلة زوجته التى قطعت وهى تدافع عنه" على منبر دمشق فعزم على أن يقاتل بمن أطاعوه من عصوه، وأولهم معاوية وجهز الجيش واستعد للخروج إلى الشام عندما علم بخروج طلحة والزبير ومعهم أم المؤمنين عائشة إلى البصرة، فغير اتجاهه وفى الوقت نفسه فإن عامل على البصرة عثمان بن حنيف اتخذ أهبته لمقاومة عائشة ومن معها حتى يأتيه أمر على، وقد استنكر كثيرون خروج عائشة، ولكن عائشة "أم المؤمنين" وعثمان وعلى أبناء لها وقد رأت أن من حقها أن لا يضيع دم أحد أبنائها هدراً وإن كنا نتصور أنها أرادت الإصلاح بين الفريقين وأنها وهى من أكبر رواه الحديث لابد أن سمعت الرسول وهو يتحدث عن "إصلاح ذات البين وأنه أفضل من الصلاة والزكاة لأن فساد ذات البين هى الحالقة. ويروى لنا بن كثير فى البداية والنهاية أن الحسن تقدم إلى أبيه بنصيحة رفضها، كما كان

قد تقدم إليه من قبل فرفضها أيضاً فقد نصحه عندما حوصر عثمان أن يترك المدينة حتى لا يقتل وهو بها. وأن لا يبايع بعد قتله حتى يبعث إليه أهل كل مصر ببيعهم، وأن يجلس فى بيته عندما خرجت عائشة وطلحة والزبير حتى يصطلحوا ورد عليه أبوه "أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان فقد أحيط بنا كما أحيط به. وأما مبايعتى قبل مجىء بيعة الأنصار فكرهت أن يضيع هذا الأمر وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه فتريد منى أن أكون كالضبع التى يحاط بها ويقال ليست ها هنا حتى يشق من عرقوبها فتخرج فإذا لم أنظر فيما يلزمنى فى هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر منه. فكف عنى يا بنى، ولم يكن من السهل أن تتلاقى سيوف المسلمين ويضرب بعضهم رقاب بعض فكثرت الرسل وأرسل على القعقاع بن عمرو فى سفارة ناجحة أتفق فيها مع طلحة والزبير وعائشة على تسكين الأمر والمصالحة فاطمأنت النفوس واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين وبات الناس بخير ليلة وبات قتلة عثمان بشر ليلة يتشاورون وأجمعوا أن يثيروا الحرب من الغلس. فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفى

رجل فهجموا على جيش على فقام الناس من منامهم إلى السلاح كل يظن الآخر قد غدر به وقامت الحرب على قدم وساق وكان مع على قرابة عشرين ألفا. ومع طلحة والزبير وعائشة قرابة ثلاثة ألفا (البداية والنهاية ص ٢٣٩ ج٧) وجاء كعب بن ثور قاضى البصرة فقال "يا أم المؤمنين أدركى الناس لعل ا أن يصلح بك بين الناس. فجلست فى هودجها وناولته مصحفاً وقالت أدعهم إليه فلما تقدم به استقبله قتلة عثمان فى جيش الكوفة بالنبال فقتلوه واحتدم القتال حول هودج عائشة.. وما أكثر الأيدى التى قطعت وهى تمسك بذمامه أو تدفع عنه.. وعندما أخذ بزمامه عبد ا بن الزبير، وهو ابن أخت عائشة قالت عائشة "واثكل أسماء! حتى ارتفعت الصيحة "اعقروا الجمل" فعقروه فخر وسمع له عجيج "ما سمع أشد وأنقذ منه" .

هذه موقعة الجمل لم تفارق ذكراها الحزينة الممضة عائشة فكانت تبكى حتى يبتل خمارها وضمت الأتقياء البررة مثل محمد بن طلحة المعروف بالسجاد الذى انخرط فى الجيش دفاعاً عن أم المؤمنين وكان يتقدم الصفوف وهو يقرأ "حم لا ينصرون" قطعنه بعضهم بحربه فإراده.. وقال :



وأشعث قـوام بآيـات ربـه

قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصه

فخـر صريعاً لليديـن وللفـم

يذكرنى حم والرمح شاجـ ـر

فهـلا تـلا حـم قبـل التقـدم

على غير شئ غيران ليس تابعاً

علياً ومن لا يتبـع الحـق يندم

كما ضمت فرما الفروسية والساطة.. عبد ا بن الزبير ومالك الأشتر اللذين تبارزا كفحلين – وتبادلاً الطعنات ثم اعتنقا وسقطا على الأرض فصاح عبد ا بن الزبير .

اقتلونـ ـ ـى ومالكـ ـ ـاً

واقتـ ـلوا مالكـا معى ...

وفى ساحة المعركة كان طلحة – طلحة الطلحات معفراً فى التراب.. وغير بعيد عنه الزبير بن العوام مسجى على الثرى ..

ضمت معركة الحمل الأباء والأبناء كما فى طلحة وأبنه والزبير وأبنه كما ضمت أم المؤمنين، وابن عم الرسول على بن أبى طالب... الجميع يقاتل بعضهم بعضاً ..

وضمت عمار بن ياسر بن أول شهيد وشهيدة فى الإسلام وهو وقتئذ فى التسعين من عمره يخز الزبير بن العوام بالرمح والزبير لا يفعل شيئاً له فقد كان من المعروف أن الرسول قال لعمار "تقتلك الفئة الباغية" وما كان الزبير يقبل أن يكون من الفئة الباغية. وأجِل قتل عمار إلى صفين وعندما قتل وارتاع عمرو بن العاص نفسه وهو مسوق النبأ إلى معاوية قال هذا بهدوء "أنحن قتلناه.. إنما قتله من أخرجه!!" ..

هذا هو منطق السياسة وتحريفها للأمور ...

ومع كل ما حفلت به معركة الجمل من هول، وما أدت إليه من مقتل مشيخة المهاجرين، فإنها لم تكن إلا "بروفة" أو مناورة إذا قيست بمعركة صفين الرهيبة عندما نهد الجيشان العظيمان اللذان هما كل جند الإسلام كأنهما بحرين متلاطمين اصطبغت مياههما بحمرة الدماء .

وكادت الهزيمة تلحق بمعاوية ولكن عمرو بن العاص أنقذه بمشورته البارعة أن يرفع المصاحف على الرماح ويصيحون "تعالوا إلى كتاب ا " "بيننا وبينكم كتاب ا " .

كانت خدعة بارعة. وكان أول من فطن لها على بن أبى طالب لأنه عرف أمية أطفالاً ورجالاً فكانوا شر أطفال وكانوا شر رجال وما كانوا بالذين يريدون النزول على ما أمر ا وإنما أن يضيعوا عليه النصر الوشيك .

ومع هذا.. فلو أن مكيدة المصاحف على الرماح نجحت فى أن توقف المعركة وتنقذ ولو جنديا واحداً من معسكر معاوية أو معسكر على إلا يكون ذلك أفضل من مواصلة القتال .

* * *

كان التحكيم هو بداية النهاية لعهد على بن أبى طالب .

فقد آمن على بأن الحل الحاسم هو القضاء على الفتنة ولو أدى إلى القتل.. وكان له شاهد من القرآن الكريم "والفتنة أشد من القتل" ..

ولكن أى قتل يا ربى؟ قتل أهل بدر الذين قال فيهم الرسول "أن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد اليوم" و "ما دراك لعل ا أطلع على أفئدة أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم" قتل فرسان المسلمين وذخيرة المجتمع الإسلامى فى مواجهة أعداء الإسلام .

كان بين حق على.. وباطل معاوية نهر من الدماء.. فهل كان عليه أن يدفع هذا الثمن الباهظ ..

هل الوصول إلى الحق بقتل الآخر هو الطريقة الأمثل لتحقيق الحق.. ؟

تلك قضية قد نعود إليها فيما سيلى من البحث ..

* * *

واجتمع الحكمان.. كما اجتمع المسلمون وكفار قريش فى الحديبية ..

وواصل عمرو بن العاص خداعه.. فادعى الاتفاق مع أبى موسى الأشعرى وقدم أبا موسى ليعلن خلع على ومعاوية، وعندما جاء الدور على عمرو قال أنه يخلع عليا ويثبت معاوية ..

قال أبو موسى لعمرو.. مالك عليك لعنة الله ما أنت إلا كمثل الكلب تلهث فرد عمرو بن العاص ولكنك مثل الحمار يحمل أسفاراً (الإمامة والسياسة لأبن قتيبة) ..

هذان صاحبا رسول الله وقد اضطرهما الخلاف إلى مثل هذا الموقف ..

لقد وصف الموقف شاعرنا العظيم شوقى الذى ابتدع تعبير "الفتنة الكبرى" قبل طه حسين لوقت طويل ...

أسمعت بالحكمين فى الإسلام يوم الجندل ؟
فى الفتنة الكبـ رى ولولا حكمه لم تشعل .
رضى الصحابة يوم ذلك بالكتاب المنزل .
وهم المصابيح الرواة عن النبى المرسل .
قالـ وا الكتـ اب وقام كل مفسر ومؤول .
حتى إذا وسعت معاوية.. وضاق بها على
رجعوا لظلم كالطبائع فى النفوس مؤصل .
نزلوا على حكم القوى وعند رأى الأحيل .
كانت النهاية تقترب بسرعة ...

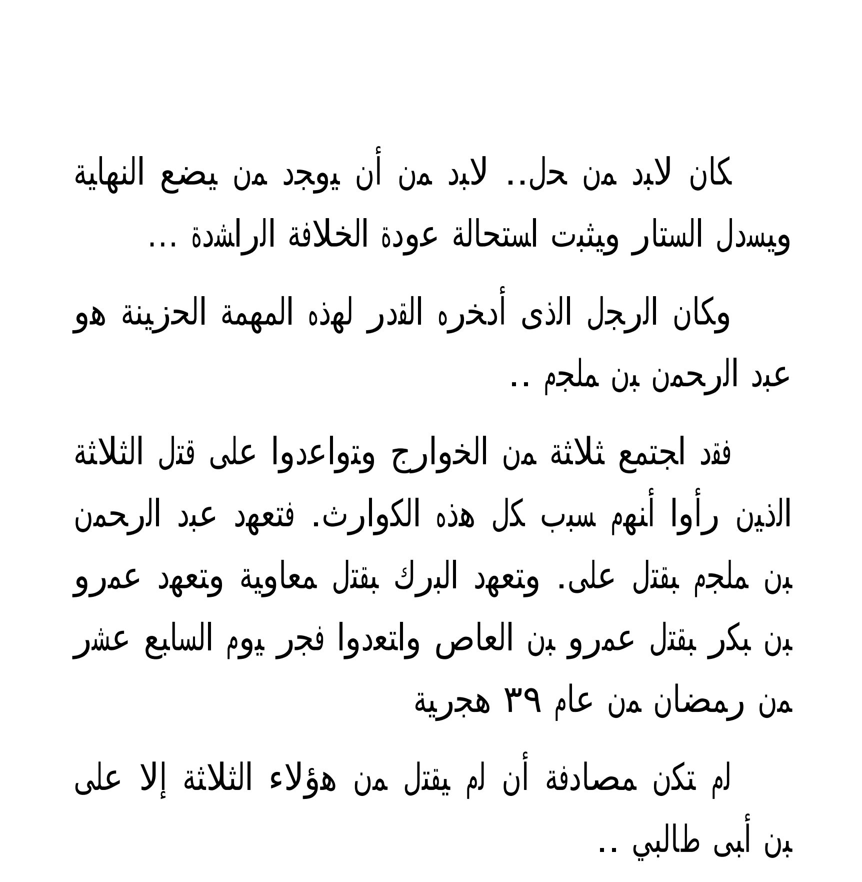
من ناحية كان على بن أبى طالب يؤمن بضرورة حسم فتنة معاوية وفتنة الخوارج ولو بالسيف ..

ولم يكن سعيداً بهذا الحل. وقد تملكه الأسى وهو يشهد طلحة معفراً بالتراب وقال "رحمة ا عليك أبا محمد، يعز على أن أراك مجندلاً تحت نجوم السماء إلى ا أشكو عجرى وبجرى وا لوددت أنى كنت مت قبل هذا اليوم بعشرين عاما" وتملكه الحزن الممضى لما يسيل من الدماء ولكنه مع هذا كله لم يجد مناصاً من مقاتلهم للعودة إلى الجماعة... كان يقاتلهم.. ثم يصلى على القتلى ويدعو لهم! .

كان يريد – بجذع الأنف – إعادة الخلافة الراشدة وظل مصراً على هذا متمسكا به .

وأمضى الجزء الآخر من حياته معذباً، فلا أصحابه يستجيبون له ولا هو يقبل الدنية..وتمنى الموت.. وما أكثر ما كان يقول "ما يحبس أشقاها... فقد تنبأ الرسول بأن سينبعث أشقاها فيخضب لحيته بدماء رأسه ..

من ناحية ثانية كان التطور قد قال كلمته.. لقد فسد الناس ونفدت دفعة الإيمان.. ووهنت قوته بحيث انتصرت عليه الأطماع والأهواء والذاتية فى أسوأ صورها ..



كان لابد من حل.. لابد من أن يوجد من يضع النهاية ويسدل الستار ويثبت استحالة عودة الخلافة الراشدة ...

وكان الرجل الذى أدخره القدر لهذه المهمة الحزينة هو عبد الرحمن بن ملجم ..

فقد اجتمع ثلاثة من الخوارج وتواعدوا على قتل الثلاثة الذين رأوا أنهم سبب كل هذه الكوارث. فتعهد عبد الرحمن بن ملجم بقتل على. وتعهد البرك بقتل معاوية وتعهد عمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص واتعدوا فجر يوم السابع عشر من رمضان من عام ٣٩ هجرية

لم تكن مصادفة أن لم يقتل من هؤلاء الثلاثة إلا على بن أبى طالبي ..

فقد جرح معاوية جرحاً طفيفاً ولم يصب عمرو بسوء لأنه لم يخرج للصلاة هذا اليوم وأناب عنه خارجه فقتل. وذهبت أدراج الرياح أمنية الشاعر .

فليتها إذ فدت عمراً بخارجة

فدت علياً بمن شاءت من البشر

أن هذا لم يكن ممكنا ...

كان لابد من أن يموت على ابن أبى طالب حتى تنتهى محاولة استعادة نمط من الحكم لا يطيقه التطور ...

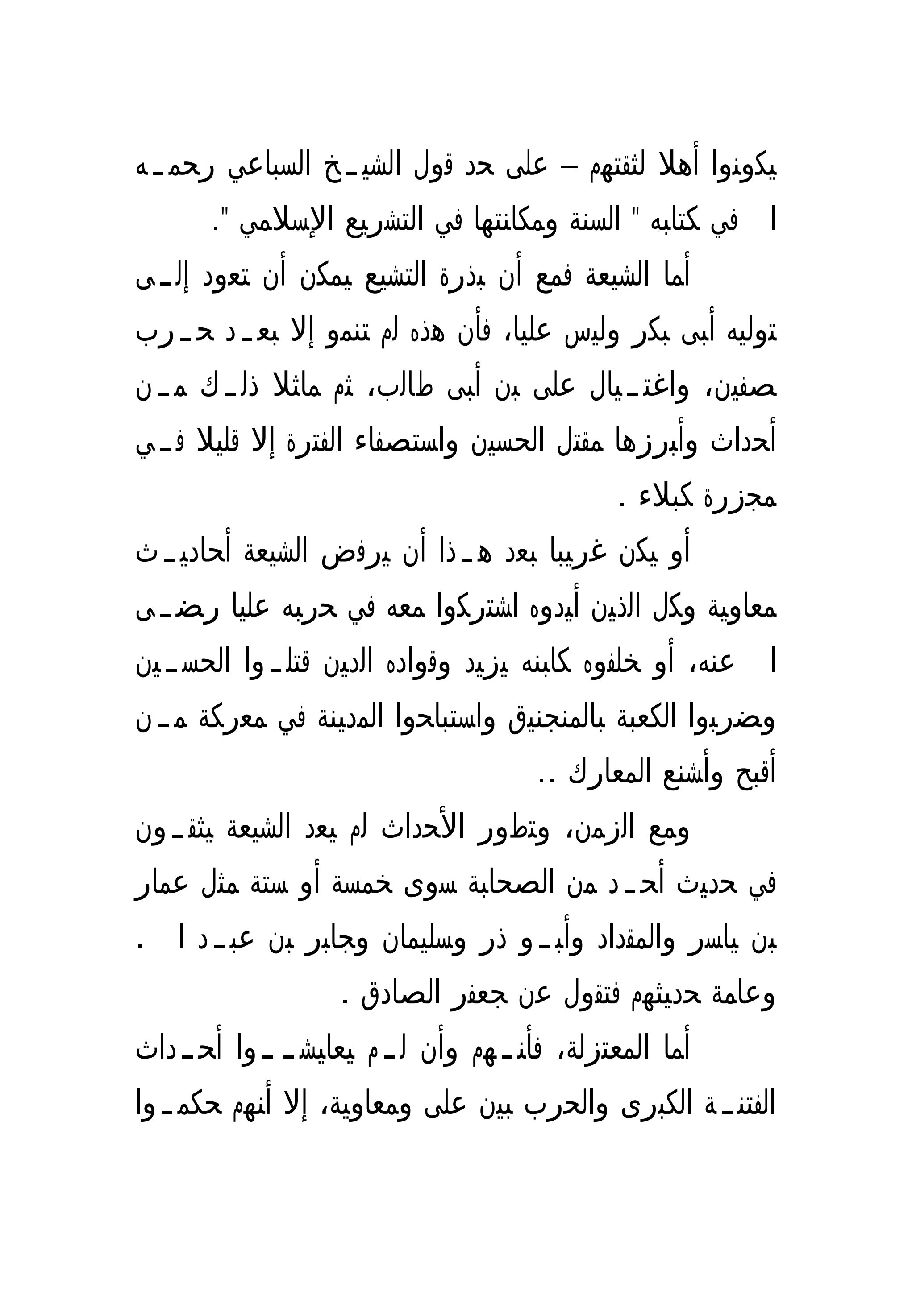
لقد انتهت الخلافة الراشدة مع مقتل عمر بن الخطاب ودفنت مع مقتل على وإنفسح المجال للملك العضوض ...

الفتنة الكبرى
وانعكاساتها على السنة

كان لوقوع الفتنة الكبـرى واشتعال الخلاف ما بين على بـن أبى طالب كرم ا وجهه ومعاوية بن أبى سفيان، وما أدت إليه من أن يشهر فريق من خيرة الصحابة سيوفهم في وجـه فريق من خيرة الصحابة أيضا أثار مـدوية على السنة، إذ أنها أدت إلى ظهور ثلاث مجموعات اتخذت موقف التحفظ على السنة أن كان العمل والرأي السائد هو قبولها.

هذه المجموعات هـي – تبعـا لتـاريخ ظهورهـا الخوارج ثم الشيعة ثم المعتزلة.

أما الخوارج فأنهم عنـدما اصـطلوا بنـار هـذه الفتنـة وعايشوا مفارقاتها تملكتهم الحيرة، فأنحرفوا تبعا لما تصـورا أنـه الحـق. فكفروا عليـا وعثمـان وأصـحاب الجـمل والحكمين ومن رضا بالتحكيم وصوب الحكمـين أو أحدهما، وبذلك رددوا أحاديث جمهور الصحابة بعـد الفتنـة لرضاهم بالتحكيم واتبـاعهم أئمة الجور على زعمهـم فلـم

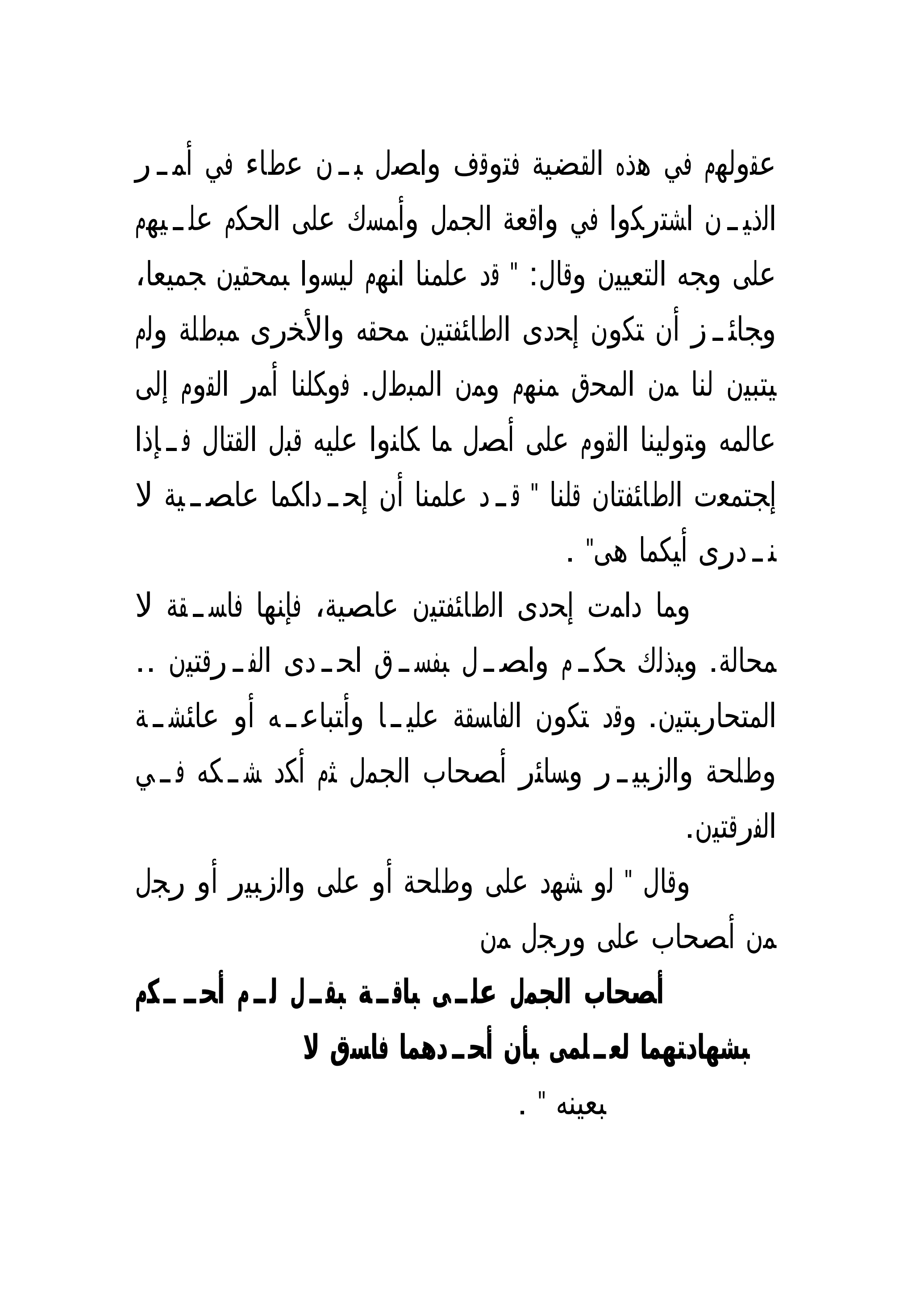

يكونوا أهلا لثقتهم – على حد قول الشيـخ السباعي رحمـه ا في كتابه " السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ".

أما الشيعة فمع أن بذرة التشيع يمكن أن تعود إلـى توليه أبى بكر وليس عليا، فأن هذه لم تنمو إلا بعـد حـرب صفين، واغتـيال على بن أبى طالب، ثم ماثلا ذلـك مـن أحداث وأبرزها مقتل الحسين واستصفاء الفترة إلا قليلا فـي مجزرة كبلاء .

أو يكن غريبا بعد هـذا أن يرفض الشيعة أحاديـث معاوية وكل الذين أيدوه اشتركوا معه في حربه عليا رضـى ا عنه، أو خلفوه كابنه يزيد وقواده الدين قتلـوا الحسـين وضربوا الكعبة بالمنجنيق واستباحوا المدينة في معركة مـن أقبح وأشنع المعارك ..

ومع الزمن، وتطور الأحداث لم يعد الشيعة يثقـون في حديث أحـد من الصحابة سوى خمسة أو ستة مثل عمار بن ياسر والمقداد وأبـو ذر وسليمان وجابر بن عبـد ا . وعامة حديثهم فتقول عن جعفر الصادق .

أما المعتزلة، فأنـهم وأن لـم يعايشـوا أحـداث الفتنـة الكبرى والحرب بين على ومعاوية، إلا أنهم حكمـوا



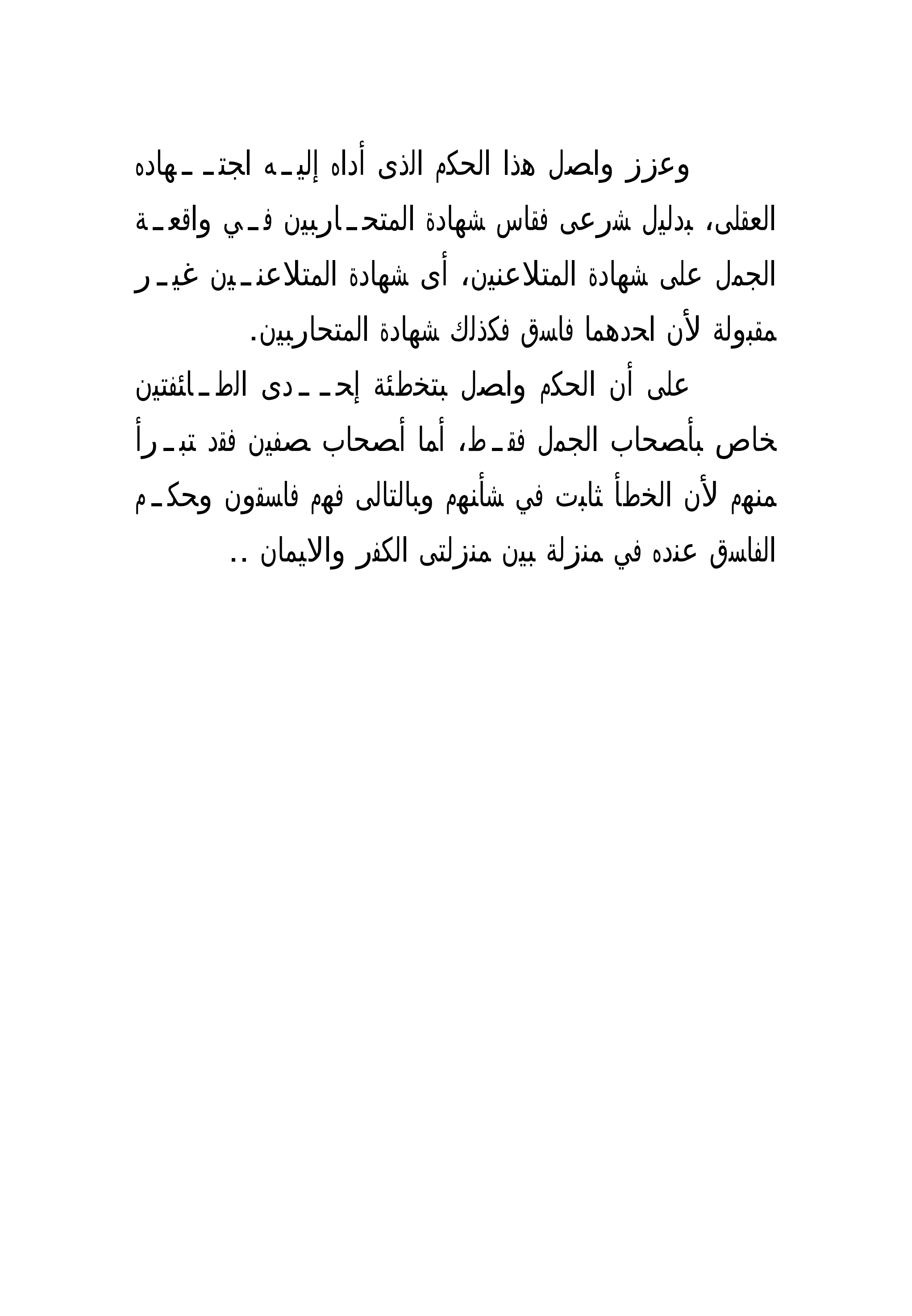
عقولهم في هذه القضية فتوقف واصل بـن عطاء في أمـر الذيـن اشتركوا في واقعة الجمل وأمسك على الحكم علـيهم على وجه التعيين وقال: " قد علمنا انهم ليسوا بمحقين جميعا، وجائـز أن تكون إحدى الطائفتين محقه والأخرى مبطلة ولم يتبين لنا من المحق منهم ومن المبطل. فوكلنا أمر القوم إلى عالمه وتولينا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال فـإذا إجتمعت الطائفتان قلنا " قـد علمنا أن إحـداكما عاصـية لا نـدرى أيكما هى" .

وما دامت إحدى الطائفتين عاصية، فإنها فاسـقة لا محالة. وبذلك حكـم واصـل بفسـق احـدى الفـرقتين .. المتحاربتين. وقد تكون الفاسقة عليـا وأتباعـه أو عائشـة وطلحة والزبيـر وسائر أصحاب الجمل ثم أكد شـكه فـي الفرقتين.

وقال " لو شهد على وطلحة أو على والزبير أو رجل من أصحاب على ورجل من

أصحاب الجمل علـى باقـة بقـل لـم أحـكم بشهادتهما لعـلمى بأن أحـدهما فاسق لا

بعينه " .



وعزز واصل هذا الحكم الذى أداه إليـه اجتـهاده العقلى، بدليل شرعى فقاس شهادة المتحـاربين فـي واقعـة الجمل على شهادة المتلاعنين، أى شهادة المتلاعنـين غيـر مقبولة لأن احدهما فاسق فكذلك شهادة المتحاربين.

على أن الحكم واصل بتخطئة إحـدى الطـائفتين خاص بأصحاب الجمل فقـط، أما أصحاب صفين فقد تبـرأ منهم لأن الخطأ ثابت في شأنهم وبالتالى فهم فاسقون وحكـم الفاسق عنده في منزلة بين منزلتى الكفر والايمان ..

الباب الثانى

السلطة تفسد العقيدة

(الأيديولوجيا)

رأينا فى الباب الأول كيف أن الأحداث التاريخية قد أدت إلى هجرة الرسول إلى المدينة، وكيف أن الهجرة أدت إلى تكوين "دولة" ذات طبيعة خاصة فهى بنت التاريخ من ناحية الوقوع، وهى الوقت ذات ونتيجة وثيقة من ناحية الطبيعة الخاصة بها كدولة يرأسها رسول يوحى إليه، ثم شاهدنا مسلسل الأحداث التى أخذت بعضها رقاب بعض بصورة سريعة متلاحقة بحيث لم تدع للمسلمين وقتئذ منفساً، أو تصرفاً آخر، وهذه السرعة والتلاحق مع أنها لم تدع للمسلمين سلوكاً آخر فإنها ربطت ما بين عهد الرسول والإمام التى مكنته، وقد ولدت الخلافة والرسول مسجى فى بيته، قبل أن يودع مثواه الأخير، وفى ظل هذا الحكم عاشت وكأنما أنفاس الرسول تتردد حولها وتحفظها من توفيق ا أن ولى أمرها "المتبع الأمين" أبو بكر الذى أظهرت الحوادث

أنه رجل دولة من الطراز الأول وأعقبه عمر بن الخطاب "المبتدع العظيم" الذى أرسى أسس الدولة الإسلامية .

ولكن لما كانت الدولة تقوم على ساقين هما الإيمان من ناحية والضرورات الاجتماعية من ناحية أخرى. ولما كان الإيمان يزيد وينقص، أو لنقل ينقص أكثر مما يزيد فقد انحسر الإيمان، وانحسر معه المقوم الإيمانى لدولة الخلافة الراشدة. وبدأ الإيمان يتقاص وينحسر مع طعن عمر بن الخطاب، وأخذ هذا الانحسار يزداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ الفئة الكبرى التى كانت إيذانا بنهاية الخلافة الراشدة .

ومن هذا نعلم أن الخلافة الراشدة تدين بظهورها إلى أنها ارتبطت بالرسول، ولم يحدث انفصام (باستثناء انقطاع الوحى طبعا) بحيث أمكنه أن تسير الأحداث فى ظل الرسول وأسرة، وأن تتغلب بهذه الصفة على ما جابهها من صعاب، لعل أعظمها حظاً كان حروب الردة. وهو ما يشير إلى توفيق الخلافة الراشدة فى قائدها الأولين أبو بكر وعمر الذى كان من أكبر نجاحها وتعتبرها فى قائدتها الآخرين عثمان وعلى مما أد مع انحسار الإيمان إلى النهاية المحتومة .

ومع طى صفحة الخلافة الراشدة يبدأ الفصل صفحة جديدة تقدم على فكرة محورية هى أن السلطة تفسد العقيدة (الأيدلوجيا) وأن هذا أمر محتم لا مفر منه بحكم طبيعتها والسلطة فى الوقت نفسه هى الخصية رغم ما فى الدولة وتحقيق هذا أن الدولة لا يمكن أن تكون راعية العقيدة أو فكرة لأن السلطة الكافية فيها لابد وأن تفسد العقيدة، ويثبت الفصل ذلك بشواهد من التاريخ الإسلامى والمسيحى والأوربى مما يوضح أن إفساد السلطة ليس مقصوراً على العقيدة الإسلامية، ولكنه يمحقه ويفسد كل عقيدة بها طابع القيم والمثل العليا وتنوع الأمثلة التى أوردها أكبر دليل وصداقته الفكر والمحورية فيه، إلا وهى أن السلطة تفسد العقيدة .

الفصل الرابع

الأمة – الدولة – السلطة

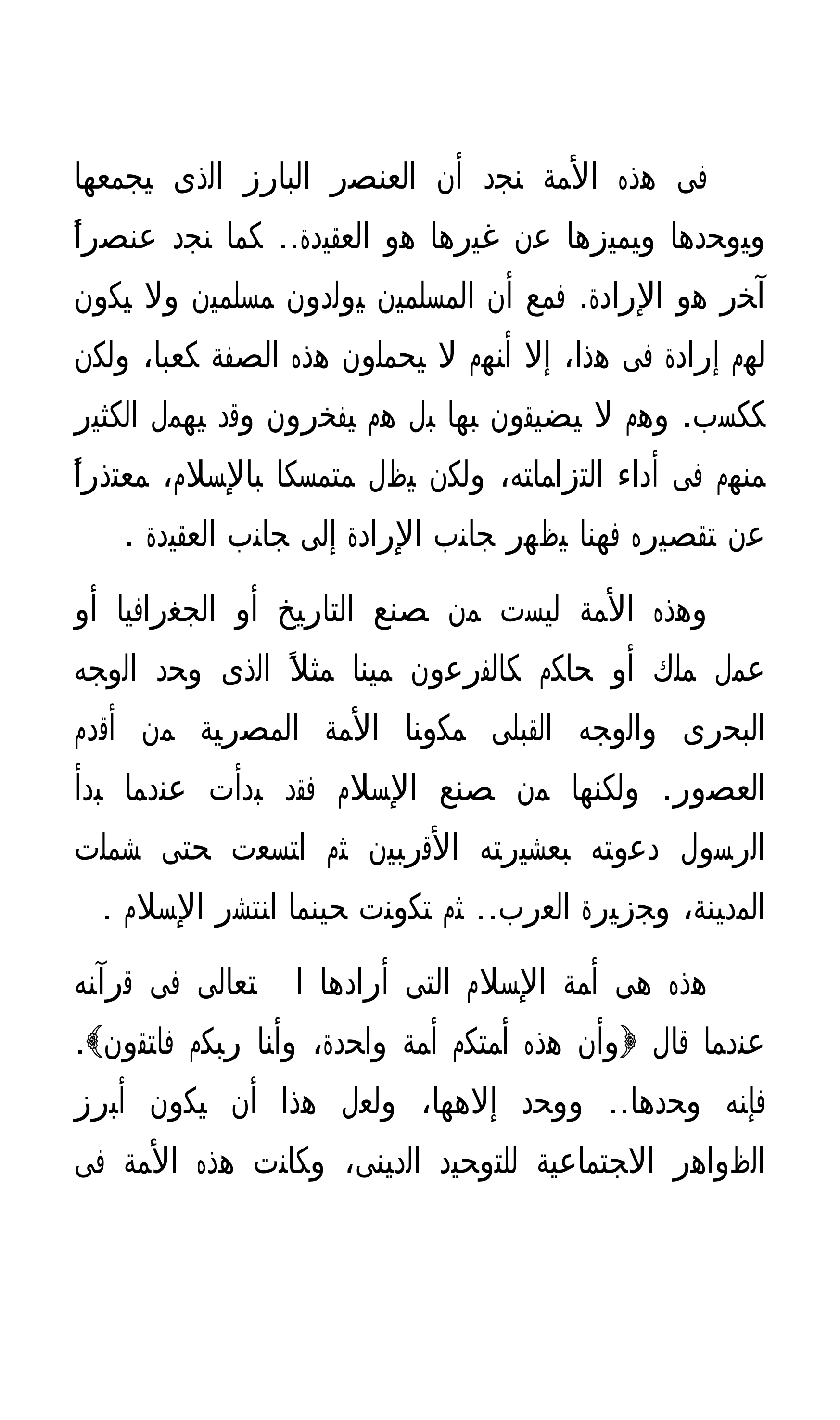
فى الجزء الأول من هذا البحث عالجنا دولة المدينة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين لأنها أول ما يرتكز عليه دعاة الدولة الإسلامية وأثبتنا أن دولة المدينة تجربة فريدة لا تتكرر، ولكن تستلهم وأن الخلافة الراشدة كانت هى برزخ بين رحمة الحكم النبوى وغشومة الملك العضوض. وأن عامل نجاحها كان هو قرب العهد بالرسول، وأنها عملت فى ظل حكم الرسول وفى أثاره. فهى فى الحقيقة امتداد له ورأينا أنها انتهت مع طعن عمر بن الخطاب، وتوقفت فترة فى عهد عثمان وأراد على بن أبى طالب إعادتها. فلم يستطع لأن القوة المحركة لها وهنت وتلاشت دفعتها مع بعد العهد بالرسول ﷺ .

وننقل فى الجزء الثانى الذى يحمل عنوانا "السلطة تفسد العقيدة (أو الأيدلوجيا) إلى دراسة طبيعة السلطة وأنها مفسدة

بطبيعتها. وأنها تفسد كل ما يتصل بها. ولما كانت السلطة هى الخصيصه المميزة للدولة، ولما كانت السلطة مفسدة، فمعنى هذا أن لابد وأن يفسد الحكم الإسلامى إذا جاء عن طريق الدولة وانبثق من سلطتها .

وقد كان هذا أقوى عامل دفعنا لرفض أن يكون الإسلام دولة، كما كان هناك من الناحية الإيجابية عوامل أخرى تدفعنا للتركيز على الأمة.. وبهذا يكون هناك مبررات إيجابية وسلبية ترفض الدولة وتفرض الأمة .

لا نريد أن نعذب القارئ ونضيع وقته فى مباحثات أكاديمية حول تعريف الأمة، خاصة وأن لنا فكرنا الخاص الذى قد يختلف عن علماء القانون الدستورى أو النظم السياسية أو علماء الاجتماع من هنا فإننا نقول باختصار ووضوح أن ما نعنيه بالأمة هو الشعب والجماهير التى تؤمن بالإسلام بصرف النظر عن لغاتهم وأجناسهم وألوانهم وتباعد بلادهم واختلاف نظمهم السياسية.. ذلك أن الإسلام بحكم قوته الذاتية الخاصة يمكن أن يكون عاملاً موحداً هذه الجموع أو على الأقل يؤثر تأثيراً فعالاً عليها ..



فى هذه الأمة نجد أن العنصر البارز الذى يجمعها ويوحدها ويميزها عن غيرها هو العقيدة.. كما نجد عنصراً آخر هو الإرادة. فمع أن المسلمين يولدون مسلمين ولا يكون لهم إرادة فى هذا، إلا أنهم لا يحملون هذه الصفة كعبا، ولكن ككسب. وهم لا يضيقون بها بل هم يفخرون وقد يهمل الكثير منهم فى أداء التزاماته، ولكن يظل متمسكا بالإسلام، معتذراً عن تقصيره فهنا يظهر جانب الإرادة إلى جانب العقيدة .

وهذه الأمة ليست من صنع التاريخ أو الجغرافيا أو عمل ملك أو حاكم كالفرعون مينا مثلاً الذى وحد الوجه البحرى والوجه القبلى مكونا الأمة المصرية من أقدم العصور. ولكنها من صنع الإسلام فقد بدأت عندما بدأ الرسول دعوته بعشيرته الأقربين ثم اتسعت حتى شملت المدينة، وجزيرة العرب.. ثم تكونت حينما انتشر الإسلام .

هذه هى أمة الإسلام التى أرادها ا تعالى فى قرآنه عندما قال ﴿وأن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون﴾. فإنه وحدها.. ووحد إلاهها، ولعل هذا أن يكون أبرز الظواهر الاجتماعية للتوحيد الدينى، وكانت هذه الأمة فى

ذهن الفقهاء الذين أبدعوا "دار الإسلام" وكانت هى التى أوحت إلى الشاعر :

بك اتصلت أسبابنا بعد فرقة
فنحن بنو الإسلام نُدعى ونُنسب

أو الآخر ..

أبى الإسلام، لا أبالى سواه
إذا افتخـروا بقـيس أو تميم

نشأة الدولة :

لن نثقل أيضا على القارئ ببحوث أكاديمية ولكننا سنقدم ثلاث رؤى لنشأة الدولة .

الرؤية الأولى: رؤية علماء الاجتماع ويقول هؤلاء – كما صور ذلك الدكتور محمد معروف الدواليبى فى كتابه "الدولة والسلطة فى الإسلام" (من ص٢٤ – ٢٨) ..

"مضى على المجتمعات البشرية الأولى حين من الدهر لم يكن فيها (للمجتمع) الواحد من كيان ومفهوم حينذاك غير كيان (الأسرة) الواحدة ومفهومها، سواء ضاق نطاق هذه

الأسرة فى التبعية لأب واحد حى، أو اتسع نطاقها لتشمل أسراً متعددة تحت أسم (القبيلة) الواحدة التى ترجع فى أصولها البعيدة إلى جد أعلى واحد .

وكذلك لم يكن لمفهوم (السلطة) فى المجتمع والأسرة من مفهوم غير مفهوم (السلطة الأبوية المطلقة) والمحصورة فعلاً بأبى الأسرة وكبيرها. وكان هذا الأب هو فى آن واحد سيد الأسرة وملكها، وحاكمها وكاهنها فى شؤونها الدينية، وبالجملة فإن أبا الأسرة كان وحده الآمر الناهى من غير منازع، وله بموجب سلطته الأبوية المطلقة حق الموت والحياة على جميع أفراد الأسرة على نحو ما هو ثابت ومعروف مثلاً فى تاريخ روما القديمة .

ولما تطور المجتمع وظهرت فيه (الدولة) انتقلت جميع خصائص (السلطة الأبوية المطلقة) إلى (رئيس الدولة) فكان هو أيضاً الحاكم المطلق فيها، وكان الويل كل الويل عندئذ للمجتمع من نزواته المطلقة .

وفى ظل ذلك الحكم المطلق ظهرت فئة المقربين الأشراف، ثم ما عداهم من عامة الناس، وانتهت بتقسيم

المجتمع إلى طبقات متفاوتة فى الحقوق وفى الكرامة. وهكذا كان هناك امتياز للبراهمة على المنبوذين فى شرائع الهند، وامتياز لأعيان الدولة على فلاحيها فى الصين، وامتياز للأشراف على العامة لدى اليونان والرومان، بل وامتياز لجنس الرجل على جنس المرأة لدى الجميع .

وأشد من كل ذلك هو الامتياز فى الحق بالحياة الكريمة تبعاً لاختلاف الأديان والألوان، والأوطان، فضلاً عن الامتياز فى مجمل الحقوق بين الناس حتى اليوم لدى الكثيرين من بقايا هذه الشعوب وثقافاتها .

وهكذا فإن ذلك الحكم المطلق، وذلك التفاوت فى طبقات الشعب وفى حقوق الأفراد، قد جعل (مفاهيم الدولة وسلطاتها) فيما يتعلق بالسلطة وبالشعب وبالقانون، لا تظهر إلا :

- **من خلال (السلطة المطلقة للحاكم) على الشعب من جهة، وذلك بما يشبه (السلطة الأبوية) فى حق الحياة والموت على أفراد أسرتها كما كانت من قبل .**

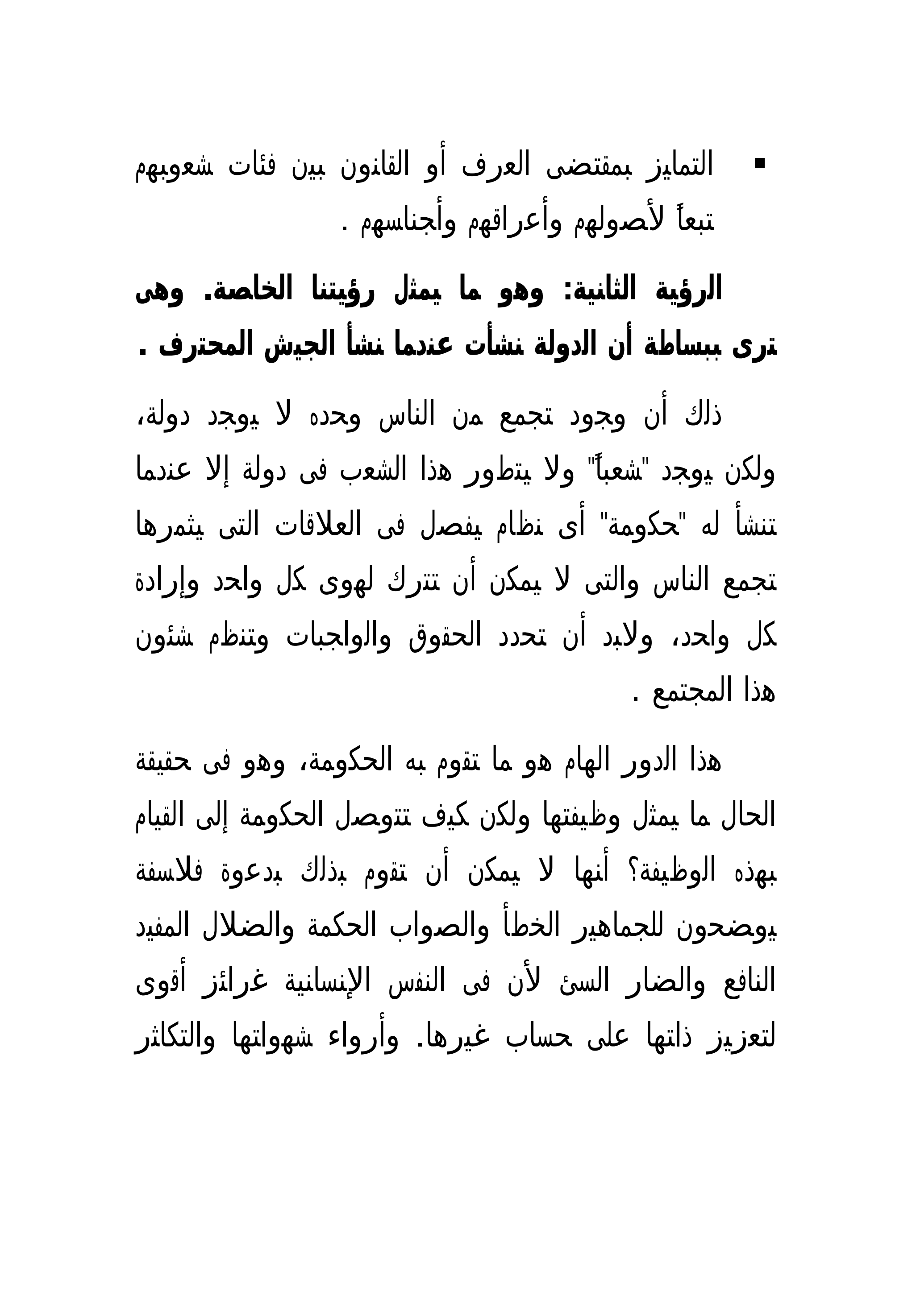
- **من خلال (التبعية المطلقة) المفروضة على (الشعب) تجاه الحاكم من جهة ثانية، وذلك بدون أن يكون للشعب أية شخصية حقوقية، أو أى اعتبار له أمام سلطة الحاكم المطلقة .**

وأما القانون – إن وجد فى مراحل وجوده – فما هو إلا تلك الأحكام الصادرة عن إرادة ذلك الحاكم المطلق إن شاء. وذلك من دون أن يكون فى تلك الأحكام ما يعبر عن شئ من القيم الاجتماعية السامية أو المصالح الإنسانية غير تثبيت الأمر الواقع فى تلك السلطة المطلقة للحاكم، وتبعية الشعب له كشىء من أشيائه، مع تمايز فئاته وطبقاته فى الحقوق والاعتبار فضلاً عن التمايز بين شعوب الإمبراطوريات فى الأعراق، والأوطان، والأجناس .

ففى ظل تلك المفاهيم تظهر الدولة فى :

- **سلطات الحاكم المطلقة على الشعوب .**

- تبعية الشعوب لقادتها بدون (أية شخصية حقوقية) أو أى اعتبار لهم أمام حكامهم

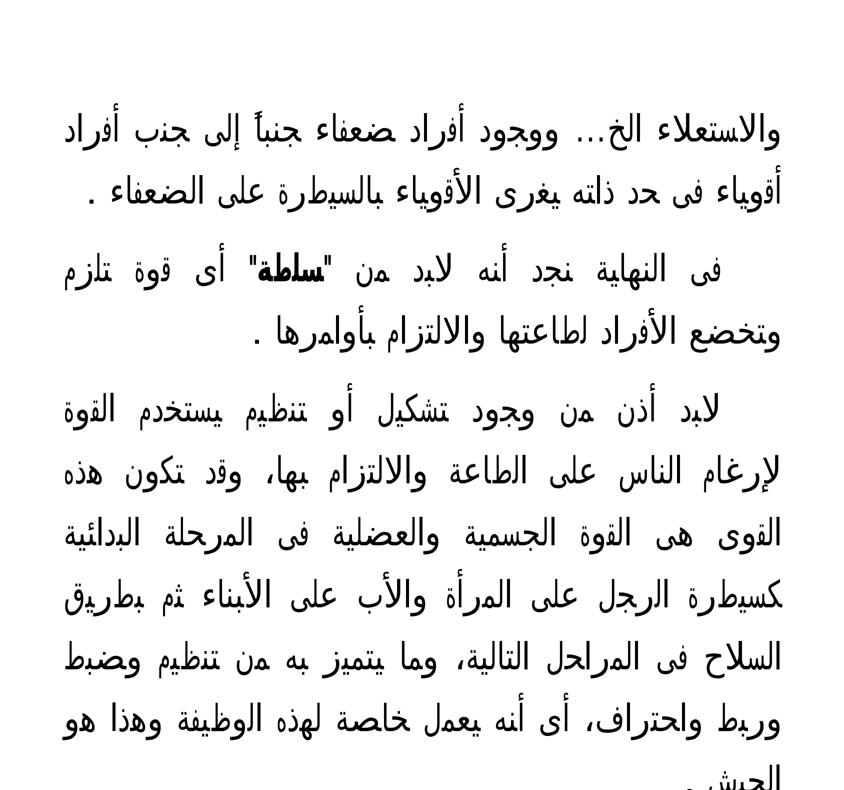


- التمايز بمقتضى العرف أو القانون بين فئات شعوبهم تبعاً لأصولهم وأعراقهم وأجناسهم .

الرؤية الثانية: وهو ما يمثل رؤيتنا الخاصة. وهى ترى ببساطة أن الدولة نشأت عندما نشأ الجيش المحترف .

ذلك أن وجود تجمع من الناس وحده لا يوجد دولة، ولكن يوجد "شعباً" ولا يتطور هذا الشعب فى دولة إلا عندما تنشأ له "حكومة" أى نظام يفصل فى العلاقات التى يثمرها تجمع الناس والتى لا يمكن أن تترك لهوى كل واحد وإرادة كل واحد، ولابد أن تحدد الحقوق والواجبات وتنظم شئون هذا المجتمع .

هذا الدور الهام هو ما تقوم به الحكومة، وهو فى حقيقة الحال ما يمثل وظيفتها ولكن كيف تتوصل الحكومة إلى القيام بهذه الوظيفة؟ أنها لا يمكن أن تقوم بذلك بدعوة فلاسفة يوضحون للجماهير الخطأ والصواب الحكمة والضلال المفيد النافع والضار السئ لأن فى النفس الإنسانية غرائز أقوى لتعزيز ذاتها على حساب غيرها. وأرواء شهواتها والتكاثر



والاستعلاء الخ... ووجود أفراد ضعفاء جنباً إلى جنب أفراد أقوياء فى حد ذاته يغرى الأقوياء بالسيطرة على الضعفاء .

فى النهاية نجد أنه لابد من "**سلطة**" أى قوة تلزم وتخضع الأفراد لطاعتها والالتزام بأوامرها .

لابد أذن من وجود تشكيل أو تنظيم يستخدم القوة لإرغام الناس على الطاعة والالتزام بها، وقد تكون هذه القوى هى القوة الجسمية والعضلية فى المرحلة البدائية كسيطرة الرجل على المرأة والأب على الأبناء ثم بطريق السلاح فى المراحل التالية، وما يتميز به من تنظيم وضبط وربط واحتراف، أى أنه يعمل خاصة لهذه الوظيفة وهذا هو الجيش .

ومنذ أن توصل حاكم ذكى إلى تفريغ عدد من الرجال، وتنظيمهم وتدريبهم ووضع فى أيديهم السلاح وفرغهم لهذا وقد ظهرت الصورة الأولى للجيش، وبفضل هذه الأداة استطاع الحاكم أن يلزم إلزاما، ويكره إكراها، المجموعات التى تحاول التمرد عليه أو عدم الالتزام بأوامره، بينما كان

مجرد وجوده كافيا لأن يحمل الآخرين على الطاعة، حتى لا يتعرضوا لما يمكن أن يقوم به الجيش من غارة عليهم ..

ويلحق بالجيش عادة البوليس. وهو تنظيم مخفف نشأ فى فترة لاحقة عندما ظهر أن إخضاع الجمهور قد لا يتطلب تحرك الجيش بسلاحه الثقيل، ولكن يكفى "البوليس بسلاحه الخفيف" وتكون مهمة البوليس تطبيق إرادة الحكومة فى الداخل بينما تكون مهمة الجيش تطبيق إرادتها فى الخارج أو صد أى هجوم على الدولة.. ولا يمنع هذا من تدخل الجيش عندما تحتدم صراعات فى الداخل ليستعان به .

ويلحق بالجيش أو البوليس "السجون" التى هى إحدى وسائل العقوبة لمن يرفض تطبيق الأوامر أو يتمرد على الطاعة.. ويقترن بالسجون القيود والإصفاد الحديدية والاحتباس فى زنزانات ضيقه رطبة والاقتصار على أسوأ أنواع التغذية وكثيراً ما يتعدى الأمر إلى التعذيب .

هذه هى فكرتنا عن نشأة الدولة ..

فلا يمكن لمجموعات من الناس تقطن إقليما واحداً وتتكلم لغة واحدة، ولها مصالح واحدة أن تكون دولة .

إنها يمكن أن تكون أمه، وليس دولة ..

الدولة لا تنشأ إلا عندما توجد فى هذه الأمة الحكومة أى الجهاز المسئول عن تنظيم العلاقات ما بين أفراد هذه المجموعة بعضهن بعضاً .

ولا تستطيع الحكومة القيام بذلك إلا بالسلطة ..

ولا سلطة إلا بجيش يملك القوة الجبرية التى تلزم الناس الطاعة وتحول بينهم من التمرد ...

وقلما يذكر علماء النظم السياسية كلمة الجيش كما نصرح بها وعادة ما يكنون عنها بكلمة "القوة" .

وقد قال بعض النقاد أن نظرية القوة.. لا يمكن التسليم بها على طول الخط لأنه "ما من سلطة تستطيع أن تحقق لنفسها الاستقرار والدوام مستندة إلى القوة وحدها، بل يلزم أن تكسب رضاء الأفراد وقبولهم لها، وإلا كان من الضرورى تخصيص جندى لكل مواطن ووراء كل جندى يجب وضع جندى آخر لحراسته... وهكذا "أنظر النظم السياسية للدكتور ثروت بدوى – دار النهضة العربية – ص ١٣١" .

وهذا كلام سليم نظريا، ولكنه بعيد عن منطق الواقع. إذ الواقع أنه لابد أولاً وقبل كل شئ من القوة (الجيش) لتقلد السلطة ولما يتم هذا فإن الحاكم لا يعجز عن استخدام وسائل التزييف والاصطناع والضغوط الخ... ليتوصل إلى تعزيز سلطته بحيث لا تكون قائمة على وجود الجيش ولكن بفضل وجود الجيش.. وفيما بين هذين فرق وفرق كبير ...

وذهب بعض المفكرين إلى أن العلاقة ما بين القوة والقانون الذى يفترض أنه العمود الفقرى للدولة أو إطارها العام ليست كما ذهب النص علاقة السيد بالعبد، أو العبد بالسيد ولكنها علاقة تزاوج، ولكن هؤلاء المفكرين لم يوضحوا لنا من هو الزوج ومن هى الزوجة فى هذه العلاقة، لأن الحقوق والواجبات ليست متكافئة.. ولأن المساواة تحول دون الجسم .

ولكن القانونين الأكثر صراحة قرروا أن القوة .

ولكن الاتجاه الأكثر هو نحو تغليب القوة فى هذا الصدد يقول أحد رجال القانون بعد أن استعرض مناقشة هذه العلاقة.

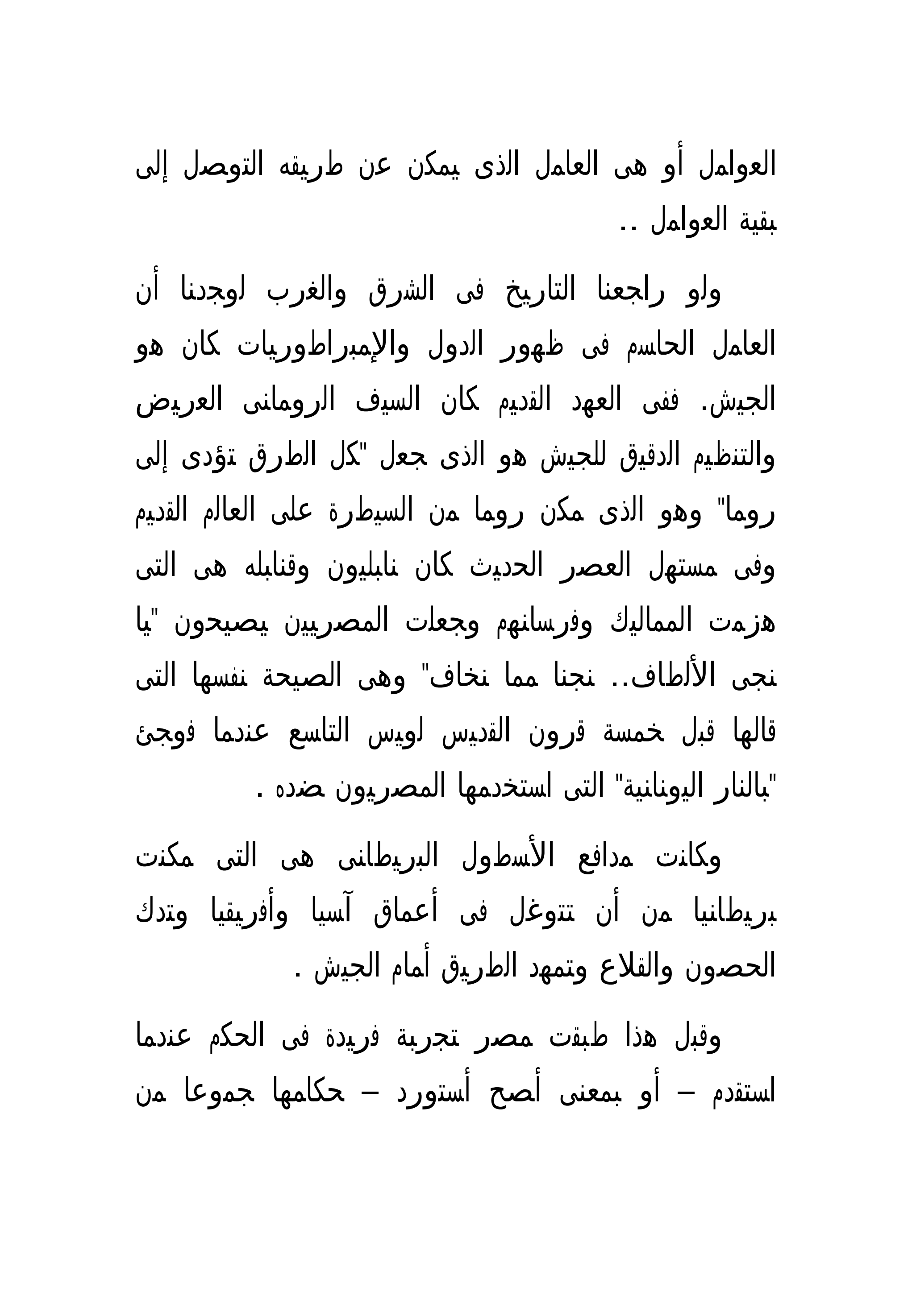
"يبدو لنا مما سبق أن جانباً كبيراً من فلسفة القانون تعترف بصراحة أن القوة هى التى تنشئ القانون وتحميه، فالقوة تخلق القانون وفى الغالب لمصالحها الخاصة، وهى أيضاً التى تحمى تطبيقه وتحل محله بصراحة فى أوقات الأزمات .

ويبدو لنا أيضاً مما تقدم أن فكرة القوة تنشئ الحق وتحميه ترتبط فى الغالب من الأحيان ببداية تكوين المجتمعات الإنسانية، ففى بداية أى مجتمع إنسانى لابد من استعمال القوة لتنظيم المجتمع ولتحديد النظم القانونية وفرضها، فغالبا يكون هناك انقلاب أو ثورة أو صراع اجتماعى يتولد من القانون[1] .

وأقسى ما يمكن أن يوجه من نقد لنظرية الجيش أنها لا تكفى وحدها لظهور الدولة ولكن – فى مقابل هذا – لا يمكن أن تظهر الدولة بدونها. فهى العامل الحاسم، وأن لم تكن كل

---

(١) كتاب "الأصول التاريخية للقانون" ج١ ص١٥٥ تأليف الدكتور/ حسن عبد الحميد .



العوامل أو هى العامل الذى يمكن عن طريقه التوصل إلى بقية العوامل ..

ولو راجعنا التاريخ فى الشرق والغرب لوجدنا أن العامل الحاسم فى ظهور الدول والإمبراطوريات كان هو الجيش. ففى العهد القديم كان السيف الرومانى العريض والتنظيم الدقيق للجيش هو الذى جعل "كل الطرق تؤدى إلى روما" وهو الذى مكن روما من السيطرة على العالم القديم وفى مستهل العصر الحديث كان نابليون وقنابله هى التى هزمت المماليك وفرسانهم وجعلت المصريين يصيحون "يا نجى الألطاف.. نجنا مما نخاف" وهى الصيحة نفسها التى قالها قبل خمسة قرون القديس لويس التاسع عندما فوجئ "بالنار اليونانية" التى استخدمها المصريون ضده .

وكانت مدافع الأسطول البريطانى هى التى مكنت بريطانيا من أن تتوغل فى أعماق آسيا وأفريقيا وتدك الحصون والقلاع وتمهد الطريق أمام الجيش .

وقبل هذا طبقت مصر تجربة فريدة فى الحكم عندما استقدم – أو بمعنى أصح أستورد – حكامها جموعا من

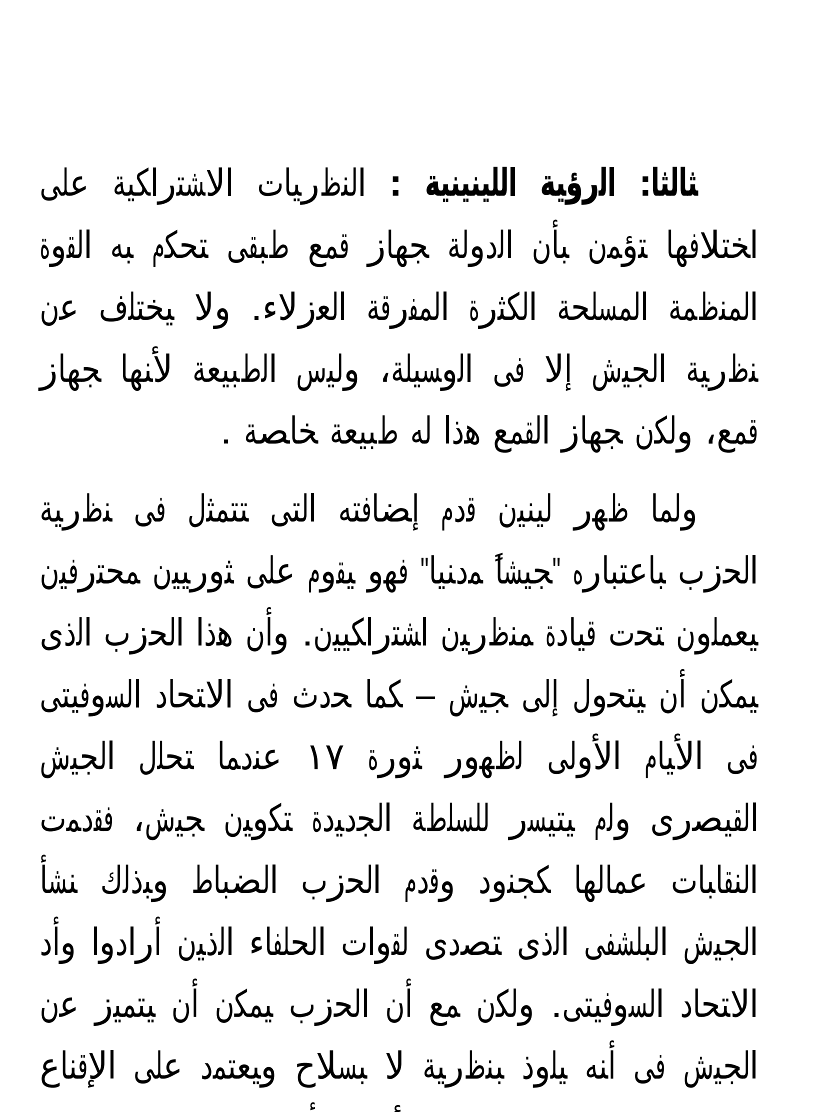
المماليك الذين كان يأتى بهم النخاسون أطفالاً – ليربوا ويدربوا على المهام القتالية، واستطاع هؤلاء المماليك أن يحكموا مصر قرابة ثلاثة قرون. وكانت سيوفهم هى التى هزمت لويس التاسع فى المنصورة. وهى التى ردت التتار فى عين جالوت كما كان هؤلاء المماليك هم الذين شيدوا من المساجد ما يوازى المعابد الفرعونية القديمة، وأدى المماليك هذا كله بينما كان شعب مصر عاكفا على زراعة الأرض محافظاً على روح الحضارة التى حماها المماليك بسيوفهم .

وفى الحقبة المعاصرة، فإن ما مكن أمريكا من السيطرة والقوة هو أنها بدء من الحرب العالمية الأولى ١٤ – ١٨ جعلت نفسها مصنع سلاح العالم وتعزز هذا بحرب ٣٩ – ٤٥ فمع أن أرضها لم تتعرض لحرب، ولم تنزل قوات عليها، فإنها صنعت السلاح الذى مكن الحلفاء فى الحربين العالميتين من الأرض وأصبحت حاملات الطائرات أشبه بقلاع متحركة لا يمكن أن يحملها إلا المحيطات التى تمخرها. ومن هذه القلاع السابحة يمكن أن تنطلق طائرتها فتصيب الأهداف فى أى مكان من العالم ..

وقد فرضت الضرورات التسليح على الأديان نفسها، وهى دعوات الحب والسلام والضمير – عندما هدد الطغاة الدعوات الدينية، واضطر دعاتها إلى حمل لسلاح دفاعاً عن أنفسهم وحتى لا يفتنون عن دينهم، كما لم يكن بد من الجيش فى العهد الإسلامى الأول. لتقويض نظام إمبراطوريات طبقيه وعنصرية جائرة وإحلال نظام تقوم على المساواة وعدم التمييز. وهكذا نرى جانبا من جوانب التعقيد الاجتماعى. ولكن هناك فرق بالطبع بين الحرب الدفاعية، والحرب الهجومية. بين جيش كالجيش الإسلامى يرفع الكتاب والميزان وجيش كجيش روما يتبعه البغايا والنخاسون .

فالقوة العسكرية التى يحملها الجيش هى لحمة وسدى تاريخ ظهور الدول والإمبراطوريات ونحن نسلم بأن وراء السيف والمدفع والطائرة كان هناك عامل نفسى من زهو قومى. أو نشر حضارى أو وجود نظام اجتماعى رصين أو الدفاع عن العقيدة الخ... ولكن فى نهاية الملاذ يكون الجيش هو الذى يقوم عمليا بالمهمة ويصدق كلام الشاعر :

"تكلم السيف. فأسكت أيها القلم" .



ثالثا: الرؤية اللينينية : النظريات الاشتراكية على اختلافها تؤمن بأن الدولة جهاز قمع طبقى تحكم به القوة المنظمة المسلحة الكثرة المفرقة العزلاء. ولا يختلف عن نظرية الجيش إلا فى الوسيلة، وليس الطبيعة لأنها جهاز قمع، ولكن جهاز القمع هذا له طبيعة خاصة .

ولما ظهر لينين قدم إضافته التى تتمثل فى نظرية الحزب باعتباره "جيشاً مدنيا" فهو يقوم على ثوريين محترفين يعملون تحت قيادة منظرين اشتراكيين. وأن هذا الحزب الذى يمكن أن يتحول إلى جيش – كما حدث فى الاتحاد السوفيتى فى الأيام الأولى لظهور ثورة ١٧ عندما تحال الجيش القيصرى ولم يتيسر للسلطة الجديدة تكوين جيش، فقدمت النقابات عمالها كجنود وقدم الحزب الضباط وبذلك نشأ الجيش البلشفى الذى تصدى لقوات الحلفاء الذين أرادوا وأد الاتحاد السوفيتى. ولكن مع أن الحزب يمكن أن يتميز عن الجيش فى أنه يلوذ بنظرية لا بسلاح ويعتمد على الإقناع والدعوة وليس الضرب والأسر وأن هذا سيقدم الغطاء الأيدلوجى لقمع الجيش مع هذا كله فمن الغريب أننا لا نجد فى التنظيرات ما يماثل صراحة التنظير اللينينى فى أن

الدولة هى جهاز "إرهاب" وأن هذا الإرهاب لا يستخدم ضد الذين يهددون الأمن الخارجى للبلاد فحسب، ولكن ضد الذين يهددون الأمن الداخلى أو حتى باعتباره جزءاً لا يتجزأ من الدولة الشيوعية وقد كتب ترتسكى – منظر الحزب والرجل الثانى بعد لينين كتاباً كبيراً عن الإرهاب والشيوعية (ترجمة الأستاذ جورج طرابيشى وطبع فى دمشق) دافع فيه دفاعاً حاراً عن الإرهاب كجزء لا يتجزأ من نظام وقوام الدولة الشيوعية ليس فحسب لإرهاب الأعداء فى الخارج، أو حتى مخلفات وسلالات الإقطاعيين والرأسماليين. ولكن بالنسبة للعمال أنفسهم وهم الذين من أجلهم قامت الثورة، فإن الشعارات ما كانت لتجوز على تروتسكى ولا تحمله على إغفال الحقائق الصعبة التى تسيطر على الطبيعة البشرية. فقال بدون مواربة أن العمال – بدون دفع الإرهاب – سيستسلمون للكسل الفطرى، وأنه لابد من إكراههم إكراها على العمل جميعا لما تتطلبه الدول الشيوعية، ووصل فى هذا إلى درجة "عسكرة العمل" التى لا تختلف عن "السخرة" فأظهر إلى أى مدى يمكن للسلطة أن تفسد الأيدلوجيا .

خصائص أخرى للدولة :

قدمنا أن العامل الأعظم الذى جعلنا نرفض الدولة هو أن الدولة ترتبط ارتباطاً لا مناص منه بالسلطة المفسدة بطبيعتها، ولكن هناك عوامل أخرى تجعلنا نرفض فكرة الدولة.. يجمعها أنها عوامل مجددة ومفرقة تبرأ منها الأمة التى لا يوجد فيها إلا عامل واحد مجمع وموحد.. وهو العقيدة الإسلامية ..

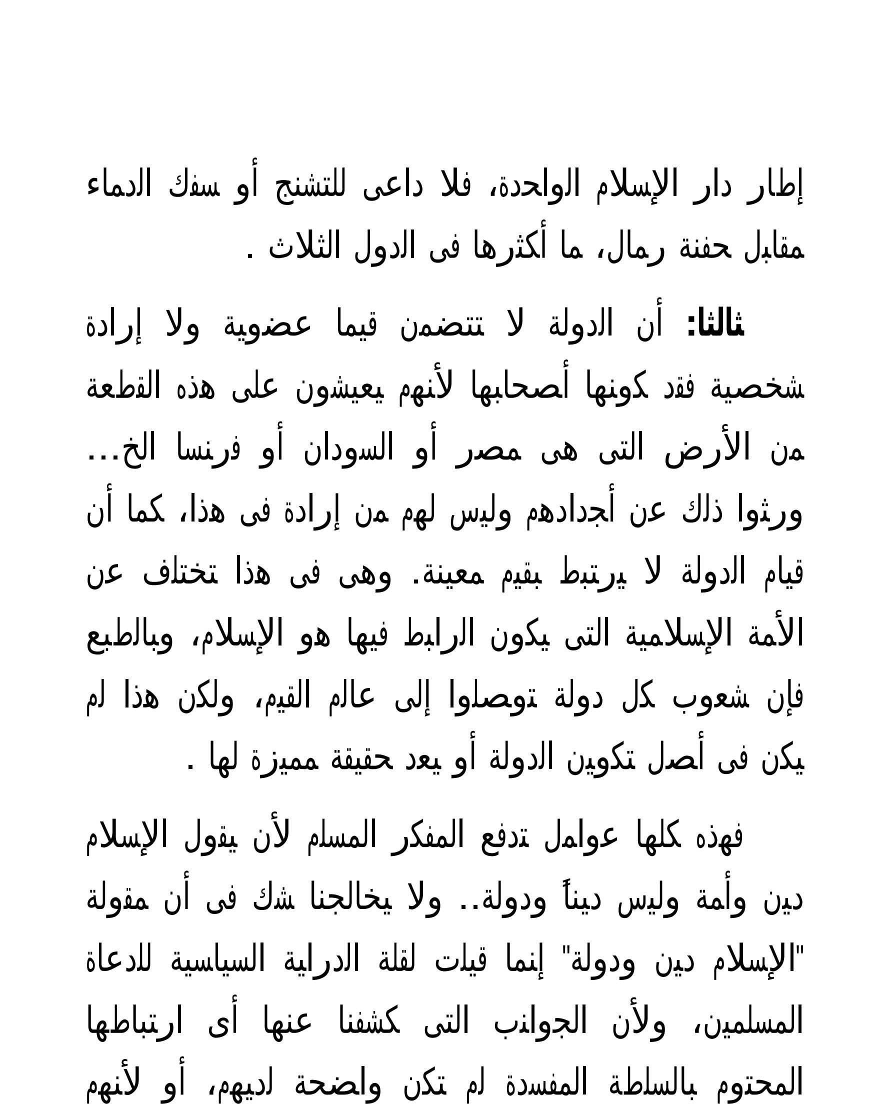
من عوامل التفرقة والتمييز فى الدولة أنها :

أولاً: تختص الدولة بإقليم واحد لا تتعداه. فالحدود الجغرافية هى إحدى محددات الدولة.. وعندما نقول إن الإسلام دين ودولة.. فأى دولة.. وقد قسمتها الجغرافيا إلى عشرات الدول ..

لقد زرع الاستعمار بذرة صراعات الحدود لتشتعل بعده الحروب بين الدول الإسلامية بعضها بعضاً حرصاً على عده أمتار من الكيلو مترات من الأرض.. كل دولة تدعى أنها جزء لا يتجزأ من تربة الوطن المقدس التى يفتدونها بالدم..

ثانياً: أن الدولة تفرض "جنسية" فأبناء الدولة المصرية يكتسبون جنسية مصرية. ولا يمكن لغيرهم أن يحملوا هذه الجنسية ويتبع الجنسية أن حقوق المواطن الدستورية والاجتماعية والاقتصادية مقصورة على من يحملون جنسية الدولة. بما فى ذلك الدخول أو الخروج منها عن طريق "جوازات سفر ولا يمكن لغير صاحب الجنسية أن يدخل ويخرج من دولة لا تحمل جنسيتها" وما أكثر الفروق بين السكان الأصليين، ومن يطرأ عليهم أو يعيش معهم عشرات السنين، ولكنه لا يحصل على الجنسية، بل هناك فروق بين من يحصل على هذه الجنسية دون أن يكون أصلاً منها ولكن بفضل طول الإقامة، وبين صاحب الجنسية الأصلى، فيطلقون على الأول "متجنس" .

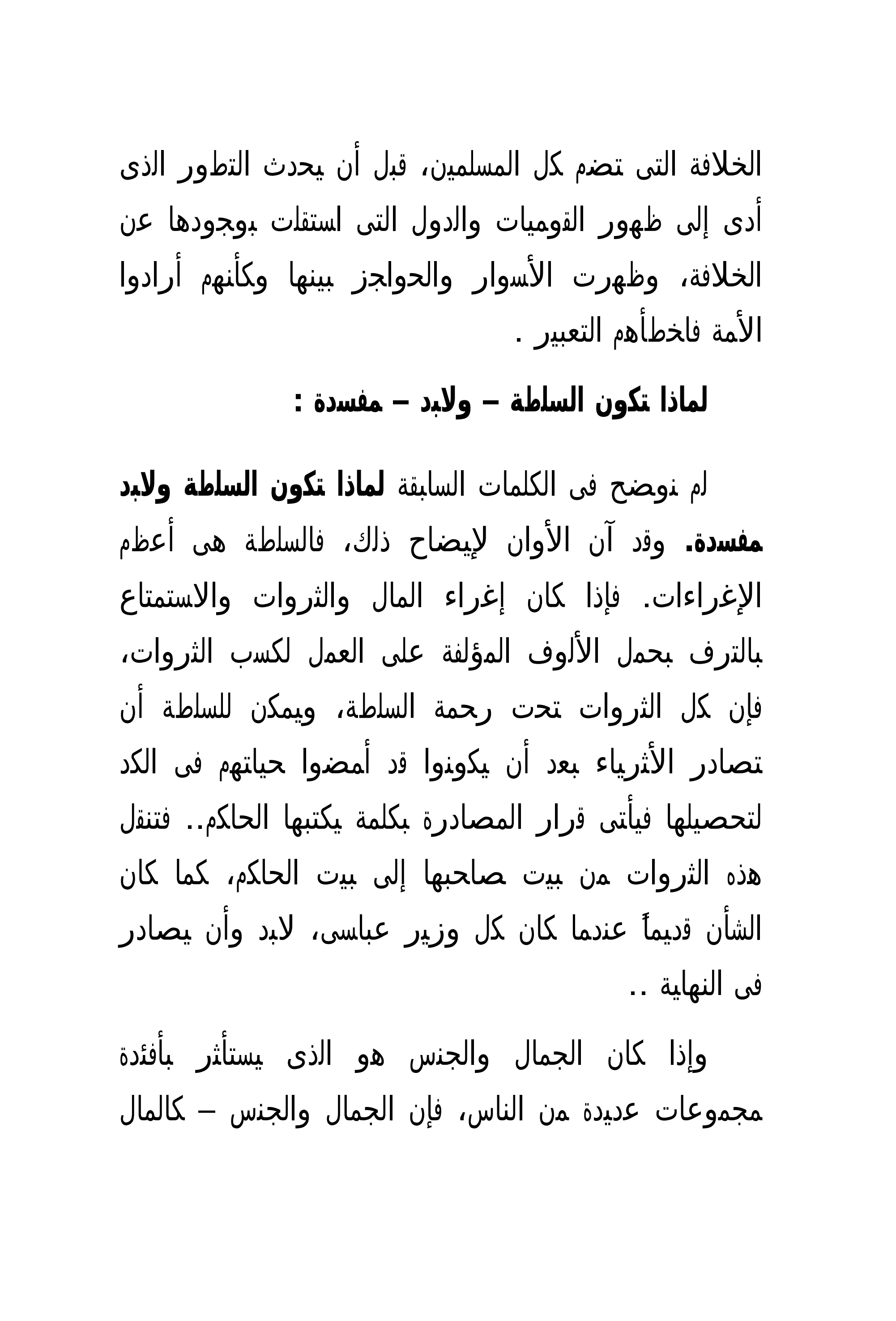
وبتأثير الحدود الجغرافية وقيود الجنسيات تنشأ النزعة القومية ولا يعد الاستسلام لها أو التشدد فيها مأخذاً وقد توجب على المصرى القومى أن يحارب حتى لا تضم جغبوب إلى ليبيا أو حلايب إلى السودان. فى حين أن المصرى المسلم لا يرى فرقاً كبيراً فليبيا دولة إسلامية جارة، والسودان دولة إسلامية جارة، وهما مع مصر فى



إطار دار الإسلام الواحدة، فلا داعى للتشنج أو سفك الدماء مقابل حفنة رمال، ما أكثرها فى الدول الثلاث .

ثالثا: أن الدولة لا تتضمن قيما عضوية ولا إرادة شخصية فقد كونها أصحابها لأنهم يعيشون على هذه القطعة من الأرض التى هى مصر أو السودان أو فرنسا الخ... ورثوا ذلك عن أجدادهم وليس لهم من إرادة فى هذا، كما أن قيام الدولة لا يرتبط بقيم معينة. وهى فى هذا تختلف عن الأمة الإسلامية التى يكون الرابط فيها هو الإسلام، وبالطبع فإن شعوب كل دولة توصلوا إلى عالم القيم، ولكن هذا لم يكن فى أصل تكوين الدولة أو يعد حقيقة مميزة لها .

فهذه كلها عوامل تدفع المفكر المسلم لأن يقول الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة.. ولا يخالجنا شك فى أن مقولة "الإسلام دين ودولة" إنما قيلت لقلة الدراية السياسية للدعاة المسلمين، ولأن الجوانب التى كشفنا عنها أى ارتباطها المحتوم بالسلطة المفسدة لم تكن واضحة لديهم، أو لأنهم أرادوا إعادة نموذج دولة المدينة التى قلنا أنها تجربة لا تتكرر ويغلب أنهم أرادوا بالدولة، الدولة الإسلامية بمعنى

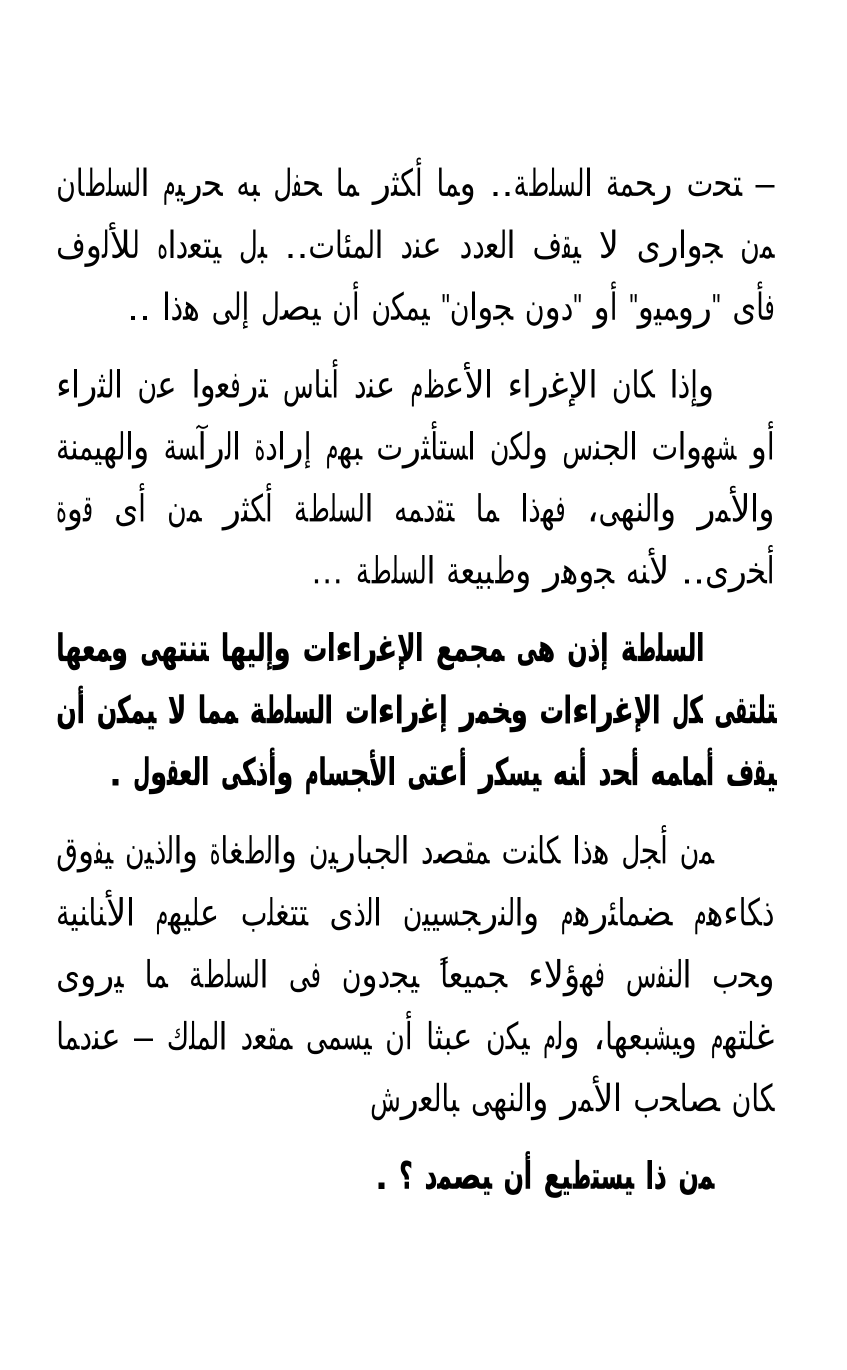


الخلافة التى تضم كل المسلمين، قبل أن يحدث التطور الذى أدى إلى ظهور القوميات والدول التى استقلت بوجودها عن الخلافة، وظهرت الأسوار والحواجز بينها وكأنهم أرادوا الأمة فاخطأهم التعبير .

لماذا تكون السلطة – ولابد – مفسدة :

لم نوضح فى الكلمات السابقة **لماذا تكون السلطة ولابد مفسدة.** وقد آن الأوان لإيضاح ذلك، فالسلطة هى أعظم الإغراءات. فإذا كان إغراء المال والثروات والاستمتاع بالترف يحمل الألوف المؤلفة على العمل لكسب الثروات، فإن كل الثروات تحت رحمة السلطة، ويمكن للسلطة أن تصادر الأثرياء بعد أن يكونوا قد أمضوا حياتهم فى الكد لتحصيلها فيأتى قرار المصادرة بكلمة يكتبها الحاكم.. فتنقل هذه الثروات من بيت صاحبها إلى بيت الحاكم، كما كان الشأن قديماً عندما كان كل وزير عباسى، لابد وأن يصادر فى النهاية ..

وإذا كان الجمال والجنس هو الذى يستأثر بأفئدة مجموعات عديدة من الناس، فإن الجمال والجنس – كالمال



– تحت رحمة السلطة.. وما أكثر ما حفل به حريم السلطان من جوارى لا يقف العدد عند المئات.. بل يتعداه للألوف فأى "روميو" أو "دون جوان" يمكن أن يصل إلى هذا ..

وإذا كان الإغراء الأعظم عند أناس ترفعوا عن الثراء أو شهوات الجنس ولكن استأثرت بهم إرادة الرآسة والهيمنة والأمر والنهى، فهذا ما تقدمه السلطة أكثر من أى قوة أخرى.. لأنه جوهر وطبيعة السلطة ...

السلطة إذن هى مجمع الإغراءات وإليها تنتهى ومعها تلتقى كل الإغراءات وخمر إغراءات السلطة مما لا يمكن أن يقف أمامه أحد أنه يسكر أعتى الأجسام وأذكى العقول .

من أجل هذا كانت مقصد الجبارين والطغاة والذين يفوق ذكاءهم ضمائرهم والنرجسيين الذى تتغلب عليهم الأنانية وحب النفس فهؤلاء جميعاً يجدون فى السلطة ما يروى غلتهم ويشبعها، ولم يكن عبثا أن يسمى مقعد الملك – عندما كان صاحب الأمر والنهى بالعرش

من ذا يستطيع أن يصمد ؟ .

لقد قال يوسف عندما تعرض لإغراء الجمال ﴿وإلا تَصرفْ عني كَيدهن أَصب إِلَيهن وأَكُن مِن الْجاهِلين﴾. {٣٣ يوسف} ..

من أجل هذا فإن السلطة لا تقبل شريكاً لها فى نفس صاحبها لأن "الملك عقيم" كما قال عبد الملك بن مروان – أى لا يقبل شريكاً من أخ أو أبن، ومن هنا أجاز بعض الفقهاء بسلاطين الترك أن يقتلوا إخوانهم عندما تكرر ثورة هؤلاء الأخوة ومطالبتهم بالعرش، وعندما تتملك السلطة فرداً ما، فإنها تمحق ما عداها ويصل لدد خصومتها إلى مثل ما قاله الشاعر :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم
ولا دماؤهم من الغيظ ترويني

وعندما يهدد الحاكم بفقد السلطة، فإنه يؤثر الموت ولكنه عادة لا يموت وحيداً أنه يأخذ معه أعداءه "على وعلى أعدائى" كما قال شمشون. أو عليه وخصمه كما قال عبد ا بن الزبير

اقتـلونى ومـالكا[1] واقتـلوا مـالكا معـى .

وشهوة التسلط والزهو بطاعات الجموع وأنه مالك الحياة والموت على الناس وأنه يرفع من يشاء ويذل من يشاء أقوى من أى شهوة أخرى. أقوى من شهوة الجنس أو المال وما أكثر ما يخطر على الذهن لو أن هتلر أو موسولينى أو لينين أو ستالين أو غيرهم من الطغاة ابتلوا بحب المأكل والمشرب والاستمتاع بالحياة لكان هذا أفضل للبشرية آلاف المرات من تحكم شهوة السلطة. فلم يكن هتلر يذوق اللحم، ولكنه أوقد أكبر محرقة "شوى" فيها الملايين من الرجال والنساء .

ووسائل السلطة – كسلطة – للتعامل محدودة، فقد تكون الإرهاب والبطش والجبروت واستخدام القوة.. لإخراس الخصوم والتخلص من الأعداء وقد تكون الاصطناع والأرشاء والإغراء بالمال أو المناصب، وقد تكون الخداع والدهاء ونصب المكائد وتزييف الحقائق .

---

(١) هو الأشتر وكان قد دخل فى مبارزة مع عبد ا بن الزبير .

وأى خير يمكن أن يأتى من هذه كلها ..

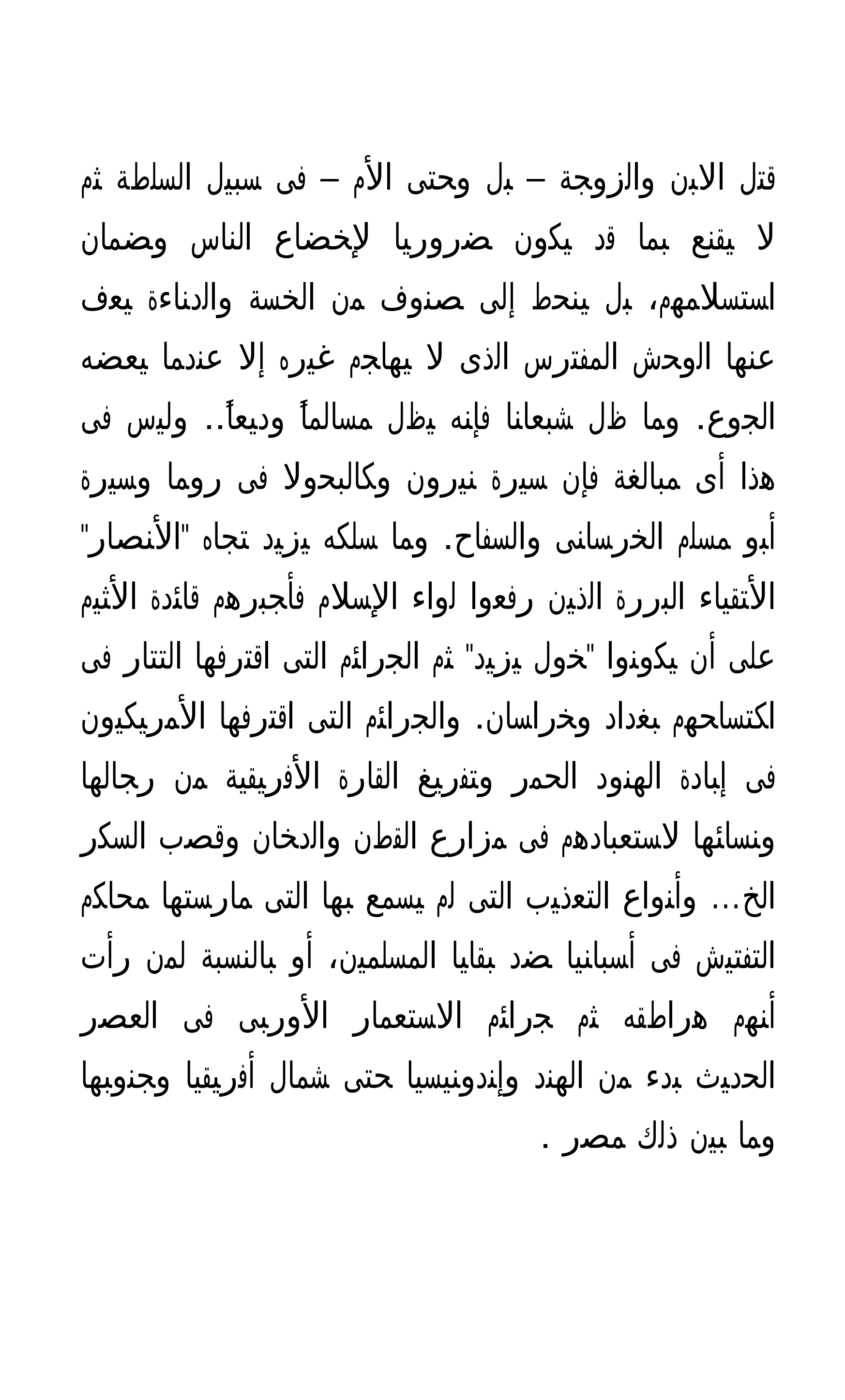
إنها أسوأ الشرور فهل يمكن أن يتمخض عنها ما خير؟.

ولو تصفحت دفاتر السلطة – أى سلطة – فلن تجد إلا هذه الصفحات: صفحات القتل وصفحات الارتشاء وصفحات الخداع والدهاء ..

إن قصارى ما تصل إليه السلطات أن يثير الخوف فى نفوس الناس حتى يصبح كل واحد "عبد المأمور" (لاحظ المفارقة أنه عبد المأمور وليس الآمر!) أو أن يصطنع بعضهم بالرشا والمناصب والمال ليعملوا له.. أو أن يخدع بعضهم ويكيد له المكائد .

فأين هذا الإرهاب والإغراء والإفساد من الإسلام الذى كره نبيه أن يتمثل له الرجال وقوما وقال "حسب المروء من الشر أن يشار إليه بالأصابع" وأمر "إذا قابلتم المداحين فأحثوا فى وجوههم التراب" ..

أن السلطة تمسخ الإنسان السوى الذى خلقه ا فى أحسن تقويم وجعل له القلب والوجدان وملكة التمييز بين الخير والشر إلى كائن منحط لا يلحظ إلا ولا ذمه، يستحل



قتل الابن والزوجة – بل وحتى الأم – فى سبيل السلطة ثم لا يقنع بما قد يكون ضروريا لإخضاع الناس وضمان استسلامهم، بل ينحط إلى صنوف من الخسة والدناءة يعف عنها الوحش المفترس الذى لا يهاجم غيره إلا عندما يعضه الجوع. وما ظل شبعانا فإنه يظل مسالماً وديعاً.. وليس فى هذا أى مبالغة فإن سيرة نيرون وكالبحولا فى روما وسيرة أبو مسلم الخرسانى والسفاح. وما سلكه يزيد تجاه "الأنصار" الأتقياء البررة الذين رفعوا لواء الإسلام فأجبرهم قائدة الأثيم على أن يكونوا "خول يزيد" ثم الجرائم التى اقترفها التتار فى اكتساحهم بغداد وخراسان. والجرائم التى اقترفها الأمريكيون فى إبادة الهنود الحمر وتفريغ القارة الأفريقية من رجالها ونسائها لاستعبادهم فى مزارع القطن والدخان وقصب السكر الخ... وأنواع التعذيب التى لم يسمع بها التى مارستها محاكم التفتيش فى أسبانيا ضد بقايا المسلمين، أو بالنسبة لمن رأت أنهم هراطقه ثم جرائم الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث بدء من الهند وإندونيسيا حتى شمال أفريقيا وجنوبها وما بين ذلك مصر .

لا ريب أن الملائكة كان لهم حق عندما تساءلوا ﴿أَتَجعلُ فِيها من يفْسِد فِيها ويسفِك الدماء﴾. {٣٠ البقرة} ..

لقد قيل أن المبرر الأول لإقامة الخلافة هى حماية الدين وإقامة الشعائر الخ... ولكن الدولة – حتى لو كانت خلافة – هى أعجز الهيئات عن أن تقوم بهذا، لأن أى عمل تقوم به يحمل طبيعة السلطة من إرهاب أو اصطناع. وقد تستطيع أن تقيم المساجد، ولكنها تعجز عن تعمر هذه المساجد بالمصلين، والصلاة، بعد تجوز فى الفلاة. ويمكن أن توظف عشرات الألوف من الوعاظ الذين يعظون الناس بحكم المنصب ولأنهم يتقاضون مرتباتهم لهذا، فتكون كلماتهم من طرف اللسان ولا تصل إلى القلب ويمكن أن تطبع مئات الألوف من كتب التراث فلا يفيد هذا بل أنه يضر.. والدور الحقيقى للدولة هو إقامة العدل الذى يأخذ الاسم الإسلامى "الشريعة" ولكن هذا هو آخر ما تفكر فيه الدول الإسلامية، وما نفتقده فيها ونجده فى الدول التى ترفع راية الصليب.. لأن إقامة العدل هى الوظيفة المنشودة من الدولة إسلامية أو غير إسلامية

باختصار فإن كل تدخل من الدولة فى شئون الدين يسئ إلى الدين ويشوهه ويوظفه لخدمتها. وهذا هو أسوأ صور الاستغلال .

كيف نتعامل مع السلطة :

مع كل سوءات السلطة، وأنها مفسدة بطبيعتها فالحقيقة المرة هى أن السلطة لازمة، وأنه لا يمكن تصور المجتمع البشرى فى أحكم تنظيماته بدون السلطة. لأن الإرادات البشرية لابد وأن تتضارب، وأن المصالح لابد وأن تتعارض وأن هوى النفوس لا يقف عند حد إلا عندما يوجد ما يلزمه الوقوف وما يكبح جماحه ..

والأفراد عندما يجتمعون فإن مجرد هذا الاجتماع يجعل من هذا الاجتماع ما هو أكثر من مجموع أفراد وهو يولد قضايا ذات طابع اجتماعى تتطلب الحسم الذى لا يتحقق إلا بقدر من السلطة .

السلطة إذن أمر واقع، ولا يفيدنا التنديد بها إلى أن نتصور إمكان التخلص منها نهائيا كما تصور أبو حاتم الأصم، أو كما أراد العدميون anarchists الذين جعلوا شعارهم

"لا إله.. ولا سيد" ولا حتى الشيوعيين فى أحلامهم الخيالية عن "ذبول الدولة" ..

لا مناص عن الدولة.. ولا مناص عن السلطة ولابد أن نجد معادلة للتعامل معها نحيد أو نضائل بها شرورها. وقد نصل إلى مزايا تفوق شرورها .

السلطة نار حامية، جحيم يحترق فيه كل من يحتك بها احتكاكاً مباشراً .

ولا حل إلا أن نحيط هذا الجحيم ببحر من ماء. تتلاطم أمواجه وتستطيع أن تطفئ النيران المشتعلة للسلطة أو تحدها فى نطاق ضيق ..

هذا البحر هو الحرية ...

ومن الجلى بالطبع أن هذا البحر لا يمكن أن يكون داخل السلطة لأنه لو كان بداخلها لبخرت الحرارة العالية لجحيم السلطة سيولة وطبيعة الماء. وإنما يحيط بها بحيث تكون جزيرة وسطه ..

بهذه الحالة لا يكون البحر – داخل الجحيم ولكن الجحيم يكون محاصراً ومحاطاً بالبحر

ولن نجد هذا البحر إلا فى الأمة، وفى تنظيماتها الطوعيه، وفى دعواتها الإصلاحية، وفى رجالها ونسائها المؤمنين ...

وقد يسأل سائل ..

".. الحـ ـرية فقط .."

فنقول أن الحرية لا يمكن أن تكون "فقط" ..

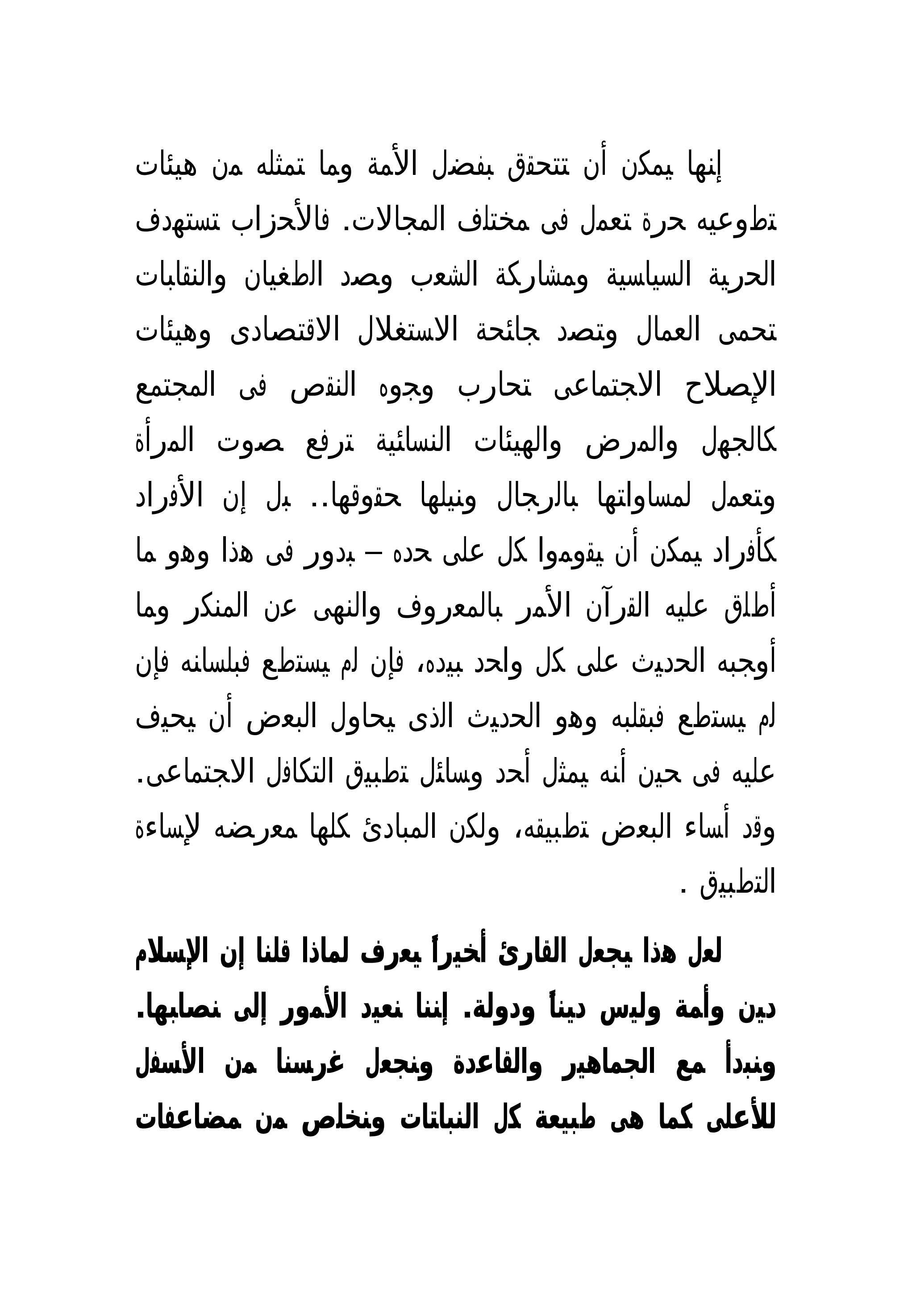
إن لها توابعها التى توجد فيها بحكم طبيعتها ..

فلا يتصور وجود الحرية – دون أن يوجد العدل لأنه عندما تغرى الحرية فريقاً بالظلم والاستغلال فإن الحرية نفسها ستدفع فريقاً للمطالبة بالعدل والإنصاف. إن اللواذ بالظلم هو إساءة استخدام الحرية أو تجاوزها لها. لأن الحرية والعدل وجهان لعملة واحدة ..

بهذه الطريقة وحدها يمكن أن نحول نار السلطة الحامية الحارقة.. إلى نار هادئة لا تحرق الطبخة ولكن تمكنها من النضج المطلوب ..

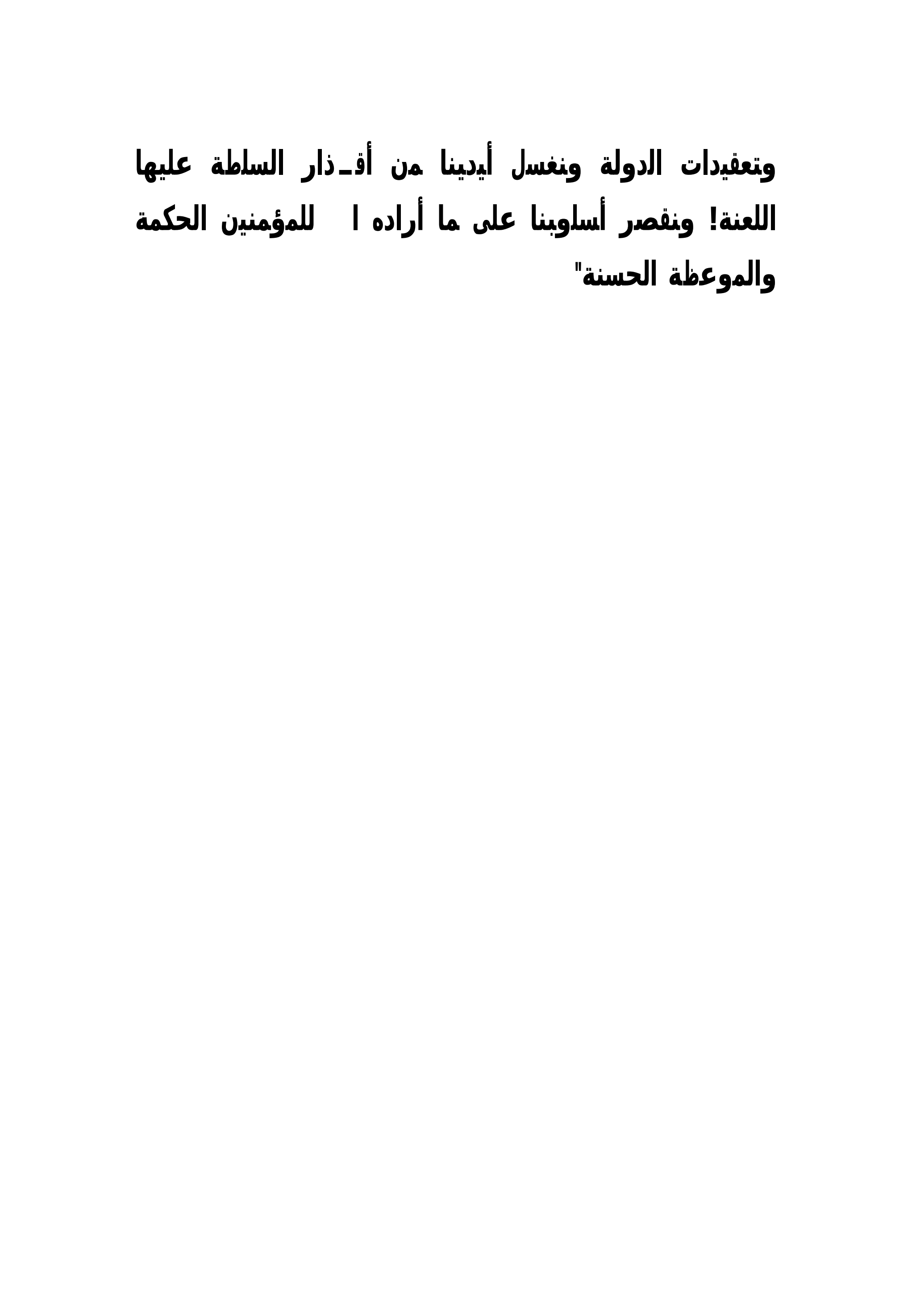
الأمة تجسد الحرية ..

وكيف تتحقق عملياً هذه الحرية ...



إنها يمكن أن تتحقق بفضل الأمة وما تمثله من هيئات تطوعيه حرة تعمل فى مختلف المجالات. فالأحزاب تستهدف الحرية السياسية ومشاركة الشعب وصد الطغيان والنقابات تحمى العمال وتصد جائحة الاستغلال الاقتصادى وهيئات الإصلاح الاجتماعى تحارب وجوه النقص فى المجتمع كالجهل والمرض والهيئات النسائية ترفع صوت المرأة وتعمل لمساواتها بالرجال ونيلها حقوقها.. بل إن الأفراد كأفراد يمكن أن يقوموا كل على حده – بدور فى هذا وهو ما أطلق عليه القرآن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما أوجبه الحديث على كل واحد بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهو الحديث الذى يحاول البعض أن يحيف عليه فى حين أنه يمثل أحد وسائل تطبيق التكافل الاجتماعى. وقد أساء البعض تطبيقه، ولكن المبادئ كلها معرضه لإساءة التطبيق .

لعل هذا يجعل القارئ أخيراً يعرف لماذا قلنا إن الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة. إننا نعيد الأمور إلى نصابها. ونبدأ مع الجماهير والقاعدة ونجعل غرسنا من الأسفل للأعلى كما هى طبيعة كل النباتات ونخلص من مضاعفات



وتعقيدات الدولة ونغسل أيدينا من أقـذار السلطة عليها اللعنة! ونقصر أسلوبنا على ما أراده ا للمؤمنين الحكمة والموعظة الحسنة"

الفصل الخامس
السلطة تفسد الخلافة الراشدة
وتحولها إلى ملك عضوض

تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض على يدى معاوية بن أبى سفيان ..

وكان هذا أبرز دليل على جريمة السلطة، وأنها لابد وأن تفسد أى نظام يعتمد عليها .

فالجديد فى حكم معاوية الذى اختلف عن حكم أبى بكر وعمر أن معاوية أعتمد على هذه الوسيلة الجديدة التى لم تكن موجودة فى الخلافة الراشدة – أى السلطة فى رمزيها السيف.. والمال ..

وكانوا قد اعتبروا أن من التحول السيئ الذى حدث فى الخلافة أن عثمان "جاوز الخيزران إلى السوط" وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران" كما أنه تصرف فى أموال بيت المال فى غير ما خصصت له، فجاء معاوية فتمادى فى استخدام

السلطة فقتل صبراً حجر بن عدى (له صحبه) وزملاءه وتوسع فى الاصطناع كأن يعطى عمرو بن العاص "مصر طعمة" وأن يعطى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان "طعمة" ولجأ إلى الخداع الذميم مثل أن يغرى بعض الأعوان باستخدام السم ويقول "إن جنوداً من عسل" ومع هذا فسنرى أن عهد معاوية رغم تجاوزاته لا يعد شيئاً مذكوراً أمام تجاوزات يزيد أبنه، ثم من خلفه. ثم يطرد الأمر فى الخلافة العباسية وما بعدها حتى إنهاء الخلافة سنة ١٩٢٤ لا يشذ الأمر فيها إلا ما كان من خلافة عمر بن عبد العزيز الذى أطلق عليه أبو جعفر المنصور "أعور بين عميان" والذى استخدم معه السم للقضاء عليه .

وقد حلل بن خلدون ببصيرته الثاقبة هذا التحول، وإن كان قد أبرزه بصورة لا يصدم فيها أفكار الناس. فبعد أن ذكر ذم الإسلام للملك، والعصبية، قال إن الإسلام إنما ذم السيئ فى هذين. على أنه بعد أن قدم هذا التقرير، قدم ما يشبه المهادنة عندما تحدث عن الثروات التى انهالت على العرب نتيجة الفتوح وأن تصرفهم لم يكن قادحا فيهم وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً" ثم يستطرد ..

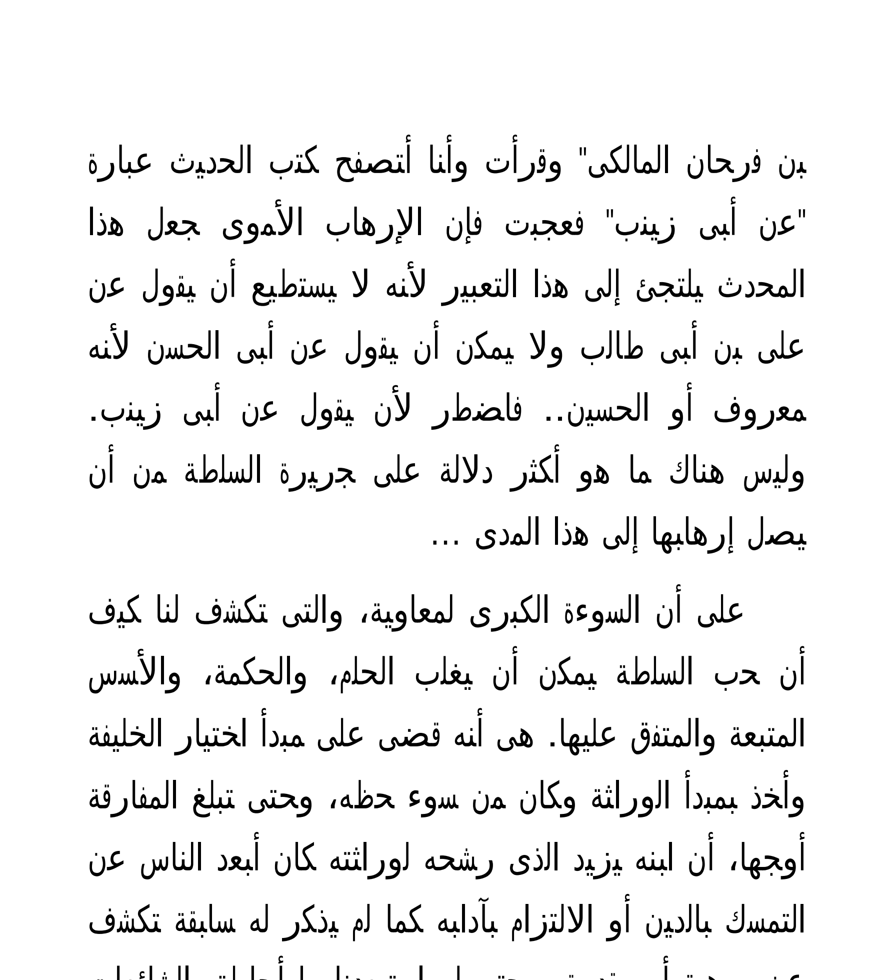
".. ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعى ساقته العصبية بطبيعتها " .

ولكن هذه العصبية وأن تحولت إلى ملك فإنها – فيما رأى ابن خلدون "احتفظت بمعانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان دينا، ثم انقلب عصبية وسيفا. وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك، والصدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعص ولده **ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها، واستعملت فى أغراضها من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ. وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك، ولمن جاء بعد الرشيد من بنى العباس،** واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب، والخلافة والملك فى الطورين ملتبسين بعضهما ببعض. **ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشى أحوالهم،** وبقى الأمر ملكا بحتا كما كان الشأن فى ملوك

العجم بالمشرق يدينون، بطاعة الخليفة تبركا، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم " .

وما نختلف فيه عن ابن خلدون هو أنه أبقى لبنى أمية وصدراً من الخلافة العباسية بعضاً من "معانى الخلافة" إذ نحن نرى أن هذه المعانى قد قضى عليها تماماً مع هيمنة معاوية

وقد عرف معاوية الرسول ﷺ واختاره الرسول تقريبا لأبيه – أبو سفيان – كاتبا له، ولكن هذا كان نوعاً من تأليف القلوب.. وأن هذه الصفة كانت ذات طابع رمزى على أننا نرى فى معاوية فترات حلمه وعفوه أثر من تلك العلاقة بالرسول – حتى وأن كانت وهنانه – ثم نرى السلطة وهى تدفعه لأعمال وسياسات تناقض مناقضة صريحة أصول الحكم الإسلامى. ثم لا يكون لها داع إلا تلويث سمعة خصومه كتلك الفعلة القميئة التى أقدم عليها وهى لعن على بن أبى طالب على المنابر. فهذا إجراء سلطوى خالص ينضح بأثر السلطة وينم عن شنأن الخصومة وقد كان من بين الأمويين من كان يلعن عليا فى اليوم ١٤٠ مرة "فقط كما علق على ذلك مؤلف "قراءة فى كتب العقائد" الأستاذ حسن



بن فرحان المالكى" وقرأت وأنا أتصفح كتب الحديث عبارة "عن أبى زينب" فعجبت فإن الإرهاب الأموى جعل هذا المحدث يلتجئ إلى هذا التعبير لأنه لا يستطيع أن يقول عن على بن أبى طالب ولا يمكن أن يقول عن أبى الحسن لأنه معروف أو الحسين.. فاضطر لأن يقول عن أبى زينب. وليس هناك ما هو أكثر دلالة على جريرة السلطة من أن يصل إرهابها إلى هذا المدى ...

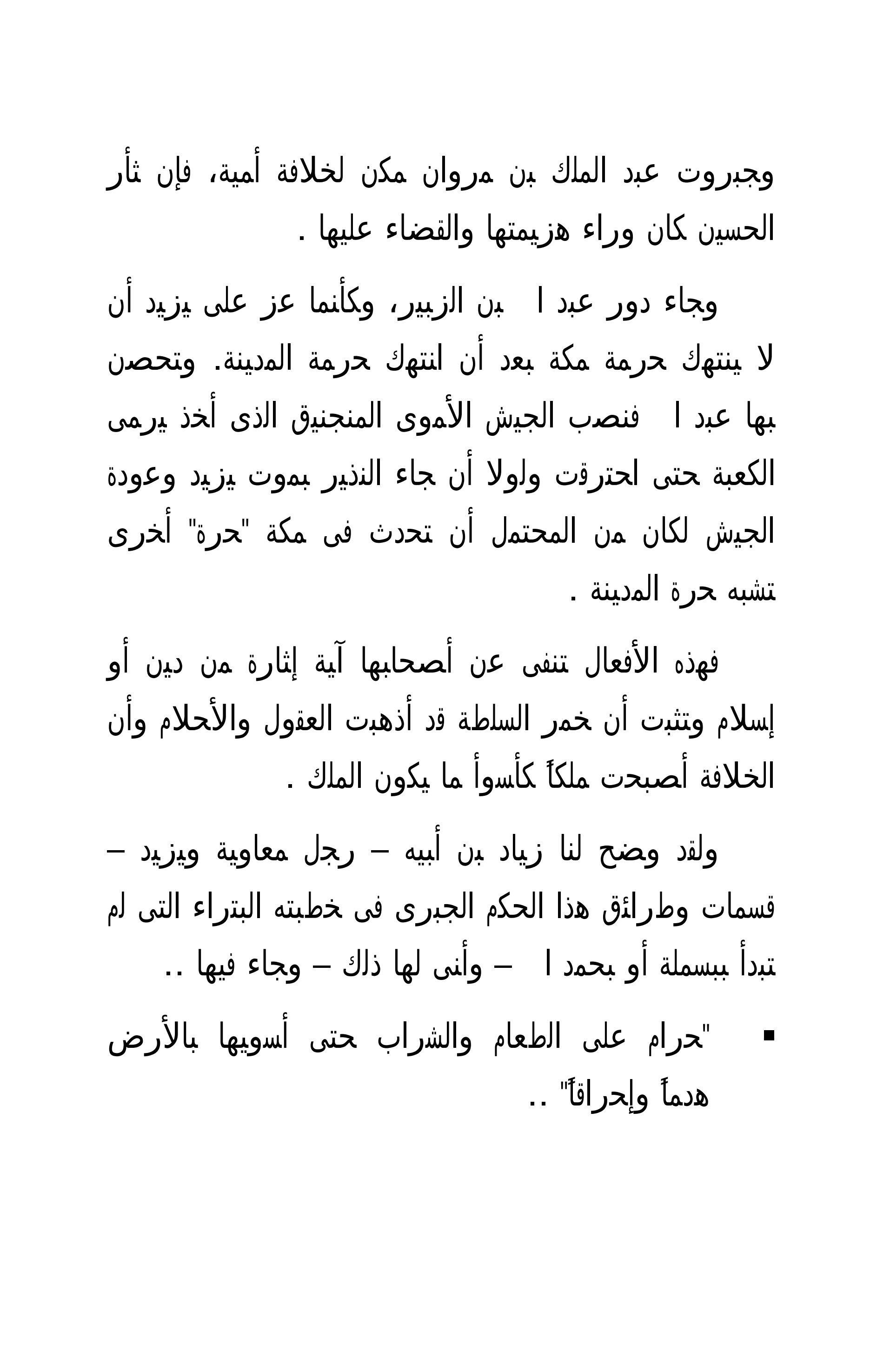
على أن السوءة الكبرى لمعاوية، والتى تكشف لنا كيف أن حب السلطة يمكن أن يغلب الحلم، والحكمة، والأسس المتبعة والمتفق عليها. هى أنه قضى على مبدأ اختيار الخليفة وأخذ بمبدأ الوراثة وكان من سوء حظه، وحتى تبلغ المفارقة أوجها، أن ابنه يزيد الذى رشحه لوراثته كان أبعد الناس عن التمسك بالدين أو الالتزام بآدابه كما لم يذكر له سابقة تكشف عن موهبة أو مقدرة، وحتى لو استبعدنا ما أحاطته الشائعات عن "يزيد القرود، ويزيد القيان، ويزيد الخمور" فإن المبدأ فى حد ذاته فى منتهى الخطورة، إذ بهذا الأجراء أصبحت الخلافة – كما قال الجاحظ فى رسالته عن بنى أمية "ملكا كسرويا وغصبا قيصريا" ..

وهو ما أعلنه سعد بن أبى وقاص وصارح معاوية به عندما دخل عليه فقال "السلام عليك أيها الملك" فضحك معاوية وقال ما كان عليك يا أبا إسحاق رحمك ا لو قلت "يا أمير المؤمنين فقال سعد أتقولها جذلان ضاحكا. وا ما أحب أنى وليتها بما وليتها به" .

والاعتذار الذى قدمه بن خلدون عن أن بنى أمية ما كانوا يقبلون أحداً من غيرهم ليلى الخلافة. وأن هذا كان يمكن أن يفتح باب فتنة اعتذار كسيح بادى الركاكة، فضلاً عن أن بيعة يزيد هى التى فتحت الفتن بالفعل. وكانت سببا فيما اقترف من المنكرات التى كان أولها الهجوم على المدينة وقتل الأنصار واستباحة أموالهم وانتهاك نسائهم. قيل قتل فى موقعة الحرة ألف وسبعمائة من وجوه الناس من قريش ومن الأنصار وعشرة آلاف من عامتهم سوى النساء والصبيان، وقتل من أصحاب الرسول ثمانون ولم يبق بدرى بعد ذلك. ثم أخذ قائد هذا الجيش البيعة على من بقى على أموالهم وأنفسهم على أنهم خول يزيد يقضى فيهم ما يشاء فأى مهانة يمكن أن تماثل هذه، وكان أهل المدينة أعز الناس حتى كانت موقعة الحرة فهانوا .

ثم كانت الكارثة المدلهمة كارثة كربلاء وقتل الحسين وكل من كان معه من رجال، وكانوا قرابة سبعين، ولم يتركوا رجلاً واحداً وحمل نسائه إلى يزيد بينما حزت رأس الحسين وأرسلت إلى يزيد وقيل إن عمر بن سعد أمر أن تطأ الخيل أجساد القتلى، وأن استبعد بن كثير ذلك. وعمر هذا هو ابن سعد بن أبى وقاص الذى اعتزل الفتنة أيام عثمان فما أعظم الفرق بين الأب الذى يعتزل الفتن والابن الذى يتولى أشنع حملة ويقوم بأسوأ فعله. لم تبق كربلاء من نسل الحسين إلا على الصغير والمريض الذى لم يكن قد بلغ الحلم، واحتضنته أخته زينب ودافعت عنه بينما كان عبيد ا بن زياد يقول "دعونى أقتله، فإنه بقية هذا النسل، فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء وأقطع به هذه المادة " .

أن كربلاء قد أوجدت شقاً فى وحدة الأمة الإسلامية لم يسد حتى الآن. وقد كانت هى التى أوقدت نار الشيعة وأعطتها أرثها التاريخى، ولم تصلح أمية بعدها. فقد تتبع المختار قتلة الحسين واحداً واحداً فقتلهم، وأرسل إبراهيم بن الأشتر إلى أبن زياد فهزمه وقتله ومع أن انتصارات



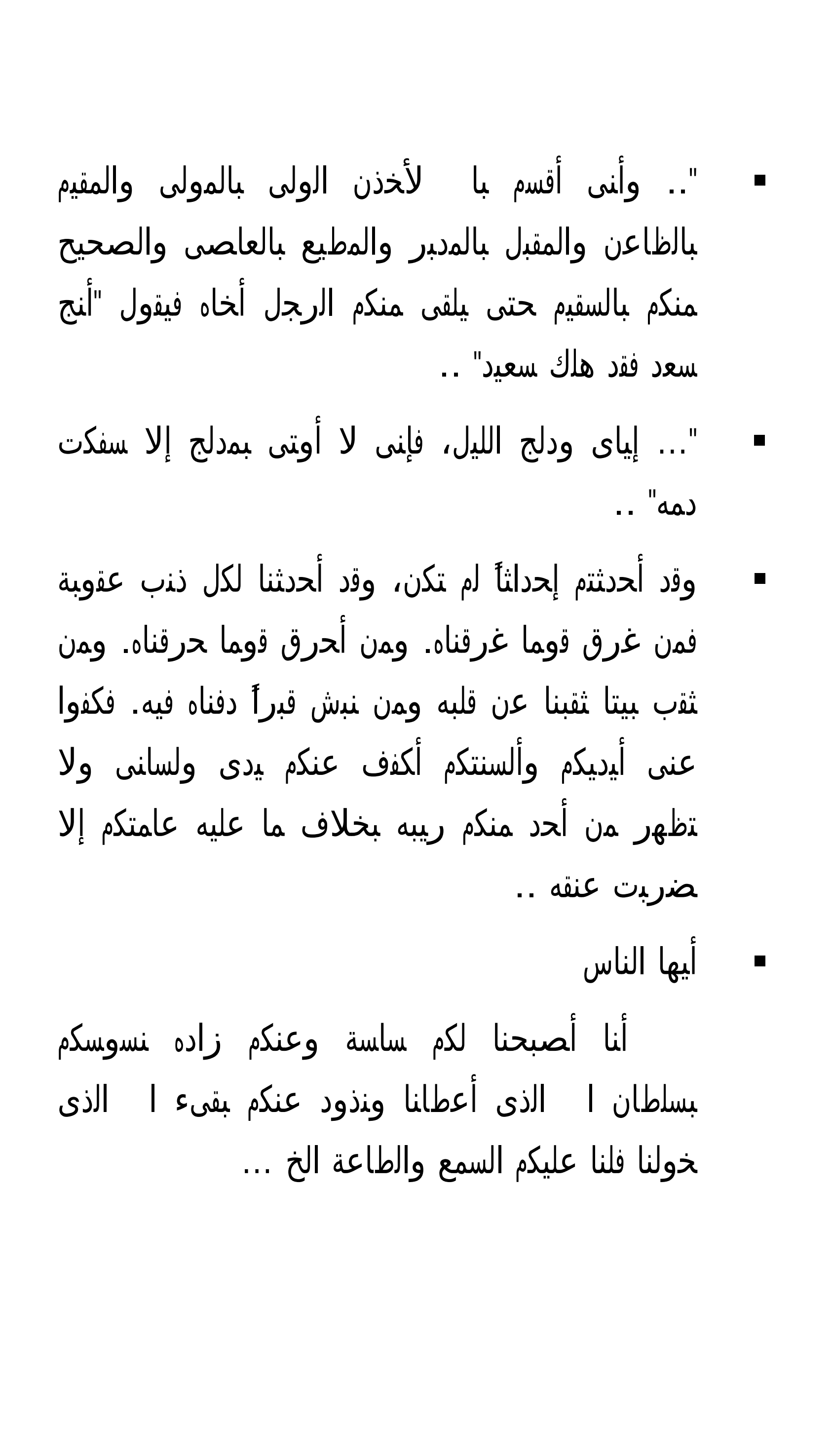
وجبروت عبد الملك بن مروان مكن لخلافة أمية، فإن ثأر الحسين كان وراء هزيمتها والقضاء عليها .

وجاء دور عبد ا بن الزبير، وكأنما عز على يزيد أن لا ينتهك حرمة مكة بعد أن انتهك حرمة المدينة. وتحصن بها عبد ا فنصب الجيش الأموى المنجنيق الذى أخذ يرمى الكعبة حتى احترقت ولولا أن جاء النذير بموت يزيد وعودة الجيش لكان من المحتمل أن تحدث فى مكة "حرة" أخرى تشبه حرة المدينة .

فهذه الأفعال تنفى عن أصحابها آية إثارة من دين أو إسلام وتثبت أن خمر السلطة قد أذهبت العقول والأحلام وأن الخلافة أصبحت ملكاً كأسوأ ما يكون الملك .

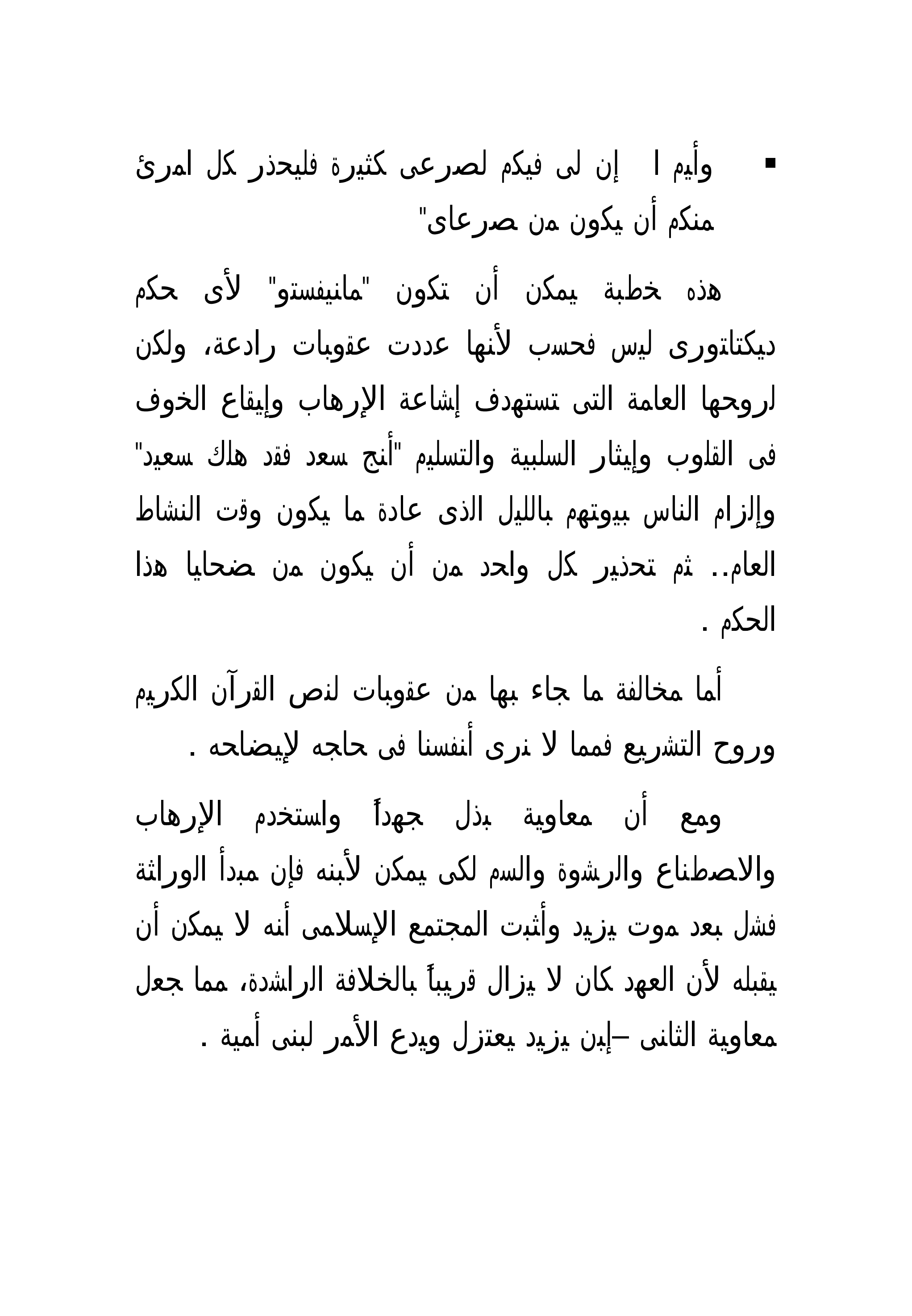
ولقد وضح لنا زياد بن أبيه – رجل معاوية ويزيد – قسمات وطرائق هذا الحكم الجبرى فى خطبته البتراء التى لم تبدأ ببسملة أو بحمد ا – وأنى لها ذلك – وجاء فيها ..

- "حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً" ..



- ".. وأنى أقسم با لأخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى منكم الرجل أخاه فيقول "أنج سعد فقد هلك سعيد" ..
- "... إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه" ..
- وقد أحدثتم إحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما غرقناه. ومن أحرق قوما حرقناه. ومن ثقب بيتا ثقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه فيه. فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ولا تظهر من أحد منكم ريبه بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ..
- أيها الناس

أنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زاده نسوسكم بسلطان ا الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء ا الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة الخ ...



- وأيم ا   إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى"

هذه خطبة يمكن أن تكون "مانيفستو" لأى حكم ديكتاتورى ليس فحسب لأنها عددت عقوبات رادعة، ولكن لروحها العامة التى تستهدف إشاعة الإرهاب وإيقاع الخوف فى القلوب وإيثار السلبية والتسليم "أنج سعد فقد هلك سعيد" وإلزام الناس بيوتهم بالليل الذى عادة ما يكون وقت النشاط العام.. ثم تحذير كل واحد من أن يكون من ضحايا هذا الحكم .

أما مخالفة ما جاء بها من عقوبات لنص القرآن الكريم وروح التشريع فمما لا نرى أنفسنا فى حاجه لإيضاحه .

ومع أن معاوية بذل جهداً واستخدم الإرهاب والاصطناع والرشوة والسم لكى يمكن لأبنه فإن مبدأ الوراثة فشل بعد موت يزيد وأثبت المجتمع الإسلامى أنه لا يمكن أن يقبله لأن العهد كان لا يزال قريباً بالخلافة الراشدة، مما جعل معاوية الثانى –إبن يزيد يعتزل ويدع الأمر لبنى أمية .

كان لابد من جبروت عبد الملك بن مروان حتى يمكن غرس تلك النبتة الخبيثة – فى تربة الحكم الإسلامى .

وجاء عبد الملك جبار بنى أمية والرجل الذى قال "من قال لى اتق ا قطعت عنقه" ..

جاء ومعه الحجاج كما جاء يزيد ومعه زياد ...

وكما عبر زياد عن حكم ديكتاتورية أمية فى خطبته، فإن الحجاج قدم خطبه لا تقل عن خطبة زياد، وتؤدى المعنى نفسه بأسلوب مختلف. ويكفى فحسب أن يسمع الناس مستهلها "إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وأنى لصاحبها" ولم يتردد فى أن يطبق هذا للتو واللحظة لأنه كان قد فرق جنده بين المصلين يحملون سيوفهم تحت أرديتهم وجعل لهم إشارة أن يضع عمامته (أى يخلعها) وعندما بدأ المصلون يحتجون على هذا المطلع ويحصبونه وضع عمامته. فأعمل الجنود سيوفهم فى الناس وقطفوا تلك الرؤوس اليانعة ...

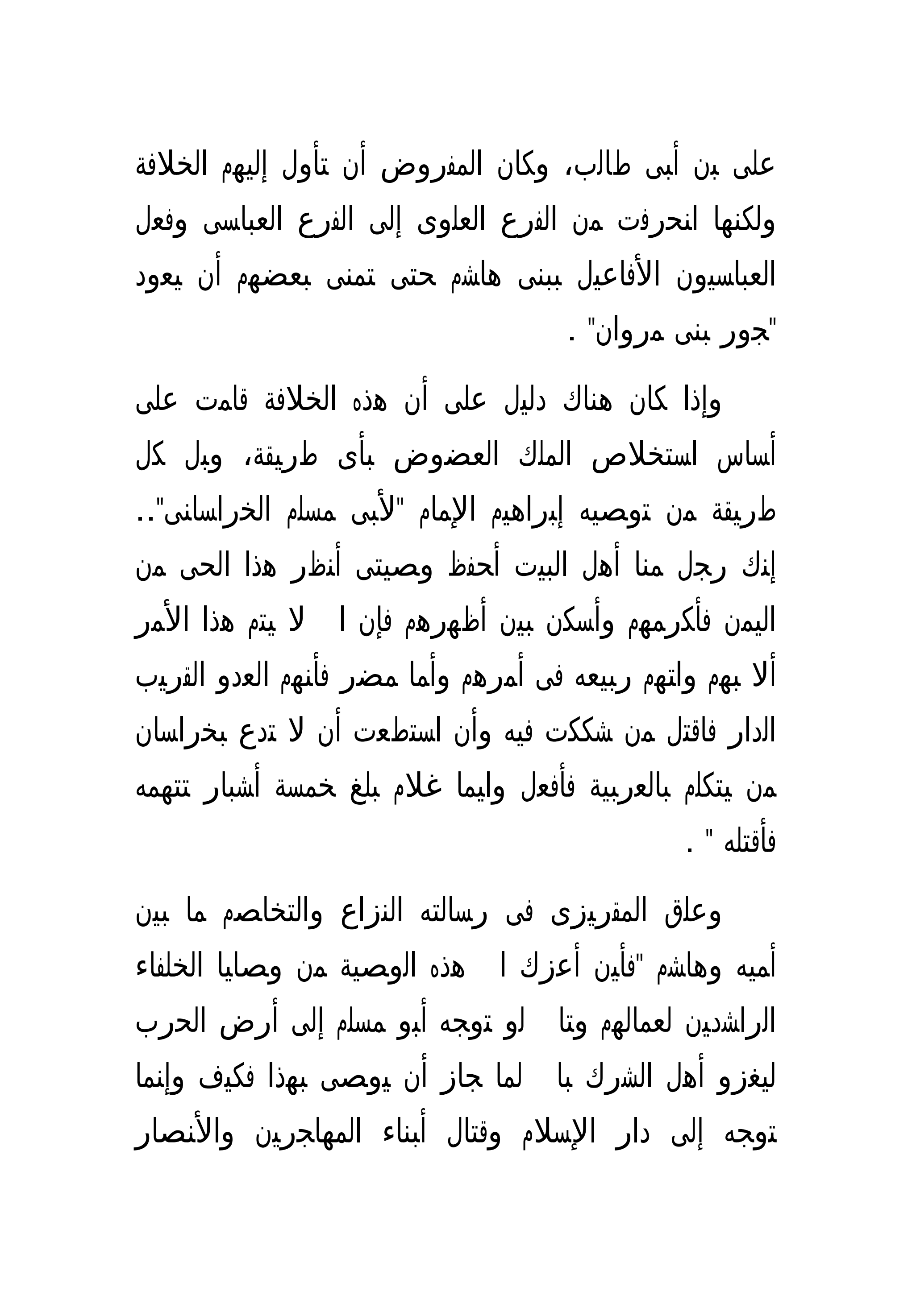
ظهر عبد الملك بن مروان – جبار بنى أمية والمؤسس الثانى للخلافة الأموية بعد معاوية والذى مات سنة ٦٥ هجرية (٦٨٥ ميلادية) وهشام أبنه الذى مات سنة ١٠٥ (٧٤٣ ميلادية) الذى يعد المجدد الثالث للدولة.. وحاول عمر

بن عبد العزيز آخر محاولات العودة إلى الخلافة الراشدة ولكن هيهات، فأين تذهب تلك الدماء والحروب والصراعات لم يستطع عمر بن عبد العزيز أن يعيد الخلافة الراشدة، وكان لابد من إزاحته، وقد أزيح بالسم بعد عامين من خلافته. كما كانت تلك أيضاً نهاية يزيد الثالث بن الوليد الذى نادى بالإصلاح، فلم يطل به الحال. لأن جرائم وأوزار حكم بنى أمية كان لابد أن تنتهى عليها وكان لابد أن يأتى يوم يؤخذ فيه بثأر الحسين، وبثأر زيد بن على الذى قتله هشام وصلبه ..

وأنتهى ملك بنى أمية عندما قتل مروان الثانى فى مصر.. وظهرت الخلافة العباسية ..

هل كانت الخلافة العباسية أفضل من الخلافة الأموية ؟ على العكس لقد بدأت بخليفة حمل أسم السفاح! أعلن فى أولى خطبه له "أنا السفاح المبيح والثائر المنيح" فأى شئ يرجى من مثل هذا ...

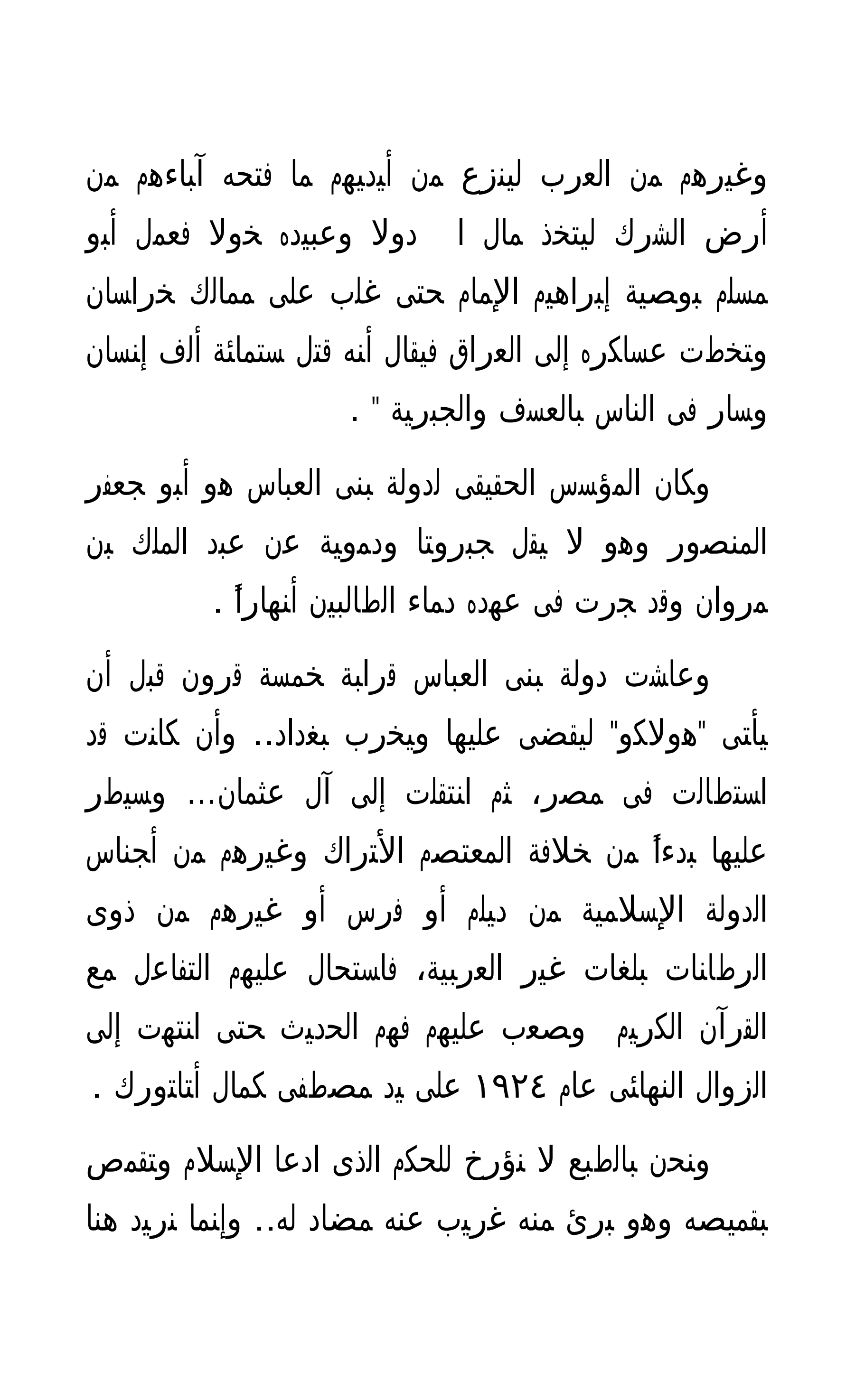
أن مأساة بنى العباس أو قل مأساة السلطة، أن انتقامهم لم يقف عند بنى أمية الذين أعلنوا عليهم الحرب، ولكنها شملت بعد الانتهاء من الأمويين الهاشميين – سلالة الإمام



على بن أبى طالب، وكان المفروض أن تأول إليهم الخلافة ولكنها انحرفت من الفرع العلوى إلى الفرع العباسى وفعل العباسيون الأفاعيل ببنى هاشم حتى تمنى بعضهم أن يعود "جور بنى مروان" .

وإذا كان هناك دليل على أن هذه الخلافة قامت على أساس استخلاص الملك العضوض بأى طريقة، وبل كل طريقة من توصيه إبراهيم الإمام "لأبى مسلم الخراسانى".. إنك رجل منا أهل البيت أحفظ وصيتى أنظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وأسكن بين أظهرهم فإن ا لا يتم هذا الأمر ألا بهم واتهم ربيعه فى أمرهم وأما مضر فأنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه وأن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فأفعل وايما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فأقتله " .

وعلق المقريزى فى رسالته النزاع والتخاصم ما بين أميه وهاشم "فأين أعزك ا هذه الوصية من وصايا الخلفاء الراشدين لعمالهم وتا لو توجه أبو مسلم إلى أرض الحرب ليغزو أهل الشرك با لما جاز أن يوصى بهذا فكيف وإنما توجه إلى دار الإسلام وقتال أبناء المهاجرين والأنصار

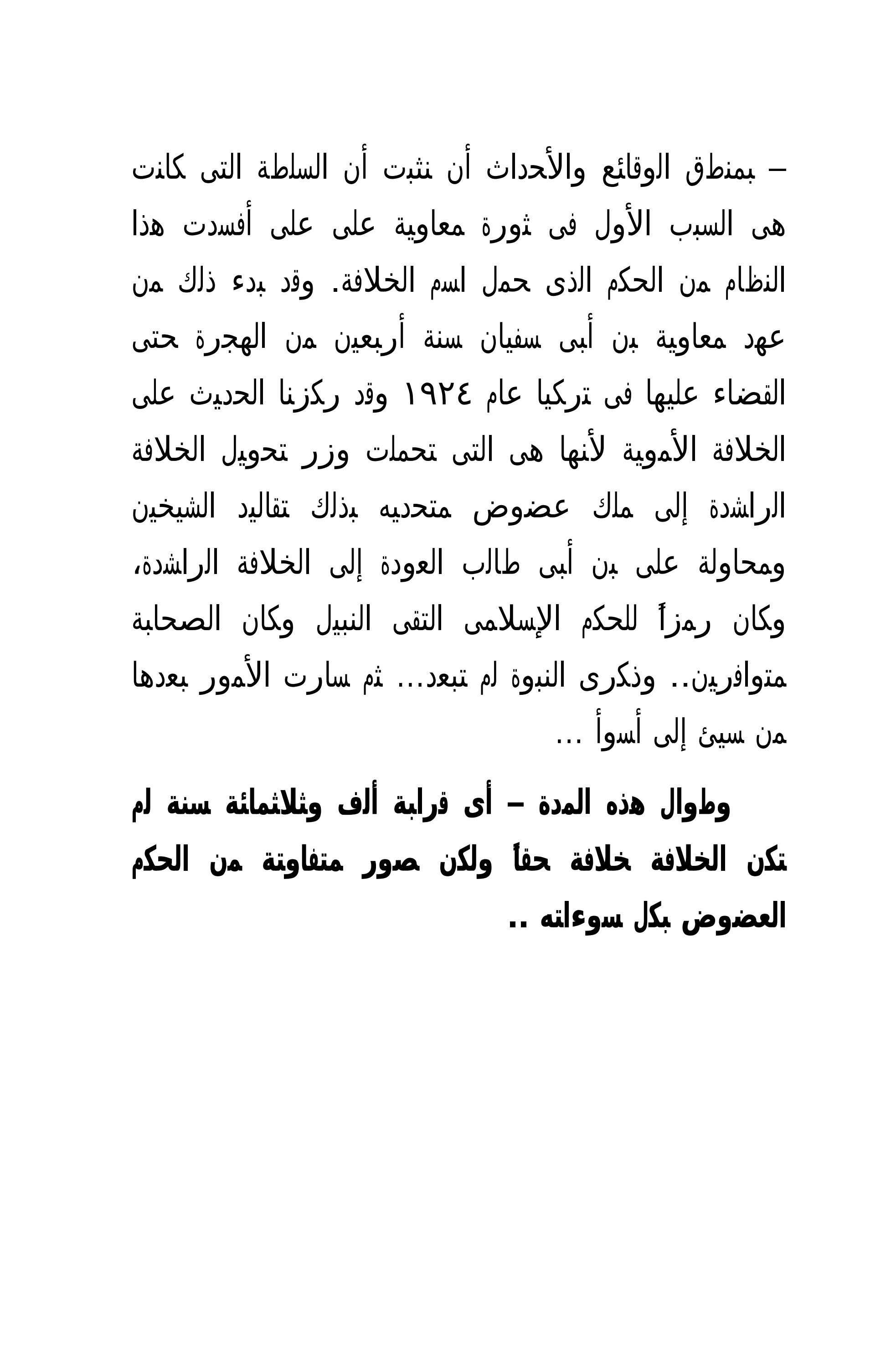


وغيرهم من العرب لينزع من أيديهم ما فتحه آباءهم من أرض الشرك ليتخذ مال ا دولا وعبيده خولا فعمل أبو مسلم بوصية إبراهيم الإمام حتى غلب على ممالك خراسان وتخطت عساكره إلى العراق فيقال أنه قتل ستمائة ألف إنسان وسار فى الناس بالعسف والجبرية " .

وكان المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس هو أبو جعفر المنصور وهو لا يقل جبروتا ودموية عن عبد الملك بن مروان وقد جرت فى عهده دماء الطالبين أنهاراً .

وعاشت دولة بنى العباس قرابة خمسة قرون قبل أن يأتى "هولاكو" ليقضى عليها ويخرب بغداد.. وأن كانت قد استطالت فى مصر، ثم انتقلت إلى آل عثمان... وسيطر عليها بدءاً من خلافة المعتصم الأتراك وغيرهم من أجناس الدولة الإسلامية من ديلم أو فرس أو غيرهم من ذوى الرطانات بلغات غير العربية، فاستحال عليهم التفاعل مع القرآن الكريم وصعب عليهم فهم الحديث حتى انتهت إلى الزوال النهائى عام ١٩٢٤ على يد مصطفى كمال أتاتورك .

ونحن بالطبع لا نؤرخ للحكم الذى ادعا الإسلام وتقمص بقميصه وهو برئ منه غريب عنه مضاد له.. وإنما نريد هنا



– بمنطق الوقائع والأحداث أن نثبت أن السلطة التى كانت هى السبب الأول فى ثورة معاوية على على أفسدت هذا النظام من الحكم الذى حمل اسم الخلافة. وقد بدء ذلك من عهد معاوية بن أبى سفيان سنة أربعين من الهجرة حتى القضاء عليها فى تركيا عام ١٩٢٤ وقد ركزنا الحديث على الخلافة الأموية لأنها هى التى تحملت وزر تحويل الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض متحديه بذلك تقاليد الشيخين ومحاولة على بن أبى طالب العودة إلى الخلافة الراشدة، وكان رمزاً للحكم الإسلامى التقى النبيل وكان الصحابة متوافرين.. وذكرى النبوة لم تبعد... ثم سارت الأمور بعدها من سيئ إلى أسوأ ...

وطوال هذه المدة – أى قرابة ألف وثلاثمائة سنة لم تكن الخلافة خلافة حقاً ولكن صور متفاوتة من الحكم العضوض بكل سوءاته ..

الفصل السادس

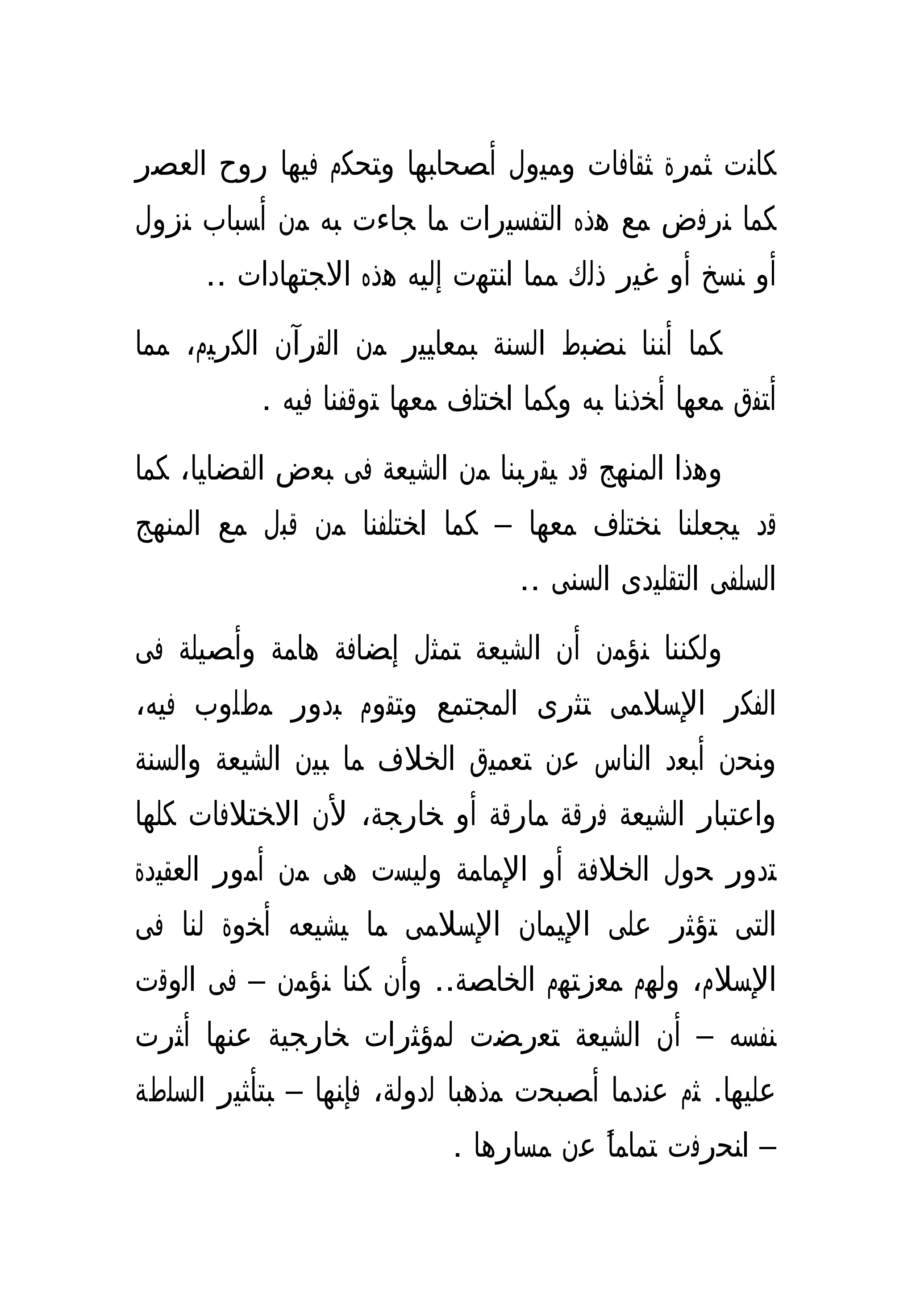
السلطة تفسد التشيع العلوى وتحوله إلى تشيع صفوى

هناك حساسية خاصة فى الحديث عن الشيعة ..

من ناحية، فإن الفكر الشيعى هو أشد الأفكار الإسلامية تمسكاً بالدولة، ويجعل هذه الدولة "ثيولوجية" يحكمها آيات ا كما أننا لا نقدم فى ثنايا هذه الفكر أراء بعيدة كل البعد عن العقلانية مثل العصمة، والشفاعة والتقية والإمام الغائب الخ..

ومن ناحية ثانية فإن الشيعة هى الفرقة الإسلامية التى تمكنت من إقامة دولة فى منطقة فسيحة من العالم، غنية بالثروات الطبيعية وفيها من المؤهلات ما يجعلها تدخل فى إطار الدول المتقدمة ...

وفى التعامل مع الشيعة، كما فى التعامل مع السنة، نحن نتخذ منطلقنا من القرآن الكريم نفسه ووحده دون تفسيرات



كانت ثمرة ثقافات وميول أصحابها وتحكم فيها روح العصر كما نرفض مع هذه التفسيرات ما جاءت به من أسباب نزول أو نسخ أو غير ذلك مما انتهت إليه هذه الاجتهادات ..

كما أننا نضبط السنة بمعايير من القرآن الكريم، مما أتفق معها أخذنا به وكما اختلف معها توقفنا فيه .

وهذا المنهج قد يقربنا من الشيعة فى بعض القضايا، كما قد يجعلنا نختلف معها – كما اختلفنا من قبل مع المنهج السلفى التقليدى السنى ..

ولكننا نؤمن أن الشيعة تمثل إضافة هامة وأصيلة فى الفكر الإسلامى تثرى المجتمع وتقوم بدور مطلوب فيه، ونحن أبعد الناس عن تعميق الخلاف ما بين الشيعة والسنة واعتبار الشيعة فرقة مارقة أو خارجة، لأن الاختلافات كلها تدور حول الخلافة أو الإمامة وليست هى من أمور العقيدة التى تؤثر على الإيمان الإسلامى ما يشيعه أخوة لنا فى الإسلام، ولهم معزتهم الخاصة.. وأن كنا نؤمن – فى الوقت نفسه – أن الشيعة تعرضت لمؤثرات خارجية عنها أثرت عليها. ثم عندما أصبحت مذهبا لدولة، فإنها – بتأثير السلطة – انحرفت تماماً عن مسارها .

ونحن نفرق بين ثلاثة أنماط تحمل أسم الشيعة :

النمط الأول: التشيع العلوى / الحسينى. وهو الذى نراه التشيع الحقيقى الذى يمثل إضافة أصلية وله دور مطلوب .

النمط الثانى: ما اضيف إلى هذا التشيع عندما ارتؤى اعطاءه مضمونا سياسياً يجعله أساساً للحكم ..

وهذا النمط – فيما نرى – مستحدث بحكم الملابسات والاجتهاد، وفرض فرضاً على التشيع الأول وشوهه حتى كاد أن يصل به إلى حد الخرافة ...

النمط الثالث: التشيع عندما أصبح حكماً ودولة. وعندئذ فإن السلطة أفسدته إفسادا جعله لا يمت فى الحقيقة إلى التشيع العلوى / الحسينى رغم أن كل شاراته وشعاراته ودعاياته تدور حول الإمام على والإمام الحسين .

أولاً: التشيع العلوى / الحسينى :

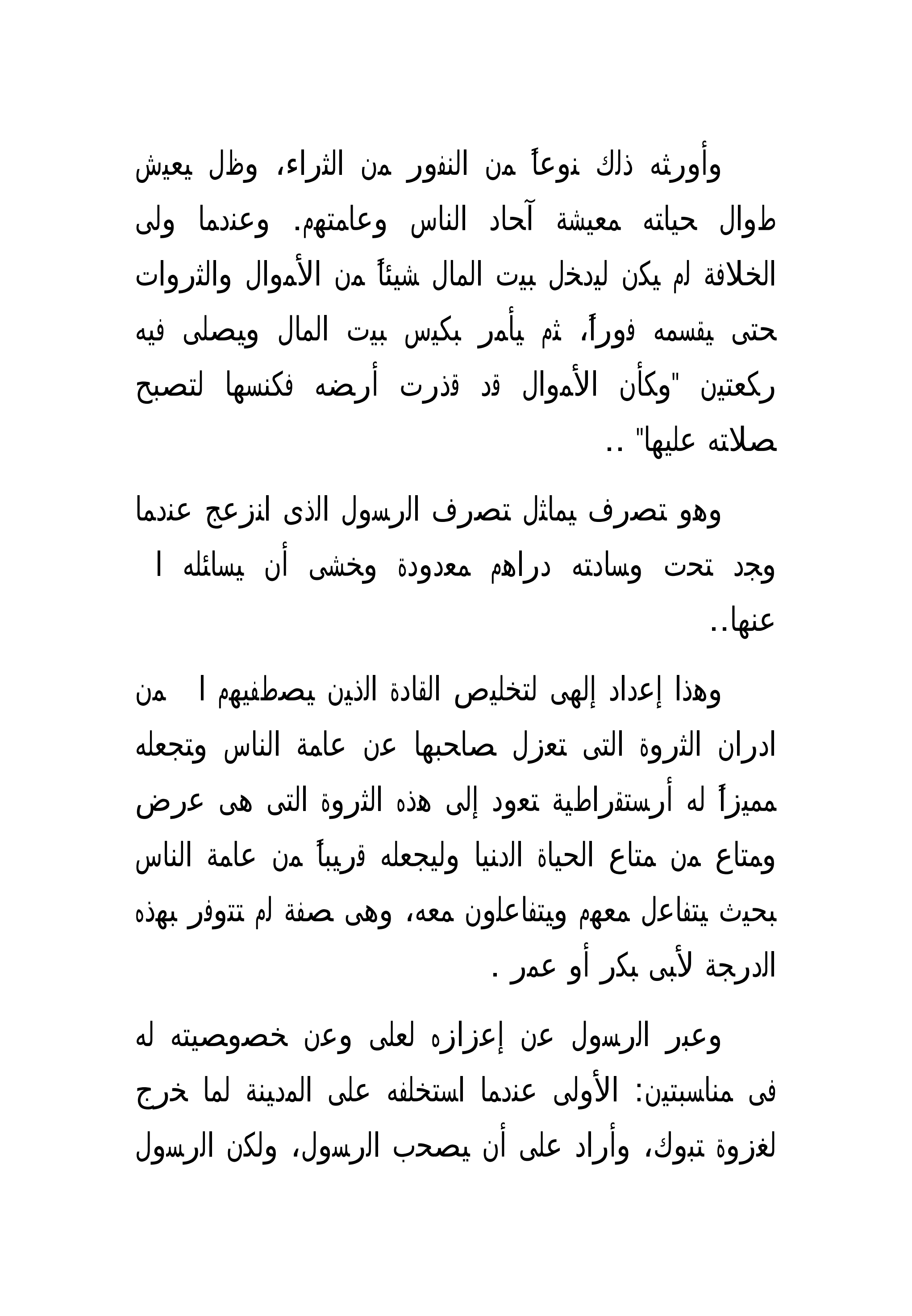
لعل مفتاح هذا التشبع هو الخصوصية التى تكتسبها شخصية الإمام على بن أبى طالب. وقلنا "الخصوصية" حتى لا تقع فى "الأفضلية" متصدراً أحكاما بأن هذا أفضل من ذاك على غير أساس إلا الاجتهاد الذاتى الذى قد يخطئ ويصيب

علماً بأننا لا نرى حرجاً فى أن يكون على أفضل من أبى بكر وعمر فهذه مسألة تقدير ذاتى. وقد يكون حكم التاريخ أكثر سلامة من تقديرات تقوم على أقوال. فالأفضلية قضية جدلية، أما الخصوصية فهى صفة ثابتة مقررة للإمام على فالإمام من صميم البيت النبوى وصفوة الهاشميين وقد أراد ا له أن ينشأ فى بيت الرسول، وأن يقضى طفولته بين خديجة ومحمد وأنعم بهما وأن يكون أول من يسلم من الصبيان .

وكان الرسول يؤثره بمحبة خاصة، وزوجة ابنته الأثيرة فاطمة فأنجبت منه الحسن والحسين اللذين كانا قرة عين الرسول .

وعرف على بشجاعته الباهرة التى أبداها فى بدر وخيبر وغيرها من الغزوات التى جعله فارس الإسلام .

كما عرف بزهده وتعاليه عن الحرص على الثراء أو الاستمتاع بالحياة الدنيا. وقد أراد ا له أن يعيش متقشفاً فقيراً .



وأورثه ذلك نوعاً من النفور من الثراء، وظل يعيش طوال حياته معيشة آحاد الناس وعامتهم. وعندما ولى الخلافة لم يكن ليدخل بيت المال شيئاً من الأموال والثروات حتى يقسمه فوراً، ثم يأمر بكيس بيت المال ويصلى فيه ركعتين "وكأن الأموال قد قذرت أرضه فكنسها لتصبح صلاته عليها" ..

وهو تصرف يماثل تصرف الرسول الذى انزعج عندما وجد تحت وسادته دراهم معدودة وخشى أن يسائله ا عنها..

وهذا إعداد إلهى لتخليص القادة الذين يصطفيهم ا من ادران الثروة التى تعزل صاحبها عن عامة الناس وتجعله مميزاً له أرستقراطية تعود إلى هذه الثروة التى هى عرض ومتاع من متاع الحياة الدنيا وليجعله قريباً من عامة الناس بحيث يتفاعل معهم ويتفاعلون معه، وهى صفة لم تتوفر بهذه الدرجة لأبى بكر أو عمر .

وعبر الرسول عن إعزازه لعلى وعن خصوصيته له فى مناسبتين: الأولى عندما استخلفه على المدينة لما خرج لغزوة تبوك، وأراد على أن يصحب الرسول، ولكن الرسول

قال له "**أما ترضى بأن تكون منى كهارون من موسى..غير أن لا نبى بعد" .**

وجاءت المناسبة الأخرى فى حادثة غدير خم – فى السنة الحادية عشر للهجرة "من كنت مولاه – فعلى مولاه. اللهم ول من والاه وعادى من عاداه.." ونحن نأخذ بهذا الحديث عندما قال الرسول عنه لأن معظم ما أوردوه بسند حسن، ولأنه ليس فيه من المعانى ما يثير اعتراضا ..

وولاية على (بفتح الواو) هى الإرث الأول والإضافة التى يفترض أن تقدمها الشيعة..

الولاية (بفتح الواو) هى الإرشاد الروحى، هى إشاعة الإيمان الذى تطمئن به النفوس وتقربه إلى القلوب ويشيع السلام بين الناس.. والولى يقوم بهذه المهمة التى يقوم بها الأنبياء عادة. وما يميز الأنبياء هو أنهم يقومون بها بوحى من ا تعالى، أما الأولياء فيقومون بها بأسوة من الأنبياء ..

أراد الرسول أن يكون عليا خليفته فى الولاية بالفتح.. وليس فى الولاية بالكسر ..

يضاف إلى الخصوصية التى منحها الرسول ﷺ للإمام على وتمثلت فى الولاية، طريقة حكم عندما آلت إليه الخلافة، وكيف حاول أن يعيدها خلافة راشدة، وكيف قاوم كل دعاة السلطة، وكيف تعذب وعانى طيلة خلافته ثم استشهد فى النهاية .

تأتى الإضافة الثانية التى قدمها الإمام الحسين، وهى الشهادة التى تمثل التضحية بالنفس فى سبيل الكرامة، وهذه قيمة عظمى لو استظهرها المسلمون واستوعبوها لاختلف التاريخ الإسلامى بطريقة "مأساوية دراماتيكية " عميقة التأثير وتختلف شهادة الحسين عن شهادة الذين يقتلون فى حرب مشروعة وفى سبيل ا فى أنها شهادة مقصودة، فلم يكن هناك أى احتمال لنجاة من ٧٢ رجلاً أمام بضعة آلاف وكان هناك منأى عنها فى الاستجابة لمطلب زياد. ولكن الحسين رفض بأباء وأصر على أن يقتل أمام عينيه كل أفراد أسرته ثم يقتل هو نفسه فى النهاية فى مشهد يثر الحزن والآسى حتى بالنسبة لأقصى الناس ...

في نظرنا إذن، أن ما يحق للشيعة أن تفخر به، وأن تقدمه فى التاريخ الإسلامى، وأن تعتبره الأساس الفكرى لها هو ولاية على.. وشهادة الحسين .

ولكن للأسف الشديد أن هاتين القيمتين فقدا طبيعتهما عندما أدمجا فى مضمون سياسى يستهدف الحكم .

فحدث التشويه الأول للفكر الشيعى الذى أقحمته دعوى الحكم وكيف أبعدت الولاية (بكسر الواو) المدعاة الولاية (بفتح الواو) المقررة لعلى بن أبى طالب بحديث الرسول ﷺ .

نحن نأخذ بالحذر والشك كل ما نسجه الدعاة الشيعيون من أحاديث عن الوصاية لعلى بالخلافة. ونحن نستبعده لعدم ثبوته أولا. إذ لو كان له أصل لأعلنه الرسول. وقد ولى الرسول زيد بن حارثة على أحد الجيوش وولى أبنه الشاب أسامة على جيش فى جلة الصحابة – بما فيهم عمر بن الخطاب. فلو كان الرسول يريد توصيه لأعلنها ولنفذها .

ونحن نستبعدها لأنها تخالف طبيعة الإسلام كدين هداية ولأن من مبادءه المقدسة المساواة وأن لا يكون لأحد فخر أو

صفة خاصة بحكم النسب أو الدم أو الجاه الخ... ولأن الوصية تجعل من الإسلام حكما ثيولوجيا وراثيا محصوراً فى فرع واحد من الأسرة النبوية، والقرآن الكريم يقول ﴿إن أكرمكم عند ا أتقاكم﴾ .

ونحن نستبعدها لأن أقوال الرسول تخالفها فالرسول يقول "يا فاطمة.. يا صفية.. أعملى فإنى لا أغنى لكم من ا شيئاً، ويقول "لا يأتون الناس بالأعمال.. وتأتونى بالأنساب" فالعمل والتقوى هو معيار الصلاحية والأفضلية وليس الحسب والنسب .

ونحن نستبعدها لأنها تخالف أعمال الرسول .

وقد عالج هذه النقطة أحد المؤرخين القدامى الذين أزعجه طموح بنى أمية، ثم توليهم بالفعل الخلافة.. دون على هو المقريزى فى رسالته النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم فقال "فأنى كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بنى أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم رسول ا ﷺ وقرب بنى هاشم – وأقول كيف حدثتهم أنفسهم بذلك وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول ا ﷺ ولعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوة بنى أمية وبنى هاشم فى أيام جاهليتها ثم

شدة عداوة بنى أمية لرسول ا ﷺ ومبالغتهم فى أذاه وتماديهم على تكذيبه .

ويستطرد ...

وما زلت طول الأعوام الكثيرة أعمل فكرى فى هذا وأشباهه التى يطول ذكرها وأذاكر به من أدركت من مشيخة العلم ومن لقيت من حملة الآثار ونقلة الأخبار فلا أجد فى طول عمرى سوى رجلين أما رجل عراه ماعرانى وساءه ما قد دهانى فهو يحذو فى المقال حذوى ويشكو من الألم شكوى وأما رجل يرتع فى ميدان تقليده ويجول فر عرصات تهوره وتفنيده فلا يزيدنى على التهويل والهدر الطويل إلى أن اتضح لى والحمد ا وحده سبب أخذ بنى أمية الخلافة ومنعها بنى هاشم، وذلك أنه لا خلاف بين أئمة الحديث ونقاد الأخبار وعلماء السير والآثار أن رسول ا ﷺ توفى وعامله على مكة أبو عبد الرحمن عتاب بن أسيد ابن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى أحد من أسلم يوم فتح مكة وأنه لم يزل على مكة منذ فتحها ا على رسول ا ﷺ عام ثمان من الهجرة إلى أن توفاه ا عز وجل فاقر أبو بكر الصديق رضى ا عنه عتابا حتى ماتا فى يوم واحد وكان

النبى ﷺ قسم اليمن بين خمسة رجال خالد بن سعيد على صنعاء والمهاجرين أبى أمية على كندة وزياد بن لبيد على حضرموت ومعاذ بن جبل على الجند وأبا موسى الأشعرى على زبيد ورمع وعدن فكان عامل رسول ا على صنعاء اليمن كما تقدم خالد بن سعيد بن العاصى بن أمية بن عبد شمس بعثه ﷺ إليها سنة عشر من الهجرة فتوفى رسول ا ﷺ وخالد على اليمن وكان أبان بن سعيد بن العاصى بن أمية على البحرين برها وبحرها منذ عزل العلاء بن الحضرمى حليف بنى أمية وقيل بل مات رسول ا ﷺ والعلاء على البحرين وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر تبوك وفدك .

فإذا كان رسول ا ﷺ قد أسس هذا الأساس وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح ا عليه من البلاد كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يحتد فى الولاية أملهم أم كيف لا يضعف أمل بنى هاشم وينقبض رجاؤهم ويقصر أملهم .

فأنظر كيف لم يكن فى عمال رسول ا ﷺ ولا فى عمال أبى بكر وعمر رضى ا عنهما أحد من بنى هاشم

فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وقتل أمرسهم .

لما كانت بنو هاشم من بنى قريش اختصها ا سبحانه بهذا الأمر أعنى الدعوة إلى ا تعالى والنبوة والكتاب فحازت بذلك الشرف الباقى وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة لهذا أزواها ا تعالى عنهم تنبيها على شرفهم وعلو مقدارهم فإن ذلك هو خيرة ا لنبيه محمد ﷺ كما ثبت أنه ﷺ لما خير أختار أن يكون نبيا عبداً ولم يختر أن يكون نبيا ملكا وسأل مثل ذلك لآله" .

وقطع المقريزى بأن على بن أبى طالب كان يعلم أن رسول ا ﷺ يربأ ببنى هاشم عن ولاية الأعمال وقال "وقد كان غير واحد من فضلاء الصحابة رضى ا عنهم يعلم أن آل البيت أرفع قدراً من أن يبتليهم بأعمال الدنيا مثل عبد ا بن عمر بن الخطاب الذى سأل الحسين أين تريد قال العراق قال لا تأتهم قال هذه كتبهم وبيعتهم فقال أن ا عز وجل خير نبيه ﷺ بين الآخرة والدنيا فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا وأنك بضعة من رسول ا ﷺ وا لا يليها أحد منكم وما صرفها ا عنكم إلا للذى هو خير لكم فارجع فأبى الحسين

وقال هذه كتبهم وبيعتهم فاعتنقه عبد ا بن عمر وقال استودعك ا من قتيل فكان كما قال ابن عمر وكذلك قال عبد ا بن عباس رضى ا عنهما للحسين وا يا ابن أخى ما كان ا ليجمع لكم بين النبوة والخلافة وهذا من فقهما." .

ونحن نستبعد الوصاية على أساس موضوعى. لأن الأساس الذى قدمه الشيعة كما يعرضه الدكتور حميد ا وهو كاتب شعبى ولكنه من المثقفين ثقافة أوربية. وهو يكتب بالإنجليزية وبهذا تتجرد تعبيراته وسياق من الشنشبات والاصطلاحات المعهودة فى الكتب المقررة للمذهب .

يقول الدكتور حميد ا فى كتابه الفكر السياسى الإسلامى المعاصر (ترجمة الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا) ..

"وهناك فرقة من المسلمين. صار من المعلوم فيما بعد أنها أقلية، اعتقدت أن الرسول ﷺ قد عين خليفته وهو صهره وابن عمه على رضى ا عنه، وقد تم هذا التعيين على حد قولهم فى آخر رحلة لحج الرسول، وفى الثامن عشر من شهر ذى الحجة فى السنة الحادية عشرة للهجرة "٦٣٢م" وفى

موضع يسمى غدير خم، وقد صرح الرسول ﷺ ذلك اليوم من خلال خطبة نقلت إلينا بروايات مختلفة – بهذا الأمر وأشهر رواياتها قوله ﷺ "من كنت مولاه فعلى مولاه". واشتهرت هذه الفرقة بالتدريج باسم شيعة على "حرفيا أتباعه" .

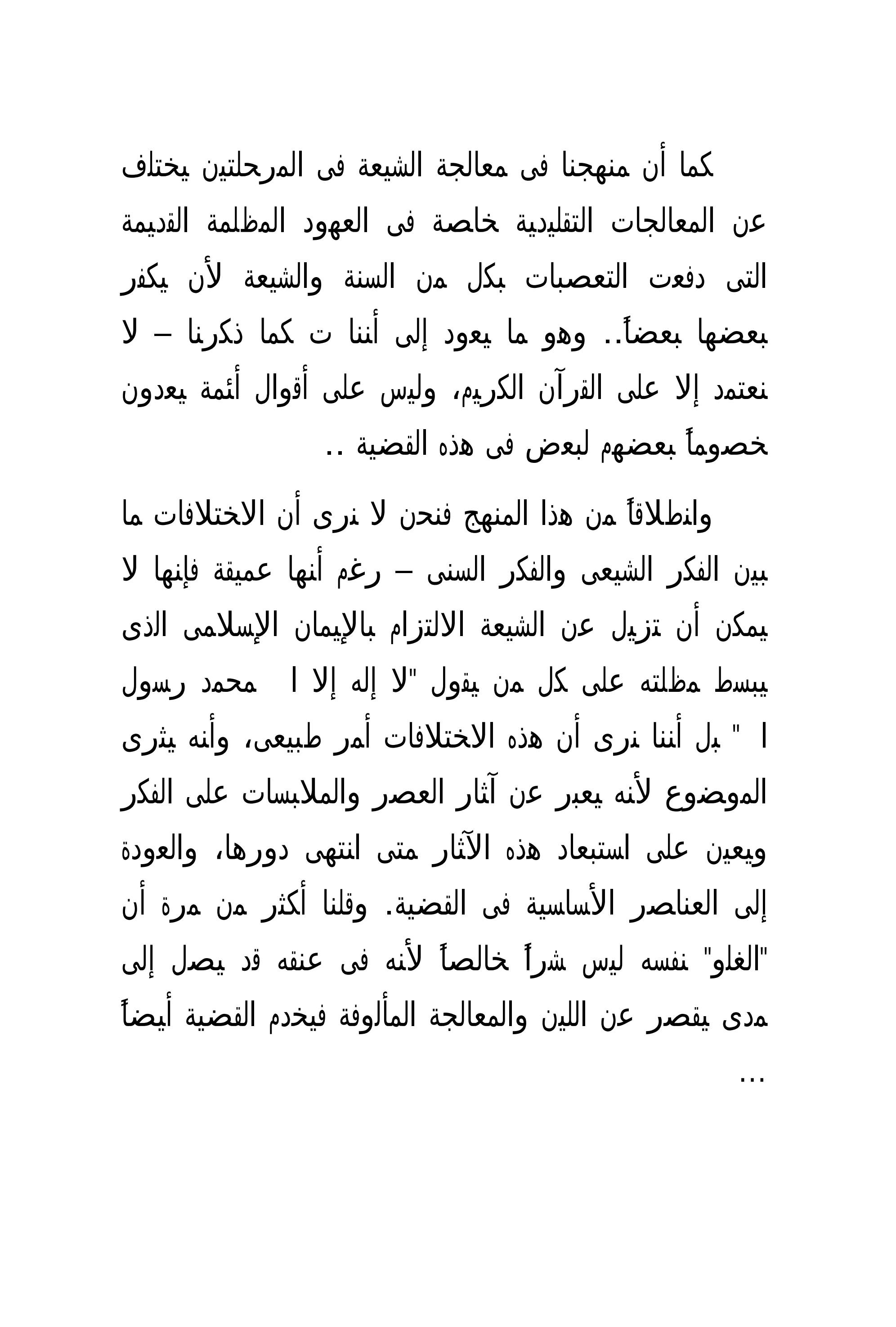
وقد رأوا أن العدالة الإلهية ولطف ا بعبيده يستلزمان ألا تترك مسألة الإمامة دون حسم، وكما أوجب العقل إرسال الأنبياء والرسل، فإنه يوجب أيضاً تعيين أئمة معصومين فى غيابهم من أجل رعاية أتباعهم أو اصطلاحا "ولايتهم". وعلاوة على هذا فإن النتيجة المنطقية لقبول تعاليم الرسول هو التعهد بالقيام بها، والفهم الصحيح النقى للمعانى الحقيقية للقرآن والأحاديث النبوية هو فحسب الذى كان يستطيع أن يتقدم بالمجتمع الإسلامى فى هذا الاتجاه، وهذا العلم كان فى حوزة أشخاص من خواص الرسول ﷺ ومن المقربين إليه وبخاصة على رضى ا عنه، وعن طريقة انتقل الأئمة الإحدى عشر أو أعقابه من الذكور.. وهذا هو على الأقل رأى الشيعة الأثنى عشرية التى ستقدم آراؤهم السياسية فى هذا الكتاب ..

وكان الشيعة فى الأغاب يحتجون على هجوم أولئك الذين كانوا يدافعون عن مبدأ اختيار خلفاء الرسول ﷺ أو انتخابهم، بأن قضية قيادة الأمة أكثر أهمية من أن تناط بآراء أفراد عاديين وأنظارهم بحيث يكون من الممكن أن يختاروا لها شخصا غير صالح، وهذا مما يتعارض مع الهدف الأصلى الإلهى من تنزيل الكتاب وإرسال الرسل، وا سبحانه وتعالى فحسب هو الذى يعلم بمدى علم الناس وعصمتهم، ويستطيع عن طريق تعريف رسله بأولئك الذين يتميزون بالعلم والعصمة أن يضمن انتصار وحيه وتنزيله. وهنا تطرح قضية الشخصيات على بساط البحث إذ يعتقد الشيعة أو أولئك الذين كانوا على علاقة وثيقة بالرسول ﷺ هم الذين كانوا يستطيعون التحلى بهذه الصفات ومن ثم فإن هذه الصفات لم تجتمع إلا فى على وأعقابه من الذكور .

وهذا الجزء من الجدلية الشيعية يكمل رأيهم الآخر الذى يعد أهم عنصر فى نظرية الشيعة السياسية: أى الضرورة المطلقة القاطعة للعدل كشرط الإمامة، وهذا طبقاً للآية الواردة فى القرآن الكريم صراحة ﴿لا يَنَالُ عهدِي الظالِمِين﴾. {١٢٤ البقرة} ويدور بقية جدل الشيعة عن

الإمامة حول تفسير مقام العلماء والمجتهدين فى المجتمع الإسلامى فى غيبة الأئمة، فالعلماء وهم جمع عالم تعنى به ذلك المحقق فى أمور الدين أو المعنى الخاص للكلمة عالم الدين أو الفقيه، والمجتهد لغة هو كل من يبذل كل جهده وجهده فى استخدام قواه الذهنية، لكنه يعنى اصطلاحا العالم الذى يستنبط الأحكام الفقهية ويستخرجها من منابعها الأصلية، وإذا كان الأئمة هم المسئولين عن إرشاد المسلمين بعد غياب الوحى، أى بعد وفاة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ فإن العلماء والمجتهدين مسئولون عن مهمة إرشاد المسلمين بعد انتهاء فترة الإمامة أى بعد غيبة الإمام، وهناك بلا شك فرق بين الفئتين وهو أن العلماء لا يشتركون مع الأئمة فى العصمة أو سائر صفاتهم غير العادية" انتهى .

ولكننا نرى أن تحرير القول فى الشيعة يتطلب الفصل بين مرحلتين: المرحلة الشيعية كفرقة مكافحة معارضة لممارسات الدولة الأموية والعباسية دون أن تلى حكما.. والمرحلة الثانية: عندما استطاع فرع الأقوى من الشيعة – الأثنى عشرية – تكوين دولة الصفويين فى إيران فى القرن الخامس عشر ...



كما أن منهجنا فى معالجة الشيعة فى المرحلتين يختلف عن المعالجات التقليدية خاصة فى العهود المظلمة القديمة التى دفعت التعصبات بكل من السنة والشيعة لأن يكفر بعضها بعضاً.. وهو ما يعود إلى أننا ت كما ذكرنا – لا نعتمد إلا على القرآن الكريم، وليس على أقوال أئمة يعدون خصوماً بعضهم لبعض فى هذه القضية ..

وانطلاقاً من هذا المنهج فنحن لا نرى أن الاختلافات ما بين الفكر الشيعى والفكر السنى – رغم أنها عميقة فإنها لا يمكن أن تزيل عن الشيعة الالتزام بالإيمان الإسلامى الذى يبسط مظلته على كل من يقول "لا إله إلا ا محمد رسول ا " بل أننا نرى أن هذه الاختلافات أمر طبيعى، وأنه يثرى الموضوع لأنه يعبر عن آثار العصر والملابسات على الفكر ويعين على استبعاد هذه الآثار متى انتهى دورها، والعودة إلى العناصر الأساسية فى القضية. وقلنا أكثر من مرة أن "الغلو" نفسه ليس شراً خالصاً لأنه فى عنقه قد يصل إلى مدى يقصر عن اللين والمعالجة المألوفة فيخدم القضية أيضاً ...

ونحن نرى أن فكرة "الخلافة" أو "الإمامة" التى تعد أكبر فارق بين الفكر السنى والشيعى وأكبر مميز للفكر الشيعى، وما يلحق بها مما جاءت الإشارة إليه عندما عرضنا الفكر الشيعى ليست هى جوهر الفكر الشيعى ولكنها من عمل الملابسات والسياق التاريخى هو الذى فرضها على الشيعة كما فرض على الفكر السنى فكرة الخلافة ...

ومن المسلم به أن الشيعة تبدأ من على بن أبى طالب ويفترض أن تكون أنقى صورها وأكثرها أصالة بلورة لشخصية هذا الرجل، وهناك عدد كبير من العوامل أثرت على شخصية على بن أبى طالب وساعدت على إبرازه فى صورة مميزة ..

وعلى بن أبى طالب مع أنه فرع من الدولة الهاشمية إلا أنه أباه – أبو طالب – لم يكن له حظ من ثراء – وقد رأى الرسول أن يضم إليه تخفيفا عنه .

وهكذا أراد ا تعالى محكمة خفية سامية أن يبعده عن عالم الثراء الذى كانت تصف به بنو أمية، وأن تقربه إلى بيت الدعوة ليعيش بين محمد وخديجة: وليكون أول من يسلم من الصبيان .

وعندما لحق الرسول بربه وتطلبت الأمور تعيين خليفة أدت الملابسات إلى اختيار أبى بكر، وبعد أبى بكر جاء دور عمر بن الخطاب ثم تولاها عثمان. وأخيراً انتهت إلى على .

ونحن نختلف مع الفكرة الشعبية المقررة عن أن عليا ظلم حقه فى الخلافة، سواء لأن الرسول أوصى له بها، أو لأنه كان أفضل المرشحين ..

فليس من العسير أن يتبين أى دارس أن لو أن الرسول أوصى له بشىء فى هذا الأمر الخطير لكان قد اعلمه صراحة حتى لا يحدث خلاف أو شقاق أو يحيق به ظلم. وقد أمر الرسول أسامة بن زيد، كما أمر أباه من قبل ولم يرفض أحد من الصحابة، ولو أراد الرسول أن يخلفه على لما عارضه أحد ...

ولكن الرسول لم يفعل هذا، وما يسوقونه من أحاديث لا تقتضى ذلك صراحة وتحديداً مما سنشير إليه مما سيلى من حديث وأكثر من هذا – أن الرسول كان يبعد بنى هاشم عن الولاية ..

ولم يكن من المعقول أن لا يدرك على بن أبى طالب ذلك. ولكن هذا لم يكن ليحول دون أن يكون له حق يحكم سابقته وكفاحه فى الترشيح للخلافة ...

وقضية أفضلية الإمام على على أبى بكر وعمر قضية لم يكن هناك ما يحول دون أن تثار، سواء من ناحية على نفسه، أو من بعض أصحابه وليس الحكم فيها بأن عليا أفضل مما يمس الإيمان فى شئ، لأنها قضية تقدير مبنى على اعتبارات حول الكفاءات لأفراد، وهى قضية بعيدة عن العقيدة والإيمان الخ... وكان يمكن أن تعد من القضايا الجدلية كقضية الفكر المعتزلى مثلاً – لا تثير حروباً أو دماء. ولكن ما جعلها ذلك هو ما الصق بها من دعوى الوصاية بوجه خاص فكرة "الدولة" بصفة عامة ..

ونحن نرى أن كل ما قيل عن الوصية لعلى إنما هى من الآثار التى أضيفت فى مرحلة لاحقة إلى على فى حين أنه هو نفسه لم يدعيها لما أن ما سيق من أحاديث لا تقتضيها فحديث "أنت منى بمنزلة هارون من موسى" لا تجعل له خلافة، فلم يرث هارون موسى، وكان الذى قام بعد موسى بالقيادة هو يوشع، وليس هو من سبط "لأدى" الذى يمت إليه

موسى وهارون ولكن من سبط أفرائيم بن يوسف. بينما خص سلالة هارون بنوع من الكهانة.. كما أن حديث غدير خم لا يتضمن حقا ولكن ولاية (بفتح الواو) وهى منزلة دينية خالصة تجعل عليا "ولى" هذه الأمة. وما فى هذا الولى من صفات الإرشاد والتوجيه الدينى وليس الحكم السياسى ..

وهذه الآثار كلها تفند دعوى الوصاية، وتثبت أنها إنما أضيفت إلى الفكر الشيعى فيما أضيفت إليه من روايات فى مراحل لاحقة .

وقدم الحسين لأرث الشيعة فكرة "الشهادة" عندما أثر أن يقاتل جيش ابن زياد وهو فى أثنين وسبعين رجلاً وجيش زياد فى أكثر من ألفين. ولم يكن من معنى لهذا إلا إيثار الشهادة وجاءت نتيجة المعركة، أو المجزرة – مقنعة هذا المعنى بحيث أصبح من المؤثرات فى الفكر الشيعى .

الولاية (بفتح الواو) التى أرادها الرسول لعلى بن أبى طالب فى حديثى غدير خم وأنت منى بمنزلة هارون من موسى والشهادة التى قدمها الحسين هما فى الحقيقة الركيزتان الأساسيتان للشيعة، والإضافة التى تقدمها للفكر السياسى الإسلامى .

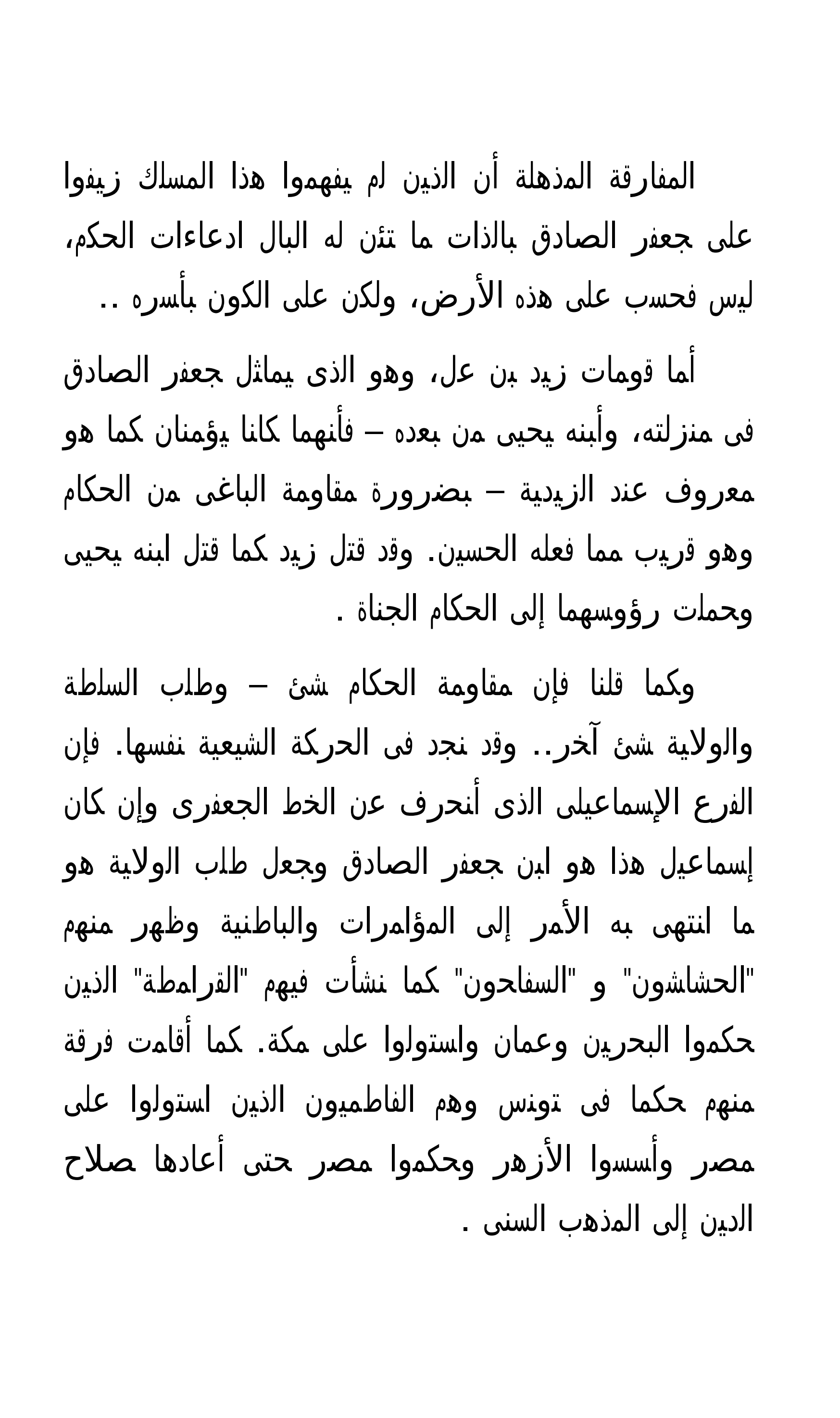
ومن المؤسف أن لم تلحظ هذان الركيزتان لأن فكرة السلطة التصقت بهما فأسدتهما ..

ويجب أن تفرق بين مقاومة ظلم الحكام واستبدادهم والرغبة فى تولى السلطة. أن الأول واجب نبيل، مقدس أوجبه القرآن والرسول على المسلمين جميعا باعتباره أسمى درجة من درجات النهى عن المنكر ...

أما الرغبة فى السلطة فإنها – مهما كانت دعاويها – مذمومة. ولم يكن عبثا أن يرس الرسول نفسه مبدأ "طالب الولاية لا يولى" وأنا لا تولى هذا الأمر رجلاً طلبه .

الولاية (بفتح الواو) نقيض الولاية بكسرها هى كالحمام (بفتح الحاء) والحمام بكسرها. وما أبعد الفرق بين المعنيين .

ولو تقصينا مسالك كبار أئمة الشيعة حتى جعفر الصادق لرأينا أنهم كانوا عازمين عن الولاية، ولعل مسلك الحسن أصدق مثال لذلك، يتلوه مسلك على زين العابدين.. ومحمد الباقر.. وأخيراً جعفر الصادق الذى عندما جاءته إغراءات بالحكم أحرقها ...



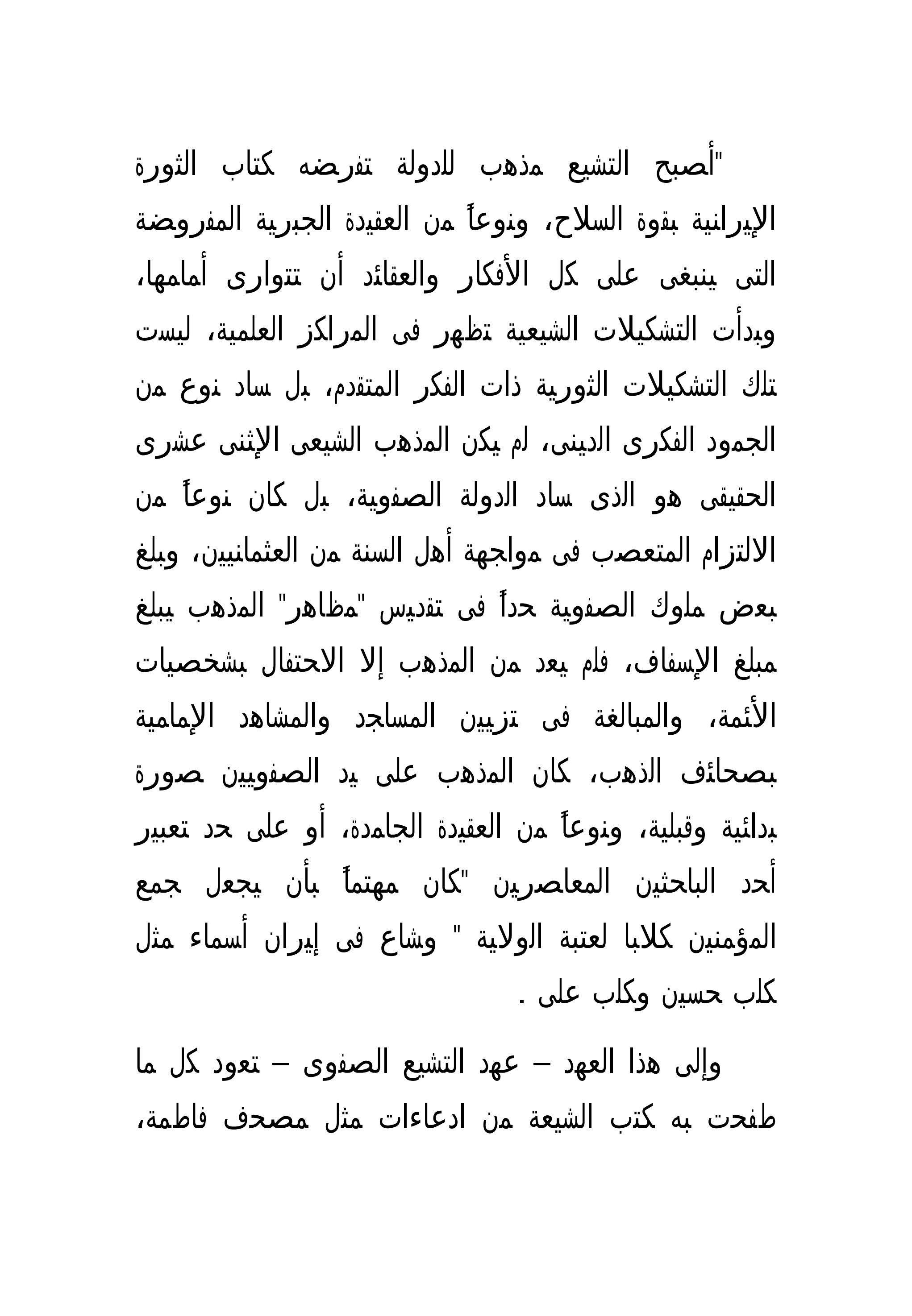
المفارقة المذهلة أن الذين لم يفهموا هذا المسلك زيفوا على جعفر الصادق بالذات ما تئن له البال ادعاءات الحكم، ليس فحسب على هذه الأرض، ولكن على الكون بأسره ..

أما قومات زيد بن عل، وهو الذى يماثل جعفر الصادق فى منزلته، وأبنه يحيى من بعده – فأنهما كانا يؤمنان كما هو معروف عند الزيدية – بضرورة مقاومة الباغى من الحكام وهو قريب مما فعله الحسين. وقد قتل زيد كما قتل ابنه يحيى وحملت رؤوسهما إلى الحكام الجناة .

وكما قلنا فإن مقاومة الحكام شئ – وطلب السلطة والولاية شئ آخر.. وقد نجد فى الحركة الشيعية نفسها. فإن الفرع الإسماعيلى الذى أنحرف عن الخط الجعفرى وإن كان إسماعيل هذا هو ابن جعفر الصادق وجعل طلب الولاية هو ما انتهى به الأمر إلى المؤامرات والباطنية وظهر منهم "الحشاشون" و "السفاحون" كما نشأت فيهم "القرامطة" الذين حكموا البحرين وعمان واستولوا على مكة. كما أقامت فرقة منهم حكما فى تونس وهم الفاطميون الذين استولوا على مصر وأسسوا الأزهر وحكموا مصر حتى أعادها صلاح الدين إلى المذهب السنى .

وكان النشاط السياسى الذى قام به الفرع الإسماعيلى واستهدف شكل مباشرة الحكم هو الصورة الأولى إفساد السلطة للفكر الشيعى ...

أما الصورة الثانية، والتى لا تزال الحركة الشيعية تعانى منها حتى الآن فقد ظهرت عندما استولى الصوفيون على الحكم فى إيران وجعل الشاه إسماعيل الصفو المذهب الشيعى هو المذهب المقرر (من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر) ووصل الهوس المذهبى إلى درجة لا يمكن تصورها. وذكر الدكتور الدسوقى فأوجب الشاة لفتن أبى بكر وعمر وعائشة وقتل قرابة أربعين ألفاً ترددوا أو رفضوا ذلك وأقيمت احتفالات فى ذكرى "مصرع عمر" تحت اسم "عمر كشان" وفى الوقت نفسه فإن تقدس الإمام على وصل إلى درجة أن اللقب الرسمى للشاه عباس الكبير كان "كلاب أستان على" أى كلاب عتيه على.. ولم يكن لدى هذا الشاه ذرة إيمان حقيقى بالإسلام لأنه أفطر مع حاشيته علنا مع مسيحى جلفا فى أصفهان وأكل معهم لحم الخنزير ويذكر الكاتب الذى نقل لنا هذه الواقعة – وهو الدكتور الدسوقى شتا فى كتابه "الثورة الإيرانية " .



"أصبح التشيع مذهب للدولة تفرضه كتاب الثورة الإيرانية بقوة السلاح، ونوعاً من العقيدة الجبرية المفروضة التى ينبغى على كل الأفكار والعقائد أن تتوارى أمامها، وبدأت التشكيلات الشيعية تظهر فى المراكز العلمية، ليست تلك التشكيلات الثورية ذات الفكر المتقدم، بل ساد نوع من الجمود الفكرى الدينى، لم يكن المذهب الشيعى الإثنى عشرى الحقيقى هو الذى ساد الدولة الصفوية، بل كان نوعاً من الالتزام المتعصب فى مواجهة أهل السنة من العثمانيين، وبلغ بعض ملوك الصفوية حداً فى تقديس "مظاهر" المذهب يبلغ مبلغ الإسفاف، فلم يعد من المذهب إلا الاحتفال بشخصيات الأئمة، والمبالغة فى تزيين المساجد والمشاهد الإمامية بصحائف الذهب، كان المذهب على يد الصفويين صورة بدائية وقبلية، ونوعاً من العقيدة الجامدة، أو على حد تعبير أحد الباحثين المعاصرين "كان مهتماً بأن يجعل جمع المؤمنين كلابا لعتبة الولاية " وشاع فى إيران أسماء مثل كلب حسين وكلب على .

وإلى هذا العهد – عهد التشيع الصفوى – تعود كل ما طفحت به كتب الشيعة من ادعاءات مثل مصحف فاطمة،

والجعفر، وكل التفسيرات الباطنية للقرآن وكلها مفتريات على الشيعة تعود إلى العداوة المدبرة التى نشبت ما بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية السنية وجعلت الدولة الصفوية تعتبر السنة هى عدوتها الأولى ...

وقد عالج هذه النقطة بوضوح وقوة كاتب إيران البارز الدكتور على شريعتى وهو الكاتب الذى يمكن مقارنته بإقبال، ومحمد عبده، ومالك بن محمد أسد، وأبرز كيف أفسد الحكم الصفوى التشيع العلوى ورأى أنه مذهب المساجد ذات القباب الذهبية والتى لا يتردد عليها مصلون، وهو مذهب تجليد القرآن الكريم وتذهيبه وتمجيده ليس البحث فيه وليس تفسيره، تقديس القرآن لا لفتحه ولا لقراءته. مذهب التوسل بكتب الأدعية لغلق القرآن الكريم، لأن القرآن يعلم المسئولية، والتشيع الصفوى هو الذى أشاع البكاء وقراءة الروضة، وقراءة دعاء على الدرجة الرابعة للصفا والمروة يجلب الغنى، هو الذى أشاع كل ما ظنه أعداء التشيع تشيعاً حقيقياً وكل ما يزاوله الشيعة على أنه التشيع الحقيقى، وكل هذا البكاء والضرب بالقمة (سيف قصير) ليست من الإسلام وليست من التشيع .

وأجرى الدكتور شريعتى مقارنة ما بين التشيع العلوى، والتشيع الصفوى نقلها الأستاذ فاضل رسول فى كتابه "هكذا تكلم على شريعتى" ..

فى التشيع العلوى:

الوصاية :

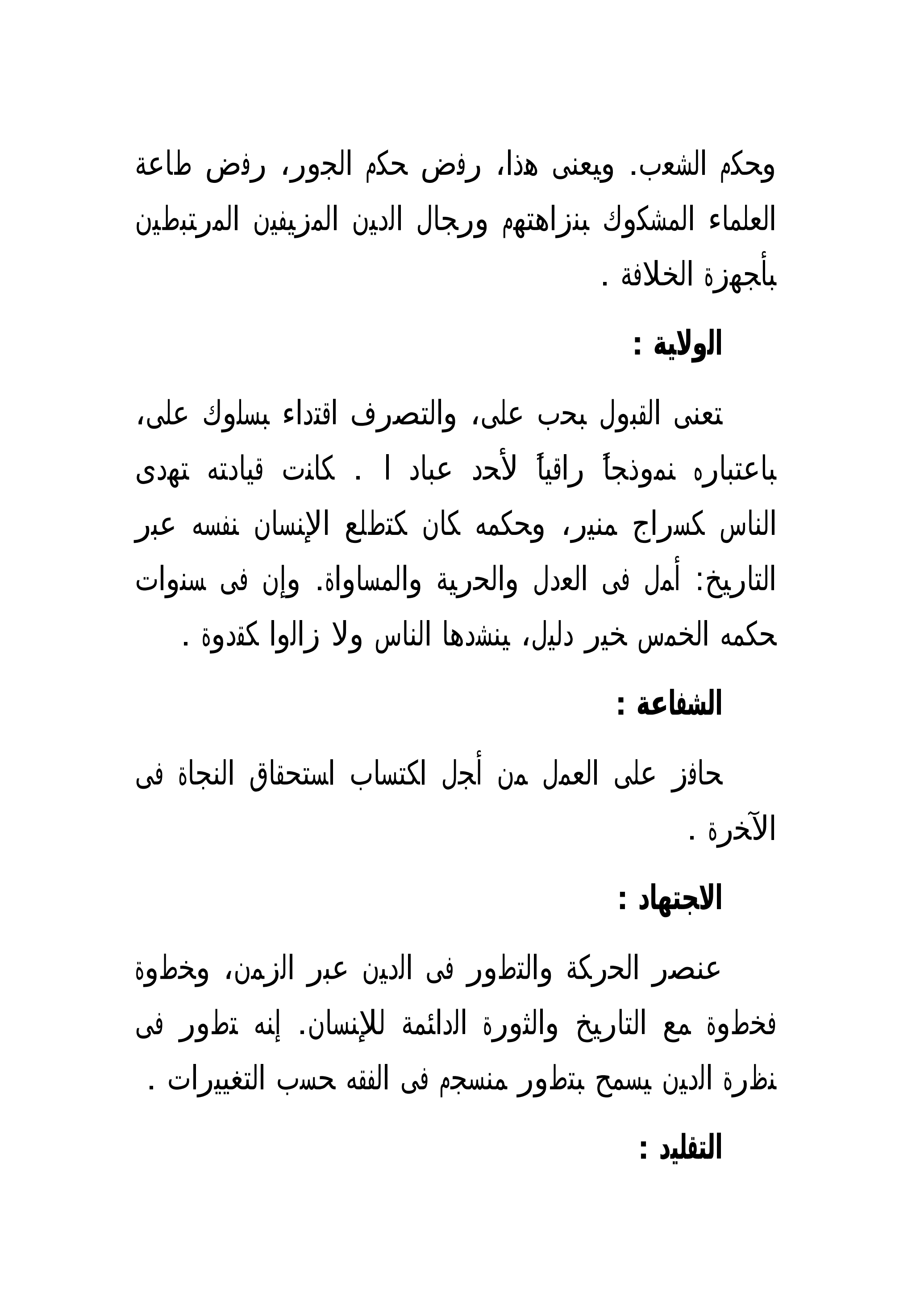
تعنى أن الرسول/ طبقاً لأوامر ا تعالى، أوصى بأفضل الأشخاص وأكثرهم كفاءة فى أهل بيته، على أساس كونه أكثرهم علماً وتقوى واستحقاقاً .

الإمامة :

تعنى قيادة ثورية، تهدى الناس فى الكفاح من أجل بناء مجتمع سليم، وتقوم بتوعية الناس وحثهم على التفكير والاستقلال فى الرأى. إنها قيادة تتكون من أشخاص هم التجسيد العملى لمبادئ ورسالة الإسلام، ويمكن بالعمل تحت قيادتهم أن نتربى ونعى أكثر فأكثر ..

العصمة:

تعنى الاعتقاد بالتقوى الفكرية والاجتماعية للقادة المؤمنين، الشاعرين بالمسئولية، والساعين من أجل العلم


وحكم الشعب. ويعنى هذا، رفض حكم الجور، رفض طاعة العلماء المشكوك بنزاهتهم ورجال الدين المزيفين المرتبطين بأجهزة الخلافة .

الولاية :

تعنى القبول بحب على، والتصرف اقتداء بسلوك على، باعتباره نموذجاً راقياً لأحد عباد ا . كانت قيادته تهدى الناس كسراج منير، وحكمه كان كتطلع الإنسان نفسه عبر التاريخ: أمل فى العدل والحرية والمساواة. وإن فى سنوات حكمه الخمس خير دليل، ينشدها الناس ولا زالوا كقدوة .

الشفاعة :

حافز على العمل من أجل اكتساب استحقاق النجاة فى الآخرة .

الاجتهاد :

عنصر الحركة والتطور فى الدين عبر الزمن، وخطوة فخطوة مع التاريخ والثورة الدائمة للإنسان. إنه تطور فى نظرة الدين يسمح بتطور منسجم فى الفقه حسب التغييرات .

التقليد :

علاقة منطقية وعلمية ضرورية بين عامة الناس وعلماء الدين المتخصصين فى المسائل العملية والحقوق وقضايا أخرى ذات طابع فنى ومتخصص .

العدل :

الاعتقاد بوجود صفة العدالة فى ا ، وبأن الكون قائم على التوازن والعدل، فالنظام الاجتماعى والحياة أيضاً يجب أن ترسى على أسس العدل. إن الظلم واللامساواة هما نظام غير طبيعى وغير إلهى، بل أنه ضد ا . إن العدل هو أحد ركنين أساسيين فى الدين، فالعدل هو هدف الرسالة والشعار العظيم للإسلام .

* * *

إن التشيع العلوى هو تشيع المعرفة والمحبة .

إن التشيع العلوى هو تشيع السنة .

إن التشيع العلوى هو تشيع الوحدة .

إن التشيع العلوى هو تشيع العدل، (العدل فى العلم، فى المجتمع فى الحياة) .

إن التشيع العلوى هو تشيع الممارسة .

إن التشيع العلوى هو تشيع الالتزام .

إن التشيع العلوى هو تشيع الاجتهاد .

إنه تشيع المسئولية .

تشيع الحرية .

تشيع ثورة كربلاء .

تشيع الشهادة .

تشيع السعى وراء التقدم والتطور .

فى التشيع الصفوى :

الوصاية :

تعنى تعيين سلطة غير منتخبة، وراثية تستند إلى التسلسل الوراثى وعلاقة الدم والقرابة

الإمامة :

هى الاعتقاد بـ (١٢) إسماً، باعتبارهم معصومين ومقدسين عناصر فوق البشر ومن ما وراء الطبيعة، وهم الوسيلة الوحيدة للتقرب والشفاعة. إنهم ١٢ ملاكاً يمكن عبادتهم، فهم مخلوقات غيبية، بل وآلهة صغيرة تتحكم بالدنيا وبمشيئة الناس إلى جانب الإله الأكبر فى السماء .

العصمة :

تعنى مفهوماً ذاتياً، صفة استثنائية خارقة لمخلوقات غيبية، ليست من طينة البشر، ولا يمكن أن يخطئوا فى شئ، ويعنى هذا بأن ١٤ شخصاً فقط امتلكوا هذه الذات الخاصة وهذه الصفات .

هذا لا يعنى أيضاً، الاعتراف بأن انحراف وعدم نزاهة الحكومات القائمة هى أمر طبيعى (لأنها ليست معصومة) والقبول بعلماء الدين غير النزيهين ورجال الدين غير المتقين، بحجة أنهم غير معصومين ولا يمكن توقع الكمال منهم .

الولاية :

تعنى حب على فقط، والتنصل من كل مسئولية عملية. تعنى الأمل بالجنة فقط، بسبب الاعتقاد بولاية على. أى أن الولاية هى لضمان الآخرة، وليست شيئاً يفيد المجتمع والشعب. إنها مسألة لا تهم الناس بل تهم ا . إذ إنها تعنى فى مفهوم التشيع الصفوى التشارك مع ا فى إدارة الكون والعالم .

الشفاعة :

وسيلة لنجاة من لا يستحق !

الاجتهاد :

عنصر الجمود والتحجر فى الدين، وعائق أمام التقدم والتجديد والتغيير. وسيلة لإدانة وتكفير وتفسيق كل عمل جديد، كل كلمة جديدة، وكل نهج جديد فى الدين ونظام الحياة والعلم والفكر وفى المجتمع .

التقليد :

الطاعة العمياء لرجال الدين. التبعية المطلقة وغير القابلة للنقاش لرجل الدين، وذلك فى العقل والعقيدة والحكم. أى حسب تعبير القرآن، عبادة رجال الدين "عبادة الأحبار والرهبان من دون ا " ..

العدل :

طرح إلهى، يتعلق بما بعد الموت. أما كيف يحكم ا فى الآخرة وكيف يقضى بين الناس، فلا علاقة له بالدنيا، لأن الدنيا هى من شئون "الشاه عباس!!" انسجاماً مع القول: دع ما لقيصر لقيصر وما . الدنيا وما قبل الموت هى

من صلاحيات الشاه عباس، والآخرة هى من صلاحيات ا !.

الدعاء :

تكرار ممل، مخدر، يوعد الناس بآمال واهية. يطمح البعض بثواب عن حسنات لم يعلموها، يقدم بديلاً عن بذل الجهود وتحمل الشدائد والمخاطر فى الحياة .

الانتظار :

الاستسلام الروحى والعملى والعقائدى للأمر الواقع والوضع السائد. تبرير الفساد فى الأرض، والنظر للأمر الواقع وكأنه قدر لا يمكن رده. إلغاء الدور المسؤول للإنسان. اليأس من كل إصلاح وتغيير وإدانة أية محاولة فى هذا المجال، بدعوى استحالتها قبل ظهور الإمام .

الغيبة :

سلب المسئولية من الجميع، تعطيل جميع الأحكام الاجتماعية للإسلام. الاعتقاد بعدم جدوى أى عمل، وبعدم مشروعية أية مسؤولية اجتماعية بحجة أن الإمام الغائب

وحده يمكن أن يقود، ووحده يستحق الطاعة. نحن مسؤولون أمام الإمام وحده، لكنه غائب.. إذن فلا شئ يجدى !! .

التشيع الصفوى هو تشيع الجهل والمحبة .

التشيع الصفوى هو تشيع البدعة .

التشيع الصفوى هو تشيع التفرقة .

الفصل السابع

السلطة تفسد المسيحية وتحولها إلى محكمة تفتيش

من بين الأديان تميزت المسيحية بأنها ديانة الحب، والصفح، والخير والرحمة. وكما أتصف رسولها عيسى بن مريم – المسيح – بالبساطة والشعبية والبعد عما يحرص عليه الناس عادة من مال أو جاه أو قوة فكان رجلاً بسيطاً يمشى فى الأسواق ويستخلص دعاته من صيادى الأسماك والفقراء والمنبوذين والنساء والمرضى بالبرص أو الصرع الخ... وقد أجمل لنا فكرة المسيحية ورسالتها وقداستها فى الحياة فى موعظة الجبل التى يطلق عليها فى الكتابات المسيحية "التطويبات" ..

ماذا جاء فى موعظة الجبل التى تعد دستور المسيحية ؟؟ .

إنها على ما رواه متى فى إنجيله .

الفصل الخامس

١. فلما رأى يسوع الجموع صعد إلى الجبل. ولما جلس دنا إليه تلاميذه. ٢. ففتح فاه يعلمهم قائلاً. ٣. طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات. ٤. طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض. ٥. طوبى للحزان فإنهم يعزون. ٦. طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون. ٧. طوبى للرحماء فإنهم يرحمون. ٨. طوبى للأنقياء القلوب فإنهم يعاينون ا . ٩. طوبى لفاعلى السلامة فإنهم بنى ا يدعون. ١٠. طوبى للمضطهدين من أجل البر فإن لهم ملكوت السماوات. ١١. طوبى لكم إذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من أجلى كاذبين. ١٢. افرحوا وابتهجوا فإن أجركم عظيم فى السماوات لأنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم. ١٣. أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فبماذا يملح. إنه لا يصلح لشىء إلا لأن يطرح خارجاً وتدوسه الناس. ١٤. أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبل. ١٥. ولا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال لكن على المنارة لينير على كل من فى البيت. ١٦. هكذا فليضئ نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا

أباكم الذى فى السماوات. ١٧. لا تظنوا أنى أتيت لأحل الناموس والأنبياء إنى لم آت لأحل لكن لأتمم. ١٨. الحق أقول لكم إنه إلى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياء أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل. ١٩. فكل من يحل واحدة من تلك الوصايا الصغار ويعلم الناس هكذا فإنه يدعى صغيراً فى ملكوت السماوات، وأما الذى يعمل ويعلم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السماوات. ٢٠. فإنى أقول لكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين فلن تدخلوا ملكوت السماوات. ٢١. قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة. ٢٢. أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة. ومن قال لأخيه راقا يستوجب حكم المحفل. ومن قال يا أحمق يستوجب نار جهنم. ٢٣. فإذا قدمت قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئاً. ٢٤. فدع قربانك هناك أمام المذبح وامض أولا فصالح أخاك وحينئذ آئت وقدم قربانك. ٢٥. بادر إلى موافقة خصمك ما دمت معه فى الطريق لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن. ٢٦. الحق أقول لك إنك لا تخرج من هناك حتى

تتوفى آخر فلس. ٢٧. قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تزن. ٢٨. أما أنا فأقول لكم إن كل من نظر إلى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. ٢٩. فإن شككتك عينك اليمنى فاقلعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. ٣٠. وإن شككتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يذهب جسدك كله إلى جهنم. ٣١. قد قيل من طلق امرأته فليدفع إليها كتاب طلاق. ٣٢. أما أنا فأقول لكم من طلق امرأته إلا لعلة زنى فقد جعلها زانية ومن تزوج مطلقة فقد زنى. ٣٣. قد سمعتم أيضاً أنه قيل للأولين لا تحنث بل أوف للرب بأقسامك. ٣٤. أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماء فإنها عرش ا . ٣٥. ولا بالأرض فإنها موطئ قدميه. ولا بأور شليم فإنها مدينة الملك الأعظم. ٣٦. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء. ٣٧. ولكن ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرير. ٣٨. قد سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن. ٣٩. أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر. ٤٠. ومن أراد

أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك أيضا. ٤١. ومن سخرك ميلا فامش معه أثنين. ٤٢. من سألك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه. ٤٣. قد سمعتم أنه قيل أحبب قريبك وأبغض عدوك. ٤٤. أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم. ٢٥. لتكونوا بنى أبيكم الذى فى السماوات لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. ٤٦. فإنكم إن أحببتم من يحبكم فأى أجر لكم أليس العشارون يفعلون ذلك. ٤٧. وإن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل عملتم أليس الوثنيون يفعلون ذلك. ٤٨. فكونوا كاملين كما أن أباكم السماوى هو كامل.

الفصل السادس

١. احترزوا ألا تصنعوا بركم قدام الناس لكى ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات. ٢. فإذا صنعت صدقة فلا تهتف قدامك بالبوق كما يفعل المراءون فى المجامع والأزقة لكى يمجدهم الناس. الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم. ٣. أما أنت فإذا صنعت صدقة فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك. ٤. لتكون صدقتك فى خفية وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك. ٥. وإذا صليتم فلا تكونوا كالمرائين فإنهم يحبون القيام فى المجامع وفى زوايا الشوارع يصلون ليظهروا للناس. الحق أقول لكم أنهم قد أخذوا أجرهم. ٦. أما أنت فإذا صليت فأدخل مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك فى الخفية وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك. ٧. وإذا صليتم فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيين فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم. ٨. فلا تتشبهوا بهم لأن أباكم عالم بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. ٩. وأنتم فصلوا هكذا. أبانا الذى فى السماوات ليتقدس اسمك. ١٠. لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. ١١. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. ١٢. وأغفر لنا

ذنوبنا كما نغفر نحن لمن أساء إلينا. ١٣. ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير. آمين. ١٤. فإنكم إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوى زلاتكم. ١٥. وإن لم تغفروا للناس فأبوكم أيضاً لا يغفر لكم زلاتكم. ١٦. وإذا صمتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين فإنهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم. ١٧. أما أنت فإذا صمت فأدهن رأسك وأغسل وجهك. ١٨. لئلا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذى فى الخفية وأبوك الذى ينظر فى الخفية هو يجازيك. ١٩. لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون. ٢٠. لكن اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون. ٢١. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك. ٢٢. سراج الجسد العين فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً. ٢٣. وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً. وإذا كان النور الذى فيك ظلاماً فالظلام كيف يكون. ٢٤. لا يستطيع أحد أن يعبد ربين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويرذل الآخر. لا تقدرون أن تعبدوا

ا والمال. ٢٥. فلهذا أقول لكم لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس. ٢٦. انظروا إلى طيور السماء فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن فى الأهراء وأبوكم السماوى يقوتها. أفلستم أنتم أفضل منها. ٢٧. ومن منكم إذا هم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة. ٢٨. ولماذا تهتمون باللباس. اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو. إنها لا تتعب ولا تغزل. ٢٩. وأنا أقول لكم إن سليمان فى كل مجده لم يلبس كواحدة منها. ٣٠. فإذا كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم وفى غد يطرح فى التنور يلبسه ا هكذا أفلا يلبسكم بالأخرى أنتم يا قليلى الإيمان. ٣١. فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس. ٣٢. لأن هذا كله تطلبه الأمم وأبوكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله. ٣٣. فاطلبوا أولاً ملكوت ا وبره وهذا كله يزاد لكم. ٣٤. فلا تهتموا بشأن الغد فالغد يهتم بشأنه يكفى كل يوم شره .

الفصل السابع

١. لا تدينوا لئلا تدانو. ٢. فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكليون يكال لكم. ٣. ما بالك تنظر القذى الذى فى عين أخيك ولا تفطن للخشبة التى فى عينك. ٤. أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها إن الخشبة فى عينك. ٥. يا مرائى أخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تنظر كيف تخرج القذى من عين أخيك. ٦. لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وترجع فتمزقكم. ٧. أسالوا فتعطوا. اطلبوا فتجدوا. اقرعوا فيفتح لكم. ٨. لأن كل من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له. ٩. أى إنسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً. ١٠. أو إذا سأله سمكة يعطيه حية. ١١. فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تمنحوا العطايا الصالحة لأبنائكم فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله. ١٢. فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم. فإن هذا هو الناموس والأنبياء. ١٣. ادخلوا من الباب الضيق لأنه وأسع الباب ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك والداخلون فيه كثيرون. ١٤. ما

أضيق الباب وأحرج الطريق الذى يؤدى إلى الحياة وقليلون الذين يجدونه. ١٥. احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان وهم فى الباطن ذئاب خاطفة. ١٦. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنى من الشوك عنب أو من العوسج تين. ١٧. هكذا كل شجرة صالحة تثمر ثمراً جيداً والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئاً. ١٨. لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر رديئاً ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمراً جيداً. ١٩. كل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار. ٢٠. فمن ثمارهم تعرفونهم. ٢١. ليس كل من يقول لى يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات. ٢٢. فإن كثيرين سيقولون لى فى ذلك اليوم يا رب يا رب ألم نكن باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. ٢٣. فحينئذ أعلن لهم أن لم أعرفكم قط فأذهبوا عنى يا فاعلى الآثم. ٢٤. فكل من يسمع كلامى هذا ويعمل به يشبه رجلاً حكيماً بنى بيته على الصخر. ٢٥. فنزل المطر وجرت الأنهار وهبت الرياح واندفعت على ذلك البيت فلم يسقط لأن أساسه كان على الصخر. ٢٦. وكل من يسمع كلامى هذا ولا يعمل به يشبه رجلا جاهلاً بنى بيته على الرمل. ٢٧. فنزل المطر

وجرت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً. ٢٨. ولما أتم يسوع هذا الكلام كله بهت الجموع من تعليمه. ٢٩. لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان لا ككتبتهم والفريسيين .

كان لابد أن ننقلها بطولها ما دمنا نتحدث عن المسيحية التى جاء بها رسول الناصرة لنعرف الحقيقة وليس ما تقدمه الكنائس أو الأحبار. لأنها هى التى تمثل روح المسيحية الحقة، والتى يكون علينا كمسلمين أن نؤمن بها تطبيقاً لتوجيهات القرآن المتكررة، ولأن عرضها بالكامل سيوضح – عند المقارنة بما آلت إليه المسيحية – جناية السلطة عليها .

وهى تمثل أسمى ما يمكن أن يصل إليه خلق أو سلوك أو تطيب عليه نفس أو تخاص به روح .

ولا يعاب عليها أنها "مثالية" كما يقولون لأن هذا بالذات – تقديم المثل والقيم – هى مهمة الأديان إن عليها أن تقدم هذه القيم والمثل التى تشبه النجوم فى السماء لا يلمسها أحد، ولكن ما أن يسير فى صفوفها فيهتدى بأمن الضلال .

ومن المسلم به أن التطبيق الحرفى والكامل لها هو ما يصعب على الناس، ولكن عدم التطبيق الحرفى لا يعنى إغفالها، ولا هو يعنى من باب أولى رفضها .

فما لا يمكن إدراكه كله. وما لا يمكن التطبيق الكامل، ففيما يدرك مقنع وبداية خاصة إذا اقترن ذلك بشعور الإنسان بعجزه رغبته فى المزيد ..

وسيرة المسيحيين الأول هى مصداق ما ذهبنا إليه ...

فقد كانوا السنوات الأولى لهم جماعات تؤلف بينها والرغبة المحرقة فى تطبيق هذه المثل، ومن أجل هذا لم يستهدفوا الثروات والمناصب والاستعلاء، وشارك من كان لديه حظ من مال إخوانه ممن ليس معهم. كانوا يشتركون فى كل شىء "سوى زوجاتهم" كما قال ترتليان. وكانوا يمتنعون عن دخول الملاهى أو مشاهدة الألعاب أو سماع الموسيقى أو حلق اللحية أو التزى بأردية مزينة الخ... كما كان الكثير يعرض عن تناول اللحم أو يكثر من الصيام والتبتل ولا يقرب النساء الخ... وكان أفلوطين. وهو الفيلسوف القبطى

المصرى رغم تأثره بالفلسفة اليونانية "يستحى أن يكون لروحه جسم! ..

وخلال الثلاثمائة سنة الأولى من تاريخ المسيحية انتشرت فى عدد كبير من البلاد والدول فى أوربا وأفريقيا بفضل جهود الحواريين والرسل الذين كانوا يمثلون "الصحابة" ومن جاء بعدهم من التابعين ومما يثير الدهشة أن الحماسة للدين الجديد انتصرت على الوحشية الرومانية، وصنوف التعذيب عندما كان المسيحيون يلقون إلى الوحوش المفترسة فى الأرينا من أيام نيرون حتى بقية أباطرة الرومان وكانوا يجلدون. حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم، أو أن لحمهم كان يقشر عن عظامهم بالأصداف وكان الملح أو الخل يصب فى جروحهم، ويقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة فى انتظارها، أو يشدون إلى الصلبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءاً جزءاً. ودقت عصى حادة الأطراف فى أصابع بعض الضحايا تحت أظافرهم، وسملت أعين بعضهم، وعلق بعضهم من يده أو قدمه، وصب الرصاص المصهور فى حلوق البعض الآخر، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا، أو ضربوا بالعصى

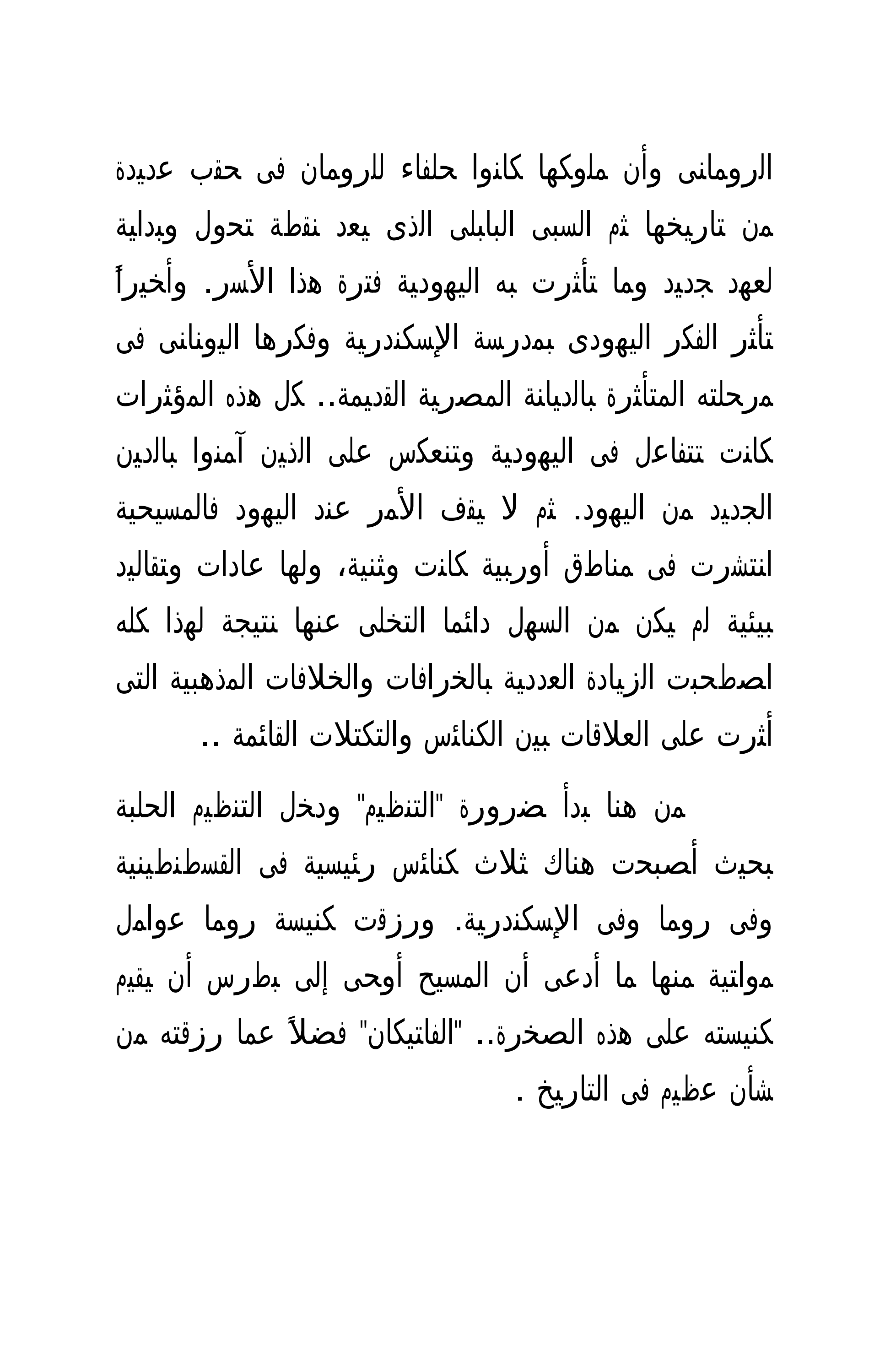
الغليظة حتى فارقوا الحياة؛ ومزقت أشلاء البعض بأن شدت أجسامهم إلى غصون أشجار ثنيت ثنياً مؤقتاً[1] .

كان من الممكن أن تسير المسيحية فى مسالكها الشعبية لولا أن ظهر عاملان غيرا اتجاهها بعيداً تاماً ..

العامل الأول: أن الطابع الحر والتلقائى للمسيحية أدى إلى ظهور العشرات من الشيع والفرق. والتكتلات والتجمعات كل واحدة على ناحية معينة من مجالات العقيدة متأثرة فى هذا بظروفها الخاصة. ويجب أن نذكر أن المسيحية ظهرت فى قلب اليهودية. وأن إتباعها – بما فيها المسيح نفسه – كانوا يهوداً، وأن اليهودية هى أقدم الأديان وأكثرها تأثراً بالمراحل العديدة التى مرت بها من ظهورها فى العراق ثم لواذها بمصر وبقائها بها قرابة أربعمائة سنة تأثرت ولا شك بالوثنية الفرعونية ثم خرجها إلى فلسطين واصطدامها بالأقوام الذين كانوا فيها وما يلى هذا الصدام من مسالمات وعلاقات أدت إلى تأثر اليهود. ثم طغيان النفوذ

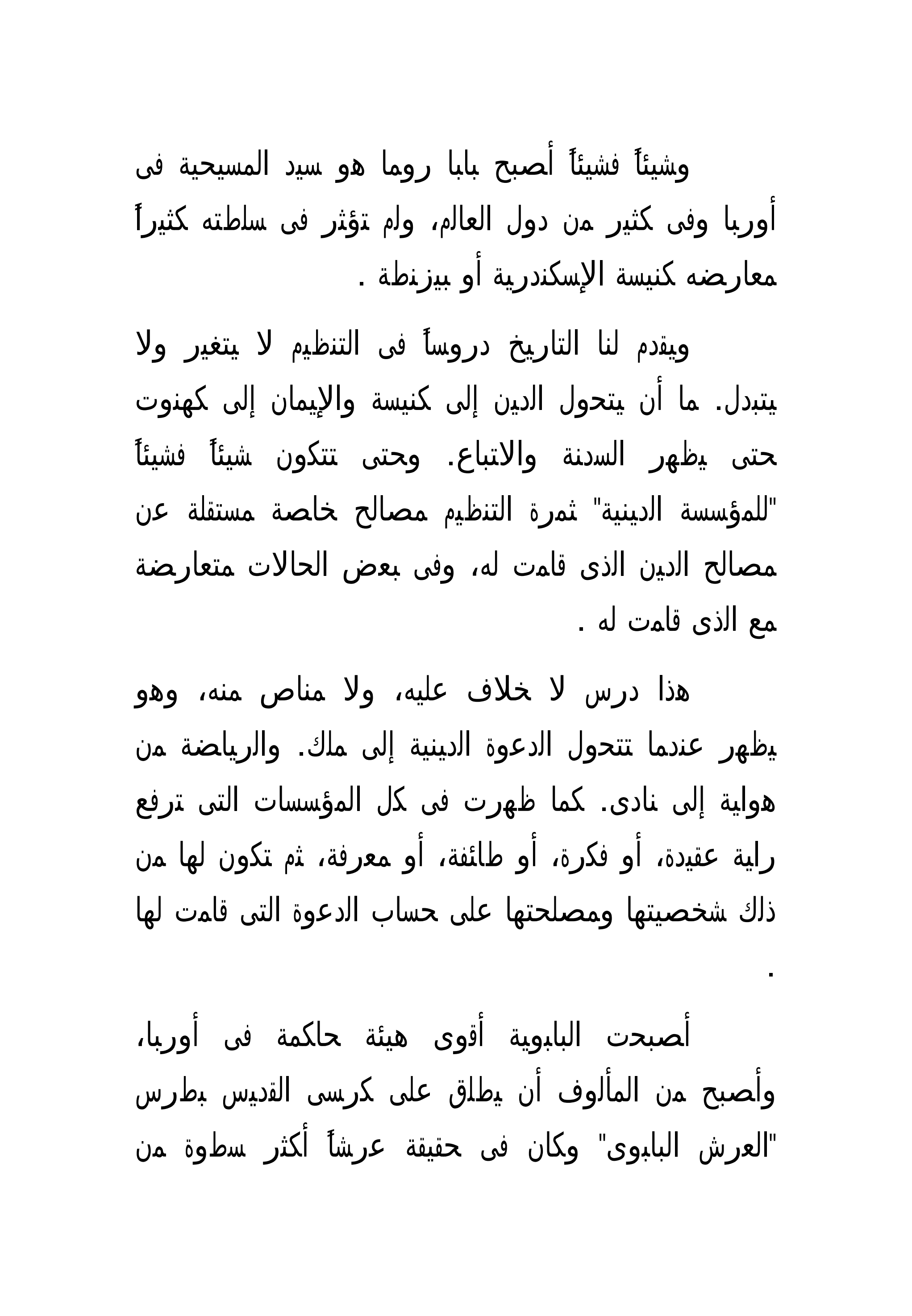
---

(١) "قصة الحضارة" لويل دورانت ص٣٨٠. وستدور الأيام ويعذب ديـوان التفتيش المسيحى مسلمى الأندلس. واليهود والفرق التى لا تؤمن بالكاثوليكيـة إيمانا أعمى. بمثل هذه الأساليب الوحشية، كما سيلى .



الرومانى وأن ملوكها كانوا حلفاء للرومان فى حقب عديدة من تاريخها ثم السبى البابلى الذى يعد نقطة تحول وبداية لعهد جديد وما تأثرت به اليهودية فترة هذا الأسر. وأخيراً تأثر الفكر اليهودى بمدرسة الإسكندرية وفكرها اليونانى فى مرحلته المتأثرة بالديانة المصرية القديمة.. كل هذه المؤثرات كانت تتفاعل فى اليهودية وتنعكس على الذين آمنوا بالدين الجديد من اليهود. ثم لا يقف الأمر عند اليهود فالمسيحية انتشرت فى مناطق أوربية كانت وثنية، ولها عادات وتقاليد بيئية لم يكن من السهل دائما التخلى عنها نتيجة لهذا كله اصطحبت الزيادة العددية بالخرافات والخلافات المذهبية التى أثرت على العلاقات بين الكنائس والتكتلات القائمة ..

من هنا بدأ ضرورة "التنظيم" ودخل التنظيم الحلبة بحيث أصبحت هناك ثلاث كنائس رئيسية فى القسطنطينية وفى روما وفى الإسكندرية. ورزقت كنيسة روما عوامل مواتية منها ما أدعى أن المسيح أوحى إلى بطرس أن يقيم كنيسته على هذه الصخرة.. "الفاتيكان" فضلاً عما رزقته من شأن عظيم فى التاريخ .


وشيئاً فشيئاً أصبح بابا روما هو سيد المسيحية فى أوربا وفى كثير من دول العالم، ولم تؤثر فى سلطته كثيراً معارضه كنيسة الإسكندرية أو بيزنطة .

ويقدم لنا التاريخ دروساً فى التنظيم لا يتغير ولا يتبدل. ما أن يتحول الدين إلى كنيسة والإيمان إلى كهنوت حتى يظهر السدنة والاتباع. وحتى تتكون شيئاً فشيئاً "للمؤسسة الدينية" ثمرة التنظيم مصالح خاصة مستقلة عن مصالح الدين الذى قامت له، وفى بعض الحالات متعارضة مع الذى قامت له .

هذا درس لا خلاف عليه، ولا مناص منه، وهو يظهر عندما تتحول الدعوة الدينية إلى ملك. والرياضة من هواية إلى نادى. كما ظهرت فى كل المؤسسات التى ترفع راية عقيدة، أو فكرة، أو طائفة، أو معرفة، ثم تكون لها من ذلك شخصيتها ومصلحتها على حساب الدعوة التى قامت لها .

أصبحت البابوية أقوى هيئة حاكمة فى أوربا، وأصبح من المألوف أن يطلق على كرسى القديس بطرس "العرش البابوى" وكان فى حقيقة عرشاً أكثر سطوة من

عرش أى ملك آخر، وضمت سلسلة الباباوات عدداً من أكثر الناس فسقا وفحشا ومجونا وأشدهم عتوا واستعلاء وأعظمهم خبثاً ودهاء وجاء وقت أصبح الملوك بمثابة قطع شطرنج فى أيدى البابوات .

وقد يصور مدى ما وصل إليه استعلاء البابوية البيان الذى أصدره البابا أنوسنت الثالث فى أكتوبر سنة ١٠٦٦ .

البابا هو الذى يضع القوانين الجديدة .

كل أمراء الأرض يقبلون قدميه .

البابا مقدس، إنه لا يذنب ولا يأثم .

ليس لأحد أن يحاكم البابا .

إن كل فرد يحتمى بالبابا لا يمكن الحكم عليه .

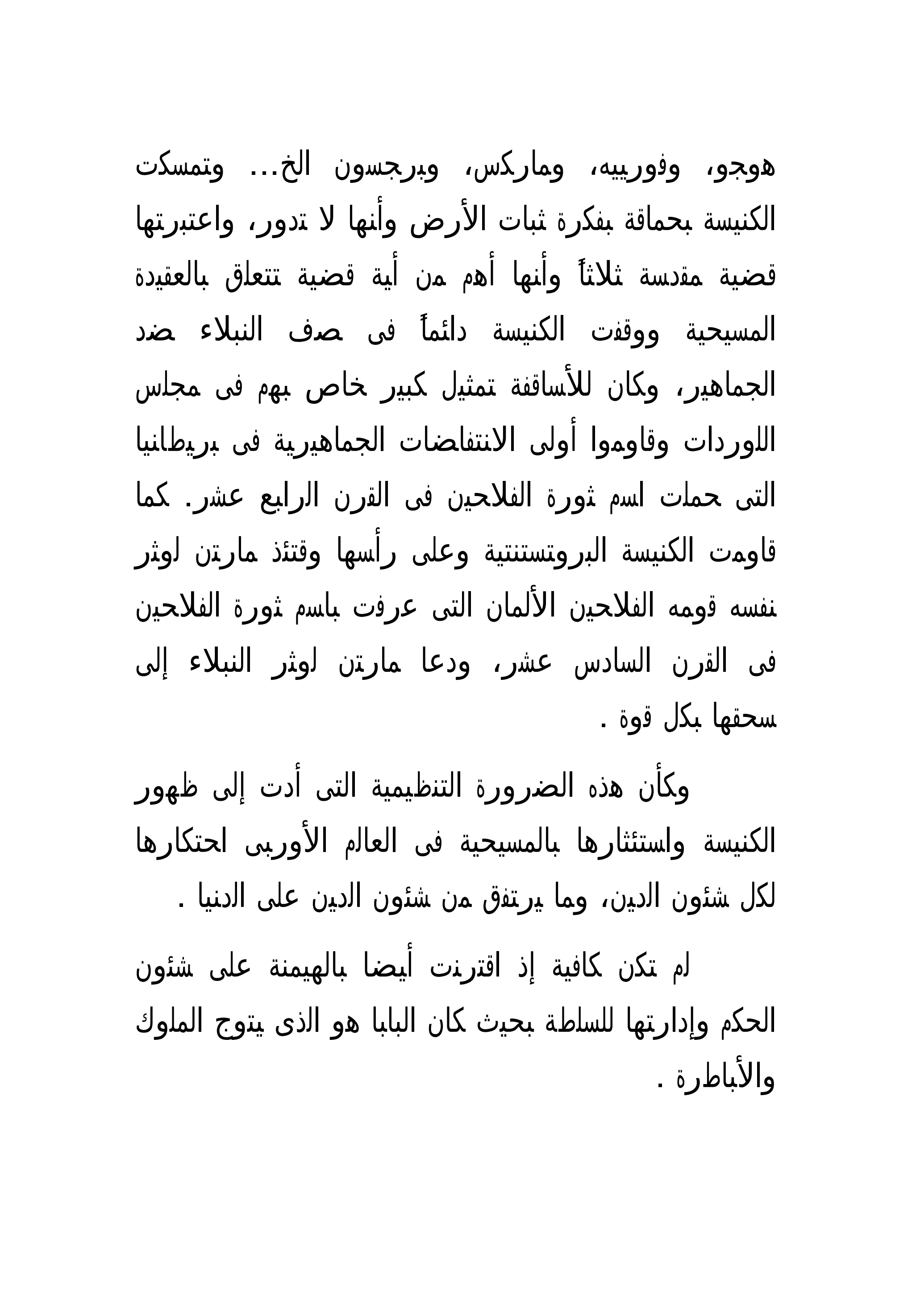
البابا لا يخطئ ولا يمكن أن يخطئ .

فأنظر إلى خليفة السيد المسيح الذى قال "مملكتى ليست فى هذا العالم" والذى أبى أن يتولى قسمة ميراث والذى غسل أقدام المصابين بالبرص.. كيف أصبح يحكم ممالك العالم ويرأس الملوك ويطالب الجميع بتقبيل قدميه !!

.

وبعد إصدار هذا القرار بعشر أعوام جاءت واقعة كانوسا المشهورة عندما تمرد الإمبراطور هنرى الرابع على الكنيسة فأصدر البابا قراراً بحرمانه. فأضطر سنة ١٠٧٧ أن يذهب إلى البابا فى قرية كانوسا حيث كان هناك وأن يقف على بابه ثلاثة أيام قبل أن يسمح له بالمثول بين يديه ويظفر بالصفح عنه .

وناصبت الكنيسة العلوم والفكر العداء. وأقامت وصاية على نشر الكتب وذلك بإصدار ما يسمونه "الجدول **(INDEX LIBRORUM PROHIBTORUM)** الذى تعود فكرته وقراره الأول إلى مجمع نقيه سنة ٣٢٥ عندما حرم كتاب الأسقف أريوس المعنون **THALIA** ويعود تاريخ ظهوره الفعلى مع تطبيقه على ما سبق إلى مجمع ترينتى سنة ١٥٦٤. وهذا الجدول يصدره البابا ويعاد طبعه كل عام، ويتضمن أسماء الكتب التى تحرم الكنيسة طباعتها وتداولها. ويدخل فيها بالإضافة إلى نصوص التوراة والأناجيل غير المعتمدة لديها كتب كثيرة منها كتب لجاليليو، وهوبز، وديكارت، وجان جاك روسو، وفولتير، ومونتسكيو، وكانت، وجوته، وسبينوزا، وجون ستيورات ميل، وفكتور



هوجو، وفورييه، وماركس، وبرجسون الخ... وتمسكت الكنيسة بحماقة بفكرة ثبات الأرض وأنها لا تدور، واعتبرتها قضية مقدسة ثلاثاً وأنها أهم من أية قضية تتعلق بالعقيدة المسيحية ووقفت الكنيسة دائماً فى صف النبلاء ضد الجماهير، وكان للأساقفة تمثيل كبير خاص بهم فى مجلس اللوردات وقاوموا أولى الانتفاضات الجماهيرية فى بريطانيا التى حملت اسم ثورة الفلاحين فى القرن الرابع عشر. كما قاومت الكنيسة البروتستنتية وعلى رأسها وقتئذ مارتن لوثر نفسه قومه الفلاحين الألمان التى عرفت باسم ثورة الفلاحين فى القرن السادس عشر، ودعا مارتن لوثر النبلاء إلى سحقها بكل قوة .

وكأن هذه الضرورة التنظيمية التى أدت إلى ظهور الكنيسة واستئثارها بالمسيحية فى العالم الأوربى احتكارها لكل شئون الدين، وما يرتفق من شئون الدين على الدنيا .

لم تكن كافية إذ اقترنت أيضا بالهيمنة على شئون الحكم وإدارتها للسلطة بحيث كان البابا هو الذى يتوج الملوك والأباطرة .

وقد أثبتنا فيما سبق من فصول كيف أن السلطة أفسدت الخلافة، وأفسدت الاشتراكية، وأخيراً فإنها أفسدت المسيحية .

وألحقت السلطة بالمسيحية وصمتين كانتا أبعد ما تكون عن روح المسيحية الحقه الأولى الحروب الصليبية والثانية محاكم (أو ديوان) التفتيش .

بدأت الحروب الصليبية باجتماع كليرمونت الذى دعا إليه البابا أربان الثانى ١٠٩٥ وطالب المجتمعين نائباً عن الرب قائلاً "لست أنا، ولكن الرب هو الذى يحتكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات الخ...!! وبهذه الكلمات بدأت الحروب الصليبية التى أعلنها البابا باسم الرب، والتى حمل فرسانها علامة الصليب، والتى قاد الحملة الأولى فيها نائب البابا وتوالت الحملات حتى بلغت سبعاً كانت أخراها حملة لويس التاسع على مصر التى هزم فيها وأخذ أسيراً واستمرت طوال المدة منذ أن بدأت سنة ١٠٩٥ حتى استخلاف السلطان قلاوون كل المناطق الإسلامية التى كان الصليبيون قد فتحوها عام ١٢٩١ وعندما فتح الصليبيون فى حملتهم الأولى بيت المقدس اقترفوا المنكرات ولجأ الناس

إلى المسجد الجامع فذبحوهم جميعاً، ودام الذبح فى كل أنحاء المدينة حتى بلغت الدماء سيقان خيلهم وغاصوا حتى الركب فى الدماء وقدر أن سبعين ألفا من الرجال والنساء والأطفال قتلوا ..

كانت هذه الحروب أقوى دليل على استغلال السلطة للمسيحية لتحقيق مآرب سياسية دنيوية خالصة ..

والوصمة الثانية أشنع من الأولى وهى محاكم التفتيش التى كونتها الكنيسة لمحاربة بعض الفئات التى لم تلتزم بالخط الكاثوليكى وأبرزهم "الالبين" نسبة إلى "البى" وهى مدينة صغيرة فى جنوب فرنسا، ثم تقرر تكوينها فى فرنسا وإيطاليا، وألمانيا، ولكن أسوأ صورها كانت فى الأندلس "أسبانيا" حيث تولت إبادة المسلمين بحيث ظهر الشيطان فى شكل أحد أباء الكنيسة وهو تريكويمادا الذى حمل الملكة إيزابيلاً. وقد كان كاهنها الخاص. على أن تستصدر من البابا سكتوس الرابع أمرا بتكوين ديوان التفتيش فى قشتاله سنة ١٤٧٨ وديوان آخر فى أشبيليا سنة ١٤٨٠م

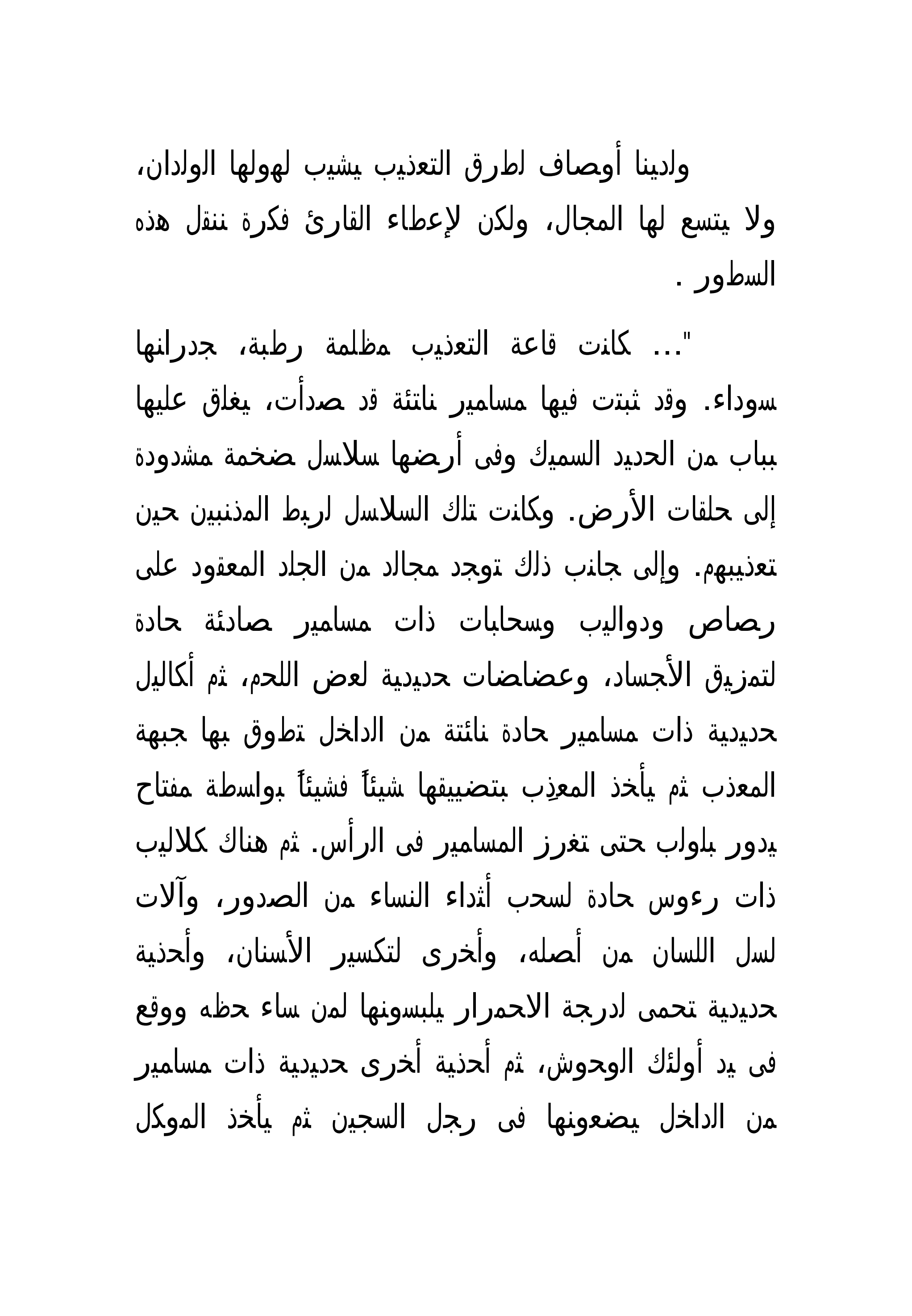
وقيل أن ضحايا محاكم التفتيش منذ أن أسست سنة ١٣٣٣ لملاحقة الألبيين حتى ألغيت نهائيا سنة ١٨٣٥ وصل إلى تسعة ملايين[١] .

وقد رأيت، وأنا أتصفح كتاباً عن تاريخ أوربا فى الشرق الأوسط صورة أحد المخالفين وقد ربطوه من معصميه ووضعوا تحت إبطيه شمعتين متقدتين بينما جلس راهب يقرأ الإنجيل ليساعده على "خلاص" روحه ! .

وهذه المحاكم هى التى حكمت على جو ردالو برونو بالإعدام حرقاً سنة ١٥٩٨ وهى أيضاً التى تولت تعذيب جاليليو رغم كبر سنه إذ "علق الحديد بعنقه وتولى الجلادون تعذيبه ولما مثل أمام هيئة المحكمة جئ به عريانا حافى القدمين فربط إلى إله خشبية وجلد وألبس فى رجله حذاء حديدياً محميا له مسامير" فإذا كانت هذه هى طريقة تعذيب رجل مثل جاليليو، فلنا أن نتصور تعذيب المسلمين الذى عجزوا عن مغادرة أسبانيا والنجاة بجلودهم .

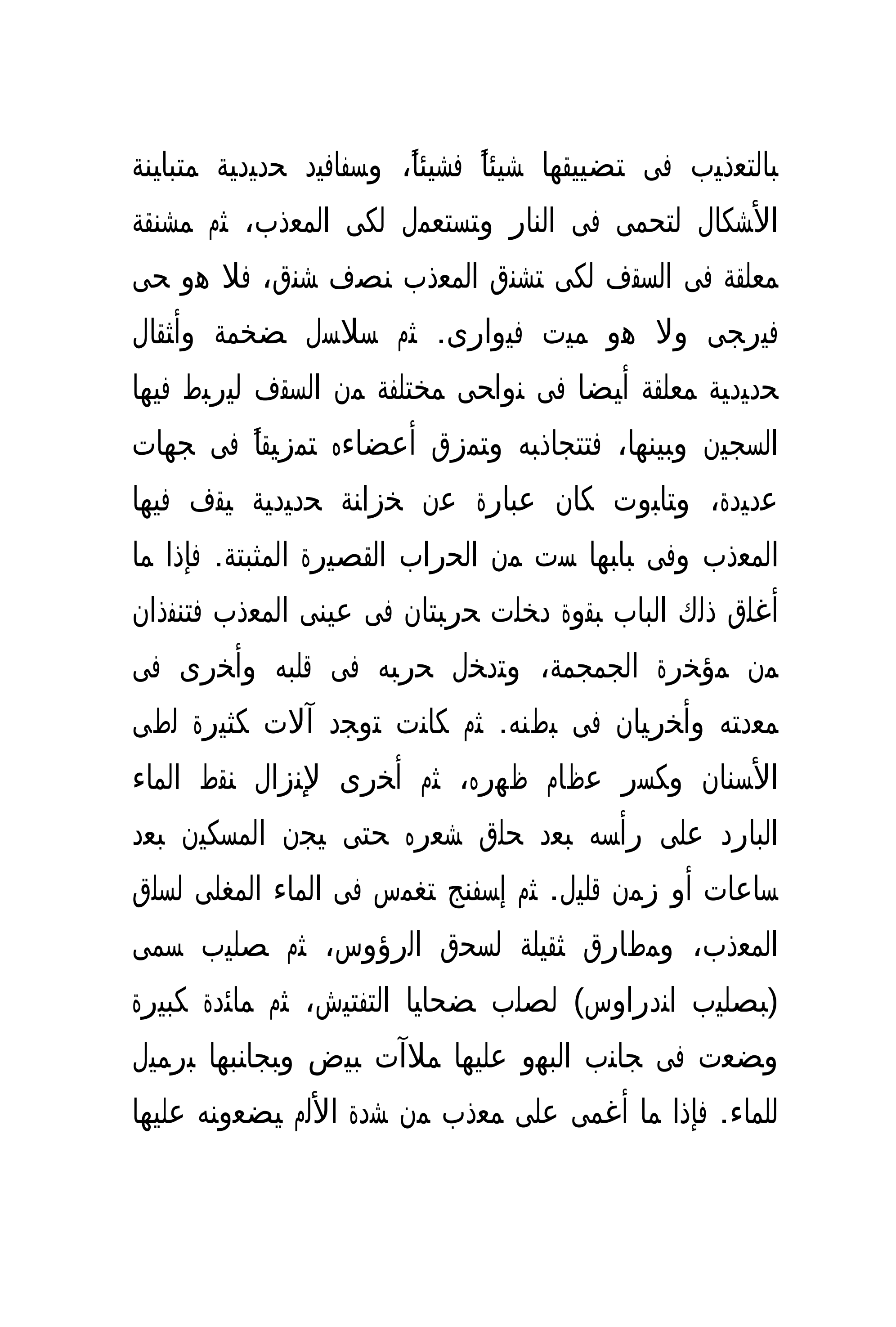
---

(١) محاكم التفتيش "تأليف الدكتور على مظهر" ص٥٠. مطبعة نصار السنة المحمدية ١٩٤٧ القاهرة .



ولدينا أوصاف لطرق التعذيب يشيب لهولها الولدان، ولا يتسع لها المجال، ولكن لإعطاء القارئ فكرة ننقل هذه السطور .

"... كانت قاعة التعذيب مظلمة رطبة، جدرانها سوداء. وقد ثبتت فيها مسامير ناتئة قد صدأت، يغلق عليها بباب من الحديد السميك وفى أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات الأرض. وكانت تلك السلاسل لربط المذنبين حين تعذيبهم. وإلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص ودواليب وسحابات ذات مسامير صادئة حادة لتمزيق الأجساد، وعضاضات حديدية لعض اللحم، ثم أكاليل حديدية ذات مسامير حادة نائتة من الداخل تطوق بها جبهة المعذب ثم يأخذ المعذِب بتضييقها شيئاً فشيئاً بواسطة مفتاح يدور بلولب حتى تغرز المسامير فى الرأس. ثم هناك كلاليب ذات رءوس حادة لسحب أثداء النساء من الصدور، وآلات لسل اللسان من أصله، وأخرى لتكسير الأسنان، وأحذية حديدية تحمى لدرجة الاحمرار يلبسونها لمن ساء حظه ووقع فى يد أولئك الوحوش، ثم أحذية أخرى حديدية ذات مسامير من الداخل يضعونها فى رجل السجين ثم يأخذ الموكل



بالتعذيب فى تضييقها شيئاً فشيئاً، وسفافيد حديدية متباينة الأشكال لتحمى فى النار وتستعمل لكى المعذب، ثم مشنقة معلقة فى السقف لكى تشنق المعذب نصف شنق، فلا هو حى فيرجى ولا هو ميت فيوارى. ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة أيضا فى نواحى مختلفة من السقف ليربط فيها السجين وبينها، فتتجاذبه وتمزق أعضاءه تمزيقاً فى جهات عديدة، وتابوت كان عبارة عن خزانة حديدية يقف فيها المعذب وفى بابها ست من الحراب القصيرة المثبتة. فإذا ما أغلق ذلك الباب بقوة دخلت حربتان فى عينى المعذب فتنفذان من مؤخرة الجمجمة، وتدخل حربه فى قلبه وأخرى فى معدته وأخريان فى بطنه. ثم كانت توجد آلات كثيرة لطى الأسنان وكسر عظام ظهره، ثم أخرى لإنزال نقط الماء البارد على رأسه بعد حلق شعره حتى يجن المسكين بعد ساعات أو زمن قليل. ثم إسفنج تغمس فى الماء المغلى لسلق المعذب، ومطارق ثقيلة لسحق الرؤوس، ثم صليب سمى (بصليب اندراوس) لصلب ضحايا التفتيش، ثم مائدة كبيرة وضعت فى جانب البهو عليها ملاآت بيض وبجانبها برميل للماء. فإذا ما أغمى على معذب من شدة الألم يضعونه عليها

ويلفونه بملاءة تبل بالماء البارد لإنعاشه حتى إذا ما أفاق أعادوا تعذيبه .

وكان يوجد فى وسط القاعة (الجحش الخشبى) فكان يربط السجين إليه لإزهاق روحه بواسطة التضييق على رئتيه، فكانوا يطوقون صدوه بآلة حديدية ثم يأخذون فى تضييقها بواسطة لوالب حتى تنقطع أنفاس المعذب المسكين .

وكانت أرض قاعة العذاب من خشب قديم قد هرأ ونخر السوس فى أجزائه تتصاعد منه رائحة كريهة. أما المكان الذى كان يجلس فيه رجال التفتيش فكان مملوءاً بالصلبان وبالكتابة التى تشاهد عادة على القبور يقصد بذلك إلقاء الرعب فى قلوب المعذبين، وكانت تشاهد دماء من عذبوا من قبل عليها وكثيراً ما تركت جثث فى زوايا القاعة يقع عليها الذباب ويتصاعد منها كريه الروائح ليزيد كل ذلك فى خوف المساكين الذين وقفوا أمام محاكم التفتيش. وقد أحاط بهم رهبان فى ثياب سوداء وأغطية سودا تغطى وجوههم ورؤوسهم لا تظهر منها إلا عيونهم وقد وقفوا وفى أيديهم كتب صلاة يرددون منها أنغام محزنة ومخيفة وبأصوات كلها الخشونة .

وكان بعض هؤلاء الرهبان يجلس إلى جوار رئيس المحكمة يمدونه بالنصائح والإرشادات فى مسائل التعذيب والحكم على المضطهدين. وكان من بين هؤلاء القوم راهب يحمل بيده صليبا رسمت عليه صورة المسيح مصلوبا يأمر هذا الراهب المعذبين بإدامة النظر إليه .

وكان يحضر التعذيب طبيب، عمله أن يفحص كل معذب حتى إذا أغمى عليه أمر بإيقاف التعذيب وإنعاش المسكين بشراب ما ليتحمل العذاب فيعاد تعذيبه من جديد .

وكان يحظر على المعذب إبداء أى حركة أو صراخ أو أنين. وكان يكلف بأن لا يرفع صوته .

وقد اخترعوا لذلك آلة حديدية كانوا يضعونها فى فم المعذب المسكين عوضا عن المناديل التى توضع لمنع الصياح. وقد جعلوا فى تلك الآلة مربعا على هيئة الصليب ليتنفس منه المعذب ولا يمكنه الصراخ منه. ومن المستحيل عليه أن لا يصرخ ولا يتألم وكيف يمكن ويتسنى أن يعذب

مسكين مثل ذلك العذاب ولا يبدى حراكا أو يصيح من الألم الذى يمزق جـلده ؟![1] .

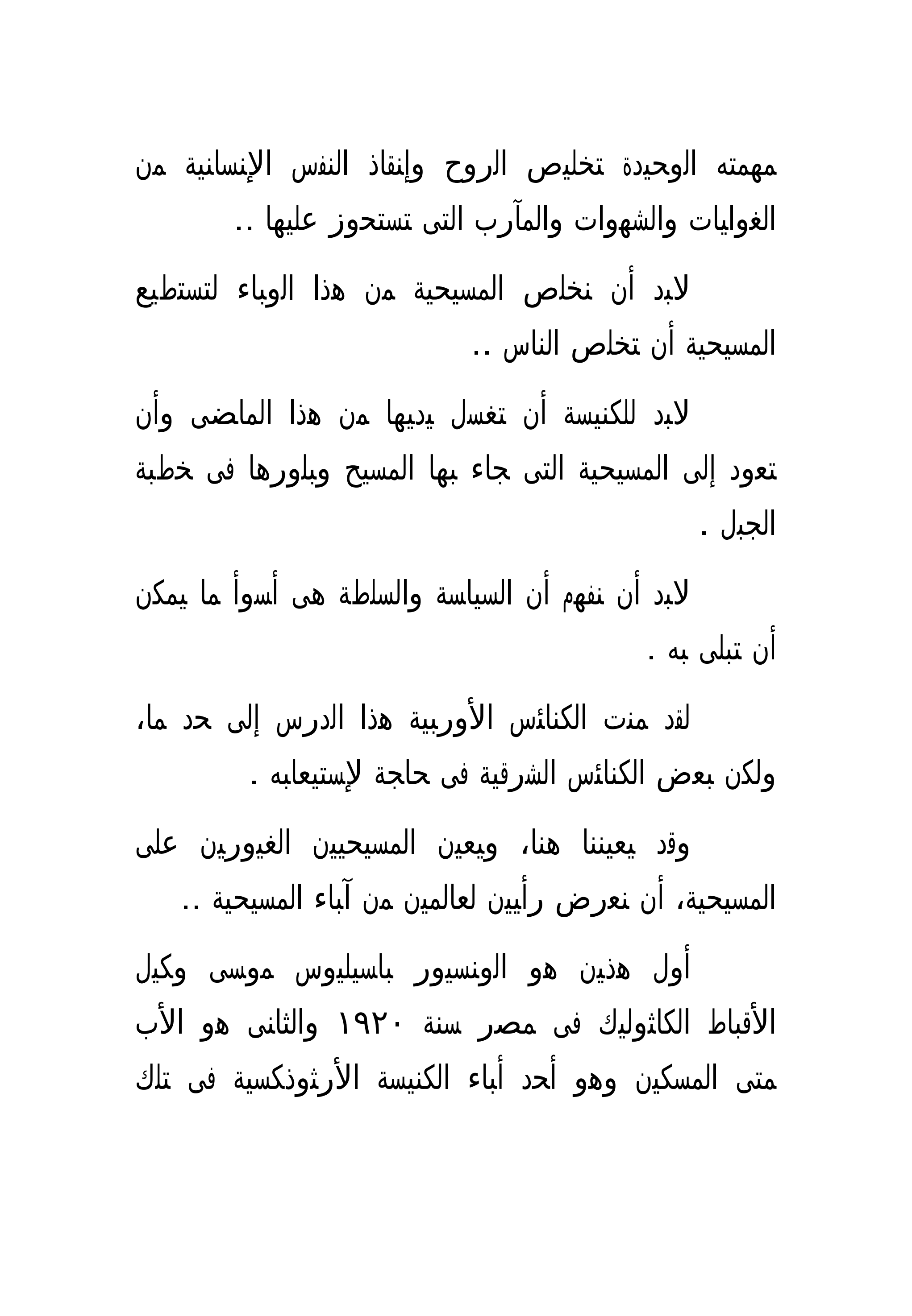
ما كان أغنى المسيحية المسيحية من أن ترتكب تلك الموبقات باسمها وبدعوى حمايتها ولكنها السلطة التى تمسخ نفوس الذين يتلبسون بها .

كانت تلك هى بداية الانحراف الذى زج بالمسيحية فى غمار السلطة والحكم والسياسة.. التى أفسدتها تماماً وحولتها إلى محكمة تفتيش وجعلتها تزجى وتعبئ الجنود لإثارة الحروب.. ثم دخلت فى صراع مع السلطة هزمت فيه لأنها خلطت ما بين الدين والسياسة وجعلها ذلك لتعود لمهمتها الأصلية .

وكل واحد يقرأ موعظة الجبل، التى هى دستور الحياة المسيحية ومنهجها لا يخالجه شك فى أن المسيح استبعد تماماً الحكم والسياسة وقال "مملكتى لست فى هذا العالم" ورفض حتى أن يقسم الإرث بين أفراد عائلته وكانت

---

(١) المرجع السابق ص٧٩ إلى ص٨١ .



مهمته الوحيدة تخليص الروح وإنقاذ النفس الإنسانية من الغوايات والشهوات والمآرب التى تستحوز عليها ..

لابد أن نخلص المسيحية من هذا الوباء لتستطيع المسيحية أن تخلص الناس ..

لابد للكنيسة أن تغسل يديها من هذا الماضى وأن تعود إلى المسيحية التى جاء بها المسيح وبلورها فى خطبة الجبل .

لابد أن نفهم أن السياسة والسلطة هى أسوأ ما يمكن أن تبلى به .

لقد منت الكنائس الأوربية هذا الدرس إلى حد ما، ولكن بعض الكنائس الشرقية فى حاجة لإستيعابه .

وقد يعيننا هنا، ويعين المسيحيين الغيورين على المسيحية، أن نعرض رأيين لعالمين من آباء المسيحية ..

أول هذين هو المونسيور باسيليوس موسى وكيل الأقباط الكاثوليك فى مصر سنة ١٩٢٠ والثانى هو الأب متى المسكين وهو أحد أباء الكنيسة الأرثوذكسية فى تلك

السنوات المريجة التى ارتفعت فيها دعوى "الفتنة الطائفية" وحدث صدام ما بين الكنيسة والسلطة

قال الونسيتور باسيليوس موسى[1] إن المسيحى عليه أن يخدم وطنه بإخلاص حتى لو لم يكن هذا الوطن مسيحى ما دام لا يجير على تعبير عقيدته أو عبادة إلهه أخرى لأن الوطنية شىء.. والدين شىء آخر واستشهد بسلوك المسيحيين فى عهد الرومان، فإنهم قالوا " أيتها الدولة الرومانية إننا حقيقة لا نعبد آلهتك ولا يمكننا أن نعبدها، لكن أعلمى أننا رغما عن ذلك نحن أخاص الناس اك ولاء لأن الدين غير الدولة، الدين هو من اختصاصات الضمير، أما الدولة فإنها إما نتيجة ظروف جغرافية طبيعية، وإما نتيجة الانتصارات، فلا دخل لها فيما يمس الضمير .

ويوجه المؤلف النظر إلى أنه رغم زيادة عدد المسيحيين وانتشار المسيحية فى مختاف مستويات الناس ومسالك الحياة، فلم يخطر ببال هذه الجموع، التى لا عداد لها

---

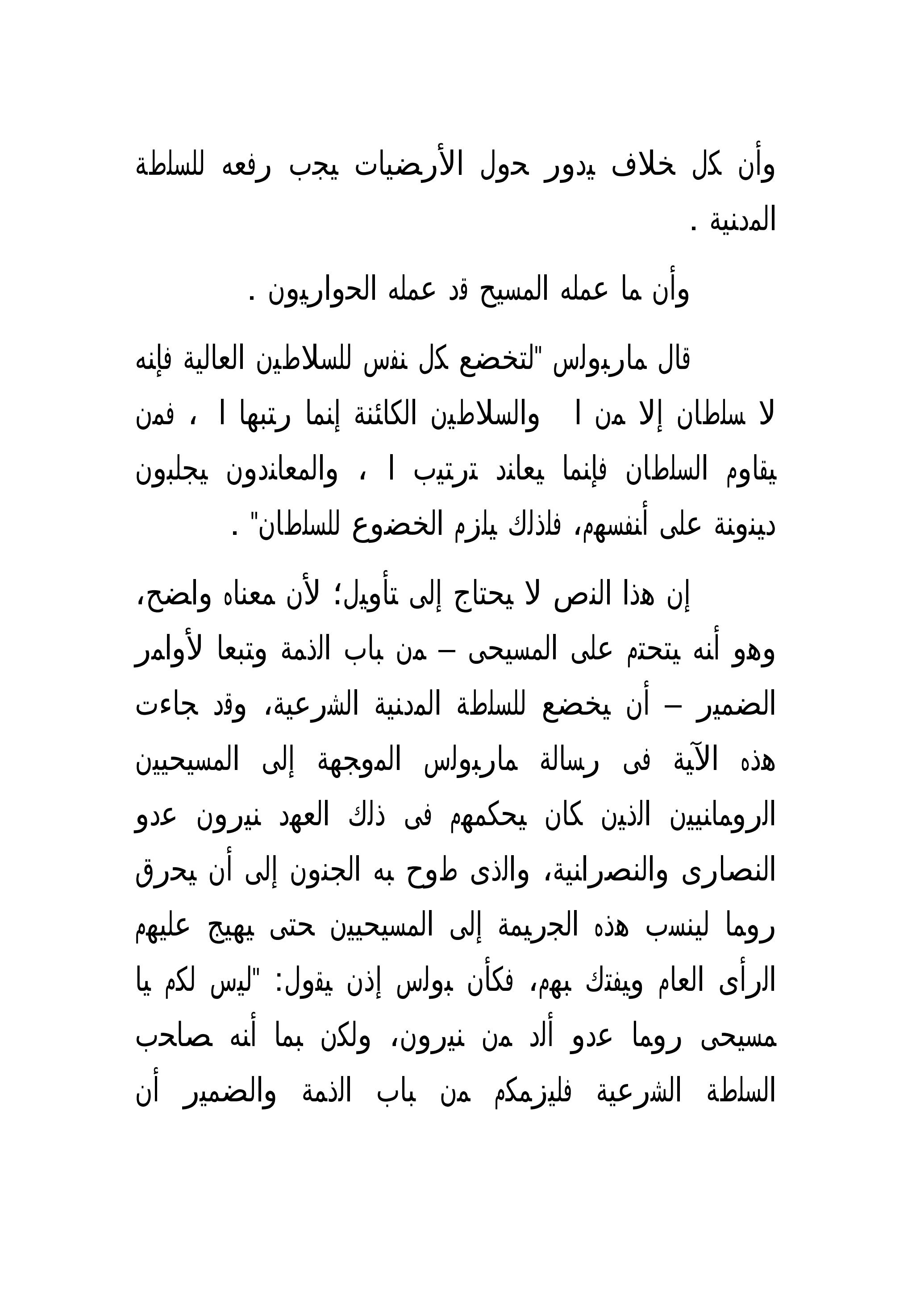
(١) أنظر كتيب "الدين والوطنية" الذى ألفه الونسنيور باسيليوس موسى سـنة ١٩٢٠ وأقر طبعه مكسيموس صدفاوى مدير رسـولى بطريركيـة الأقبـاط الكاثوليك "لفائدة الشعبية المسيحية" .

أن تثور يوما من الأيام فى وجه الدولة أو وجه ملوكها، بل صبر المسيحيون على الاضطهاد وظلوا ثلاثة أجيال تُسفك دماؤهم عن طيب خاطر، وهذا دليل قطعى على أنهم مع تمسكهم الشديد بالنصرانية كانوا موالين لملوكهم فى نفس الوقت والزمن الذى كان هؤلاء الملوك يوقعون بهم كل أصناف الأذى والتعذيب .

وقد استشهد المؤلف بحقيقة أن التجنيد فى الجيش الرومانى لم يكن إجباريا ولكن عددا كبيراً من المسيحيين تطوعوا فى الجيش الرومانى وحاربوا تحت ألوية "النسر" ببسالة مع تمسكهم بدينهم، وأورد المؤلف حالات عديدة لفرق أو مجموعات من الجنود المسيحيين أراد الإمبراطور أو القادة إجبارهم على تقديم الذبائح للآلهة الرومانية ولكنهم رفضوا وتعرضوا للفناء وكان لسان حالهم كما ذكر أحد إفرادهم "حضرت سبع مواقع شهيرة لم أتقهقر فى واحدة منها وقت القتال بل كنت مثال الهمة والشجاعة كما يشهد رؤسائى فهل تظن أنى بعدما قمت بواجبى نحو الدولة بذمة وأمانة أخون واجبى الأسمى نحو ا " .

وفى كل هذه الحالات لم يدفع المسيحيون محاولة الرومان بالقوة أو يدافعوا عن أنفسهم بحد السلاح، رغم أنهم كانوا مدججين به ومحنكين فى استعماله، ولكنهم آثروا أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا لأعدائهم، وهذه الوقائع كلها تدل على أن "المسيحى خادم أمين لدولته كما أنه خادم أمين لربه، وأن الدين والوطن هما شيئان متمايزان من يقوم بفروضهما لا يقبل أن يخون أحدهما ولو اضطره الأمر أن يسفك دمه" .

ويعيد المؤلف هذا الموقف على أساس مبدئى هو "اترك ما لقيصر لقيصر وما " وأن المسيح حقق فى حياته ذلك بدفعه الجباية عندما طولب بها، ودفع الجباية إقرار واعتراف بسلطان من يطلب الجباية، ولما سأله الفريسيون هل يلزم دفع الجزية أم لا؟ أجابهم بالإيجاب وأضاف إلى ذلك الآية الشهيرة التى تدل صراحة على التمييز بين السلطة الدينية والسلطة المدنية وهى "أوفوا ما لقيصر لقيصر وما " ثم لما قصده أحد الناس وقال له يا معلم قل لأخى يقاسمنى الميراث "أجابه يسوع" قائلاً: "يا رجل من أقامنى عليكم قاضيا أو مقسما"؟ فصرح بكلامه هذا بأنه لم يأت إلى العالم ليكون ملكا أرضيا بل ملكا روحيا،



وأن كل خلاف يدور حول الأرضيات يجب رفعه للسلطة المدنية .

وأن ما عمله المسيح قد عمله الحواريون .

قال ماربولس "لتخضع كل نفس للسلاطين العالية فإنه لا سلطان إلا من ا والسلاطين الكائنة إنما رتبها ا ، فمن يقاوم السلطان فإنما يعاند ترتيب ا ، والمعاندون يجلبون دينونة على أنفسهم، فلذلك يلزم الخضوع للسلطان" .

إن هذا النص لا يحتاج إلى تأويل؛ لأن معناه واضح، وهو أنه يتحتم على المسيحى – من باب الذمة وتبعا لأوامر الضمير – أن يخضع للسلطة المدنية الشرعية، وقد جاءت هذه الآية فى رسالة ماربولس الموجهة إلى المسيحيين الرومانيين الذين كان يحكمهم فى ذلك العهد نيرون عدو النصارى والنصرانية، والذى طوح به الجنون إلى أن يحرق روما لينسب هذه الجريمة إلى المسيحيين حتى يهيج عليهم الرأى العام ويفتك بهم، فكأن بولس إذن يقول: "ليس لكم يا مسيحى روما عدو ألد من نيرون، ولكن بما أنه صاحب السلطة الشرعية فليزمكم من باب الذمة والضمير أن

تخضعوا له وقد أمر ماربولس الأسقف طيطس أن يذكر الشعب بوجوب الخضوع للرئاسات والسلاطين" .

وما علمه بولس فقد علمه بطرس رأس الحواريين، إذ قال: "فأخضعوا إذن لكل خليفة لها عليكم سلطة شرعية، وأما للملك فكالأعلى (أى مثل الأعلى) وأما للولاة فكالمراسلين من قبله للانتقام من فاعلى الشر وللثناء على فاعلى الخير" .

ويستطرد المؤلف .

"فهل يوجد شك بعد كل هذه البراهين الجلية والأدلة القطعية فى ان حقيقة التمييز بين الدين والوطن هى من أصول المسيحية؟ " .

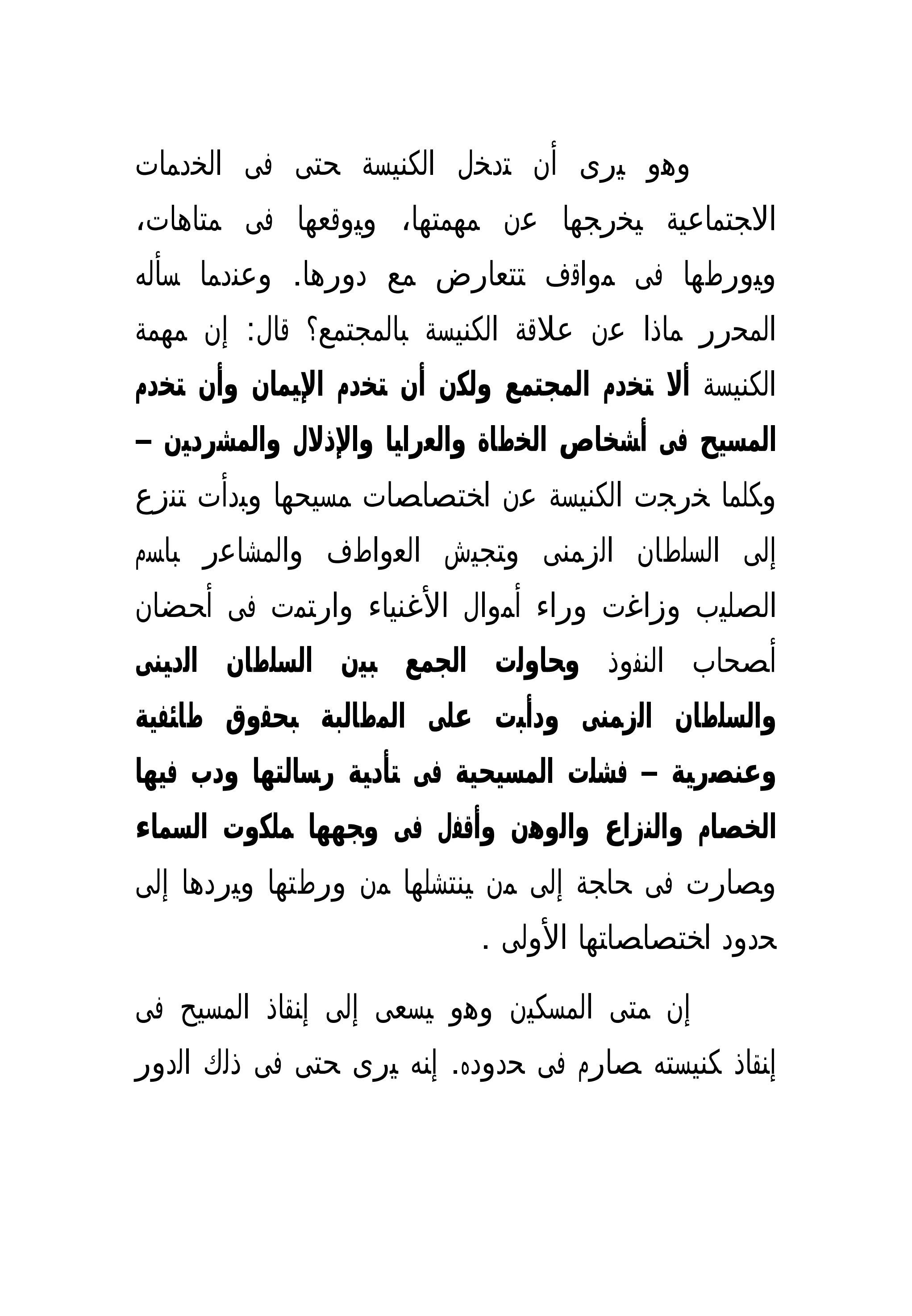
وقد علم الرسل أنه يلزم الولاء الكلى للسلطة المدنية، وأمر بولس الرسول "أن تقام تضرعات وصلوات وتوسلات وتشكرات من أجل جميع الناس، من أجل الملوك وكل ذى منصب، لنقضى حياة مطمئنة ذات دعة فى كل تقوى وعفاف فإن هذا حسن ومقبول لدى ا مخلصنا" .

وعملاً بأمر الرسول لم تزل الكنيسة منذ نشأتها تطلب إلى ا فى صلواتها الرسمية أن يحفظ الملوك فى سلام، ويوطد بينهم الاتحاد والائتلاف، ولو كان هؤلاء الملوك غرباء عن النصرانية أو أعداء لها. ومن الجيل الأول إلى يومنا هذا ما فتئت الكنيسة القبطية مثلا تصلى كل يوم فى أثناء القداس الإلهى (وهو أسمى عمل دينى تعمله) من أجل الملوك والجنود والرؤساء والوزراء مع أنه منذ الجيل السابع لم يحكم مصر إلا حكام غير مسيحيين والبعض منهم أساءوا إليهم وعاملوهم بمعاملة لو ذكرت لما شكرت" .

والثانى من هذين هو الراهب المتجرد – متى المسكين – كبير رهبان دير وادى النطرون. الذى كان أشد صراحة ووضوحا فى إظهار أن الكنيسة المسيحية لها مهمة واضحة يجب ألا تتجاوزها أبداً، وهذه المهمة هى **تخليص النفوس بالبشارة المفرحة وكلمات الرب** عندما أجرت معه جريدة الأهرام القاهرية حديثا طويلاً عرض فيه هذه الفكرة[(١)]

---

(١) جريدة الأهرام فى ١٩٨٠/٤/١٧ ص٣ "قـراءة فـى أوراق الأب متـى المسكين" الأستاذ مكرم محمد أحمد .



وهو يرى أن تدخل الكنيسة حتى فى الخدمات الاجتماعية يخرجها عن مهمتها، ويوقعها فى متاهات، ويورطها فى مواقف تتعارض مع دورها. وعندما سأله المحرر ماذا عن علاقة الكنيسة بالمجتمع؟ قال: إن مهمة الكنيسة **ألا تخدم المجتمع ولكن أن تخدم الإيمان وأن تخدم المسيح فى أشخاص الخطاة والعرايا والإذلال والمشردين –** وكلما خرجت الكنيسة عن اختصاصات مسيحها وبدأت تنزع إلى السلطان الزمنى وتجيش العواطف والمشاعر باسم الصليب وزاغت وراء أموال الأغنياء وارتمت فى أحضان أصحاب النفوذ **وحاولت الجمع بين السلطان الدينى والسلطان الزمنى ودأبت على المطالبة بحقوق طائفية وعنصرية – فشلت المسيحية فى تأدية رسالتها ودب فيها الخصام والنزاع والوهن وأقفل فى وجهها ملكوت السماء** وصارت فى حاجة إلى من ينتشلها من ورطتها ويردها إلى حدود اختصاصاتها الأولى .

إن متى المسكين وهو يسعى إلى إنقاذ المسيح فى إنقاذ كنيسته صارم فى حدوده. إنه يرى حتى فى ذلك الدور

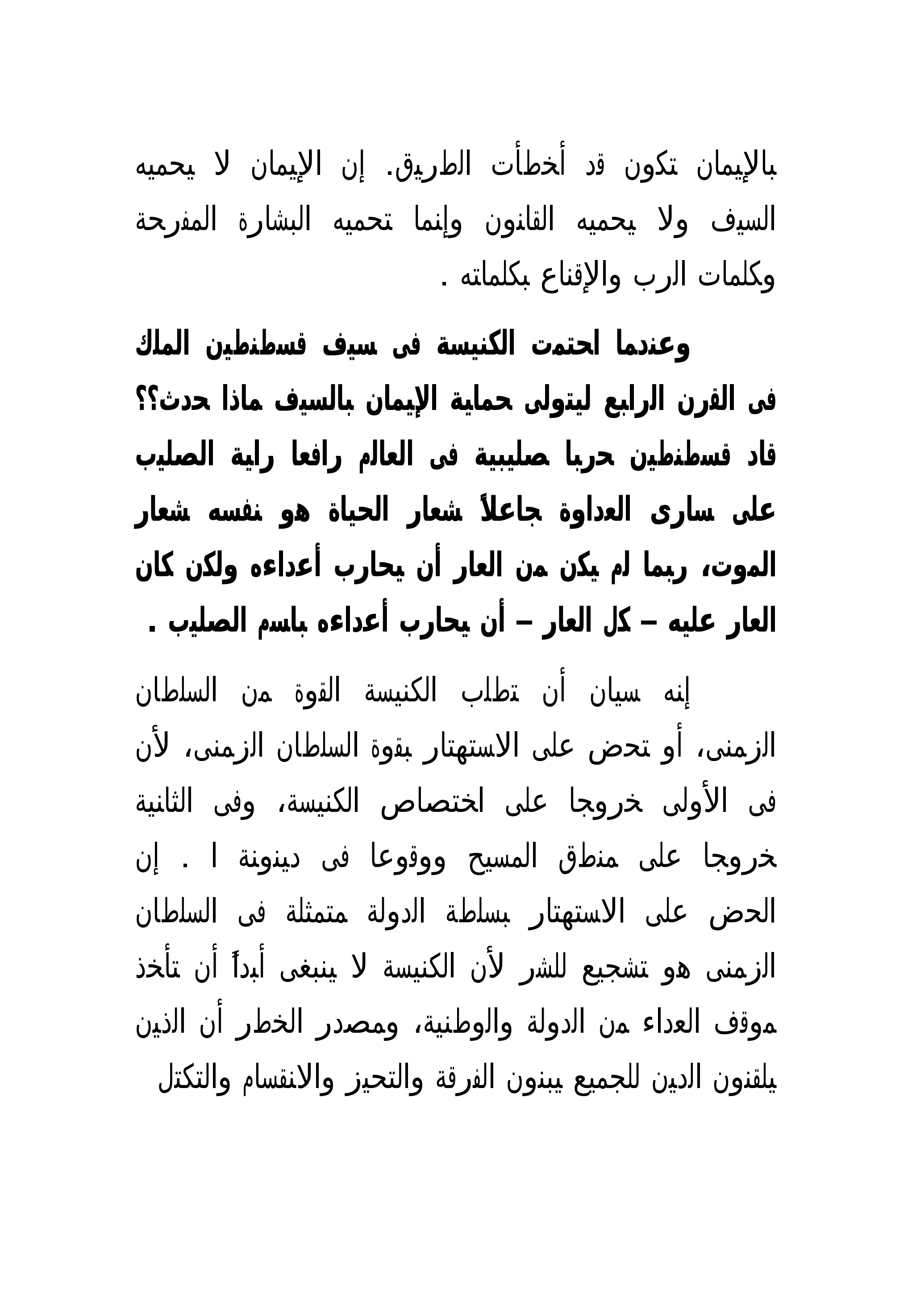
الذى تؤديه الكنيسة تحت عناوين من الخدمة الاجتماعية وغيرها خروجا عن دور الكنيسة .

لماذا ؟ .

لأن الخدمة الاجتماعية – هكذا قول متى المسكين – إذ تشمل رعاية الشباب اجتماعيا وتوجيههم وتثقيف العمال وفحص أحوالهم ومطالبهم والعناية بالطلبة وإقامة النوادى والمعسكرات وترتيب المؤتمرات لبحث المشاكل الداخلية والخارجية للشباب بل وإقامة المستشفيات والملاجئ تدخل فى اختصاص نظام الحكم، فإذا علمنا أن أى نظام للحكم لابد أن يكون له اتجاهه الخاص وخططه فى التوجيه والرعاية الاجتماعية لجميع ما عنده من الفئات فإنه يتحتم فى جميع الأحوال أن تكون الكنيسة دارسة لنظام الحكم حتى يكون مخطط الكنيسة الاجتماعى موافقا ومطابقا لمخطط الحكومة، وإلا فالصدام بين الكنيسة والدولة أمر لا مفر منه

إن أردنا الاستفاضة يجيبنا متى المسكين قائلاً :

إذا عجزت الكنيسة عن أن تضبط الإيمان بالإقناع والمحبة وهرعت إلى الملوك والرؤساء لتستصدر منشوراً


بالإيمان تكون قد أخطأت الطريق. إن الإيمان لا يحميه السيف ولا يحميه القانون وإنما تحميه البشارة المفرحة وكلمات الرب والإقناع بكلماته .

وعندما احتمت الكنيسة فى سيف قسطنطين الملك فى القرن الرابع ليتولى حماية الإيمان بالسيف ماذا حدث؟؟ قاد قسطنطين حربا صليبية فى العالم رافعا راية الصليب على سارى العداوة جاعلاً شعار الحياة هو نفسه شعار الموت، ربما لم يكن من العار أن يحارب أعداءه ولكن كان العار عليه – كل العار – أن يحارب أعداءه باسم الصليب .

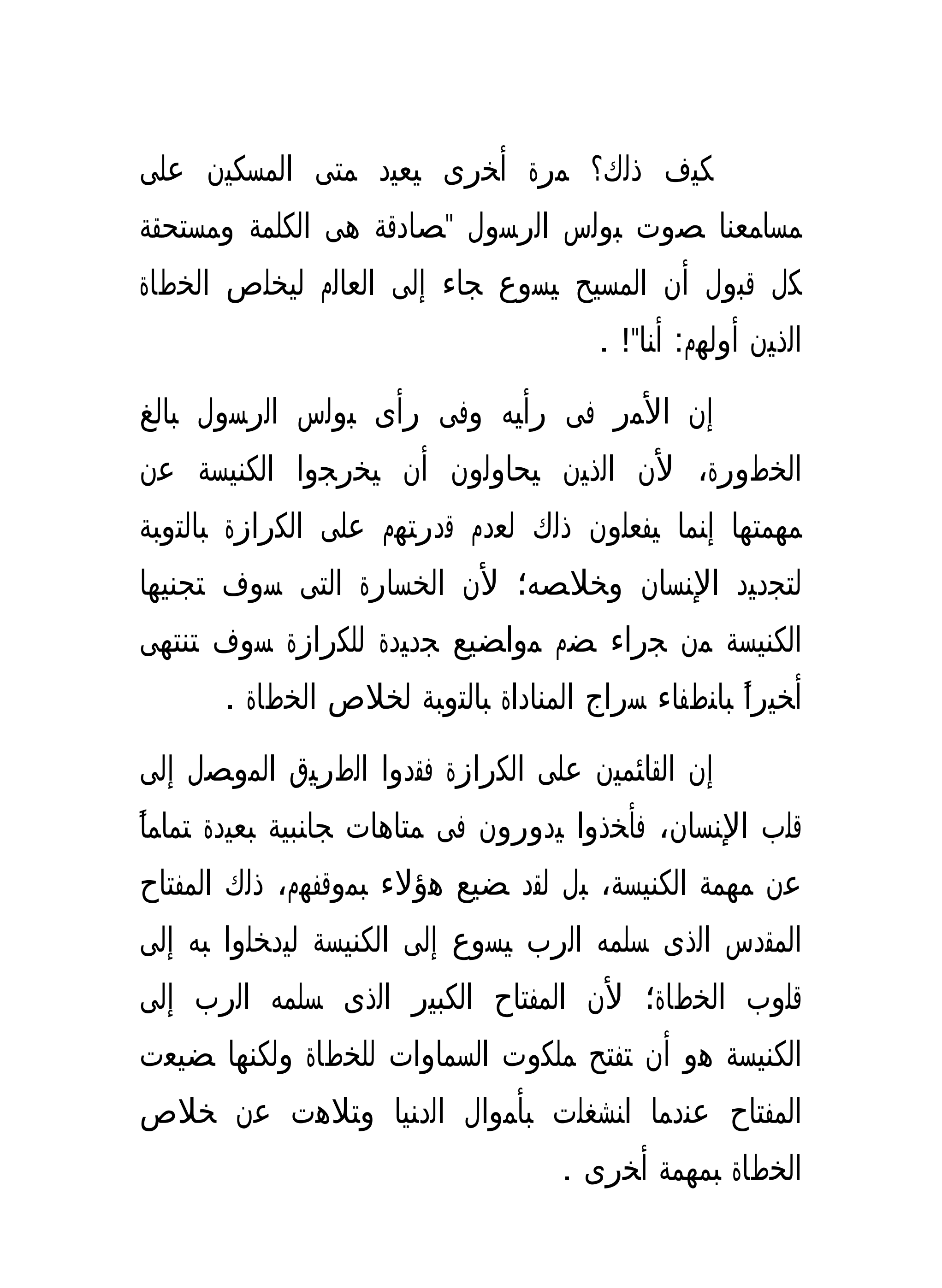
إنه سيان أن تطلب الكنيسة القوة من السلطان الزمنى، أو تحض على الاستهتار بقوة السلطان الزمنى، لأن فى الأولى خروجا على اختصاص الكنيسة، وفى الثانية خروجا على منطق المسيح ووقوعا فى دينونة ا . إن الحض على الاستهتار بسلطة الدولة متمثلة فى السلطان الزمنى هو تشجيع للشر لأن الكنيسة لا ينبغى أبداً أن تأخذ موقف العداء من الدولة والوطنية، ومصدر الخطر أن الذين يلقنون الدين للجميع يبنون الفرقة والتحيز والانقسام والتكتل

إن يسوع المسيح يقول ليس سلطان إلا من ا . كما أنه يقول أعطوا الجميع حقوقهم، الخوف لمن له الخوف، والسلطان لمن له السلطان، والإكرام لمن له الإكرام، وبالتالى فإن **تصرفات المواطن المسيحى فيما يختص بأمور السلطان الزمنى لا تقع تحت سلطان الكنيسة،** فالكنيسة لا تستطيع ولا ينبغى لها أن تستطيع أن تلفت نظر وزير أو مسئول مسيحى فى تصرفاته الحكومية لأنه ليس تحت سلطانها، الكنيسة فقط تسأل المواطن المسيحى فيما يختص بإيمانه وعقيدته وسلوكه الروحى، إن ذلك يؤدى إلى أن تكون حرية المواطن المسيحى مكفولة فى التصرف وإبداء الرأى والاشتراك فى كل ما يخص وطنه فى كل الأمور دون أن تكون الكنيسة مسئولة عن تصرفه ودون أن تكون الكنيسة مسئولة عن تقصير أبنائها فى أدائهم الواجب الوطنى، **ودون أن توحى الكنيسة لأبنائها بالتزام خطة معينة بسلوك تصرف معين تجاه الدولة حتى لا تكون الكنيسة مسئولة أمام السلطان الزمنى عن تصرف زمنى، لأن مسئولية الكنيسة فقط أمام المسيح وهى مسئولة فقط عن تصرفها الروحى .**

وباختصار يقول متى المسكين: إن وطنية المسيحى وكل ما يتعلق بها من تصرفات خاصة وعامة سواء فى الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة إنما تنبع من كيان المواطن لا من كيان الكنيسة، لأن الدولة هى المسئولة فى النهاية عن وطنية المواطن المسيحى لا الكنيسة أو رجال الدين .

إذا لم تكن تلك هى مهمة الكنيسة فما مهمتها على وجه التحديد ؟ .

إن صوت متى المسكين يصل إلينا من صومعته فى وادى النطرون خافتا خاشعاً ولكنه صوت واضح ومحذر، إنه يريد أن ينقذ الكنيسة من الخطر الذى يتهدد مصيرها إذا ما نسيت رسالتها الأصلية، إذا ما نسيت أن أخطر عدو يهدد كيانها بالانحلال هو أن يهتم القائمون على أمرها بموضوع آخر غير خطيئة الإنسان فيتركوا دعوة المسيح للخطاة وهى التى كانت مهمته العظمى لينشغلوا بالإنسان من جهة حياته الاجتماعية، إن ذلك فى رأيه ليس فقط خروجا على المسيحية، ولكنه مقاومة لها .



كيف ذلك؟ مرة أخرى يعيد متى المسكين على مسامعنا صوت بولس الرسول "صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم: أنا"! .

إن الأمر فى رأيه وفى رأى بولس الرسول بالغ الخطورة، لأن الذين يحاولون أن يخرجوا الكنيسة عن مهمتها إنما يفعلون ذلك لعدم قدرتهم على الكرازة بالتوبة لتجديد الإنسان وخلاصه؛ لأن الخسارة التى سوف تجنيها الكنيسة من جراء ضم مواضيع جديدة للكرازة سوف تنتهى أخيراً بانطفاء سراج المناداة بالتوبة لخلاص الخطاة .

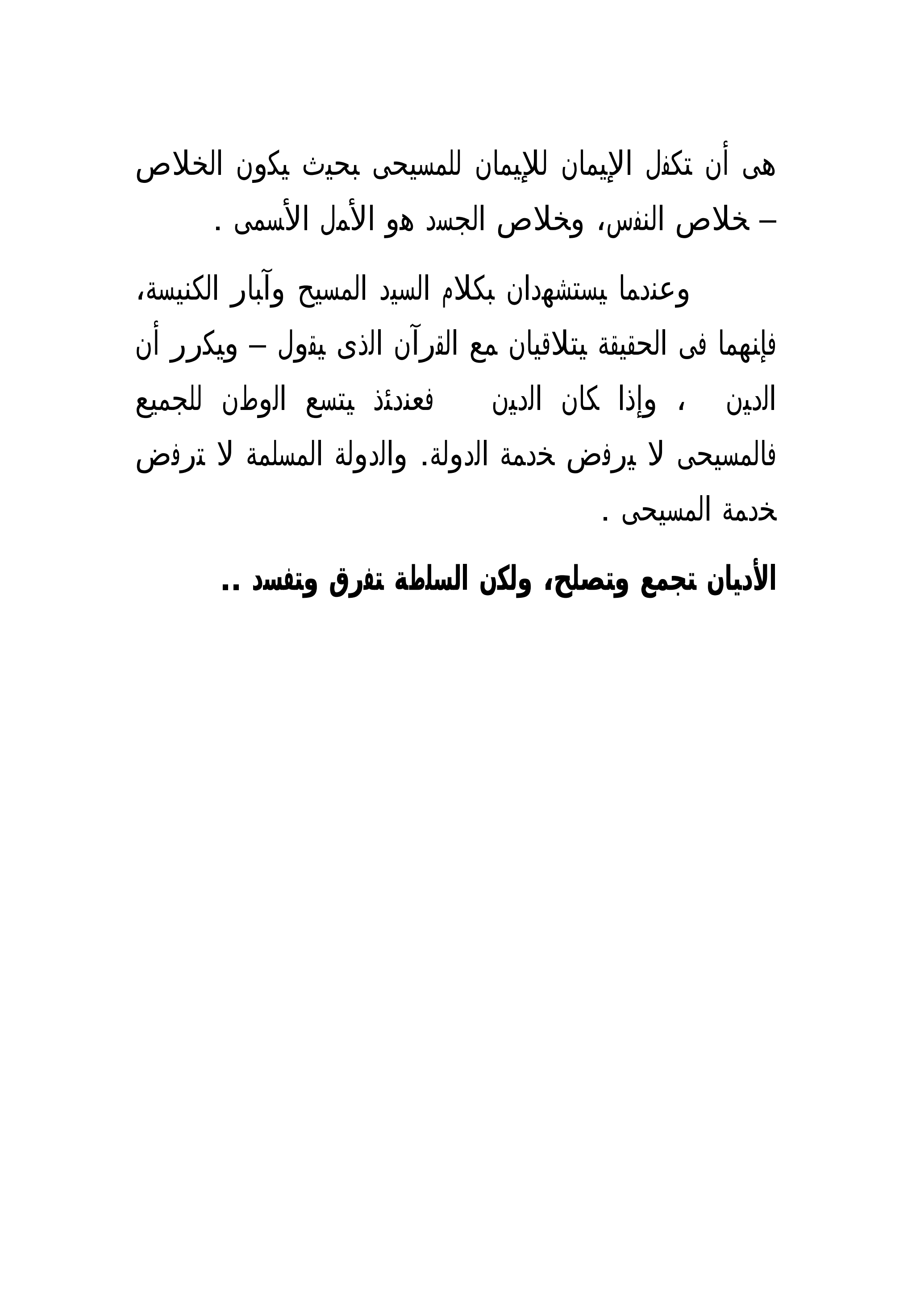
إن القائمين على الكرازة فقدوا الطريق الموصل إلى قلب الإنسان، فأخذوا يدورون فى متاهات جانبية بعيدة تماماً عن مهمة الكنيسة، بل لقد ضيع هؤلاء بموقفهم، ذلك المفتاح المقدس الذى سلمه الرب يسوع إلى الكنيسة ليدخلوا به إلى قلوب الخطاة؛ لأن المفتاح الكبير الذى سلمه الرب إلى الكنيسة هو أن تفتح ملكوت السماوات للخطاة ولكنها ضيعت المفتاح عندما انشغلت بأموال الدنيا وتلاهت عن خلاص الخطاة بمهمة أخرى .

إن هؤلاء ينسون أن المسيح لم يخلط أبداً بين مملكة ا ومملكة الدهر، لأن محاولة الكنيسة الاهتمام بالأمور الزمنية باسم المسيح هو بمثابة تنصيب المسيح ملكا على الأرض، كما أن تقوية سلطان الكنيسة بدعوى المطالبة بحقوق الجماعة هو رجعة لإقامة ملك المسيا كما يحلم به اليهود .

إنه فيما لو صفى فكر الكنيسة من كل أطماع الدنيا وفيما لو نفضت عنها كل الحقوق المطلوبة والحقوق المسلوبة حينئذ ستذكر الكنيسة قول سيدها "مملكتى ليست من هذا العالم" ستتذكر أن التوبة ينبغى أن تكون شغل الكنيسة الشاغل لأنها رسالتها، فإذا رفعنا المناداة بالتوبة عن اختصاص الكنيسة إلا وأساسه فى الأصل "تكميل التوبة لضمان الخلاص" .



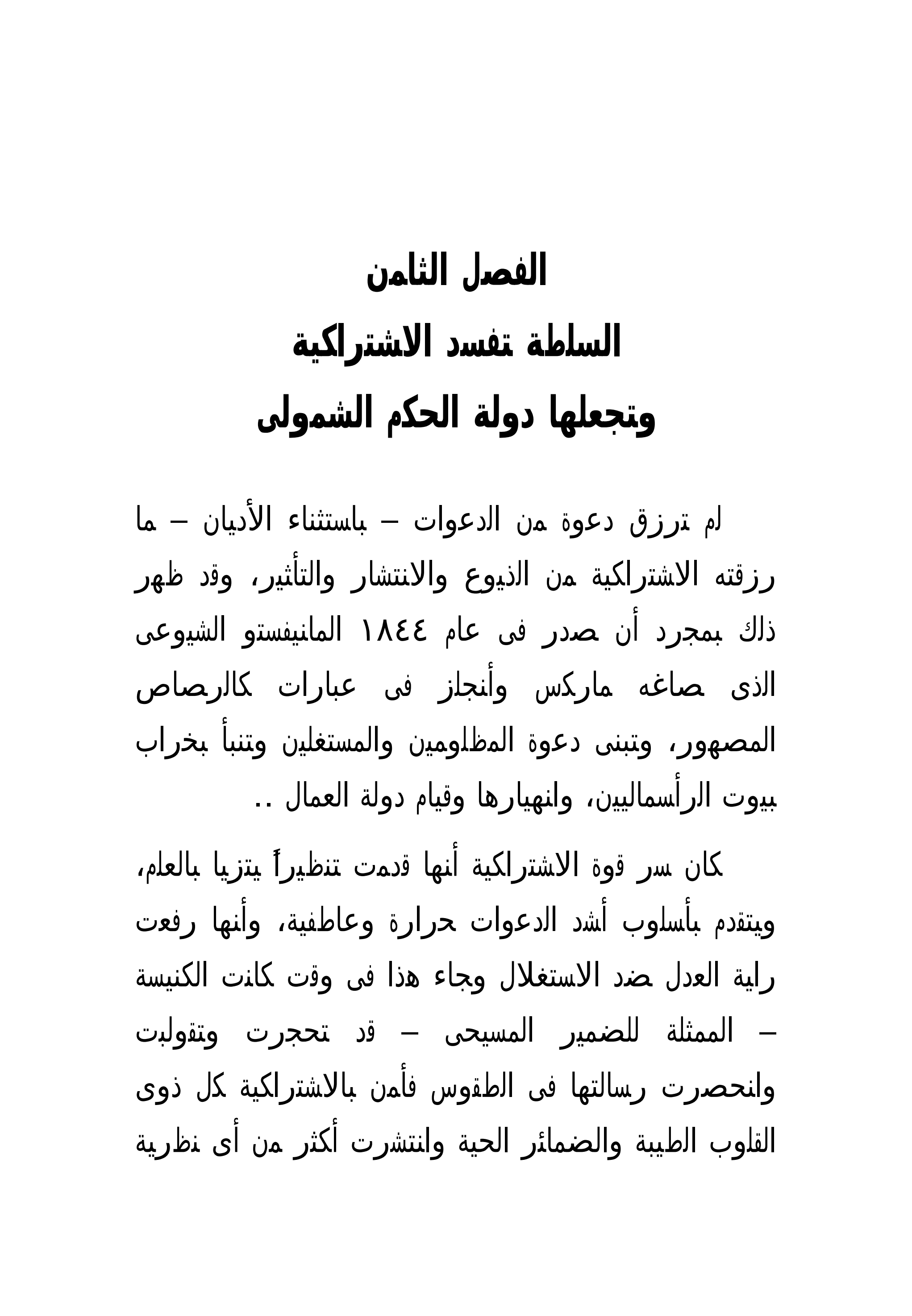
وعندما يقول الأب باسيلوس أن الدين شىء والوطنية شىء آخر، وأن المسيحى الأمين يخدم دولته حتى وأن لم تكن مسيحية ما دامت تكفل له حرية عقيدته المسيحية. وعندما يقول الأب متى المسكين أن المهمة الوحيدة للكنيسة



هى أن تكفل الإيمان للإيمان للمسيحى بحيث يكون الخلاص – خلاص النفس، وخلاص الجسد هو الأمل الأسمى .

وعندما يستشهدان بكلام السيد المسيح وآبار الكنيسة، فإنهما فى الحقيقة يتلاقيان مع القرآن الذى يقول – ويكرر أن الدين ، وإذا كان الدين فعندئذ يتسع الوطن للجميع فالمسيحى لا يرفض خدمة الدولة. والدولة المسلمة لا ترفض خدمة المسيحى .

الأديان تجمع وتصلح، ولكن السلطة تفرق وتفسد ..



الفصل الثامن
السلطة تفسد الاشتراكية
وتجعلها دولة الحكم الشمولى

لم ترزق دعوة من الدعوات – باستثناء الأديان – ما رزقته الاشتراكية من الذيوع والانتشار والتأثير، وقد ظهر ذلك بمجرد أن صدر فى عام ١٨٤٤ المانيفستو الشيوعى الذى صاغه ماركس وأنجلز فى عبارات كالرصاص المصهور، وتبنى دعوة المظلومين والمستغلين وتنبأ بخراب بيوت الرأسماليين، وانهيارها وقيام دولة العمال ..

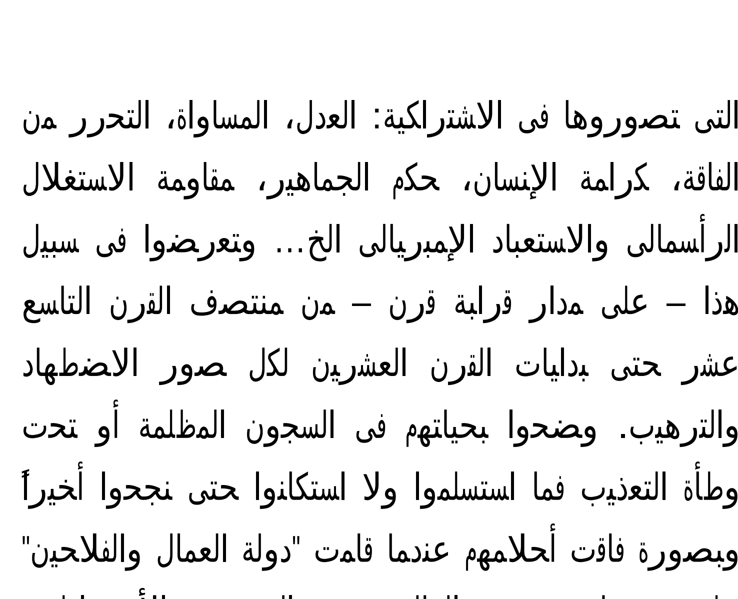
كان سر قوة الاشتراكية أنها قدمت تنظيراً يتزيا بالعلم، ويتقدم بأسلوب أشد الدعوات حرارة وعاطفية، وأنها رفعت راية العدل ضد الاستغلال وجاء هذا فى وقت كانت الكنيسة – الممثلة للضمير المسيحى – قد تحجرت وتقولبت وانحصرت رسالتها فى الطقوس فآمن بالاشتراكية كل ذوى القلوب الطيبة والضمائر الحية وانتشرت أكثر من أى نظرية

سياسية فى العصر الحديث وتأثر بها الفكر السياسى حتى فى الولايات المتحدة ومن يقرأ كتاب فوكوياما عن "نهاية التاريخ" يجد أنه متأثر بمنطق وجدلية ماركس أكثر من قواعد آدم سميث رسول الرأسمالية ومنظرها .

وعندما ظهرت الاشتراكية فى أسبانيا فى ثلاثينات القرن الماضى وأرادت إيطاليا الفاشية قهرها تقاطر على مدريد قوافل من المتطوعين والمفكرين من كل دول القارة الأوربية للدفاع عن الجمهورية الاشتراكية الأسبانية – مما يذكرنا بتقاطر المتطوعين الإسلاميين على أفغانستان والبوسنة والهرسك، وقد لاقى معظم المتطوعين الأوربيين ما لاقاه "الأفغان العرب" أو المتطوعون فى البوسنة ...

ولأن الاشتراكية – حتى عند ماركس – كانت نظرية أكثر مما هى عقيدة – وبوجه خاص فى مرحلته الأولى – فإنها كانت كتابا مفتوحاً أمام المفكرين فظهرت فيها من التيارات ما يفوق ألوان الطيف وتحت معطفها الواسع ظهر الفوضويون، والفابيون والبرلمانيون والثوريون الخ ...

لقد أمن الملايين من الرجال والنساء من عمال ونقابيين وفنانين وأدباء الخ... فى أربعة أركان الأرض بالمثاليات



التى تصوروها فى الاشتراكية: العدل، المساواة، التحرر من الفاقة، كرامة الإنسان، حكم الجماهير، مقاومة الاستغلال الرأسمالى والاستعباد الإمبريالى الخ... وتعرضوا فى سبيل هذا – على مدار قرابة قرن – من منتصف القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين لكل صور الاضطهاد والترهيب. وضحوا بحياتهم فى السجون المظلمة أو تحت وطأة التعذيب فما استسلموا ولا استكانوا حتى نجحوا أخيراً وبصورة فاقت أحلامهم عندما قامت "دولة العمال والفلاحين" على روسيا – سدس العالم ورمز الرجعية والأتوقراطية، وبزعامة شخصية أسطورية بلورت كل أحلام البطولة ومثاليات الكفاح والتضحية ووصلت الثقة فيها والإيمان بها درجة التقديس .

ولنا أن نتصور الفجيعة التى أطبقت على الأجيال التى قدر لها البقاء عندما رأت أن الأمل الوردى الذى كافحت فى سبيله وضحى الأباء والأجداد لتحقيقه أصبح كابوساً رهيباً أفظع وأشنع من الرأسمالية المستغلة، ومن يد هذا المنقذ نفسه نبى الماركسية المعصوم تجرعوا كؤوس السم وغصص العذاب وزج بهم فى السجون ...

فهل هناك "دراما" أشد مأساوية من هذه... وما عسى أن تبلغ أى تراجيديا عن رجل وامرأة – حبيب وعشيقة أمام هذه الجائحة التى اجتاحت الملايين وقضت على آمال الأجيال .

لقد ظن العمال – ولهم الحق – أن قد آن الأوان لكى يتحرروا من التبعية المهينة للقيصر، والكنيسة، والنبلاء، والإقطاعيين، والرأسماليين، وأن يتخلصوا من عبودية الأجور. وكل صور الاستغلال الرأسمالى وما تؤدى إليه من قضاء على الشخصية وإصابة بالاغتراب.. وظنوا أنهم إذا لم يتولوا بأنفسهم إدارة الدولة، فلا أقل من الاقتصاد بعد استئصال الرأسمالية والرأسماليين وتحل نقاباتهم المحبوبة محل الرأسماليين ..

ولكن الذين كانوا فى السلطة. وعلقوا عليهم الآمال كان لهم رأى آخر.. يختلف عن أراء العمال من الألف للياء ..

هيمن لينين وتروتسكى على الثورة وكانا فى حقيقة الحال من بناة الإمبراطوريات وليسا من دعاة الاشتراكيات وكان لديهما من الحسم والإرادة والعزيمة والمقدرة والذكاء ما يجعلها أمثال إيفان الرهيب أو بطرس الأكبر. وكان فى لينين عرق تترى يقربه من جنكيزخان. كما كان لتروتسكى

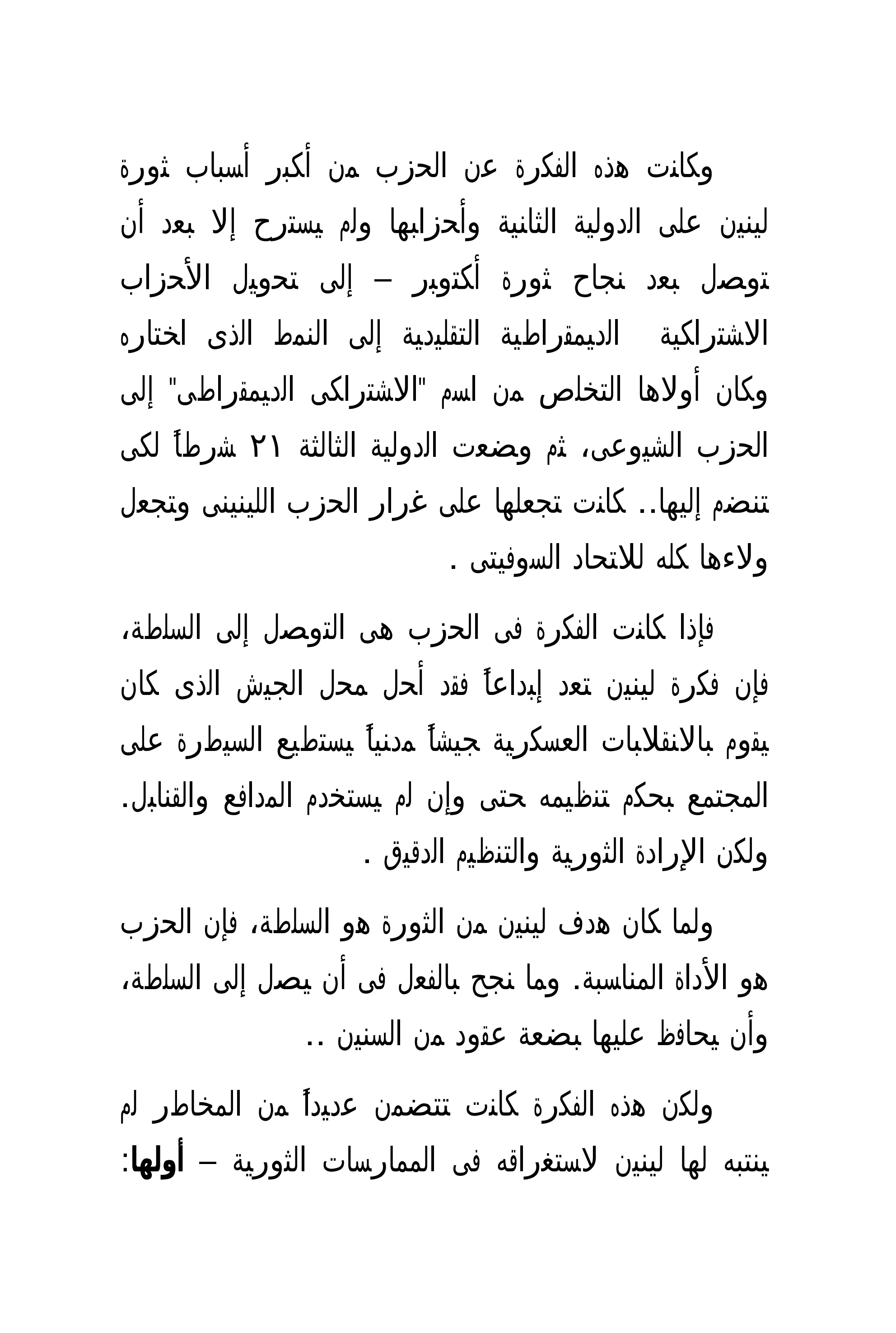
جذر تورانى يجعله يوشع العصر. يفعل كما فعل يوشع التورانى من تدمير وتقتيل وتذبيح ...

وكان كل منهما يؤمن بالثورة إيمانا ملأ جنبيه ولم يدع مكانا لأى شئ آخر. وآمنا أن الثورة هى وسيلة السلطة، وأن السلطة هى وسيلة القضاء على الرأسمالية، وإقامة الاشتراكية، ولكنهما نسيا أن بلاء الرأسمالية جاء من الملكية الفردية لوسائل الإنتاج وهذه الملكية ليست إلا جزء صغيراً من السلطة، التى أفسدت الرأسمالية، لأن السلطة مفسدة، وأثبتت تجربة التاريخ أن كل واحد يستخدم السلطة لتحقيق أغراض – مهما كانت نبيلة – فإن السلطة تستخدمه وتخضعه لإفسادها.. وكل واحد يريد أن يصبح سيدها لا يلبث أن يصبح عبدها لأن السلطة هى المصدر الأكبر للشرور ومن يتحراها فإنه يضع نفسه تحت رحمة هذه الشرور، بل ويعمل تبعاً لها .

ومما ضاعف، وفاقم، فى شر السلطة اللينينة/ التروتسكية أنها كانت مطلقة لأن فكرة الثورة جعلت لينين يبدع نظريته فى الحزب ودفعت تروتسكى لأن يقحم نظريته فى عسكرة العمل .

والحزب اللينينى هو الحزب الثورى، أى الحزب الذى يتكون من ثوريين محترفين يعملون تحت قيادة منظرين اشتراكيين ويختلف هذا الحزب عن الأحزاب الاشتراكية التى كانت سائدة طوال الدولية الثانية، وكانت تحمل اسم الحزب الاشتراكى الديمقراطى وتعمل بوسائل إصلاحية وتساهم فى الانتخابات البرلمانية. كان حزب لينين شيئاً مختلفاً، إنه لا يقوم على هواة أو يضم كل من يدفع اشتراكاً شهرياً أو يحضر اجتماعاً. إنه يقوم على ثوار محترفين يجعلون الثورة حرفتهم الأساسية، والسلطة هدفهم الوحيد ويصبح هذا الحزب هو "دينامو" الثورة الذى يجذب إليه الهيئات الجماهيرية كالنقابات واتحادات الطلبة الخ... وتكون هذه منه بمثابة "السير ناقل القوى" من الحزب الذى هو الدينامو والمحرك إلى الجماهير ..

وتقتضى طبيعة هذا الحزب أن يكون محدود العدد لأنه لا يأخذ كل من هب ودب وإنما يأخذ أصلح وأصلب العناصر فى الهيئات الجماهيرية ويعد طليعة لها. ويستطيع – وإن كان أقلية – بفضل تنظيمه وضبطه أن يهيمن على المجتمع ويكفل السيطرة على الهيئات الجماهيرية، ومن ثم على الشعب ..

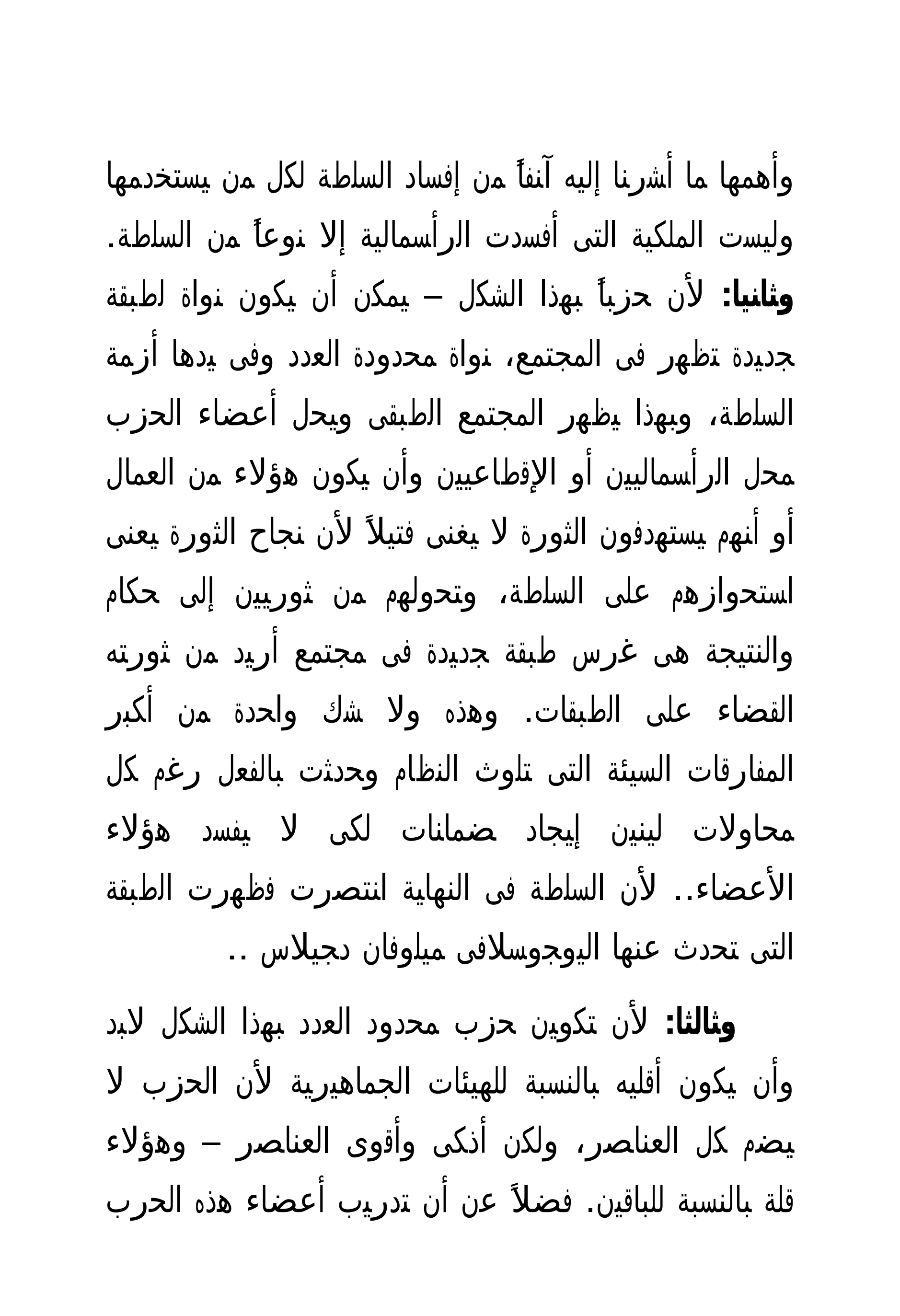


وكانت هذه الفكرة عن الحزب من أكبر أسباب ثورة لينين على الدولية الثانية وأحزابها ولم يسترح إلا بعد أن توصل بعد نجاح ثورة أكتوبر – إلى تحويل الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التقليدية إلى النمط الذى اختاره وكان أولاها التخلص من اسم "الاشتراكى الديمقراطى" إلى الحزب الشيوعى، ثم وضعت الدولية الثالثة ٢١ شرطاً لكى تنضم إليها.. كانت تجعلها على غرار الحزب اللينينى وتجعل ولاءها كله للاتحاد السوفيتى .

فإذا كانت الفكرة فى الحزب هى التوصل إلى السلطة، فإن فكرة لينين تعد إبداعاً فقد أحل محل الجيش الذى كان يقوم بالانقلابات العسكرية جيشاً مدنياً يستطيع السيطرة على المجتمع بحكم تنظيمه حتى وإن لم يستخدم المدافع والقنابل. ولكن الإرادة الثورية والتنظيم الدقيق .

ولما كان هدف لينين من الثورة هو السلطة، فإن الحزب هو الأداة المناسبة. وما نجح بالفعل فى أن يصل إلى السلطة، وأن يحافظ عليها بضعة عقود من السنين ..

ولكن هذه الفكرة كانت تتضمن عديداً من المخاطر لم ينتبه لها لينين لاستغراقه فى الممارسات الثورية – **أولها**:



وأهمها ما أشرنا إليه آنفاً من إفساد السلطة لكل من يستخدمها وليست الملكية التى أفسدت الرأسمالية إلا نوعاً من السلطة.
وثانيا: لأن حزباً بهذا الشكل – يمكن أن يكون نواة لطبقة جديدة تظهر فى المجتمع، نواة محدودة العدد وفى يدها أزمة السلطة، وبهذا يظهر المجتمع الطبقى ويحل أعضاء الحزب محل الرأسماليين أو الإقطاعيين وأن يكون هؤلاء من العمال أو أنهم يستهدفون الثورة لا يغنى فتيلاً لأن نجاح الثورة يعنى استحوازهم على السلطة، وتحولهم من ثوريين إلى حكام والنتيجة هى غرس طبقة جديدة فى مجتمع أريد من ثورته القضاء على الطبقات. وهذه ولا شك واحدة من أكبر المفارقات السيئة التى تلوث النظام وحدثت بالفعل رغم كل محاولات لينين إيجاد ضمانات لكى لا يفسد هؤلاء الأعضاء.. لأن السلطة فى النهاية انتصرت فظهرت الطبقة التى تحدث عنها اليوجوسلافى ميلوفان دجيلاس ..

وثالثا: لأن تكوين حزب محدود العدد بهذا الشكل لابد وأن يكون أقليه بالنسبة للهيئات الجماهيرية لأن الحزب لا يضم كل العناصر، ولكن أذكى وأقوى العناصر – وهؤلاء قلة بالنسبة للباقين. فضلاً عن أن تدريب أعضاء هذه الحرب

لا يتأتى إذا كان عدده جسيماً. فقلة عدد الحزب الذى يلى السلطة لا يعنى إلا أمراً واحداً: الديكتاتورية. التى لابد منها ليمكن للأقلية أن تحكم الأكثرية" ومن هنا جاءت فكرة الإرهاب بالجملة wholesale Terror كما ذكرها صراحة فى الجلسة السرية للحزب فى بتروجراد قبيل الثورة[١] .

---

(١) **The Russian Revolution ln todays perspective by Emest Bock p. ٨٣٠**

ويجب أن نقول إن جانباً كبيراً مما حدث فى الثورة قـد لا يكون مكتوباً لأنه تم على أساس أوامر شفهية أو سرية وكمثال فقد جاء فى مقال للكاتب اليسارى الأستاذ محمد عودة فى مجلة الأهالى القاهرية نقلاً عن مجلة السياسة الدولية لثلاثـة مـن الكتـاب السـوفيت عـن "البيروسترويكا والدين" هم سيمسوف كوفاليف – كالينين ما يلى: "وفى الوثائق التى نشرت أخيراً عثر على خطاب سرى وخاص وبخط اليـد أرسله لينين إلى مولوتوف وطلب منه أن يقرأه على أعضاء المكتـب السياسى كل على حدة وألا تطبع منه أى نسخة وجاء فيه "لابـد مـن إتخاذ أشد الإجراءات وإنـزال أقصـى العقوبـات برجـال الكنيسـة الأرثوذكسية وأوصى بأنه كلما قضينا على أكبر عـدد مـن القسـس الرجعيين أو من البرجوازيين الرجعيين رمياً بالرصاص كـان ذلـك أفضل لابد أن نلقنهم درساً لا ينسونه ويشل أى تفكير فـى المقاومـة

ولكن لينين كان متقبلاً لهذه الديكتاتورية على أساس أن ديكتاتورية البلوريتاريا ليست ديكتاتورية عسكرية أو إقطاعية. وما فاته هو أن الديكتاتورية واحدة ولا علاقة لها بطبيعة الأشخاص لأنها ممارسات. وإذا اقترنت فى نظام سياسى السلطة بالديكتاتورية فلا مفر من النهاية مهما طال الأمد فضلاً عن أنها تفضى إلى ارتكاب ويلات لا عداد لها لأفراد لا عداد لهم والوقوع فى أخطاء لا تجد من ينبه عليها ويحد منها حتى تتفاقم ويأتى السقوط والموت فى النهاية – كما حدث فعلاً للهرم الذى أقامه لينين فإنه أنهار كبيت من ورق بعد سبعين عاماً وانهارت معه كل "إنجازات" لينين ..

وأخيراً أن الحزب الذى يقوم على الاحتراف الثورى يجد نفسه فى مأزق عند النجاح فى الثورة والاستحواذ على السلطة لأن هذا يعنى نهاية المرحلة الثورية وبدء مرحلة الاستحواذ على السلطة. وهما مختلفتان تماماً فى الأولى الجهاد والتضحية والتعرض للسجون الخ... وفى الثانية

لحقب طويلة" ويقول الكاتب – الأستاذ محمد عودة – أن ذنب الكنيسـة والقسس أنهم قاوموا مصادرة أموال وكنوز الكنيسة لمقاومة المجاعة .

إغراء السلطة من مال وكبرياء أو استمتاع. وكان من المآزق التى تعرض لها الحزب أنه إذا كان من العمال فقلما يتوفر فيهم المهارات الفنية ويصبح من الضرورى استقطاب جموع من الطبقة الوسطى يحملون – رغم أنفهم – رواسب طبقتهم وسيكولوجيتها، ولا يكون الحزب عندئذ عمالياً أو بلوريتاريا ولكن بورجوازيا ..

* * *

لم تكن هذه المخاطر ماثلة فى ذهن لينين لأن فكرته كانت من البساطة والوضوح بحيث لا تفسح مجالاً للتفصيل. فالثورة هى الطريقة إلى السلطة والسلطة هى وسيلة تحقيق الاشتراكية.. والحزب البلوريتارى هو الذى سيمارسها. أما من لم يصل به الإيمان بالسلطة إلى حد الهوس مثل روزا لوكسمبرج وبليخانوف وكاوتسكى وكانوا من أساطين الاشتراكية وأطلق فيما أطلق عليهم لينين الانتهازيين والهراطقة والمنشفيك – فإنهم تبينوا هذه المخاطر وكان ذلك فى أساس معارضتهم له، والسبب الذى من أجله صب عليهم جام غضبه .

ومن الإنصاف للينيين أن نقول أنه لم يتردد فى إعلان أراءه والدفاع عنها، ففى وقت مبكر (١٩٠٥) فى كتابه الهام جداً ما "العمل" صارح العمال بفظاظة أنهم لا يستطيعون تكوين حزب، وإنما يستطيع ذلك الانتلجنسيا المتعاطفة مع العمال من الطبقة الوسطى وأن ماركس وإنجلز لم يكونا من العمال وأن قصارى ما يستطيعه العمال هو تكوين النقابات التى قد تستطيع رفع الأجور شيئاً ما .

ولكن أراء لينين لم تكن تصل إلى القاعدة العريضة من العمال أو الملايين منهم الذين لم يعرفوا عنه إلا الصلابة والتفانى والحسم والبساطة فى المظهر والبعد عن كل مظاهر التميز والترف والترفع. وأنه ليس من النوع الذى يتأثر بالمديح أو يخدع بالإطراء... فهذه الخلائق التى كانت تقربه من العمال هى ما كان العمال يعرفونه عنه. أما أراءه النظرية فهذه كانت تثار فى دوائر الحزب، وكان لدى لينين مقدرة فذه على انتزاع الموافقة على أرائه. وكان يبذل فى هذا جهداً جباراً ويستخدم كل الوسائل فيلوث خصومه

ويصفهم بأقذع الصفات[1]. ويخلط الأوراق ويستعين بمزيج من السفسطة والشواهد التاريخية.. باختصار لا ينثنى فى النهاية حتى "ينتزع" موافقة المجتمعين. وبهذه الطريقة حول مجموعته من "منشفيك" أى أقلية إلى "بولشفيك" أى أغلبية .

* * *

بالإضافة إلى نظرية الحزب، فإن لينين أبدع قاعدة المركزية الديمقراطية كأساس للأداء وهى ٩٠% مركزية و١٠% ديمقراطية أريد بها تحقيق المركزية تحت غطاء ديمقراطى لأنها تقتضى :

أ- كل الهيئات الجماهيرية تنتخب من القاعدة بواسطة الأعضاء وتسأل أمامهم .

ب- تتبع الهيئات الجماهيرية فى إدارتها لنشاطاتها القواعد التى تقررها الهيئات الأعلى

ج- يبث فى القرارات بمقتضى أغلبية الأضواء .

---

(١) تحدث إحدى أعراف عن كاوتسكى بأنه "يعوى ككلب صغير ضال" وقد كان كاوتسكى يسمى "بابا الماركسية" ويأتى بعـد مـاركس وأنجلز مباشرة .

د- تتبع الهيئات الدنيا الهيئات الأعلى منها .

ولم يكن النظام الحديدى للحزب يسمح بأى درجة من الحرية خارج الإطار المقرر ويعتبر ذلك "فوضوية" "إنحراف" "انتهازية" ويتعرض من يتهم بها ليس فحسب للطرد من الحزب بل وفقد مركزه فى المجتمع .

لا جدال أن رجلاً بمثل صفات لينين ما كان يؤمن أبداً بديمقراطية أو حرية.. ولا يعرف إلا الحسم وعندما تولى السلطة وجد أمامه أكداساً من المشاكل وأعداء عديدين ينفسون عليه الانتصار السهل الذى حصل عليه فى أكتوبر... لم يكن لديه وقت لفك العقد.. وكان يجب قطعها ولم يكن هناك وقت لتأجيل أو إرجاء خاصة وأن العالم الرأسمالى بدأ المقاومة.. ولما كان لا يؤمن بحرية أو ديمقراطية بل يرى فيها أكاذيب وتحايلات من البورجوازية، ولما كان لا يمثل إلا أقلية، فلم يكن هناك مناص من أن يفرض القرارات بالقوة ولتامين ذلك أسس أكبر جهاز مخابرات عرف حتى ذلك الوقت فى العالم بأسره وسماه "درع الثورة" وأطلق له الحرية فى ملاحقة "أعداء الثورة " ..

وكانت أراءه فى إدارة العمل والاقتصاد والإنتاج مما يتفق مع هذا المجرى الرئيسى، وكان كثورى لا يثق فى النقابات وكرجل "محترف" لا يؤمن بالهواية وكان يرى إن الإنتاج معركة كبيرة صعبة، ومعقدة، وتتطلب خبرات ومهارات وقدرات لا تتوفر للعمال ...

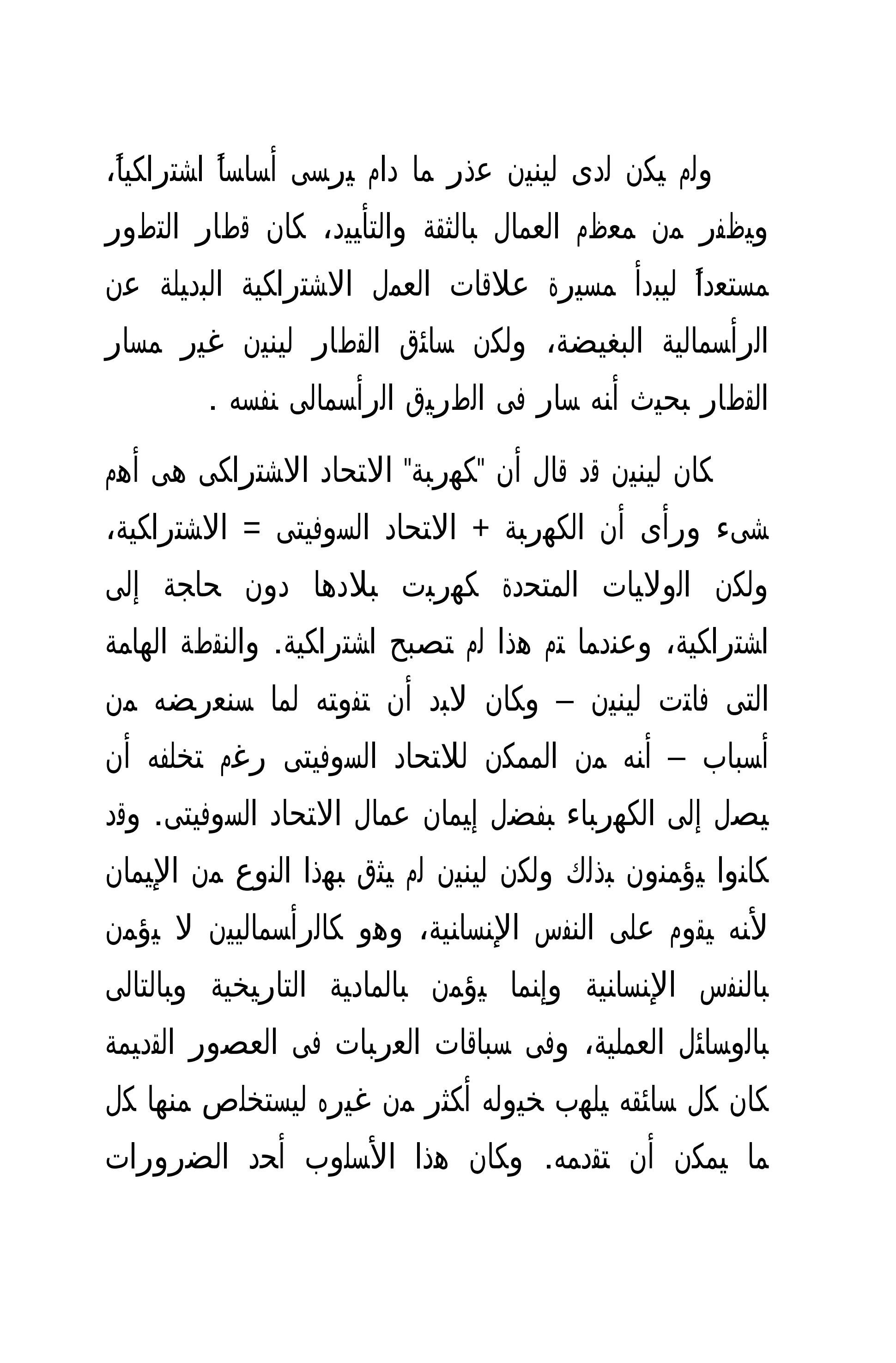
فى الوقت نفسه، فإن العمال ما أن بدأت الثورة حتى أخذوا زمام الأمور فى أيديهم فتكونت فى المصانع لجان تولت إدارتها كما قامت النقابات بدور فى ذلك .

وهكذا ظهر فى الأيام الأولى للثورة نوع من التقطب ما بين لينين وأراءه عن الإدارة وأنها يجب أن تقوم على فرد واحد مسؤول يصدر الأوامر التى يطبقها العمال، وما بين رأى القاعدة عن الإدارة العمالية التى تقوم بها لجان من العمال أو مسئولون نقابيون .

وشاهدت الفترة ما بين مار س ونوفمبر سنة ١٩١٧ نموا ملحوظاً للجان المصانع وفى أبريل سنة ١٩١٧ أعلن اجتماع لجان المصانع فى بتروجراد "إن كل التعليمات الخاصة بالإدارة الصناعية فى المصنع مثل طول عمل اليوم، الأجور، تعيين وفصل العمال، الإجازات الغياب الخ... يجب

أن تصدر عن لجنة المصنع" كما عقد مؤتمر آخر للجان المصانع فى بتروجراد أيضاً (يونيو سنة ١٩١٧) سيطر فيه الشيوعيون. ودعا إلى تنظيم دقيق لرقابة العمال على الإنتاج والتوزيع "وإلى وجود أغلبية بلوريتارية فى أجهزة السلطة التنفيذية" ..

لقد ظن العمال أن الفرصة التاريخية لتحقيق علاقات العمل الاشتراكية قد حانت. ولكن لينين لم يكن يؤمن بهذا. أن الخيانة التاريخية التى لا تغتفر أبداً للينيين هى أنه أجهض فرصة الجماهير الاشتراكية لتقوم بإرساء علاقات عمل تخلص بها من سياسة الرأسمالية البغيضة وعبودية الأجور، كان تقوم إدارة ينتخبها العمال بدلاً من الرأسمالى. وأن يحل وازع الإيمان الاشتراكى محل وازع الربح. وكان هذا ممكنا للمرة الأولى فى التاريخ الاقتصادى بعد القضاء على الملكية الفردية للمصانع وانتفاء التناقض ما بين العمال والرأسماليين. تلك كانت اللحظة التاريخية التى أضاعها لينين على التجربة الاشتراكية فى العالم أجمع واستحق بذلك سخط بل، لعنة العمال الاشتراكيين حقاً .



ولم يكن لدى لينين عذر ما دام يرسى أساساً اشتراكياً، ويظفر من معظم العمال بالثقة والتأييد، كان قطار التطور مستعداً ليبدأ مسيرة علاقات العمل الاشتراكية البديلة عن الرأسمالية البغيضة، ولكن سائق القطار لينين غير مسار القطار بحيث أنه سار فى الطريق الرأسمالى نفسه .

كان لينين قد قال أن "كهربة" الاتحاد الاشتراكى هى أهم شىء ورأى أن الكهربة + الاتحاد السوفيتى = الاشتراكية، ولكن الولايات المتحدة كهربت بلادها دون حاجة إلى اشتراكية، وعندما تم هذا لم تصبح اشتراكية. والنقطة الهامة التى فاتت لينين – وكان لابد أن تفوته لما سنعرضه من أسباب – أنه من الممكن للاتحاد السوفيتى رغم تخلفه أن يصل إلى الكهرباء بفضل إيمان عمال الاتحاد السوفيتى. وقد كانوا يؤمنون بذلك ولكن لينين لم يثق بهذا النوع من الإيمان لأنه يقوم على النفس الإنسانية، وهو كالرأسماليين لا يؤمن بالنفس الإنسانية وإنما يؤمن بالمادية التاريخية وبالتالى بالوسائل العملية، وفى سباقات العربات فى العصور القديمة كان كل سائقه يلهب خيوله أكثر من غيره ليستخلص منها كل ما يمكن أن تقدمه. وكان هذا الأسلوب أحد الضرورات

البغيضة لأن الخيل لا تبذل أقصى الجهد إلا عندما تتعرض لأقصى ألم مادى. ولكن الإنسان يختلف عن الخيول. وفيه طاقة إيمانية يمكن أن تفعل المعجزات، ولكن الالتجاء إلى هذا كان التجاء إلى "الإيمان" ويمكن أن يجعل الاشتراكية "دعوة" وهى لا ترى فيها سوى أنها أداة المادة التاريخية ومن ثم فإنه لجأ – كأصحاب السباق القديم – لإلهاب ظهور العمال ليستخرجوا آخر قطرة عرق، وكانت هذه صورة بدائية من صور الاستقلال تجاوزتها الرأسمالية نفسها التى لجأت إلى وسائل "المحفزات" فى الأجور، بل وبعض صور "العلاقات الإنسانية" .

كان لينين يؤمن "بالإنتاج" أكثر مما يؤمن "بالإنسان" يؤمن بفاعلية الثواب والعقاب أكثر مما يؤمن بفعالية الإيمان الاشتراكى، وكان ككبار الرأسماليين الذين أقاموا صناعات الحديد والصلب والبترول تورد والسيارات الخ... وإن كان أسرع تطبيقاً للإدارة العلمية من هؤلاء العباقرة الرأسماليين .

وبهذا فوت على التطور العالمى الفرصة الفريدة لإمكان وضع علاقات عمل اشتراكية محل الرأسمالية. وهذا الخطأ،

وهذا الانحراف هذه الخيانة.. مما لا يمكن على الأقل من وجهة النظر الاشتراكية أن يغتفر ..

ووصل الصراع ما بين العمال الذين كانوا يريدون إقامة علاقات عمل اشتراكية وبين لينين الذى آمن بالإدارة العلمية إلى قمته خلال مايو ويونيو ١٩١٨ فى المؤتمر الأول للمجالس الاقتصادية فتحدث لينين بقوة مؤيداً "انضباط العمل" وإدارة الفرد الواحد، والحاجة إلى استخدام الخبراء البورجوازيين، بينما طالب العمال بإدارة عمالية لا تكون من أعلى فحسب، ولكن من أسفل أيضاً، وأن يكون ثلثا أعضاء مجلس الإدارة من العمال المنتخبين ونجحوا فى أن يحملوا المؤتمر على تعيين لجنة فرعية تمهيداً لقبول هذا الاقتراح، وغضب لينين غضباً شديداً لهذا "القرار الغبى" وبتوجيهه عقدت جلسة كاملة للمؤتمر "صححت" القرار وذلك بأن نصت بأن لا يزيد المنتخبون من العمال عن الثلث، ووضعت بنيانا هرميا معقداً يعطى حق "الفيتو" للمجلس الاقتصادى الأعلى. وهو قمة الهرم الإدارى .

وخلال سنة ١٩١٩ والشهور الأولى من سنة ١٩٢٠ ظفرت المعارضة ضد لينين وأفكاره عن "إدارة الفرد الواحد

فى الصناعة" بتأييد النقابات. فقد دعا لينين وتروتسكى معاً المجلس التنفيذى للنقابات يوم ١٢ يناير سنة ١٩٢٠ لقبول فكرة "عسكرة العمل" فلم يؤيدها سوى أثنين من ما يزيد عن ستين من المندوبين الشيوعيين وعلق "دوتشر": "لم يسبق أن قوبل تروتسكى ولينين بمثل هذا الصد العنيف " .

وفى أبريل سنة ١٩١٨ نشرت ازفستيا مقال لينين عن "المهام العاجلة للحكومة السوفيتية" "اليوم، فإن الثورة تطلب – لمصلحة الاشتراكية – أن تطيع الجماهير بدون مناقشة الإرادة الفردية لقادة Unquestionaly obey the Single will of the leaders of labor process) العمل ..

وكتب لينين: "إن الإدارة الجماعية تمثل شكلاً بدائيا rudimentary لازماً للمرحلة الأدنى – عندما يكون من الضرورى البناء الجديد. أما التحول إلى العمل الفعال practical Work فإنه يرتبط بالسلطة الفردية. فهذا هو النظام الذى يضمن أكثر من أى نظام آخر الانتفاع الأمثل بالموارد البشرية. وفى افتراضاته إلى المؤتمر التاسع (مارس سنة ١٩٢٠) كتب: "إن المبدأ الانتخابى يجب أن لا يحل محل

الانتقاء selective ورفض الإدارة الجماعية باعتبارها "يوتوبيا" وغير عملية وضارة " .

وتوضح هذه العبارات أن لينين لم يتصور أن وجود العمال فى مجتمع اشتراكى لا يغير من سلوكهم كما لو كانوا فى مجتمع رأسمالى. وهذا أمر غريب. إذ ما الفرق إذن ما بين الاشتراكية والرأسمالية. إذا كان سلوك العمال فى المجتمع الاشتراكى لا يختلف سلوكهم عن سلوكهم فى المجتمع الرأسمالى؟ ففيم إذن كانت الاشتراكية، إن الاشتراكية الحقه تعنى مبادءة العمال وأن إيمانهم بالاشتراكية سيكون أفضل من الحوافز والضوابط التى تلجأ إليها الرأسمالية لعدم إيمان العمال بها (أى بالرأسمالية) .

ووصلت أراء لينين إلى غايتها عندما طالب صراحة بالأخذ بوسائل الإدارة العلمية التى أبدعها المهندس الأمريكى فردريك تيلور بعد دراسات طويلة للوقت والحركة ودراسة الطرق المختلفة للأداء بحيث توصل إلى الاستغلال الأمثل لكل حركة وسكنه يقوم بها العامل .

ولم يتردد لينين فى أن يدعو للأخذ بها ففى رسالة "المهام المباشرة لسلطة السوفيت ١٩١٨" قال: علينا إدخال

نظام تيلور إلى كل روسيا ورفع إنتاجية العمل حسب الطرق العلمية وحسب الخط الأمريكى .

وفى الدولة والثورة قال :

" لا يمكننا خلق أو إقامة الاشتراكية دون اللجوء إلى مدرسة منظمى الترستات إن الاشتراكية ليست ابتكاراً. بل هى أن تفهم طليعة البروليتاريا التى استولت على السلطة ما ابتكرته الترستات وتطبقه .

"نحن لا نخترع شكلاً لتنظيم العمل بل نأخذه كما هو من الرأسمالية.." ورأى لينين أن النظام الذى وضعه تيلور يجمع "الاكتشافات العملية الأكثر أهمية فيما يخص تحليل الحركات التى يقوم بها العامل أثناء العمل والقضاء على الحركات غير المجدية وغير الماهرة وابتكار طرائق العمل الأكثر عقلانية وإدخال أفضل نظام الإحصاء والرقابة" .

وكان تيلور يرى أن ليس للعمال أن يفكروا، فهناك من يفكر لهم، ومن هو أقدر منهم على ذلك. المطلوب أن يطبقوا الأفكار والخطط التى توضع لهم. وهذا هو ما كان يؤمن به لينين، ربما أكثر من تيلور .

وهذه من وجهة النظر الاشتراكية، ردة تكرر دفاع الرأسمالى عن أساليبه، أما الاشتراكية فيفترض أن يكون لديها نظام آخر وجهاز آخر، وأساس آخر لدفع الانتاج غير "السوط" الذى ظل من العهود القديمة حتى الرأسمالية الأسلوب المفضل. إن إيمان العمال بالاشتراكية أفضل وأدق من ساعات تيلور الكرونومترية ودراسات الوقت والحركة. وكان يمكن أن ينهض بالإنتاج ويحسم مفارقات علاقات "الإدارة – العمال" ويحمل عن أجهزة الدولة عبأ ثقيلاً ..

وكلام لينين يدل على أن السلطة قد مسخته تماماً. ومحت كل القيم وأحلت محلها ضرورات تحقيق الخطة المقدسة كأنما خلق الناس للخطة، ولم توضع الخطة للناس. كان أحد بناة الأمبراطورية، وكان بين جنبيه "إيفان رهيب" وبطرس أكبر.. وكذلك باتوا الشنيع سليل جنكيزخان والذى اكتسح أوربا ولم يوقفه إلا موت جنكيزخان. وبهذه الروح كان يريد أن يقيم "روسيا العظمى" التى أطلق عليها مجازاً "الاتحاد السوفيتى" .

* * *

هذا عن لينين الذى قدم الإضافة الهامة عن الحزب الشيوعى باعتباره حزبا من ثوريين محترفين، وقدم المركزية الديمقراطية كقاعدة تنظيم العمل فى كل الهيئات.. ودعا جهرة إلى التيلورية التى اعتبرها عمال الولايات المتحدة أداة استغلال العمال على أسس علمية وعملية .

فماذا عن تروتسكى ؟

كان تروتسكى قد شغل وزارة الدفاع فجال فى روسيا من شرقها لغربها فى قطاره المشهور الذى كان يضم فيما يضم مطبعة ولاحق كل أعداء الثورة.. كما شغل حينا وزارة الخارجية وهو صاحب شعار "لا حرب ولا سلم" الذى أراد به أن يخلص من مأزق مقاومة الجيوش الألمانية أو الصلح معها.. وأخيراً ضمت إليه وزارة النقل ..

كانت الفكرة التى قدمها تروتسكى هى "عسكرة العمل" أى تطبيق وسائل الضبط والربط التى تمارس فى الجيش على العمال" وقد كان تروتسكى قد ألف كتاباً بعنوان "دفاعاً

عن الإرهاب[1] دافع فيه دفاعاً مستميتا عن الإرهاب وأنه جزء لا يتجزأ من كيان الدولة الشيوعية وشن هجوماً كاسحاً على كاوتسكى لأنه انتقد إرهاب السوفييت وعدم وجود الحرية أو الديمقراطية فى الممارسات السوفيتية، وأفرد باباً من أهم أبوابه عن عسكرة العمل .

والفكر الرئيسية فى عسكرة العمل أن الإنسان حيوان كسول وأنه ما لم يدفع دفعا إلى العمل فإنه لا يعمل.. والصورة الوحيدة للدفع المنظم هى فى الجيش وأنه إذا كان لم يستخدم فى العمل فذاك لأن العمل كان واقعاً فى يد الملكية الفردية. أما وقد تحررنا من الملكية الفردية فيمكن ممارسته، وأن الإلزام، وبالتالى الإكراه هو الشرط الضرورى لضبط الفوضى البورجوازية وتشريك وسائل العمل والإنتاج ولإعادة بناء النظام الاقتصادى حسب خطة موحدة وأنه لا توجد لدينا وسيلة أخرى للانتقال إلى الاشتراكية غير القيادة الحازمة للقوى والموارد الاقتصادية فى البلاد، وغير التوزيع

---

(١) كما فى الطبعة الإنجليزية وقد صدرت الطبعة العربية بعنوان "الإرهاب والشيوعية". ترجمة

المركزى للقوة العاملة حسب الخطة الحكومية العامة. إن الدولة العمالية تعتبر أن لها الحق فى أن ترسل كل شغيل إلى المكان الذى يحتاج عمله. وأنه ما من اشتراكى جاد ينكر على الحكومة العمالية حقها فى وضع يدها على الشغيل الذى قد يرفض تنفيذ المهمة التى أوكلت إليه .

فى كتابه "دفاع عن الإرهاب" كتب تروتسكى :

"لا مجال للانتقال من الفوضى البورجوازية إلى الاقتصاد الاشتراكى دون اللجوء إلى الديكتاتورية الثورية وإلى طرائق التنظيم القائمة على الأكراه. ص٢٠٦ .

"أن عنصر الإكراه المادى الفيزيائى يمكن أن يكون كبيراً أو صغيراً فهذا يتعلق بالشروط بالكثير من الشروط وبدرجة غنى البلاد أو فقرها الخ... لكن الإلزام وبالتالى الإكراه هو الشرط الضرورى لضبط الفوضى البورجوازية ولتشريك وسائل الإنتاج والعمل ولإعادة بناء النظام الاقتصادى حسب خطة موحدة .

"أن الجيش وحده – على وجه التحديد، لأنه حسم بطريقته الخاصة مسائل حياة وموت الأمم والدول والطبقات

الحاكمة وقد اكتسبت الحق بأن يتطلب من كل فرد خضوعاً تاماً للمهام والأهداف والتعليمات والأوامر. لقد توصل إلى ذلك لأن مهام التنظيم العسكرى بوجه خاص، كانت تتفق مع ضرورات التطور الاجتماعى. ص٢٠٨ .

وتصور أن الحرب الإمبريالية والنتائج التى نجمت عنها جعلت من المستحيل وجود مجتمع قائم على العمل الحر !![١].

وعرض تصوره الاشتراكى للنقابات :

"فالنقابات، بدون إلزامية العمل وبدون الحق فى إصدار الأوامر، وطلب تنفيذها، تفتقد مقوماتها، ذلك أنها ضرورية للدولة الاشتراكية التى فى طريق البناء، **لا لتناضل من أجل شروط أفضل للعمل – فهذه مهمة مجموع التنظيم الاجتماعى الحكومى – بل من أجل تنظيم الطبقة العاملة بهدف الإنتاج، ومن أجل ضبطها وتوزيعها**_وتثقيفها وتعيين

---

(١) هذا يعطينا صورة كيف أن الخيال يشط بأكثر العقلانيين إلـى أودية الأوهام. فقد تصور تروتسكى أن الحرب العالمية الأولـى (١٤-١٩) جعلت من المستحيل وجود مجتمع ما يقوم على العمل الحر !! .

بعض الفئات وبعض العمال فى مراكزهم لمدة معينة من الزمن، وبكلمة واحدة من أجل تنظيم الشغيلة بحزم، وباتفاق تام مع السلطة، فى إطارات الخطة الاقتصادية الموحدة ".

ولجأ إلى النقطة الممجوجة نقطة "أن المسألة تكمن **فى أن نعرف من يمارس الإكراه وضد من ولماذا.. !! كان هذا يمكن أن يغير طبيعة الإكراه** ولم يكن عجيبا أن يدافع عن نظام الرق، وأنه كان فى بعض الشروط تقدما وأدى إلى زيادة الإنتاج .

"أن كل تاريخ الإنسانية هو تاريخ تنظيم وتربية الإنسان الاجتماعى بالعمل، بهدف الحصول منه على إنتاجية أكبر. أن الإنسان لهو، كما سمحت لنفسى آنفاً أن أعبر، كسول، أى يحاول بالغريزة أن يحصل بأقل جهد ممكن على أكبر حد ممكن من المنتجات. وبدون هذا الميل، لن يكون ثمة وجود للتطور الاقتصادى. أن نمو الحضارة يقاس بإنتاجية الإنسان، وكل شكل جديد من أشكال العلاقات الاجتماعية ينبغى أن يمتحن على حجر المحك هذا" .

* * *

كان طبيعياً أن ينشأ خلاف حاد بين القواعد العمالية وما بين القيادة السوفيتية بزعامة لينين وتروتسكى. وقد ظهر هذا الخلاف ودخل فى مرحلة جديدة بظهور "المعارضة العمالية" التى رأسها زعيم عمال الصناعات المعدنية شليا بنكوف ورفعت لوائها مدام كولونتاى وعندما عقد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى ٨ – ١٦ مارس ٢١ تقطبت المعسكرات وكانت قضية إدارة العمل وعلاقة النقابات بالدولة والبيروقراطية الحزبية هى المواضيع الرئيسية التى أحتدم فيها الحوار .

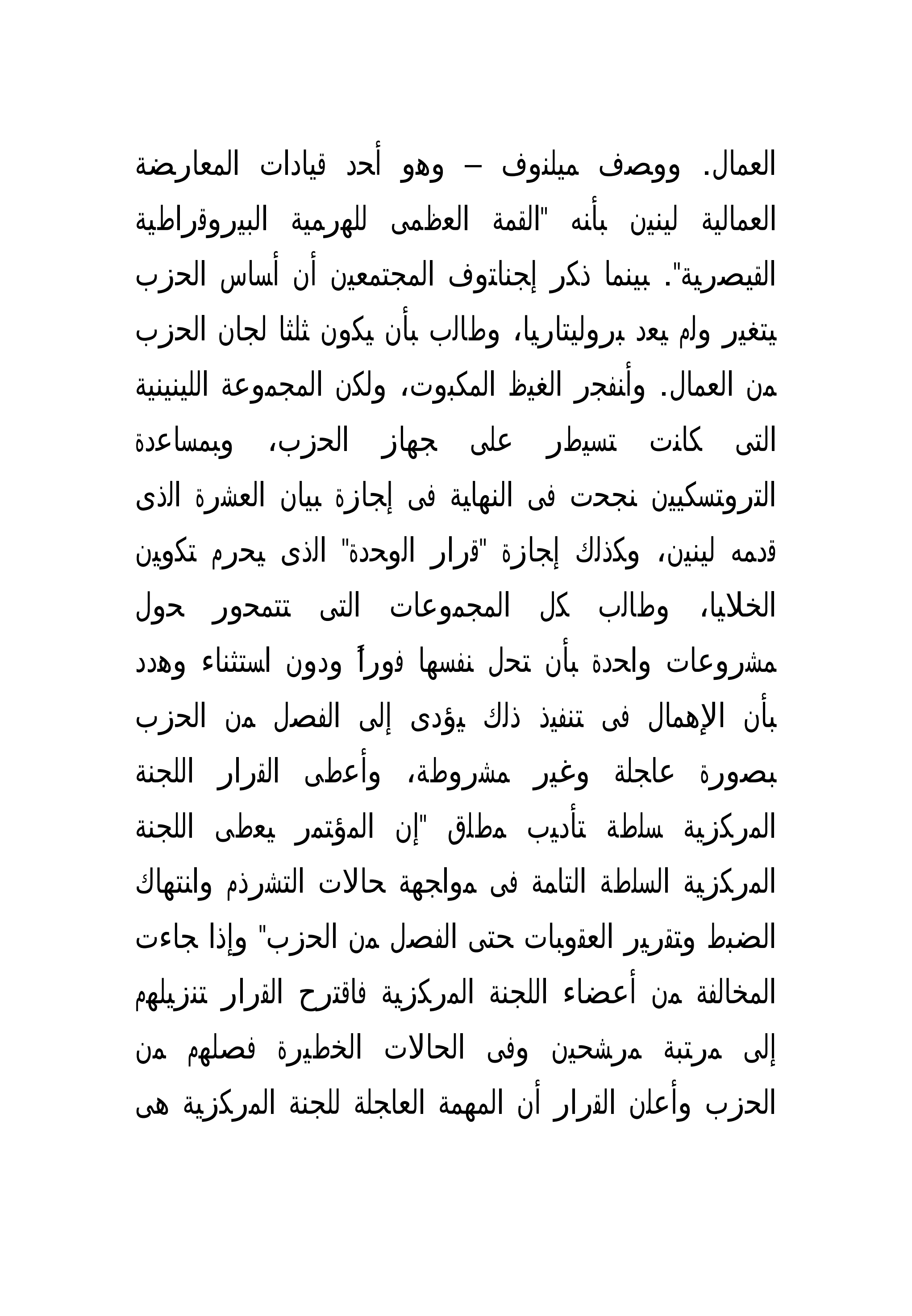
فى هذا المؤتمر قدم لينين بيانا حمل اسم بيان العشرة وقدم تروتسكى بيانا آخر، بينما قدمت مدام كولونتاى بيان المعارضة العمالية وشرحت الفكرة فيها فى رسالة بأسم المعارضة العمالية تحت ثلاثة عناوين أساسية الأول (جذور المعارضة العمالية) شرحت فيه الملابسات السياسية والاقتصادية التى تحكمت فى الاتحاد السوفيتى وقضت على الحزب الشيوعى بانتهاج سياسة معينة. والفصل التالى عن (النقابات ودورها ومشكلاتها) وعرضت فيه انعكاسات السياسة التى انتهجها الحزب على الحركة النقابية باعتبارها

أكبر حركة تضم الطبقة العاملة وانتقدت – بالطبع – وبقدر من الصراحة سياسات لينين وتروتسكى وزينوفيف وبوخارين وبقية قيادات الحزب وهذا الفصل على أنه الذى يمثل فى الأذهان الموضوع الرئيسى، ليس هو أكبر الفصول الثلاثة. إن أكبرها هو الفصل الثالث الذى جاء بعنوان البيروقراطية والنشاط الذاتى للجماهير فهذا الفصل يتضمن أقسى نقد للبيروقراطية والمركزية وما يمكن أن تجره على الحزب وعلى البلاد بأسرها[1] .

وأفتتح لينين المؤتمر فوصم المعارضة العمالية بأنها "تهديد للثورة". وأنثال الآخرون بعد أن فتح لينين لهم الباب. وسادت هستيرية لم تعرف من قبل فى مؤتمرات الحزب، بينما نددت المعارضة العمالية بالبيروقراطية داخل الحزب باعتبارها سبب الفجوة ما بين القيادات والجماهير، وطالبت أعضاء الحزب بأن يقوموا بممارسة العمل اليدوى لفترات منتظمة من الوقت لجعلهم على صلة مباشرة بظروف عمل

---

(٢) لقد عالجنا قضية المعارضة العمالية بإفاضة فى كتابنا "المعارضة العمالية فى عهد لينين – دار الفكر الإسلامى" .



العمال. ووصف ميلنوف – وهو أحد قيادات المعارضة العمالية لينين بأنه "القمة العظمى للهرمية البيروقراطية القيصرية". بينما ذكر إجناتوف المجتمعين أن أساس الحزب يتغير ولم يعد بروليتاريا، وطالب بأن يكون ثلثا لجان الحزب من العمال. وأنفجر الغيظ المكبوت، ولكن المجموعة اللينينية التى كانت تسيطر على جهاز الحزب، وبمساعدة التروتسكيين نجحت فى النهاية فى إجازة بيان العشرة الذى قدمه لينين، وكذلك إجازة "قرار الوحدة" الذى يحرم تكوين الخلايا، وطالب كل المجموعات التى تتمحور حول مشروعات واحدة بأن تحل نفسها فوراً ودون استثناء وهدد بأن الإهمال فى تنفيذ ذلك يؤدى إلى الفصل من الحزب بصورة عاجلة وغير مشروطة، وأعطى القرار اللجنة المركزية سلطة تأديب مطلق "إن المؤتمر يعطى اللجنة المركزية السلطة التامة فى مواجهة حالات التشرذم وانتهاك الضبط وتقرير العقوبات حتى الفصل من الحزب" وإذا جاءت المخالفة من أعضاء اللجنة المركزية فاقترح القرار تنزيلهم إلى مرتبة مرشحين وفى الحالات الخطيرة فصلهم من الحزب وأعلن القرار أن المهمة العاجلة للجنة المركزية هى

تحقيق وحدة وفعالية بنيان لجان الحزب، وخصص خمسة من أعضاء اللجنة للتفرغ لزيارة اللجان الإقليمية وحضور الاجتماعات الإقليمية للحزب .

وقام تروتسكى بقسط كبير فى مهاجمة المعارضة العمالية وقال: "إنها جاءت بشعارات خطيرة، وجعلت من المبادئ الديمقراطية وثناً ووضعت مبدأ حق العمال فى انتخاب ممثليهم فوق الحزب، كما لو لم يكن من حق الحزب أن يوطد ديكتاتوريته – حتى لو تصادمت هذه الديكتاتورية مؤقتا مع الاتجاهات المعارضة للديمقراطية العمالية" وتحدث عن حق الميلاد التاريخى والثورى للحزب قائلاً: "إن الحزب مجبر على الحفاظ على ديكتاتوريته بصرف النظر عن التذبذبات فى الطبقة العاملة، فإن الديكتاتورية لا تقيم نفسها فى كل لحظة معينة، على الأساس الصورى لمبدأ الديمقراطية العمالية" ..

وفى أعقاب المؤتمر العاشر أخضعت المعارضة العمالية لسلسلة من الاضطهادات. وكان على الحزب أن يقضى على نفوذ المعارضة فى نقابة الصناعات المعدنية التى يتزعمها مدفدوف Medvedov وفى مؤتمر النقابة العامة

الذى عقد فى مايو سنة ١٩٢١ قدمت اللجنة المركزية للحزب قائمة بأسماء المرشحين الذين تزكيهم لقيادة النقابة. وصوت العمال ضد قائمة الحزب. ولكن هذا الأمر كان عقيماً، فقد عين الحزب رجاله فى مناصب القيادة وفشلت المعارضة. وفى مارس سنة ١٩٢٢ عقد مؤتمر آخر للنقابة نفذت فيه سياسة الحزب عن طريق "خلية الحزب" التى حضر اجتماعاتها شخصيات بارزة من الحزب مثل – زينوفيف – لينين – ستالين – مولوتوف – كامنيف وكلارازتكين .

وبعد بضعة شهور أسس المؤتمر الحادى عشر للحزب الذى عقد فى ٢٧ مارس – ٢ أبريل سنة ١٩٢٢ لجنة خاصة لتقصى نشاط "المعارضة العمالية" وأعلنت أن كل صور المعارضة المنظمة خلال السوفيتات تعد غير مشروعة .

وعين المؤتمر الحادى عشر ستالين سكرتيراً عاماً للحزب ...

* * *

أن استعراض ما جاء فى هذا الفصل يوضح كيف أن السلطة أفسدت أعظم أمل للعمال فى بناء مجمع اشتراكى

وجعلت الاتحاد السوفيتى بؤرة للإرهاب الحكومى والتسلط وأن رجال الحزب ومن حولهم كونوا طبقة استحوزت على السلطة واحتكرت المناصب وقتلت كل المبادءة الخلاقة. وأن البيروقراطية وما تتصف به من التخطيط المركزى من جمود جعل الأداء الاشتراكى عقيما متخلفاً .

* * *

لن يغفر التاريخ للينين وتروتسكى إنهما عندما ظفرا بثقة العمال وطاعتهم وعندما دعم العمال بكل قوة الثورة الناشئة والسلطة التى تمخضت عنها.. لم يحاولا الإفادة من هذا الجمهور وهذا التأييد لإبداع خطط للإدارة: إدارة الإنتاج أو إدارة الدولة.. تقوم على إيمان الجمهور وتجاوبه مع قادته، وما يتفرغ عنه من أساليب تختلف عن الأساليب التى وضعتها النظم الرأسمالية والعسكرية، والتى – لما كانت لا تتمتع بمحبة العمال أو تجاوبهم، بل تقوم على استغلالهم، فلم يكن أمامها إلا سبيل الإجبار والإرهاب والضبط والربط والتسيير من أعلى.. ولكن لينين وتروتسكى ظفراً بما لم يظفر به أى حاكم، عندما رفعاً الشعار الذى استحوز على قلوب العمال شعار العدالة، شعار إسقاط الرأسمالية وعبودية

الأجور واستغلال النفوس فظفرا بأعظم رأس مال إيمانى يمكن لحاكم أن يتمتع به. ويبدع فيه وسائل جديدة للعمل. فأهدرا رأس المال الإنسانى الاشتراكى التى تراكم عبر القرون كأن لم يكن. وسلكا سبيل الرأسماليين والطغاة والظلمة، وفجعا البشرية فى أجمل آمالها وجعلا من ثوب زفافها قميص كتافها. وقابلا العمال بسوط العذاب وعسكرة العمل .

لقد كانت محاولة لينين وتروتسكى إرغام العمال على الإنتاج، وعسكرة العمل أسوأ من الرأسمالية لأنها جعلت العمل سخرة وعندئذ يكون كل كلام لينين وتروتسكى مكابرة، بل نوعاً من التشنج المذهبى وهذا فى الحقيقة هو شأن معظم كتابات لينين وتروتسكى. ومما يفاقم فى مسئولياتهما أن أسلوبهما الفج أعتبر هو الأسلوب الاشتراكى الذى أبدعه منظرا الاشتراكية وطبق هذا الأسلوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا وجر أنهاراً من الدماء.. وأقام جبالاً من الأخطاء.. ظلمات بعضها فوق بعض عوالم من الزيف والضلال والتعصب .

وبدلا من أن يدفن الاتحاد السوفيتى الرأسمالية فإنه تهاوى بحكم فساد العوامل الداخلية التى كان يخفيها النظام ودعايته حتى أودت به دون أن تطلق الرأسمالية عليه طلقه واحدة ..

* * *

إذا كانت هذه هى سطوة الدولة على العمال – شعب الاشتراكية الأثير، فلنا أن نتصور ماذا تكون – سطوه الدولة على غيرهم؟ لم يتسع الوقت للينين لأن يطبق سياسته الاقتصادية الاشتراكية، بل إنه أضطر لأن يقلع عنها فيما سمى بالسياسة الاقتصادية الجديدة NEP ووقع تطبيق التصور الاشتراكى للزراعة على ستالين الذى طبقه بكل ما عهد فيه من فظاظة وفجاجة ووحشية إذ أراد أن يطبق المزارع الجماعية. والزراعة هى آخر مجال يمكن أن يصبح جماعياً. فالفلاح فردى بالطبيعة، ولا يمكن للتخطيط أن يفرض نفسه على ملايين الفلاحين الذين لا يعلمون إلا ما ورثوه عن أبائهم. وكان يمكن وضع سياسة لتحديث الزراعة. مع منح كل فلاح قطعة أرض صغيرة. فهذا كان متاحاً، وكان يرضى الفلاحين جميعاً وينهض بالزراعة

وإزدهار الزراعة وتحسين الحال سيعود على الدولة فى النهاية، ولكن هذا الجورجى المتوحش ستالين، أراد بجدع الأنف أن يحقق سياسة المزارع الجماعية فأوفد فيالق الحزب والجيش لمصادرة كل ما لدى الفلاحين من أقوات وأطلق على هؤلاء البوساء اسم "الكولاك" أى الملاك وترك هؤلاء الملاك ليموتوا جوعاً فى برد وصقيع سيبرياً وبقدر أن ما لا يقل عن عشرة ملايين فلاح مات فى معركة الزراعة الجماعية الفاشلة .

وأصبحت الفنون والآداب ملك للدولة. وصودرت كل الصحف باستثناء صحيفتين يوميتين إحداهما تحمل اسم الأخبار والأخرى اسم الحقيقة وقال معلق "ليس فى الأخبار حقيقة. وليس فى الحقيقة أخبار" .

أما النقابات فإنها اعتبرت "السير ناقل القوى" من الحزب للجماهير ويعنى هذا أنه ليس لديها حرية أو استقلال أو مبادئ لأنها ليست إلا سيراً ينقل عن الحزب الذى اعتبر هو مصدر الحركة والطاقة ووصلت المأساة درجة أقامت فيها النقابات سجوناً للعمال المقصرين !! .

لقد أثبتت نظرية الحزب التى أبدعها لينين قوتها وفعاليتها. وأصبحت هى التى تربط الاتحاد السوفيتى رغم أن هذا الاسم لا يمثل حقيقة لأنه ليس اتحاداً إذ كلمة اتحاد توحى بوجود وحدات لها قدر من الحرية قبلت أن تتحد مع غيرها. وقد أجبرت أجباراً كل ولايات ومقاطعات القارة الروسية على الاندماج وأن تكون كتلة واحدة بفضل حزم الحزب لها وربطة إياها برباط وثيق. وليس "سوفيتياً" لأن السوفيتات كانت من خلق ثورة مارس الديمقراطية. وما أن تمكن لينين من السلطة حتى وأدها وأصبح للحزب – وليس السوفيتات هى الحاكمة .

ولعل الإنجاز الحقيقى للينين أنه حيد الجيش فلم يتحرك الجيش طوال سنوات ستالين الطائشة، لأن الحزب كان قابضاً على الزمام بصورة فاقت كل ما يمكن أن يصل إليه الجيش. لأنه كما قلنا كان جيشاً مدنياً يحكم البلاد من داخلها.

فى النهاية نجد أن السلطة أفسدت الاشتراكية وحولتها إلى المدرسة الأم للحكم الشمولى تعلم على يدها وفيها هتلر وموسولينى وبقية الطغاة. وطبقت الأحزاب الاشتراكية أساليبها الشنيعة القاتلة على العالم بأسره فى أفغانستان أو

كمبوديا أو الحبشة أو البلقان وأقامت أهرامات من الجماجم أكبر من أهرامات مصر .

* * *

وهناك جناية أخرى أرتكبها لينين فى حق التطور السياسى العالمى هى شل حركة الاشتراكية الديمقراطية التى كانت قد ازدهرت فى السنوات الأولى للقرن العشرين تحت قيادة سدنة الماركسية وحملة وصية ماركس كاوتسكى وبيرنشتين الألمانيين اللذين قادان الحزب الديمقراطى الألمانى. وعندما ظهر لينين أعلن حرباً شعواء على كاوتكسى وبيرنشتين وأطلق عليهما كل ما فى قاموسه من بذاءات وأتهامات بالعمالة، والانتهازية والهرطقة والانحراف الخ... ولم يسترح إلا بعد أن شطب كلمتى الاشتراكى الديمقراطى من الأحزاب الاشتراكية الأوربية. وكانت الضحية الأولى لهذه الحملة هى جمهورية فايمار التى قامت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٩) بقيادة الحزب الاشتراكى الديمقراطى فقد قاوم الشيوعيون بكل قوة وعرامة هذه الجمهورية وأطلقوا على الاشتراكيين الألمان لفظ الفاشية وناصروا هتلر بفكرة أنه ما أن يقضى عليهم حتى يأتوا

دورهم هم (أى الشيوعيين) فى الحكم. ومن سخريات الأقدار أن هذه الحرب على فايمار هى التى مكنت هتلر من الصعود وهى التى جعلته يقضى على الحزب الشيوعى الألمانى قضاء مبرماً ثم يندار على الاتحاد السوفيتى ويحاربه حرباً ضروساً مدمرة أوقفته على شفا الهزيمة لولا مساعدة الحلفاء وقضت على قرابة عشرين مليونا من شباب الاتحاد السوفيتى .

ونتيجة للحرب الشعواء التى شنها لينين على الاشتراكية الديمقراطية، تقهقرت هنا، وفقدت صدارتها للحركة الاشتراكية حتى تهاوى الاتحاد السوفيتى أخيراً، وعادت الديمقراطية الاشتراكية، بعد أن حجبها لينين قرابة خمسين عاماً كان يمكن أن توفر فيها التخبط السياسى والمأساة الدموية مأساة الحروب العالمية الثانية .

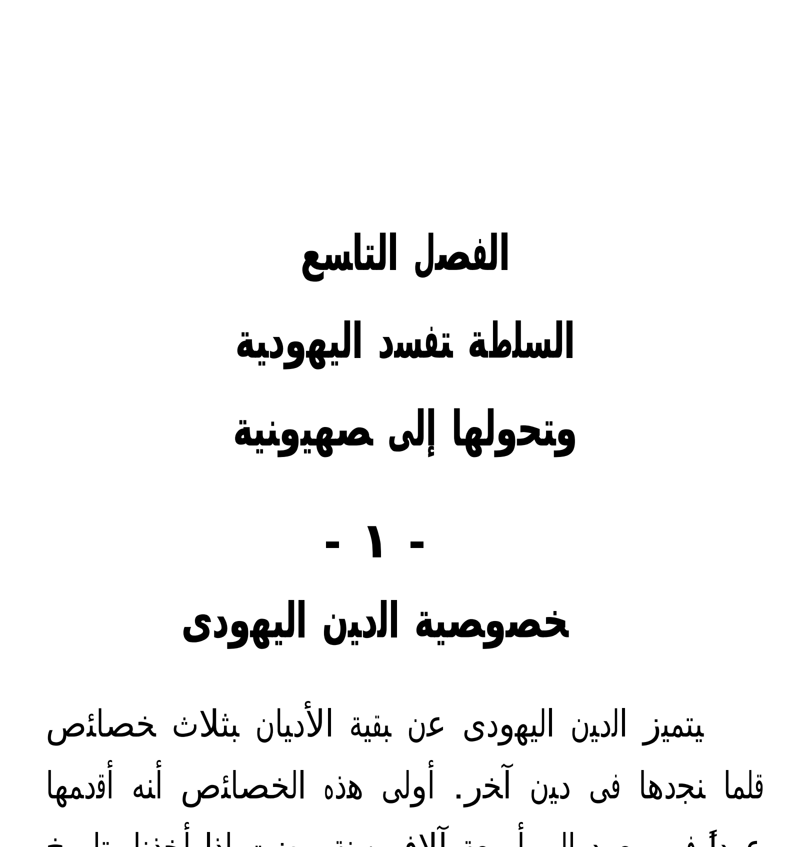
* * *

ولاقى لينين الذى فعل كل هذه الأفاعيل نهاية غير متوقعة أشار إليها دوتشر فى كتابه "سخريات التاريخ" ففى المؤتمر الأخير الذى حضره (أبريل ١٩٢٢) عبر عن أنه يحس بما يحس به السائق عندما يرى العربية تسير فى غير

الطريق التى وجهها له. وأن قوى كبيرة حولت الدولة السوفيتية من هدفها السليم عندما أقعده الشلل وأنفسح المجال لستالين ليمارس فظاظته حتى مع زوجة لينين ورفيقه كفاحه "كروبسكايا" تبين لينين خطأه الفظيع عندما حطم المعارضة العمالية التى كانت تندد ببيروقراطية المركزية الديمقراطية" وسيطرة الحزب والقضاء على كل صور الديمقراطية وفى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ غافل أطباءه وممرضاته وبدأ ما عرف بوصيته التى بدأها "أنه ليبدو أننى مذنب أمام عمال روسيا I am, it seems, strongly guilty before the workers of Russia ..

لم يقرأ الشعب الروسى هذه الكلمات وما تلاها فقد تكتم عليها ستالين وزملاءه لمدة ثلاث وثلاثين سنة. قبل أن يعلنها خروشوف فى المؤتمر العشرين ..

إنها إحدى سخريات التاريخ، ولكنها سخرية تراجيدية محزنة تعرض لنا فرعوناً آخر غير فرعون مصر يتوب عند الغرغرة، قبل أن تبتلعه الأمواج ..



الفصل التاسع

السلطة تفسد اليهودية

وتحولها إلى صهيونية

- ١ -

خصوصية الدين اليهودى

يتميز الدين اليهودى عن بقية الأديان بثلاث خصائص قلما نجدها فى دين آخر. أولى هذه الخصائص أنه أقدمها عهداً فهو يعود إلى أربعة آلاف سنة مضت إذا أخذنا بتاريخ دعوة إبراهيم ١٩٥٥ ق. الميلاد، والثانية أنه دين مغلق، مقصور على جنس واحد هو بنى إسرائيل. ومع أنه يبدأ من إبراهيم، وأن إبراهيم كان له الأبناء إسماعيل، بل هو أبنه البكر، فقد استبعد التاريخ الإسرائيلى إسماعيل، بل وصفة بصفة تكاد تكون ألصق به، أو هى من "الإسقاط" السيكولوجى "يده على الجميع، ويد الجميع عليه، وهو ما

يصدق على الجنس اليهودى أكثر مما يصدق على أبناء إسماعيل.. ومن أول سطر ولعله أقدس سطر – نجد أنه نبى إسرائيل يصطفى إسرائيل ونسله ويفضله على العالمين ويهب له كل الأرض من نهر التل إلى النهر الكبير الفرات وأن تكون العلاقة بينه وبينهم الختان. كما أن تقديس السبت يأخذ أهمية كبرى بحيث حكم على حطاب احتطب يوم السبت بالإعدام رجما بالحجارة وسنرى أن التقاليد والعادات والمواسم والأعياد كلها مرتبطة بالجنس اليهودى أو بمناسبات تعلقت بتاريخه، وأخيراً فإن الخاصية الثانية هى أن هذا التاريخ الطويل حتم على اليهود التعايش مع "الأغيار" وفى فترات القوة فإنهم لا يرقبون إلا ولا ذمه معهم، فأرضهم وناسهم ونساؤهم كلها مباحة للجنس اليهودى المختار. ولكنهم فى فترات الضعف يتسللون إلى المجتمعات الأخرى بصورة تبقى عليهم، وفى حالات كثيرة. تسمح لهم بالبروز، وهم مع هذا يحتفظون بطبيعتهم الخاصة ولا يفرطون فيها. ولما كان تاريخهم طويلاً فقد شاهد عدوان الإسرائيليين احتكرت على ضراوتهم فى عهد قوتهم، ثم شاهد مقاومتهم المستيئسة للشعوب والحضارات الأقوى، ثم استسلامهم وتسللهم .

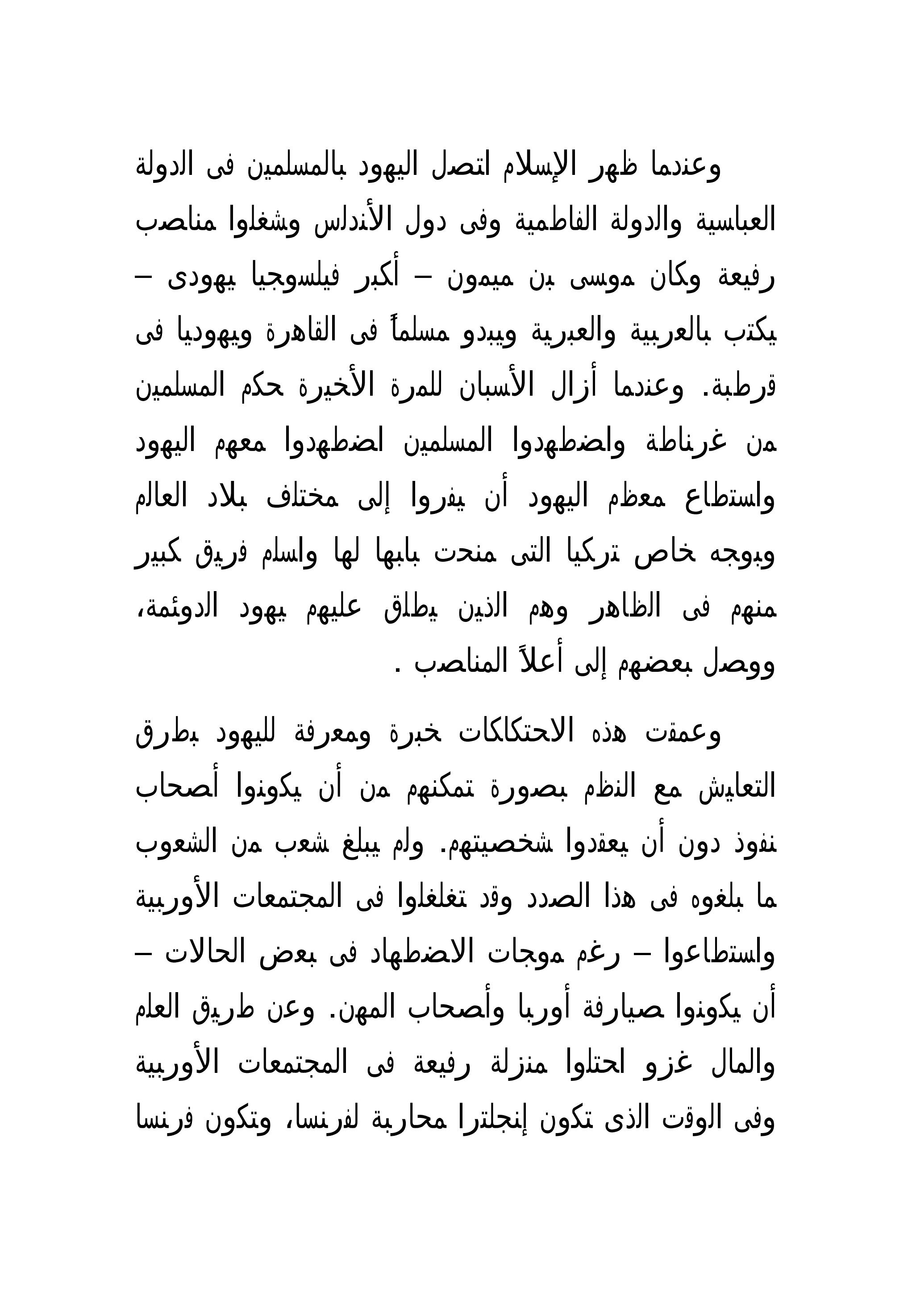
ومع أن من مقتضى هذه الخصائص الاحتفاظ بشخصيتهم المميزة وعدم التأثر بالشعوب والحضارات الأخرى إلا أن طبائع الأشياء أغلب. وكان لابد أن تؤثر الحضارات الأخرى التى كانت تماثل الدين اليهودى فى العراقة – كالحضارة المصرية القديمة وحضارة الرافدين على العادات والتقاليد اليهودية وأن تثريها بعناصر ليست فى الديانة المغلقة المقصورة على جنس واحد .

وقد نشأت الديانة اليهودية أولاً فى أورين فى الرافدين ومركز الحضارة الكلوانية الآشورية (كان إبراهيم معاصراً لحمورابى الملك والمشرع الكبير) وقد بدأ دعوته فى السنة الأولى لملك هذا العاهل الذى عرف بقوانينه، ثم انتقل إبراهيم إلى كنفان (فلسطين) بناء على رؤية مصطحباً زوجته سارة ولوط ابن أخيه. ثم انتقل إلى مصر عندما أصاب الجفاف فلسطين وعاد مرة أخرى إلى كنفان حيث ولد له إسماعيل واسحق وأبعد إسماعيل وأمه إلى الحجاز بينما استقر اسحق وتجوز وانجب يعقوب الذى سيحمل اسم إسرائيل. ورزق يعقوب اثنى عشر طفلاً هم الأسباط. فهم يهوداً الذى منحه

حق "البكورية" ومنهم يوسف وهو أحد أبنائه إلى نفسه. وهو الذى أغر به أخوته وباعوه لقافلة مسافرة إلى مصر .

وتكررت قصة هجرة إبراهيم إلى مصر إذ أصاب الجفاف فلسطين فأرسل يعقوب أبنائه ليمتازوا. وكان يوسف الذى يتبع بوزير ملك مصر قد وصل إلى منصب رفيع فى الدولة له نجح فى تأويل ظلم الملك عن السبع بقرات العجاف التى تأكل سبع بقرات سمان بأنه سيحل بالبلاد جفاف يستمر لسبعة سنوات تسبقه سبع سنوات رخاء. وعندما جاء أخوته ليمتارو عرفهم ولم يعرفوه.. فى النهاية وعاصم للإقامة فى مصر فر رعاية الحيثيين الذين كانوا يحكمون مصر وقتئذ. وحسنت حالتهم، ولكن طرد المصرية للحيثيين وزيادة عدو بنى إسرائيل جعل المصرين يسيئون معاملتهم ويستخدمونهم فى الأعمال الشاقة وبناء المعابد الخ... حتى ظهر فيهم موسى (سنة ١٦٠ ق. م) الذى أشفقت عليه أمه عند ولادته أن يقتله المصريون فوضعته فى سلة ودفعت بها إلى النيل. فالتقطها أبنه فرعون وتبنته فنشأ موسى فى بلاط فرعون كما لو كان نبيلاً مصرياً. واصطفاه ا لينقذ بنى إسرائيل ويحررهم، وثم هذا بعد، وسار بهم إلى فلسطين، ومات

موسى قبل أن يدخل فلسطين وقام بهذه المهمة يوسع. ولهذا بدأ استقرار الإسرائيليين الأول فى فلسطين، وتعرفوا على الحضارة الرومانية. وتكونت مملكتان هى مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم ومملكة إسرائيل وعاصمتها شكيم ثم السامرة. ودامت الأولى ٣٤٦ سنة حتى أسر بابل ودامت الثانية ٢١٠، وفى هذين هدم المعبد ونقل الإسرائيليون آسرى إلى بابل، وبهذا عاد اليهود مرة أخرى إلى موطنهم الأصلى الذى أصبح متنقل نفاهم ودار عزبتهم. ولكنهم رجعوا إلى فلسطين بعد أن حررهم الفرس من حكم الكلدانيين. وأعادوا مرة أخرى بناء الهيكل. وجاء الإسكندر وهزم الفرس وخضعت إسرائيل للبطالسة بمصر ثم للسلوقيين بسوريا حينا من الدهر ليخضعوا للرومان (سنة ٤٠ ق. م) ويمكن هيروس كبير اليهود أن يحصل من الرومان على لقب "ملك اليهود" وظل اليهود تحت حكم الرومانية وتعرضوا ولكن الصراع بين اليهود والرومان كان متصلاً وهدم المعبد مرتين سنة ٧٠ قبل الميلاد ومرة سنة ١٣٣ ميلادية عندما دمر نهائياً وحظر الرومان الديانة اليهودية وهاجر معظم اليهود البالغين إلى بابل .



وعندما ظهر الإسلام اتصل اليهود بالمسلمين فى الدولة العباسية والدولة الفاطمية وفى دول الأندلس وشغلوا مناصب رفيعة وكان موسى بن ميمون – أكبر فيلسوجيا يهودى – يكتب بالعربية والعبرية ويبدو مسلماً فى القاهرة ويهوديا فى قرطبة. وعندما أزال الأسبان للمرة الأخيرة حكم المسلمين من غرناطة واضطهدوا المسلمين اضطهدوا معهم اليهود واستطاع معظم اليهود أن يفروا إلى مختلف بلاد العالم وبوجه خاص تركيا التى منحت بابها لها واسلم فريق كبير منهم فى الظاهر وهم الذين يطلق عليهم يهود الدوئمة، ووصل بعضهم إلى أعلاً المناصب .

وعمقت هذه الاحتكاكات خبرة ومعرفة لليهود بطرق التعايش مع النظم بصورة تمكنهم من أن يكونوا أصحاب نفوذ دون أن يعقدوا شخصيتهم. ولم يبلغ شعب من الشعوب ما بلغوه فى هذا الصدد وقد تغلغلوا فى المجتمعات الأوربية واستطاعوا – رغم موجات الاضطهاد فى بعض الحالات – أن يكونوا صيارفة أوربا وأصحاب المهن. وعن طريق العلم والمال غزو احتلوا منزلة رفيعة فى المجتمعات الأوربية وفى الوقت الذى تكون إنجلترا محاربة لفرنسا، وتكون فرنسا

محاربة لألمانيا، فأن أبناء روتشتلد فى إنجلترا، وفى فرنسا وفى ألمانيا يحصدون ثمرة هذه الحروب .

وعندما أراد دزرائيلى أن تشترى انجلترا أسهم شركة صال الشعب من مصر ولم يكن البرلمان منعقد أرسل وزرائيلى سكرتيره إلى روتشيلد فزاره وهو على مائدة العشاء، وعلى مائدة العشاء أمروا تشيلد بتقديم المبلغ فى صباح اليوم التالى .

وفى الأيام الأولى لدخولهم المجتمع الأوربى، فإن لفيفا من كبرائهم تنصر لأن المسيحية كانت شرطاً لازماً، ولكن فيما بعد لم يعد ذلك لازما وعندما اختير البارون روتستيلد نائبا فى البرلمان أثارت مسألة قسمة على غير الإنجيل. وعندما نبأ عن ذرائيلى رئيساً للوزارة وتجاوب معه صديق عن وقع هذا قال ".. هذا حقيقى وكما نقول فى الشرق "ا أكبر" وهو الآن أكبر من أى وقت آخر" .

لم يكن والأمر هكذا من الغريب أن يتسال النفوذ اليهودى إلى أعلاً دوائر المال والسياسة فى انجلترا والولايات المتحدة وأن يظفر أخيراً بإعلان بلفور، ويفتح باب فلسطين لليهود ليصبحوا فيها وطناً قوميا .

- ٢ -

الميثولوجيا التى
صنعت النفسية اليهودية

يطلق تعبير "الميثولوجيا" عادة على منظومة الآلهة، اليونانية التى سجلها هو ميروس وهزيود وغيرهما من شعراء اليونان الأقدمين وتولوا عالم "الأوليمب" بما فيه من آلهة يرأسهم زيوس ويحف به بقية الآلهة هيرا، وفينوس، ومارس وأبولو الخ... وتحدثت الميثولوجيا طويلاً عن مغامرات هذه الآلهة التى وهبت قوة الآلهة ونزف البشر، وتدخلها فى مصاير الدول والجماهير، وعندما غبار ذكر اليونان وعلا ذكر روما نقلت روما عنها هذه الميثولوجيا بعد أن غيرت الأسماء إلى أسماء رومانية .

وانغرس عميقاً أثر الميثولوجيا فى النفسية اليونانية والرومانية، دورتها عنها المجتمعات الأوربية التى أرضيت الحكم اليونانى – الرومانى .

وتقف الميثولوجيا على مشارف آلفين والفين وقد تبدأ من نقطة تمثل أبرز ما فى شخصية اليونان أو الرومان، ولكنها تبسط هذه النقطة وتكتنفها وتضفى عليها من عطاء الفنان – عادة الشاعر – عبقريته الخاصة أطيافاً وأعماقاً تعطيها قوة وتجعل لها تأثيراً فعالاً بحيث تضاعف – أضعافاً مضاعفه – النقطة التى بدأت منها .

ولا تقدم فى الميثولوجيا خيطاً من نبوة لم يستسغها الوضع (كما هو الحال بالنسبة لكل الدعوات الدينية) فشوهت وحولت إلى كهانة فالميثولوجيا هى أبرز تجليات "الوثنية" أى الإلهية التى يصنعها الإنسان ويضفى عليها صفة الألوهية .

ولم يلحظ معظم المؤرخين السياسيين هذا الأثر، لأن دراسة الميثولوجيا عولجت فى كتب الاجتماع وليس فى كتب التاريخ ولهذا لم يظهر أثرها فى تطور المجتمعات. خاصة وأن الدراسات الأكاديمية نشئت نفسها بالجزئيات التى تضحى بالكليات، وتحصر نفسها فى دوائر الدراسات الجامعية المغلقة، ومن ثم دق أدراك الأثر الكبير للميثولوجيا على المجتمعات الحديثة، وتطورها التاريخى، ولعل خير من أدرك ذلك هو الكاتب الفرنسى القديم جوستاف لولون الذى

رأى أن الفعل يصنع المعلوم، ولكن العاطفة والأحاسيس والمشاعر هى التى تصنع التاريخ وتطور المجتمعات .

وإلى حد ما فلكل دينه "ميثلوجياته" والاختلاف بينهما هو فى الدرجة. وهو فى الإسلام أخفها، ولكن لا ينكر أن الفقهاء أقاموا قلعة من المفكر السلفى تحالف فى كثير مما ذهبت إليه ما نص عليه القرآن. وتأثروا بالثقافات الفارسية واليونانية وأقحموها فى الفقه والتفسير، كما أدى وجود "الموالى" إلى تطوير فى المجتمع الإسلامى الخ ...

كما أن الخرافات والتقاليد التى كانت قائمة عندما ظهر الإسلام، وحاول القضاء عليها، بقى بعضها، فالعصبية التى وضعها الرسول بأنها منتنة عادت مرة وأصبحت دعائم النظام الاجتماعى فى السعودية ومناطق الخليج – وعاد السحر، والتقديس، والشفاعة والأولياء، وهى كلها سمات للوثنية التى أوجدت الميثلوجيات، بقول أن هذه زحفت على الإسلام وزاحمت أفكاره الحقه وظفرت بتأييد الجمهور. ذلك لأن الأديان تتطلب درجة من السمو قد لا يتأتى للجميع بلوغها، فى حين تتحدث الميثولوجيا عن واقع الجماهير كما هو.. وأثقالهم وتصرفاتهم فلا عجب أن تكون أقرب إلى

قلوب الجماهير. ومعروف بالطبع ما عاناه الأنبياء من مشاق ليتوصلوا إلى إيمان المجتمع. وأنهم رغم صفتهم الاستثنائية – لم يحققوا نجاحاً تاماً .

وقد أثرت الميثولوجيا اليونانية/ الرومانية تأثيراً بإلقاء على الشخصية الأوربية بحيث نجد أحداثها وأبطالها فى الفنون والاجتماع، بل وتطلق على الأملاك وعلى أعماق علم النفس كما هو واضح تماماً فى التحليل تحليلاً فرويد. وقد كانت دراسة الآداب اليونانية هى أهم دروس "المدارس العامة – كما يقولون قبل ايتون ورجبى وهى التى تعلم أبناء الخاصة والأرستقراطية .

وأثرت الميثولوجيا اليهودية على المجتمع الأوربى. لأنها كانت كالميثولوجيا اليونانية حافلة بأحداث الحروب والهزائم والانتصارات والمؤامرات والعواطف والشخصيات التى تقوم بأدوار معينة، ولأن آلة بنى إسرائيل يشبه آلة الميثولوجيا اليونانية فهو يغضب ويرضى ويجابى شعبه ويوقع الهزائم بالشعوب الأخرى كما أن التاريخ الذى تقدمه عامل بالمؤامرات والدهاء الخ... ومن هنا دخلت الميثولوجيا اليهودية جميلة فى التوراة والآداب والمجتمعات الأوربية.

وقد كان اليهود من الذكاء بحيث أقحموا التوراة فى المسيحية بحيث أصبحت مطالعة التوراة جزءاً من واجبات المسيحى النصى. ولم يكن لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية التى وضعت بيان بلفور جاهلاً بحدود "الميثاق" الذى وضعه "يهودى" لإبراهيم ووعده فيه "بالأرض من نيل مصر إلى النهر الكبير الفرات" وقال لكلمنصو أن بيان بلفور قضى على أراض فلسطينية حسبما تشير التوراة من "بانياس إلى بئر السبع" .

إذا كان هذا هو أثر "الميثولوجيا" اليهودية على المجتمع الأوربى. فلنا أن نتصور أثرها العميق والشامل على اليهود لأنها تضم الدين، والفنون، والتاريخ، والشريعة الخ... ولأنه المحور الذى يدور عليه كل هذا هو أفضلية الشعب المختار وحقه فى السيادة على العالمين. وأن هذا الحق إنما جاء من آلة بنى إسرائيل فالتاريخ أصبح دينا، فهو ما أصبح الدين تاريخياً، واستطاع اليهود وهم أقدم أقلية فى التاريخ – فى يدهم هذه الوثيقة، أن يتقدموا – بفضل تراكمات متوالية عبر القرون – بحيث شغلوا منزلة تفوق بمراحل نسبتهم العددية. واندمجوا بذكاء فى المجتمعات الأوربية، وفى الوقت

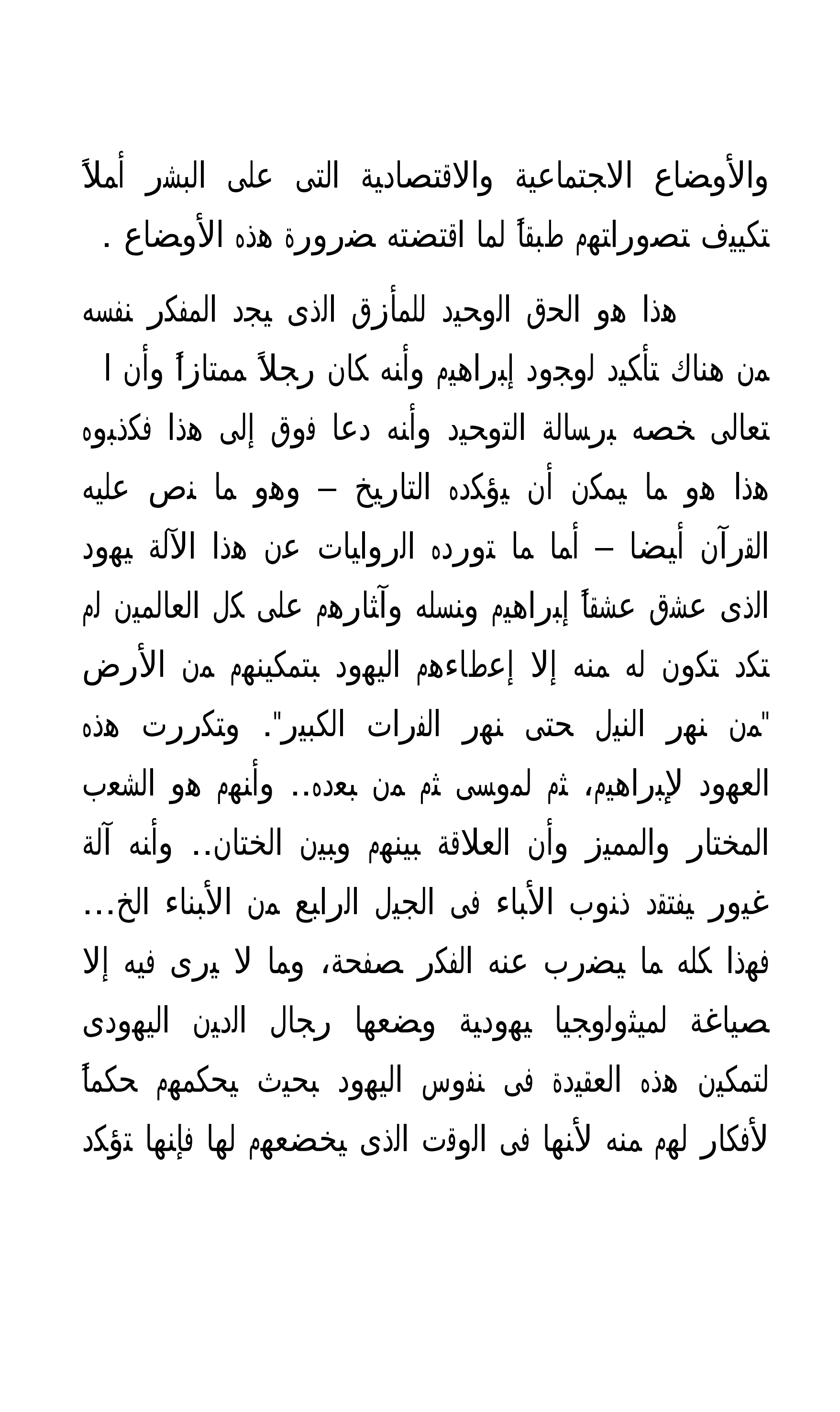
نفسه احتفظوا بشخصيتهم "التوراتية"، ولم يحل دون ذلك أن يؤمنوا بالإسلام كما فى يهود "الدونمة" أو بالمسيحية كما فى "ذراتيلى" الذى تغلغل فى الأرستقراطية البريطانية ورأس حزب المحافظين والوزارات أكثر من مرة، ومع هذا واصل إضرار الروايات التى تتم جذره اليهودى ..

لقد عاشت اليهودية حتى الحضارة الفرعونية المصرية، وعاشت الحضارة البابلية لحقب طويلة فى كل منها عشر قرون ثم عاصرت فى مرحلتها الأخيرة الحضارة الرومانية فى دورها حضارة الإسكندرية. ولم تكن هذه مجرد اتصالات ولكنها معايشة طويلة فقد ولد إبراهيم فى بابل وعاش فترة فيها ثم ذهب إلى مصر وعاد منها. وعاش نسله فى هذه المناطق وعاشر أهلها وتشرب بها – حتى فى الأسر البابلى اختلط اليهود بالمجتمع البابلى وكان لهم وجود بارز وهناك من الآثار ما ينم عن مؤسسة مالية لأكثر من قرنين يهود متوالين فى بابل. ثم عاش اليهود فى مصر وتربى موسى فى بلاط الفرعون كما لو كان نبيلاً مصرياً وخضع اليهود بعد فترة الترحاب بهم أيام يوسف إلى موجات من السخط عندما تحالفوا مع الحيثيين الغازيين ولما خرجوا إلى

فلسطين تأثروا بحضارة الكنعانيين وأخيراً عندما بسط الرومان حكمهم على هذه المناطق كلها تأثر اليهود بالحضارة الرومانية/ الهلبنسية وكانت الإسكندرية معقلاً لليهود كما كانت معقلاً للحضارة الهلبنسية. وفيها ترجمت التوراة وبقية كتب اليهود .

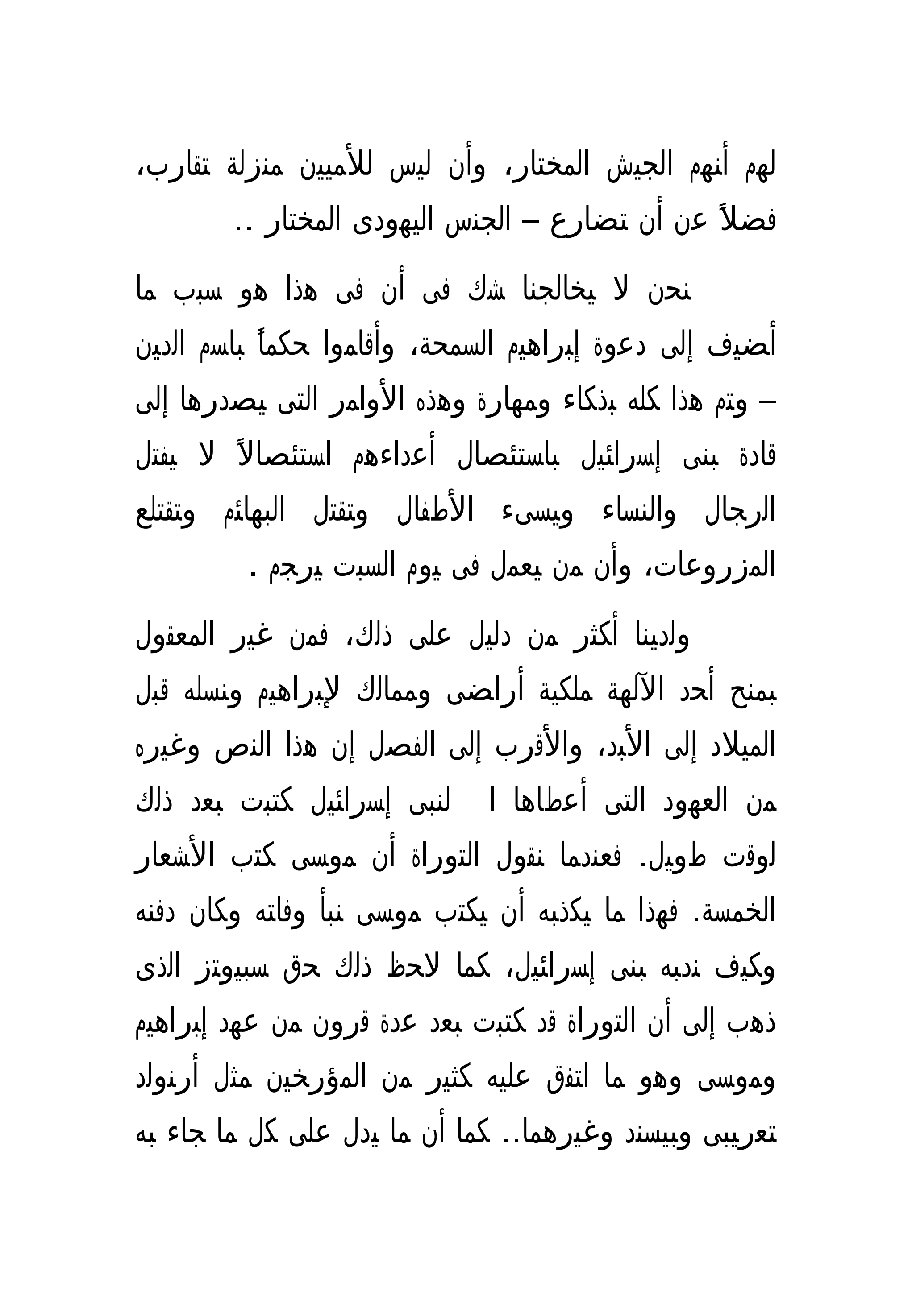
هذه المعاشرة الطويلة للمجتمعات الوثنية ذات الميثاوجيات المختلفة أثرت طويلاً على اليهود بحيث تأثرت كلمة إبراهيم ودعوته الحقه للإيمان با بهذه الميثاوجيات فاختلاطت بها وأوجدت ميثولوجيا يهودية خالصة عبرت عنها التوراة فى أشعارها الخمسة التكوين – والخروج – وازدهار أو اللاوبين والعدد وتثنيته التى يقولون أن موسى كتبها بخط يده (وكيف يكتب بخط يده خبر وفاته، وما بعده). الاشتراع وهى الأسعار .

كيف تم هذا ؟ أن هذا يتم بعشرات الطرق، وعلى امتداد عشرات ومئات السنين ويعمل فيها جنود مجهولين تسجل أعمالهم أو تعرف أسماؤهم ويتدرج شيئاً فشيئاً ويسلم الأسلاف إلى الاختلاف ليقدموا إضافتهم وليسلموه مرة أخرى إلى أصلا منهم... ووراء هذا كله التطورات التاريخية



والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى على البشر أملاً تكييف تصوراتهم طبقاً لما اقتضته ضرورة هذه الأوضاع .

هذا هو الحق الوحيد للمأزق الذى يجد المفكر نفسه من هناك تأكيد لوجود إبراهيم وأنه كان رجلاً ممتازاً وأن ا تعالى خصه برسالة التوحيد وأنه دعا فوق إلى هذا فكذبوه هذا هو ما يمكن أن يؤكده التاريخ – وهو ما نص عليه القرآن أيضا – أما ما توروده الروايات عن هذا الآلة يهود الذى عشق عشقاً إبراهيم ونسله وآثارهم على كل العالمين لم تكد تكون له منه إلا إعطاءهم اليهود بتمكينهم من الأرض "من نهر النيل حتى نهر الفرات الكبير". وتكررت هذه العهود لإبراهيم، ثم لموسى ثم من بعده.. وأنهم هو الشعب المختار والمميز وأن العلاقة بينهم وبين الختان.. وأنه آلة غيور يفتقد ذنوب الأباء فى الجيل الرابع من الأبناء الخ... فهذا كله ما يضرب عنه الفكر صفحة، وما لا يرى فيه إلا صياغة لميثولوجيا يهودية وضعها رجال الدين اليهودى لتمكين هذه العقيدة فى نفوس اليهود بحيث يحكمهم حكماً لأفكار لهم منه لأنها فى الوقت الذى يخضعهم لها فإنها تؤكد

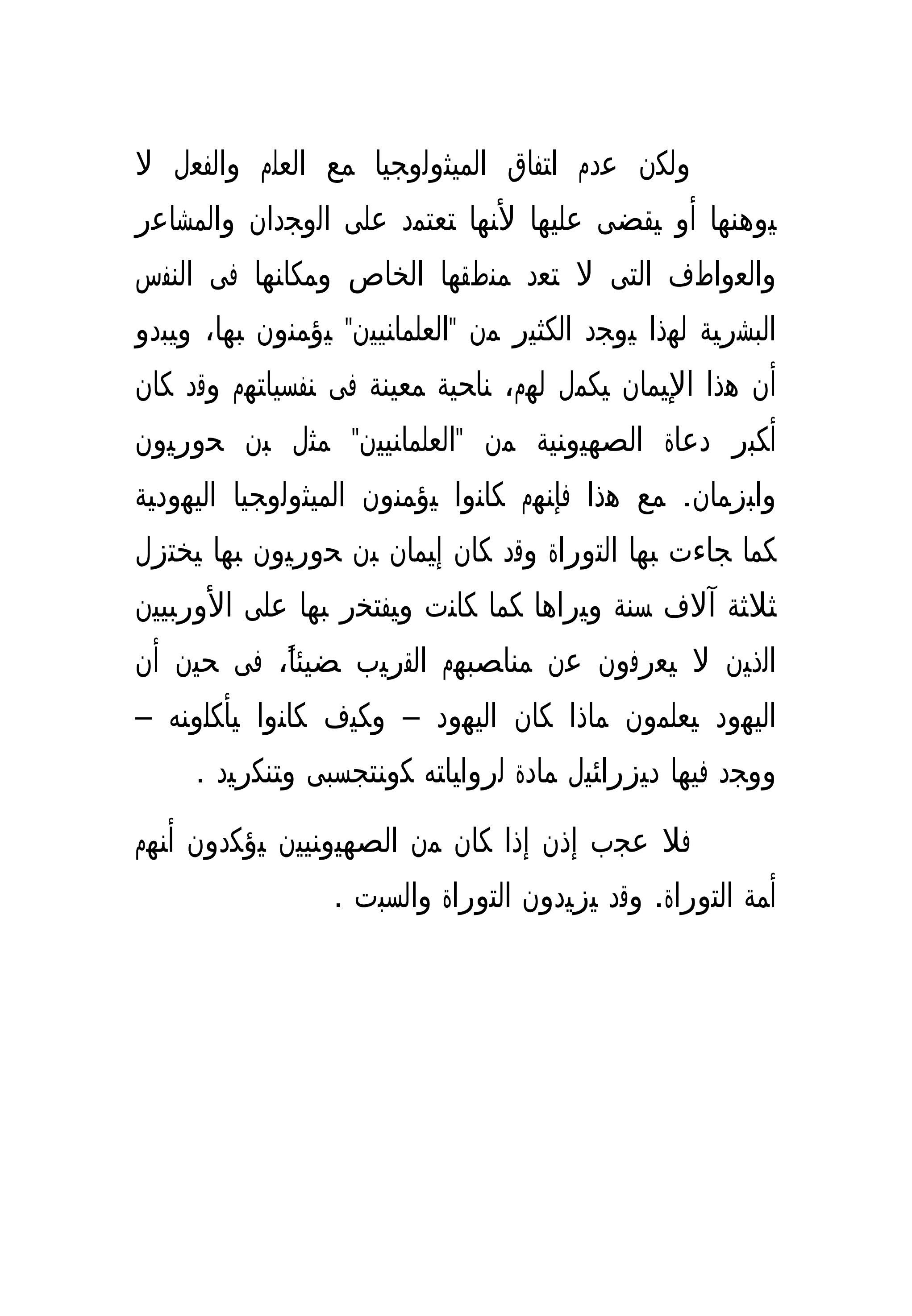


لهم أنهم الجيش المختار، وأن ليس للأميين منزلة تقارب، فضلاً عن أن تضارع – الجنس اليهودى المختار ..

نحن لا يخالجنا شك فى أن فى هذا هو سبب ما أضيف إلى دعوة إبراهيم السمحة، وأقاموا حكماً باسم الدين – وتم هذا كله بذكاء ومهارة وهذه الأوامر التى يصدرها إلى قادة بنى إسرائيل باستئصال أعداءهم استئصالاً لا يفتل الرجال والنساء ويسىء الأطفال وتقتل البهائم وتقتلع المزروعات، وأن من يعمل فى يوم السبت يرجم .

ولدينا أكثر من دليل على ذلك، فمن غير المعقول بمنح أحد الآلهة ملكية أراضى وممالك لإبراهيم ونسله قبل الميلاد إلى الأبد، والأقرب إلى الفصل إن هذا النص وغيره من العهود التى أعطاها ا لنبى إسرائيل كتبت بعد ذلك لوقت طويل. فعندما تقول التوراة أن موسى كتب الأشعار الخمسة. فهذا ما يكذبه أن يكتب موسى نبأ وفاته وكان دفنه وكيف ندبه بنى إسرائيل، كما لاحظ ذلك حق سبيوتز الذى ذهب إلى أن التوراة قد كتبت بعد عدة قرون من عهد إبراهيم وموسى وهو ما اتفق عليه كثير من المؤرخين مثل أرنولد تعريبى وبيسند وغيرهما.. كما أن ما يدل على كل ما جاء به

الخلق من تفاصيل عن الخلق هو الفكرة العامة مما جاء فى أساطير الكدوانية والآشورية والمصرية. وتكذبه الوقائع التاريخية الخاصة بظهور كوكب الأرض وظهور الإنسان عليه الخ... كما لا نرى فى أى مراجع تاريخية مصداق معظم ما جاء فى التوراة من أخبار والمرجع الوحيد الذى يعتمد عليه هو القرآن الكريم الذى لم يأت أبداً بأى من التفصيلات العديدة التى جعل بها القرآن وأخيراً فلا يعقل أن يكون صورة ا هى الصورة التى تجدها فى التوراة صورة آلة غيور يغتفر الذنوب فى الأبناء حتى الجيل الرابع، ويغضب حتى يسترضى بتقديم الذبائح، ولا شغل له سوى إعطاء المواثيق والعهود ببنى إسرائيل بامتلاك أراض والعمل على نصرهم وقهر حصولهم وإعطائهم معجزات تصل إلى تأخير غروب الشمس وأن تؤدى أصوات الأبواق إلى تهدم أسوار أريحا الحصينة الخ... فهذا كله يتم عن آلة مصنوع، آلة "ملاكى" ‘ذا جاز التعبير وأن ما جاء فى التوراة ليس إلا "ميثولوجيا" صور بأقلام الكهنة والكتاب حياة الشعب الإسرائيلى، كما يريدون له، لا كما وقع بالفعل ..



ولكن عدم اتفاق الميثولوجيا مع العلم والفعل لا يوهنها أو يقضى عليها لأنها تعتمد على الوجدان والمشاعر والعواطف التى لا تعد منطقها الخاص ومكانها فى النفس البشرية لهذا يوجد الكثير من "العلمانيين" يؤمنون بها، ويبدو أن هذا الإيمان يكمل لهم، ناحية معينة فى نفسياتهم وقد كان أكبر دعاة الصهيونية من "العلمانيين" مثل بن جوريون وابزمان. مع هذا فإنهم كانوا يؤمنون الميثولوجيا اليهودية كما جاءت بها التوراة وقد كان إيمان بن جوريون بها يختزل ثلاثة آلاف سنة ويراها كما كانت ويفتخر بها على الأوربيين الذين لا يعرفون عن مناصبهم القريب ضيئاً، فى حين أن اليهود يعلمون ماذا كان اليهود – وكيف كانوا يأكلونه – ووجد فيها ديزرائيل مادة لرواياته كونتجسبى وتنكريد .

فلا عجب إذن إذا كان من الصهيونيين يؤكدون أنهم أمة التوراة. وقد يزيدون التوراة والسبت .

- ٣ -

من عهد القضاء إلى عهد المماليك

مات يوشع بعد أن حقق للإسرائيليين حلمهم فدخلوا فلسطين واستقروا فيها وقسموا نواصيها على أسباطها أشراح بنو إسرائيل وأمضوا فى سلام مدة طويلة ولكن لم يستمر الأمر إذ عدت العداوة عليهم. وهذه العداوة فى تشخيص الروايات التوراتية هى موادعة جيرانهم من الشعوب الأخرى ومعايشتهم ومصادقتهم، لأن نص العهد الإلهى لبنى إسرائيل، وهو ما طبقه موسى ويوشع وما أوصيا به خلفاءهم هو استئصال كل شعوب المنطقة وأن أى تراضى فى هذا يعد انتهاكاً لأوامر ا ..

ووجد بنو إسرائيل الحل فى أن يكلاف الحكم إلى عدد من القضاة. وبهذا بدء حكم القضاة. الذين ساسوا فى الفترة من موت يشوع حتى اختيار شاول أول ملك لليهود.. وتبلغ هذه الفترة أربعمائة سنة على وجه التقريب .

ويتحدث أحد المراجع عن هؤلاء القضاة " بيد أن هؤلاء لم يكونوا حكاماً، ولا حتى قواداً عسكريين بكل معنى

الكلمة، بل أبطالاً اختارهم ا رأساً من بين الشعب لمهمة معينة، حسبما كانت تقتضيه الظروف، وذلك لتخليص الشعب من أعدائهم ومضايقيهم .

ومن ثم لم تكن هناك خلافة متسلسلة الحلقات بين هؤلاء القضاة، الذين لم تتعد سلطة القاضى منهم فى بعض الأحيان سبطه الخاص. وربما كان بعضهم معاصراً لبعض .

أما من جهة أخلاقهم فلم تكن، على الدوام، على ما يرام، ولا سيما أخلاق بعضهم. فهم فى الواقع قادة عسكريون أكثر منهم مصلحون، وإن اهتم بعضهم بهدم معابد الأصنام وتطهير شعبه من أرجاس الوثنية .

إن أشهر هؤلاء القضاة، هم: عتنيئيل، وأهود، ودبورة النبيه، وبارق. ثم جدعون. ويفتاح وشمشون .

وقد ذكر الكتاب المقدس من القضاة أيضاً: شمجر، وأبيمالك المغتصب، وتولع، وإبصان، وأيلون، وعبدون، أما عالى رئيس الكهنة، وصموئيل النبى، اللذان يعدان خاتمة عهد القضاة، فقد جاء ذكرهما فى سفر الملوك الأول .

ويلحظ هنا أن هؤلاء القضاة، وهم فصل من بنى إسرائيل كما أن بعضهم كان يتلقى إليه آلة بنى إسرائيل ويبتهل إليه.. نقول أن تأثير الميثولوجية عليهم فى العالم وجعلهم "محامين" لشعب إسرائيل، وليسوا قضاة يحكمون بالعدل، وليس عبثاً أن يكون أحدهم "شمشون"الجبار الذى استطاع "بعك حمار" ميت قرابة ألف من الفلسطينيين. وهو نفسه الذى استسلم لإغراء "دليلة" حتى ذكر لها أن سر قوته هو فى شعره، فحلقت شعره وهو نائم وأسلمته إلى الفلسطينيين أعداءه الذين طربوا لذلك. ولكن شمشون تاب إلى ا فأعاد ا إليه قوته وعندما أراد الفلسطينيون أن يسخروا منه، وكان واقفا بين عمودين أخذ بيده عمود فاقتلعه وقال على وعلى أعدائى .

الباب الثالث

الدولة الإسلامية فى العصر الحديث

بين التنظير والتطبيق

بعد مرور ثلاثة قرون على الخلافة الإسلامية بدت بوادر التحلل فى الظهور مع بروز العناصر الفارسية والتركية والديلم والسلاجقة، وأخذت أطرافها تنتقض وتنفصل وتستقل منها فى مصر، وشمال أفريقيا والأندلس ولكنها ظلت متماسكة حتى أصيبت بضربتين قاصمتين الأولى الغزو التترى للعراق الذى قضى على بغداد واسطة العقد النظيم وعاصمة العالم الوسيط والتى كانت "روما" الإسلام. وكانت الضربة من القوة بحيث لم تقم لها قائمة وأخذت تتدهور من عاصمة العالم حتى أصبحت على مشارف العصر قرية كبيرة. وأصابت الضربة الثانية القاهرة، وهى التى قامت بعد اندثار بغداد وحلت محلها عندما داهمها الترك بعد هزيمة السلطان الغورى فى موقعة مرج دابق فتحولت القاهرة من

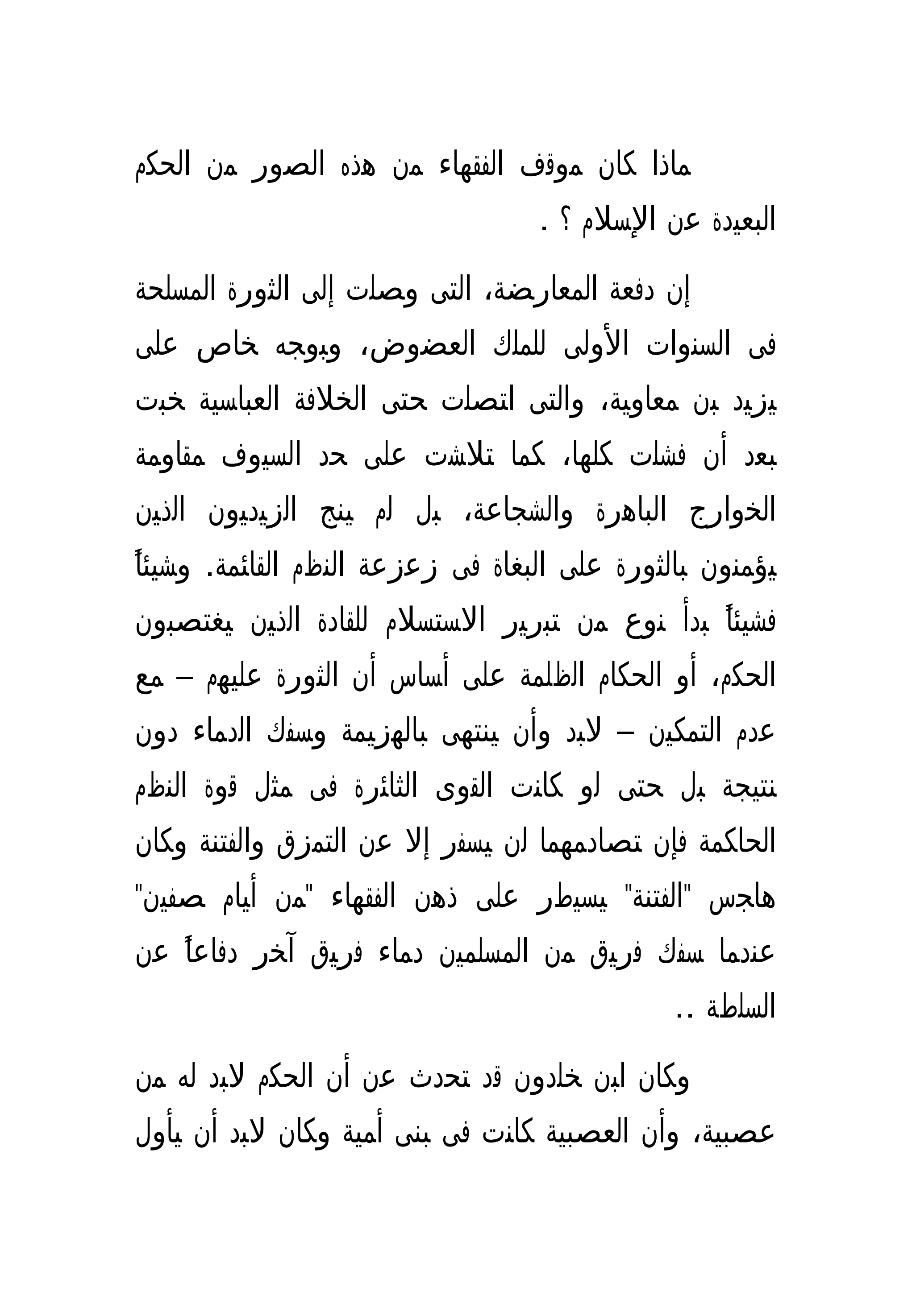
إحدى العواصم الزاهرة والقوى المؤثرة إلى إطلال وآثار تنبئ عن الماضى العريق .

وكان المسلمون يسلمون آخر معقل من معاقل الأندلس "غرناطة" إلى الأسبان وتطوى بذلك صفحة ثمانمائة سنة كان لم تغن بالأمس .

ولا يغير من الأمر أن يكون الأتراك قد استولوا على القسطنطينية، وهو أمل عزيز وقديم من أيام الخلافة الأموية، لأن الأتراك لا يمكن أن يحسبوا على الإسلام – وأن كانوا مسلمين، وهم جنود يكسبون معارك ولكن لا يقيمون حضارات .

وخلال القرون الخمسة أو الستة الأخيرة من التاريخ الإسلامى كان الظلام قد أطبق على أرجاء العالم الإسلامى واستسلمت شعوبه لنوم طويل لم تتيقظ منه إلا على مدافع الأسطول البريطانى والجيش الفرنسى أو غيرهما من القوات الأوربية الغازية التى بدأت مرحلة الاستعمار من القرن التاسع عشر .





ماذا كان موقف الفقهاء من هذه الصور من الحكم البعيدة عن الإسلام ؟ .

إن دفعة المعارضة، التى وصلت إلى الثورة المسلحة فى السنوات الأولى للملك العضوض، وبوجه خاص على يزيد بن معاوية، والتى اتصلت حتى الخلافة العباسية خبت بعد أن فشلت كلها، كما تلاشت على حد السيوف مقاومة الخوارج الباهرة والشجاعة، بل لم ينج الزيديون الذين يؤمنون بالثورة على البغاة فى زعزعة النظم القائمة. وشيئاً فشيئاً بدأ نوع من تبرير الاستسلام للقادة الذين يغتصبون الحكم، أو الحكام الظلمة على أساس أن الثورة عليهم – مع عدم التمكين – لابد وأن ينتهى بالهزيمة وسفك الدماء دون نتيجة بل حتى لو كانت القوى الثائرة فى مثل قوة النظم الحاكمة فإن تصادمهما لن يسفر إلا عن التمزق والفتنة وكان هاجس "الفتنة" يسيطر على ذهن الفقهاء "من أيام صفين" عندما سفك فريق من المسلمين دماء فريق آخر دفاعاً عن السلطة ..

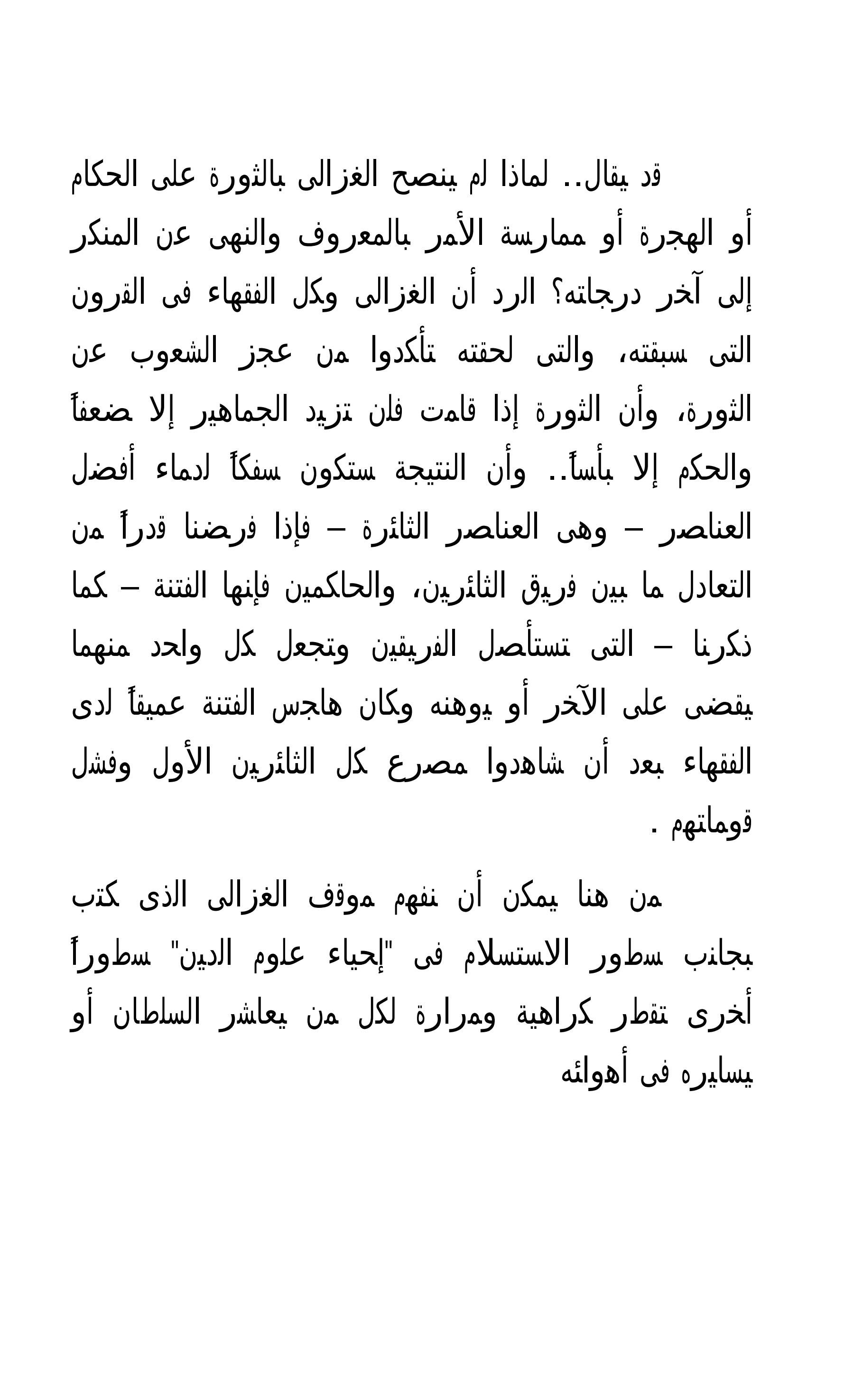
وكان ابن خلدون قد تحدث عن أن الحكم لابد له من عصبية، وأن العصبية كانت فى بنى أمية وكان لابد أن يأول

إليهم الحكم. وبعد بنى أمية، فإن كل من توصل إلى عصبية فإنه يستطيع أن يحكم بمقتضى هذه العصبية "فإنما الملك على الحقيقة لن يستعبد الرعية ويجبى الأموال ولا تكون فوق يده يد قاهرة " .

وتحدث الغزالى حديثاً مؤثراً عرض فيه محنة العالم الإسلامى وشرح مبررات التسليم

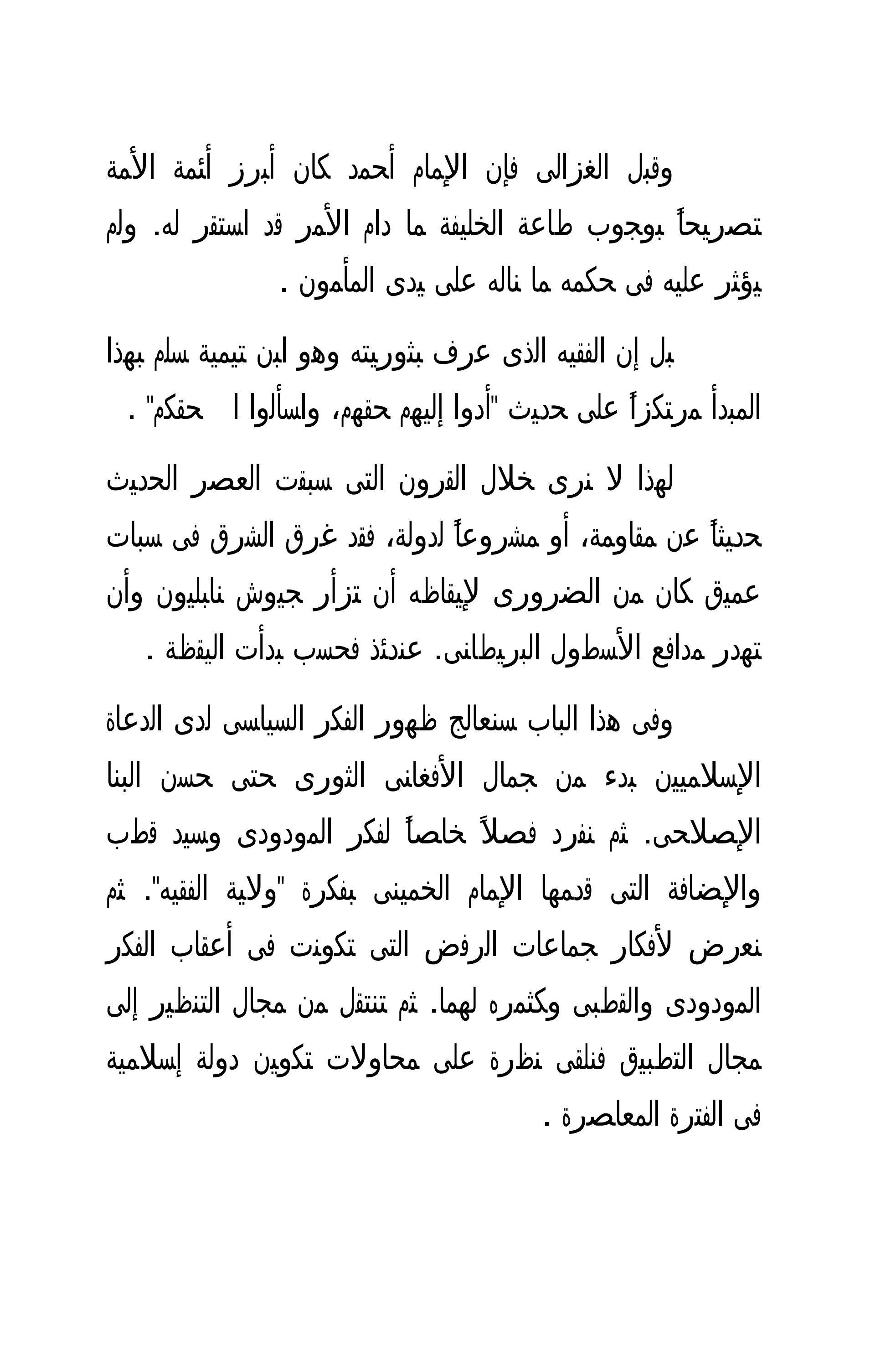
"وليست هذه مسامحة عن الاختيار، ولكن الضرورات تبيح المحظورات. فليت شعرى من يقضى ببطلان الإمامة فى عصرنا لفوات شروطها – وهو عاجز عن الاستبدال بالمتصدى لها بل هو فاقد للمتصف بشروطها، فأى أحواله أحسن: أن يقول القضاة معزولون والولايات باطلة والأنكحة غير منعقدة وجميع تصرفات الولاة فى أقطار العالم غير نافذة وإنما الخلق كلهم مقدمون على الحرام، أو يقول الإمامة منعقدة والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار؟ **ومعلوم أن البعيد مع الأبعد قريب، وأهون الشرين خير بالإضافة،** ويجب على العاقل اختياره " .

ومع أن الغزالى كان وثيق الصلة بالوزير نظام الملك فإنه لم يكن أبداً من فقهاء السلاطين .



قد يقال.. لماذا لم ينصح الغزالى بالثورة على الحكام أو الهجرة أو ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى آخر درجاته؟ الرد أن الغزالى وكل الفقهاء فى القرون التى سبقته، والتى لحقته تأكدوا من عجز الشعوب عن الثورة، وأن الثورة إذا قامت فلن تزيد الجماهير إلا ضعفاً والحكم إلا بأساً.. وأن النتيجة ستكون سفكاً لدماء أفضل العناصر – وهى العناصر الثائرة – فإذا فرضنا قدراً من التعادل ما بين فريق الثائرين، والحاكمين فإنها الفتنة – كما ذكرنا – التى تستأصل الفريقين وتجعل كل واحد منهما يقضى على الآخر أو يوهنه وكان هاجس الفتنة عميقاً لدى الفقهاء بعد أن شاهدوا مصرع كل الثائرين الأول وفشل قوماتهم .

من هنا يمكن أن نفهم موقف الغزالى الذى كتب بجانب سطور الاستسلام فى "إحياء علوم الدين" سطوراً أخرى تقطر كراهية ومرارة لكل من يعاشر السلطان أو يسايره فى أهوائه

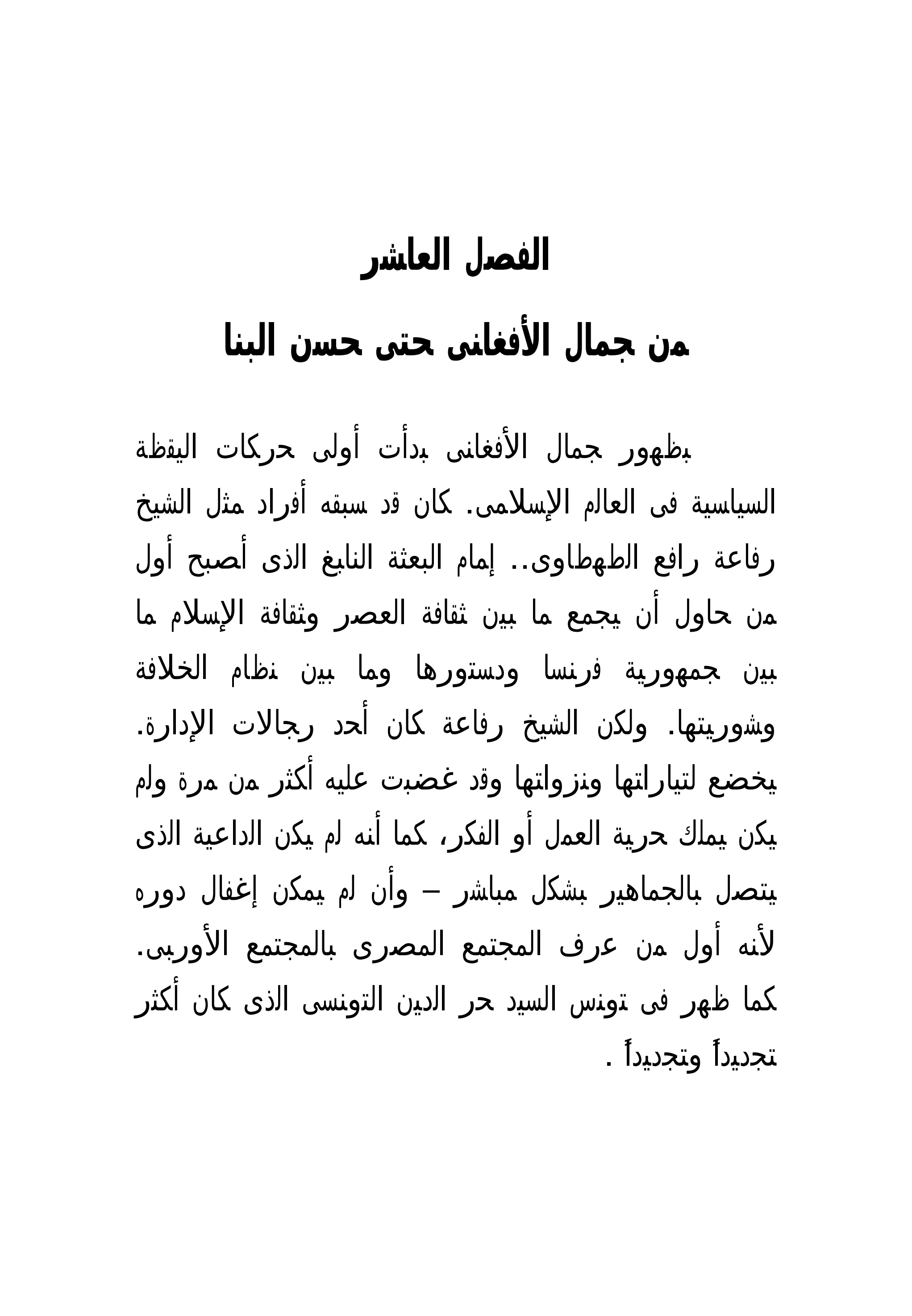


وقبل الغزالى فإن الإمام أحمد كان أبرز أئمة الأمة تصريحاً بوجوب طاعة الخليفة ما دام الأمر قد استقر له. ولم يؤثر عليه فى حكمه ما ناله على يدى المأمون .

بل إن الفقيه الذى عرف بثوريته وهو ابن تيمية سلم بهذا المبدأ مرتكزاً على حديث "أدوا إليهم حقهم، واسألوا ا حقكم" .

لهذا لا نرى خلال القرون التى سبقت العصر الحديث حديثاً عن مقاومة، أو مشروعاً لدولة، فقد غرق الشرق فى سبات عميق كان من الضرورى لإيقاظه أن تزأر جيوش نابليون وأن تهدر مدافع الأسطول البريطانى. عندئذ فحسب بدأت اليقظة .

وفى هذا الباب سنعالج ظهور الفكر السياسى لدى الدعاة الإسلاميين بدء من جمال الأفغانى الثورى حتى حسن البنا الإصلاحى. ثم نفرد فصلاً خاصاً لفكر المودودى وسيد قطب والإضافة التى قدمها الإمام الخمينى بفكرة "ولاية الفقيه". ثم نعرض لأفكار جماعات الرفض التى تكونت فى أعقاب الفكر المودودى والقطبى وكثمره لهما. ثم ننتقل من مجال التنظير إلى مجال التطبيق فنلقى نظرة على محاولات تكوين دولة إسلامية فى الفترة المعاصرة .



الفصل العاشر

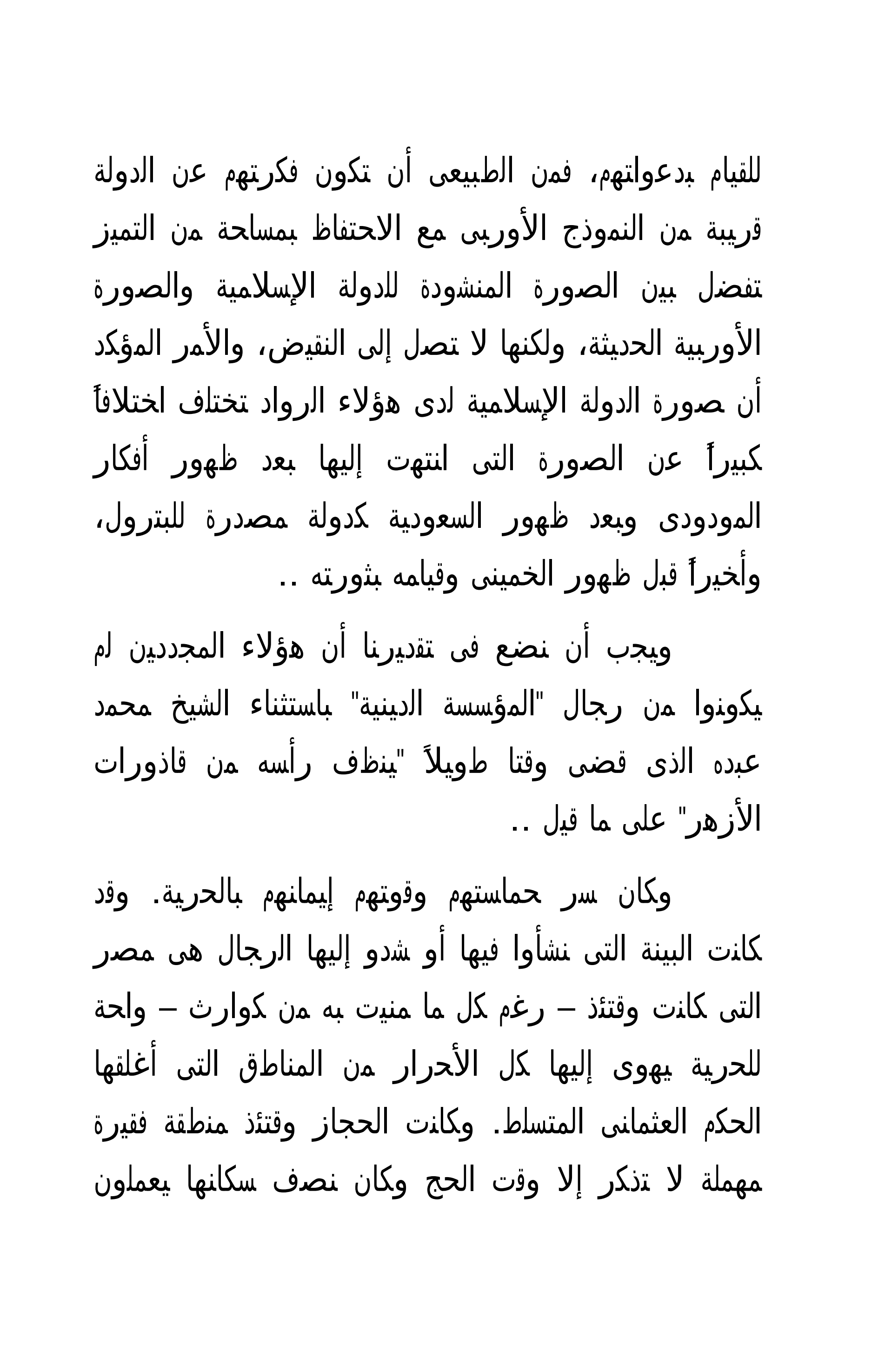
من جمال الأفغانى حتى حسن البنا

بظهور جمال الأفغانى بدأت أولى حركات اليقظة السياسية فى العالم الإسلامى. كان قد سبقه أفراد مثل الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى.. إمام البعثة النابغ الذى أصبح أول من حاول أن يجمع ما بين ثقافة العصر وثقافة الإسلام ما بين جمهورية فرنسا ودستورها وما بين نظام الخلافة وشوريتها. ولكن الشيخ رفاعة كان أحد رجالات الإدارة. يخضع لتياراتها ونزواتها وقد غضبت عليه أكثر من مرة ولم يكن يملك حرية العمل أو الفكر، كما أنه لم يكن الداعية الذى يتصل بالجماهير بشكل مباشر – وأن لم يمكن إغفال دوره لأنه أول من عرف المجتمع المصرى بالمجتمع الأوربى. كما ظهر فى تونس السيد خير الدين التونسى الذى كان أكثر تجديداً وتجديداً .

الظاهرة التى توجب الأمانة العلمية أن نسجلها أن كل "أرادت التغيير" إنما جاءت كرد فعل لتعرف المفكرين الإسلاميين على المجتمع الأوربى ونظام الحكم فيه. وهى الظاهرة التى لفتت انتباه السيد رشيد رضا قبلنا ودفعته لأن يقول "فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الأوربيين، معرفة ما يجب أن تكون عليه الحكومة، واصطباغ نفوسهم بها – أى المعرفة – حتى اندفعوا إلى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة، بالحكم المطلق الموكول إلى إرادة الأفراد

"لا تقل أيها المسلم إن هذا الحكم – المقيد بالشورى – أصل من أصول الدين ونحن قد استفدنا من الكتاب المبين ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشرة الأوربيين والوقوف على حال الغربيين، فإنه لولا اعتبار مجال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك أن هذا من الإسلام .

وقد يكون لهذه الظاهرة انعكاس على مضمون مفهوم الدولة الإسلامية لدى هؤلاء المجردين فإذا كان الإعجاب بما وصلت إليه النظم السياسية الأوربية من تنهيج وعدالة وحرية أدت إلى تقدم شعوبها هو الدافع المباشر لهؤلاء المجددين



للقيام بدعواتهم، فمن الطبيعى أن تكون فكرتهم عن الدولة قريبة من النموذج الأوربى مع الاحتفاظ بمساحة من التميز تفضل بين الصورة المنشودة للدولة الإسلامية والصورة الأوربية الحديثة، ولكنها لا تصل إلى النقيض، والأمر المؤكد أن صورة الدولة الإسلامية لدى هؤلاء الرواد تختلف اختلافاً كبيراً عن الصورة التى انتهت إليها بعد ظهور أفكار المودودى وبعد ظهور السعودية كدولة مصدرة للبترول، وأخيراً قبل ظهور الخمينى وقيامه بثورته ..

ويجب أن نضع فى تقديرنا أن هؤلاء المجددين لم يكونوا من رجال "المؤسسة الدينية" باستثناء الشيخ محمد عبده الذى قضى وقتا طويلاً "ينظف رأسه من قاذورات الأزهر" على ما قيل ..

وكان سر حماستهم وقوتهم إيمانهم بالحرية. وقد كانت البيئة التى نشأوا فيها أو شدو إليها الرجال هى مصر التى كانت وقتئذ – رغم كل ما منيت به من كوارث – واحة للحرية يهوى إليها كل الأحرار من المناطق التى أغلقها الحكم العثمانى المتسلط. وكانت الحجاز وقتئذ منطقة فقيرة مهملة لا تذكر إلا وقت الحج وكان نصف سكانها يعملون

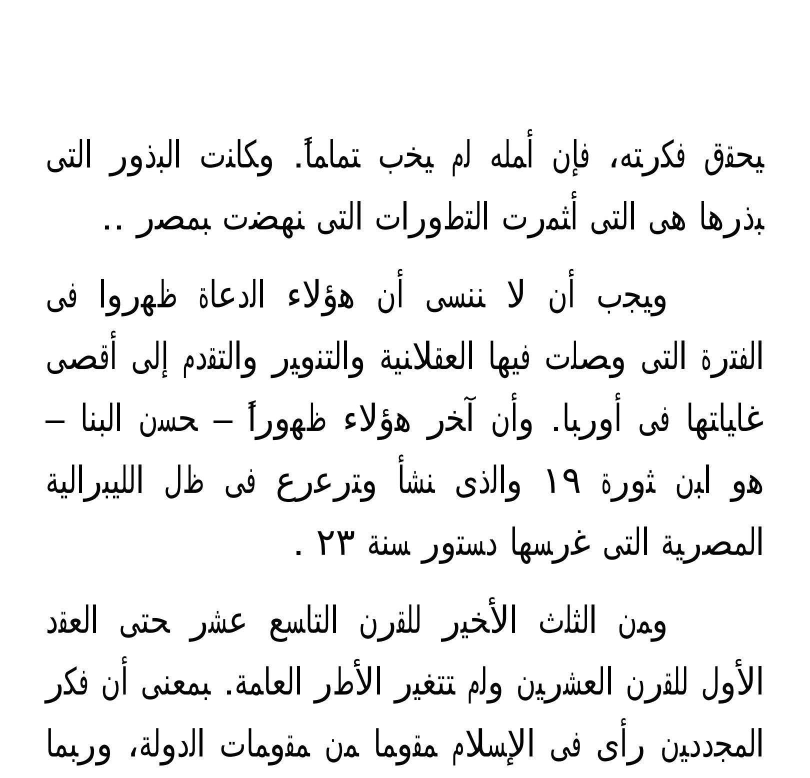
مطوفين يخدمون الحجاج بينما يعمل النصف الآخر من الأعراب فى نهب الحجاج.. وكانت التكية المصرية، والأوقاف الإسلامية الأخرى هى عصمة السكان من المجاعة والفاقة.. وعرفت مصر حتى فى أشد فترات محنتها بصفة مميزة وبطابع من السماحة فى الفكر، وكانت بحكم موقعها ويدفعه نهضة محمد على الكبير ملاذاً لأفواج متتالية من الزوار والسياح والأحرار وحافظت على هذه الصفة طوال مرحلتها الليبرالية من ثورة ١٩ حتى انقلاب ٥٢ الذى شوه الأوضاع وعاث فيها فساداً ..

من أجل هذا فنحن فى حكم اليقين من أن هؤلاء المجددين أرادوا نهضة بالبلاد وتحريرها من الاستعمار والاستبداد والجهالة والتأخر. ووجدوا أن المظلة الفكرية (الأيدلوجية) الوحيدة التى تحقق هذا فى الإسلام. دون أن تكون هذه الدولة على وجه التعيين هى دولة "الشريعة"، دولة الحدود، الدولة التى تطبق ما تتضمنه كتب الفقه من استتابه مهمل الصلاة وتأديبه وقتل منكرها. وكذلك قتل كل من "جحد معلوما من الدين بالضرورة الخ... مما لا يخلو من دلالة أن

كل هؤلاء المجددين كانوا يؤيدون ما منحه القرآن للمرأة من حقوق وما صرح به من حرية فى الفكر والاعتقاد ..

وتقصى الملابسات التى أحاطت بهم ودعوتهم يصدق هذا فجمال الأفغانى الذى ربط المستشرقون بينه وبين "الجامعة الإسلامية" كان هو نفسه جامعة دولية يلتف حوله من اتباعه بعقوف صنوع المصرى اليهودى اللبنانى المارونى وغيرهما الإيرانيين، وقد كان هو ومحمد عبده أول من رفعا شعار "مصر للمصريين" وعندما ألفا حزبهما كان حزبا مدنيا، وليس حزبا إسلامياً. وكان جمال الأفغانى الذى طوف ما بين الأفغان وإيران والهند ومصر وتركيا وفرنسا وروسيا وإنجلترا رجلاً دوليا، ولم يأنف أن يدخل الماسونية عندما اعتقد أنها ستفيده فى التنظيم الذى يريد إقامته وكان فى مآكله ومشربه (الشاى والسجائر) رجلاً عصرياً ..

ولم يرد ببال جمال الأفغانى جامعة إسلامية، لأن هذه الجامعة كانت قائمة بالفعل فى ظل الخلافة، وإنما أراد النهضة بدولة إسلامية، يمكنها أن تنهض ببقية الدول. وقد علق أمله على مصر وأمضى فيها ثمان سنين متصلة، وهو الذى لا يستقر بدولة، ومع أن قوى عديدة حالت دون أن



يحقق فكرته، فإن أمله لم يخب تماماً. وكانت البذور التى بذرها هى التى أثمرت التطورات التى نهضت بمصر ..

ويجب أن لا ننسى أن هؤلاء الدعاة ظهروا فى الفترة التى وصلت فيها العقلانية والتنوير والتقدم إلى أقصى غاياتها فى أوربا. وأن آخر هؤلاء ظهوراً – حسن البنا – هو ابن ثورة ١٩ والذى نشأ وترعرع فى ظل الليبرالية المصرية التى غرسها دستور سنة ٢٣ .

ومن الثلث الأخير للقرن التاسع عشر حتى العقد الأول للقرن العشرين ولم تتغير الأطر العامة. بمعنى أن فكر المجددين رأى فى الإسلام مقوما من مقومات الدولة، وربما يكون أكبر وأبرز مقوم، ولكن لا يذهب فكرهم إلى تكوين دولة إسلامية، على نهج دولة المدينة والخلفاء الراشدين، أو دولة يكون همها الأول تطبيق قواعد الشريعة، كما وضعها الفقهاء – فهذا ما لم يكن مطروحاً وقتئذ وما لم يظهر على الساحة إلا فى فترة لاحقة ..

ولم يترك لنا جمال الأفغانى، ولا محمد عبده صورة للدولة الإسلامية المنشودة. وكل ما نقطع به فى هذا المجال هو أنها دولة الحرية والعدالة. فلا يجوز للحاكم أن يكون

مستبداً. فأما تاج دون رأس أو رأس دون تاج كما قال الأفغانى أى أن يكون هناك ملك يملك ولا يحكم على طريقة بريطانيا، أو أن يكون هناك من يحكم دون أن يكون ملكاً، كما فى الجمهورية. ومادة حديث جمال الأفغانى سدى ولمحه. هى الثورة على الاستبداد فى الداخل وعلى الاستعمار فى الخارج. كما لم يترك لنا محمد عبده تصوراً للدولة الإسلامية وقد كان فى أيامه الأخيرة كارها للسياسة مؤمنا بالإصلاح التربوى والاجتماعى .

* * *

وهناك صفحة مطوية قد لا يعلم المؤرخون المعاصرون شيئاً كثيراً عنها مع أنها عن أول محاولة لوضع دستور دولة عربية مستقلة هى سوريا. ففى العقد الثانى للقرن العشرين عقد فى دمشق مؤتمر لوضع دستور لسوريا التى كانت قد تخلصت من الحكم التركى بانتصار ثورة الحسين بن على ودخول جيش عربى على رأسه فيصل ابن الحسين(الذى طرده الفرنسيون من سوريا عندما دخلوها وأعطى عرش العراق ترضيه له). وسبق هذا المؤتمر جهود وتدبيرات ودراسات عديدة. وكان من أبرز الذين أسهموا فى

هذا العمل مجموعة من المشايخ والعلماء منهم من كان قد هاجر إلى القاهرة مثل السيد رشيد رضا الذى كان قطب حزب اللامركزية ثم نائب رئيس حزب الاتحاد السورى (الذى كان رئيسه ميشيل لطف ا). والشيخ كامل القصاب، والسيد محب الدين الخطيب، ومن علماء دمشق الشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ تاج الدين الحسينى والشيخ مسلم الحصنى، والشيخ عبد القادر الكيلانى والشيخ عبد العظيم الطرابلسى. وعقد المؤتمر الذى ضم هؤلاء جميعاً وآخرين فى ٧ يونيو سنة ١٩١٩ لإعداد دستور الدولة الجديدة التى كان سيرأسها الأمير فيصل، وكشفت المناقشات عن وجود انقسام فى الرأى بالنسبة لموقف الدولة الجديدة من الإسلام فقد كان هناك فريق يتبنى نظام حكم علمانى مدنى لسوريا المستقلة وجاء فى أحد وثائق هذا الفريق "أن يكون الحكم فى سوريا المستقلة على مبدأ من الديمقراطية اللامركزية ويكون أساس قوانينها وأحكامها مدنيا بحثا ما عدا الأحوال الشخصية" ويعترف الشيخ رشيد رضا فى وقت لاحق أنه رضى أن يكون مع هذا الفريق المخالف لمذهبه السياسى لأجل "الحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على

طلب الاستقلال التام الناجز لسورية بعد أن أطال الدعوة إلى مذهبه فلم يستجب له من فضلاء النصارى بمصر إلا أفراد قليلون[1] .

واعترضت مجموعة المشايخ على أن مداولات المؤتمر لم تبدأ بالبسملة! ودار نقاش عريض أنتهى بالاكتفاء ببسملة عامة من كلمتين "باسم ا " .

وعاد الانقسام مرة أخرى فى هذا الموضوع، وفى موضوع الحقوق السياسية للمرأة .

" فيما يتعلق بالموضوع الأول اقترح بعض الأعضاء من غير المسلمين أن ينص فى قرار المؤتمر على أن حكومة سورية لا دينية "لائيكية" ووافقه بعض المسلمين وعارضه آخرون مقترحين أن ينص فيه على أنها حكومة إسلامية عربية أو دينها الرسمى الإسلام. وحين احتدم الخلاف بين الطرفين تدخل الشيخ رشيد رضا باقتراح السكوت على هذه المسألة لأنه "إذا أعلنت الحكومة لا دينية يفهم منها جميع

---

(١) مقال للأستاذ محمد م. الأرناؤوط. تحت عنوان "علماء دمشق فى مطلـع القرن: بين التقليد الموروث والتحديث المفروض" بجريـد الحيـاة – العـدد {١٣٤٠٥} السبت الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٩٩م . ص٢٣ ..

المسلمين أنها حكومة كفر وتعطيل لا تتقيد بحلال ولا حرام، ومن لوازم ذلك أنها غير شرعية فلا تجب طاعتها ولا إقرارها بل يجب إسقاطها عند الإمكان". ووافقت غالبية الأعضاء على هذا الاقتراح والاكتفاء باشتراط أن يكون دين ملكها الرسمى هو الإسلام. وبعد إعلان استقلال سورية فى اليوم التالى {٨ آذار ١٩٢٠} بدأ المجلس بمناقشة مواد مشروع الدستور الجديد. وتأخر إقرار المادة الأولى التى تتعلق بنظام الحكم حتى ١٢ تموز ١٩٢٠، حتى جاءت منسجمة مع نتيجة المناقشة التى دارت حول ذلك فى جلسة ٧ آذار ١٩٢٠ وهكذا تضمنت المادة الأولى أن "حكومة المملكة السورية العربية **حكومة مدنية نيابية عاصمتها دمشق الشام ودين ملكها الإسلام**" أى أن العلاقة بين الدولة والدين "الإسلام" انحصرت فى ديانة ملكها فقط " مقال جريدة الحياة السابق الإشارة إليه " .

يتضح من هذا أنه عندما سنحت الفرصة لوضع دستور لدولة عربية مثل سوريا، فإن مجموعة كبيرة من المشايخ لم تأنف، ولم ترفض نصاً مدنيا، واستبعدوا أى إشارة إلى الإسلام باستثناء أن يكون دين الملك .

وتوضح هذه الواقعة أن الدعوة إلى الدولة الإسلامية ما كان يمكن أن ترتفع لو ظلت مقصورة على شخصيات الشيوخ رغم المنزلة الرفيعة لهم، ورغم إيمانهم بها .

وقد يؤيد هذا أيضاً أن هذه الفترة شهدت صدور كتاب الشيخ على عبد الرازق الذى كان فى الحقيقة إعلانا عن مشاعر فريق كبير من المثقفين الإسلاميين، ومع أن الكتاب قوبل بعاصفة من المعارضة، فالحقيقة أن هذه المعارضة لم تنقد لمضمون الكتاب، باستثناء ما كتبه شيوخ الأزهر وأعادوا ما تحفل به المراجع التراثية. أما غيرهم فقد جاءت المعارضة من إلتباس صدور الكتاب لرغبة الملك فؤاد أن يكون خليفة، بعد أن أعلن مصطفى كمال زوالها. الأمر الذى كان محل معارضة الأحزاب المصرية. فضلاً عن أن الكاتب فى عرضه لفكره كان يردد تقريباً فكره أبداها المستشرقون، وفى الوقت نفسه فإنه تجاهل قيام دولة المدينة والخلفاء الراشدين التى استلهمت المبادئ الإسلامية بحيث لا يمكن القول أنها ليست إسلامية ..

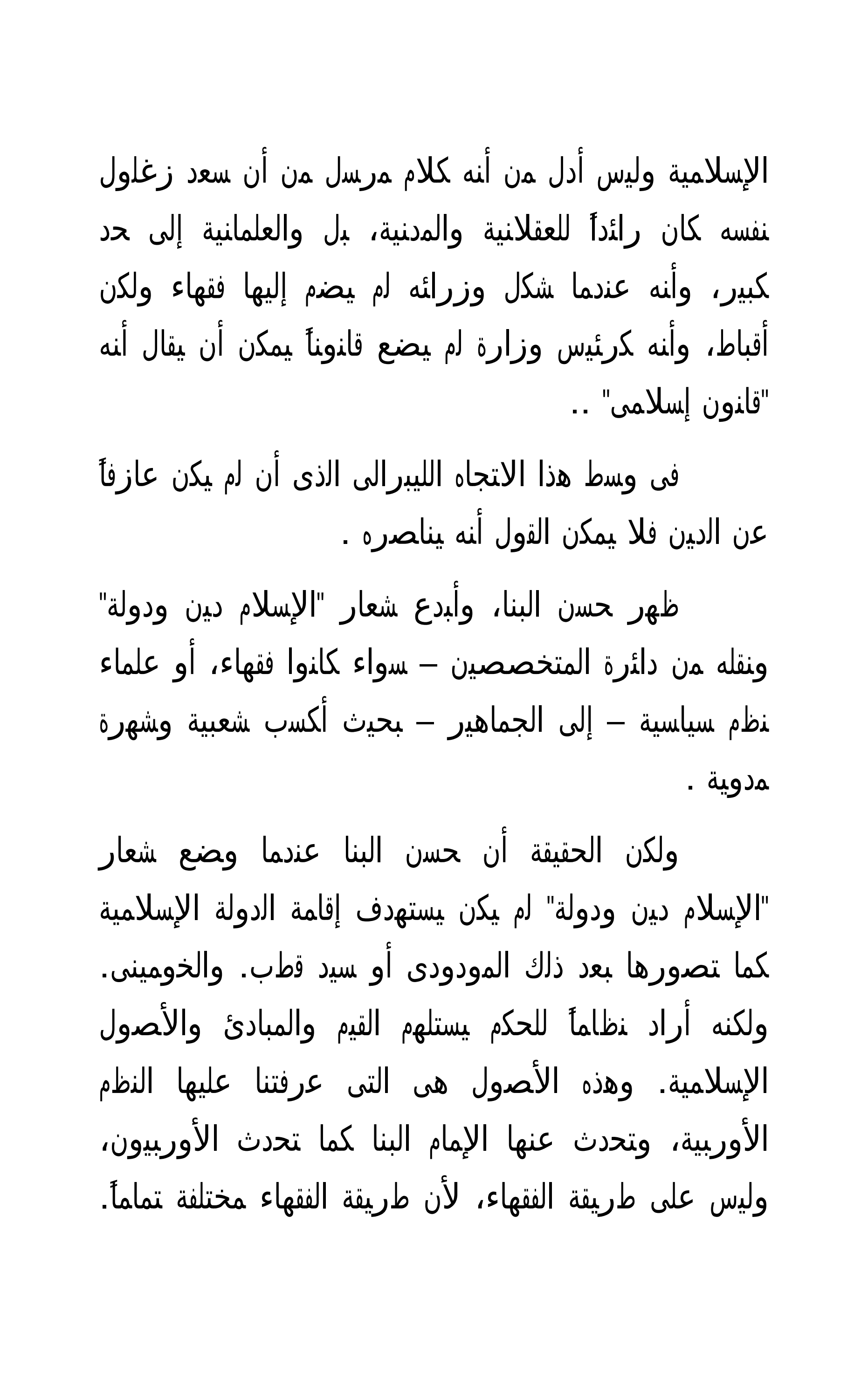
فهذه العوامل كانت فى أصل كتاب الشيخ على عبد الرازق. ولعل الرد الذى كتبه سعد زغلول يوضح لنا فى أغسطس سنة ١٩٢٥ م .

"لقد قرأته بإمعان، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب، فعجبت أولا كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب فى هذا الموضوع؟!.. وقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير، على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق، لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنيا ولا هو بنظام يصلح للحكم؟.. فأية ناحية مدنية من نواحى الحياة لم ينص عليها الإسلام؟.. هل البيع أو الإجارة أو الهبة أو أى نوع أخر من المعاملات؟.. ألم يدرس شيئاً من هذا فى الأزهر؟!.. أو لم يقرأ أن أمما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهودا طويلة كانت أنضر العصور؟.. وأن أمما لا تزال تحكم بهذه القواعد وهى آمنة مطمئنة؟.. فكيف لا يكون الإسلام مدنيا ودين حكم؟!.. وأعجب من هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة؟!.. فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية ؟! ..

إنى لا أفهم معنى للحملة المتحيزة التى تثيرها "جريدة السياسة" حول هذا الموضوع.. وما قرار "هيئة كبار العلماء" بإخراج "الشيخ على" من زمرتهم إلا قرار صحيح لا عيب فيه، لأن لهم حقاً صريحاً – بمقتضى القانون المنطق والعقل – أن يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم، فذاك أمر لا علاقة له مطلقاً بحرية الرأى، التى تنعيها "السياسة". إن العلماء قد فعلوا ما هو واجب وحق، وما لا يجوز أن توجه إليهم أدنى ملامة فيه .

والذى يؤلمنى حقاً أن كثيرا من الشبان الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أم صوابا، دون تمحيص ولا درس، ويجدون تشجيعاً على هذا التحيز فيما تكتبه "جريدة السياسة" وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ على عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعلم المدقق والمصلح الإسلامى والأستاذ الكبير الخ ..."

فهذا النقد الذى عنى بإبراز الفقه وأن أمما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة كانت أقصر العصور... فهذا الكلام اليوم يتعرض لتحقيق "أصولية" الدولة

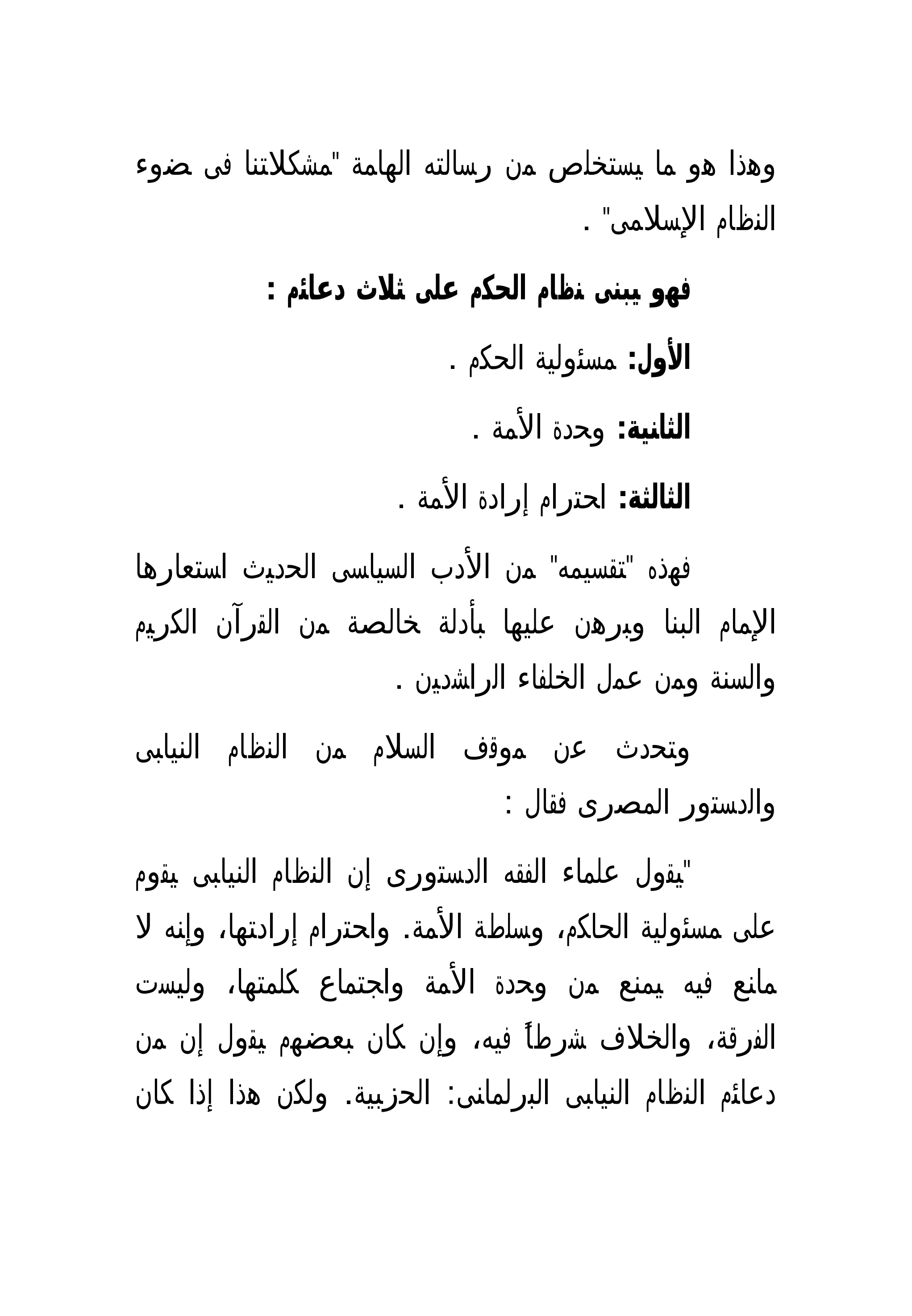


الإسلامية وليس أدل من أنه كلام مرسل من أن سعد زغلول نفسه كان رائداً للعقلانية والمدنية، بل والعلمانية إلى حد كبير، وأنه عندما شكل وزرائه لم يضم إليها فقهاء ولكن أقباط، وأنه كرئيس وزارة لم يضع قانوناً يمكن أن يقال أنه "قانون إسلامى" ..

فى وسط هذا الاتجاه الليبرالى الذى أن لم يكن عازفاً عن الدين فلا يمكن القول أنه يناصره .

ظهر حسن البنا، وأبدع شعار "الإسلام دين ودولة" ونقله من دائرة المتخصصين – سواء كانوا فقهاء، أو علماء نظم سياسية – إلى الجماهير – بحيث أكسب شعبية وشهرة مدوية .

ولكن الحقيقة أن حسن البنا عندما وضع شعار "الإسلام دين ودولة" لم يكن يستهدف إقامة الدولة الإسلامية كما تصورها بعد ذلك المودودى أو سيد قطب. والخومينى. ولكنه أراد نظاماً للحكم يستلهم القيم والمبادئ والأصول الإسلامية. وهذه الأصول هى التى عرفتنا عليها النظم الأوربية، وتحدث عنها الإمام البنا كما تحدث الأوربيون، وليس على طريقة الفقهاء، لأن طريقة الفقهاء مختلفة تماماً.



وهذا هو ما يستخلص من رسالته الهامة "مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى" .

فهو يبنى نظام الحكم على ثلاث دعائم :

الأول: مسئولية الحكم .

الثانية: وحدة الأمة .

الثالثة: احترام إرادة الأمة .

فهذه "تقسيمه" من الأدب السياسى الحديث استعارها الإمام البنا وبرهن عليها بأدلة خالصة من القرآن الكريم والسنة ومن عمل الخلفاء الراشدين .

وتحدث عن موقف السلام من النظام النيابى والدستور المصرى فقال :

"يقول علماء الفقه الدستورى إن النظام النيابى يقوم على مسئولية الحاكم، وسلطة الأمة. واحترام إرادتها، وإنه لا مانع فيه يمنع من وحدة الأمة واجتماع كلمتها، وليست الفرقة، والخلاف شرطاً فيه، وإن كان بعضهم يقول إن من دعائم النظام النيابى البرلمانى: الحزبية. ولكن هذا إذا كان

عرفاً فليس أصلاً فى قيام هذا النظام، لأنه يمكن تطبيقه بدون هذه الحزبية وبدون إخلال بقواعده الأصلية .

وعلى هذا فليس فى قواعد هذا النظام النيابى ما يتنافى مع القواعد التى وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيداً عن النظام الإسلامى ولا غريباً عنه. وبهذا الاعتبار يمكن أيضاً أن نقول فى اطمئنان إن القواعد الأساسية التى قام عليها الدستور المصرى لا تتنافى مع قواعد الإسلام، وليست بعيده من النظام الإسلامى ولا غريبا عنه، بل إن واضعى الدستور المصرى رغم أنهم وضعوه على أحداث المبادئ والآراء الدستورية وأرقاها، فقد توخوا فيه إلا يصطدم أى نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية، فهى إما متمشية معها صراحة كالنص الذى يقول" "حرية الاعتقاد مكفولة" .

وأحب أن أنبه هنا إلى الفرق بين الدستور وبين القوانين التى تسير عليها المحاكم، إذا أن كثيراً من هذه القوانين يتنافى صراحة مع ما جاء به الإسلام، وذلك بحث آخر سنعرض له فى وضعه إن شاء ا   .

ومع أن النظام النيابى والدستور المصرى فى قواعدهما الأساسية لا يتنافيان مع ما وضعه الإسلام فى نظام الحكم، فإننا نصرح بأن هناك قصوراً فى عبارات الدستور، وسوءاً فى التطبيق، وتقصيراً فى حماية القواعد الأساسية التى جاء بها الإسلام وقام عليها الدستور، أدت جميعاً إلى ما نشكو منه من فساد، وما وقعنا فيه من اضطراب فى كل هذه الحياة النيابية[1] .

وقدم الإمام البنا ملاحظات على بعض وجوه النقض فى الدستور المصرى كإعفاء رئيس الدولة من المسئولية والغموض فى الدستور المصرى واستشهد بمذكرة كتبها الدكتور إبراهيم مدكور عضو مجلس الشيوخ المصرى، والأستاذ مريت غالى فى مذكراتهما "نظام جديد" قالا تحت عنوان "الدستور وغموضه" :

"فأما العامل الأول فملخصه أن دستورنا على الرغم من دقته وضبطه عباراته، قد وقع فى نفس الغموض الذى وقعت فيه دساتير أسبق منه، وترك أهم نقطة فى الحكم

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا "دار الشهاب" ص٢١٥ – ٢١٦ .

النيابى دون أن يحددها التحديد الكافى، ونعنى بها سلطة الوزراء وصلتهم بالشعب ممثله فى نوابه من جهة، وإشرافهم على ما يؤدى إليه من خدمات من طريق المصالح والإدارات من جهة أخرى. كما أجمل إجمالاً مخلاً فى بيان موقفهم من رئيس الدولة ومليك البلاد. واكتفى بأن يصوغ هنا فى عبارات تصلح لكل ما يراد منها. وواضح أن الوزارة هى العمود الفقرى لهيكل النظام النيابى كله، وحلقه الاتصال بين التشريع والتنفيذ، ومبعث الحياة والحركة فى نظام يراد به احترام سلطة الشعب مع تصريف شؤون الدولة تصريفاً محكماً سريعاً. وإذا ما رجعنا إلى الدستور وجدنا أن ما جاء به متصلاً بهذه النقطة الحساسة لا يكاد يتجاوز ثلاثة أسطر كلها غموض وعموم، فيقرر فى المادة ٢٩: "أن السلطة التنفيذية يتولاها الملك فى حدود هذا الدستور" وفى المادة ٤٨: "الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه" وفى المادة ٤٩: "الملك يعين وزراءه ويقيلهم" وفى المادة ٥٧: "مجلس وزرائه هو المهيمن على مصالح الدولة" وفى المادة ٦١: "الوزراء مسؤولون متضامنون لدى مجلس النواب عن السياسة العامة للدولة، وكل منهم مسئول عن أعمال وزارته" وفى المادة

٦٣: "أوامر الملك – شفهية أو كتابية – لا تخلى الوزراء من المسئولية على أية حال" .

تلك تقريباً جملة النصوص المتصلة بهذا الموضوع، ولا نظن أن فيها ما يكفى مطلقاً لحل أى مشاكل من المشاكل التى أشرنا إليها .

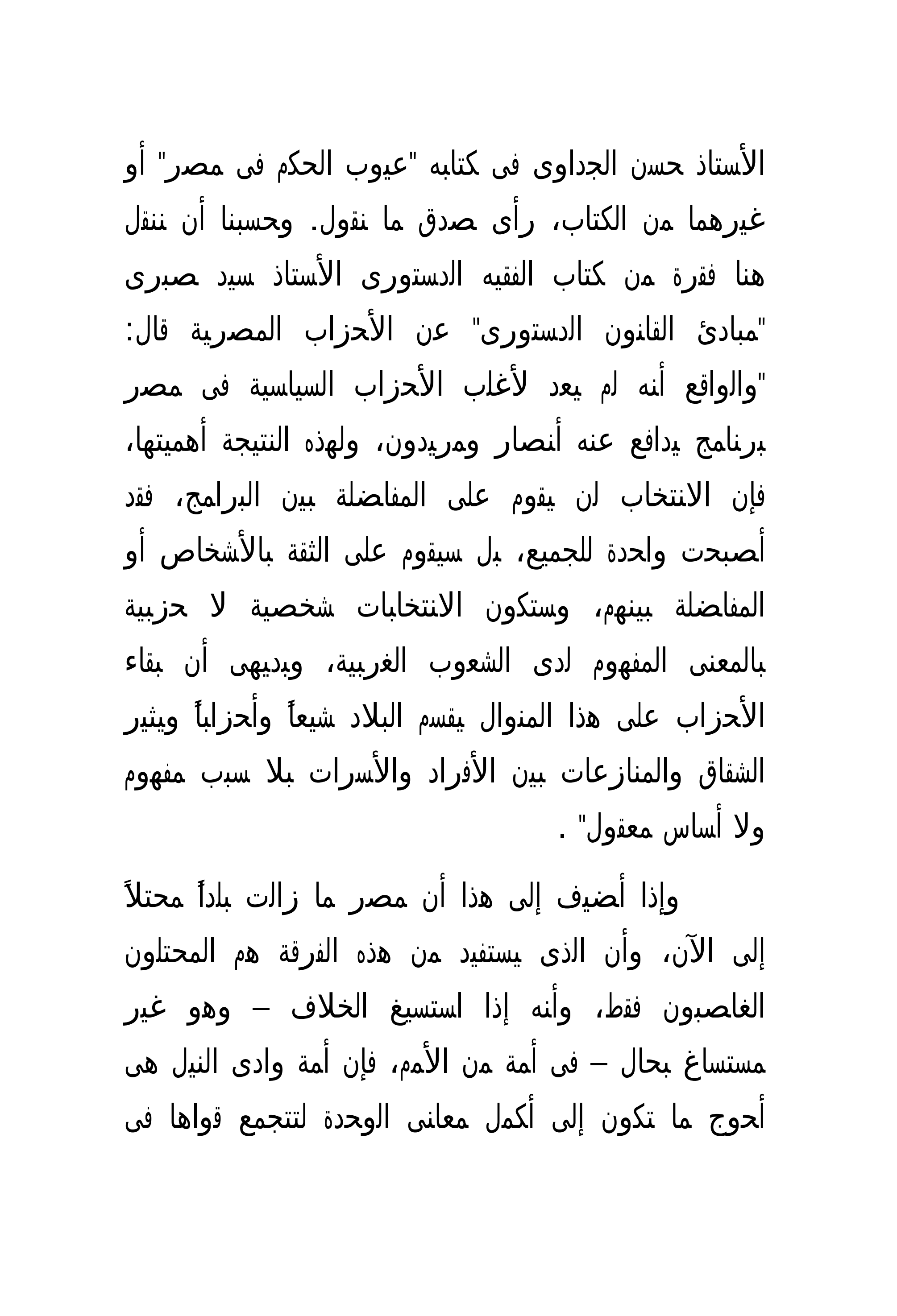
وقد أفاضاً بعد ذلك فى الشرح والتمثيل بما يفصل ما تقدم من هذه المعانى.. والمهم أن هذه النقطة وهى لب الأمر تحتاج إلى إيضاح واستقرار، وهى القاعدة الأولى من قواعد "النظام الإسلامى" أو النيابى على السواء، وبغير ذلك لا يمكن أن تستقيم الأمور أو تسلم[(١)] .

وكان للإمام البنا رحمه ا رأى فى الأحزاب وقد بنى حكمه على أسباب موضوعية واستشهد بآراء كتاب ومفكرين مصريين فقال .

"وهذا الكلام الذى انعقد إجماع الأمة عليه، أعلنه شيوخ ونواب وفقهاء. ودستوريون فى صراحة ووضوح. ومن قرأ ما كتبه علوبة باشا فى كتابه "مبادئ وطنية"، أو

---

(١) المرجع السابق ص٢١٨ .



الأستاذ حسن الجداوى فى كتابه "عيوب الحكم فى مصر" أو غيرهما من الكتاب، رأى صدق ما نقول. وحسبنا أن ننقل هنا فقرة من كتاب الفقيه الدستورى الأستاذ سيد صبرى "مبادئ القانون الدستورى" عن الأحزاب المصرية قال: "والواقع أنه لم يعد لأغلب الأحزاب السياسية فى مصر برنامج يدافع عنه أنصار ومريدون، ولهذه النتيجة أهميتها، فإن الانتخاب لن يقوم على المفاضلة بين البرامج، فقد أصبحت واحدة للجميع، بل سيقوم على الثقة بالأشخاص أو المفاضلة بينهم، وستكون الانتخابات شخصية لا حزبية بالمعنى المفهوم لدى الشعوب الغربية، وبديهى أن بقاء الأحزاب على هذا المنوال يقسم البلاد شيعاً وأحزاباً ويثير الشقاق والمنازعات بين الأفراد والأسرات بلا سبب مفهوم ولا أساس معقول" .

وإذا أضيف إلى هذا أن مصر ما زالت بلداً محتلاً إلى الآن، وأن الذى يستفيد من هذه الفرقة هم المحتلون الغاصبون فقط، وأنه إذا استسيغ الخلاف – وهو غير مستساغ بحال – فى أمة من الأمم، فإن أمة وادى النيل هى أحوج ما تكون إلى أكمل معانى الوحدة لتتجمع قواها فى

نضال الاستقلال وفى عمل الإصلاح الداخلى، إذا أضيف هذا كله كان الأمر أخطر من أن يهمل أو يستهان به " .

وبالنسبة للدعامة التالية – **احترام إرادة الأمة** تناول الإمام البنا "عيوب نظم الانتخاب فى مصر وكان عمدته هو كلام الدكتور سيد صبرى فى كتابه "مبادئ القانون الدستورى" ..

"أنه أوجد هيئة ناخبة لا يمكنها تحقيق الغرض من الانتخابات على الوجه المطلوب، وأنه لم يحقق فكرة تمثيل الأمة تمثيلاً صحيحاً، وأنه لم يصل إلى إيجاد هيئة تعمل للصالح العام مجردة من كل قيد.." وقد أورد بعد ذلك إحصائية دقيقة خاص منها بالأرقام إلى أن قرارات البرلمان المصرى فى أدواره المختلفة لا تعبر إلا عن رأى نسبة ضئيلة من مجموع من له حق الانتخاب، لم تصل يوماً إلى ١٢% .

واقترح الإمام البنا الإصلاحات الآتية :

" لابد من تعديل وإصلاح لقانون الانتخاب، ومن وجوه هذا الإصلاح الضرورية :

١. وضع صفات خاصة للمرشحين أنفسهم، فإذا كانوا ممثلين لهيئات فلابد أن يكون لهذه الهيئات برامج واضحة وأغراض مفصلة يتقدم على أساسها هذا المرشح. وإذا لم يكونوا ممثلين لهيئات فلابد أن يكون لهم من الصفات والمناهج الإصلاحية ما يؤهلهم للتقدم للنيابة عن الأمة، وهذا المعنى مرتبط إلى حد كبير بإصلاح الأحزاب فى مصر. وما يجب أن يكون عليه أمر الهيئات السياسية فيها .

٢. وضع حدود للدعاية الانتخابية، وفرض عقوبات على من يخالف هذه الحدود، بحيث لا تتناول الأسر ولا البيوت ولا المعانى الشخصية البحتة التى لا دخل لها فى أهلية المرشح وإنما تدور حول المناهج والخطط الإصلاحية .

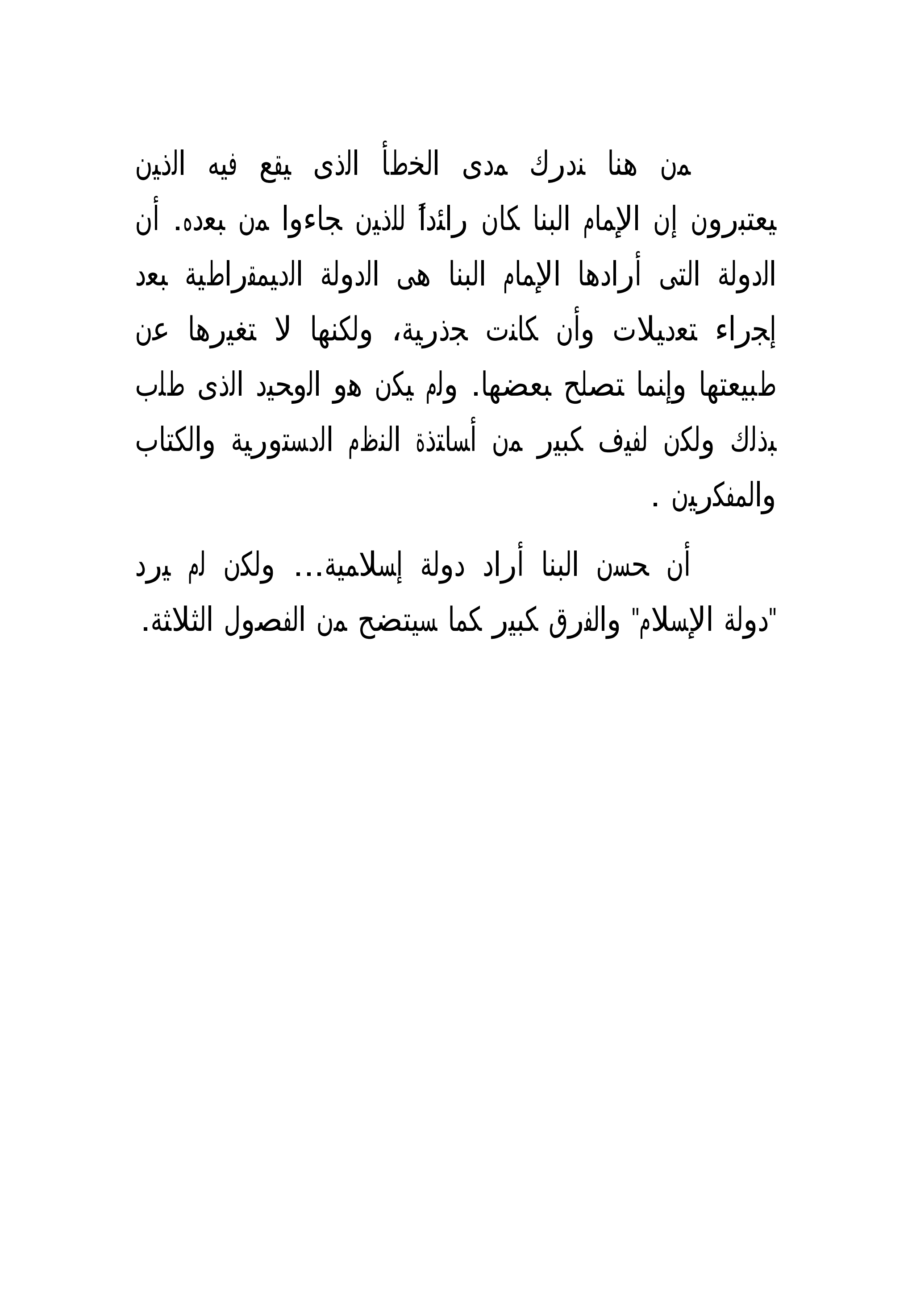
٣. إصلاح جداول الانتخاب، وتعميم نظام تحقيق الشخصية، فقد أصبح أمر جداول الانتخاب أمراً عجباً بعد أن لعبت بها الأهواء الحزبية والأغراض الحكومية طوال هذه الفترات المتعاقبة، وفرض التصويت إجباريا .

٤. وضع عقوبة قاسية للتزوير من أى نوع كان، وللرشوة الانتخابية كذلك.

٥. وإذا عدل إلى الانتخاب بالقائمة، لا الانتخاب الفردى كان ذلك أولى وأفضل، حتى يتحرر النواب من ضغط ناخبيهم، وتحل المصالح العامة محل المصالح الشخصية فى تقدير النواب والاتصال بهم .

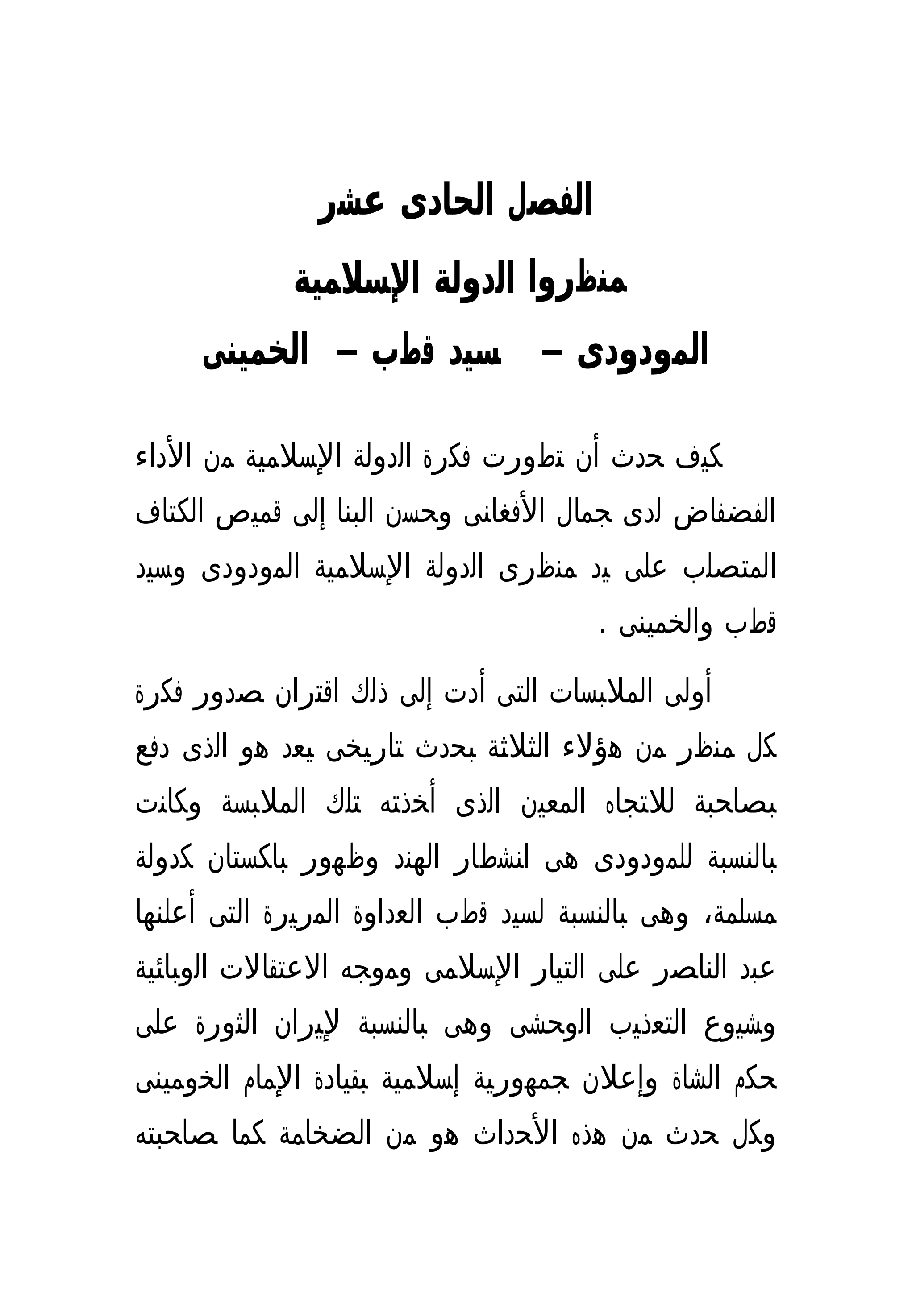
وعلى كل حال فأبواب الإصلاح والتعديل كثيرة، هذه نماذج منها، وإذا صدق العزم وضح السبيل، والخطأ كل الخطأ فى البقاء على هذا الحال والرضا به، والانصراف عن محاولة الإصلاح " .

هذا هو ما جاء فى رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ومن الواضح أنها ملاحظات إصلاح ديمقراطى يؤمن كل الإيمان بسيادة الأمة وضرورة احترام إرادتها وإقامة النظام السياسى على أساس برلمانى. ولا نجد فيه كلمة واحدة من شنشنة سيد قطب والمودودى أو ادعاءات جماعات الرفض أو حتى فيهقه الفقهاء. بل لا نجد فيه إشارة إلى "تطبيق الشريعة" أو تنفيذ الحدود أو حتى الخلافة .



من هنا ندرك مدى الخطأ الذى يقع فيه الذين يعتبرون إن الإمام البنا كان رائداً للذين جاءوا من بعده. أن الدولة التى أرادها الإمام البنا هى الدولة الديمقراطية بعد إجراء تعديلات وأن كانت جذرية، ولكنها لا تغيرها عن طبيعتها وإنما تصلح بعضها. ولم يكن هو الوحيد الذى طلب بذلك ولكن لفيف كبير من أساتذة النظم الدستورية والكتاب والمفكرين .

أن حسن البنا أراد دولة إسلامية... ولكن لم يرد "دولة الإسلام" والفرق كبير كما سيتضح من الفصول الثلاثة.



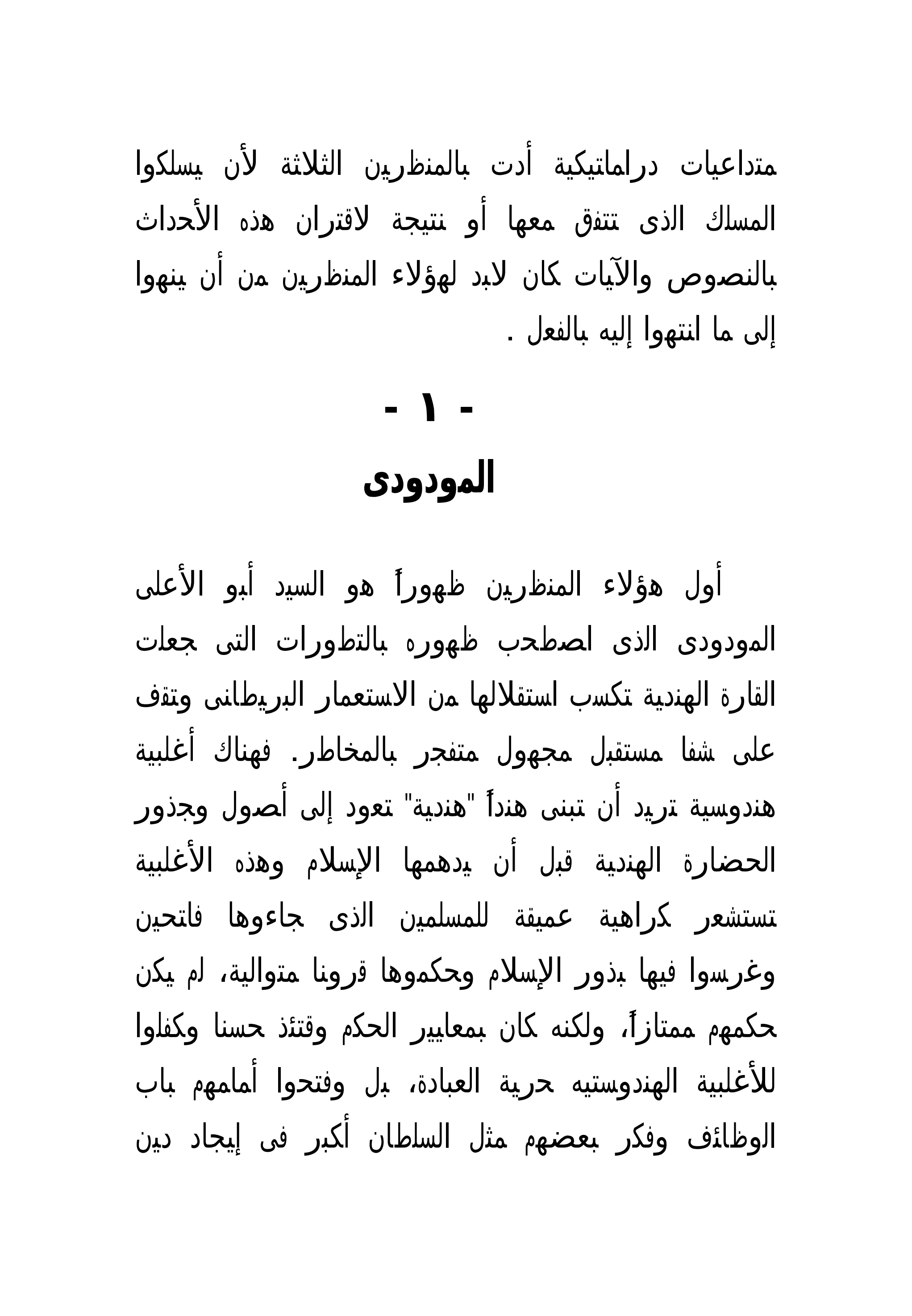
الفصل الحادى عشر

منظروا الدولة الإسلامية

المودودى – سيد قطب – الخمينى

كيف حدث أن تطورت فكرة الدولة الإسلامية من الأداء الفضفاض لدى جمال الأفغانى وحسن البنا إلى قميص الكتاف المتصلب على يد منظرى الدولة الإسلامية المودودى وسيد قطب والخمينى .

أولى الملابسات التى أدت إلى ذلك اقتران صدور فكرة كل منظر من هؤلاء الثلاثة بحدث تاريخى يعد هو الذى دفع بصاحبة للاتجاه المعين الذى أخذته تلك الملابسة وكانت بالنسبة للمودودى هى انشطار الهند وظهور باكستان كدولة مسلمة، وهى بالنسبة لسيد قطب العداوة المريرة التى أعلنها عبد الناصر على التيار الإسلامى وموجه الاعتقالات الوبائية وشيوع التعذيب الوحشى وهى بالنسبة لإيران الثورة على حكم الشاة وإعلان جمهورية إسلامية بقيادة الإمام الخومينى وكل حدث من هذه الأحداث هو من الضخامة كما صاحبته



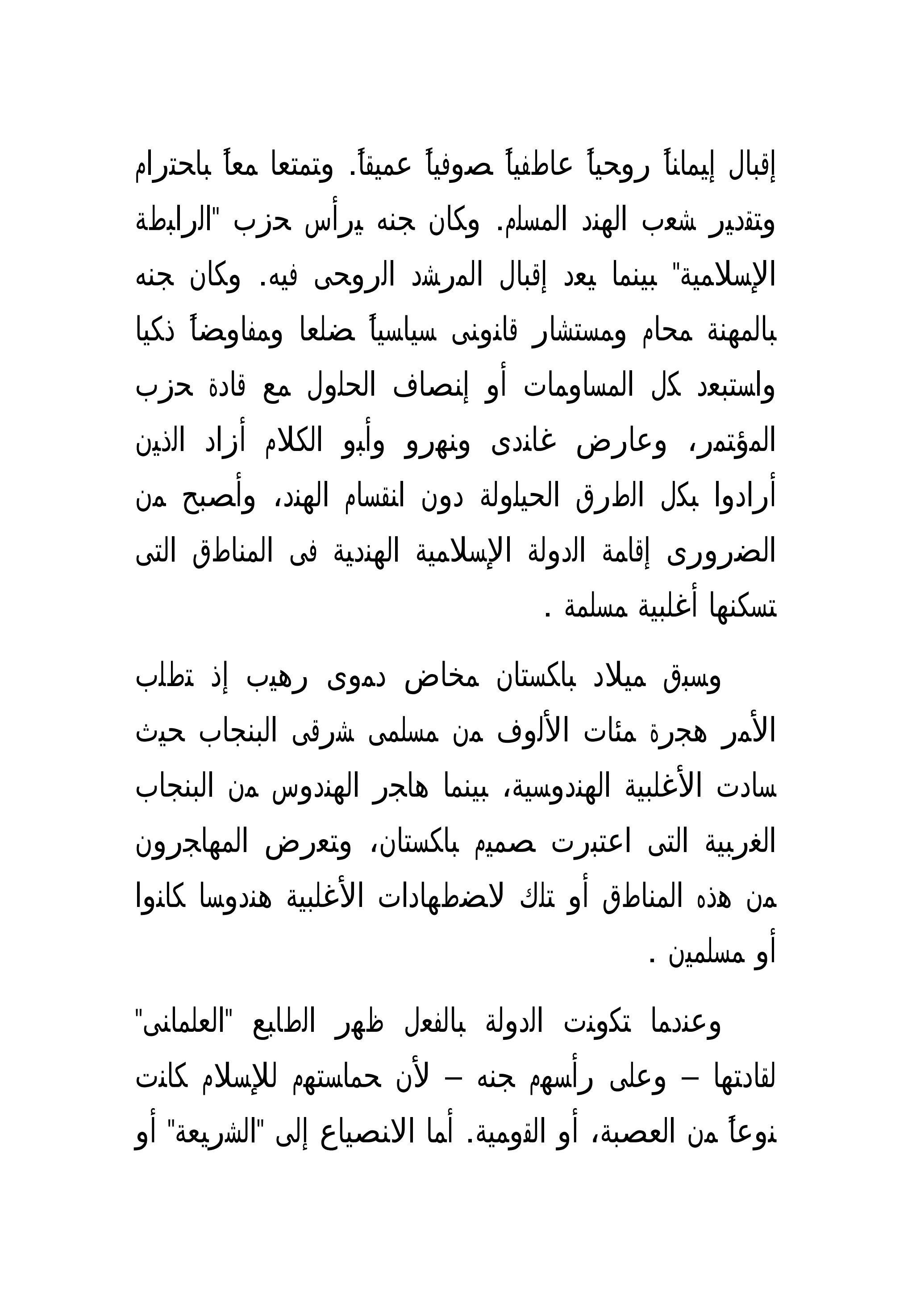
متداعيات دراماتيكية أدت بالمنظرين الثلاثة لأن يسلكوا المسلك الذى تتفق معها أو نتيجة لاقتران هذه الأحداث بالنصوص والآيات كان لابد لهؤلاء المنظرين من أن ينهوا إلى ما انتهوا إليه بالفعل .

- ١ -

المودودى

أول هؤلاء المنظرين ظهوراً هو السيد أبو الأعلى المودودى الذى اصطحب ظهوره بالتطورات التى جعلت القارة الهندية تكسب استقلالها من الاستعمار البريطانى وتقف على شفا مستقبل مجهول متفجر بالمخاطر. فهناك أغلبية هندوسية تريد أن تبنى هنداً "هندية" تعود إلى أصول وجذور الحضارة الهندية قبل أن يدهمها الإسلام وهذه الأغلبية تستشعر كراهية عميقة للمسلمين الذى جاءوها فاتحين وغرسوا فيها بذور الإسلام وحكموها قرونا متوالية، لم يكن حكمهم ممتازاً، ولكنه كان بمعايير الحكم وقتئذ حسنا وكفلوا للأغلبية الهندوستيه حرية العبادة، بل وفتحوا أمامهم باب الوظائف وفكر بعضهم مثل السلطان أكبر فى إيجاد دين

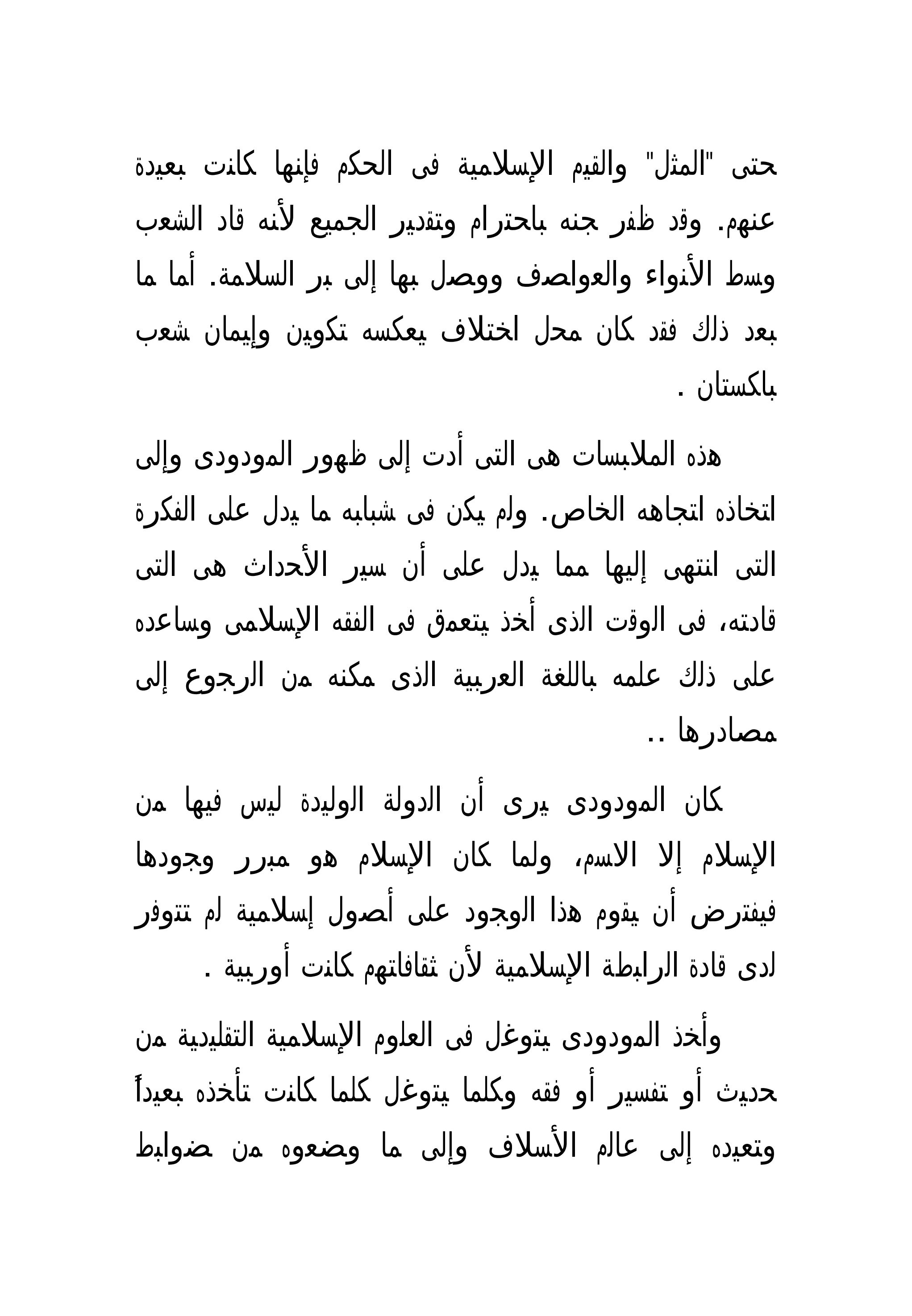
يمزج ما بين الإسلام والهندوكية، ولكن هذا لم يشف معظم الهنادكة من غيظهم القديم. وكان هناك الأقلية المسلمة (قرابة ٣٠ أو ٣٥% من مجموع السكان) استشرفوا ما ينتظرهم من اضطهاد تحت حكم الأغلبية الهندوسية. وكان على رأس الحزب الهندى الأكبر حزب المؤتمر ثلاثة من أكابر السياسيين الذين عرفتهم الهند. أولهم غاندى الذى قاد حملة المقاومة المدنية التى كانت من أكبر الوسائل التى ظفرت للهند باستقلالها. فضلاً عن أنه كان بصفة عامة إنسانى النزعة، وكان الباقى هو نهرو السياسى المثقف المعتدل وأخيراً مولانا أبو الكلام أزاد وهو عالم مسلم درس الفقه والتفسير وكان نفوذه فى المؤتمر لا يقل عن سابقيه.. ولكن هذه القيادة الموهوبة لم ترض جماهير المسلمين الهنود، وتأتمن مشاعر الشعب الهندوسى، على كبح جماح جماهيره. وظهر بينهم وقتئذ قائدان بارزان أولهما محمد على جنه وثانيهما الدكتور محمد إقبال. وكان معا مثقفين ثقافة أوربية رفيعة ولهما مشاعر إسلامية قوية. ولكن هذه المشاعر كانت تأخذ لدى جنه طابعاً قومياً. فالإسلام هو جنسيه المسلمين الهنود ولابد من إقامة دولة إسلامية بينما كان إيمان الدكتور



إقبال إيماناً روحياً عاطفياً صوفياً عميقاً. وتمتعا معاً باحترام وتقدير شعب الهند المسلم. وكان جنه يرأس حزب "الرابطة الإسلامية" بينما يعد إقبال المرشد الروحى فيه. وكان جنه بالمهنة محام ومستشار قانونى سياسياً ضلعا ومفاوضاً ذكيا واستبعد كل المساومات أو إنصاف الحلول مع قادة حزب المؤتمر، وعارض غاندى ونهرو وأبو الكلام أزاد الذين أرادوا بكل الطرق الحيلولة دون انقسام الهند، وأصبح من الضرورى إقامة الدولة الإسلامية الهندية فى المناطق التى تسكنها أغلبية مسلمة .

وسبق ميلاد باكستان مخاض دموى رهيب إذ تطلب الأمر هجرة مئات الألوف من مسلمى شرقى البنجاب حيث سادت الأغلبية الهندوسية، بينما هاجر الهندوس من البنجاب الغربية التى اعتبرت صميم باكستان، وتعرض المهاجرون من هذه المناطق أو تلك لاضطهادات الأغلبية هندوسا كانوا أو مسلمين .

وعندما تكونت الدولة بالفعل ظهر الطابع "العلمانى" لقادتها – وعلى رأسهم جنه – لأن حماستهم للإسلام كانت نوعاً من العصبة، أو القومية. أما الانصياع إلى "الشريعة" أو


حتى "المثل" والقيم الإسلامية فى الحكم فإنها كانت بعيدة عنهم. وقد ظفر جنه باحترام وتقدير الجميع لأنه قاد الشعب وسط الأنواء والعواصف ووصل بها إلى بر السلامة. أما ما بعد ذلك فقد كان محل اختلاف يعكسه تكوين وإيمان شعب باكستان .

هذه الملابسات هى التى أدت إلى ظهور المودودى وإلى اتخاذه اتجاهه الخاص. ولم يكن فى شبابه ما يدل على الفكرة التى انتهى إليها مما يدل على أن سير الأحداث هى التى قادته، فى الوقت الذى أخذ يتعمق فى الفقه الإسلامى وساعده على ذلك علمه باللغة العربية الذى مكنه من الرجوع إلى مصادرها ..

كان المودودى يرى أن الدولة الوليدة ليس فيها من الإسلام إلا الاسم، ولما كان الإسلام هو مبرر وجودها فيفترض أن يقوم هذا الوجود على أصول إسلامية لم تتوفر لدى قادة الرابطة الإسلامية لأن ثقافاتهم كانت أوربية .

وأخذ المودودى يتوغل فى العلوم الإسلامية التقليدية من حديث أو تفسير أو فقه وكلما يتوغل كلما كانت تأخذه بعيداً وتعيده إلى عالم الأسلاف وإلى ما وضعوه من ضوابط

وقواعد تكون فى مجموعها الفهم السلفى.. وكان دوره هو أن يقدم ترجمة "أورديه" سهلة لهذا الفهم السلفى.. وأن يضعه فى إطار الدولة الحديثة وكان حرصه على سلامة وقوة الدولة يرتبط بقيامها على الأسس الإسلامية السليمة التى استخلصها فإذا لم تقم على ذلك فإنها تفقد صفتها المميزة وتصبح دولة كبقية الدولة .

وكان المودودى يؤمن بفكرة أن الفاتحين المسلمين للهند سلكوا مسلك الملوك الذين يستكثرون من الأموال ويستجيبون للشهود، ويقيمون القصور الخ... ولو أنهم سلكوا مسلك السياسة الإسلامية التى وضع أسسها الرسول والخلفاء الراشدون لكانت الهند قد أصبحت أمة مسلمة. ولهذا كان تركيزه على السلوك الإسلامى سواء من الفرد أو المجتمع، فى الاقتصاد أو السياسة .

وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤١ أسس الجماعة الإسلامية من ٧٥ رجلاً اجتمعوا من مختلف بقاع الهند بناء على دعوة وجهها المودودى عن طريق مجلته "ترجمان القرآن" وانتخبوا المودودى أميراً لها .

وفى أول نوفمبر ١٩٧٢ وبعد واحد وثلاثين عاماً من الكفاح قدم الإمام المودودى طلبا إلى الجماعة بإعفائه من منصبه كأمير لها لأسباب صحية وعكف على البحث والقراءة حتى وافته المنية فى سبتمبر سنة ١٩٧٩ .

وأراد المودودى لجماعته أن تكون جمعية تطبق المثال على الواقع وتكون مجتمعاً إسلامياً حقيقياً يتوفر لأعضائه الإيمان والعمل، أو ما أطلق عليه المودودى الشهادة القوليه والفعلية، ويخضع لمعايير صارمة هى التى رأى المودودى أنها تتفق مع متطلبات الإسلام .

وأقامت الجماعة فى قرية عمرتها بنفسها، واستوطنها صفوة من أعضائها كما لو كانت مدرسة للكبار، وكان من واجبات كل عضو أن يأخذ نفسه بآداب الإسلام وأوامره "فلا يعامل أحداً إلا على الصدق، ولا يعاقد قريباً أو أجنبيا إلا على ما جاءت به الشريعة من شروط ولا يرضى بالعقود الفاسدة المحرمة فى الشريعة، ولو كلفه ذلك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة

فاستقال أعضاؤها من وظائف الحكومة الكافرة – البريطانية – وانقطع المحامون من رجالها عن المحاماة أمام

المحاكم التى تحكم بغير ما أزل ا ، وأبوا أن يتعاطوا بالربا فتوقفوا عن التعامل مع البنوك (المصارف) .

وتعرض أعضاؤها لكثير من العنت والاضطهاد :

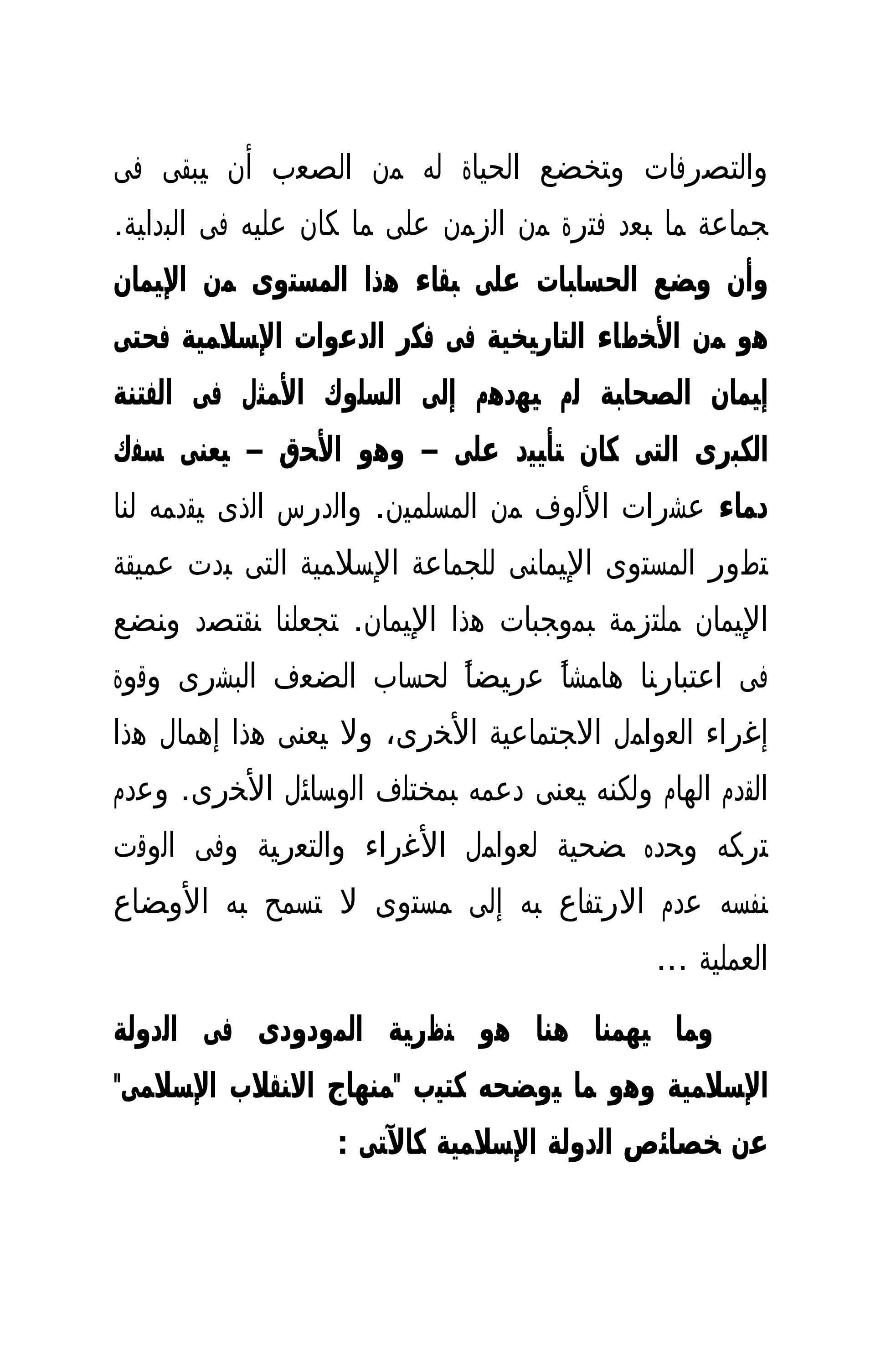
فمن الشبان – وهم الأغلبية العظمى – من طرده أبوه وأخرجه من داره وحرم عليه أرضه ومتاعه.. ومنهم من أبى ذوو قرباه أن يزوجوه ابنتهم لأنه عمل بسنة النبى ﷺ وأعفى لحيته التى طالما تعود على حلقها من قبل .

ومن الشيوخ من ضربه ابنه وأهانه لأنه تخلى عن حياة الجاهلية فى شيخوخته الخ...[1] .

ويوضح نشأة الجماعة الإسلامية وتطورها أن من الخطأ الاعتقاد أن من الممكن إضرام نار الإيمان فى صدور المجموعات لسنوات طوال، وأن الإيمان الذى يحكم الخلق

---

١ رجعنا إلى القسم من استعراض تاريخ الإسلام فى الهند إلى الكتيب الذى وضعه السيد مسعود الندوى باسم: "نظرة إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند" وطبعته لجنة الشباب المسلم بالحلمية وكتب مقدمته الأستاذ محمد الدين الخطيب - رحمة ا - عام ١٣٧٢ هـ .



والتصرفات وتخضع الحياة له من الصعب أن يبقى فى جماعة ما بعد فترة من الزمن على ما كان عليه فى البداية. **وأن وضع الحسابات على بقاء هذا المستوى من الإيمان هو من الأخطاء التاريخية فى فكر الدعوات الإسلامية فحتى إيمان الصحابة لم يهدهم إلى السلوك الأمثل فى الفتنة الكبرى التى كان تأييد على – وهو الأحق – يعنى سفك دماء** عشرات الألوف من المسلمين. والدرس الذى يقدمه لنا تطور المستوى الإيمانى للجماعة الإسلامية التى بدت عميقة الإيمان ملتزمة بموجبات هذا الإيمان. تجعلنا نقتصد ونضع فى اعتبارنا هامشاً عريضاً لحساب الضعف البشرى وقوة إغراء العوامل الاجتماعية الأخرى، ولا يعنى هذا إهمال هذا القدم الهام ولكنه يعنى دعمه بمختلف الوسائل الأخرى. وعدم تركه وحده ضحية لعوامل الأغراء والتعرية وفى الوقت نفسه عدم الارتفاع به إلى مستوى لا تسمح به الأوضاع العملية ...

وما يهمنا هنا هو نظرية المودودى فى الدولة الإسلامية وهو ما يوضحه كتيب "منهاج الانقلاب الإسلامى" عن خصائص الدولة الإسلامية كالآتى :

١) ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسائر القاطنين فى الدولة نصيب من الحاكمية فإن الحاكم الحقيقى هو ا والسلطة الحقيقية مختصة لذاته تعالى وحده والذين من دونه فى هذه المعمورة إنما هم رعايا فى سلطانه العظيم .

٢) ليس لأحد من دون ا شئ من أمر التشريع والمسلمون جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يستطيعون أن يشرعوا قانوناً ولا يقدرون أن يغيروا شيئاً مما شرع ا لهم.

٣) أن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشرع الذى جاء به النبى من عند ربه مهما تغيرت الظروف والأحوال. والحكومات التى بيدها زمام هذه الدولة لا تستحق طاعة الناس إلا من حيث أنها تحكم بما أنزل ا وتنفذ أمره تعالى فى خلقه .

من هنا يتضح لنا أن الدولة الإسلامية لا تعد ديمقراطية بالمعنى الشائع لأنها لا تجعل إرادة الشعب هى أصل التشريع، ولكنها حكومة إلهية (ثيوقراطية Theocracy) مع اختلاف جذرى فى المدلول الأوربى للكلمة لأن الحكومة

الإسلامية لا تعرف طبقة السدنة (رجال الدين) الذين يتولون وحدهم فى الدولة الثيوقراطية بالمفهوم الأوربى التقنين أو التفسير طبقاً للشريعة الإلهية ومن هنا فإن الثيوقراطية الإسلامية يمكن أن تكون (ثيو – ديمقراطية) Theo– democra cy أو الحكومة الإلهية الجمهورية وذلك لأنها خولت للمسلمين حاكمية (أو سيادة) شعبية محدودة A limited Popular Sovereignty تحت سلطة ا القاهرة. ولا تتألف السلطة التنفيذية إلا بآراء المسلمين وبيدهم يكون عزلها من منصبها وكذلك جميع الشئون التى لا يوجد عنها فى الشريعة حكم صريح لا يقطع فيها بشىء إلا بإجماع المسلمين .

وكلما مست الحاجة إلى إيضاح قانون أو شرح نص من نصوص الشرع لا يقوم ببيانه طبقة أو أسرة مخصوصة وحدها بل يتولى شرحه وبيانه كل من بلغ درجة الاجتهاد من عامة المسلمين ..

فمن هذه الوجهة يعد الحكم الإسلامى ديمقراطيا إلا أنه – كما تقدم ذكره من قبل – إذا وجد نص من نصوص الكتاب والسنة فى شأن من الشئون فليس لأحد من أمراء المسلمين أو مجتهد أو عالم من علمائهم ولا مجلس تشريعى

(Legislature) بل ولا لجميع المسلمين فى العالم أن يصلحوا أو يغيروا منه كلمة واحدة، من هذه الجهة يصح إطلاق كلمة "الثيوقراطية " انتهى الاقتباس ..

وفى كتابه "الحكومة الإسلامية" وهو من الكتابات المتأخرة للمودودى عرض القضية كالآتى :

أن المطالبة بالحكومة الإسلامية والدستور الإسلامى تنبع من الشعور الأكيد بأن المسلم إذا لم يتبع قانون ا ، كان ادعاؤه الإسلام باطلا لا معنى له ..

١) يقرر القرآن أن ا تعالى هو مالك الملك، ومن ثم فهو صاحب الحق فى الحكم بداهة، كما يقرر أن تنفيذ أوامر أحد غيره، أو حكم أحد سواه فى أرضه وعلى خلقه، إنما هو باطل وكفران مبين. والصواب أن يحكم الحاكم بقانون ا ويفصل فى الأمور بشريعة الخالق بوصفة خليفة ونائبا عنه فى أرضه .

٢) وبناء على هذا سلب الإنسان حق التقنين لأنه مخلوق ورعية، عبد ومحكوم، ومهمته تتركز فى اتباع القانون الذى سنه مالك الملك. وقد أباح الإسلام بالطبع مزاولة

الإنسان الاستنباط والاجتهاد وتفريعاتهما الفقهية، لكنه شرط ذلك بألا يخرج عن إطار حدود ا . كذلك أعطى المؤمنين حق التقنين فيما لم يرد فيه حكم صريح من ا ورسوله، على أن تراعى فى التقنين روح الشريعة ومزاج الإسلام، لأن سكوت الشارع عن إصدار حكمه فى بعض المسائل يعنى أن للمؤمنين الحق القانونى فى سن أحكامها وضوابطها. لكن الأمر الأساسى الذى لا غمة فيه ولا خفاء أن من يترك قانون ا ويؤمن بقانون آخر وضعه بنفسه أو شرعه له غيره من البشر إنما هو طاغوت باغ خارج عن طاعة الحق، وأن من يبغ الحكم بهذا القانون الوضعى، ويعمل على تنفيذه فهو باغ عات عن أمر ربه أيضاً .

٣) أن الحكومة الصحيحة العادلة فى أرض ا هى التى تتأسس وتحكم بالقانون الذى بعثه ا على أيدى أنبيائه، وأسمها الخلافة .

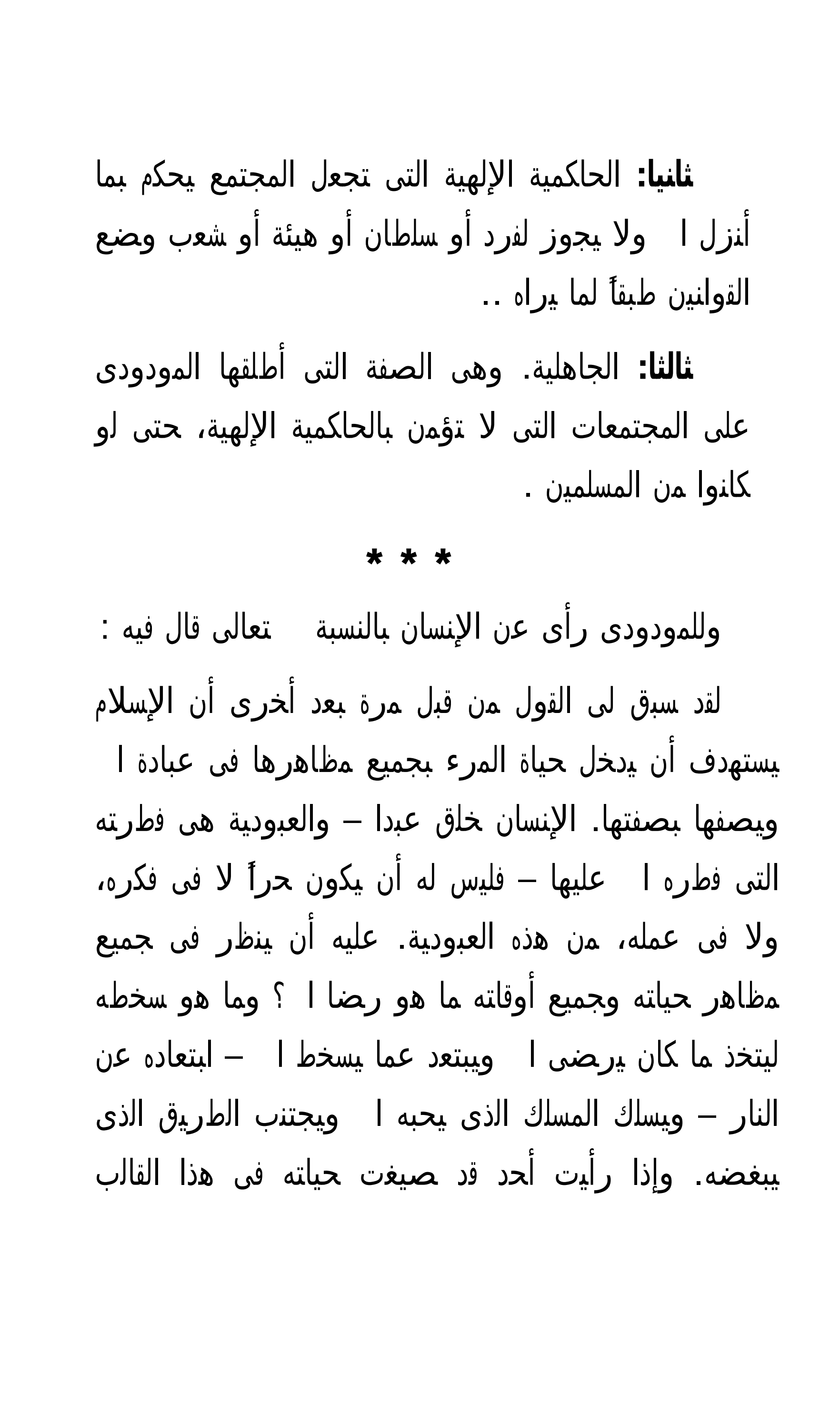
٤) أن كل ما يصدر من أعمال من قبل أية حكومة تقوم على أساس شرعة أخرى غير شرعة ا وقانونه الذى جاء به الأنبياء من لدن رب الكون وإلاهه باطل لا

قيمة له ولا وزن، مهما اختلفت هذه الحكومات فيما بينها من تفاصيل فى الشكل والنوع، وحكمها غير شرعى البتة، فإذا كان مالك الملك الحقيقى لم يعطها سلطانا، فأنى لها أن تكون حكومات شرعية .

أن القرآن الكريم يرى كل ما تقوم به هذه الحكومات محض عدم لا وزن له ولا قيمة، وقد يقبل المؤمنون – وأعنى بهم رعايا ا الأوفياء – وجود هذه الحكومات باعتبارها أمراً واقعاً خارجا عن إرادتهم وقدرتهم، لكنهم لا يعترفون بها وسيلة حكم شرعية، وسلطة تفصل فى أمورهم وقضاياهم، إذ لا يحق لهم طاعة الخارجين على حاكمهم الأصلى (ا) أو قبولهم حكما فى مجريات حياتهم، ومن يفعل ذلك فقد خرج من زمرة المؤمنين الأوفياء مهما أدعى الإسلام والإيمان " انتهى ..

ويمكن تلخيص فكرة المودودى فى القواعد الثلاث الآتية :

أولا: العبودية التى تجعل المسلم يعيش فى كل حركاته ابتغاء مرضاة ا والتزاما بما وضعه ا .



ثانيا: الحاكمية الإلهية التى تجعل المجتمع يحكم بما أنزل ا ولا يجوز لفرد أو سلطان أو هيئة أو شعب وضع القوانين طبقاً لما يراه ..

ثالثا: الجاهلية. وهى الصفة التى أطلقها المودودى على المجتمعات التى لا تؤمن بالحاكمية الإلهية، حتى لو كانوا من المسلمين .

* * *

وللمودودى رأى عن الإنسان بالنسبة تعالى قال فيه :

لقد سبق لى القول من قبل مرة بعد أخرى أن الإسلام يستهدف أن يدخل حياة المرء بجميع مظاهرها فى عبادة ا ويصفها بصفتها. الإنسان خلق عبدا – والعبودية هى فطرته التى فطره ا عليها – فليس له أن يكون حراً لا فى فكره، ولا فى عمله، من هذه العبودية. عليه أن ينظر فى جميع مظاهر حياته وجميع أوقاته ما هو رضا ا ؟ وما هو سخطه ليتخذ ما كان يرضى ا ويبتعد عما يسخط ا – ابتعاده عن النار – ويسلك المسلك الذى يحبه ا ويجتنب الطريق الذى يبغضه. وإذا رأيت أحد قد صيغت حياته فى هذا القالب

صياغة كاملة فاعلم أنه أدى حق عبوديته لسيدة ومولاه وأتم الغرض المنشود لآية ﴿وما خَلَقْتُ الْجِن والإنس إلا لِيعبدون﴾.

* * *

ما هى تحفظاتنا على فكر المودودى ؟ :

أولاً: أن العلامة المودودى وقع فى "إسقاط" بشرى على الطبيعة الإلهية وتصور سلطة الله تعالى وحاكميته كما لو كانت سلطة ملك على شعبه أو قائد على جنده. أو مالك بعبيده. وكان من أبرز الأدلة على ذلك الأمثلة العديدة التى أراد أن يوضح بها هذا الفهم، ومثل هذا القياس خاطئ تماماً لانتفاء التماثل فى العلة أن لم يكن مستبعداً أصلاً. فالله تعالى غنى عن العالمين، لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة – وأى مالك ليس غنيا عن عبيده – ولا هو فى حصانة من معصيتهم، أو غنى عن طاعتهم. وعلم الله تعالى الذى يفصل به بين العباد. ويحكم به على الأعمال يتسامى عن فهمنا المحدود المتأثر بالعوامل الذاتية ونحن يتملكنا الغضب لأنفسنا وتأخذنا العزة عند المخالفة – ونحرص على ذواتنا، وأموالنا، ومراكزنا وسلطاننا.. ونحاسب تبعا لقواعد الحساب.. وهذا

كله شىء لا يمكن أن ينسب إلى ا تعالى – فرحمة ا أعظم مما نتصورها – وخزائنه لا تنفد. وهو يكافئ بسبعمائة ضعف وأكثر. وعلمه وحكمته تجعله ينظر إلى المخالف نظرة العارف المتعال: وهم يقولون عن البشر "من يعرف أكثر.. يغفر أكثر.." ومن ثم كانت معاملة الفيلسوف الحكيم تختلف عن معاملة العسكرى الفظ.. وهذا كله بالنسبة للآدميين. فما بالك با رب العالمين. أننى لأخشى إن المودودى رحمه ا فى حماسته لتدعيم وجهة نظره كاد أن يقرب من تجسيم إن لم يكن مادياً – فهو فكرياً.. وأراد أن يمحى كل أثاره من إثارات الشرك.. فكاد أن يقع فيما يماثل ذلك عندما كيف الطبيعة الإلهية تكييفاً بشرياً .

ثانيا: أن العبودية لا تعنى – كما تصور المودودى – انعدام حرية الإنسان فى الأرض والتصور الذى قدمه المودودى للعبودية الإنسانية الذى رتب عليه انعدام الحرية يخالف مخالفة تامة التصور الإسلامى للحياة واستخلاف الإنسان على الأرض وأرصاد الشياطين لغوايته وإرسال الأنبياء لهدايته. وما ينبنى على هذا من وجود حرية فى التصدى وعقل فى التكييف. وكلمة حرية وعقل هما من

المحرمات فى كتابات وآداب الرافضة الجديدة – كما يندر أن نجدهما فى كتابات المودودى. وإغفالهما، مع التركيز على مضمون العبودية يخل بالتصور الذى أراده الإسلام، ولو أعطت كتابات المودودى الحرية الإنسانية. والعقل الإنسانى جزء مما ركزته فى العبودية – لاختلاف التكييف – ولكان هذا أدعى لهداية الإنسان من تجاهلهما ..

ثالثا: يختلف الطابع العام لأحكام المودودى ومنطلقاته عن الطابع العام الذى نجده فى القرآن وفى الحديث. ففى هذين نجد العقيدة وتوجيهاتها تعرض "كمثال" ونجد الطبيعة البشرية بضعفها والعوامل المحددة لها.. تعرض كواقع. وتتجاوب الأحكام مع تلاقى المثال بالواقع.. ومدى إخضاع الواقع للمثال، أو مدى توصل الواقع إلى المثال. ومن أجل هذا يقرر القرآن "لا يكلف ا نفساً إلا وسعها" وكان الرسول أيضاً عندما يبايع المؤمنين يردف "فيما استطعتم" وهذه اللمسات الإلهية والنبوية فى معاملة الإنسان والمعرفة بالطبيعة البشرية لا نجدها فى أحكام المودودى التى تنزع نحو تطبيق المثال كاملاً غير منقوص، وتميل بصفة عامة للتشدد. والإسلام دين اليسر. وتريد قيام مجتمع كامل لا

يتضمن نقصاً. فى حين أن الإسلام افترض وجود التقصير والضعف أمام الإغراء، بل أنه إفترض حدوث الكفر. ولم يكن هذا فى حد ذاته ليعنى الإسلام وقد وجه ا تعالى نبيه لأن لا يحزنه الذين يسارعون فى الكفر. لأنه تعالى – لا تضره معصية – ولا تنفعه طاعة – فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ومن شاء فليكفر.. ومن شاء فليؤمن. وقد أراد ا تعالى لهذه الدنيا أن تضم الكفرة – وغير المؤمنين الخ... ﴿ولَو يؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِم ما تَرك علَيها مِن دابةٍ ولَكِن يؤَخرهم إِلَى أَجلٍ مسمى فَإِذَا جاء أَجلُهم لا يستأْخِرون ساعةً ولا يستَقْدِمون﴾. {٦١ النحل} ..

رابعا: إن الإلحاح على فكرة العبودية مع استبعاد أى إشارة إلى حرية أو عقل يمكن أن يوظف لخدمة الحكام والنظم ويفتح الطريق لهما. لأنه مع استبعاد العقل والحرية، تنبهم العبودية، ولا يمكن التفرقة بين أن تكون أو لغير ا ويمكن أن يصبح الإنسان عبداً للخرافة ويختلط عليه الحق بالباطل .

رؤية للديمقراطية فى الثمانينات :

ليس لدينا الكثير من الوثائق والكتابات عن التطورات الأخيرة للجماعة الإسلامية. وهذه الجهالة هى جزء من القطيعة الفكرية بين بلاد العالم الإسلامى، وعدم احتفال كثير من الهيئات بالإعلام المكتوب – أو الاتصال. خارج أطرها الخاصة. وما تأتينا به أجهزة الإعلام الأوربية والأمريكية متهم .

ومعروف بالطبع أن الحظوظ قد تقلبت بالجماعة الإسلامية عندما دخلت العمل السياسى. ولكن قله ما لدينا من مراجع يحول بيننا وبين إصدار الأحكام. وقد وجدنا بين أوراقنا نشرة موجزة بالإنجليزية أصدرتها الجماعة الإسلامية بعنوان **الديمقراطية والتضامن القومى: مشروع المودودى للإجماع القومى عن الأسس الفكرية بباكستان.** وهى بدون تاريخ – ولكنها قطعا بعد ١٩٨٣ لأن فى ظهرها إشارة إلى نشرة سابقة عليها تحمل تاريخ ٨٣. وهى تمثل التطور الفكرى الذى وصلت إليه الجماعة وتكييفها لمفاهيمها للتوصل إلى "إجماع قومى" .

وبعد مقدمة موجزة، تعرض النشرة خمسة مبادئ لازمة لتهيئة مناخ رأى عام إيجابى هى :

1. احترام الحق والعدل .
2. التسامح المشترك (أو المتبادل) .
3. تجنب المعارضة للمعارضة.
4. تفضيل الإقناع على القسر .
5. المصلحة القومية فوق المصلحة الشخصية .

وهذه المبادئ توضح مدى تطور فكر الجماعة الإسلامية. ولكن يظل مدى إيمان الجماعة بهذه المبادئ وتكييفها محل ظن، ولكنه على كل حال يختلف عما قدمه المودودى فى كتاباته سواء الأولى أو الأخيرة .

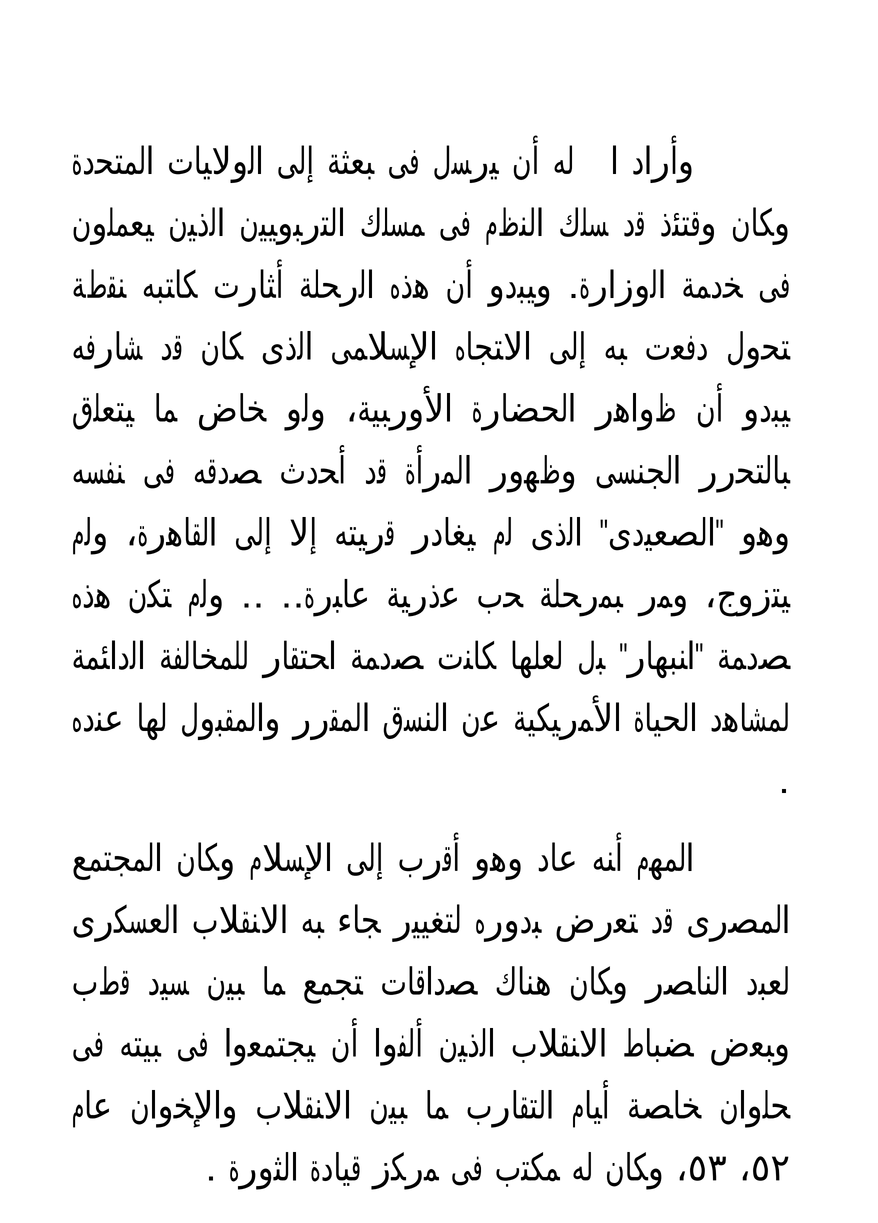
- ٢ -

سيد قطب

وكتاب "معالم فى الطريق"

كان سيد قطب كاتبا ضليعاً تلقى دراساته فى دار العلوم – وواصلها بقراءاته. وأظهر من أيامه الأولى نبوغاً فى الكتابة واعتبر فترة ما الابن البكر للأستاذ محمود عباس العقاد وأفسحت له مجلة الرسالة أصدرها فأثراها بمقالاته عن النقد الأدبى. وكان مما لا يزال عالقاً بالذهن مساجلة بينه وبين الأستاذ محمد سعيد العريان الذى اعتبر أكبر مؤيدى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وكان المساجلة وكأنها بين الكاتبين الكبيرين نفسهما. وكل واحد يدافع عن وجهة نظره..

ولم يكن الاتجاه الإسلامى بارزاً فى سيد قطب فى الكتابات الأولى لسيد قطب، على أنه أصدر كتاباً ممتازاً بعنوان "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" ثم جذبه الإعجاز القرآنى الذى لابد أن يجذب كل كاتب عربى. فأصدر "مشاهد القيامة فى القرآن والتصوير الفنى" وعدداً آخر من الكتب أبرز فيها البلاغة والإعجاز الفنى للقرآن ..



وأراد ا له أن يرسل فى بعثة إلى الولايات المتحدة وكان وقتئذ قد سلك النظم فى مسلك التربويين الذين يعملون فى خدمة الوزارة. ويبدو أن هذه الرحلة أثارت كاتبه نقطة تحول دفعت به إلى الاتجاه الإسلامى الذى كان قد شارفه يبدو أن ظواهر الحضارة الأوربية، ولو خاض ما يتعلق بالتحرر الجنسى وظهور المرأة قد أحدث صدقه فى نفسه وهو "الصعيدى" الذى لم يغادر قريته إلا إلى القاهرة، ولم يتزوج، ومر بمرحلة حب عذرية عابرة.. .. ولم تكن هذه صدمة "انبهار" بل لعلها كانت صدمة احتقار للمخالفة الدائمة لمشاهد الحياة الأمريكية عن النسق المقرر والمقبول لها عنده .

المهم أنه عاد وهو أقرب إلى الإسلام وكان المجتمع المصرى قد تعرض بدوره لتغيير جاء به الانقلاب العسكرى لعبد الناصر وكان هناك صداقات تجمع ما بين سيد قطب وبعض ضباط الانقلاب الذين ألفوا أن يجتمعوا فى بيته فى حلوان خاصة أيام التقارب ما بين الانقلاب والإخوان عام ٥٢، ٥٣، وكان له مكتب فى مركز قيادة الثورة .

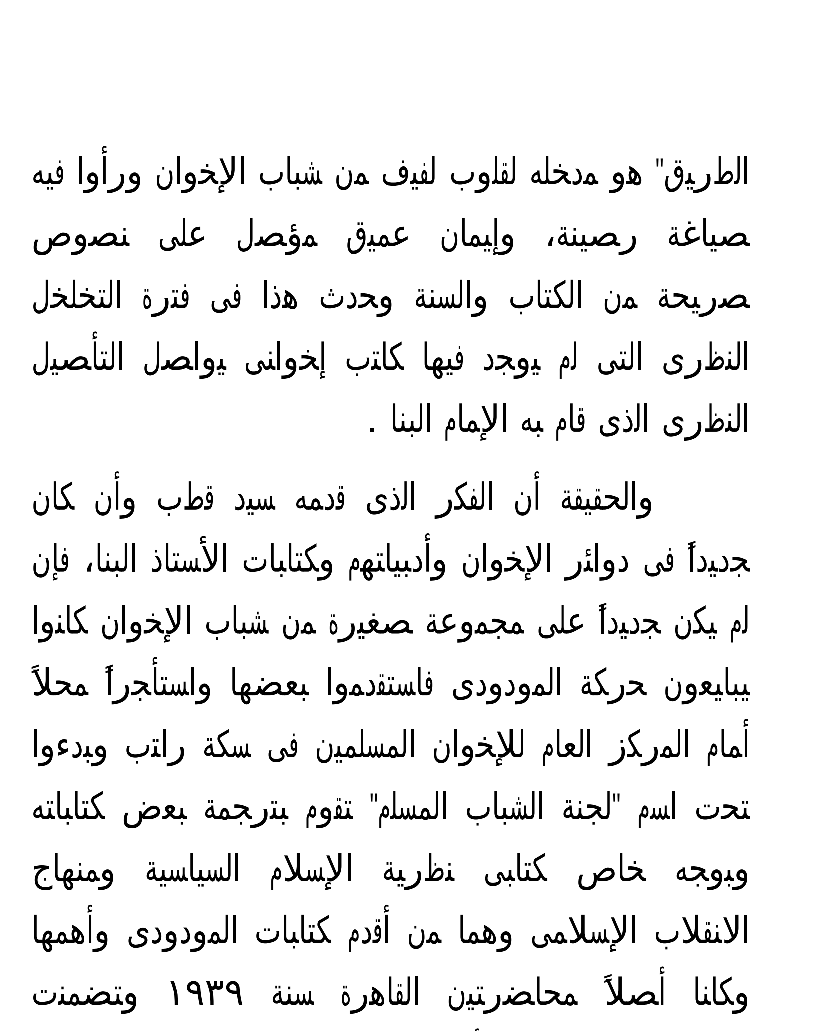
وكان لدى بعض أصدقائه من الضباط احتمال أن تعينه "الثورة" وزيراً للتربية والتعليم ولكن ما لم يفطنوا إليه وقتئذ هو أن الأمور كانت فى يد جمال عبد الناصر أشكاك الحذر الذى لا يأتمن إلا اتباعه .

وجرت الرياح على غير ما تشتهى السفن. فقد توترت العلاقات ما بين الإخوان والضباط. بعد ١٩٥٤ وتلك التهمة التى ألصقت بالإخوان تهمة محاولة اغتيال عبد الناصر، وبدأت الاعتقالات ..

ولم يكن سيد قطب بالرغم من شخصيته المستقلة، وعلاقاته بالضباط بمنأى عن هذه التطورات التى نالته فيمن نالت ولكنه خرج منها بعد أن أحدثت أول شرخ ما بينه وبين النظام

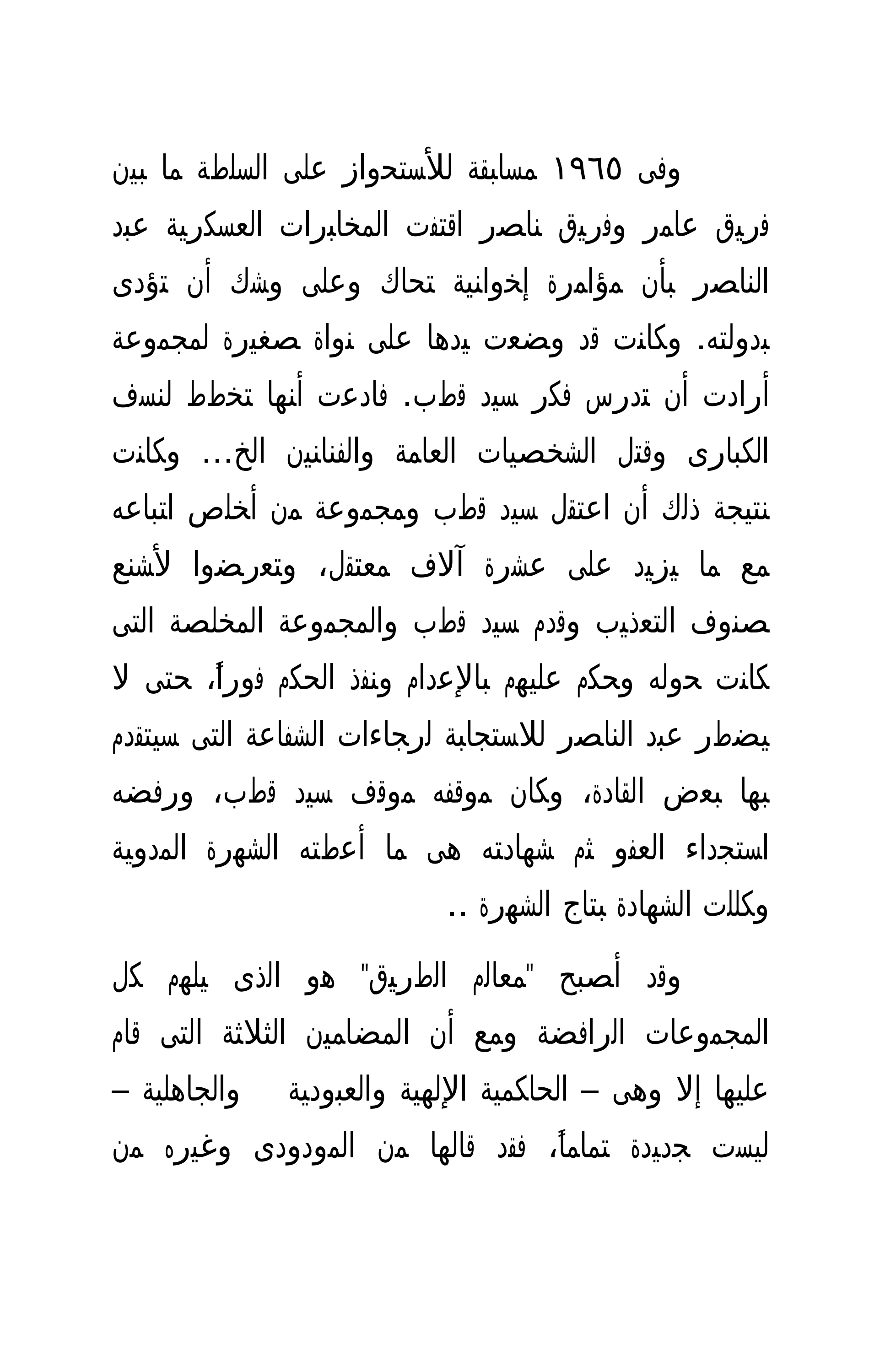
وأصدر فى هذه الفترة كتابه "معالم فى الطريق" ولم ينتبه القادة إلى خطورة مضمونه وقيل أنه كان يوزع بين الضباط ..

واكتسب الأستاذ سيد قطب شهرة مدوية فى أوساط الإخوان.. وانضم إليها بصفة رسمية وكان كتابه "معالم فى



الطريق" هو مدخله لقلوب لفيف من شباب الإخوان ورأوا فيه صياغة رصينة، وإيمان عميق مؤصل على نصوص صريحة من الكتاب والسنة وحدث هذا فى فترة التخلخل النظرى التى لم يوجد فيها كاتب إخوانى يواصل التأصيل النظرى الذى قام به الإمام البنا .

والحقيقة أن الفكر الذى قدمه سيد قطب وأن كان جديداً فى دوائر الإخوان وأدبياتهم وكتابات الأستاذ البنا، فإن لم يكن جديداً على مجموعة صغيرة من شباب الإخوان كانوا يبايعون حركة المودودى فاستقدموا بعضها واستأجراً محلاً أمام المركز العام للإخوان المسلمين فى سكة راتب وبدءوا تحت اسم "لجنة الشباب المسلم" تقوم بترجمة بعض كتاباته وبوجه خاص كتابى نظرية الإسلام السياسية ومنهاج الانقلاب الإسلامى وهما من أقدم كتابات المودودى وأهمها وكانا أصلاً محاضرتين القاهرة سنة ١٩٣٩ وتضمنت الأفكار الرئيسية التى أبرزها سيد قطب. إلا وهى الحاكمية الإلهية. العبودية والجاهلية الحديثة وكان فضل سيد قطب فى هذا هو أنه أبرزها بأسلوب عربى رصين مثير ..



وفى ١٩٦٥ مسابقة للأستحواز على السلطة ما بين فريق عامر وفريق ناصر اقتفت المخابرات العسكرية عبد الناصر بأن مؤامرة إخوانية تحاك وعلى وشك أن تؤدى بدولته. وكانت قد وضعت يدها على نواة صغيرة لمجموعة أرادت أن تدرس فكر سيد قطب. فادعت أنها تخطط لنسف الكبارى وقتل الشخصيات العامة والفنانين الخ... وكانت نتيجة ذلك أن اعتقل سيد قطب ومجموعة من أخلص اتباعه مع ما يزيد على عشرة آلاف معتقل، وتعرضوا لأشنع صنوف التعذيب وقدم سيد قطب والمجموعة المخلصة التى كانت حوله وحكم عليهم بالإعدام ونفذ الحكم فوراً، حتى لا يضطر عبد الناصر للاستجابة لرجاءات الشفاعة التى سيتقدم بها بعض القادة، وكان موقفه موقف سيد قطب، ورفضه استجداء العفو ثم شهادته هى ما أعطته الشهرة المدوية وكللت الشهادة بتاج الشهرة ..

وقد أصبح "معالم الطريق" هو الذى يلهم كل المجموعات الرافضة ومع أن المضامين الثلاثة التى قام عليها إلا وهى – الحاكمية الإلهية والعبودية والجاهلية – ليست جديدة تماماً، فقد قالها من المودودى وغيره من

المصلحين، إلا أن الجديد هو تقديمه وصياغته والبرهنة عليها. لا بأدلة منطقية أو علمية فهذا ما يستبعد فى مثل هذا الكتاب ..

بحيث أصبح وثيقة ملتهبة ..

والنقد الرئيسى الذى يوجه لفكرة "الحاكمية الإلهية" – وهى واسطة العقد فى فكر سيد قطب – هو أنها تجريد للعقيدة عن مضمونها العملى، وإعلاء لهذا التجريد، بحيث يأخذ معنى آخر يختلف عن المعنى الذى تقدمه العقيدة فى مضمونها العملى .

"فالحاكمية الإلهية" دعوى جذابة تبدو وكأنها ثورة كاسحة، وتغيير شامل ..

فإذا قلنا: وماذا تعنيه الحاكمية الإلهية "عملياً" ؟ أو: كيف يمكن لها أن تحقق ثورتها الكاسحة؟ لما وجدنا شيئاً فى مائتى صفحة من صفحات "معالم فى الطريق" إلا هذه السطور :

"ودين ا ليس غامضاً ومنهجه للحياة ليس مائعا فهو محدد بشطر الشهادة الثانى "محمد رسول ا " فهو محصور

فيما بلغه رسول ﷺ من النصوص فى الأصول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع النص، فإن لم يكن هناك نص، فهنا يجىء دور الاجتهاد، ومن أصوله المقررة فى منهج ا ذاته، لأوفق الأهواء والرغبة: ﴿فَإِن تَنَازعتُم فِي شَيءٍ فَردوه إِلَى اللهِ والرسول﴾. {٥٩ النساء} ..

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك – ومعروفة وليست غامضة ولا مانعة – فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع ا .. إلا أن تكون الحاكمية العليا ، وأن يكون مصير السلطات هو ا سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى البشر" انتهى .

فإذا كان هذا هو دين ا ومنهجه فى الحياة على ما قال فإن كل الفقهاء المسلمين السلفيين يقولونه، وليس فيما جاء به أى تجديد .

والنتيجة العملية: أن ليس فى كل الحماسة والعاطفة والثورة أى إضافة أو تجديد عن المذهب الإسلامى التقليدى

وقد يسأل سأل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا ننقد فكره

السبب: أنه لم يشر إلى هذا التطبيق التقليدى إلا خلال عشرة سطور وسط مائتى صفحة، وأما الباقى كله فكلام يوحى بأن تطبيق الحاكمية غير ذلك البته ..

وإلا فلماذا لم يكف نفسه مؤونة الحديث الطويل، إذا كانت النهاية هى هذه النتيجة .

إن "الحاكمية الإلهية" لأنها "شعار" و "تجريد" يمكن أن توحى بما هو أكثر، بل بما هو خلاف ما انتهت إليه عندما اضطر للحديث عن الفحوى والمضمون .

وعمليا فإن كلمة "الحاكمية الإلهية" كانت وراء استغلال الدهاة.. وضلال السذج: فقد استغلها أدهى الدهاة عمرو بن العاص عندما رفع المصاحف على أسنة الرماح ليعلى باطل معاوية على حق على. وانخدع بها الخوارج فخذلوا عليا وهو أتقى التقاه ومكنوا معاوية من الانتصار بحجة "لا حكم إلا ".. "حكمت الرجال فى دين ا " !! .

وعندما بعثت هذه القالة تكررت المأساة واستغلها بعض الأفراد الأذكياء للسيطرة على شراذم من السذج وتحكموا فيهم ..

فإذا كانت الشعارات من نوع "الحاكمية الإلهية".. "العبودية " تكسب الجموع وتثير الحماسة فإنها عمليا لا تعنى إلا الضلال والانحراف عندما يأتى الأمر للتطبيق. ولو انتصرت دعوة سيد قطب رحمه ا لأوجدت أسوأ الطغاة الذين يفرضون ضيق الأفق والغباء والتعصب و "اللاعقل" على الناس جميعاً .

وإذا كانت "الحاكمية الإلهية" تعنى: تحريم ما حرم ا ، وتحليل ما أحل ا ، والحكم بما أنزل ا .. فمن الخير أن يقال هذا .

وقد قالتها أم الدعوات الإسلامية فى العصر الحديث "الإخوان المسلمون" فى مقدمة شاراتهم "ا غايتنا.. القرآن دستورنا.. الرسول زعيمنا" .

وقالة أخرى مضلة هى "العبودية " فما المقصود بها عمليا؟.. لأنها عقيديا ليست محل خلاف ..

فإذا أريد بها ألا يكون هناك أرباب من البشر يحلون ويحرمون.. فهذا ما تضمنته دعوة الإخوان وما أشرنا إليه .

وإذا كانت تعنى ألا يكون هناك "شفاعة" أو "ولاية" مع ا .. فهذا ما قالته الوهابية وما أقامت عليه دعوتها ..

وإذا كانت تعنى أن تتأصل فكرة العبودية فى النفوس وتتغلغل فيها وتكون دائماً نُصب العيون.. فهذا شىء أقرب إلى الرجاء مما هو إلى التحقيق؛ لأن ا تعالى أوجد فى نفوس البشر ما يشغلها من شهوات وغرائز، وسلط عليها الشياطين، وحرمها من نقاء وصفاء الملائكة

وقد استشعر هذا المعنى الصحابى حنظله وظن أن النفاق قد تطرق إليه فذهب إلى الرسول ﷺ وفى طريقه قابل أبا بكر الذى سأله عن حاله فقال" "نافق حنظله" ولما استفهم منه أبو بكر عن الحقيقة ذكر له أنهم يكونون عند رسول ا ﷺ وقد تملكهم التقى ثم يئوبون إلى زوجاتهم فتتملكهم الشهوات، وعندئذ أقر أبو بكر بأن هذا ما يحدث له، فذهبا إلى رسول ا ﷺ وعرضا عليه الأمر فقال: "لو تكونون عند أهلكم كما تكونون معى لصافحتكم الملائكة! ولكن ساعة.. وساعة.." .

وليس ما هو أكثر دلالة من هذا الرد المعجز البليغ فالنفس الإنسانية لا يمكن أن تخلص تماماً من شواغل الدنيا ..

وحسبها أن لا تبعد عما سنه ا تعالى لها ..

أو أن توجه مشاغلها لخدمة الأهداف الإسلامية ..

وهذا هو ما كان يحدث لعمر بن الخطاب عندما كان يحسب فى صلاته "عطاء البحرين"، وقيادة الجيوش الخ... مما كان يهيمن على نفسه من قضايا المجتمع الإسلامى .

وقد رأينا كيف أن المودودى حاول أن يحقق هذا المعنى عمليا فى المجموعة التى بدأ بها جماعته، ولكنه غلبت عليها الطبيعة البشرية كما لابد أن يحدث بعد فترة من الزمن .

ولم أجد فى كتاب "معالم فى الطريق" بأسره إشارة واحدة إلى "العقل"! ..

وهى سمة يتسم بها دعاة "الحاكمية الإلهية" ..

أما العلم؛ فإن الإشارة التى تضمنها الكتاب: هل نحن أعلم أم الله تعالى!. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .

أما الآية:﴿هلْ يستوي الذِين يعلمون والذِين لا يعلمون﴾. التى يحتج بها أنصار العلم، فإنه أعادهم إلى صدر الآية: ﴿أمن هو قانِتٌ آنَاء الليل ساجِدا وقائِما يحذَر الآخِرةَ ويرجو رحمةَ ربهِ قُلْ هلْ يستوِي الذِين يعلمون والذِين لا يعلمون إنما يتَذَكر أُولُوا الألْبابِ﴾. {٩ الزمر}..

فنسفت حجتهم نسفا ..

أما الشعب، فقد صب عليه جام غضبه، ورفض أن يكون له من الأمر بشىء.. لأن الأمر كله لله..

وأما الإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض وأسجد له الملائكة وتقلد الأمانة التى عجزت عنها السموات والأرض والجبال فلا وجود له، فقد استغرقته تماماً العبودية .

ونتيجة لهذه التصورات عرض لنا سيد قطب مجتمعين :

مجتمع إسلامى.. ومجتمع جاهلى .

ولا توسط بينهما :

وكل المجتمعات الحديثة – إسلامية وغير إسلامية – جاهلية .

لأن المجتمعات الإسلامية لا تحقق عمادى دعوته: الحاكمية الإلهية.. والعبودية .

فهى جاهلية.. حتى وإن ادعت الإسلام ..

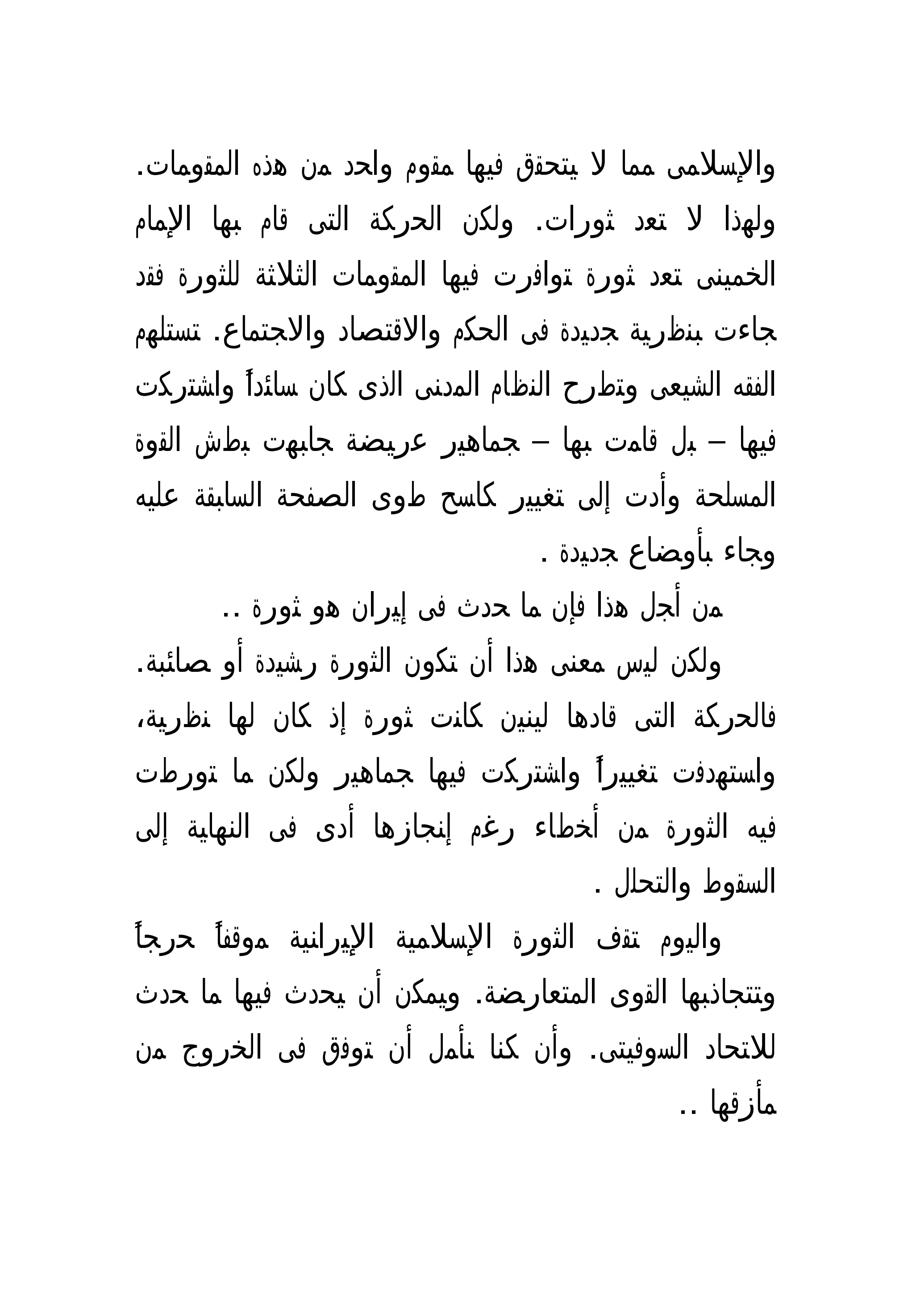
- ٣ -

الإمام الخمينى

وولاية الفقيه

من بين كل الحركات التى ظهرت فى الدول الإسلامية فى العصر الحديث تعد الحركة التى قادها الإمام آية ا العظمى الخمينى الوحيدة التى تستحق بجدارة اسم "الثورة" وهى بهذا تختلف تماماً عن كل الانقلابات التى تعرض لها العالم الإسلامى/ العربى وقام بها ضباط للاستحواز على السلطة لما كانت حركات سفاح ليس لها نظرية أو شرعية تنتسب لها فإنها تنسب إلى تاريخ وقوعها فتقال ثورة شهر كذا... وليست هى من الثورة فى شىء .

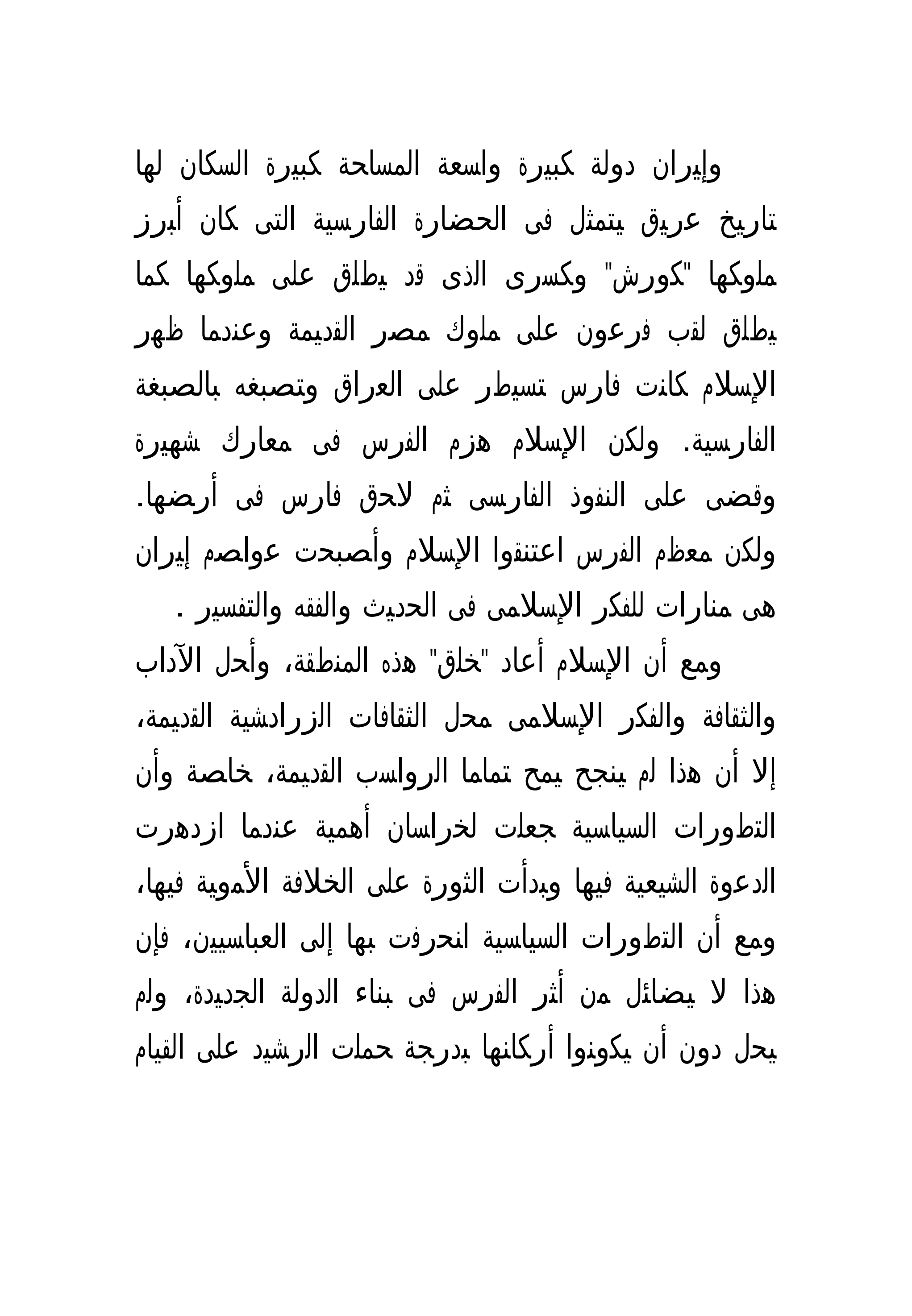
لقد قلنا فى مناسبات سابقة أن الثورة لابد أن يكون لها نظرية أو عقيدة أصيلة، متكاملة وليست ملفقة أو مطلبيه. ولابد أن تشترك فيها اشتراكاً فعليا جماهير عريضة. ولابد أن تستهدف تغييراً جذرياً. يشمل الاجتماع والاقتصاد والسياسة والانقلابات العسكرية التى حدثت فى العالم العربى


والإسلامى مما لا يتحقق فيها مقوم واحد من هذه المقومات. ولهذا لا تعد ثورات. ولكن الحركة التى قام بها الإمام الخمينى تعد ثورة توافرت فيها المقومات الثلاثة للثورة فقد جاءت بنظرية جديدة فى الحكم والاقتصاد والاجتماع. تستلهم الفقه الشيعى وتطرح النظام المدنى الذى كان سائداً واشتركت فيها – بل قامت بها – جماهير عريضة جابهت بطش القوة المسلحة وأدت إلى تغيير كاسح طوى الصفحة السابقة عليه وجاء بأوضاع جديدة .

من أجل هذا فإن ما حدث فى إيران هو ثورة ..

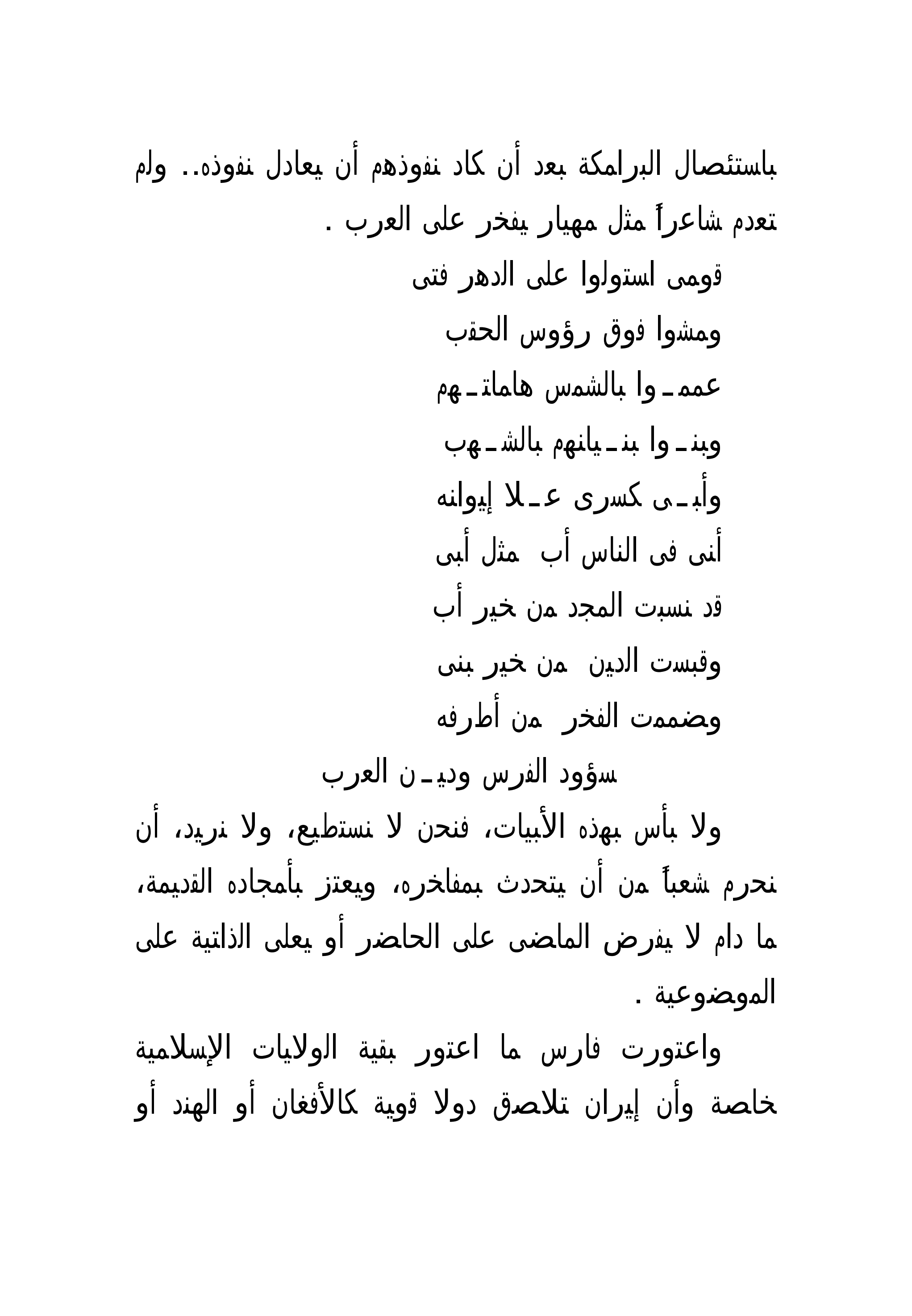
ولكن ليس معنى هذا أن تكون الثورة رشيدة أو صائبة. فالحركة التى قادها لينين كانت ثورة إذ كان لها نظرية، واستهدفت تغييراً واشتركت فيها جماهير ولكن ما تورطت فيه الثورة من أخطاء رغم إنجازها أدى فى النهاية إلى السقوط والتحلل .

واليوم تقف الثورة الإسلامية الإيرانية موقفاً حرجاً وتتجاذبها القوى المتعارضة. ويمكن أن يحدث فيها ما حدث للاتحاد السوفيتى. وأن كنا نأمل أن توفق فى الخروج من مأزقها ..



وإيران دولة كبيرة واسعة المساحة كبيرة السكان لها تاريخ عريق يتمثل فى الحضارة الفارسية التى كان أبرز ملوكها "كورش" وكسرى الذى قد يطلق على ملوكها كما يطلق لقب فرعون على ملوك مصر القديمة وعندما ظهر الإسلام كانت فارس تسيطر على العراق وتصبغه بالصبغة الفارسية. ولكن الإسلام هزم الفرس فى معارك شهيرة وقضى على النفوذ الفارسى ثم لاحق فارس فى أرضها. ولكن معظم الفرس اعتنقوا الإسلام وأصبحت عواصم إيران هى منارات للفكر الإسلامى فى الحديث والفقه والتفسير .

ومع أن الإسلام أعاد "خلق" هذه المنطقة، وأحل الآداب والثقافة والفكر الإسلامى محل الثقافات الزرادشية القديمة، إلا أن هذا لم ينجح يمح تماما الرواسب القديمة، خاصة وأن التطورات السياسية جعلت لخراسان أهمية عندما ازدهرت الدعوة الشيعية فيها وبدأت الثورة على الخلافة الأموية فيها، ومع أن التطورات السياسية انحرفت بها إلى العباسيين، فإن هذا لا يضائل من أثر الفرس فى بناء الدولة الجديدة، ولم يحل دون أن يكونوا أركانها بدرجة حملت الرشيد على القيام



باستئصال البرامكة بعد أن كاد نفوذهم أن يعادل نفوذه.. ولم تعدم شاعراً مثل مهيار يفخر على العرب .

قومى استولوا على الدهر فتى

ومشوا فوق رؤوس الحقب

عمم ـ وا بالشمس هاماتـ ـهم

وبنـ ـوا بنـ ـيانهم بالشـ ـهب

وأبـ ـى كسرى عـ ـلا إيوانه

أنى فى الناس أب مثل أبى

قد نسبت المجد من خير أب

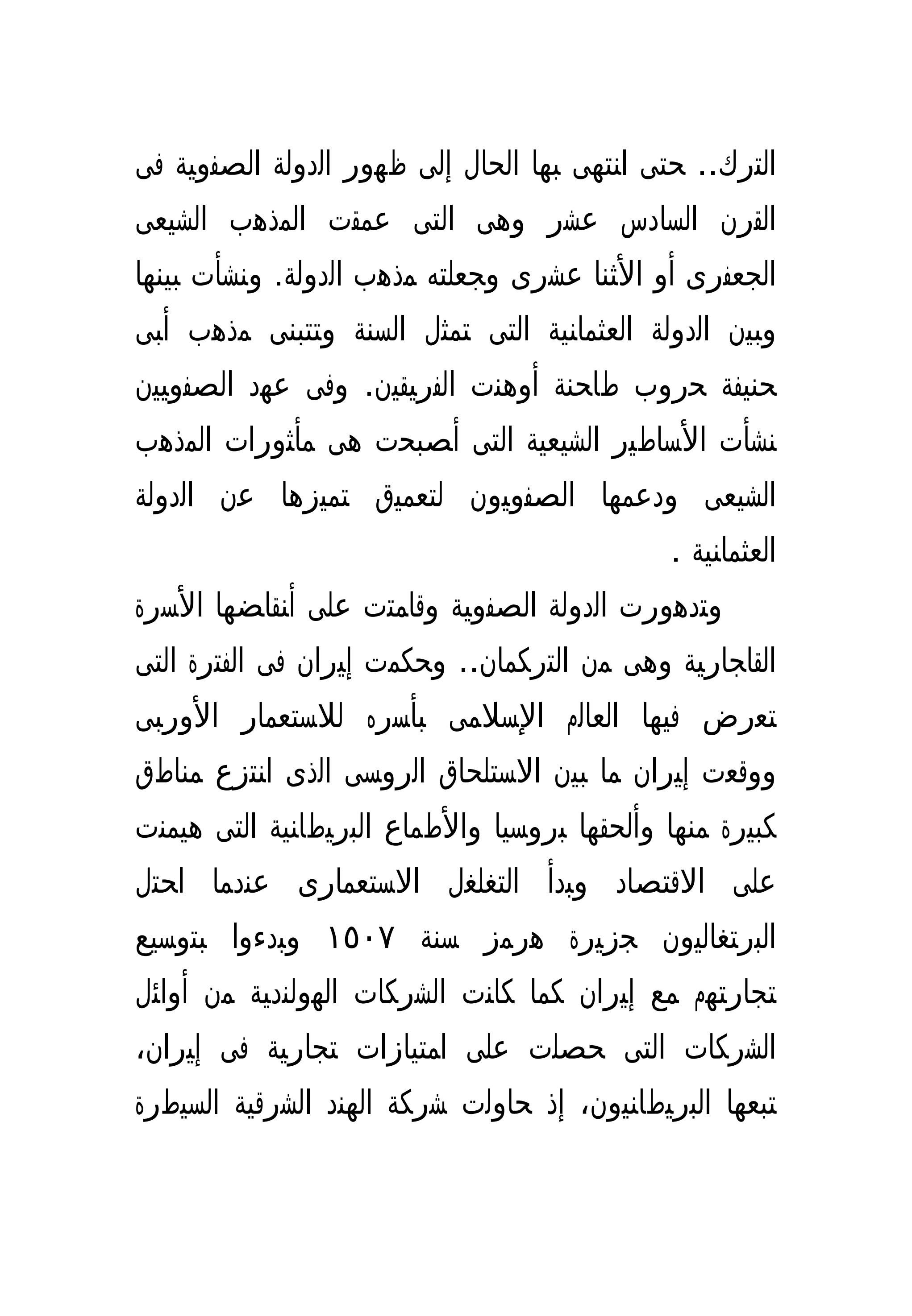
وقبست الدين من خير بنى

وضممت الفخر من أطرفه

سؤود الفرس وديـ ـن العرب

ولا بأس بهذه الأبيات، فنحن لا نستطيع، ولا نريد، أن نحرم شعباً من أن يتحدث بمفاخره، ويعتز بأمجاده القديمة، ما دام لا يفرض الماضى على الحاضر أو يعلى الذاتية على الموضوعية .

واعتورت فارس ما اعتور بقية الولايات الإسلامية خاصة وأن إيران تلاصق دولا قوية كالأفغان أو الهند أو


الترك.. حتى انتهى بها الحال إلى ظهور الدولة الصفوية فى القرن السادس عشر وهى التى عمقت المذهب الشيعى الجعفرى أو الأثنا عشرى وجعلته مذهب الدولة. ونشأت بينها وبين الدولة العثمانية التى تمثل السنة وتتبنى مذهب أبى حنيفة حروب طاحنة أوهنت الفريقين. وفى عهد الصفويين نشأت الأساطير الشيعية التى أصبحت هى مأثورات المذهب الشيعى ودعمها الصفويون لتعميق تميزها عن الدولة العثمانية .

وتدهورت الدولة الصفوية وقامت على أنقاضها الأسرة القاجارية وهى من التركمان.. وحكمت إيران فى الفترة التى تعرض فيها العالم الإسلامى بأسره للاستعمار الأوربى ووقعت إيران ما بين الاستلحاق الروسى الذى انتزع مناطق كبيرة منها وألحقها بروسيا والأطماع البريطانية التى هيمنت على الاقتصاد وبدأ التغلغل الاستعمارى عندما احتل البرتغاليون جزيرة هرمز سنة ١٥٠٧ وبدءوا بتوسيع تجارتهم مع إيران كما كانت الشركات الهولندية من أوائل الشركات التى حصلت على امتيازات تجارية فى إيران، تبعها البريطانيون، إذ حاولت شركة الهند الشرقية السيطرة

على تجارة الحرير، واستطاعت فى عام (١٥٧١) أن تحتكر كل تجارة الحرير الإيرانية. وقد نشبت فيما بعد منافسة حادة بين هولندا وبريطانيا، إذ حصلت هولندا على امتياز يبيح لها الاحتكار التام للتجارة الخارجية الإيرانية (التصدير والاستيراد) وذلك فى عام (١٦٢٣) .

أما روسيا القيصرية التى تأخر فيها النمو الرأسمالى، فقد بدأت سياستها الاستعمارية ضد إيران فى القرن الثامن عشر، ولم تلبث أن فرضت اتفاقيات مجحفة على إيران، وخاضت معها حروبا غير متكافئة كانت دائما وسيلة تهديد وضغط على البلاط الإيرانى الضعيف. ففى عام (١٧٢٢) فرضت روسيا اتفاقا ضمت بموجبه مدينتى دريند وباكو وملحقاتها حتى سواحل بحر الخرز، وفى عام (١٧٨٣) وضعت روسيا منطقة كرجستان تحت سيطرتها وحمايتها .

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر، تركزت المنافسة الاستعمارية من أجل السيطرة على الاقتصاد الإيرانى بين بريطانيا وروسيا القيصرية، إلى أن عقدت اتفاقية "تركمان جاى" عـام (١٨٢٨) التى قسمت البلاد إلى منطقتى نفوذ: بريطانية فى الجنوب وروسية فى الشمال، وذلك لقاء حصة

قيمتها (٥%) فقط من الرسوم الجمركية تدفع للدولة المركزية[١] .

وفى مارس ١٨٩٠ منح ناصر الدين شاة امتياز احتكار التبغ الإيرانى وبيعه فى جميع أنحاء إيران وخارجها لشركة بريطانية لمدة خمسين عاما، وكانت الاتفاقية تمس الاقتصاد الإيرانى ومصالح مئات الألوف من المزارعين والتجار لهذا عم الاستياء واستصرح السيد جمال الدين الأفغانى المرجع الدينى الأعلى المرز أحمد حسن الشيرازى الذى أصدر فتوى بتحريم التبغ فلبت الجماهير نداءه. ووصلت مقاطعة التبغ قصر الشاة نفسه. واضطر الشاة إلى التراجع. وكان هذا أول انتصار حقيقى الحركة الوطنية الإيرانية على الاستغلال الأجنبى ومهد السبيل للثورة الدستورية .

وتركزت المطالبات الشعبية حول تقليص سلطان الشاة وإجراء إصلاحات اقتصادية جذرية. وفى سنة ١٨٩٦ اغتيل الشاة ناصر الدين (قيل من قبل أحد اتباع جمال الأفغانى)

---

(١) أنظر تاريخ الحركة الثورية فى إيـران. فاضـل رسـول ص١٢.

وأرتقى العرش مظفر الدين شاة الذى اتسم حكمه بالتنازلات لروسيا حينا وإنجلترا حينا آخر مما عمق التغلغل الأجنبى والسيطرة على الاقتصاد الإيرانى "وحدث وقتئذ أن نشرت صورة لأحد المستشارين الأجانب فى إحدى الحفلات التنكرية بملابس رجال الدين وفى الوقت نفسه فإن السلطة قمعت بعض التجار فى إحدى المظاهرات بعنف ووضعت أرجلهم فى "الفلقة" فثارت الجماهير وبدأ أول تحصن "بست" أى لجوء جماعى إلى أحد مشاهد آل البيت فى إيران ففى ١٣ ديسمبر ١٩٠٤ تحصن عدد كبير من رجال الدين والتجار فى مشهد الشاه عبد العظيم (أخى الإمام موسى الكاظم) مطالبين بإقامة دار للعدالة، كان عاشوراء فى تلك السنة يوافق السابع من مارس ١٩٠٥، وسرعان ما اتضح الوجه الدينى للحركة من انضمام اثنين من كبار الدين إليهما هما سيد محمد الطباطبائى وسيد عبد ا البهبهانى، وسمى هذا التحصن بالهجرة الصغرى، وفى ١٢ يناير ١٩٠٦ أعطى الشاة وعدا بالاستجابة لمطالب الأمة، لكنه لم يف بوعده من ناحية كما بدأ عين الدولة من ناحية أخرى فى اضطهاد كبار رجال الدين وتفريقهم فنفى آقا سيد جمال

وتصدى لعدد من الطلاب الدينيين وقتل بعضهم كما قُتل سيدان والقرآن فى أيديهما وأخلى الشوارع وركز فيها قوات الجيش بينما ظل عدد كبير من الناس متحصنين فى "مسجد شاه" ووجه سيد طباطبائى خطاباً شديداً إلى عين الدولة "أين العهود والوعود؟؟ تعلمون جيداً بأمور الدولة الخربة وتعلمون أن صلاحها ينحصر فى تأسيس مجلس نيابى يوحد بين الحكومة والأمة مع العلماء" وفى ٢١ يوليه ١٩٠٦ بدأ التحصن الآخر، وخرج التجار فتحصنوا فى معسكر كبير أمام السفارة البريطانية بينما زحفت العناصر الدينية فى جموع كبيرة على مدينة قم "الهجرة الكبرى"، كانت الحركة شاملة ومنظمة كما كان من العسير جداً على قوة البوليس أو رئيس الوزارة أن تتصدى لها، ويشوه بعض المؤرخين الحركة بأنها كانت من تدبير السفارة البريطانية ضد النفوذ الروسى، لكنه زعم واضح الافتعال ولم يجد مظفر الدين شاه بداً من الرضوخ، فأصدر فرماناً بتكوين مجلس نيابى منتخب وسرعان ما تمت الانتخابات وافتتح أول مجلس نيابى (٧ أكتوبر ١٩٠٦) ونظرة فاحصة إلى أعضاء هذا المجلس تبين كيف أن الجناح الدينى قد اجتاح الانتخابات بنجاح كبير. ولم

يلبث مظفر الدين شاه أن توفى فى أول يناير ١٩٠٧ وتولى مكانه ابنه محمد على قاجار عرش السلطنة"[1].

ولى محمد على عرش السلطة وكان عدواً لدوداً للديمقراطية قدر ما كان عميلاً لروسيا فهاجم المجلس بفرقة القوزاق التى كان يشرف عليها ضباط روس وقصفوا المجلس وقبضوا على من وجدوه من أعضائه فتحركت الجماهير فى تبريز وأصفهان وكيلان وغيرها وزحفت على طهران ولما لم ينجح فى قمع هذه الحركة التجأ فى ١٦ يوليو سنة ١٩٠٩ هو وخمسمائة من حرسه الخاص إلى السفارة الروسية بعد أن وضع يديه على مجوهرات الأسرة المالكة .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كانت كل المعسكرات المتقاتلة تتصارع على أرض إيران. كان هناك الإنجليز والروس والألمان والأتراك أيضا مما أدى إلى ظهور الثورات فى بعض المناطق مثل جيلان (كيلان) نص المنطقة التى تغطيها الغابات فى الشمال الإيرانى، ومن ثم

---

(١) الثورة الإيرانية (الجذور – الأيديلوجيـة) للـدكتور إبـراهيم الدسوقى شتا ص٤٨-٩٤ طبعة الوطن العربى بيروت ١٩٧٩ .

يطلق عليها ثورة الغابة إذ استطاع إيرانى قدير نشأ نشأة إسلامية ثم تأثر بالأفكار الاشتراكية استثارة الفلاحين فى هذه المنطقة ورزق نصيراً له اتجاهات سوفيتية.. فنجحا فى إعلان جمهورية كيلان السوفيتية – ولكن من سوء حظ الجمهورية. أن ثورة أكتوبر نشبت فى روسيا وجعلتها تتخلى (ولو مؤقتا) عن أطماعها فى إيران فسحبت القوات الروسية التى كانت تناصر الثورة مما مكن السلطة المركزية فى طهران أن تقضى عليها. خاصة وقد تولى ذلك قائد جديد برز على الساحة الإيرانية. عرف بالجرأة وظهرت ثورة أخرى قادها الشيخ محمد خياباتى فى تبريز وكان الشيخ خياباتى نائبا فى أول دورة لمجلس الشعب. ولكن القوزاق هزموا ثورة خياباتى كما هزموا ثورة الغابة من قبل وتهيأ المسرح لكى يلى الحكم رضا شاه بعد سلسلة من المناورات السياسية التى أراد بها أن يضلل فكر أعدائه عن غايته الحقيقية وهى الاستحواز على السلطة الأمر الذى تم فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

كان رضا شاه ديكتاتوريا عسكريا، مثل كل الظلمة العسكريين التى وصلت الحكم فى الدول الإسلامية والعربية

وكان يريد فرض ما يراه من إصلاح بالقوة على الشعب بصرف النظر عن سلامة هذه الإصلاحات أو قبول الشعب لها، وكان الطابع العام لهذه الإصلاحات هو تعزيز الجيش، والصناعة التى يرتكز عليها وإدخال وسائل الحياة الحديثة وإيجاد طبقة "بيروقراطية" ترتبط بنظام الحكم وتدافع عنه وإعلان الثورة القومية للحد من الصوت الإسلامى ولكن وقع فى خطأ قاتل عندما أبدى تعاطفاً مع الألمان فى الوقت الذى بدأت بوادر الحرب العالمية الثانية، فاجتاحت جيوش الحلفاء إيران وخلعت الشاة وولت أبنه محمد محله (فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤١) وقد كانت بريطانيا هى التى ساندت رضا شاة فى مسيرته نحو السلطة. ولكنه نسى ذلك، فلم تتردد إنجلترا فى عزله ..

ولم يرث أبنه شيئاً من عزيمة أبيه وتصميمه، كان شخصاً عقيماً، عاجزاً يستويه الجاه والملك. والمظاهر ولم يكن يشارك شعبه شيئاً من مشاعرهم وآمالهم، أو يتعظ بمصير والده وقد ظهر جموده السياسى عندما بدأت فترة تأميم البترول بزعامة محمد مصدق وهو أحد الثوار القلائل الذين اكتسبوا شهرة شعبية لأنه كان من المعارضين لحكم

رضا شاه وفى سنة ١٩٥١ كان رئيساً للوزارة فأعد لائحة لتأميم النفط وافق عليها البرلمان وحاول الشاة المعارضة. فتحركت الجماهير وثارت ولاذ الشاه بالفرار إلى إيطاليا، ولكن الحركة عجزت فى هذه اللحظات المصيرية عن أن ترسى قواعدها وأن تسلح جماهيرها. لأنه كان من الواضح أن الدول الاستعمارية لن تسكت، فضلاً عن بعض شرائح ارتبطت مصالحها بالشاة وفى أغسطس دبرت المخابرات الأمريكية **c.i.a** انقلابا بمساعدة الجنرال زاهدى. أطاح بالحكم الوطنى وأعاد الشاة وتلا ذلك مذابح وتصفيات لم توفر أحداً ممن قام بحركة التأميم باستثناء مصدق نفسه الذى ارتؤى الأبقاء عليه خوفاً من ثورة الجماهير. واتسمت العشرة التى تلت الانقلاب بزيادة النفوذ الأمريكى وتعزيز الجيش وجهاز المخابرات "السافاك" وانحسار الحركة الوطنية التى كان عليها أن تضمد جروحها لفترة طويلة .

حاول الشاه أن يكتسب تأييد الشعب بانتهاج سياسات توحى بالديمقراطية، دون أن يكون لها أى فعالية كأن يكون حزبين إحدهما للمعارضة ثم يثنى فيكون حزباً واحداً، هو "راستاخير" أو حزب البعث القومى وإعلان الثورة البيضاء

سنة ٦٢ وقال الشاه فى خطاب رسمى أن من لا يؤمن بمبادئ حزب راستاخير فإنه لابد أن يكون منضماً إلى حزب أو منظمة غير قانونية.. وإمام مثل هذا الشخص أحد السجون الإيرانية أو أن يترك إيران لأنه ليس إيرانياً ! ..

ولما لم يكن الشاه موهوباً فإنه عوض نقصه بالحرص على الألقاب، فمنح نفسه ألقاباً كأن الألقاب تسبع العظمة "ملك الملوك، وشمس الشعوب الآرية" علماً بأن أبيه بدء حياته من القاع وعمل فى أسطبل الجيش وفى حرس السفارات ودخل الجيش كعسكرى ورقى إلى رتبة الضباط "من تحت السلاح... فلم يكن فى أصله وفصله، ومولده وتطوره ما يمت إلى العراقة أو النبالة بصلة .

وكانت غطرسة الشاه لا حد لها. كما كانت غطرسة شقيقته التوأم الأميرة شرف التى كانت منبع الفساد المالى فى الدولة. فالشاه لم يتورع عن أن يصفع رئيس وزراءه والأميرة أشرف صفعت الإمبراطورة فرح.. فإذا كانت الغطرسة وصلت إلى هذا الحد فلنا أن نتصور كيف كاناً يتعاملان مع أفراد الشعب .

أما الوسيلة الثانية التى اتبعها هذا الشاه المعتوه لتعويض عجزه فهى السفاهة فى الأنفاق، والبذخ، وصرف الملايين على المظاهر وقد تجلى ذلك فى حفلات تتويجه والملابس التى يلبسها والتى تلبسها "الشهبانو" والتاج ونظام الحضور الخ... كما تجلى تبذيره بصورة جنونية فى الحفلات التى أقامها احتفالاً بمرور ٢٥٠٠ على إنشاء دولة فارس فى مدينة بروسيلوس التى بناها داريوس الأول عام ٥٣٠ قبل الميلاد .

وتكلفت الخيمة الرئيسية أكثر من ٥٠٠ مليون ريال وبلغ عدد المدعون عشرين ألفا مدعو. أما الخيمة نفسها فقد اتسعت لستين خيمة تفصل بينها ممرات تحمل أسماء القارات الخمس .

وكانت الوجبات تأتى من مطعم ماكسيم فى باريس كما كانت تأتى الزهور من هولندا. أما الخمور فقد كانت تجرى أنهاراً كما قدمت هدايا تذكارية لكل ضيف .

ويروى أنيس منصور أن ما حدث فى مهرجانات برسيليوس أثناء الاحتفال بذكرى تأسيس دولة فارس، كان

"النموذج الكامل لحماقة الشاه والمبرر الأخير للثورة عليه"، وقال :

مثلاً، لقد أراد أن تكون لكل جنوده لحى سوداء كما كان الجنود أيام الإمبراطور قورش، وكانت ملابس الجندى الواحد بها خيوط ذهبية طولها ستة كيلو مترات، ووقف الجنود تحت مليون مصباح تعلقت بـ ٤٠٠ كيلو متراً من الأسلاك بلغ وزنها ١٤٠ طناً .

أما الطعام فكان "لحم طواويس" جاء خصيصاً، ساخناً، من باريس !! .

ويقول "فريدون هوفيدا" بأن الشاه كان يدافع بدون توقف عن احتفالات قورش التى كان فيها البذخ قد وصل إلى حد لا توجد كلمات لوصفه .

كل هذا لإظهار نفسه كملك الملوك. ولإحياء إيران القديمة ولطمس إيران الإسلامية ..

وعندما توج نفسه عام ٦٧ كان التاج مرصعا بـ ٣٧٥٥ جوهرة، وتوجت زوجته فرح ديبا بتاج فيه ١٦٤٦ جوهرة، وكان هو نفسه يجلس على عرش يسمى عرش الطاووس. هذا العرش مرصع ب_ ٢٧ ألف جوهرة، وأستقل

الشاة يومها عربة ملكية مذهبة كان يبلغ ثمنها ٧٨ ألف دولار.

وعرضت الشهبانو فرح ديبا بعد موت زوجها بالقاهرة شراء قصر القبة بمبلغ يقدر بألف مليون دولار، ولكن السادات أعتذر لأن القصر من أملاك الدولة .

وعرضت الشهبانو بعض مجوهراتها للبيع كان منها قرص من الماس تبلغ قيمته ٣,٥ مليون دولار، وعقد مكون من ١٨ حجراً من الياقوت و١٨ حجراً من الماس يقدر ثمنه بمليون دولار ..

كما يوجد فيها سوار فيه حجر من الماس الأصفر يزن ٥٥,٥ قيراطاً يقدر ثمنه بحوالى ١٢ مليون دولار، وخاتم به حجر من الماس يزن ٥٦,٠٧ قيراط يقدر بـ ١٥٠ ألف دولار وعقد من خمسة أدوار من اللؤلؤ الأبيض المائل للون الوردى وهو أغلى أنواع اللؤلؤ، يقدر ثمنه ب_ ٢٥٠ ألف دولار، وقد صنعه لها خصيصاً محل فان كليف وآربل الفرنسى .

وكان فى جراج الشاه ثلاثة آلاف سيارة ! .

وجعله جنونه بالعظمة وحبه للسيطرة يشعر بالغيرة إلى حد الحقد على الآخرين وروى هوفيدا، أنه كان يشرف على ترتيبات عقد مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان فى طهران سنة ١٩٦٨، واقترح عليه اسم "نصر ا انتظام" لرئاسة المؤتمر، ولكنه وبعد أن أعطى موافقته الفورية عاد وسحبها معللاً ذلك بأن "انتظام" لم يقبل يده أثناء زيارته لنيويورك، أيام كان يرأس دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٠ (أى قبل ١٨ سنة) !! .

وجاء فى المذكرات الخاصة له أن الجيش الذى كان يعتبره الحامى الحقيقى له ضم :

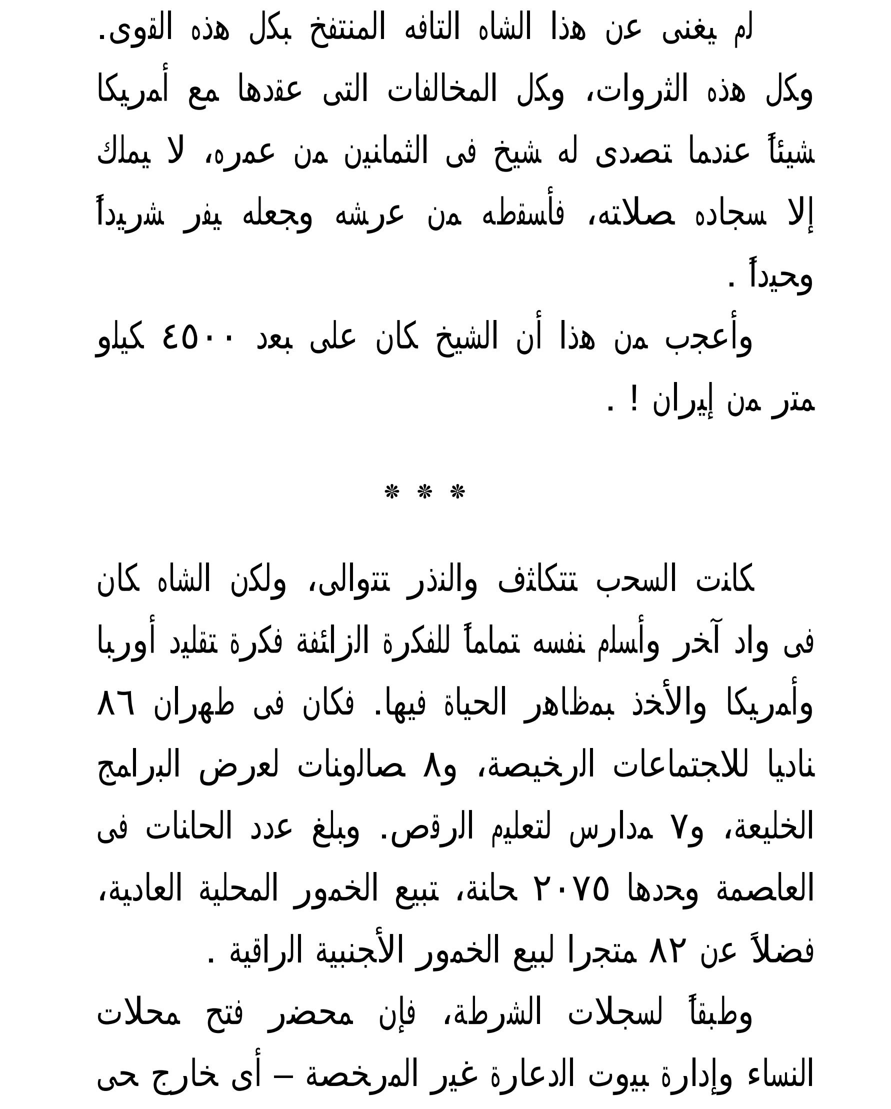
الدبابات: ١٥٠٠ دبابة صنع بريطانى لإيران خصيصاً تسمى أسود إيران مزودة بمدفع ١٢٠ ملم وتعمل بأشعة الليزر، و٨٠٠ دبابة شيفتن مزودة بمدفع ١٢٠ ملم وبأشعة الليزر، و٤٠٦ دبابة م ٦٠ دبابة أمريكية متطورة بمدافع ١٠٥ ملم، و٤٠٠ دبابة م ٤٧ مطورة بمدفع ٩٠، و٢٥٠ دبابة استطلاع من طراز سكوربيون بمدفع ٩٠ ملم، و١٠٠٠ ناقلة جنود أمريكية، و٢٠٠٠ ناقلة جنود روسية مزودة بمدافع ٧٣ ملم مضادة للصواريخ .

المدفعية: لها قوة نيران مدفعية حلف شمال الأطلنطى .

الطيران: ٧٨ ف ١٤ صواريخ من طراز فينكس مداها ٩٠ ميلاً مزودة برادار مداه ١٥٠ ميلاً وقادرة على إطلاق ستة أهداف مختلفة فى وقت واحد، و٢٥٠ طائرة فانتوم مطورة مزودة بقنابل تطلق أشعة ليزر وبصندوق أسود لتضليل الصواريخ المعادية، و١٢٠ طائرة طراز ف٥ آى، ١٠٦ طائرة طراز ف ١٦ (وسيطلب من أمريكا تزويد إيران بـ ١٥٠ طائرة أخرى)، و٧ طائرات أواكس (أى طائرات إنذار مبكر محمول جوا) ترتفع إلى ٣٥ ألف قدم، و٢٤ طائرة بوينج ٧٤٧ و٧٠٧ مطورة قادرة على تموين نفسها بالوقود، وتبقى فترة طويلة فى الهواء كما أن المصانع الإيرانية تعمل على إنتاج الطراز الروسى سام ٧ وصواريخ مافريك الأمريكية مداها ١٢ ميلاً .

وكان هذا الجيش يشرف على تدريبه ضباط أمريكيون وخبراء إسرائيليون، كما كان الحال بالنسبة لجهاز الشافاك الرهيب ...

ورغم كل هذا، الثراء، وكل هذا السلاح فإن الإمبراطور لم يجد من يثق فيه حقا إلا كلبه !! .



لم يغنى عن هذا الشاه التافه المنتفخ بكل هذه القوى. وكل هذه الثروات، وكل المخالفات التى عقدها مع أمريكا شيئاً عندما تصدى له شيخ فى الثمانين من عمره، لا يملك إلا سجاده صلاته، فأسقطه من عرشه وجعله يفر شريداً وحيداً .

وأعجب من هذا أن الشيخ كان على بعد ٤٥٠٠ كيلو متر من إيران ! .

* * *

كانت السحب تتكاثف والنذر تتوالى، ولكن الشاه كان فى واد آخر وأسلم نفسه تماماً للفكرة الزائفة فكرة تقليد أوربا وأمريكا والأخذ بمظاهر الحياة فيها. فكان فى طهران ٨٦ ناديا للاجتماعات الرخيصة، و٨ صالونات لعرض البرامج الخليعة، و٧ مدارس لتعليم الرقص. وبلغ عدد الحانات فى العاصمة وحدها ٢٠٧٥ حانة، تبيع الخمور المحلية العادية، فضلاً عن ٨٢ متجرا لبيع الخمور الأجنبية الراقية .

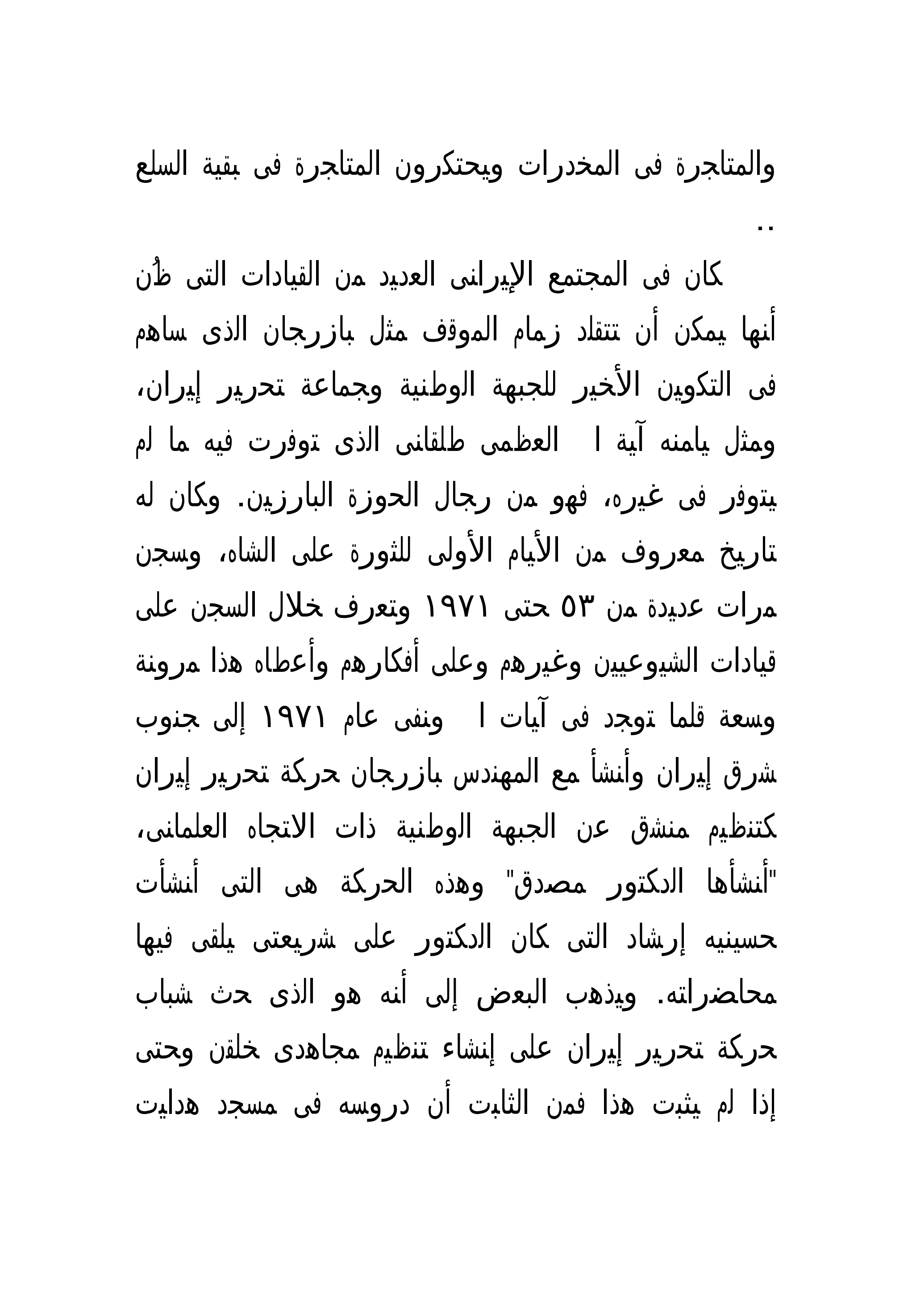
وطبقاً لسجلات الشرطة، فإن محضر فتح محلات النساء وإدارة بيوت الدعارة غير المرخصة – أى خارج حى

الدعارة الرسمى فى العاصمة – وصلت إلى ١٨٧٦ حالة فى السنوات الخمس التى سبقت الثورة، أما عدد مدمنى الأفيون فى إيران، فقد وصل إلى مليون شخص قى سنة ١٩٧٢، علما بأن الشخصية التى كانت تدير تجارة الأفيون فى إيران كانت شقيقة الشاه: أشرف بهلوى .

وكانت مدينة شيراز – جنوب شرق إيران – تشهد سنويا مهرجانا عالميا للفن والثقافة، المجون سمته الأساسية، حتى أن شوارع المدينة الإسلامية العتيقة شهدت فى سنة ١٩٧٧ عرضا مسرحيا عاريا لفرقة أجنبية، أثار ذهول الجماهير وعمق من سخطهم .

ونشرت صحيفة كيهان فى سبتمبر سنة ١٩٦١ قرار رئيس الوزراء أسد ا علم عن تعديل فى القسم على القرآن الكريم عند الترشيح للمجالس المحلية بأن يحل محله أى كتاب سماوى آخر يعترف به ..

وكان الشاه يتقرب إلى الأمريكان ويقرب إليه البهائيين والماسونيين، ويعترف بإسرائيل ويدعم الجيش ويعزز ويواصل سفاهته فى الأنفان، بينما كانت شقيقته التوأم وبقية أسرته يتقاضون العمولات والاختلاسات واحتكار المرافق


والمتاجرة فى المخدرات ويحتكرون المتاجرة فى بقية السلع ..

كان فى المجتمع الإيرانى العديد من القيادات التى ظُن أنها يمكن أن تتقلد زمام الموقف مثل بازرجان الذى ساهم فى التكوين الأخير للجبهة الوطنية وجماعة تحرير إيران، ومثل يامنه آية ا العظمى طلقانى الذى توفرت فيه ما لم يتوفر فى غيره، فهو من رجال الحوزة البارزين. وكان له تاريخ معروف من الأيام الأولى للثورة على الشاه، وسجن مرات عديدة من ٥٣ حتى ١٩٧١ وتعرف خلال السجن على قيادات الشيوعيين وغيرهم وعلى أفكارهم وأعطاه هذا مرونة وسعة قلما توجد فى آيات ا ونفى عام ١٩٧١ إلى جنوب شرق إيران وأنشأ مع المهندس بازرجان حركة تحرير إيران كتنظيم منشق عن الجبهة الوطنية ذات الاتجاه العلمانى، "أنشأها الدكتور مصدق" وهذه الحركة هى التى أنشأت حسينيه إرشاد التى كان الدكتور على شريعتى يلقى فيها محاضراته. ويذهب البعض إلى أنه هو الذى حث شباب حركة تحرير إيران على إنشاء تنظيم مجاهدى خلقن وحتى إذا لم يثبت هذا فمن الثابت أن دروسه فى مسجد هدايت

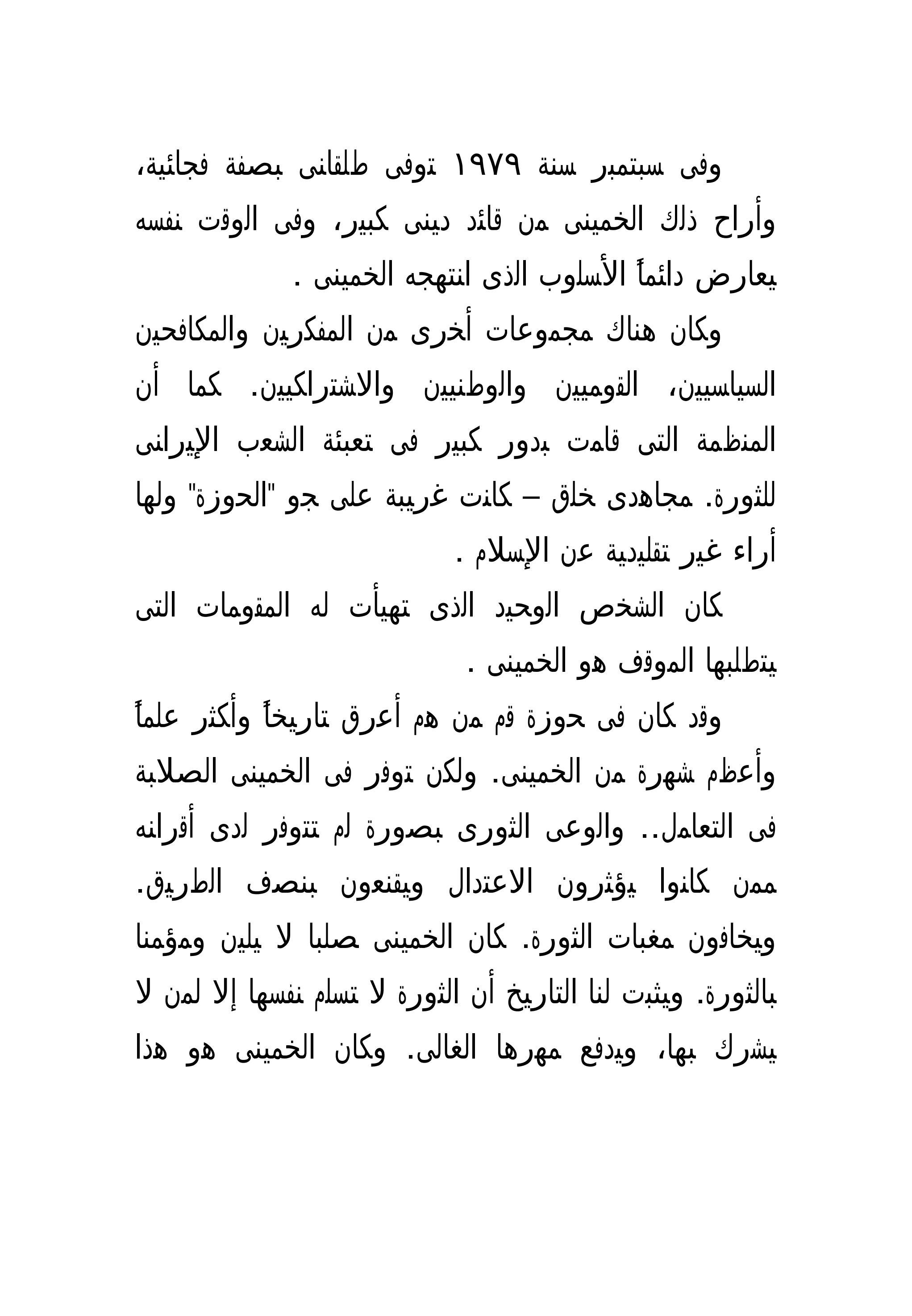
قامت بدور فى الإعداد الفكرى والأيدلوجى لقادة مجاهدى خلق، وانتقد طلقانى احتكار رجال الحوزة للقضايا الإسلامية رغم أنه كان بالطبع من كبار رجالاتها والقائم مع الخومينى فى انتفاضة ٦٣ الشعبية. وفى السنوات الأخيرة له انتهى إلى ضرورة الثورة والإطاحة بحكم الشاه ولكنه – وهنا نجد الفارق الكبير بينه وبين الخومينى – وأنه لم يكن يريد أن يحل ديكتاتور محل الشاه أو أن تفرض هيمنة باسم حزب واحد وأيدلوجية بعينها، وفى نطاق تشجيع المشاركة السياسية على مستوى عملى شجع طلقانى أنصاره – سواء من رجال الدين أو غيرهم – على الانضمام لمجالس الأحياء التى بدأت تتشكل لتدبير الأمور اليومية، وعلى دعم مجالس العمال التى بدأت تتكون فى أماكن العمل .

فى هذه النقطة التى تمثل بعد النظر – اعتبر موقفه متخلفاً عن الروح الثورية العارمة التى تملكت الشعب وكانت تريد الثورة بأى ثمن، ودون أن تفكر فى عواقبها. وهو التيار الذى وجد طلبته فى الخمينى، وليس فى طلقانى على أن هذا لم يكن بارزاً للعامة، لأن الجماهير وجدت فيه تأثراً كالخمينى وقد ضمت المظاهرة التى دعا إليها وقادها فى

ذكرى عاشوراء سنة ٧٨ نحو مليون ونصف متظاهر. وعندما استولت الثورة على التلفزيون ظهر طلقانى بعد دقائق معدودة وهنأ الجماهير بنجاح ثورتها سنة ٧٧ .

وعندما اعتقل الحرس الثورى (الباسدران) اثنين من أبناء طلقانى فى بداية صيف عام ١٩٧٩، فإنه نظم إضراباً عن الطعام اعتراضا على هذا الأجراء.. ودفع إضرابه هذا اثنين مليون إيرانى إلى التظاهر كما احتج عدد من كبار آيات ا ضد انتهاك الحقوق السياسية للمواطنين. وقد أوضح طلقانى أن إضرابه لم يكن من أجل أبنائه بل دفاعاً عن حرية الشعب الإيرانى. وقد شكل هذا الإضراب مواجهة علنية بين طلقانى وبين الحزب الجمهورى الإسلامى الإيرانى الذى كان قد تشكل فى فبراير ١٩٧٩ من نفس العناصر التى سبق لها تأسيس "مركز استقبال الإمام" .

أييدهم كلما قرب ميعاد دعوة الخمينى ورفضوا فكرته فى ضرورة اشتراك كل ممثلى الشعب فى الاحتفال بالخمينى – وقصروا ذلك على رجال الحوزة .

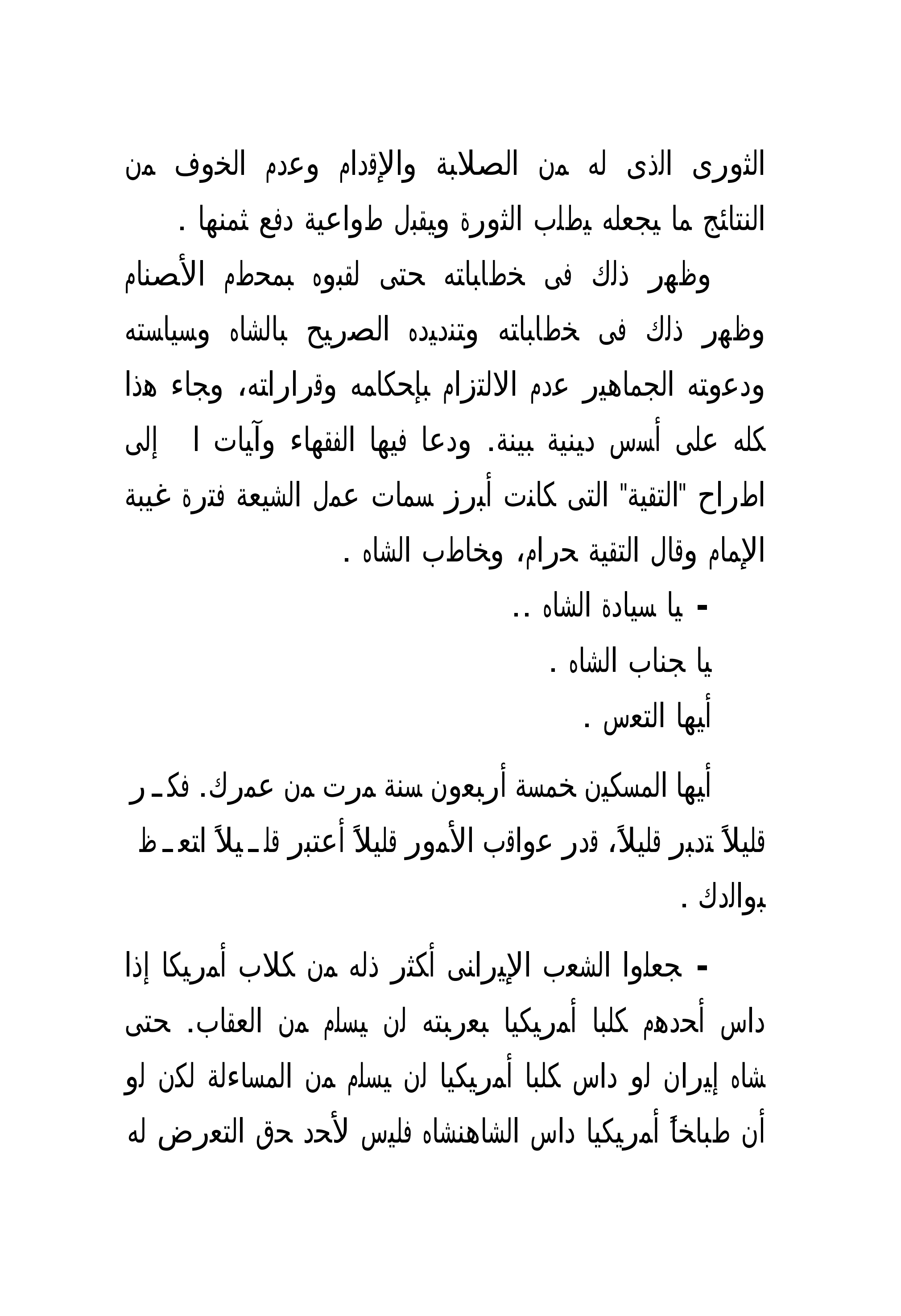


وفى سبتمبر سنة ١٩٧٩ توفى طلقانى بصفة فجائية، وأراح ذلك الخمينى من قائد دينى كبير، وفى الوقت نفسه يعارض دائماً الأسلوب الذى انتهجه الخمينى .

وكان هناك مجموعات أخرى من المفكرين والمكافحين السياسيين، القوميين والوطنيين والاشتراكيين. كما أن المنظمة التى قامت بدور كبير فى تعبئة الشعب الإيرانى للثورة. مجاهدى خلق – كانت غريبة على جو "الحوزة" ولها أراء غير تقليدية عن الإسلام .

كان الشخص الوحيد الذى تهيأت له المقومات التى يتطلبها الموقف هو الخمينى .

وقد كان فى حوزة قم من هم أعرق تاريخاً وأكثر علماً وأعظم شهرة من الخمينى. ولكن توفر فى الخمينى الصلابة فى التعامل.. والوعى الثورى بصورة لم تتوفر لدى أقرانه ممن كانوا يؤثرون الاعتدال ويقنعون بنصف الطريق. ويخافون مغبات الثورة. كان الخمينى صلبا لا يلين ومؤمنا بالثورة. ويثبت لنا التاريخ أن الثورة لا تسلم نفسها إلا لمن لا يشرك بها، ويدفع مهرها الغالى. وكان الخمينى هو هذا



الثورى الذى له من الصلابة والإقدام وعدم الخوف من النتائج ما يجعله يطلب الثورة ويقبل طواعية دفع ثمنها .

وظهر ذلك فى خطاباته حتى لقبوه بمحطم الأصنام وظهر ذلك فى خطاباته وتنديده الصريح بالشاه وسياسته ودعوته الجماهير عدم الالتزام بإحكامه وقراراته، وجاء هذا كله على أسس دينية بينة. ودعا فيها الفقهاء وآيات ا إلى اطراح "التقية" التى كانت أبرز سمات عمل الشيعة فترة غيبة الإمام وقال التقية حرام، وخاطب الشاه .

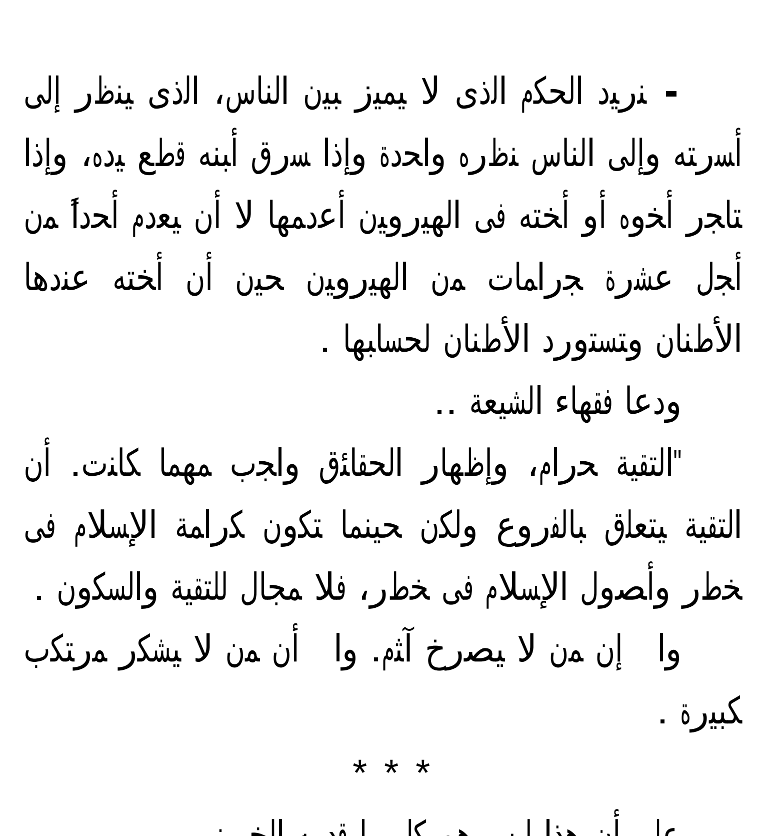
- يا سيادة الشاه ..

يا جناب الشاه .

أيها التعس .

أيها المسكين خمسة أربعون سنة مرت من عمرك. فكـر قليلاً تدبر قليلاً، قدر عواقب الأمور قليلاً أعتبر قلـيلاً اتعـظ بوالدك .

- جعلوا الشعب الإيرانى أكثر ذله من كلاب أمريكا إذا داس أحدهم كلبا أمريكيا بعربته لن يسلم من العقاب. حتى شاه إيران لو داس كلبا أمريكيا لن يسلم من المساءلة لكن لو أن طباخاً أمريكيا داس الشاهنشاه فليس لأحد حق التعرض له



- نريد الحكم الذى لا يميز بين الناس، الذى ينظر إلى أسرته وإلى الناس نظره واحدة وإذا سرق أبنه قطع يده، وإذا تاجر أخوه أو أخته فى الهيروين أعدمها لا أن يعدم أحداً من أجل عشرة جرامات من الهيروين حين أن أخته عندها الأطنان وتستورد الأطنان لحسابها .

ودعا فقهاء الشيعة ..

"التقية حرام، وإظهار الحقائق واجب مهما كانت. أن التقية يتعلق بالفروع ولكن حينما تكون كرامة الإسلام فى خطر وأصول الإسلام فى خطر، فلا مجال للتقية والسكون .

وا   إن من لا يصرخ آثم. وا   أن من لا يشكر مرتكب كبيرة .

* * *

على أن هذا ليس هو كل ما قدمه الخمينى ...

أن الخمينى كان هو الفقيه الذى أخرج النشاط الشيعى من تقوقعه فى انتظار الإمام الغائب، إلى مجال العمل الثورى بفضل إصراره على نظرية "ولاية الفقيه" .

والفقه الشيعى مجمع على أن لا يمكن النهوض بقضية الحكم ما دام الإمام غائبا. لأن الحكم هو اختصاص الإمام

ولا يجوز لأحد مشاركته. وعندما يغيب الإمام فلا يمكن ممارسة مسئوليات سياسية عليا .

ومن هنا ظهرت فكرة "نيابة" الفقيه وتقبلها بعض العلماء بينما تردد فيها آخرون. ومن تقبلها فإنه حصرها فى أداء الوجبات التى لا يستقيم الدين إلا بها، أى القضاء والحدود وصلاة الجمعة .

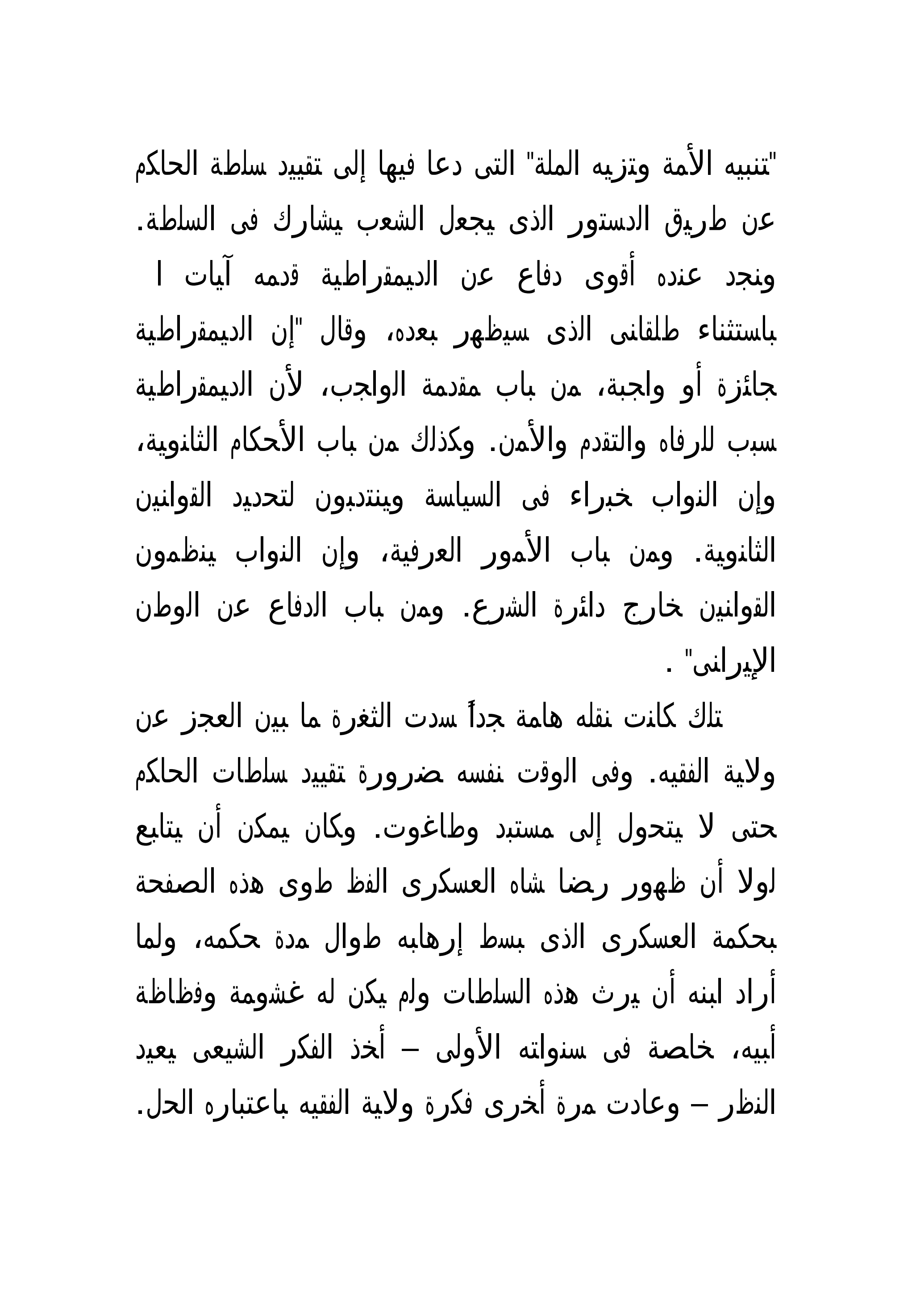
وعندما أراد الشاه إسماعيل الصفوى إقامة الدولة الصفوية أدعى أنه كان يسير مع مجموعة من رفقائه الصوفية خارجين للصيد فى منطقة تبريز، وعندما مروا بنهر، طالبهم بالتوقف عنده وعبر هو النهر بمفرده ودخل كهفاً، ثم خرج متقلداً بسيف، وأخبر رفقاءه أنه شاهد فى الكهف صاحب الزمان وأنه قال له: "لقد حان وقت الخروج"، وانه أمسك ظهره ورفعه ثلاث مرات ووضعه على الأرض وشد حزامه بيده ووضع خنجراً فى حزامه وقال له: "أذهب فقد رخصتك" .

وأدعى بعد ذلك أنه شاهد الإمام على بن أبى طالب فى المنام، وأنه حثه على القيام وإعلان الدولة الشيعية .

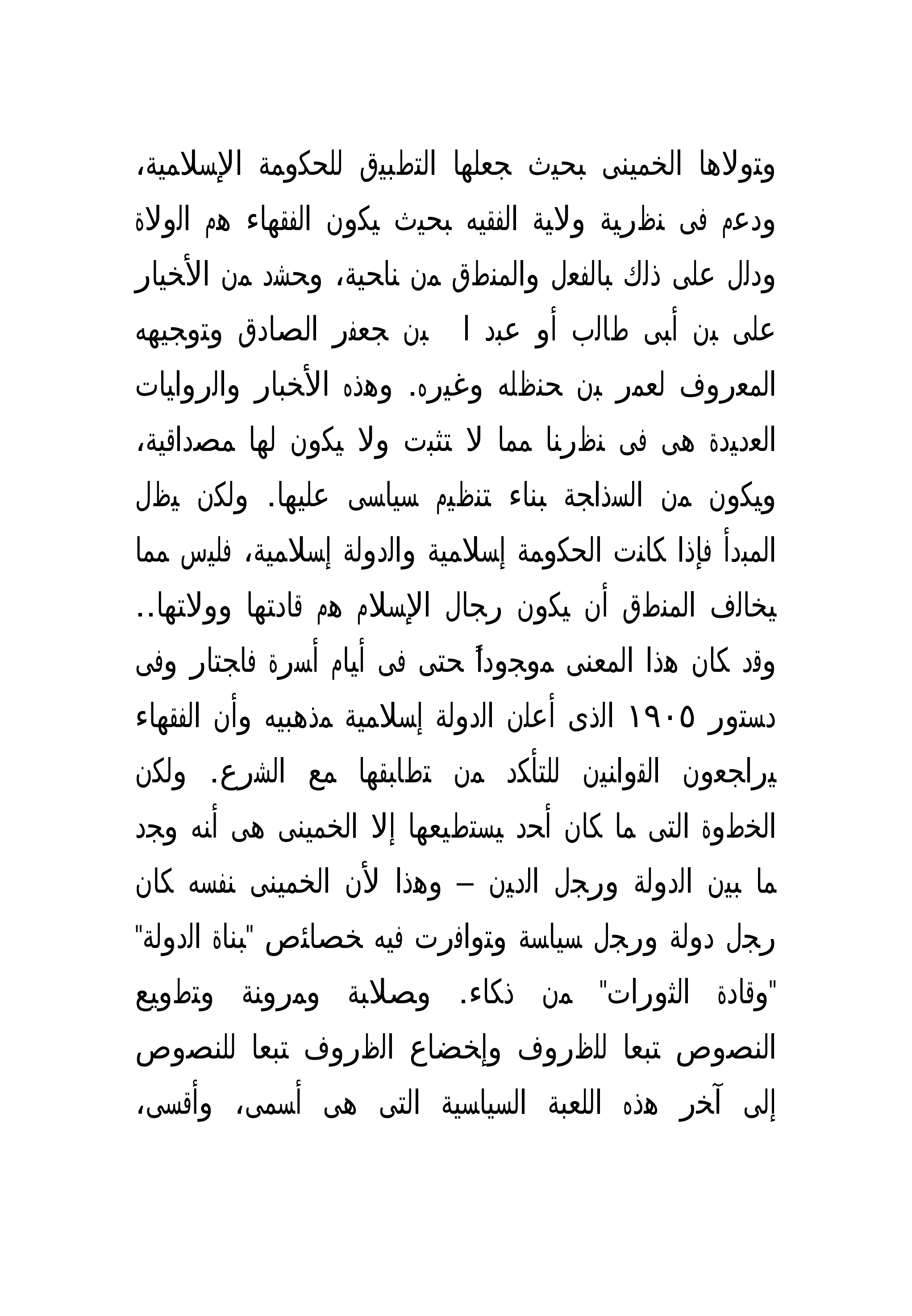
كما أن الشاه طهماس استقدم المحقق الكركى من جبل عامل الذى كان قد آمن بنظرية الإنابة – ودعاة إلى تبريز ليكو المرجع، وعندما وصل قال له الشاه أنت أحق بالملك لأنك النائب عن الإمام وأنا أكون من عمالك أقوم بأوامرك ونواهيك" وقبل الكركى وأعطى الشاه أجازه لحكم البلاد بالوكالة عن نفسه باعتباره نائبا عن الإمام المهدى .

ولكن هذه السابقة لم تظفر بتأييد علماء الشيعة لما يمكن أن تسفر عنه من نتائج، وإذا جازت الإنابة فيمكن عندئذ للفقيه أن يلى الأمور. وإذا جاز الوكالة عن الإنابة فيمكن أن يحكم الملوك ولا يخلو هذا أو ذاك من المخاطر. ولكن الحاج الموقف دعا أخيراً الفقيه أحمد بن محمد مهدى النراقى (توفى ١٢٤٥) لإحياء فكرة ولاية الفقيه وقال بصراحة **"كل ما كان للنبى والإمام فيه الولاية، وكان لهم، فللفقيه أيضاً ذلك. إلا ما أخرجه الدليل من إجماع أو نص أو غيرهما". (عوائد الإمام فى بيان قواعد الأحكام) .**

ولكن لما كان تطبيق ذلك عملياً لم يكن متاحاً ولعل الفقهاء أنفسهم لم يكونوا على استعداد له لذلك فقد ظهر الشيخ محمد حسين النائبى فى بداية القرن العشرين وأصدر كتابه


"تنبيه الأمة وتزيه الملة" التى دعا فيها إلى تقييد سلطة الحاكم عن طريق الدستور الذى يجعل الشعب يشارك فى السلطة. ونجد عنده أقوى دفاع عن الديمقراطية قدمه آيات ا باستثناء طلقانى الذى سيظهر بعده، وقال "إن الديمقراطية جائزة أو واجبة، من باب مقدمة الواجب، لأن الديمقراطية سبب للرفاه والتقدم والأمن. وكذلك من باب الأحكام الثانوية، وإن النواب خبراء فى السياسة وينتدبون لتحديد القوانين الثانوية. ومن باب الأمور العرفية، وإن النواب ينظمون القوانين خارج دائرة الشرع. ومن باب الدفاع عن الوطن الإيرانى" .

تلك كانت نقله هامة جداً سدت الثغرة ما بين العجز عن ولاية الفقيه. وفى الوقت نفسه ضرورة تقييد سلطات الحاكم حتى لا يتحول إلى مستبد وطاغوت. وكان يمكن أن يتابع لولا أن ظهور رضا شاه العسكرى الفظ طوى هذه الصفحة بحكمة العسكرى الذى بسط إرهابه طوال مدة حكمه، ولما أراد ابنه أن يرث هذه السلطات ولم يكن له غشومة وفظاظة أبيه، خاصة فى سنواته الأولى – أخذ الفكر الشيعى يعيد النظر – وعادت مرة أخرى فكرة ولاية الفقيه باعتباره الحل.


وتولاها الخمينى بحيث جعلها التطبيق للحكومة الإسلامية، ودعم فى نظرية ولاية الفقيه بحيث يكون الفقهاء هم الولاة ودلل على ذلك بالفعل والمنطق من ناحية، وحشد من الأخبار على بن أبى طالب أو عبد ا بن جعفر الصادق وتوجيهه المعروف لعمر بن حنظله وغيره. وهذه الأخبار والروايات العديدة هى فى نظرنا مما لا تثبت ولا يكون لها مصداقية، ويكون من السذاجة بناء تنظيم سياسى عليها. ولكن يظل المبدأ فإذا كانت الحكومة إسلامية والدولة إسلامية، فليس مما يخالف المنطق أن يكون رجال الإسلام هم قادتها وولاتها.. وقد كان هذا المعنى موجوداً حتى فى أيام أسرة فاجتار وفى دستور ١٩٠٥ الذى أعلن الدولة إسلامية مذهبيه وأن الفقهاء يراجعون القوانين للتأكد من تطابقها مع الشرع. ولكن الخطوة التى ما كان أحد يستطيعها إلا الخمينى هى أنه وجد ما بين الدولة ورجل الدين – وهذا لأن الخمينى نفسه كان رجل دولة ورجل سياسة وتوافرت فيه خصائص "بناة الدولة" "وقادة الثورات" من ذكاء. وصلابة ومرونة وتطويع النصوص تبعا للظروف وإخضاع الظروف تبعا للنصوص إلى آخر هذه اللعبة السياسية التى هى أسمى، وأقسى،

وأخطر اللعبات. والتى تتعامل مع المتناقضات بمهارة وذكاء، وليس معنى هذا أنه كان مجرداً من المؤثرات الدينية. فإنه ابن الحوزة، ولكن المقوم السياسى فى شخصيته أقوى من المقوم المذهبى. ولهذا استطاع أن يطوع المذهبى وأن يقود شعبية الثورة فى بحرها الهائج حتى يصل بها إلى بر السلام .

وتقص تاريخه فى السنوات الحاسمة من سنة ٦٣ حتى سنة ٧٨ يوضح هذه الخصائص فقد أعلن من البداية رفضه المساومة والمهاونة والحلول الوسطى ولم يقبل فى هذا أى وساطة ورفض كل الدول التى تقدم بها للإبقاء على الشاه أو غيره فكان فى هذا صورة للصلابة والثبات على المبدأ .

فلم نرى بجانب هذه الصلابة مرونة وبعد نظر لاستقطاب كل المعسكرات له. فعندما كان فى فرنسا تحدث عن المثقفين من غير رجال الدين "أحاديث إيجابية فى عمومها حيث اعتبرهم حلفاء ودعا أنصاره للتعاون معهم وأشاد بنضالهم ضد القهر والظلم ونهب ثروات الشعب. ووعد الخمينى أنه فى ظل حكومته الإسلامية المنتظرة، سيتم إدارة القضاء والاقتصاد والمجتمع والحكومة بما يتفق مع

آمال هؤلاء المثقفين. وقد أعلن الخمينى وقتذاك أن هدفه ليس أن يحكم رجال الدين ولكن أن يوجهوا الشعب إلى تحديد المعايير الإسلامية الصحيحة. ومما لا شك فيه أن مفاهيم الخمينى عن الحرية والعدالة كانت غامضة وعامة عن عمد لجذب تأييد قطاعات واسعة من الشعب الإيرانى وقواه السياسية. كما كان هناك مدلولات ذات توجه يسارى فى بيانات الخمينى الصادرة فى باريس نتيجة تأثير مستشاريه من غير رجال الدين مثل الدكتور أبو الحسن بنى صدر. وورد على لسان الخمينى وعود ضمنيه لتحقيق التعددية السياسية والحكم الذاتى للأقاليم الإيرانية والحريات السياسية حتى للقوى اليسارية العلمانية التى شاركت فى المظاهرات المعادية للشاه .

"وفى يناير ١٩٧٩، قام بنى صدر وعدد آخر من مستشارى الخمينى من غير رجال الدين ببلورة برنامج من ثمانى نقاط. وقد تعهد الخمينى فى هذا البرنامج بتحقيق استقلال إيران عن الولايات المتحدة، وإنهاء التمايز الطبقى فى المجتمع الإيرانى، وتحقيق الإصلاح الزراعى وتأميم المشروعات الاقتصادية الرئيسية، وضمان حرية الصحافة

والأحزاب وحق الشعب فى تنظيم الاجتماعات والمظاهرات، ومساواة الإيرانيين أمام القانون وتقديم الدعم لكل المناضلين من أجل الحرية فى العالم بأسره. وقد عكست هذه النقاط مطالب مختلف القوى السياسية والاجتماعية فى إيران، بما فيها القوى الإسلامية التقدمية" [(١)] .

وبهذه الطريقة كسب تأييد جماعة مجاهدى خلق القوية التى كان لها خبرة طويلة فى العمل السرى والإضرابات الخ... كما كسب تأييد المثقفين الإسلاميين مثل مهدى بازرجان وبنى صدر وغيرهم مع أن الخط الذى وضعه لولاية الفقيه لم يكن فى الحقيقة يعنى سوى استئثار الفقيه بالحكم طبقاً لمبادئ المذهب. وهو ما يعنى أن مواقفه تلك كانت كلها مواقف "تكتيكية" تطلبتها الظروف. ولكنه بمجرد أن تملك الأمر تماماً فإنه لم يتردد فى إبعاد كل هذه المجموعات، وأطلق على معظمهم لقب "المنافقين" مما لا يعنى الاستبعاد النهائى لهم .

---

(١) إيران صعود وهبوط التيار التقدمى الإسلامى للدكتور وليـد عبد الناصر دار المستقبل العربى .

وحتى بالنسبة لزملائه فى الحوزة، فإنه تقبلهم على مضض ولم يستجب لأى يختلف عما انعقد عليه عزمه. فقد كان رأى آية ا طلقانى انتخاب مجلس من ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ عضو يمثل كل القوى والفعاليات فى إيران يكون مخولا لصياغة مشروع ختامى للدستور. وجاء هذا الموقف لطلقانى متسقا مع مواقف مجاهدى خلق والجماعات الليبرالية واليسارية والعلمانية. ألا أن طلقانى – ونتيجة ارتباطه الطبيعى بمؤسسة رجال الدين الشيعة – أظهر مرونة حول هذه المسألة وتراجع فقبل بترشيح نفسه فى انتخابات مجلس خبراء مصغر مكون من ٧٥ عضو اقترحه أصلاً رجال الدين المؤيدون للحزب الجمهورى الإسلامى. الذى نقد حزب الخمينى بل حصل طلقانى على أكبر عدد من الأصوات فى انتخابات هذا المجلس .

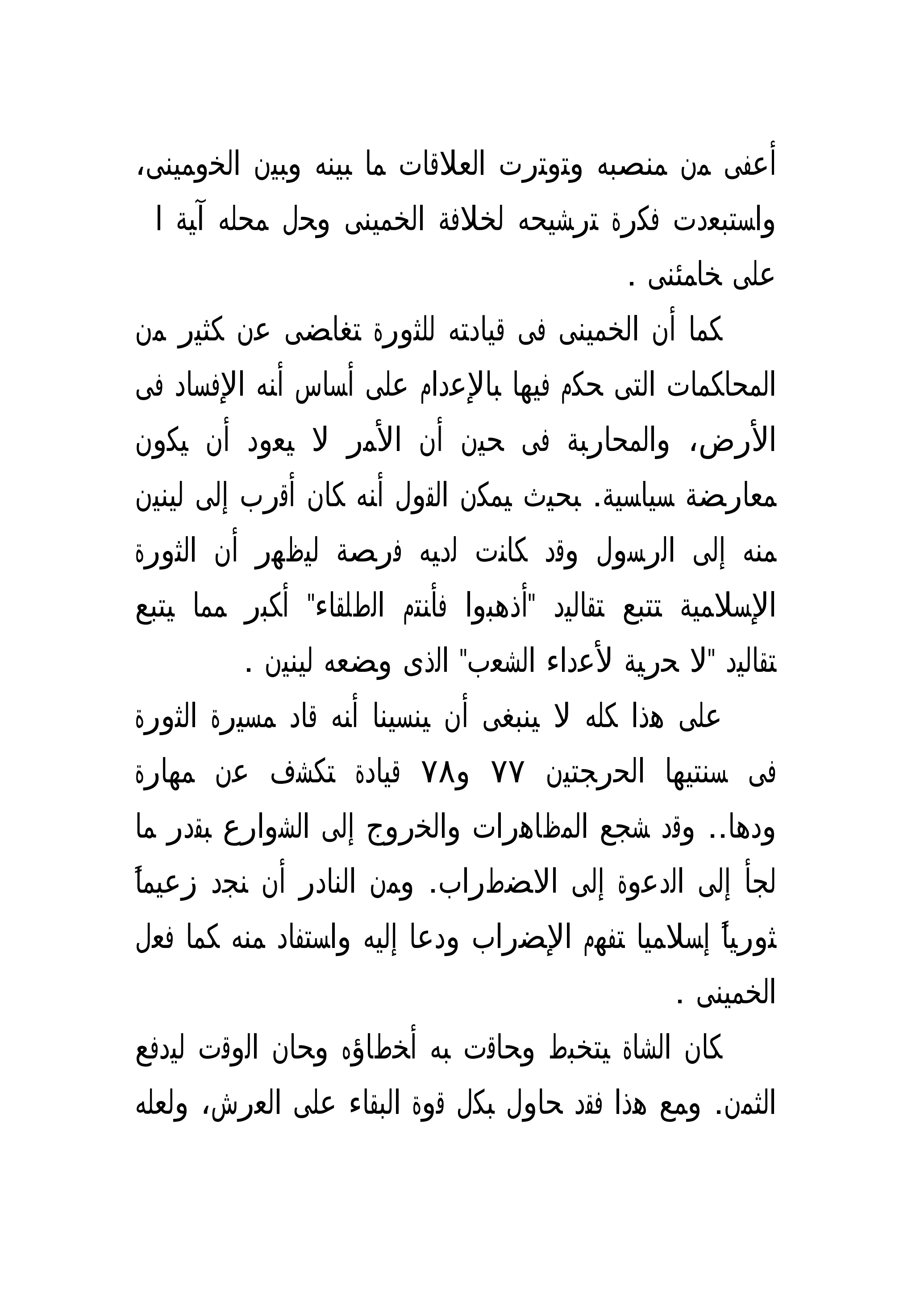
وكان آية ا منتظرى، الذى رشح لخلافة الخومينى قد حدد فى حياة السيد الخمينى اشتراطاته الفقهية والدستورية للولى الفقيه، سواء من حيث المكانة العلمية والدينية، أو من ناحية التكييف القانونى لاختياره. ففى حين يقضى الدستور الإيرانى بأن أعضاء مجلس الخبراء المنتخبين، من قبل

الشعب، يقررون الشخص الذى يملك امتيازا خاصاً للقيادة، ويعلنون على الشعب باختياره قائدا، أو ينتخب المجلس عدة أشخاص من حائزى امتيازات القيادة ويعلنونهم الشعب باعتبارهم أعضاء مجلس القيادة. يرى العلامة منتظرى أن مجلس الخبراء يسمى للشعب مرشحه للقيادة، لينتخب بالاستفتاء المباشر، لأن القائد، وفقا للدستور، وبحكم الواقع، يجثم أعلى السلطات الثلاث التشريعية والقضائية والتنفيذية الأمر الذى يتفق وأطروحات المعرضة الوطنية الليبرالية التى يؤيد منطقها الاحتكام للشعب فى اختيار ممثليه، ففى تلك الحالة تستمد السلطة مشروعيتها من حكم ممثلى الشعب، وهو ما يجسده مبدأ "ولاية الجمهور"، الذى يمكن اعتباره التعبير الشرقى الأقرب لمفاهيم الديمقراطية والمجتمع المدنى[1] .

ولم يأبه الخمينى لهذه الآراء وقد توفى آية ا طلقانى فى وقت مبكر – سبتمبر ١٩٧٩ أما آية ا منتظرى فقد

---

(١) الانتخابات الإيرانية – د/ مصطفى اللباد – ص٣٢ كراسـات استراتيجية الأهرام السنة العاشرة العدد ٩٠ .


أعفى من منصبه وتوترت العلاقات ما بينه وبين الخومينى، واستبعدت فكرة ترشيحه لخلافة الخمينى وحل محله آية ا على خامئنى .

كما أن الخمينى فى قيادته للثورة تغاضى عن كثير من المحاكمات التى حكم فيها بالإعدام على أساس أنه الإفساد فى الأرض، والمحاربة فى حين أن الأمر لا يعود أن يكون معارضة سياسية. بحيث يمكن القول أنه كان أقرب إلى لينين منه إلى الرسول وقد كانت لديه فرصة ليظهر أن الثورة الإسلامية تتبع تقاليد "أذهبوا فأنتم الطلقاء" أكبر مما يتبع تقاليد "لا حرية لأعداء الشعب" الذى وضعه لينين .

على هذا كله لا ينبغى أن ينسينا أنه قاد مسيرة الثورة فى سنتيها الحرجتين ٧٧ و٧٨ قيادة تكشف عن مهارة ودها.. وقد شجع المظاهرات والخروج إلى الشوارع بقدر ما لجأ إلى الدعوة إلى الاضطراب. ومن النادر أن نجد زعيماً ثورياً إسلاميا تفهم الإضراب ودعا إليه واستفاد منه كما فعل الخمينى .

كان الشاة يتخبط وحاقت به أخطاؤه وحان الوقت ليدفع الثمن. ومع هذا فقد حاول بكل قوة البقاء على العرش، ولعله

استعاد ذكرى قومة الشعب أيام مصدق وكيف خلع. ثم عاد منتصراً بفضل مؤامرة الـ **C.I.A.** ولكن المأساة كانت قد قاربت فصلها الأخير.. ولم يبق معه إلا مجموعة من الضباط الذين تدربوا فى الولايات المتحدة. واستفادوا من العهد ولم يكن لديهم من التفكير ما يسمح لهم بالتجاوب مع الشعب. ومع هذا فقد ثار سلاح الجو، واضطرت هذه المجموعة إلى التزام الحياد حتى اكتسحتها الثورة والحرس الثورى فهرب البعض وقتل البعض الآخر وأصدرت عليه أحكام المحاكم الثورية أحكام الإعدام واشترط آخر من وقع عليه اختياره كرئيس للوزارة وهو بختيار أن يترك الشاه طهران فى أجازه لتنقيه الأجواء وأن يتولى الحكم فى غيبته مجلس وصاية، فهلاً تذكر هذا الطاغية فاروق الذى كان كل أمله أن يكون له وريث وطلق زوجاته فى هذا السبيل.. وعندما جاء الوريث كان العرش قد طار.. وأصبح وريثه شريداً فى الأرض.. وذهب هو وملكه فى أمم قد خلت ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِم السماء والأرض وما كَانُوا منظَرِين﴾. {٢٩ الدخان}.

* * *

وصف شاهد عيان اليوم الذى عاد فيه الخمينى ..

" كل المدن والشوارع والحوارى زينت بالورود ونثرت فيها أطنان النقل. كل مكان غرق فى السعادة، كل الشفاه مبتسمة، كل مكان زين بالمصابيح فجعلته يلمع بضوء كضوء الظهيرة، كل العيون حتى عيون السيارات تتألق... كل شخص يبتسم حتى الجنود والحراس... لا أدرى فى أى دولة وفى أى عصر صارت أمة ما سعيدة مبتسمة إلى هذا الحد. لكن أعلم أن الإيرانيين لم يكونوا هكذا سعداء مرحين منذ قرون. لم أر فى حياتى إيرانياً سعيداً إلى هذا الحد، لم أكن قد رأيت قط رجلاً أو امرأة من هذا الجنس الممتحن ضاحكاً إلى هذا الحد... وبالنسبة لأمة أحنت ظهرها لقرون متتالية تحت سياط أكبر جبارى المشرق من جنكيز خان إلى آقا محمد خان ومن تيمورلنك إلى محمد رضا بهلوى وهى جريحة متألمة، ولو أنها تنفست لفترة تكون فترة قصيرة جداً وعابرة.. ومع ذلك لا تزال تحلم بسلطان عادل، وبالنسبة لأمة مبتلاة تنتظر لمدة ألف سنة ظهور الإمام الغائب حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وبالنسبة لعرق عظيم أنتج واحدة من أكثر الثقافات حرية وإنسانية على وجه

الأرض وهو يعيش أسيراً فى أكثر أغوار التاريخ ظلمة، آية حادثة يمكن أن تكون أعظم وأكثر إعزازاً وأكثر بعثاً للروح من أن يقوم رجل من بين أكثر المظلومين تعرضاً للظلم، وهو فى نفس الوقت طاهر الجبلة ومتواضع وزاهد ومتقى وفى نفس الوقت عنيد ومناضل وصامد، ويأخذ حق هذه السنوات الألف من ظالم، ويصمد كل هذا الصمود، ويقاتل كل هذا القتال حتى يجتث آخر جذور الظلم من هذا الوطن العزيز"[1] .

هكذا كانت طهران يوم الخميس ١٢ بهمن (أول فبراير ٧٩) يوم عودة الإمام" .

"وتصف مجلة "طهران مصور" الصادرة يوم الخميس ١٢ بهمن بعد الظهر من وصول الإمام قائله: "نزل الإمام من الطائرة، واحتضنه ضباط الطيران وكأنهم سد حوله بحيث تبادر إلى الذهن أنهم يريدونه لأنفسهم فقط ويريدون أن يحرموا الآخرين منه، الضباط الكبار والضباط الصغار

---

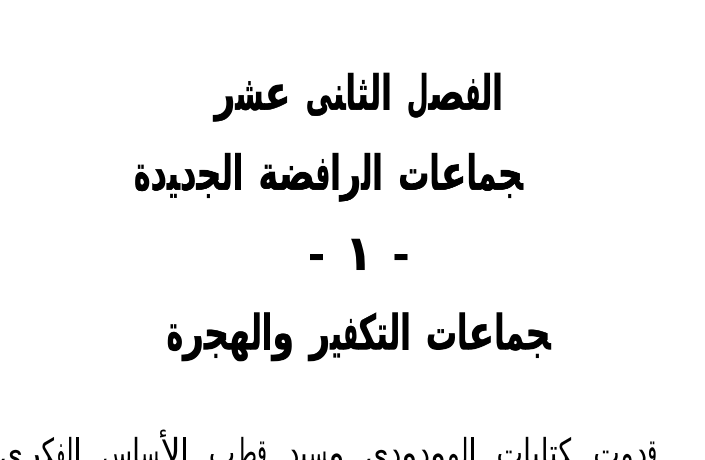
(١) الثورة الإيرانية – الصراع – اللحمـة – النصـر للـدكتور إبراهيم الدسوقى شتا دار الزهراء. ص٣٣١ .

وصف الضباط، كانوا قد نسوا تماماً تسلسل الرتب، كان كل واحد منهم يجاهد بدوره فى المحافظة على الإمام .

لم يكن الحب فقط هو الذى فكرت فيه الملايين التى خفت للقاء الإمام فى طهران فى يوم لم يكن له مثيل فى تاريخ إيران.. أجل، كانت الثورة الناضجة قد تعلمت من تجارب السنين.. وكانت قمة نضجها فى الاستعداد لكل ظروف ولكل خيانة، ففى نفس يوم وصول الإمام كان ميلاد حرس الثورة "باسدران انقلاب"، كان الحرص البالغ فى الحصول على السلاح فى سبيل أيام منها هذا اليوم المشهود... كانت المدينة خالية من قوات الجيش وقوات الشرطة.. ومع ذلك كان هناك أكثر من سبعين ألف من المسلحين احتلوا شوارع طهران من المطار وميدان شهياد (الذى سمى ميدان الحرية منذ ذلك اليوم). شمالاً وحتى جبانة بهشت زهرا فى الجنوب، وفى اليوم الأول لنزول الإمام طهران فعل ما لم يكن يجرؤ الشاه على فعله طوال فترة حكمه خاصة منذ ٥٣، فقطع شوارع طهران التى لم تشهد فى تاريخها مثل هذا الجمع فى عربة، قطع المدينة لا فى صورة الغازى الذى يستعرض فتحه، وليس فى طريقه إلى قصر السلطان، بل كإمام ورع زاهد

جندل اعتى نظام عرفه التاريخ المعاصر، متوجهاً من المطار إلى بهشت زهراً حيث دفن شهداء الحرية يصلى عليهم ويدعو لهم ويذكر تضحياتهم التى لولاها ما كان ذلك اليوم" .

هذا الحب للإمام الخمينى، وتلك القيادة الذكية الناجحة للثورة. وإيمان الشعب الإيرانى بها كلها بقدر ما توضع فى مصلحة الثورة، بقدر ما توضع عليها مسئولية أفضل من مسئولية الثورات أو التجارب الأخرى لإقامة حكم إسلامى. فهنا تهيأت الأوضاع تماماً. فهل أفلحت التجربة وحققت الآمال .



الفصل الثانى عشر

جماعات الرافضة الجديدة

- ١ -

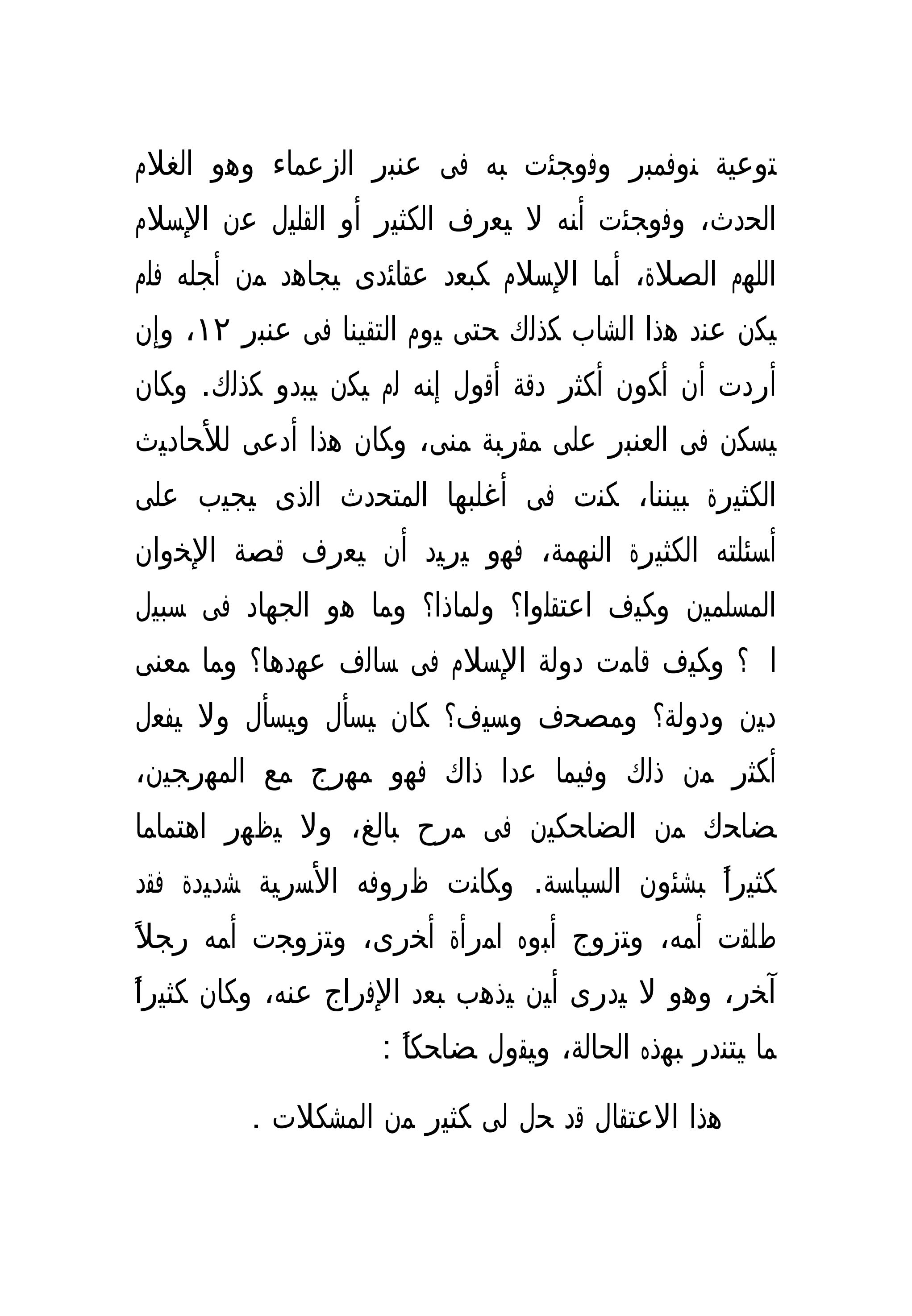
جماعات التكفير والهجرة

قدمت كتابات المودودى وسيد قطب الأساس الفكرى لتلك المجموعات التى أطلقنا عليها "الرافضة الجديدة" .

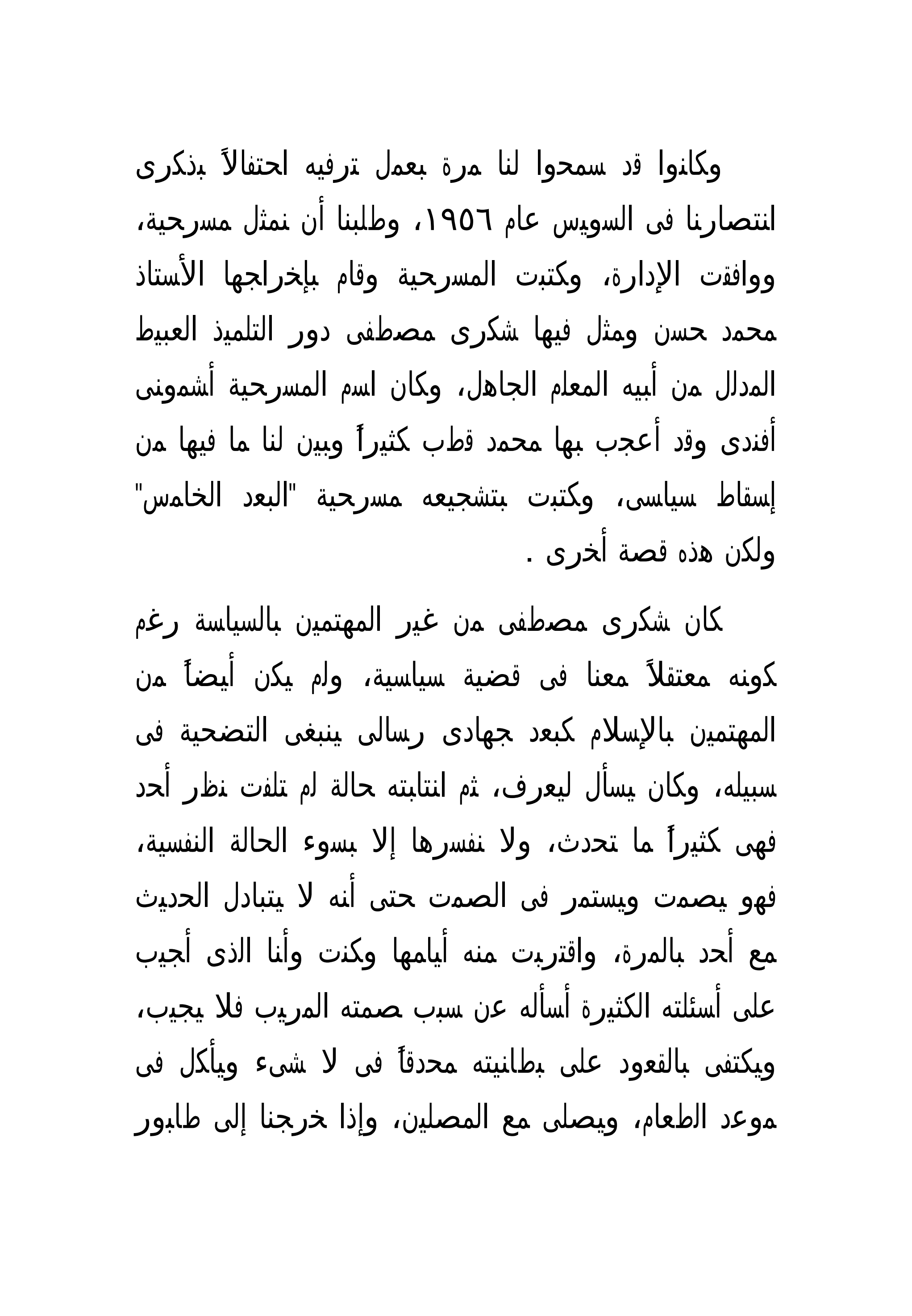
وحدث هذا فى معتقلات عبد الناصر ورفع رايتها "شكرى مصطفى" ..

وتحدث أحد رفاقه فى السجن عن تطوره الفكرى خلال فترة الاعتقال فقال :

"فهذا الشاب الطالب بكلية الزراعة جامعة أسيوط قد جاء صدفة إلى السجن الحربى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وعذب مثل الآخرين، وكنت أراه أيام الحربى لماما ومن بعيد فلم نتجاور فى زنزانة، ولم يشملنا تحقيق واحد، ولكنه كان يلفت انتباهى بكونه واحد من أصغر المعتقلين سنا. لم اقترب منه إلا بعد إعادة التصنيف عقب


توعية نوفمبر وفوجئت به فى عنبر الزعماء وهو الغلام الحدث، وفوجئت أنه لا يعرف الكثير أو القليل عن الإسلام اللهم الصلاة، أما الإسلام كبعد عقائدى يجاهد من أجله فلم يكن عند هذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا فى عنبر ١٢، وإن أردت أن أكون أكثر دقة أقول إنه لم يكن يبدو كذلك. وكان يسكن فى العنبر على مقربة منى، وكان هذا أدعى للأحاديث الكثيرة بيننا، كنت فى أغلبها المتحدث الذى يجيب على أسئلته الكثيرة النهمة، فهو يريد أن يعرف قصة الإخوان المسلمين وكيف اعتقلوا؟ ولماذا؟ وما هو الجهاد فى سبيل ا ؟ وكيف قامت دولة الإسلام فى سالف عهدها؟ وما معنى دين ودولة؟ ومصحف وسيف؟ كان يسأل ويسأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذاك فهو مهرج مع المهرجين، ضاحك من الضاحكين فى مرح بالغ، ولا يظهر اهتماما كثيراً بشئون السياسة. وكانت ظروفه الأسرية شديدة فقد طلقت أمه، وتزوج أبوه امرأة أخرى، وتزوجت أمه رجلاً آخر، وهو لا يدرى أين يذهب بعد الإفراج عنه، وكان كثيراً ما يتندر بهذه الحالة، ويقول ضاحكاً :

هذا الاعتقال قد حل لى كثير من المشكلات .



وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل ترفيه احتفالاً بذكرى انتصارنا فى السويس عام ١٩٥٦، وطلبنا أن نمثل مسرحية، ووافقت الإدارة، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ محمد حسن ومثل فيها شكرى مصطفى دور التلميذ العبيط المدلل من أبيه المعلم الجاهل، وكان اسم المسرحية أشمونى أفندى وقد أعجب بها محمد قطب كثيراً وبين لنا ما فيها من إسقاط سياسى، وكتبت بتشجيعه مسرحية "البعد الخامس" ولكن هذه قصة أخرى .

كان شكرى مصطفى من غير المهتمين بالسياسة رغم كونه معتقلاً معنا فى قضية سياسية، ولم يكن أيضاً من المهتمين بالإسلام كبعد جهادى رسالى ينبغى التضحية فى سبيله، وكان يسأل ليعرف، ثم انتابته حالة لم تلفت نظر أحد فهى كثيراً ما تحدث، ولا نفسرها إلا بسوء الحالة النفسية، فهو يصمت ويستمر فى الصمت حتى أنه لا يتبادل الحديث مع أحد بالمرة، واقتربت منه أيامها وكنت وأنا الذى أجيب على أسئلته الكثيرة أسأله عن سبب صمته المريب فلا يجيب، ويكتفى بالقعود على بطانيته محدقاً فى لا شىء ويأكل فى موعد الطعام، ويصلى مع المصلين، وإذا خرجنا إلى طابور

الفسحة لا يخرج معنا ويكتفى بالجلوس وحيدا فى العنبر متأملاً محدقاً حتى يعود الناس، وتطور الأمر معه فصار يصلى فى الليل، وكان فى العنبر كثير يفعلون هذا، وانضم إليهم وصار واحداً ممن يقيمون الليل .

وكففت عن سؤاله عن سبب صمته واكتفيت بملاحظته عن كثب أحاول أن أدرك ما يفكر فيه بلا فائدة حتى جاء اليوم الذى رفض فيه التوقيع على التأييد، وانحلت عقدة لسانه وصار مرحا ثرثاراً كما كان من قبل .

وصرت أنظر إليه ولا أتحدث متأملاً متعجباً أحاول أن أفهم فينغلق على الفهم، ورآنى واقترب منى وجلس بجانبى .

وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلة عدد من فيه – وقال لى بشوشا :

- لعلك تعجب من عدم توقيعى على التأييد[١] .
- فى الحقيقة نعم .

---

(١) هذه كانت خطابات أو تلغرافات تطلب إدارة المعتقل من المعتقلين إرسالها للحكومة تأييداً لها فى مناسبات ما. ولم يكن ليرى بعض المعتقلين ضيراً فى هذا. بينما يرفض البعض الآخر ومنهم شكرى مصطفى، ذلك رفضاً قطعياً .

- تريد أن تعرف السبب .

- قلت له ملحاً: لو سمحت .

وتنهد شكرى مصطفى تنهيدة طويلة ملأت عينيه بالحزن وفارقه مرحه وبدأ جاداً صارما .

قد رأيت ما حل بنا، وما فعلته حكومتنا معنا، استباحت أبناءها وضربتهم بالسياط، وقتلتهم واغتصبت الفتيات والأطفال، قد رأيت بنفسك هذا هنا فى هذا المكان، فى السجن الحربى كنا سويا، وضعونى مع الزعماء ولست كذلك قد عرفت بنفسك، لقد سمعت منك قصة الإسلام بالتفصيل، لم اسمعها من قبل – وكلما ازددت معرفة ازددت غيظاً. وأظن أنه أن لم تؤاتنى الفرصة للمعارضة وإعلانها لمت كمدا. اقل ما نفعله لحكومة مثل التى تحكمنا أن نظهر احتقارنا لها. هذا اقل ما ينبغى على فعله. ولو استطعت أكثر من هذا ما ترددت"[(١)] .

وبعد هذا بمدة نرى شكرى مصطفى، وهو لا يقف عند هذه الدرجة. لأن سياسات الحكومة وتصرفات السجانين

---

(١) أحمد رائف "البوابة السوداء" ص٣٩٩ – ٤٠١ .

تدفعه نحو التطرف، ونحو الإصرار.. والمضى إلى آخر المدى.

وقد يصور ذلك هذا المشهد الذى رواه مؤلف "البوابة السوداء" .

".. وجاء حسن طلعت ببذلته "الموهير" اللامعة وساعته الذهبية وقميصه الحريرى، وبحذاء "ساكسون" وجورب لعله اشتراه من المريخ فقد كان يجلس على كرسى أنيقا جميلاً بهى الطلعة، كأنه مصنوع فى مصنع، وبدأ حديثا سقيما سخيفا، تحدث فيه عن عظمة الإله – إلهه هو – الزعيم الذى لا يقهر، وكيف نجاه ا من المهالك، وكيف تغلب عليها وما زال يحكم ويأمر وينهى ويقتل ويحيى ويميت ويفعل بالعباد ما يشاء .

كنا جلوساً أمامه على الأرض بملابس الاعتقال المصنوعة من "الخيش" والكل مستغرق فى أفكاره وقال :

تآمرتم عليه بتحريض من الاستعمار عام ١٩٥٤ فلم تفلحوا فجاء غزو سنة ١٩٥٦ لإنجاح ما فشلتم فيه ونجاه ا وتآمرتم عليه فى ١٩٦٥ ولم تفلحوا فجاء غزو يونيو ١٩٦٧

لإنجاح ما فشلتم فيه، ونجاه ا . ألا يعطيكم هذا العظة والعبرة بأنه خالد باق لا يموت ؟ .

وتمتم الشيخ محمد عبد الفتاح عارف .

- سبحان الحى الذى لا يموت .

وقال حسن طلعت الذى سمع تمتمته :

- ماذا تقول ؟ .

وانفجر الشيخ عارف :

- ألا تستحى أيها الرجل من هذا الكلام الفارغ الذى تقوله

واستعد الحرس الذين يحيطون بنا إحاطة السوار بالمعصم بالفتك بمن يتمرد، وصوبت الرشاشات، وكل من الجالسين أعزل لا يحمل سلاحا إلا "شبشب" قديم متهرئ يضعه فى رجليه، ويصعب استخدامه فى الضرب، وأشار حسن طلعت إلى الحرس فى شجاعة أن كفوا، فكفوا واستأنف الشيخ عارف كلامه :

- ظلمتم الإخوان عام ١٩٥٤ فعاقبكم ا عام ١٩٥٦، وظلمتموهم فى عام ١٩٦٥ فمسح ا بكم الأرض عام ١٩٦٧، وجعلكم سخرية العالم، ولو كان عند الرئيس كرامة

لاستقال ولضرب نفسه بالرصاص. ولو كان عندكم إحساس ما قلتم هذا الكلام .

وقال أبو بكر الصديق وهو شاب من المعتقلين كلاما شبيها من هذا، كل هذا وجمهور المعتقلين ساكنين قد تربعوا الأرض تحت تلك الشجرة الضخمة بين مبنى المستشفى ومبنى الملاحظة كشيوخ أثينا الحكماء، يرقبون ما يدور ولا تخلو نفوسهم من راحة لما يسمعون .

ثم قام إليه شكرى مصطفى ووجه كلاما سريعا حاسما قاسيا كطلقات نارية من مدفع أتوماتيكى حديث الصنع .

أنت كافر. ورئيس جمهوريتك كافر. ولئن أحيانى ا وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالاً شديداً، ولئن مت فسوف يأتى من بعدنا من يقضى عليكم ويدين دولتكم. ولئن هربتم من عقابنا فى الدنيا فلن ينج أحد منكم يوم القيامة" .

قضى الأمر. ومن هذه اللحظة لم يعد هناك رأفة أو مهادنة، واستقر رأى شكرى مصطفى وأصبح الشىء الوحيد الذى يكرره .

"وا   لئن كتب ا   لى الخروج من هذا الجب لأقاتلنهم قتالاً ضروساً بما أستطيع حتى أغيرهم أو أموت شهيداً.."[(١)] .

وقد كان ...

فعندما خرج شكرى مصطفى. أسس الهيئة الرائدة فكرياً وعملياً من هيئات الرافضة الجديدة .

إذا كانت هذه هى المرحلة الأولى فى تطور شكرى مصطفى، فلابد أنه بعد أن خرج من الاعتقال عكف على المطالعة والتفكير بحيث أضاف إلى مبادئ المودودى وسيد قطب مبدأ "التكفير"، و "مجاهدة الجاهلية" أو "الهجرة" كما تعلق بفكرة "الخلافة" وكتب كتاباً عنها. وفى النهاية أسس الجماعة التى أطلقت عليها جريدة أخبار اليوم "جماعة التكفير والهجرة" ومع أن "أخبار اليوم" قلما تصدق وإنما تبغى الإثارة دائما، إلا أنها فى هذه التسمية رزقت الصدق وكيفت الهيئة تكييفا حقيقيا ..

ولما لم يكن لهذه الهيئة، ولا لأى هيئة من هيئات الرافضة قواعد جماهيرية، أو فكر أصولى حقيقى فنحن لا نتابع التطور

---

(١) أحمد رائف "البوابة السوداء" ص٥٧٣ – ٥٧٤ .

أو نتقصى التاريخ، وإنما نلم بإبراز القسمات والتطورات فى كل هيئة .

ومن أبرز ما اتسمت به "جماعة المسلمين" كما أطلق عليها شكرى مصطفى من واقع أقواله[١] أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا (القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧) والتى نشرت فى الصحف يوم ١٩٧٩/١٠/٢١ م .

- إن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعا .

- إننا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمة والإجماع وسائر ما تسميه الأصنام الأخرى كالقياس .

إن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساس كى يكون المسلم مسلما، ونرفض ما ابتدعوه من تقاليد، وما رخصوا لأنفسهم فيه، وقد أسلموا أمرهم إلى الطاغوت وهو: الحكم بغير ما أنزل ا ، واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلما .

---

(٢) من كتاب ذكرياتى مع جماعة المسلمين (التكفير والهجـرة): عبد الرحمن أبو الخير. دار البحوث العلمية الكويت ص٩ .

- إن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل، ومن هنا كان المسلم الذى يفارق جماعة المسلمين كافراً .

- الإسلام الحق هو الذى تتبناه "جماعة المسلمين" وهو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط – وبعد هذا لم يكن ثمة إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن .

وبطلان بعض هذه المبادئ ظاهر لا يحتاج إلى دفاع فلا يدعى فرد لم يضم سوى عشرين أو ثلاثين شابا أن جماعته هذه هى وحدها – دون كل الجماعات الإسلامية، والمسلمين عامة – هى التى تمثل الإسلام حقا، وأن كل ما عداها ضال بما فى ذلك جماعة "الإخوان المسلمين" التى تعلم فيها أول ما تعلم، و "الجماعة الإسلامية" فى الهند التى يتفق هو نفسه معها فى كثير مما ادعاه، وجماعة "الفنية العسكرية" التى سبقتهم على الطريق .

نقول لا يدعى هذا إلا إذا وصل به الغرور درجه أعمته عن كل أثاره من إثارات الاتزان أو الموضوعية .

وقد كان لشكرى مصطفى شخصية قوية ونفوذ مؤثر على اتباعه.. وكان يهيمن عليه هو نفسه مزاج عصبى جعل معاييره ذاتية خالصة .

من ناحية أخرى فإن فكرة رفض أقوال الأئمة (أئمة المذاهب) ورفض الإجماع والقياس هى أفكار وارده وقابلة للدراسة، ولم ينفرد بها شكرى مصطفى .

- إن كل الظاهرية (داوود وابن حزم) يرفضان القياس ..

ومن أئمة المسلمين من قال إن أول من قاس هو إبليس

ومن أئمة المسلمين من رفض الإجماع ..

أما أفكار التكفير، وإقامة الخلافة... فكلها أطياف من الهوس والهذيان ..

وقد فهمت سلطات الأمن نفسية شكرى مصطفى ونقط الضعف فيه والعوامل المؤثرة عليه، وتبينت أن المبدأيه المزعومة والتى هى طابع دعوته إنما هى دلالة على السطحية ووسيلة ليحكم بها السيطرة على اتباعه .

أما فى الحقيقة فإنه على نقيض شدته وتعصبه وشنآن عداوته مساوم لا يرفض أى صفقة إذا تصور أنها تحقق مصلحة .

وقد توصلت سلطات الأمن إلى هذا إما عن دراسة لنفسيته أو نقلاً عن بعض أعوانها الذين غرستهم فى صحابته .

وجاءت أول إشارة إلى هذه الطبيعة عندما سأل شكرى مصطفى أحد صحابته: هل لو وجد اليهود [الذين يسيطرون على العالم فى رأيه] مصلحة لهم فى إقامة الخلافة فهل يقيموها.. فرد عليه: إنهم إذا وجدوا الرجل الذى يحقق لهم أغراضهم عن طريق الخلافة فإنهم يقيموها .

ومن هذه الفكرة نبتت فكرة: "العمل من خلال خطة العدو".. وتضخمت حتى وصلت إلى مستوى "الحسابات الدقيقة للمصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهلية"، وأنه إذا كانت هناك عملية يمكن أن تقوم بها الجماعة بالاشتراك مع العدو بحيث تكسب الجماعة ٥٤ % فيها ويكسب العدو ٤٦ % منها فيجب أن تؤدى! ..

وعندما حاول أحد الأعضاء الاعتراض وإيضاح أن هذه لن تكون سوى صفقة خاسرة، فضلاً عن مخالفتها لأسس الجماعة التى ترفض التعاون مع الجاهلية، وأنهم فى النهاية سيستثمرون قال أحدهم: "قبلنا أن نستثمر.. قبلنا أن نستثمر!"[(١)].

وكان الطعم الذى قدمته السلطات أنها فى حاجة لمثل هذه الهيئة التى تدعو إلى الهجرة وتصرف الشباب عن المناهج الانقلابية، وأنها مستعدة لدفع تعويض عما نال أعضاءها فى الماضى وطلبت إليهم رفع قضية للحصول على التعويض المناسب، وفى مقابل ذلك يقوم شكرى مصطفى وصحابته بالقضاء على بقية "الفنية العسكرية" خاصة بعد أن أوقعت بينهما فتنة .

وبهذه الطريقة سنت الجماعة حملة على عناصر معينة فى المعصرة والإسكندرية.. وقبض إثر هذه الغارة على سبعة عشر من أعضائها البارزين؛ ولكن هذا لم يثن الجماعة عن أن تمضى فى خطتها لتقع فى الطعم الأكبر ..

---

(١) المرجع السابق ص٥٩ .

هذا الطعم هو اختطاف الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف الأسبق والشيخ العالم الجليل، ومطالبة السادات بمبلغ مائتى ألف جنية والإفراج عن المسجونين .

وكان الشيخ الذهبى على وجه التعيين هو آخر من يجوز لهذه الجماعة المساس به لأنه كان أحد العاملين على إصلاح جهاز الدعوة والدعاة والمنتقدين للوسائل التى تقوم عليها ..

ولكن كان هناك عامل غاب على أى عامل آخر لدى شكرى مصطفى ذلك هو رغبته المحرقة فى "البلاغ" .

أى توصيل دعوته وفكرها إلى الجماهير بأى ثمن ..

ويمكن لعملية الاختطاف أن تحقق له هذا ..

وبالفعل فإن كل أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون؛ لا فى مصر وحدها بل فى العالم كله أذاعت النبأ، وتحدثت بالفعل عن هذه الجماعة :

ولكنها تحدثت عنها كعصابة مهووسة.. مجنونة..!! خاصة بعد أن قتلوا الشيخ وعذبوه فيما قيل ..

وقد أكد هذه الفكرة (فكرة أن اختطاف الشيخ الذهبى كان لكى يتم البلاغ!!) أحد صحابة شكرى مصطفى المقربين[1] .

فهل هناك سفاهة أكثر من هذه السفاهة ؟! .

إن شكرى مصطفى فى فعلته تلك أسوأ من مجنون الشهرة الذى أحرق المعبد لكى يشتهر، فقتل إنسان.. أسوأ من إحراق معبد .

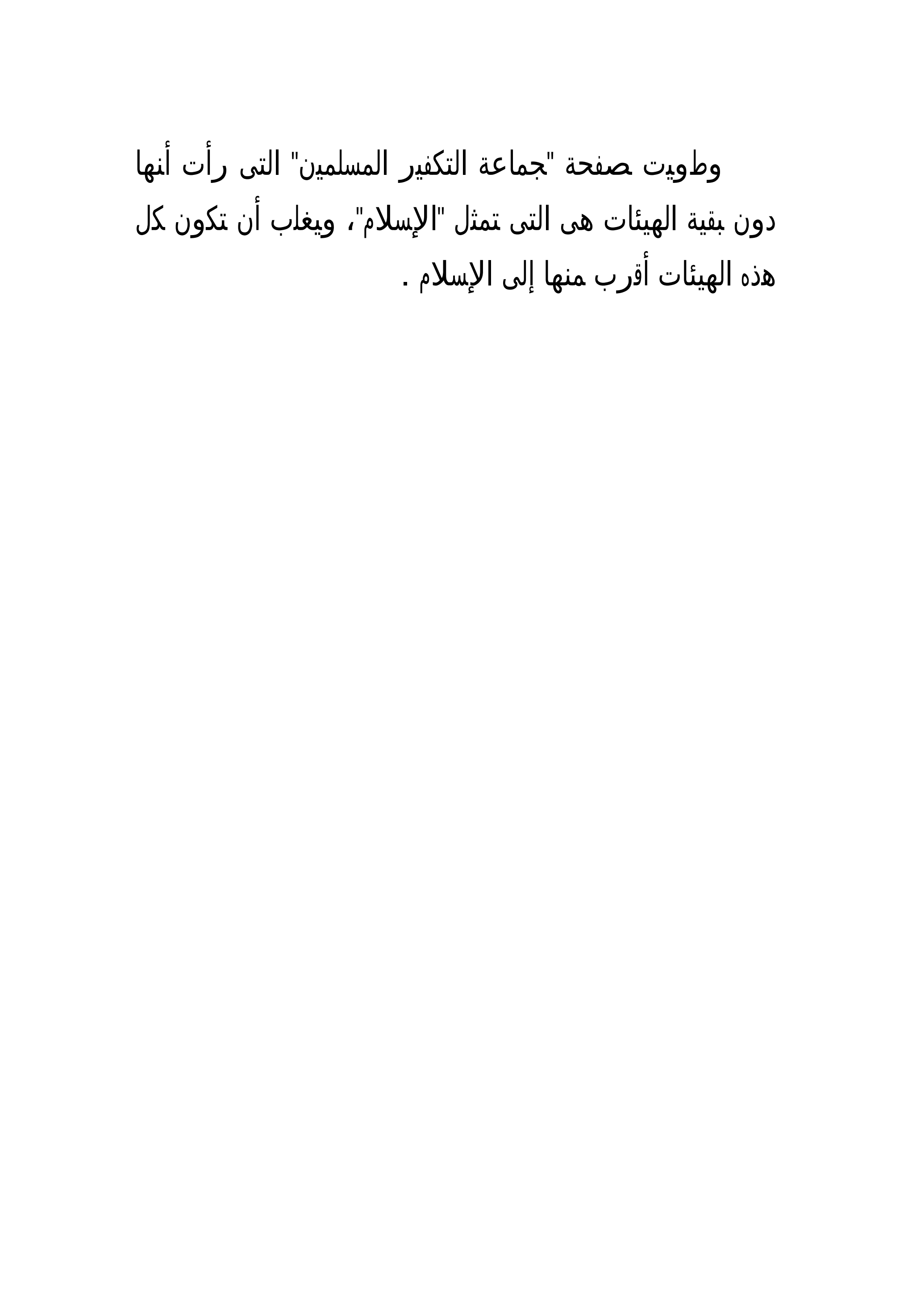
الغريب والذى يصور مدى انفصام شخصية شكرى مصطفى وغلبة الهوس على عقله أنه كاف أحد اتباعه بكتابة بحث عن الإخوان جاء فيه أن حسن البنا ماسونى! ..

وقدم شكرى مصطفى هذا البحث بكلمة اتهم فيها "بالخيانة العظمى"! قادة الإخوان المسلمين الذين قادوا رجالهم إلى التهلكة وفرطوا فى أعناقهم وأسلموهم لجلاديهم والمشانق والسجون .

فهل تذكر ذلك عندما أودى بنفسه وبخاصة رجاله إلى المشنقة يوم التاسع والعشرين من مارس عام ١٩٧٨م .

---

(١) المرجع السابق ص١١٤ .

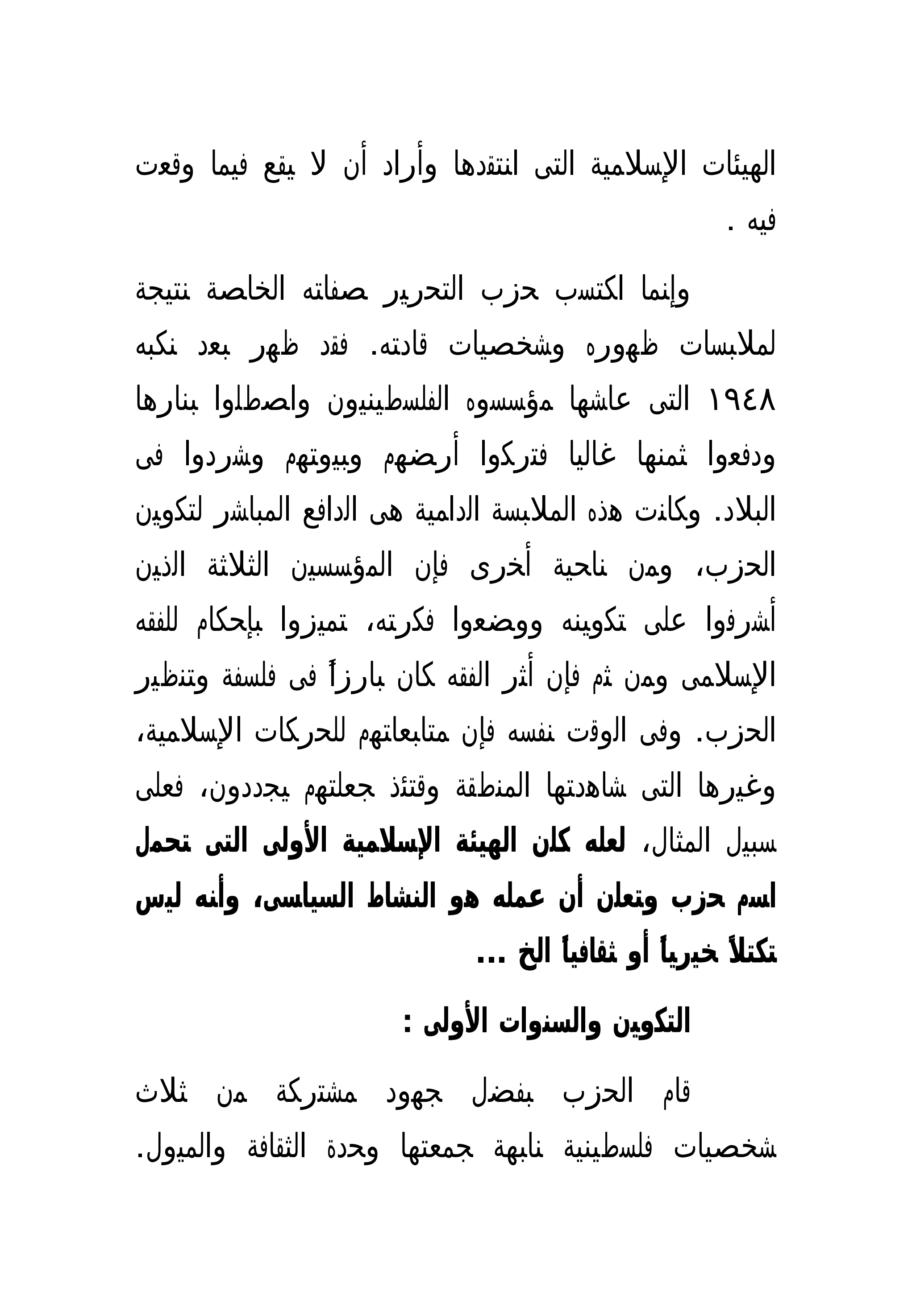


وطويت صفحة "جماعة التكفير المسلمين" التى رأت أنها دون بقية الهيئات هى التى تمثل "الإسلام"، ويغلب أن تكون كل هذه الهيئات أقرب منها إلى الإسلام .

- ٢ -

حزب التحرير

لا يعرف الجيل المعاصر شيئاً كثيراً عن حزب التحرير، وربما ترامى إلى سمعه ما قد تتناقله الصحف بين حين وآخر، من إشارات عنه. معظمها، كما هو العهد فيما يختص بالإسلام – مشوهة، والحقيقة أن حزب التحرير كان محاولة جادة لوضع صيغة إسلامية شمولية، للنهضة بالأمة. وقد أراد أن يتعلم من الدعوات الإسلامية السابقة عليه وأن يتفادى أخطاءها، ويبدأ حيث انتهت.. ولكن الإطار السلفى التقليدى الذى ألزم نفسه به كان أقوى من الملكات الإبداعية لمؤسسيه، كما لم يكن من السهل تجاوز الظروف السياسية – زمانا ومكانا – التى أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم وكانت جزءاً رئيسيا من استراتيجية وضعت للمنطقة، وحمتها نظم حاكمة ومصالح مكتسبة عاتية. وعندما أراد الحزب الفنى أن يشق طريقه. وجد هذه الأوضاع كالصخرة فى مواجهته، فحاول أن ينطحها – وانطبق عليه البيت المشهور (كناطح صخرة يوما الخ...) وكان أسوأ مصيراً من



الهيئات الإسلامية التى انتقدها وأراد أن لا يقع فيما وقعت فيه .

وإنما اكتسب حزب التحرير صفاته الخاصة نتيجة لملابسات ظهوره وشخصيات قادته. فقد ظهر بعد نكبه ١٩٤٨ التى عاشها مؤسسوه الفلسطينيون واصطلوا بنارها ودفعوا ثمنها غاليا فتركوا أرضهم وبيوتهم وشردوا فى البلاد. وكانت هذه الملابسة الدامية هى الدافع المباشر لتكوين الحزب، ومن ناحية أخرى فإن المؤسسين الثلاثة الذين أشرفوا على تكوينه ووضعوا فكرته، تميزوا بإحكام للفقه الإسلامى ومن ثم فإن أثر الفقه كان بارزاً فى فلسفة وتنظير الحزب. وفى الوقت نفسه فإن متابعاتهم للحركات الإسلامية، وغيرها التى شاهدتها المنطقة وقتئذ جعلتهم يجددون، فعلى سبيل المثال، **لعله كان الهيئة الإسلامية الأولى التى تحمل اسم حزب وتعلن أن عمله هو النشاط السياسى، وأنه ليس تكتلاً خيرياً أو ثقافياً الخ ...**

التكوين والسنوات الأولى :

قام الحزب بفضل جهود مشتركة من ثلاث شخصيات فلسطينية نابهة جمعتها وحدة الثقافة والميول.

والابتلاء. **هم الشيخ تقى الدين النبهانى والشيخ داود حمدان والأستاذ نمر المصرى .**

وقد عايش هؤلاء الثلاثة الأحداث الجسام التى تعرضت لها المنطقة وقوى التغيير التى تحكمت فيها، فلمسوا آثار الإخوان المسلمين التى كانت بارزة فى فلسطين خلال هذه الفترة وألموا بنقط القوة والضعف فيها. وشاهدوا تعثر الحزب القومى الذى أسسه فى الثلاثينات أنطون سعادة للعمل على تحقيق "الدولة العربية" فى إطار البيئة الجغرافية (سوريا الكبرى) ومحاولته التلفيقية فى إيجاد مكان "للمحمدية" – كما أطلق على الإسلام – فى دولته القومية – ثم شاهدوا ميشيل عفلق وإخوانه – الذين لم يكونوا أفضل من انطون سعادة إلا قليلاً – وهم يكونون على أنقاض الحزب القومى ومن أشلائه حزب البعث، من امشاج عربية واشتراكية وإسلامية لتحقيق الوحدة العربية واكتشف الثلاثة ما فى هذه التكوينات من ضعف أو تلفيق .

وفى دمشق تلاقى "إنقاذ فلسطين" طابعاً أيديولوجيا ولكن مقدماته كانت تنتهى إليه. فالنكبة كانت نتيجة قرن من

التخطيط الإسرائيلى.. والتدهور العربى. وكان لابد لمجابهة ذلك من إقامة أمة ذاك مبدأ يبلور الغاية الواحدة .

وقد وجد الثلاثة أن مبدأ الأمة الواحدة هو "الإسلام" فالمجتمع العربى هو "أمة إسلامية حياة ودستوراً حتى لغير المسلمين من العرب" وبهذا أصبح المطلوب هو توظيف الإسلام للقيام بهذه المهمة التاريخية، بل وتجاوزها إلى دور عالمى مؤثر فى حياة العالم بأسره ..

وفى عام ٥٣ أرسل مؤسسو الحزب أخطارا إلى الحكومة الأردنية "بتأسيسهم حزباً سياسياً" وبين اسمه ومركز إدارته وعنوانه ومقاصده والمفوضين بالتوقيع عنه، وأرفقه بالنظام الأساسى .

وفى ٥٣/٣/٢٢ ردت الحكومة بأن الحزب غير قانونى ومنعت القائمين عليه من أى عمل وبررت ذلك بأن الحزب "يحصر الروابط بين أفراد المملكة برابطة الدين مما يدعو للتفريق بين أبناء الوطن الواحد ويخالف حكم قانون الجمعيات، ويلحق بالوطن أفدح الأضرار..." .

وفى ٥٣/٦/١ رد الحزب بأنه يعتبر نفسه شخصية معنوية، قامت بالفعل ولا تزال قائمة قانوناً، بغض النظر عن عدم إقرار الحكومة لمشروعية الحزب .

وتعرض الحزب لمضايقات الحكومة. وسجن أعضاؤه البارزون أكثر من مرة. ولكنهم اثبتوا شجاعة وتصميماً. واكتسبوا تأييد قطاعات عديدة. واستطاعوا أن يكسبوا لأحد أعضائهم كرسى النيابة عن منطقة طولكرم فى الضفة الغربية ..

ولكن هذه البداية المشرقة، الواعدة بنجاح وإنجاز لم تستمر طويلاً، ومع الستينات بدأ الحزب يتقلص. وتضافرت العوامل الخارجية، والعوامل الداخلية (أى من داخل الحزب) على أن يفقد الحزب جماهيره ويتقوقع فى مجموعات ..

من الناحية الخارجية، فإن كل نظم الحكم فى المنطقة أعلنت عليه حرباً شعواء، وهو نبته صغيرة، وقبل أن يمد جذوره عميقاً فى أرض المنطقة. وكان الحزب يعلن عن هويته الإسلامية بكل قوة، وعن الحل الإسلامى كالحل الوحيد. وعن الطابع السياسى له.. وكان هذا كله يهدد النظم

القائمة، وينذر بزعزعتها إذا سمح له البقاء، فتضافرت كل القوى عليه، وألصقت به الاتهامات المزيفة، وزج بقادته إلى السجون .

على أن حزب التحرير وجد فى الدول الأوربية مجالاً خصباً لبذر دعوته فى مختلف الدول الأوربية مستفيدين من الأوضاع الخاصة بهذه الدول التى تجعلها مهيئاً للإيمان بفكر الحزب .

دعوة حزب التحرير :

كانت الفكرة التى فى ذهن المؤسسين للحزب هى كيف يمكن إنهاض الأمة لكى تجابه التحديات – والتحدى الإسرائيلى أحدها – وتنتصر عليها. وقد انتهى المؤسسون إلى أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا بروح جديدة ترفع الأمة فوق حاضرها التعس ومشاكلها وأوضاعها، وتفجر فيها قوة الإيمان. وبدون ذلك لن تستطيع الانتصار على أعداد أشد قوة وأكثر عدداً، أو اختزال سنوات التخلف أو مجاوزة العقبات والعراقيل .

واستبعد المؤسسون كل أفكار الإصلاح الجزئية (إصلاح الاقتصاد – إصلاح التعليم الخ...) لأن المجتمع كل واحد ولن يمكن النهضة بجانب منه على حدة .

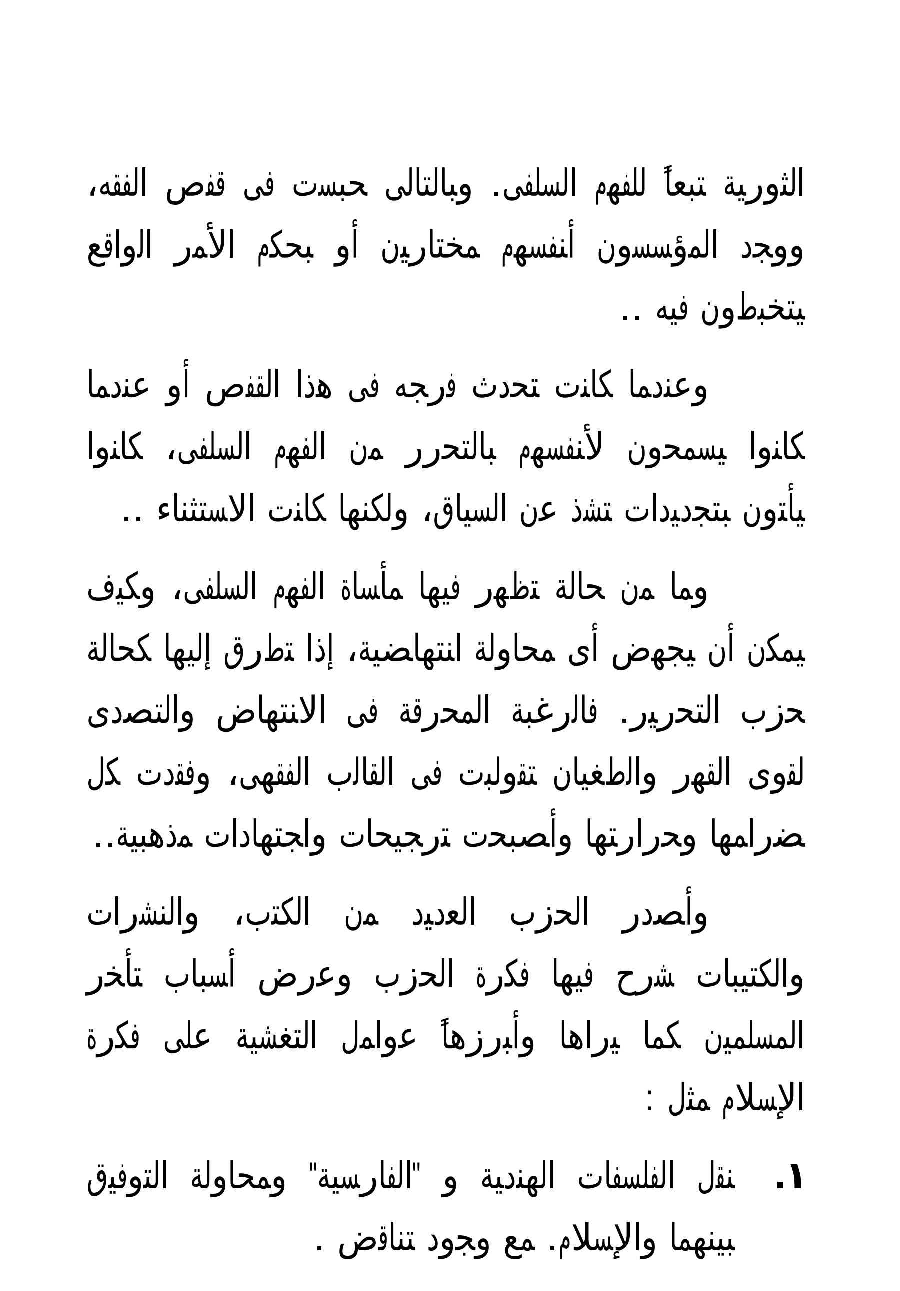
وانتهى المؤسسون أيضاً إلى أن هذه الروح لن تكون سوى – الإسلام فهو "مبدأ الأمة"

ولا تخلو هذه المقدمات والنتائج من سلامة موضوعية، وقد يفضل تشخيص الحزب فيها تشخيص هيئات إسلامية أخرى .

ولكـــن ...

القضية كلها تصبح توظيف الإسلام كروح انتهاضية، روح تغيير وتطوير، روح اكتساح، كتلك التى تملكت المسلمين أيام الخلافة الراشدة وجعلتهم يكتسحون العالم القديم.

كان المفروض أن يجهد المؤسسون أنفسهم ليقدموا الإسلام ثورياً، انتهاضياً، ولكنهم قدموا الإسلام فقهياً سلفياً. فالثقافة الفقهية المتغلغلة فى نفوسهم والروح السلفية التى هيمنت عليهم بحكم دراساتهم فى الأزهر، جعلت أرادتهم



الثورية تبعاً للفهم السلفى. وبالتالى حبست فى قفص الفقه، ووجد المؤسسون أنفسهم مختارين أو بحكم الأمر الواقع يتخبطون فيه ..

وعندما كانت تحدث فرجه فى هذا القفص أو عندما كانوا يسمحون لأنفسهم بالتحرر من الفهم السلفى، كانوا يأتون بتجديدات تشذ عن السياق، ولكنها كانت الاستثناء ..

وما من حالة تظهر فيها مأساة الفهم السلفى، وكيف يمكن أن يجهض أى محاولة انتهاضية، إذا تطرق إليها كحالة حزب التحرير. فالرغبة المحرقة فى الانتهاض والتصدى لقوى القهر والطغيان تقولبت فى القالب الفقهى، وفقدت كل ضرامها وحرارتها وأصبحت ترجيحات واجتهادات مذهبية..

وأصدر الحزب العديد من الكتب، والنشرات والكتيبات شرح فيها فكرة الحزب وعرض أسباب تأخر المسلمين كما يراها وأبرزهاً عوامل التغشية على فكرة الإسلام مثل :

١. نقل الفلسفات الهندية و "الفارسية" ومحاولة التوفيق بينهما والإسلام. مع وجود تناقض .

٢. دس الحاقدين على الإسلام أفكاراً وأحكاماً ليست منه لتشويهه .

٣. إهمال اللغة العربية التى لا يفْهم الإسلام إلا بها .

٤. الغزو التبشيرى والثقافى والسياسى من الدول القومية الكافرة ..

ويشير الحزب إلى المحاولات والحركات التى أريد بها **إنهاض المسامين وإخفاقها، ويعيد سبب الإخفاق إلى :**

١) عدم فهم الفكرة الإسلامية من قبل القائمين على إنهاض المسلمين فهما دقيقاً لتأثرهم بعوامل التغشية، وكانوا يدعون إلى الإسلام بشكل عام مفتوح، دون تحديد للأفكار والأحكام التى يريدون إنهاض المسلمين، ومعالجة مشاكلهم بها، وتطبيقا، لعدم وضوح هذه الأفكار والأحكام فى أذهانهم، وجعلوا الواقع مصدراً لتفكيرهم، يستمدون منه تفكيرهم، وحاولوا أن يؤولوا الإسلام ويفسروه بما لا تحتمله نصوصه حتى يتفق مع الواقع القائم، مع أنه مناقض للإسلام، ولم يجعلوا الواقع موضع تفكيرهم، ليغيروه حسب الإسلام وأحكامه .

لذلك نادوا بالحريات والديمقراطيات، وبالنظام الرأسمالى والاشتراكى، واعتبروه من الإسلام، مع أنها تتناقض مع الإسلام تناقضاً كلياً .

٢) عدم وضوح طريقة الإسلام لديهم فى تنفيذ فكرة الإسلام وأحكامه وضوحاً تاماً، فحملوا الفكرة الإسلامية بوسائل مرتجلة، وبشكل يكتنفه الغموض وصاروا يرون أن دعوة الإسلام تكون ببناء المساجد وإصدار المؤلفات، أو بإقامة الجمعيات الخيرية والتعاونية، أو بالتربية الخلقية وإصلاح الأفراد، غافلين عن فساد المجتمع، وسيطرة أفكار الكفر وأحكامه وأنظمته عليه، **ظانين أن إصلاح المجتمع يكون بإصلاح أفراده، مع أن إصلاح المجتمع إنما يكون بإصلاح أفكاره ومشاعره وأنظمته وإصلاحها سيؤدى إلى إصلاح أفراده، فالمجتمع ليس أفراداً فقط، وإنما هو أفراد وعلاقات، أى أفراد وأفكار ومشاعر وأنظمة، كما عمل رسول ا ﷺ لتغيير المجتمع الجاهلى إلى مجتمع إسلامى، إذ أخذ يعمل على تغيير العقائد الموجودة بأفكار العقيدة الإسلامية، وعلى تغيير الأفكار والمفاهيم والعادات الجاهلية بأفكار**

الإسلام ومفاهيمه وأحكامه، ومن ثم تغيير مشاعر الناس من الارتباط بعقائد الجاهلية وأفكارها وعاداتها، إلى الارتباط بالعقيدة الإسلامية، وأفكار الإسلام وأحكامه .

وواسطة العقد فى أهداف الحزب هى الخلافة وإعادة الخلافة هى الهم الأعظم وهو يرى أنه ما أن تعود الخلافة حتى يصلح كل شىء .

الديمقراطية الرأسمالية :

هى مبدأ الدولة الغربية وأمريكا وهى مبدأ فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن الحياة، "دع ما لقيصر لقيصر وما " وبناء على ذلك كان الإنسان هو الذى يضع نظامه فى الحياة .

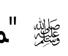
وهذا المبدأ هو مبدأ يتناقض مع الإسلام لأن ا هو المشرع .

وهو وحده الذى وضع النظام للبشر، وجعل الدولة جزءاً من أحكام الإسلام، وأوجب أن تعالج جميع شؤون الحياة بالأحكام الشرعية التى أنزلها. لذلك يحرم على

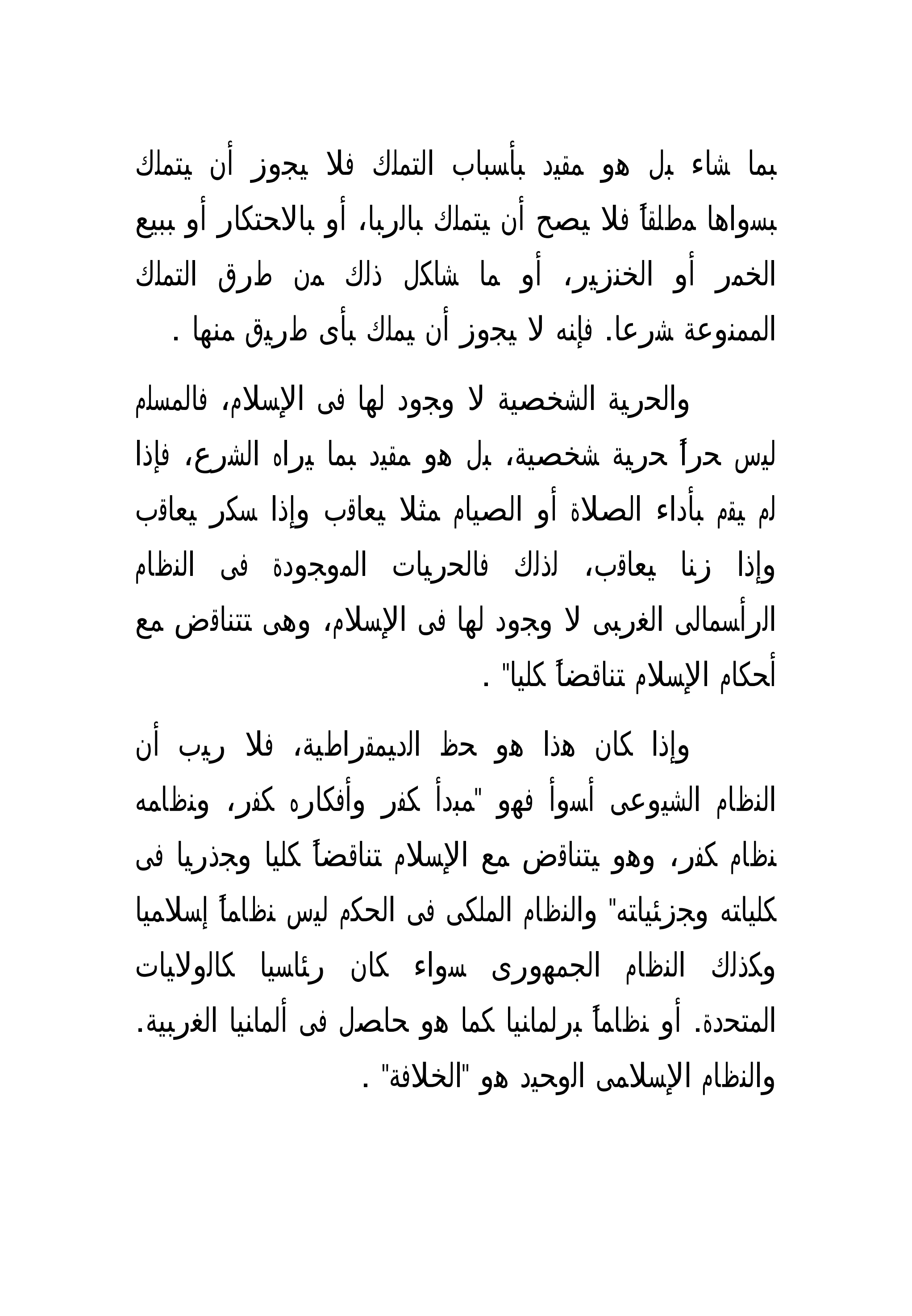
المسلمين أن يعتنقوا المبدأ الرأسمالى أو أن يأخذوا أفكاره أو أنظمته، لأنه مبدأ كفر، وأفكاره كفر، وأنظمته أنظمة كفر تتناقض مع الإسلام .

رأى الإسلام فى الحريات :

ومن أبرز أفكار المبدأ الرأسمالى وجوب المحافظة على الحريات للإنسان، وهذه الحريات هى حرية العقيدة، وحرية الرأى، وحرية الملكية، والحرية الشخصية. وقد نتج عن حرية التملك النظام الاقتصادى الرأسمالى المبنى على النفعية، التى أدت إلى الاحتكارات الضخمة، والتى دفعت الدول الغربية الكافرة إلى استعمار الشعوب ونهب ثرواتها .

وهذه الحريات الأربع العامة تتناقض مع أحكام الإسلام، فالمسلم ليس حرا فى عقيدته فإنه إذا ارتد يستتاب فإن لم يرجع يقتل، قال  "من بدل دينه فاقتلوه"، والمسلم ليس حراً فى رأيه، فما يراه الإسلام يجب أن يراه، ولا يجوز أن يكون للمسلم رأى غير رأى الإسلام .

والمسلم ليس حراً فى الملك، ولا يصح له أن يتملك إلا ضمن أسباب التملك الشرعية، فليس حراً أن يملك ما شاء



بما شاء بل هو مقيد بأسباب التملك فلا يجوز أن يتملك بسواها مطلقاً فلا يصح أن يتملك بالربا، أو بالاحتكار أو ببيع الخمر أو الخنزير، أو ما شاكل ذلك من طرق التملك الممنوعة شرعا. فإنه لا يجوز أن يملك بأى طريق منها .

والحرية الشخصية لا وجود لها فى الإسلام، فالمسلم ليس حراً حرية شخصية، بل هو مقيد بما يراه الشرع، فإذا لم يقم بأداء الصلاة أو الصيام مثلا يعاقب وإذا سكر يعاقب وإذا زنا يعاقب، لذلك فالحريات الموجودة فى النظام الرأسمالى الغربى لا وجود لها فى الإسلام، وهى تتناقض مع أحكام الإسلام تناقضاً كليا" .

وإذا كان هذا هو حظ الديمقراطية، فلا ريب أن النظام الشيوعى أسوأ فهو "مبدأ كفر وأفكاره كفر، ونظامه نظام كفر، وهو يتناقض مع الإسلام تناقضاً كليا وجذريا فى كلياته وجزئياته" والنظام الملكى فى الحكم ليس نظاماً إسلاميا وكذلك النظام الجمهورى سواء كان رئاسيا كالولايات المتحدة. أو نظاماً برلمانيا كما هو حاصل فى ألمانيا الغربية. والنظام الإسلامى الوحيد هو "الخلافة" .

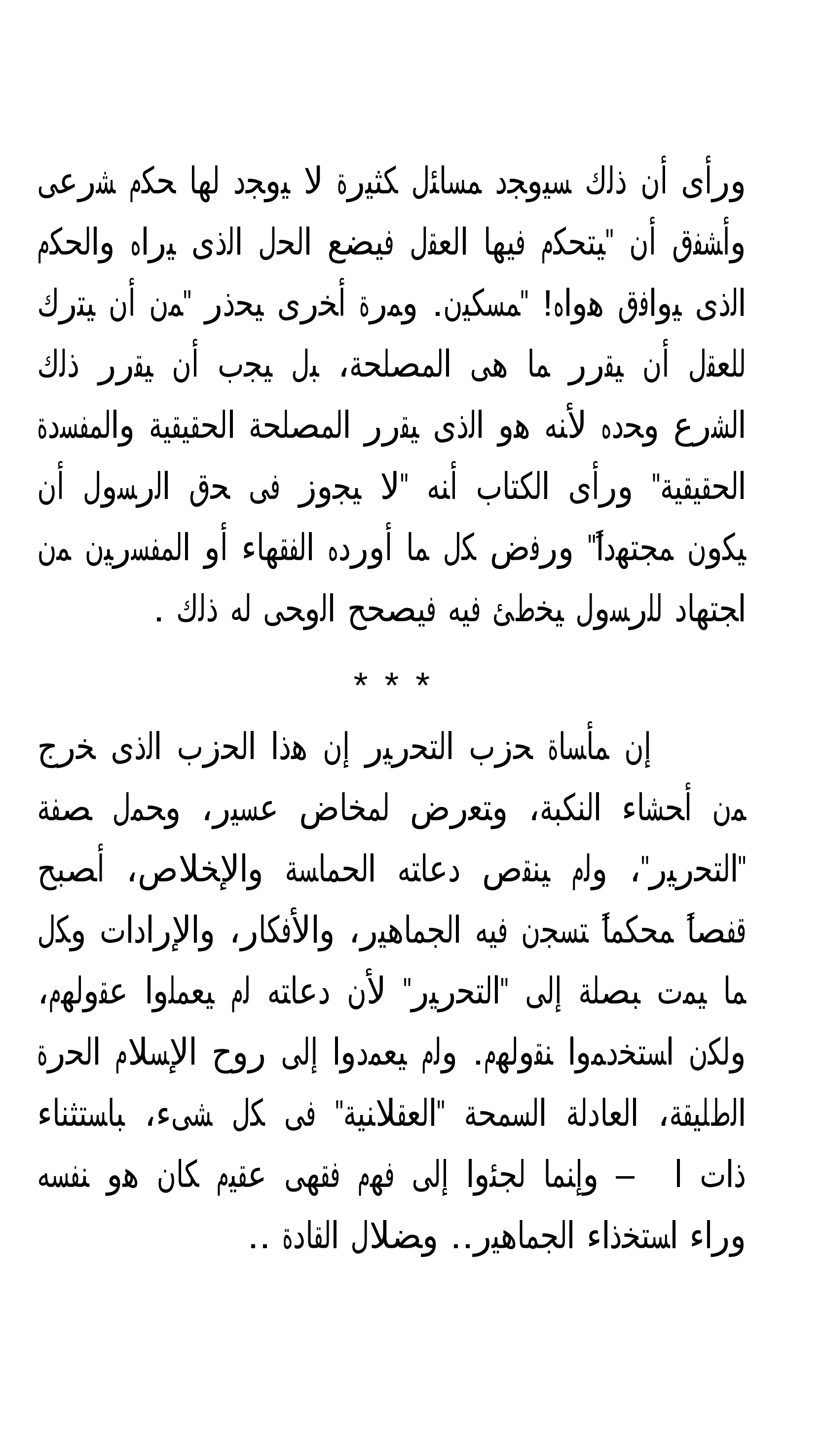
ولا يخالجنا شك أن هذه ليست أحكام الإسلام، ولكنها أحكام الغباء وضيق الأفهم وسوء الفهم، وهى تسىء إلى الإسلام أكثر مما يسىء إليه أشد أعدائه .

وكقاعدة عامة. فإن الحزب أما أن يتبع – تباعاً لأعمى ودون ملاحظة للملابسات – أى نص يثبت لديه، سواء كان حديثاً، أو حكما فقهياً أو أن يجتهد فيما وراء ذلك واجتهاده يميل للتعسف، والتضييق، باستثناء فلتات سنشير إلى بعضها فيما سيلى، وقد وضع عام ٦٣ شرحاً لمواد الدستور بعنوان "مقدمة الدستور – أو الأسباب الموجبة له" فى ٤٥٧ صفحة (المواد ١٨٢ مادة) نجد فيه لكل مادة سنداً من حديث أو سابقة من أحكام الخلفاء الراشدين، دون أى نظر إلى متغيرات – ودون أى احتفال بإظهار المبرر الموضوعى وما فيه من دواع تقتضيه الخ ...

ومن الفلتات التى تشذ عن هذا الحكم مناقشة طويلة لتحريم كنز المادة ١٣٠ ولو أديت زكاته، وكذلك تحريم موآجرة الأرض المادة ١٢٣، وفتح باب التعليم للجميع "ويفتح مجال التعليم العالى مجانا للجميع بأقصى ما تيسر من إمكانيات (مادة ١٦٥). وقد اعترف الدستور بالقرآن والسنة

وإجماع الصحابة واستبعد القياس من أن يكون مصدراً للأحكام ورفض إجماع المسلمين، وجلب المصالح ودرأ المفاسد ورفض العقل لأن الكلام هو عن الحكم الشرعى أى ما غلب على الظن أنه حكم ا ، وهو لا يكون إلا مما جاء به الوحى والعقل لم يأت به الوحى ولذلك لا بوجد دليل لا ظنى، ولا منطقى على أن العقل من الأدلة الشرعية على الأحكام الشرعية فلا يعتبر من الأدلة الشرعية مطلقاً. ص٥٧ مقدمة الدستور وكذلك رفض الاستحسان والمصالح المرسلة.. وقد اثبت هذا كله بحرارة وقوة وبطريقة توحى أن ما ذهب إليه هو الصواب الذى لا مراء فيه !! .

ورأى كتاب "الفكر الإسلامى" وهو من تأليف أستاذ مصرى فى الجامعة المصرية، ولكنه من كتب الحزب. أن الرأى الذى يستنبطه المجتهد حكم شرعى على أساس أن الحكم الشرعى هو الرأى الذى يؤخذ من النص، وهو الذى يعتبر خطاب الشارع ومن هنا كان رأى المجتهد خطاباً شرعيا ما دام يستند فيه إلى الكتاب والسنة، أو إلى ما دل عليه الكتاب والسنة من الأدلة الشرعية. وندد الكتاب بالذين يدعون أن الحكم الشرعى هو نص القرآن أو الحديث فقط.


ورأى أن ذلك سيوجد مسائل كثيرة لا يوجد لها حكم شرعى وأشفق أن "يتحكم فيها العقل فيضع الحل الذى يراه والحكم الذى يوافق هواه! "مسكين. ومرة أخرى يحذر "من أن يترك للعقل أن يقرر ما هى المصلحة، بل يجب أن يقرر ذلك الشرع وحده لأنه هو الذى يقرر المصلحة الحقيقية والمفسدة الحقيقية" ورأى الكتاب أنه "لا يجوز فى حق الرسول أن يكون مجتهداً" ورفض كل ما أورده الفقهاء أو المفسرين من اجتهاد للرسول يخطئ فيه فيصحح الوحى له ذلك .

* * *

إن مأساة حزب التحرير إن هذا الحزب الذى خرج من أحشاء النكبة، وتعرض لمخاض عسير، وحمل صفة "التحرير"، ولم ينقص دعاته الحماسة والإخلاص، أصبح قفصاً محكماً تسجن فيه الجماهير، والأفكار، والإرادات وكل ما يمت بصلة إلى "التحرير" لأن دعاته لم يعملوا عقولهم، ولكن استخدموا نقولهم. ولم يعمدوا إلى روح الإسلام الحرة الطليقة، العادلة السمحة "العقلانية" فى كل شىء، باستثناء ذات ا – وإنما لجئوا إلى فهم فقهى عقيم كان هو نفسه وراء استخذاء الجماهير.. وضلال القادة ..

ومع أن الحزب كان من الذكاء بحيث يستبعد فكرة العمل "الإرهابى" أو "الجهادى" من وسائله، قياساً على أنه يعمل فى "عهد ملكى" فإن هذا لم يشفع له فى البقاء. فحله كان محتوماً، وكان خيراً أيضاً، فإن حزباً يستبعد العقل من تفكيره الشرعى، عدمه خير من وجوده .

ولكن يظل مع هذا أن المشكلات التى أثارها لا تزال هى مشكلات الساحة والساعة وأن الحلول التى عرضها تراود البعض لأنها، على خطأ معظمها. لم تعالج المعالجة الموضوعية من الآخرين. فقد انتقد كتيب[1] ما ذهب إليه حزب التحرير عندما أباح تقبيل المرأة الأجنبية ومصافحتها.. فبدلاً من أن يظهر الخطأ الموضوعى فى ذلك، فإنه أورد

---

(١) نعنى به كتيب "الدعوة الإسلامية. فريضة شرعية وضرورة بشرية" ص١١٠ [دار التوزيع والنشر الإسلامية] وفتوى ابن تيميه مقتبسه من "منار السبيل فى شرح الدليل على ما ذهب أحمد ١٤٢/٢. أما فتوى حزب التحرير فكان نصها "ومن قبل قادماً من سفر رجلاً كان أو امرأة، أو صافح أحداً رجلاً كان أو امرأة، ولم يقم بهذا العمل من أجل الوصول إلى الزنا أو اللواط فإن هذا التقبيل وهذه المصافحة ليسا حراماً، ولذلك كانا حالين لا شىء فيهما" وجاء فى تبرير ذلك "الدخول تحت عموميات الأدلة لأفعال الإنسان العادية" ..

للرد عليه كلمة ابن تيميه. **"من استحل النظر فقد كفر بالإجماع!!"** فعرض صورة أخرى من صور الشطط، ووجهاً ثانياً للعملة نفسها.. فقد يكون اجتهاد حزب التحرير خطأ. ولكن اجتهاد ابن تيميه أسوأ ويفتح باباً للشرور أشنع مما يمكن أن يفتحه خطأ حزب التحرير.. فما أسوأ أن نفتح أبواب محكمة التكفير، على مصراعيه ولكل صغيرة وكبيرة!.

- ٣ -

جماعات الجهاد
وكتاب "الفريضة الغائبة"

اشتهرت جماعة الجهاد عندما نجح خالد الاسلامبولى وزملاؤه فى اغتيال السادات رحمه ا وسط حرسه وفى إحدى مناسبات الاحتفال واستعراض القوة .

وبقدر ما رزق هذا الحدث من إذاعة ونشر لما اتسم به من جرأة وشجاعة و"دراماتيكية"، ولما انتهى إليه من مصرع "آخر فراعنة مصر" وصاحب "الصدمات والتحولات" الخ... بقدر ما ذاع وانتشر الحديث عن جماعة الجهاد .

وسالت أنهار الصحف أحاديث بعد أحاديث عن هذه الجماعة وشيخها الكفيف عمر عبد الرحمن وكتابها الغامض: "الفريضة الغائبة" الذى اعتبر وثيقة إعدام السادات ووضعه المهندس محمد عبد السلام فرج .

ولم يرزق كتاب "الفريضة الغائبة" انتشارا أو ذيوعاً لأن الجماعة نفسها أحرقت نسخ الكتاب، ولم يبق منه إلا

نسخ معدودة، ضمت إحداها إلى أوراق التحقيق فى قضية اغتيال السادات ..

وتمكن بذلك المحامون من الإطلاع عليه .

وقدمت إلينا إحدى دور النشر صورة الكتاب المأخوذة من أوراق التحقيق. وطلبت أن نعلق عليها ونشرته فى كتاب باسم "الفريضة الغائبة جهاد السيف أم جهاد العقل"[(١)] .

وتعرض تعليقنا عندما طبع لمضايقات، أدت إلى حذف الكثير منه، وظهرت أثار ذلك فى عدم انتظام السياق، وما تخلل الصفحات من بياض ..

وقلنا فى مقدمة الكتاب :

"غفر ا لصاحب "الفريضة الغائبة" لقد أحاطت به وتحكمت فيه فتنة يضل فيها العليم، ويضيق بها الحليم، وتنبهم فيها المعالم، وتنمحى المراسم.. فلا عجب إذا زلت الأقلام وطاشت الأحلام .

---

(١) دار ثابت بالقاهرة .

ومن قبل قتل لفيف من المسلمين "عثمان" وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وكفروا عليا، وهو من هو، وتقربوا إلى ا بدمه ! ..

وقد كان العهد قريباً بالنبى ﷺ والقرآن غضا طريا والألفة والمحبة أقرب إليهم وأمثل بهم ..

ومن أجل هذا فإننا كرجال فكر نتصفح التاريخ، ونستعرض الأحداث فى القديم والحديث لا نرى فيما رآه صاحب الفريضة الغائبة، وما انتهى إليه إلا فصلاً من مأساة التعقيد الاجتماعى عندما تتراكم الأخطاء، وتتشابك التصرفات من حل سقيم أو إرجاء عقيم .

ولا يعد هناك إلا القطع ..

ونحن نعذره، ونلتمس له المغفرة، ولا نرى فيما ذهب إليه فكره – على خطئه – شراً محضاً، ولا فى سبيله – على شططه – سوءا خالصاً .

وإن كنا نختلف معه جملة وتفصيلاً، ونؤمن أنه لو قدر له ولجماعته النصر لاستحلوا دماء كل معارض،

ولأخرسوا أصوات كل مخالف ولما رأوا فيه إلا فاجراً كفاراً.

ولكننا نستلهم الإسلام وتوجيهه: "صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك" .

كما نؤمن بحرية الفكر، وحق كل كاتب فى أن يكتب ما يمليه فكره كائنا ما كان". انتهى ..

وليس فى كتاب الفريضة الغائبة إلا القليل جدا الذى يعد جديداً على فكر جماعات الرفض فهو يضم – تقريباً – مقدمة وثلاثة فصول ..

ففى المقدمة يشير الكتاب إلى أهمية الجهاد وأنه: "السبيل الوحيد لعودة ورفع صرح الإسلام من جديد" وأن: "طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف" وأن الإسلام مقبل، وأنه سيفتح روما كما فتح القسطنطينية" .

وتبدأ الفصول وهى باختصار :

الفصل الأول :

يعالج الفصل الأول "إقامة الدولة الإسلامية" وهذه الإقامة "فرض أنكره بعض المسلمين وتغافل عنه البعض"

والكتاب يثبت وجوب إقامتها بأن الدولة الإسلامية هى أداة الحكم بما أنزل ا   وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولا خلاف أن الحكم بما أنزل ا   واجب ..

ويرى الكاتب أن إعلان الخلافة الإسلامية يعتمد على وجود النواة وهى الدولة الإسلامية. ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية .

ويتساءل الكاتب "هل نحن نعيش فى دولة إسلامية" ويرد بفتوى للإمام أبى حنيفة وبعض أصحابه حول دار الإسلام ودار الكفر، ويجزم بأن "الأحكام التى تعلو المسلمين هى أحكام الكفر، وضعها كفار وسيروا عليها المسلمين" وأن حكام المسلمين فى ردة عن الإسلام "لأنهم تربوا على موائد الاستعمار سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية، فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء، وإن صلوا وصاموا وأدعو أنهم مسلمون وقد استقرت السنة على أن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلى. وأن علماء المسلمين قد اتفقوا على أن الطائفة إن امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها إذا تكلموا بالشهادتين

وامتنعوا عن الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق.." .

ويجرى الكاتب مقارنة بين التتار وحكام اليوم يستشهد فيها بكلام لابن تيمية فى هذا الصدد. بل هو يورد مجموعة فتاوى لابن تيمية فى هذا العصر" تتضمن حكم مساعدتهم، وحكم الجنود المسلمين الذين يرفضون الخدمة فى جيش التتار، وحكم أموالهم، وحكم قتالهم، وأن قتالهم ليس قتال بغى وحكم من والاهم من المسلمين، وحكم من يخرج للقتال فى صفهم مكرهاً الخ ...

الفصل الثانى :

يعرض الفصل الثانى "آراء وأهواء" بعض الآراء "لإزالة هؤلاء الحكام وإقامة حكم ا " ويفندها، فهناك من يرى إقامة الجمعيات الخيرية، أو يفضل الانشغال بالطاعة والتربية وكثرة العبادة، أو إنشاء حزب إسلامى، أو الاجتهاد للحصول على المناصب بحيث تملأ المراكز بالطبيب المسلم والمهندس المسلم الخ... ومنهم من يقول إن الطريق لإقامة الدولة هى الدعوة فقط وإقامة قاعدة عريضة، وهناك من يرى الهجرة أو الانشغال بطلب العلم ..

والكاتب يفند هذه المذاهب كلها بمختلف التأويلات .

الفصل الثالث :

يدلل الفصل الثالث على أن "أمة الإسلام تختلف عن الأمم الأخرى فى أمر القتال" ومفتاح الفصل أن "هذه الأمة تختلف عن الأمم الأخرى فى أمر القتال. ففى الأمم السابقة كان ا سبحانه وتعالى ينزل عذابه على الكفار. وأعداء دينه بالسنن الكونية، كالخسف والغرق والصيحة والريح. وهذا الوضع يختلف مع أمة محمد ﷺ. فا سبحانه وتعالى يخاطبهم قائلاً لهم ﴿قَاتِلُوهم يعذبهم الله بِأَيدِيكُم ويخْزِهِم وينْصركُم علَيهم ويشْفِ صدور قَومٍ مؤْمِنين﴾. {١٤ التوبة} أى أنه على المسلم أولاً أن ينفذ الأمر بالقتال بيده، ثم بعد ذلك يتدخل ا سبحانه وتعالى بالسنن الكونية، وبذلك يتحقق النصر على أيدى المؤمنين من عند ا سبحانه وتعالى .

وبصدد تفصيل ذلك. يشير الكتاب إلى "الخروج على الحاكم" وهو يستشهد بما ذهب إليه ابن تيمية "كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين". ثم يناقش الفصل نقطة هامة هى "التفرقة بين العدو القريب

والعدو البعيد" – وبعبارة أخرى أيهما أولى بأن توجه إليه الحرب أولاً الاستعمار.. أو الذين يحكمون بغير ما أنزل ا ؟ وهو يرى الثانى. ويرد الفصل على من يقول "إن الجهاد فى الإسلام للدفاع فقط" وإن الإسلام لم ينتشر بالسيف ويرى أنه "قول باطل" ويستدل على ذلك بخطابات النبى ﷺ إلى الملوك وكذلك بآية السيف التى نسخت ١١٤ آية من آيات الموادعة والصفح والسماح .

ويفند الفصل بعض الدعاوى التى تثبط عن القتال كدعوى أننا نعيش فى مجتمع مكى، ويرى أن "القتال الآن فرض على كل مسلم" وأن الجهاد مراتب وليس مراحل. أما خشية الفشل فإن ا تعالى يعدنا بالنصر وإدعاء عدم وجود القيادة يستدرك بأن توكل إلى الأحسن إسلاماً ..

* * *

من هذا العرض لكتاب "الفريضة الغائبة" يتضح أنه ليس فيه جديد عن مفهوم جماعات الرافضة الجديدة ..

فهو – مثلاً – يهيم بالخلافة ويرى أنها ركن من أركان الإسلام. "فمن مات وليس فى عنقه بيعه مات ميته جاهلية" .

والكتاب يكفر المجتمع الحديث كبقية جماعات الرفض ..

ويرفض صور العمل الإسلامى البديلة كإقامة الجمعيات الخيرية، أو التربية الخ...

وهذا ما انتهى إليه قبلهم حزب التحرير، وأشرنا إليه..

وربما كان الجديد فى الفريضة الغائبة هو تعميق قضية "الخروج" على الحاكم، وأن "الحكام المسلمين أولى بالقتال من المستعمرين" .

ولا يتسع المجال لتفنيد هذه الدعاوى، فهذا ما قمنا به فى الكتاب، وحسبنا الإشارة إلى النقطة الرئيسية فى جماعات الجهاد وهى "الجهاد" .

فحتى لو قصرنا التعبير على أضيق معانيه وهو "القتال" ..

فهل يتصور استخدام القتال للقضاء على الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله! .

هل سيمكن لأى هيئة أن تؤسس جيشا كجيش الدولة فيه دبابات ومدافع وطائرات ؟! .

أو هل سيأخذ القتال شكل الاغتيالات ؟ ..

إن أى دارس لتاريخ الحركات السياسية يتبين استحالة تكوين جيش.. ويتبين كذلك عقم أسلوب الاغتيالات..

"فالقتال" لا يجدى كأسلوب فى اقتلاع الحكام البغاة ..

وإذا أرادوا أن يتجهوا بقتالهم نحو الكفرة، وأن يفتحوا روما ..

فهل سيمكنهم تحقيق الانتصار بالسيف فى عصر الصواريخ والطائرات الخ... إذا أرادوا حقا الانتصار فعليهم أن يدرسوا "التكنولوجيا" الحديثة، وأن يعكفوا عليها ..

وأن يعلموا أن النصوص وحدها والعكوف عليها دون العمل لن تفيدهم فتيلاً، وإنما تفيدهم علوم واكتشافات الأوربيين والأمريكان الكفرة وأهل الجاهلية .

* * *

مع إن هذه الكلمات المحدودة تكفى لنسف فكر جماعة الجهاد، فإن الجماعة واصلت البقاء! ..

واكتسب شيخها (الشيخ عمر عبد الرحمن) الذى أفلت من قضية اغتيال السادات شهرة مدوية ..

لأن العملية عملية مناخ يتغذى على الأخطاء ..

ولأن فساد النظم لا يقل عن فساد الأفكار ..

وما ظلت النظم الحاكمة الفاسدة، تتسلح بالإرهاب والديكتاتورية فستظهر أمثال دعوات الرفض على اختلاف صورها ..

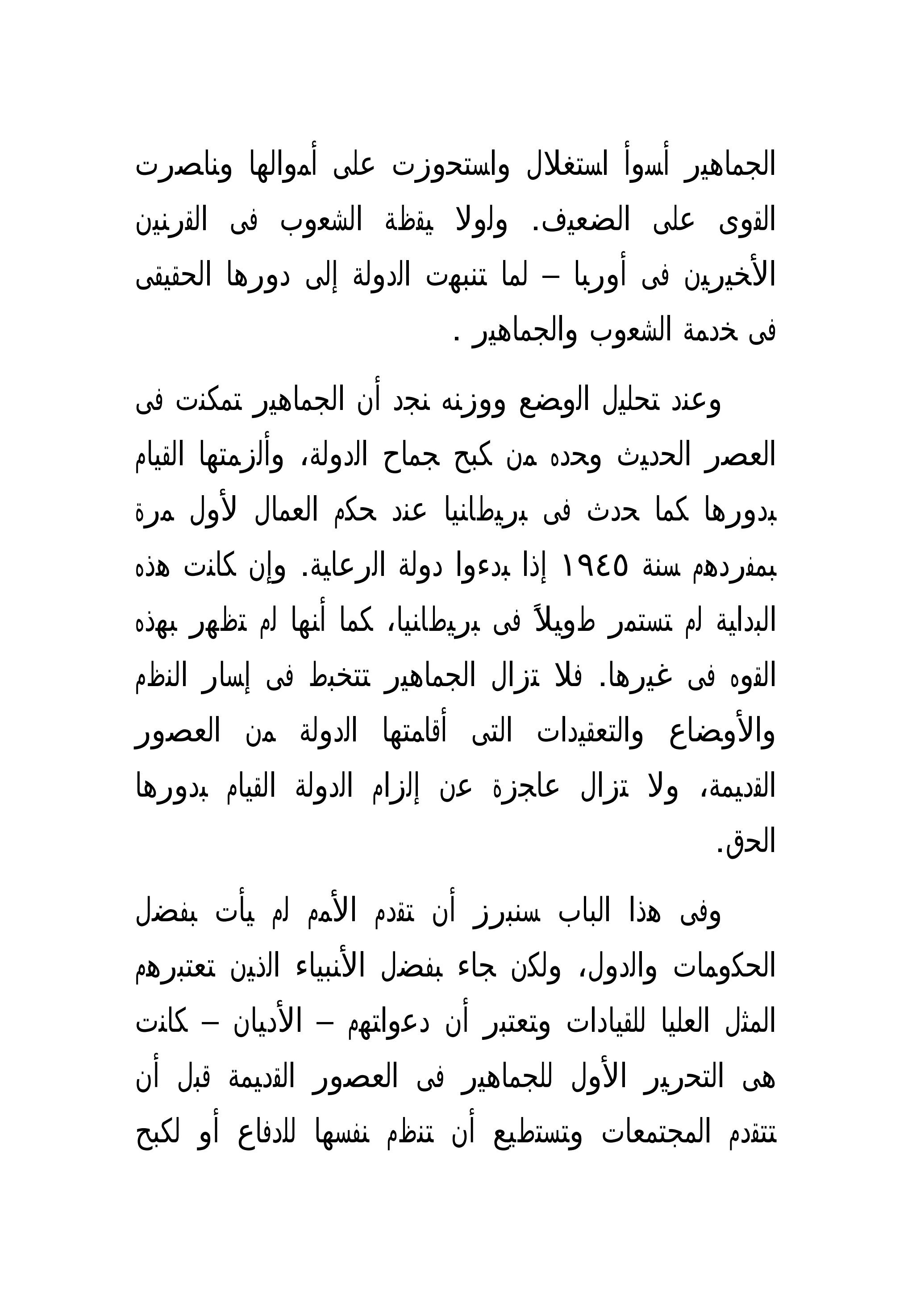
رغم ما تتسم به من بطلان ..

لأنها رد فعل للفساد، والفساد لا يولد إلا فساداً ..

الباب الرابع
إنما تتقدم الأمم بفضل الأنبياء
والحركات الشعبية والجماعات والعلماء

أوضحنا فى الصفحات السابقة كيف أن السلطة أفسدت سياسات أعمال الدول. وأن الدولة التى يفترض أن تكون خادمة للأمة أصبحت هى سيدة الأمة التى تتحكم فيها. وبدلاً من أن تجبى الضرائب لتقدم الخدمات من صحة، وتعليم، وأبحاث، فإنها تجبى الضرائب لتدعيم الجيش ومضاعفة البوليس وبناء السجون وإقامة نظم مخابرات وتجسس بحجة حماية الأمن الداخلى ..

ولاحظنا أن دور الدولة حتى مشارف العصر الحديث اقتصر على شن الحروب لضم المزيد من الأراضى إذا كان على رأسها ملوك أو قادة عسكريين، أو لضم الأسواق إذا سيطر عليها الرأسماليون. وفى جميع الحالات فإن الشعوب لم تجن من هذه الحروب إلا سفك دماء شبابها وتشويه جزء كبير من شعبها بالعاهات التى تحدثتها الحروب، فضلاً عن دمار البيوت وفساد المحاصيل الخ... وما أكثر ما استغلت



الجماهير أسوأ استغلال واستحوزت على أموالها وناصرت القوى على الضعيف. ولولا يقظة الشعوب فى القرنين الأخيرين فى أوربا – لما تنبهت الدولة إلى دورها الحقيقى فى خدمة الشعوب والجماهير .

وعند تحليل الوضع ووزنه نجد أن الجماهير تمكنت فى العصر الحديث وحده من كبح جماح الدولة، وألزمتها القيام بدورها كما حدث فى بريطانيا عند حكم العمال لأول مرة بمفردهم سنة ١٩٤٥ إذا بدءوا دولة الرعاية. وإن كانت هذه البداية لم تستمر طويلاً فى بريطانيا، كما أنها لم تظهر بهذه القوه فى غيرها. فلا تزال الجماهير تتخبط فى إسار النظم والأوضاع والتعقيدات التى أقامتها الدولة من العصور القديمة، ولا تزال عاجزة عن إلزام الدولة القيام بدورها الحق.

وفى هذا الباب سنبرز أن تقدم الأمم لم يأت بفضل الحكومات والدول، ولكن جاء بفضل الأنبياء الذين تعتبرهم المثل العليا للقيادات وتعتبر أن دعواتهم – الأديان – كانت هى التحرير الأول للجماهير فى العصور القديمة قبل أن تتقدم المجتمعات وتستطيع أن تنظم نفسها للدفاع أو لكبح

جماح الحكومات ويجلى هذا الفضل ذلك كما لو كان أمراً جديداً، مع أنه هو أقدم الظواهر فى تاريخ المجتمعات القديمة، ولكن اقتصار الكتابات عن الأديان على الجانب العبادى – الفردى – وإغفالها للجانب الاجتماعى – الشورى – جعل إظهار وإبراز هذه الصفحة يبدو شيئاً جديداً.. مع أن شعوب هذه المنطقة تعيش فى عالم الدين.. تأكل وتشرب وتفكر وتقرأ الخ... كما يريد لها الدين .

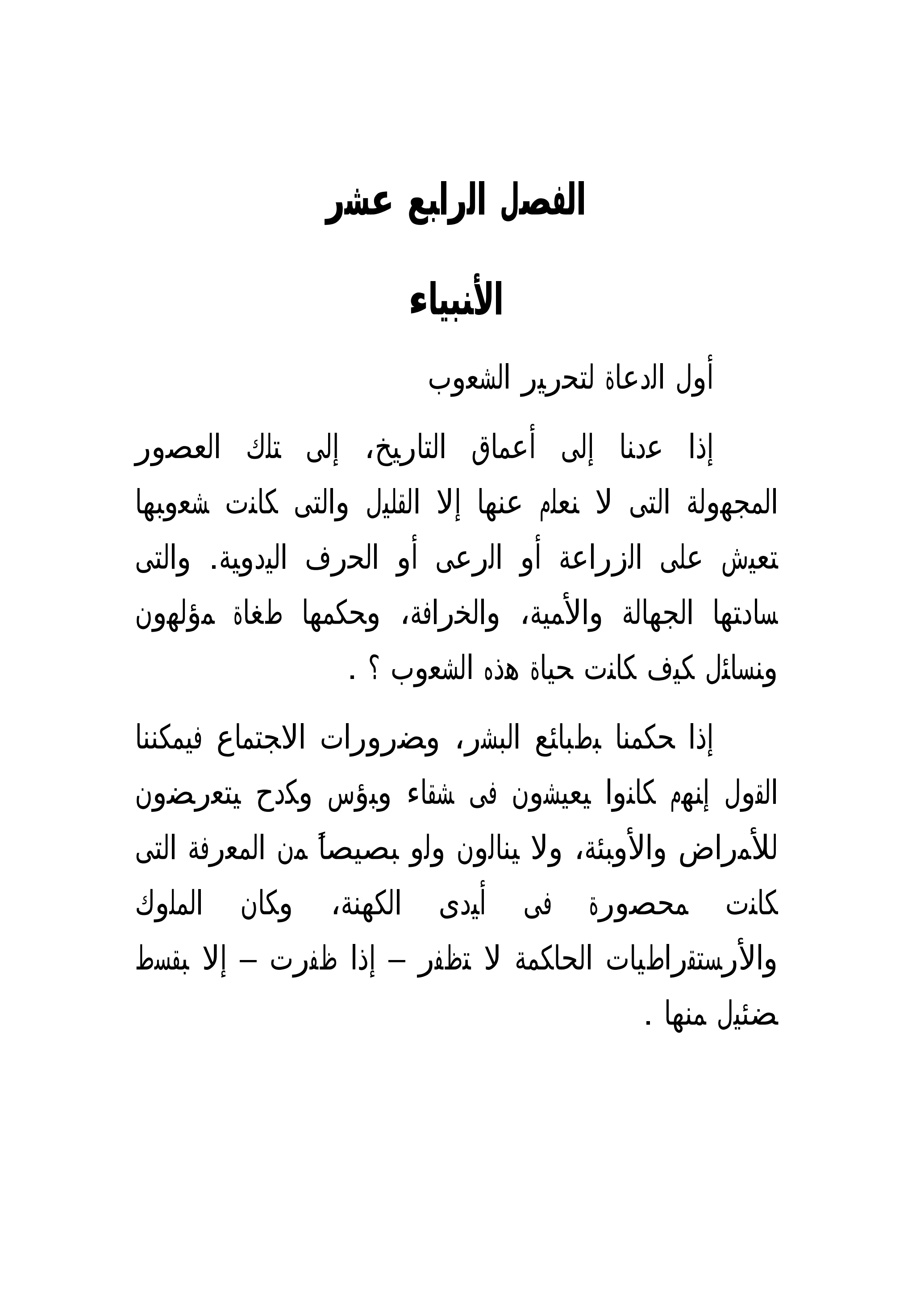
فإذا انتقلنا إلى العصور الحديثة لوجدنا أن توجيه الدولة إلى دورها الحقيقى إنما جاء بدفع الهيئات الشعبية والجماهيرية المتطوعة التى نظمها لفيف من الناس بوحى اهتمامهم بموضوعها وإيمانهم بالفكرة فيها سواء كان ذلك عن تعميم التعليم أو العناية بالصحة العامة والتأمين من المرض أو إصلاح القوانين – مدنية أو جنائية الخ... وقد ضربنا المثل بالحركة النقابية من بين الحركات المدنية والطوعية لأنها أعرق هذه الهيئات ولأنها استطاعت أن تحكم بوسائلها الخاصة نظماً لمعالجة الأجور وساعات العمل والتأمينات الخ... إلى آخر ما يتعلق بالعمل. ثم زحفت بحكم إيمانها الشعبى – على المجال السياسى – فقامت فى بريطانيا

بأول محاولة شعبية جادة وعميقة لإصلاح النظام الانتخابى البريطانى فى الحركة التى حملت اسم حركة الميثاق أو الحركة البناء. Chinos Chanteuse فى منتصف القرن التاسع عشر والتى لا يكاد كتاب النظم الدستورية لا يعرفون عنها شيئاً. ثم نظمت مع حليفتها الجمعية الفابية حزب العمال .

وأخيراً نأتى للعصر الحديث ونحن نؤمن أن هذا العصر قد بدأه العلماء فى كل مجال، فهو مدين للعلم والعقل والفكر فى كل تخصص سواء كان علوم بيولوجية أو هندسية أو رياضية أو فلسفة الخ... ومع أن جذوره عميقة فقد رأينا أن نبدأه من نيوتن حتى أديسن اللذين يدين إليهما العصر الحديث بالإنجازات التى تعطى أكبر مجال فى حياتنا فى العصر الحديث .

واقترنت حركة النهضة العلمية بنظرية "التقدم وإثراء الحياة" وجعل اختراعات قوى الطبيعة فى خدمة حاجات المجتمع البشرى .

فالدعوات الدينية، والجماعات المدنية، والألوف وعشرات الألوف من العلماء هم سر تقدم الأمم – وليس الحكومات، ولو تركت الحكومات وحدها، لما قامت بغير الحروب واستغلال الشعوب ..



الفصل الرابع عشر

الأنبياء

أول الدعاة لتحرير الشعوب

إذا عدنا إلى أعماق التاريخ، إلى تلك العصور المجهولة التى لا نعلم عنها إلا القليل والتى كانت شعوبها تعيش على الزراعة أو الرعى أو الحرف اليدوية. والتى سادتها الجهالة والأمية، والخرافة، وحكمها طغاة مؤلهون ونسائل كيف كانت حياة هذه الشعوب ؟ .

إذا حكمنا بطبائع البشر، وضرورات الاجتماع فيمكننا القول إنهم كانوا يعيشون فى شقاء وبؤس وكدح يتعرضون للأمراض والأوبئة، ولا ينالون ولو بصيصاً من المعرفة التى كانت محصورة فى أيدى الكهنة، وكان الملوك والأرستقراطيات الحاكمة لا تظفر – إذا ظفرت – إلا بقسط ضئيل منها .

كان الدين هو القوة المهيمنة فى هذا المجتمع إذ ارتؤى أنه يقدم الحل الذى يقلق إنسان هذه العصور ويشغل باله من شمس بازغة إلى بحار هادرة إلى أنهار جارية إلى أمطار تنزل من السماء.. ثم ما يحدث للإنسان عندما ينام من أحلام تنقله إلى عوالم خيالية، وأخيراً الموت التى ينهى الحياة تماماً... هذه الظواهر التى كانت تكتنف الإنسان القديم لم يكن يجد لها حلاً.. إلا فى الدين الذى قام وقتئذ على مزيج من الخرافة والسحر والطلاسم والطقوس.. التى تحاط بها الأوثان المعبودة وتنسج حولها الروايات عن قدراتها. وظهرت فئة "الكهنة" الذكية التى احتكرت هذا المجال الهام ووظفته لمصلحتها وتعاونت مع السلطة بحيث قام تحالف وثيق فالكهنة يضفون على الملوك، والفراعنة، والأباطرة، الصفة الإلهية المقدسة، وهؤلاء يعترفون للكهنة باعتبارهم القوامين على هذا المجال وبهذا التحالف تحت السيطرة الروحية والفعلية على الجماهير.. بحيث استحال عليها أن نتخلص منها .

أما هذا الطوق المحكم، أمام هذا السد المغلق استحال على الجماهير فى تخبطها وجهالتها وفاقتها وتفرقها عن أن

تستنقذ بنفسها، وأصبحت شعوب العالم فى هذا سواء. فالوثنية القديمة جعلت العالم "أمة واحدة" بتعبير القرآن الكريم فى استخذائها للأوثان والطغاة حتى وأن اختلفت الأسماء فى مصر عنها فى روما عنها فى بابل.. كلها أوثان، كلها كهنة كلها ملوك طغاة.. كلها استبداد وتسخير للشعوب والجماهير.

وهكذا كان الناس أمة واحدة فى غفلتها، واستخذائها واستسلامها ﴿فَبعثَ الله النبِيين مبشرين ومنذِرين وَأنزلَ معهم الْكِتَاب بِالْحق﴾. {٢١٣ البقرة} ..

لم يكن من الممكن أن تتحرك الجماهير، ولم يكن طبيعياً أن يكون منقذوها هم مستبعدوها. كانت القوة الإلهية وحدها هى التى يمكن أن تنقذ الشعوب والجماهير .

ماذا قدم الأنبياء للبشرية فى عهودها القديمة عندما كانت هذه الجماهير عاجزة مجردة من القوة ...

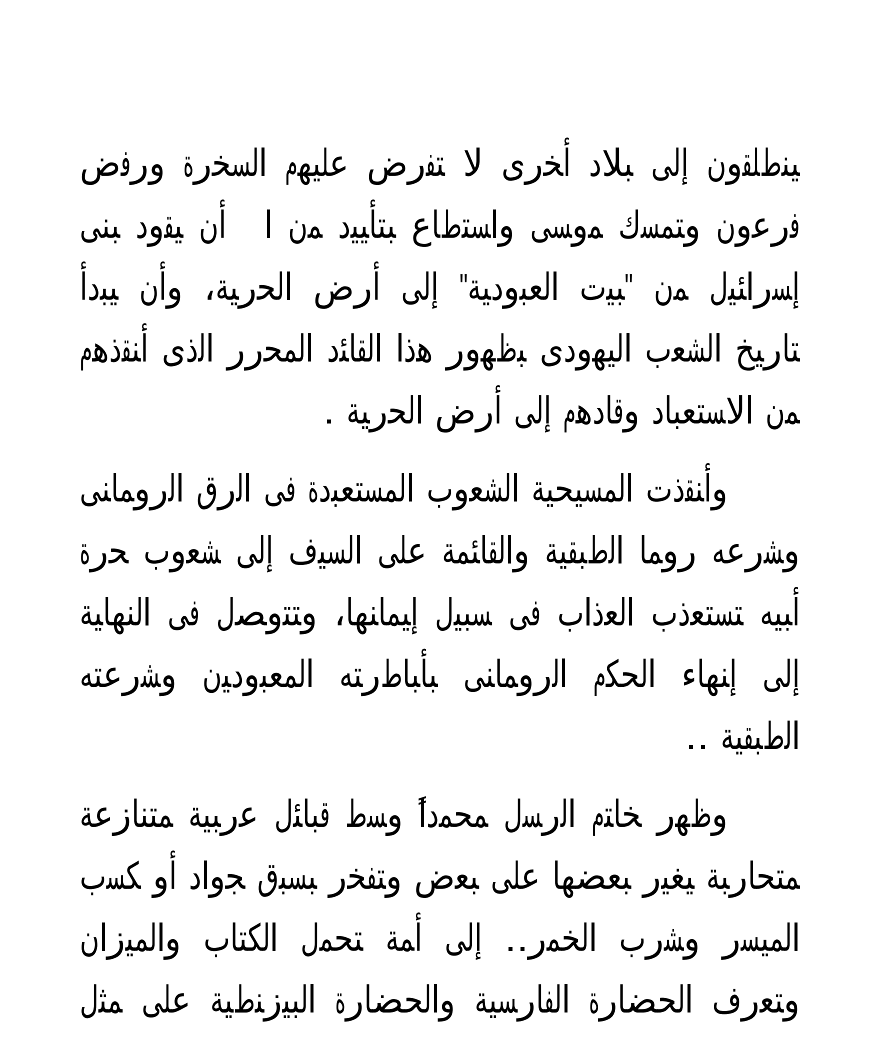
قامت دعوة الأنبياء أولاً قبل كل شىء بتخليص الناس من عبادة الملوك والأباطرة، أو الأوثان التى نصبوها رموزاً لبعض مظاهر قوة الطبيعة وما كان يستتبعه من طاعة عمياء للملوك على أساس أنهم آلهة. وقد كانت كل الشعوب القديمة

تؤله ملوكها بدرجة أو أخرى من فراعنة مصر حتى أباطرة الرومان. وكانت هذه النقطة – تالية الأباطرة – هى التى حملت الرومان على مقاومة المسيحية واضطهاد المسيحيين الذى أشرنا إليه من قبل .

قد يقال إن الأنبياء أنقذوا البشر من عبادة الملوك والأباطرة وأوقعوهم فى عبادة ا . ولكن ا تعالى فى الحقيقة هو الكمال المطلق والعبودية له ليس فيها شبه للعبودية للملوك حتى وأن تضمنت صلواتها ركوعاً وسجوداً ما دام هذا كله للكمال والحكمة والمثل الأعلى والقوة التى خلقت السموات والأرض ووضعت القواميس والسنة لسيرها جميعاً. فالإيمان با جزء من كمال الاعتقاد .

وقام الأنبياء عملياً بدور المحرر للشعوب والجماهير فى ثورات هى أعظم وأنبل الثورات، وأقلها سفكا للدماء .

هو ذا موسى يتقدم إلى فرعون ليطلق سراح قومه اليهود الذين كان المصريون قد استعبدوهم وسخروهم فى أشق الأعمال وأخضعوهم لصنوف من الاستغلال والاستعباد حتى ظهر فيهم موسى وطالب فرعون بأن يحررهم ويتركهم



ينطلقون إلى بلاد أخرى لا تفرض عليهم السخرة ورفض فرعون وتمسك موسى واستطاع بتأييد من ا   أن يقود بنى إسرائيل من "بيت العبودية" إلى أرض الحرية، وأن يبدأ تاريخ الشعب اليهودى بظهور هذا القائد المحرر الذى أنقذهم من الاستعباد وقادهم إلى أرض الحرية .

وأنقذت المسيحية الشعوب المستعبدة فى الرق الرومانى وشرعه روما الطبقية والقائمة على السيف إلى شعوب حرة أبيه تستعذب العذاب فى سبيل إيمانها، وتتوصل فى النهاية إلى إنهاء الحكم الرومانى بأباطرته المعبودين وشرعته الطبقية ..

وظهر خاتم الرسل محمداً وسط قبائل عربية متنازعة متحاربة يغير بعضها على بعض وتفخر بسبق جواد أو كسب الميسر وشرب الخمر.. إلى أمة تحمل الكتاب والميزان وتعرف الحضارة الفارسية والحضارة البيزنطية على مثل وقيم المساواة والعدل والرحمة والخير ..

واقترنت دعوة الأنبياء للإيمان با ، بمجموعة من التوجيهات والأوامر والنواهى كلها تمثل القيم العليا التى

يصلح عليها نظام المجتمع. وكان لابد لها من هذا حتى تتميز الدعوة التى يتقدم بها الأنبياء عن الدعوة للإلهة الوثنية التى يتقدم بها الكهنة والتى تتضمن صنوفاً من التفرقة الطبقية والتميز والتى تقر الظلم أو البغى. وقد قدم كل نبى ن الأنبياء رسالته فقدم موسى وصاياه العشرة التى تنص على :

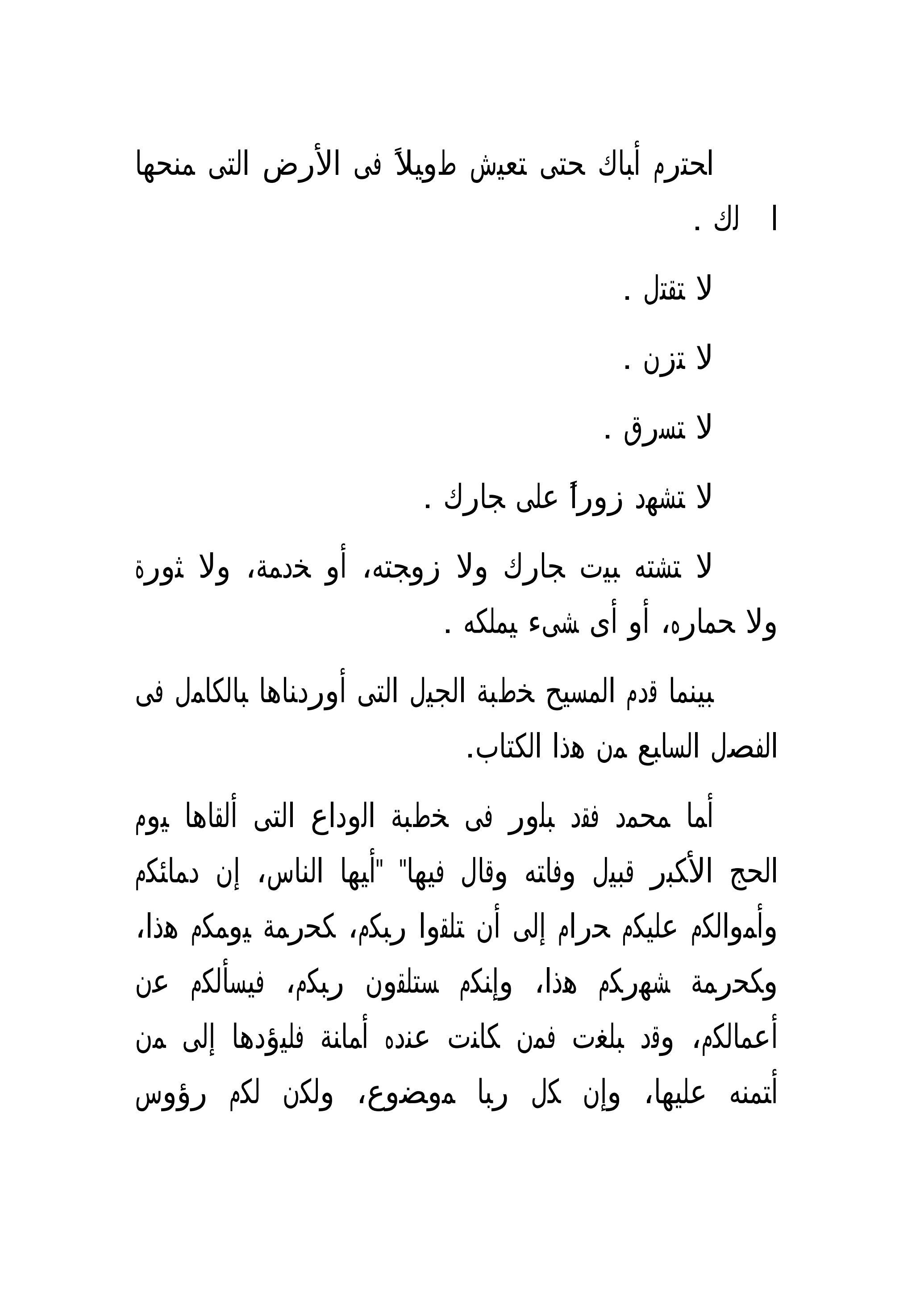
أنا الرب إلهك الذى أنقذك من مصر بيت العبودية :

لا تعبد إلهة أخرى .

لا تقم صنما يصور أى شىء فى الأرض أو فى السماء أو فى أعماق الماء. ولا تسجد لها أو تعبدها، لأنى أنا الرب إلهك إله غيور أعاقب الأباء على خطيئات آبنائهم حتى الجيل الثالث والرابع .

لا تسئ استخدام اسم الرب إلهك لأن الرب لا يغفر لمن يفعل ذلك .

تذكر السبت واحتفظ به مقدساً تعمل أعمالك كلها فى ستة أيام وتخصص اليوم السابع للرب. ففى هذا اليوم لا يجوز له، ولا لأبنك أو أبنتك ولا لخادمك أو خادمتك ولا لحيواناتك ولا لغريب داخل بابك .



احترم أباك حتى تعيش طويلاً فى الأرض التى منحها ا   اك .

لا تقتل .

لا تزن .

لا تسرق .

لا تشهد زوراً على جارك .

لا تشته بيت جارك ولا زوجته، أو خدمة، ولا ثورة ولا حماره، أو أى شىء يملكه .

بينما قدم المسيح خطبة الجبل التى أوردناها بالكامل فى الفصل السابع من هذا الكتاب.

أما محمد فقد بلور فى خطبة الوداع التى ألقاها يوم الحج الأكبر قبيل وفاته وقال فيها" "أيها الناس، إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس

أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون. قضى ا أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب[1] أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه ابدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس: إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم ا فيحلوا ما حرم ا ، ويحرموا ما أحل ا ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق ا السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند ا أثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب مضر، الذى بين جمادى وشعبان.. أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لا

---

(١) وكان مسترضعا فى بنى ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما يدأ به من دماء الجاهلية.

يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن ا قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة ا ، واستحللتم فروجهن بكلمات ا ، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب ا وسنة نبيه. أيها الناس، أسمعوا قولى واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت" .

* * *

على أن هذا ليس هو كل ما قدمه الأنبياء.. لقد قدموا أيضا النموذج الأمثل للقائد، واتصفوا بما لا ينصف به عادة القادة، كما عرفهم العالم القديم، من سيطرة وتسلط واستحواز على الثروات الخ... ويرووا من كل لوثات الضعف والانحراف والنقائض فكانت أخلاقهم كريمة لا تشبها شائبة .

والأنبياء عادة من صميم الشعب، وهم يتقدمون بدعوتهم للجميع، ولكن قلما يؤمن بها الحكام والمترفون.. لأنهم يرون فيها ما يمس وضعهم المتميز ومزاياهم الطبقية، وإنما يؤمن بها عامة الشعب والفقراء والكادحون فى الأرض أو الحرف والفقراء المجردون من الثروات.. باختصار من كان يطلق عليهم الحكام "أراذلنا" ومن كانوا يرون أن إيمان هؤلاء يجعلهم يترفعون عن الإيمان بالرسل حتى لا تتساوى الرؤوس .

والأنبياء يجوبون الأسواق ويتحدثون إلى الناس ويقيمون دعوتهم على "الحوار" وعلى تقديم البينة والحجة وعلى إثارة ما فى نفوس الناس من عناصر خير كامنة فيه .

وأقرأ مثلاً هذه الآيات التى تمثل حوار الأنبياء نبياً نبياً مع شعوبهم وجماهيرهم ..

﴿لَقَد أَرسلْنَا نُوحا إِلَى قَومِهِ فَقَالَ يا قوم اعبدوا الله ما لَكُم مِن إِلَهٍ غَيره إِني أَخَافُ علَيكُم عذَاب يومٍ عظِيمٍ**(٥٩)** قَالَ الْملأ مِن قَومِهِ إِنا لَنَراك فِي ضلالٍ مبِينٍ**(٦٠)** قَالَ يا قوم لَيس بِي ضلالَةٌ ولَكِني رسولٌ مِن رب الْعالَمِين**(٦١)** أُبلغُكُم

رِسالاتِ ربي وأَنصح لَكُم وأَعلَم مِن اللهِ ما لا تَعلَمون(٦٢)
أَوعجِبتُم أَن جاءكُم ذِكْر مِن ربكُم علَى رجلٍ مِنْكُم لِينذِركُم
ولِتتقُوا ولَعلكُم تُرحمون(٦٣) فَكَذبوه فَأَنجينَاه والَذِين معه فِي
الْفُلْكِ وأَغْرقْنَا الَذِين كَذبوا بِآياتِنَا إِنهم كَانُوا قَوما عمِين(٦٤)
وإِلَى عادٍ أَخَاهم هودا قَالَ يا قوم اعبدوا الله ما لَكُم مِن إِلَهٍ
غَيره أَفَلَا تَتقُون(٦٥) قَالَ الْملأُ الَذِين كَفَروا مِن قَومِهِ إِنا لَنَراك
فِي سفَاهةٍ وإِنا لَنَظُنك مِن الْكَاذِبِين(٦٦) قَالَ يا قوم لَيس بِي
سفَاهةٌ ولَكِني رسولٌ مِن رب الْعالَمِين(٦٧) أُبلغُكُم رِسالاتِ
ربي وأَنَا لَكُم نَاصِح أَمِين(٦٨) أَوعجِبتُم أَن جاءكُم ذِكْر مِن
ربكُم علَى رجلٍ مِنْكُم لِينذِركُم واذْكُروا إِذْ جعلَكُم خُلَفَاء مِن
بعدِ قَومِ نُوحٍ وزادكُم فِي الْخَلْقِ بسطَةً فَاذْكُروا آلاء اللهِ لَعلكُم
تُفْلِحون(٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعبد الله وحده ونَذَر ما كَان يعبد
آباؤُنَا فَأْتِنَا بِما تَعِدنَا إِن كُنتَ مِن الصادِقِين(٧٠) قَالَ قَد وقَع
علَيكُم مِن ربكُم رِجس وغَضب أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسماءٍ
سميتُموها أَنْتُم وآباؤُكُم ما نَزلَ الله بِها مِن سلْطَانٍ فَانتَظِروا
إِني معكُم مِن الْمنتَظِرِين(٧١) فَأَنجينَاه والَذِين معه بِرحمةٍ مِنا
وقَطَعنَا دابِر الَذِين كَذبوا بِآياتِنَا وما كَانُوا مؤْمِنِين(٧٢) وإِلَى
ثَمود أَخَاهم صالِحا قَالَ يا قوم اعبدوا الله ما لَكُم مِن إِلَهٍ

غَيره قَد جاءتْكُم بينَةٌ مِن ربكُم هذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُم آيةً فَذَروها تأْكُلْ فِي أَرضِ اللهِ ولا تَمسوها بِسوءٍ فَيأْخُذَكُم عذَاب أَلِيم**(٧٣)** واذْكُروا إِذْ جعلَكُم خُلَفَاء مِن بعدِ عادٍ وبوأَكُم فِي الأَرضِ تَتخِذُون مِن سهولِها قُصورا وتَنْحِتُون الْجِبالَ بيوتًا فَاذْكُروا آلاء اللهِ ولا تَعثَوا فِي الأَرضِ مفْسِدِين**(٧٤)** قَالَ الْملأ الَذِين استَكْبروا مِن قَومِهِ لِلَذِين استُضعِفُوا لِمن آمن مِنْهم أَتَعلَمون أَن صالِحا مرسلٌ مِن ربهِ قَالُوا إِنا بِما أُرسِلَ بِهِ مؤْمِنُون**(٧٥)** قَالَ الَذِين استَكْبروا إِنا بِالَذِي آمنتُم بِهِ كَافِرون**(٧٦)** فَعقَروا الناقَةَ وعتَوا عن أَمرِ ربهِم وقَالُوا يا صالح ائْتِنَا بِما تَعِدنَا إِن كُنتَ مِن الْمرسلِين**(٧٧)** فَأَخَذَتْهم الرجفَةُ فَأَصبحوا فِي دارِهِم جاثِمِين**(٧٨)** فَتَولى عنْهم وقَالَ يا قوم لَقَد أَبلَغْتُكُم رِسالَةَ ربي ونَصحتُ لَكُم ولَكِن لا تُحِبون الناصِحِين**(٧٩)** ولُوطًا إِذْ قَالَ لِقَومِهِ أَتَأْتُون الْفَاحِشَةَ ما سبقَكُم بِها مِن أَحدٍ مِن الْعالَمِين**(٨٠)** إِنكُم لَتَأْتُون الرجالَ شَهوةً مِن دون النساءِ بلْ أَنْتُم قَوم مسرِفُون**(٨١)** وما كَان جواب قَومِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجوهم مِن قَريتِكُم إِنهم أُنَاس يتَطَهرون**(٨٢)** فَأَنجيناه وأَهلَه إِلا امرأَتَه كَانَتْ مِن الْغَابِرِين**(٨٣)** وأَمطَرنَا علَيهِم مطَرا فَانظُر كَيفَ كَان عاقِبةُ الْمجرِمِين**(٨٤)** وإِلَى مدين أَخَاهم شُعيبا قَالَ يا قوم

اعبدوا الله ما لَكُم مِن إِلَهٍ غَيره قَد جاءتْكُم بينَةٌ مِن ربكُم فَأوفُوا الْكَيلَ والْمِيزان ولا تَبخَسوا الناس أَشْياءهم ولا تُفْسِدوا فِي الأَرضِ بعد إِصلاحِها ذَلِكُم خَير لَكُم إِن كُنتُم مؤْمِنِين(٨٥) ولا تَقْعدوا بِكُل صِراطٍ تُوعِدون وتَصدون عن سبِيل اللهِ من آمن بِهِ وتَبغُونَها عِوجا واذْكُروا إِذْ كُنتُم قَلِيلاً فَكَثركُم وانظُروا كَيفَ كَان عاقِبةُ الْمفْسِدِين(٨٦) وإِن كَان طَائِفَةٌ مِنْكُم آمنُوا بِالَّذِي أُرسِلْتُ بِهِ وطَائِفَةٌ لَم يؤْمِنُوا فَاصبِروا حتى يحكُم الله بينَنَا وهو خَير الْحاكِمِين(٨٧) قَالَ الْملأُ الَّذِين استَكْبروا مِن قَومِهِ لَنُخْرِجنك يا شعيب والَّذِين آمنُوا معك مِن قَريتِنَا أَو لَتَعودن فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَولَو كُنا كَارِهِين(٨٨) قَد افْتَرينَا علَى اللهِ كَذِبا إِن عدنَا فِي مِلَّتِكُم بعد إِذْ نَجانَا الله مِنْها وما يكُون لَنَا أَن نَعود فِيها إِلا أَن يشَاء الله ربنَا وسِع ربنَا كُل شَيءٍ عِلْما علَى اللهِ تَوكَّلْنَا ربنَا افْتَح بينَنَا وبين قَومِنَا بِالْحق وأَنْتَ خَير الْفَاتِحِين(٨٩) وقَالَ الْملأُ الَّذِين كَفَروا مِن قَومِهِ لَئِن اتبعتُم شُعيبا إِنكُم إِذًا لَخَاسِرون(٩٠) فَأَخَذَتْهم الرجفَةُ فَأَصبحوا فِي دارِهِم جاثِمِين(٩١) الَّذِين كَذَّبوا شُعيبا كَأَن لَم يغْنَوا فِيها الَّذِين كَذَّبوا شُعيبا كَانُوا هم الْخَاسِرِين(٩٢) فَتَولى عنْهم وقَالَ يا قَوم لَقَد أَبلَغْتُكُم رِسالاتِ ربي ونَصحتُ لَكُم فَكَيفَ آسى علَى قَومٍ

كَافِرِين(٩٣) وما أَرسلْنَا فِي قَريةٍ مِن نَبِي إِلا أَخَذْنَا أَهلَها بِالْبأْساءِ والضراءِ لَعلهم يضرعون(٩٤) ثُم بدلْنَا مكَان السيئَةِ الْحسنَةَ حتى عفَوا وقَالُوا قَد مس آباءنَا الضراء والسراء فَأَخَذْنَاهم بغْتَةً وهم لا يشْعرون﴾. {٩٥ الأعراف} ..

وكذلك ...

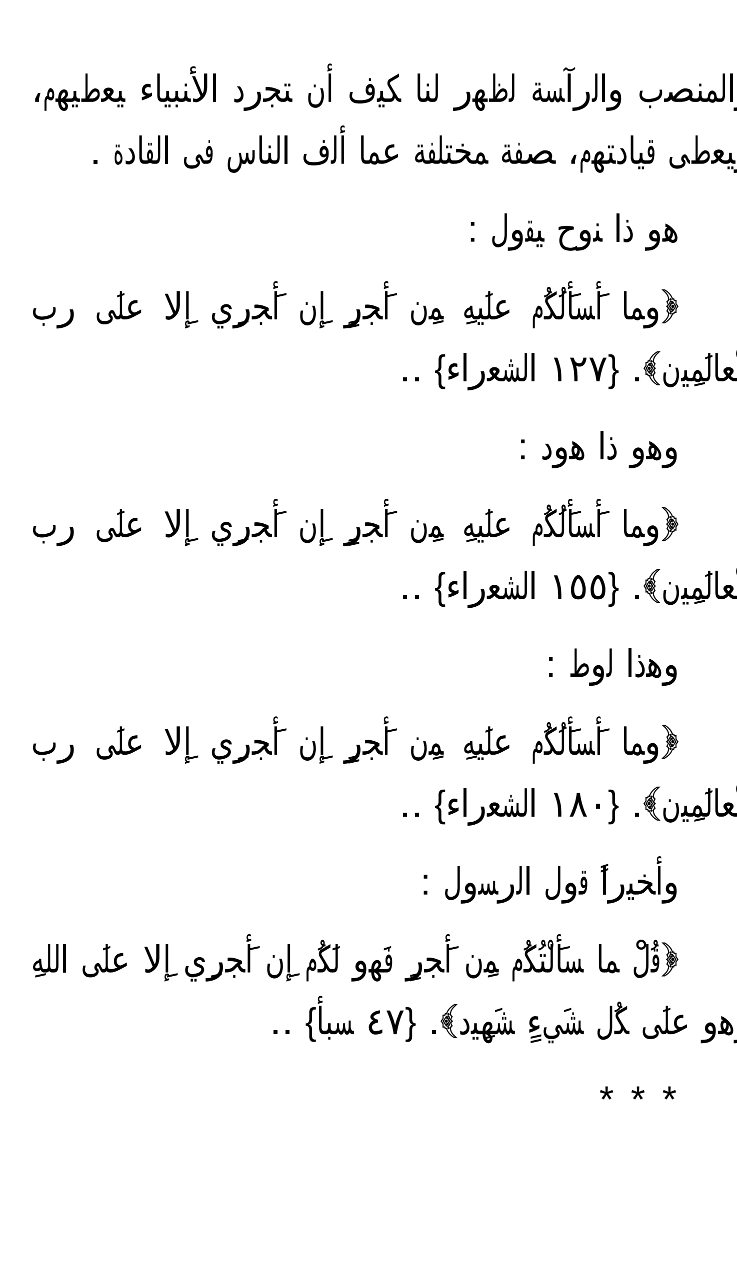
﴿أَلَم يأْتِكُم نَبأُ الَذِين مِن قَبلِكُم قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمود والَذِين مِن بعدِهِم لا يعلَمهم إِلا الله جاءتْهم رسلُهم بِالْبينَاتِ فَردوا أَيدِيهم فِي أَفْواهِهِم وقَالُوا إِنا كَفَرنَا بِما أُرسِلْتُم بِهِ وإِنا لَفِي شَك مِما تَدعونَنَا إِلَيهِ مرِيبٍ(٩) قَالَتْ رسلُهم أَفِي اللهِ شَك فَاطِرِ السماواتِ والأَرضِ يدعوكُم لِيغْفِر لَكُم مِن ذُنُوبِكُم ويؤَخركُم إِلَى أَجلٍ مسمى قَالُوا إِن أَنْتُم إِلا بشَر مِثْلُنَا تُرِيدون أَن تَصدونَا عما كَان يعبد آباؤُنَا فَأْتُونَا بِسلْطَانٍ مبِينٍ(١٠) قَالَتْ لَهم رسلُهم إِن نَحن إِلا بشَر مِثْلُكُم ولَكِن الله يمن علَى من يشَاء مِن عِبادِهِ وما كَان لَنَا أَن نَأْتِيكُم بِسلْطَانٍ إِلا بِإِذْن اللهِ وعلَى اللهِ فَلْيتَوكَلْ الْمؤْمِنُون(١١) وما لَنَا أَلا نَتَوكَلَ علَى اللهِ وقَد هدانَا سبلَنَا ولَنَصبِرن علَى ما آذَيتُمونَا وعلَى اللهِ فَلْيتَوكَلْ الْمتَوكلُون(١٢) وقَالَ الَذِين كَفَروا لِرسلِهِم لَنُخْرِجنكُم مِن

أَرضِنَا أَو لَتَعودن فِي مِلِتِنَا فَأَوحى إِلَيهم ربهم لَنُهلِكَن الظالِمِين﴾. {١٣ إبراهيم} ..

لقد حول رفض المشركين القاطع لدعوة الأنبياء، وتهديدهم الأنبياء بمختلف صور الاضطهاد.. الحوار إلى صراع ما بين الحق والباطل، ولم يكن مناص من أن تقوم المعجزة بدور فى هذه الأزمان البائذه.. وقد يثير ذلك شيئاً من العزوف.. لدى البعض، ولكن هل كان الأفضل ترك الباطل يستعيد ويستشرى، وهل كان الأفضل أن يقود الأنبياء جيشاً يقهر به المشركين؟ أو هل يكون أكثر معقولية لو قضى عليهم بزلزال أو سيول الخ... أن صراع القوى فى المجتمع أمر واقع، ولا مفر منه، وعلى كل حال فإن دور المعجزة وقد انتفى مع ظهور الإسلام لأن معجزته كانت كتاباً ..

* * *

بالإضافة إلى أسلوب الحوار، فإن الأنبياء لا يطلبون أجراً ولا يريدون منصبا. وإذا قدرنا أن القيادة هى فى الدأب المألوف والممارسات الجارية السبيل إلى الثروة والجاه



والمنصب والرآسة لظهر لنا كيف أن تجرد الأنبياء يعطيهم، ويعطى قيادتهم، صفة مختلفة عما ألف الناس فى القادة .

هو ذا نوح يقول :

﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾. {١٢٧ الشعراء} ..

وهو ذا هود :

﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾. {١٥٥ الشعراء} ..

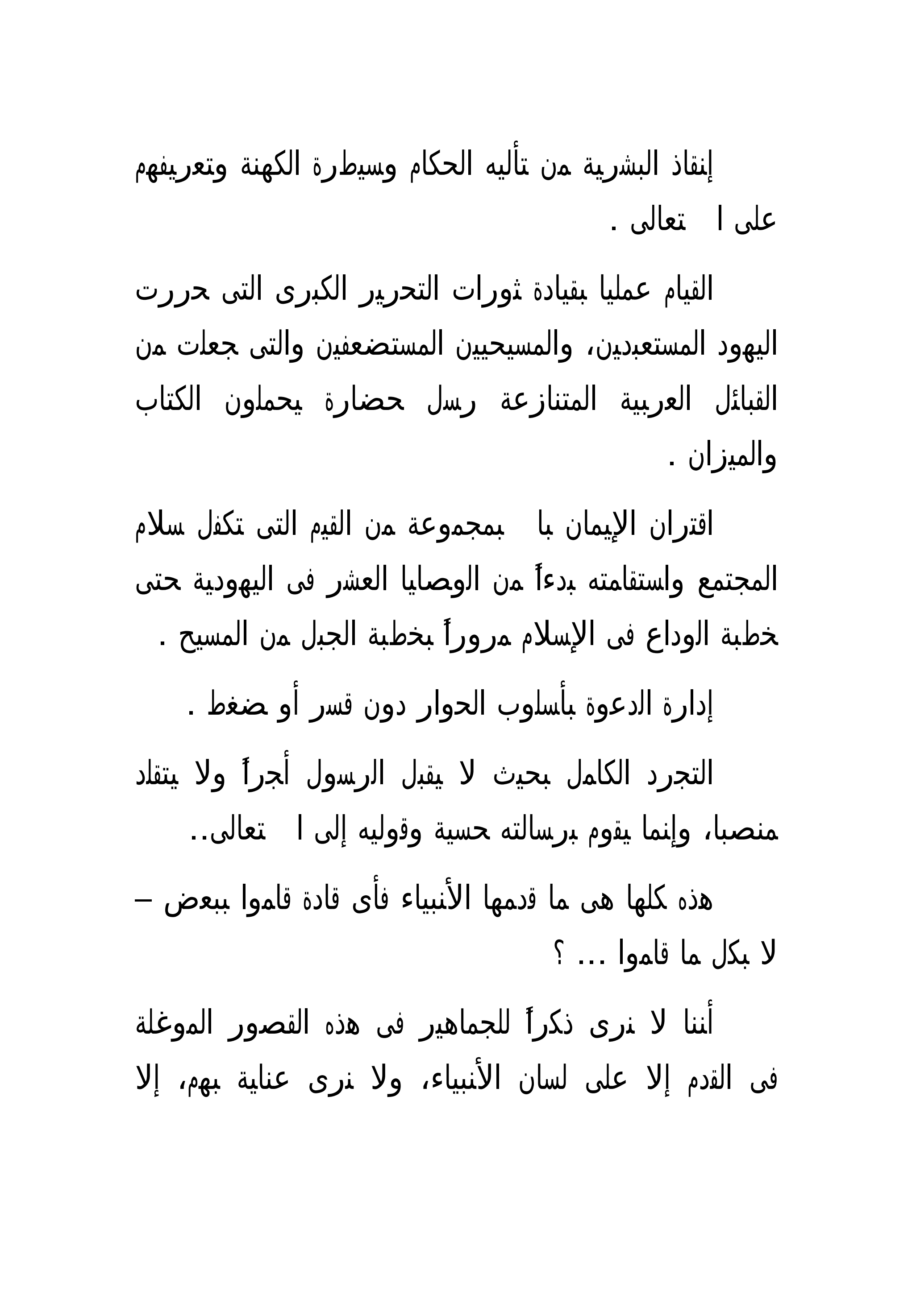
وهذا لوط :

﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾. {١٨٠ الشعراء} ..

وأخيراً قول الرسول :

﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾. {٤٧ سبأ} ..

* * *



إنقاذ البشرية من تأليه الحكام وسيطرة الكهنة وتعريفهم على ا تعالى .

القيام عمليا بقيادة ثورات التحرير الكبرى التى حررت اليهود المستعبدين، والمسيحيين المستضعفين والتى جعلت من القبائل العربية المتنازعة رسل حضارة يحملون الكتاب والميزان .

اقتران الإيمان با بمجموعة من القيم التى تكفل سلام المجتمع واستقامته بدءاً من الوصايا العشر فى اليهودية حتى خطبة الوداع فى الإسلام مروراً بخطبة الجبل من المسيح .

إدارة الدعوة بأسلوب الحوار دون قسر أو ضغط .

التجرد الكامل بحيث لا يقبل الرسول أجراً ولا يتقلد منصبا، وإنما يقوم برسالته حسية وقوليه إلى ا تعالى..

هذه كلها هى ما قدمها الأنبياء فأى قادة قاموا ببعض – لا بكل ما قاموا ... ؟

أننا لا نرى ذكراً للجماهير فى هذه القصور الموغلة فى القدم إلا على لسان الأنبياء، ولا نرى عناية بهم، إلا

عندهم وقبلهم كان التركيز هو على الطبقات المميزة والحكام والأثرياء الخ ...

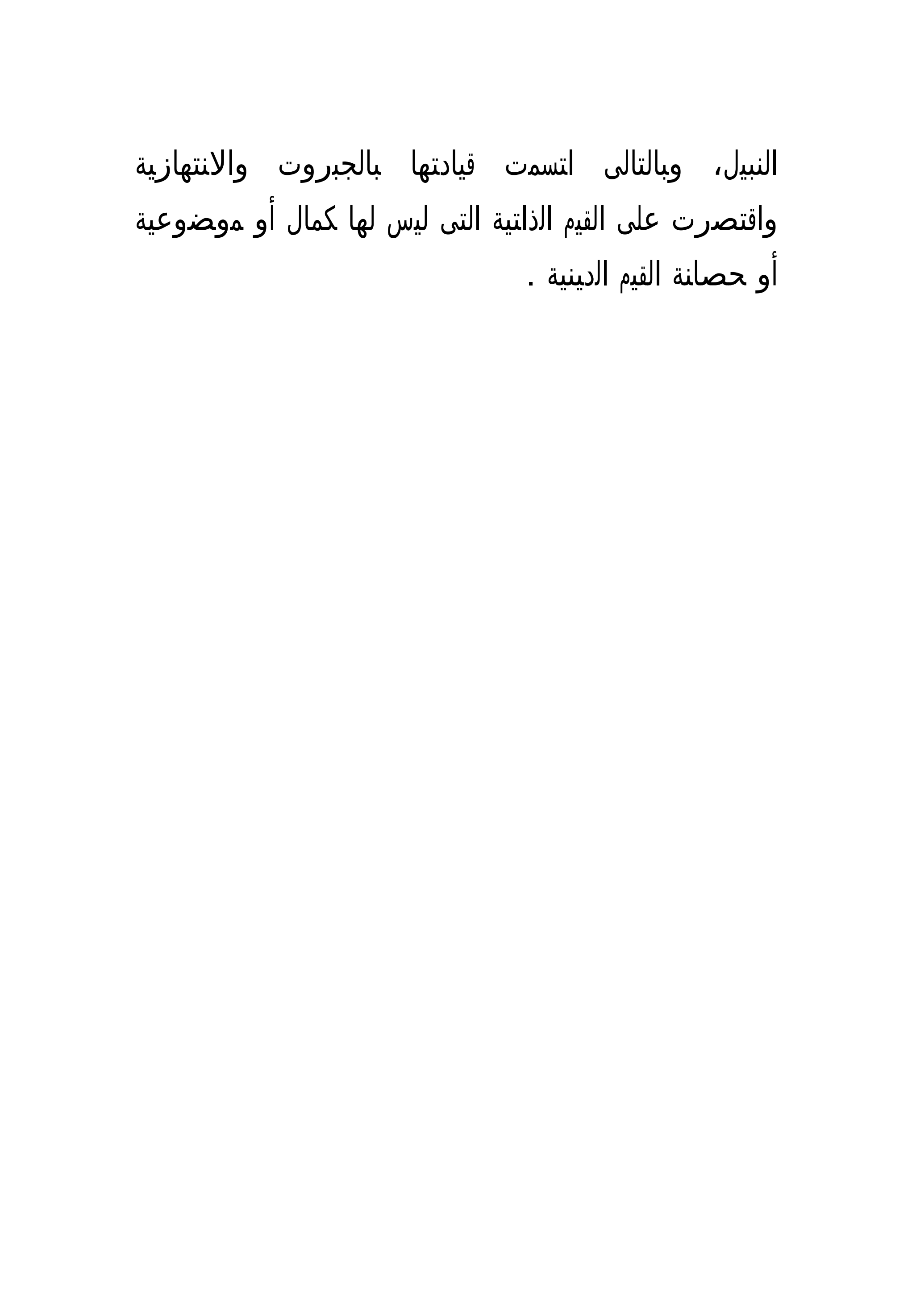
إن الأنبياء مثل عليا فى الخلق الكريم من صدق المهارة وشجاعة وإخلاص الخ ...

من أجل هذا قلنا فى "إيماننا" التى تبلور دعوة الإحياء قلنا ..

"الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المثل فى القيادة، وإطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك الخ... وما وضعوه من سياسات القهر التى لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساءت إلى البشرية .

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى والرسول، على أننا نفهم الصور التى قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلاً واحد، ولكن الشرائع متعددة، ونحن نؤمن بالرسل جميعا، وأن ا تعالى أراد التعدد والتنوع ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾. وأن الفصل فى هذا التعدد هو إلى ا تعالى يوم القيامة".

وفى نظرنا أن أعظم خسارة خسرتها أوربا هى أنها لم تطلع تماماً – وبالصورة السليمة – على هذا السجل الخالد

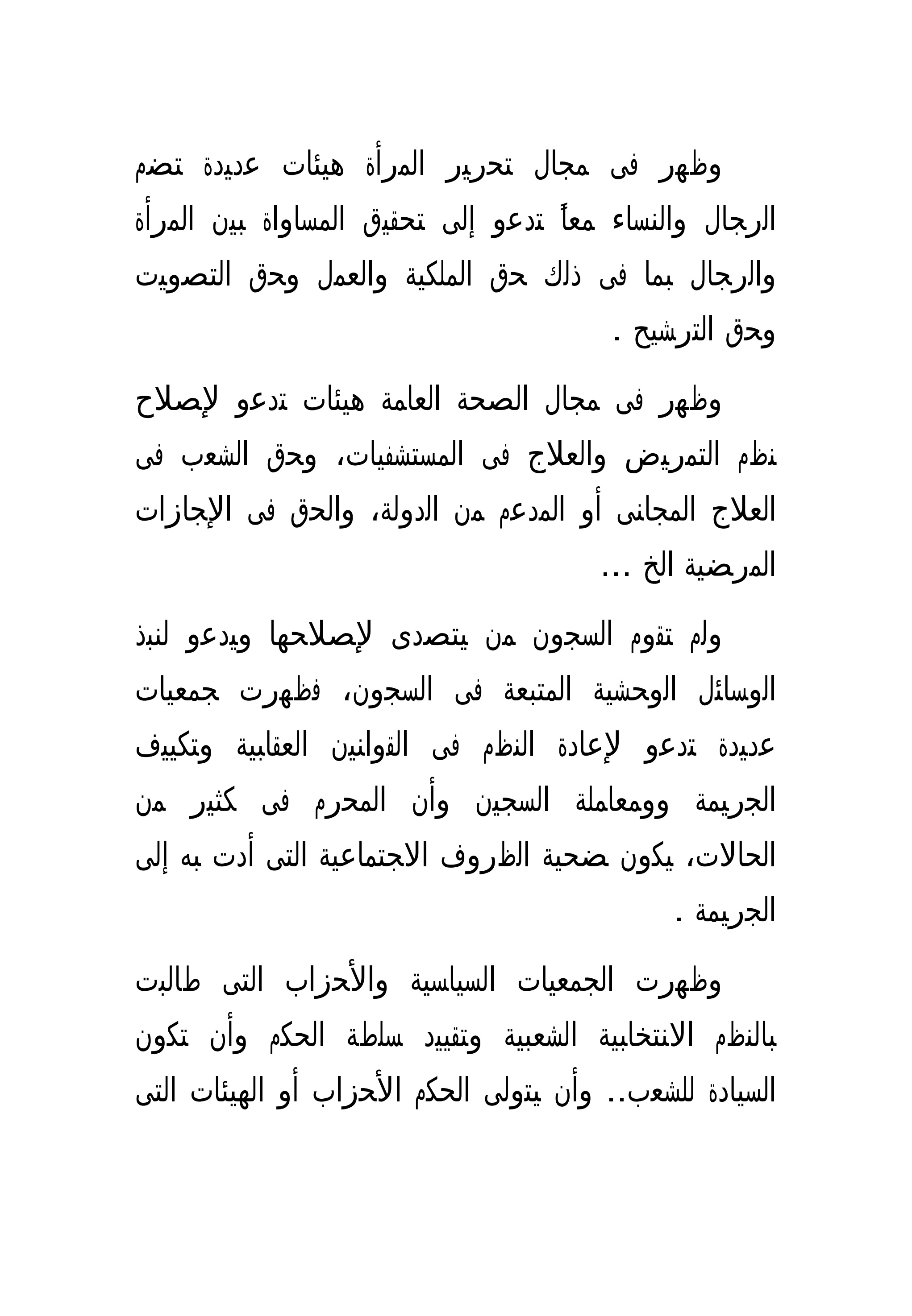


النبيل، وبالتالى اتسمت قيادتها بالجبروت والانتهازية واقتصرت على القيم الذاتية التى ليس لها كمال أو موضوعية أو حصانة القيم الدينية .

الفصل الخامس عشر
الحركة النقابية
تنهض بمستوى حياة الشعب
البريطانى

بعد الأنبياء فى النهضة بالشعوب والجماهير تأتى الجماعات المتطوعة التى يؤسسها رجال ونساء يؤمنون بأفكار اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية معينة ويرون فيها تقدم بلادهم ويجدون أن تكتلهم فى جماعة يزيدهم قوة، ويمكنهم من التأثير على السلطة وساعدهم على ذلك أن الحرية التى هى أساس النظام الرأسمالى لم تكن لتتجزء، وكان لابد من السماح بتكوين مثل هذه الهيئات والتجمعات ..

وهكذا ظهر فى مجال التعليم جماعات تدعو إلى تعميمه، ومجانيته وإصلاحه وتغيير مناهجه بما يتفق مع متطلبات الحياة، وإطلاق المبادءات والملكات الحرة للدارسين وعدم الاعتماد على وسيلة التلقين التقليدية .

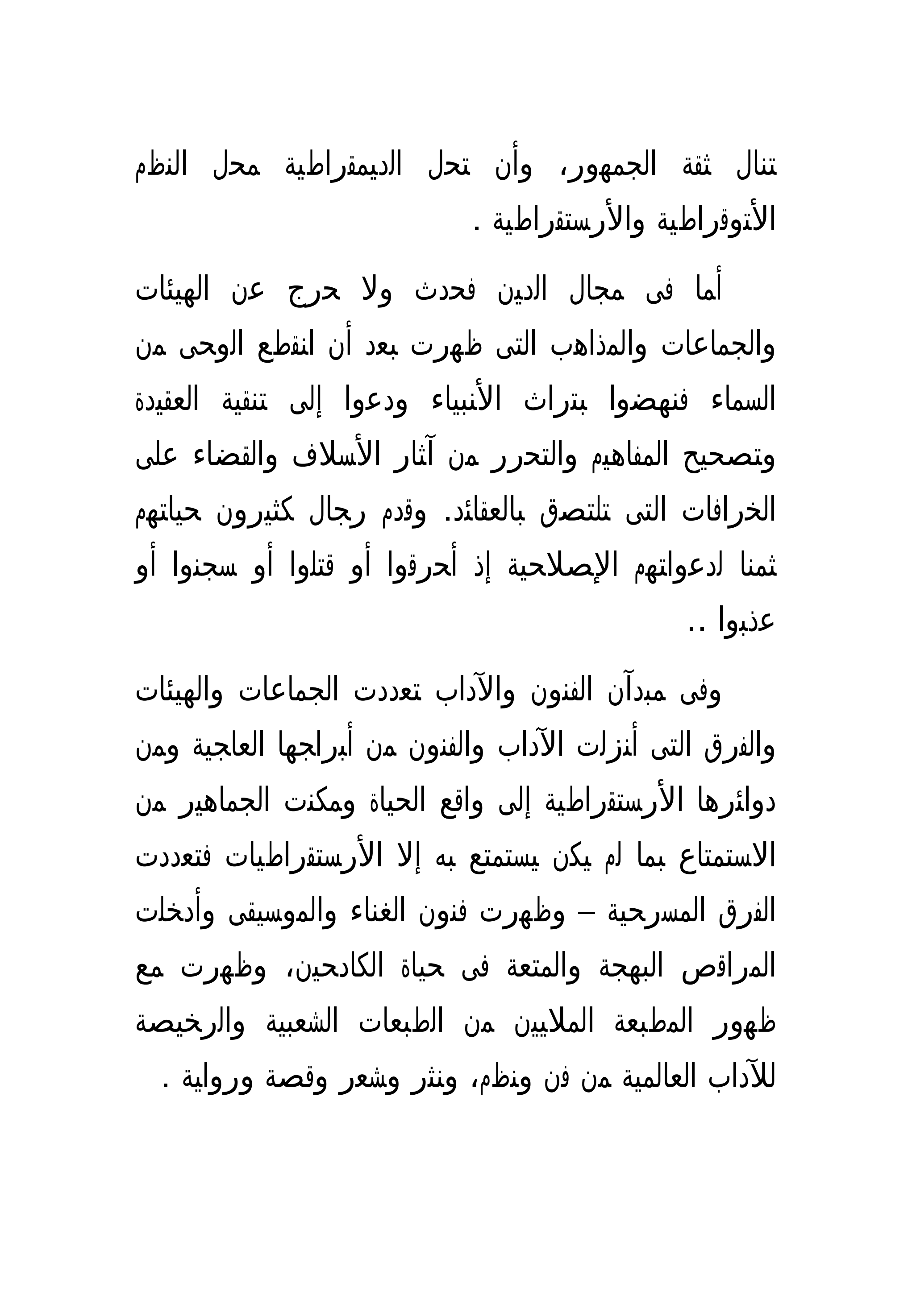


وظهر فى مجال تحرير المرأة هيئات عديدة تضم الرجال والنساء معاً تدعو إلى تحقيق المساواة بين المرأة والرجال بما فى ذلك حق الملكية والعمل وحق التصويت وحق الترشيح .

وظهر فى مجال الصحة العامة هيئات تدعو لإصلاح نظم التمريض والعلاج فى المستشفيات، وحق الشعب فى العلاج المجانى أو المدعم من الدولة، والحق فى الإجازات المرضية الخ ...

ولم تقوم السجون من يتصدى لإصلاحها ويدعو لنبذ الوسائل الوحشية المتبعة فى السجون، فظهرت جمعيات عديدة تدعو لإعادة النظم فى القوانين العقابية وتكييف الجريمة وومعاملة السجين وأن المحرم فى كثير من الحالات، يكون ضحية الظروف الاجتماعية التى أدت به إلى الجريمة .

وظهرت الجمعيات السياسية والأحزاب التى طالبت بالنظم الانتخابية الشعبية وتقييد سلطة الحكم وأن تكون السيادة للشعب.. وأن يتولى الحكم الأحزاب أو الهيئات التى



تنال ثقة الجمهور، وأن تحل الديمقراطية محل النظم الأتوقراطية والأرستقراطية .

أما فى مجال الدين فحدث ولا حرج عن الهيئات والجماعات والمذاهب التى ظهرت بعد أن انقطع الوحى من السماء فنهضوا بتراث الأنبياء ودعوا إلى تنقية العقيدة وتصحيح المفاهيم والتحرر من آثار الأسلاف والقضاء على الخرافات التى تلتصق بالعقائد. وقدم رجال كثيرون حياتهم ثمنا لدعواتهم الإصلاحية إذ أحرقوا أو قتلوا أو سجنوا أو عذبوا ..

وفى مبدآن الفنون والآداب تعددت الجماعات والهيئات والفرق التى أنزلت الآداب والفنون من أبراجها العاجية ومن دوائرها الأرستقراطية إلى واقع الحياة ومكنت الجماهير من الاستمتاع بما لم يكن يستمتع به إلا الأرستقراطيات فتعددت الفرق المسرحية – وظهرت فنون الغناء والموسيقى وأدخلت المراقص البهجة والمتعة فى حياة الكادحين، وظهرت مع ظهور المطبعة الملايين من الطبعات الشعبية والرخيصة للآداب العالمية من فن ونظم، ونثر وشعر وقصة ورواية .

هذه الهيئات والجماعات هى التى نهجت ونظمت مشاعر وآمال الأفراد، وبلورتها فى دعوات تقوم بها هيئات لها وجود مستقل ودائم. لقد كانت هى المعبر الحقيقى عن نبض الشعب وإرادته ورغباته وعملت بكل قوة لتحقيقها بمختلف الطرق من دعاية ونشر واتصال واتفاق مع أعضاء المجالس النيابية والمحلية والبلدية ومطالبات متكررة للحكومات واتخاذ وسائل للضغط من مظاهرات أو مسيرات أو إضرابات أو غير ذلك بحيث كبحت جماح السلطة وحيدت فسادها بل استطاعت – كما سنرى فى المثال الذى اخترناه مثال الحركة النقابية البريطانية وسعيها الدائب متعاونة مع جناحيها الجمعية الفابية وحزب العمال. أن تحقق لأول مرة سنة ١٩٤٥ حكومة الرعاية عندما استطاع حزب العمال أن يحكم بريطانيا بأغلبية برلمانية كاسحة

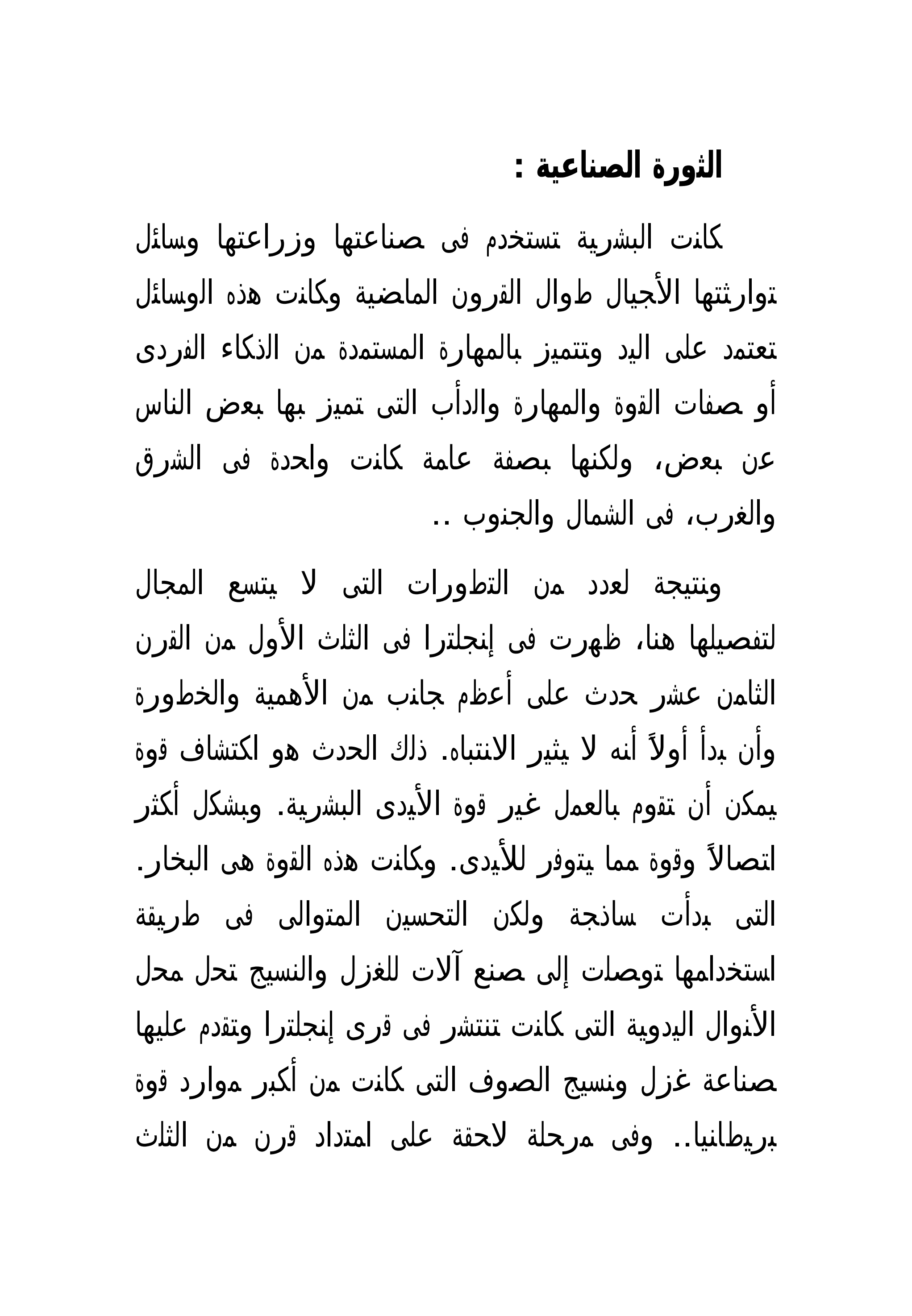
وحقا إن هذه الجهود كثيراً ما تضاف بنكسات، وتضطر للرجوع إلى الوراء خطوات، ولكنها تواصل المسيرة فتعوض خسائرها ..

* * *

من بين هذه الهيئات والجماعات التطوعية اخترنا كمثال الحركة النقابية لأنها بسعيها الدائب وبوسائلها الفريدة بمستوى حياة الشعب البريطانى ووضعت فى وقت مبكـر. (١٨٣٨) "ميثاق الشعب لإصلاح النظام الانتخابى البريطانى فأدت مواصلتها لهذه المسيرة دون كلال وبفضل جناحيها الجمعية الفابية. وحزب العمال إلى تحقيق ثورة فى أسلوب الحكم وأن توجد لأول مرة دولة "الرعاية" ..

إن الوعى لدينا عن هذه الجماعات والهيئات والحركات ضحل وسطحى، وبوجه خاص بالحركة النقابية التى هى أشمل هذه الحركات وأهمها لأنها تضم العاملين جميعاً من رجال ونساء دون تفرقه. ولأنها هى القوامة على مرفق العمل العام أى أنها هى التى تحرك عجلة الإنتاج فى المصانع والحقول والمرافق.. ولعلنا بتسطير هذه الصفحات أن تستكمل هذا النقص فى المعرفة .

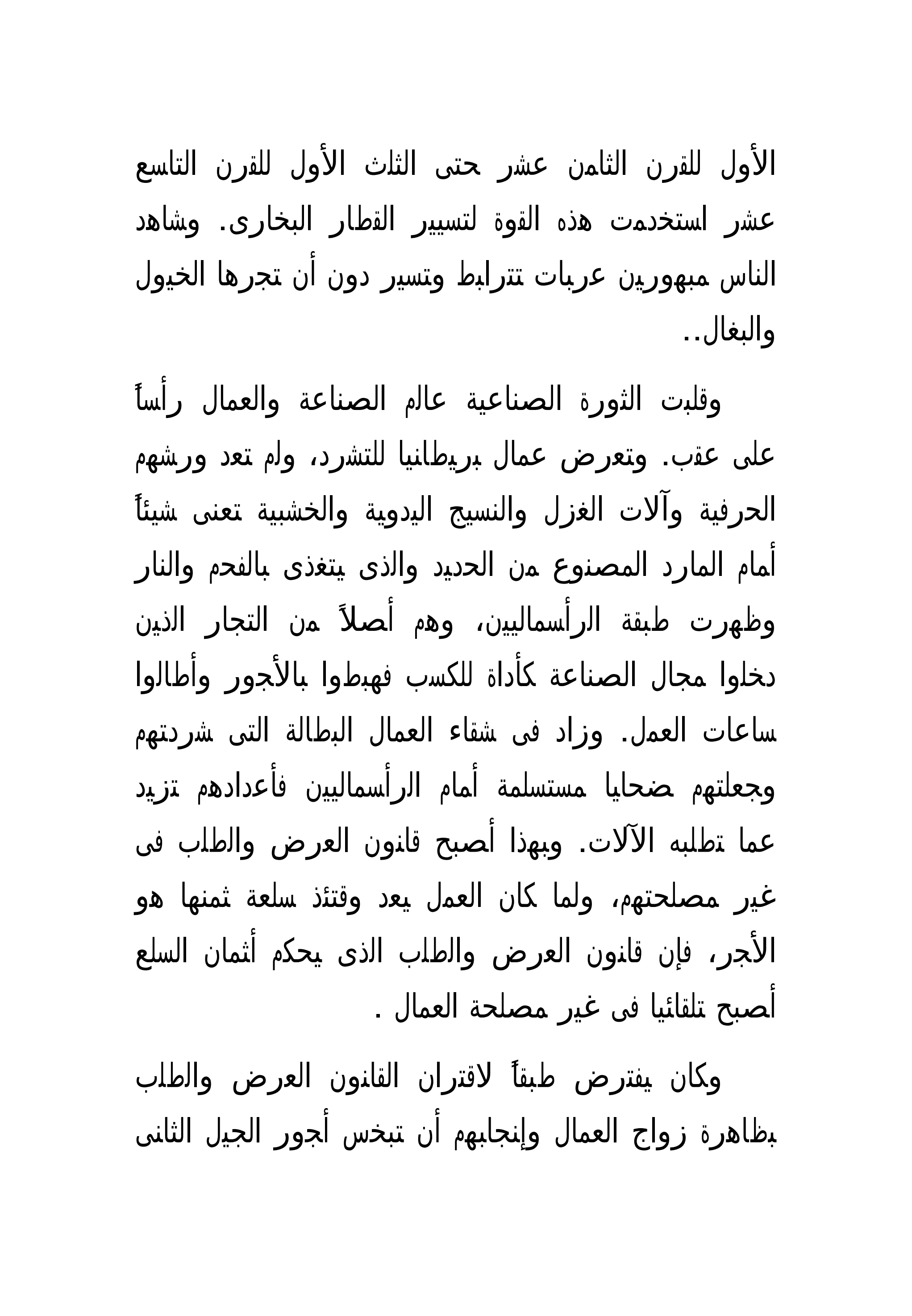
* * *



الثورة الصناعية :

كانت البشرية تستخدم فى صناعتها وزراعتها وسائل توارثتها الأجيال طوال القرون الماضية وكانت هذه الوسائل تعتمد على اليد وتتميز بالمهارة المستمدة من الذكاء الفردى أو صفات القوة والمهارة والدأب التى تميز بها بعض الناس عن بعض، ولكنها بصفة عامة كانت واحدة فى الشرق والغرب، فى الشمال والجنوب ..

ونتيجة لعدد من التطورات التى لا يتسع المجال لتفصيلها هنا، ظهرت فى إنجلترا فى الثلث الأول من القرن الثامن عشر حدث على أعظم جانب من الأهمية والخطورة وأن بدأ أولاً أنه لا يثير الانتباه. ذلك الحدث هو اكتشاف قوة يمكن أن تقوم بالعمل غير قوة الأيدى البشرية. وبشكل أكثر اتصالاً وقوة مما يتوفر للأيدى. وكانت هذه القوة هى البخار. التى بدأت ساذجة ولكن التحسين المتوالى فى طريقة استخدامها توصلت إلى صنع آلات للغزل والنسيج تحل محل الأنوال اليدوية التى كانت تنتشر فى قرى إنجلترا وتقدم عليها صناعة غزل ونسيج الصوف التى كانت من أكبر موارد قوة بريطانيا.. وفى مرحلة لاحقة على امتداد قرن من الثلث



الأول للقرن الثامن عشر حتى الثلث الأول للقرن التاسع عشر استخدمت هذه القوة لتسيير القطار البخارى. وشاهد الناس مبهورين عربات تترابط وتسير دون أن تجرها الخيول والبغال..

وقلبت الثورة الصناعية عالم الصناعة والعمال رأساً على عقب. وتعرض عمال بريطانيا للتشرد، ولم تعد ورشهم الحرفية وآلات الغزل والنسيج اليدوية والخشبية تعنى شيئاً أمام المارد المصنوع من الحديد والذى يتغذى بالفحم والنار وظهرت طبقة الرأسماليين، وهم أصلاً من التجار الذين دخلوا مجال الصناعة كأداة للكسب فهبطوا بالأجور وأطالوا ساعات العمل. وزاد فى شقاء العمال البطالة التى شردتهم وجعلتهم ضحايا مستسلمة أمام الرأسماليين فأعدادهم تزيد عما تطلبه الآلات. وبهذا أصبح قانون العرض والطلب فى غير مصلحتهم، ولما كان العمل يعد وقتئذ سلعة ثمنها هو الأجر، فإن قانون العرض والطلب الذى يحكم أثمان السلع أصبح تلقائيا فى غير مصلحة العمال .

وكان يفترض طبقاً لاقتران القانون العرض والطلب بظاهرة زواج العمال وإنجابهم أن تبخس أجور الجيل الثانى

من العمال أكثر من أجور الجيل الأول. لأن الجيل الثانى تزوج وانجب فى حين أن الوظائف قلت لزيادة استخدام الميكنة. وهكذا تنزل أجور هذا الجيل الثانى، وتتكرر المأساة مع الجيل الثالث والرابع حتى يصل الأجر إلى الكفاف الذى لو نزلت عنه لمات عدد من العمال جوعاً. ولو مات عدد من العمال جوعاً لقل عددهم، ولو قل عددهم لارتفع أجرهم، وهذا هو قانون الأجور الحديدى الذى حدد للعامل جحيما "لا يموت فيه ولا يحيا" وكان من الممكن أن يتحقق هذا، فقد تخلت الكنيسة عن العمال. وكانت الحكومة هى حكومة أصحاب الأعمال، وكان المناخ هو مناخ الأثرة الفظة "كل لنفسه.. وليأخذ الشيطان الأخير" وصارح مالتوس الفقراء أن ليس لهم أن يشكوا.. فلم يستأذنوا الطبيعة قبل أن يأتوا.. وأن على الفقراء أن يعملوا لكى لا يزدادوا فقرا. وبررت كل سوءات الرأسمالية بمبررات بدت معقولة! فالبطالة ليست نقمة، بل هى نعمة وجزء لا يتجزأ من آليات النظام. وكيف يمكن أن تفتح أو تغلق المصانع ما لم يوجد هذا الجيش الاحتياطى من العمال العاطلين، وساعات العمل الطويلة المرهقة حسنة! لأنها تعود الأطفال العمل والدأب وتقضى

على نزعة الكسل، والأجور الضئيلة مطلوبة لأنها تجبر العمال على مواصلة العمل وتحول بينهم وبين التردد على الحانات ! .

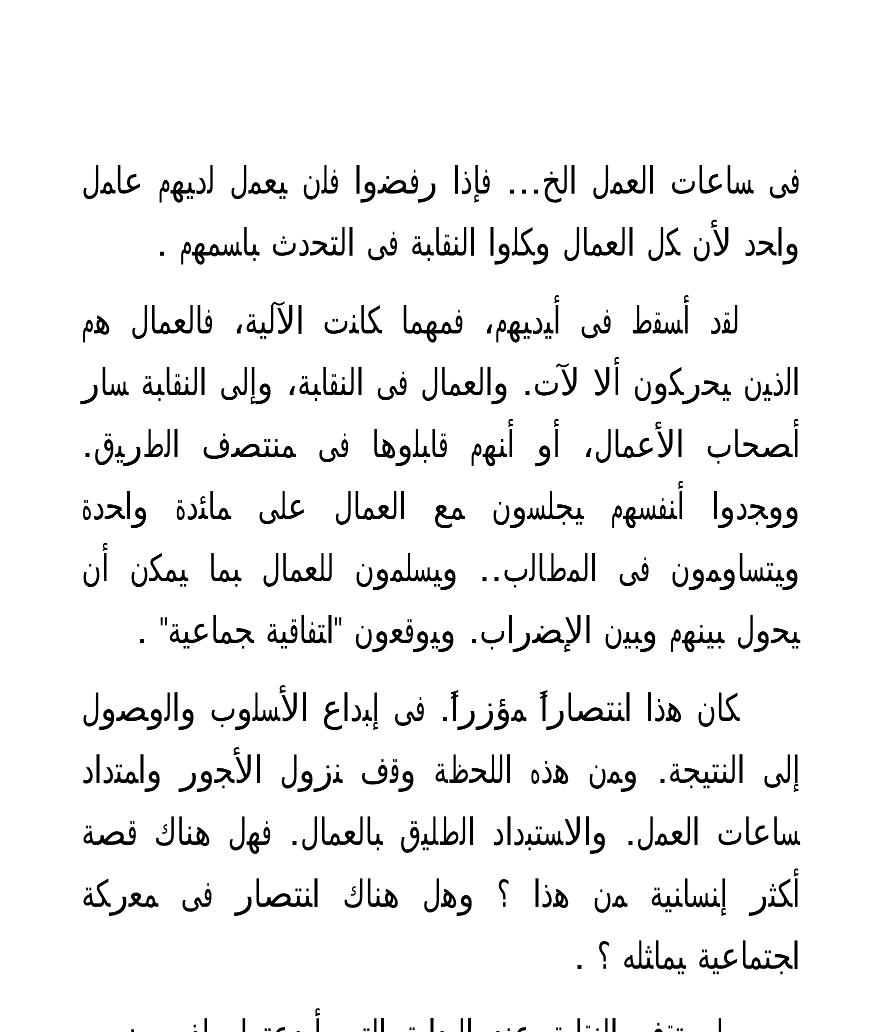
كان من الممكن أن يتحقق هذا الجحيم الذى يعيش فيه العمال كما لو كانوا قطيعاً آدميا، مسخراً للعمل وتستبعد منه كل أثاره لإنسانيته ...

لو لم تقم النقابات ...

الفكرة الجوهرية فى النقابية: احتكار عرض العمل

ووسيلة التطبيـق : الاتفاقيـات الجـماعيـة ...

لكى يمكن للحركة النقابية مقاومة هجمة الاستغلال الرأسمالى العاتية. أبدعت تكنيكا لم يتصوره دهاقنة الصناعة والاقتصاد السياسى وقتئذ، واستطاعت بهذا التكنيك. أن "تحتكر" عرض العمل فشلت حرية هذا القانون وانطلاقته التى تحكم على العمال بالعبودية ووجد أصحاب الأعمال أنفسهم ذات يوم وقد ظهرت هيئة أسمها نقابة تضم كل العمال. وتتقدم باسم العمال طالبه زيادة فى الأجور وتقصيراً



فى ساعات العمل الخ... فإذا رفضوا فلن يعمل لديهم عامل واحد لأن كل العمال وكلوا النقابة فى التحدث باسمهم .

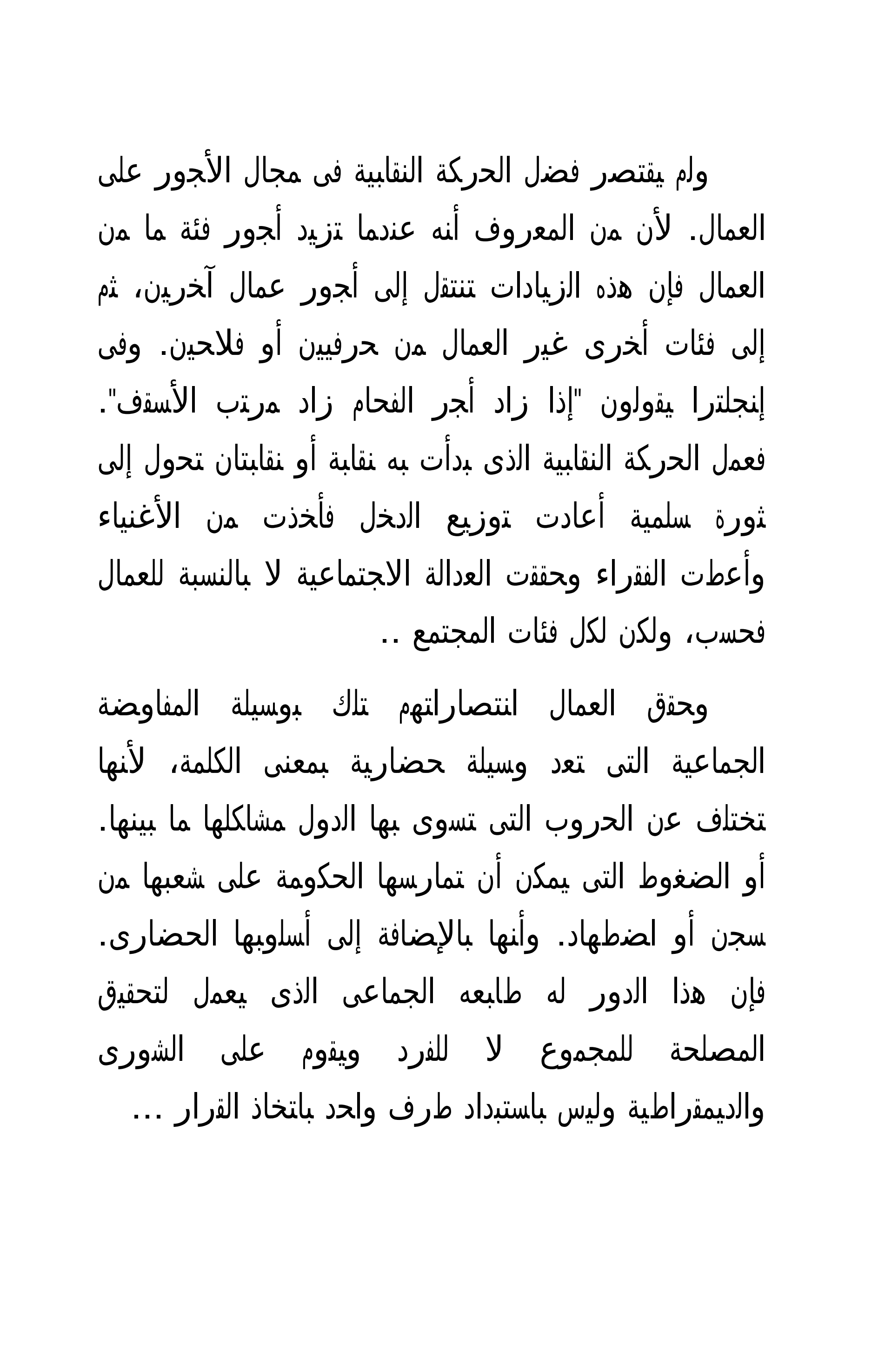
لقد أسقط فى أيديهم، فمهما كانت الآلية، فالعمال هم الذين يحركون ألا لآت. والعمال فى النقابة، وإلى النقابة سار أصحاب الأعمال، أو أنهم قابلوها فى منتصف الطريق. ووجدوا أنفسهم يجلسون مع العمال على مائدة واحدة ويتساومون فى المطالب.. ويسلمون للعمال بما يمكن أن يحول بينهم وبين الإضراب. ويوقعون "اتفاقية جماعية" .

كان هذا انتصاراً مؤزراً. فى إبداع الأسلوب والوصول إلى النتيجة. ومن هذه اللحظة وقف نزول الأجور وامتداد ساعات العمل. والاستبداد الطليق بالعمال. فهل هناك قصة أكثر إنسانية من هذا ؟ وهل هناك انتصار فى معركة اجتماعية يماثله ؟ .

ولم تقف النقابة عند البداية التى أبدعتها. إذ وضعت سياسة دقيقة ومحكمة لكفالة استمرار زيادة الأجور عند تجديد كل اتفاقية، ومدتها فى العادة ما بين سنة وثلاث سنوات، وحددت هذه الزيادة بشكل يجعله الأفضل لصاحب العمل ويحول بينه وبين أن يدخل معركة مستقتلة مع

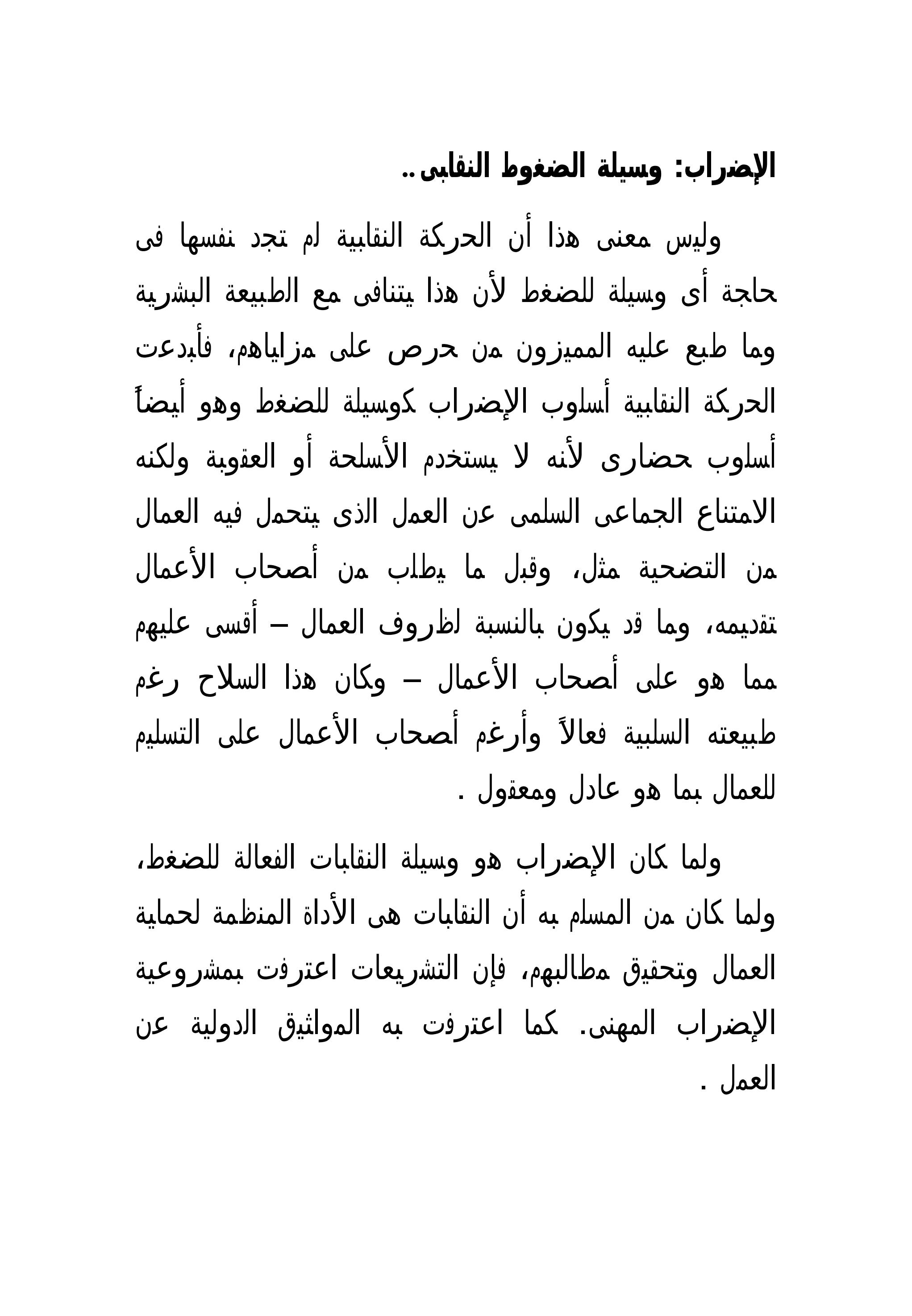
العمال.. أو يغلق المصنع الخ... بحيث أذعن فى النهاية، وبذلك فرضت النقابات علاوات دورية على الأجور، وعلاوات أخرى طبقاً للإنتاج. وعندما خدعها أصحاب الأعمال. فمنحوا العمال الزيادات المطلوبة فى الأجور، ثم رفعوا الأسعار. بما يزيد عن زيادة الأجور، ووجد العمال أنهم كمستهلكين يخسرون ما كسبوه كمنتجين، لم تستسلم النقابة، إذ توصلت إلى إدماج مادة فى الاتفاقيات الجماعية تنص على أنه إذا زادت أسعار المواد الرئيسية التى هى قوام معيشة العامل من خبز أو لحم أو سكر أو زيت الخ... بنسبة مئوية معينة. فإن الأجور تزيد بالنسبة المئوية التى زادت بها الأسعار ..

وهكذا استطاعت الحركة النقابية أن ترفع المستوى العام للأجور. وأن تكفل له زيادات دورية، وزيادات مع زيادة الإنتاج وزيادات مع زيادة الأسعار.. وكل زيادة من هذه الزيادات المادية لها ترجمتها الإنسانية: عواطف ومشاعر، واستقرار وأمن نوراً ودفئاً واستقراراً، ورضا وقدرة على الاستمتاع بالحياة وممارسة مجالات النشاط الإنسانى من فنون وآداب .



ولم يقتصر فضل الحركة النقابية فى مجال الأجور على العمال. لأن من المعروف أنه عندما تزيد أجور فئة ما من العمال فإن هذه الزيادات تنتقل إلى أجور عمال آخرين، ثم إلى فئات أخرى غير العمال من حرفيين أو فلاحين. وفى إنجلترا يقولون "إذا زاد أجر الفحام زاد مرتب الأسقف". فعمل الحركة النقابية الذى بدأت به نقابة أو نقابتان تحول إلى ثورة سلمية أعادت توزيع الدخل فأخذت من الأغنياء وأعطت الفقراء وحققت العدالة الاجتماعية لا بالنسبة للعمال فحسب، ولكن لكل فئات المجتمع ..

وحقق العمال انتصاراتهم تلك بوسيلة المفاوضة الجماعية التى تعد وسيلة حضارية بمعنى الكلمة، لأنها تختلف عن الحروب التى تسوى بها الدول مشاكلها ما بينها. أو الضغوط التى يمكن أن تمارسها الحكومة على شعبها من سجن أو اضطهاد. وأنها بالإضافة إلى أسلوبها الحضارى. فإن هذا الدور له طابعه الجماعى الذى يعمل لتحقيق المصلحة للمجموع لا للفرد ويقوم على الشورى والديمقراطية وليس باستبداد طرف واحد باتخاذ القرار ...



الإضراب: وسيلة الضغوط النقابى..

وليس معنى هذا أن الحركة النقابية لم تجد نفسها فى حاجة أى وسيلة للضغط لأن هذا يتنافى مع الطبيعة البشرية وما طبع عليه المميزون من حرص على مزاياهم، فأبدعت الحركة النقابية أسلوب الإضراب كوسيلة للضغط وهو أيضاً أسلوب حضارى لأنه لا يستخدم الأسلحة أو العقوبة ولكنه الامتناع الجماعى السلمى عن العمل الذى يتحمل فيه العمال من التضحية مثل، وقبل ما يطلب من أصحاب الأعمال تقديمه، وما قد يكون بالنسبة لظروف العمال – أقسى عليهم مما هو على أصحاب الأعمال – وكان هذا السلاح رغم طبيعته السلبية فعالاً وأرغم أصحاب الأعمال على التسليم للعمال بما هو عادل ومعقول .

ولما كان الإضراب هو وسيلة النقابات الفعالة للضغط، ولما كان من المسلم به أن النقابات هى الأداة المنظمة لحماية العمال وتحقيق مطالبهم، فإن التشريعات اعترفت بمشروعية الإضراب المهنى. كما اعترفت به المواثيق الدولية عن العمل .

وبالطبع لم يقف إطار العمل النقابى حول زيادة الأجر فقد شمل تقصير ساعات العمل، وتطبيق وسائل الأمن الصناعى وكل ما يتعلق بصحة العمال الخ... وممارسة هذه المطالب كان يوسع إطار "الشورى" الصناعية مع أصحاب الأعمال بحيث حققت **النقابات الديمقراطية بعد أن حققت العدالة** دون أن تتورط فى أوزار السياسة .

ميثاق الشعب ١٨٣٨ – ١٨٤٨ ..

قامت الحركة النقابية البريطانية بدور جماهيرى بارز لإصلاح النظام الانتخابى الذى كان قد طال عليه العهد وظل قرابة ٤٠٠ سنة دون تغيير فى الحركة التى حملت اسم الميثاقية Chartism وأخذت الحركة هذا الاسم لأنها تبلورت فى تقديم ميثاق Charter أطلق عليه العمال "ميثاق الشعب" وكان يستهدف أن تحقق الحكومة ستة مطالب هى :

١. <u>إعطاء حق الانتخاب لجميع الذكور.</u> لأن هذا الحق كان مقصوراً على فئات بعينها، وفكر الميثاقيون فى أن يكون هذا الحق لجميع الشعب (رجالاً ونساء) ولكنهم تفادوا مقاومة – أو حتى سخرية – المجتمع البريطانى لو طالبوا بحق الانتخاب للنساء فقصروه على الذكور .

٢. أن يكون الانتخاب بالاقتراع السرى. لأنه كان يتم بصورة علنية كانت تجعل الناخبين تحت تأثير المرشحين الأقوياء أو الأثرياء الذين يتابعون العملية الانتخابية

٣. المساواة والعدالة فى توزيع الدوائر. لأن الدوائر كانت قد حددت منذ ٤٠٠ سنة وفى هذا الوقت كانت إحدى المناطق مأهولة ومن حقها انتخاب نائبين، ولكن التطور الاقتصادى والإنتاجى أدى إلى هجرة سكانها إلى مناطق جديدة. وهذه المناطق لم يكن لها حق الانتخاب لأنها كانت وقت تحديد الدوائر أرضاً بوراً. وكانت نتيجة ذلك أن كان من حق منطقة مهجورة انتخاب نائبين بينما حرمت المناطق الصناعية حيث مناجم الفحم والحديد وتركزات العمال من حق انتخاب نواب .

٤. إلغاء اشتراطات الملكية المرشحين. لأن الفكر السياسى القديم أعتبر أن الملاك الذين يملكون الثروات هم "أصحاب المصلحة الحقيقية" أما المعدمون فليس لهم مصلحة !

٥. **منح النواب مرتبات.** لأن النواب لم يكونوا يمنحون مرتبات من مجلس العموم – لأنه رغم اسمه – كان أرقى نادى فى أوربا كما يقولون. وكان أعضاءه من أصحاب المصانع وكبار التجار الخ...

ولم يكن هؤلاء فى حاجة إلى مرتبات. وإنما يرشـحون أنفسهم حتى لا يمكـن للحكومـة أن تفـرض ضـريبة إلا بموافقتهم. وهذا الوضع يتغير بالطبع إذا دخله عمال ليس لهم دخل خاص .

٦. أن تكون مدة الدورة النقابية سنة .

وأخذ الميثاق صورة عريضة تطالـب بتحقيـق هـذه المطالب يوقع عليه العمال فى كل مصـنع. وتؤخـذ هـذه العرائض وتلصق على شريط عريض يلـف حـول بكـرة ضخمة دخلت من باب مجلس العموم بصعوبة لكى ينظر فيها ..

وقدم الميثاق ثلاث مرات، وبلغت التوقيعات عليه فى المرتين الأخيرتين بضعة ملايين وقاربت الحماسة المحمومة حد للثورة، وأصبح الحديث عن السلاح والبحث عنه أمرا

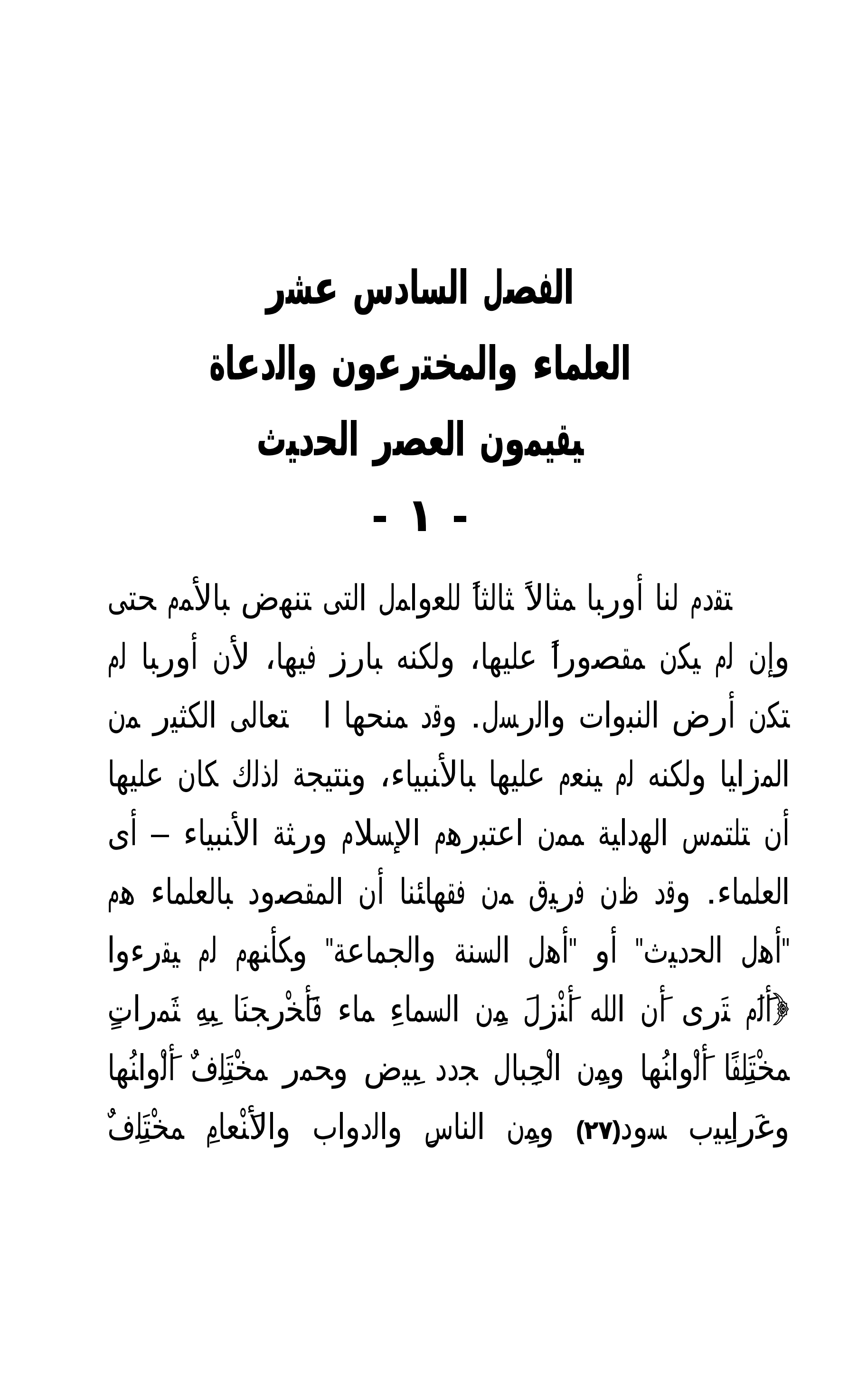
مألوفا، وعادت مرة أخرى فكرة الإضراب العام طوال شهر مقدس حتى ينفذ الميثاق، وحصنت الحكومة لندن ومواقعها وعبأت جنودها، وجاءت بالدوق ولنجتن العجوز قاهر نابليون وبطل وترلو قائدا ليشرف على تحصينات مدينة لندن يوم قدم الميثاق للمرة الأخيرة سنة ١٨٤٧.

ولم يتحقق أى مطلب من مطالب الميثاق عندما قدم فى المرات الثلاث (١٨٣٨ – ١٨٤٨) لعزوف أعضاء مجلس العموم، ولكن المطالب تحققت واحدة أثر الأخرى. بفعل التطورات وضغوط النقابات والمصلحين وهيئات المجتمع. وكان آخرها تطبيقاً هو منح النواب مرتبات. ولم يتحقق إلا سنة ١٩١٣ عندما أصبح عدد من العمال المرشحين نواباً. وتعين صرف مرتبات لهم .

المطلب الوحيد الذى لم يتحقق هو أن تكون مدة الدورة الانتخابية سنة واحدة، إذ أتضح أن هذا غير عملى، وأن العمال عندما طالبوا به كانوا متأثرين بالدورة النقابية التى كانت وقتئذ لمدة عام .

ويجب أن لا ننسى أن الحركة النقابية كانت هى قاعدة تكوين حزب العمال الذى حل محل حزب الأحرار وأصبح هو وحزب المحافظين فرسى رهان ...

وأخيراً فقد كانت للحركة النقابية البريطانية الفضل فى تدعيم دعوة "الأممية الأولى" التى تكونت سنة ١٨٦٤ واتخذت من لندن مقراً لها، **وهى أول صورة "لعولمة" جماهيرية شعبية وكان يمكن أن تزدهر لولا تدخل ماركس فيها .**



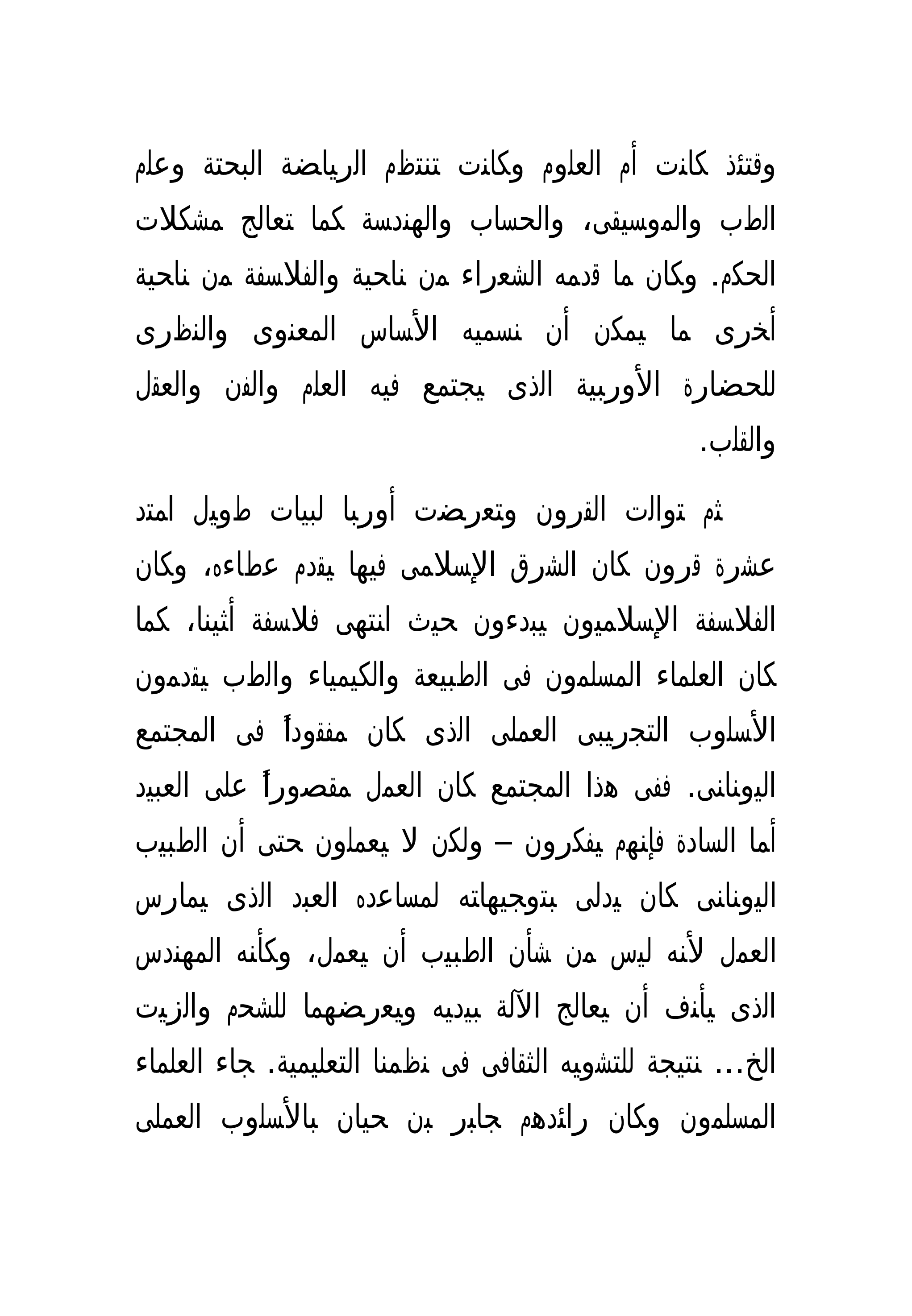
الفصل السادس عشر
العلماء والمخترعون والدعاة
يقيمون العصر الحديث
- ١ -

تقدم لنا أوربا مثالاً ثالثاً للعوامل التى تنهض بالأمم حتى وإن لم يكن مقصوراً عليها، ولكنه بارز فيها، لأن أوربا لم تكن أرض النبوات والرسل. وقد منحها ا تعالى الكثير من المزايا ولكنه لم ينعم عليها بالأنبياء، ونتيجة لذلك كان عليها أن تلتمس الهداية ممن اعتبرهم الإسلام ورثة الأنبياء – أى العلماء. وقد ظن فريق من فقهائنا أن المقصود بالعلماء هم "أهل الحديث" أو "أهل السنة والجماعة" وكأنهم لم يقرءوا ﴿أَلَمْ تَرى أَن الله أَنْزلَ مِن السماءِ ماء فَأَخْرجنَا بِهِ ثَمراتٍ مخْتَلِفًا أَلْوانُها ومِن الْجِبال جدد بِيض وحمر مخْتَلِفٌ أَلْوانُها وغَرابِيب سود(٢٧) ومِن الناسِ والدواب والأَنْعامِ مخْتَلِفٌ

أَلْوانُه كَذَلِكَ إِنما يخْشَى الله مِن عِبادِهِ الْعلَماء إِن الله عزِيز غَفُور﴾. {٢٧ فاطر} ..

"لقد أراد القرآن الكريم بالعلماء هنا كل الذين يستكشفون الآفاق الجديدة ويلمون بالأبعاد العديدة للحقيقة ويعملون عقولهم فيما يرون ويستخدمونها فيما يريدون.. سواء كانوا علماء أدب وفن، أو علماء طبيعية ورياضية، أو جغرافيا وجيولوجيا أو فلاسفة يعالجون من منطلق العقل ما عالجه الأنبياء من منطلق الوحى حتى يقفوا على باب الألوهية المقدس.. حيث لا يجرؤ عقل على الدنو .

من فجر التاريخ الأوربى ظهر الشعراء والروائيون العظام فى اليونان وقدموا للشعب تلك الروائع الشعرية والمسرحية التى بلورت "الوجدان" اليونانى، وفيما بعد، الأوربى وضمنوها أمثلة عديدة للمغامرة والشجاعة، والقوة، والجرأة.. وهى بوجه خاص الفضائل التى تتجاوب مع النفسية الأوربية، ثم ظهر الفلاسفة الذين كللوا فى العصر القديم بسقراط وأرسطو وأفلاطون فعالجوا مشاكل الوجود، والكون، والحياة، والموت، والطبيعة وما توحى به آياتها وظواهرها.. كما عالجوا مفاتيح كل العلوم تقريباً لأن الفلسفة



وقتئذ كانت أم العلوم وكانت تنتظم الرياضة البحتة وعلم الطب والموسيقى، والحساب والهندسة كما تعالج مشكلات الحكم. وكان ما قدمه الشعراء من ناحية والفلاسفة من ناحية أخرى ما يمكن أن نسميه الأساس المعنوى والنظرى للحضارة الأوربية الذى يجتمع فيه العلم والفن والعقل والقلب.

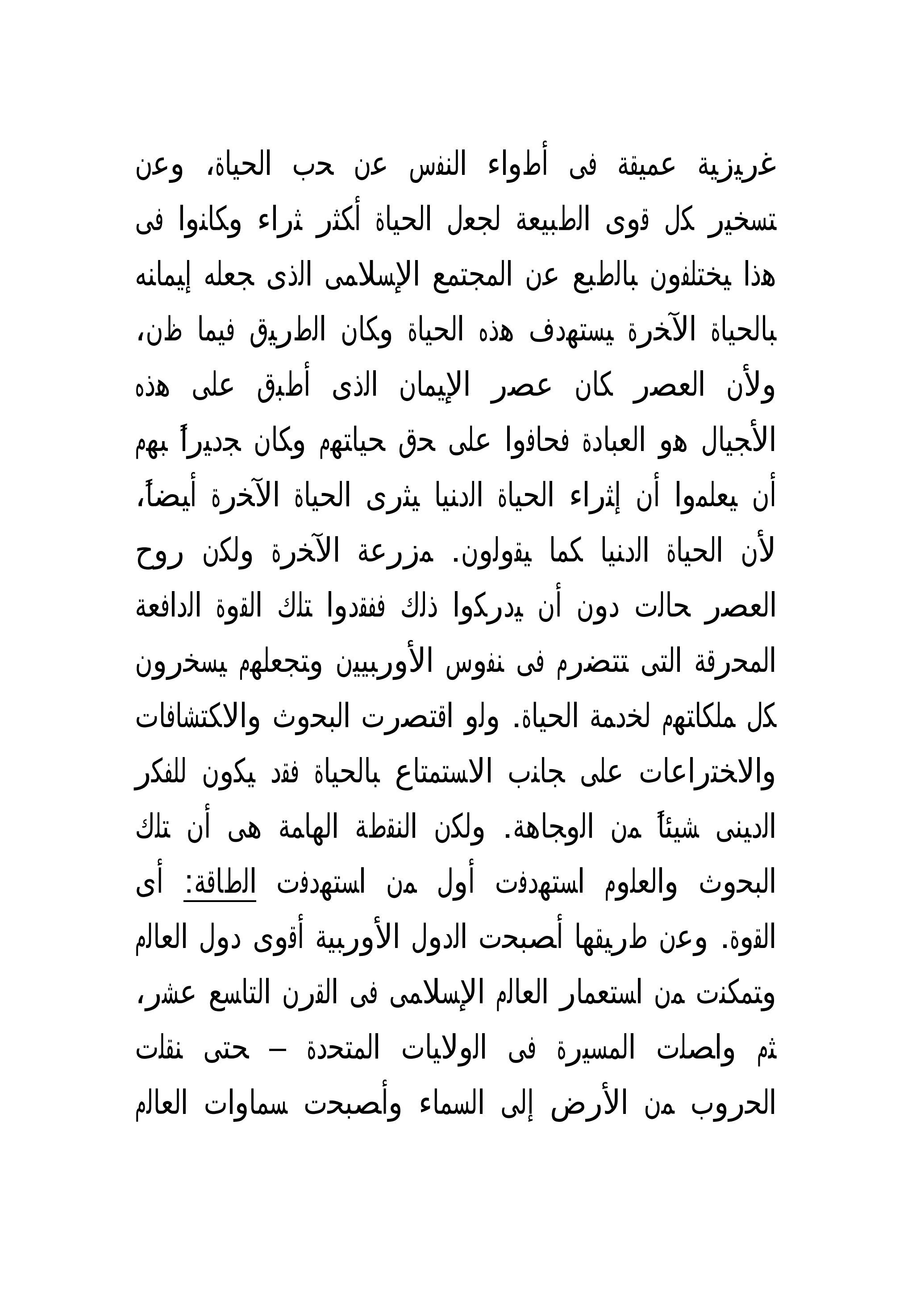
ثم توالت القرون وتعرضت أوربا لبيات طويل امتد عشرة قرون كان الشرق الإسلامى فيها يقدم عطاءه، وكان الفلاسفة الإسلاميون يبدءون حيث انتهى فلاسفة أثينا، كما كان العلماء المسلمون فى الطبيعة والكيمياء والطب يقدمون الأسلوب التجريبى العملى الذى كان مفقوداً فى المجتمع اليونانى. ففى هذا المجتمع كان العمل مقصوراً على العبيد أما السادة فإنهم يفكرون – ولكن لا يعملون حتى أن الطبيب اليونانى كان يدلى بتوجيهاته لمساعده العبد الذى يمارس العمل لأنه ليس من شأن الطبيب أن يعمل، وكأنه المهندس الذى يأنف أن يعالج الآلة بيديه ويعرضهما للشحم والزيت الخ... نتيجة للتشويه الثقافى فى نظمنا التعليمية. جاء العلماء المسلمون وكان رائدهم جابر بن حيان بالأسلوب العملى

والتجريبى، وكان هو أول كيميائى فى التاريخ استخدم النار والأنابيب والأنبيق والبوتقة والتقط العلماء الأوربيون عندما بدءوا نهضتهم هذه الأساليب فيما التقطوه من عناصر إصلاح شملت حتى الكنيسة والإصلاح الدينى الذى كان تطبيقاً للأصول الإسلامية فى نفى الوساطة بين ا والإنسان وتحريم الصور والتماثيل والشفاعة الخ... التى كانت تعج بها المذاهب الكاثوليكية .

بدأت النهضة الأوربية وكان من سعدها أن بدأت فى عصر جاوز عصر الإيمان ليبدأ عصر العقل. لأنهم كانوا أنداده وأجناده وأبطاله.. وكما بددت الأديان ظلمات الكفر والوثنية وأضاءت بقبس من الألوهية سبيل الهداية والإيمان، فإن العقل جاء بالعلم ليستكشف العوالم المحيطة بالإنسان وليجيب على الأسئلة كيف؟ ولماذا... وكأنه يطبق التوجيه القرآنى فى التدبر فى السماء والأرض والليل والنهار والعناصر والمعادن والإنسان وما يعرض له من صحة ومرض واختلاف الأجناس والألوان واللغات الخ... بدءوا حيث انتهى العلماء المسلمون وتسلحوا بالأسلوب العلمى

والتجريبى الذى بدأه العلماء المسلمون ثم ويا للأسف نسوه وأهملوه .

ومما يثير الدهشة أن معظم الاكتشافات التى أحدثت الثورة الصناعية والثورة العلمية والتى انتهت بالأجهزة والاكتشافات الكبرى كالات البخارية، والتليفون والكهرباء والسيارات الخ... كلها بدأت بدايات بسيطة ساذجة، وعلى أيدى مهرة الصناع وأجريت التجارب عليها فى البيوت وكانت المصادفة العارضة عاملاً فيها.. وعندما يتساءل الإنسان ولماذا لم تتح هذه العوامل للعلماء المسلمين وهم الذين بدءوا المسيرة لكان الرد أن الأوربيين قد رزقوا قوة ملاحظة نفاذه. فما الذى يجمع بين إطارة البخار لغطاء الحلة المغلقة، وبين فكرة استخدام البخار كقوة دافعة.. وبين سقوط تفاحة، وقانون جاذبية الأرض.. إن الكثير من الاختراعات جاءت عن طريق مصادفات كهذه كان يمكن أن تذهب أدراج الرياح لولا قوة الملاحظة، وما هو أهم، أن المجتمع الأوربى مجتمع حيوى يؤمن بالحياة، والحياة هى رأس ماله الوحيد، فهو لا يفكر فى حياة أخرى بعد الموت. إن الحياة هى جنته وناره، ومن أحل هذا فوراء علمه، وفلسفته، وفنونه، رغبة



غريزية عميقة فى أطواء النفس عن حب الحياة، وعن تسخير كل قوى الطبيعة لجعل الحياة أكثر ثراء وكانوا فى هذا يختلفون بالطبع عن المجتمع الإسلامى الذى جعله إيمانه بالحياة الآخرة يستهدف هذه الحياة وكان الطريق فيما ظن، ولأن العصر كان عصر الإيمان الذى أطبق على هذه الأجيال هو العبادة فحافوا على حق حياتهم وكان جديراً بهم أن يعلموا أن إثراء الحياة الدنيا يثرى الحياة الآخرة أيضاً، لأن الحياة الدنيا كما يقولون. مزرعة الآخرة ولكن روح العصر حالت دون أن يدركوا ذلك ففقدوا تلك القوة الدافعة المحرقة التى تتضرم فى نفوس الأوربيين وتجعلهم يسخرون كل ملكاتهم لخدمة الحياة. ولو اقتصرت البحوث والاكتشافات والاختراعات على جانب الاستمتاع بالحياة فقد يكون للفكر الدينى شيئاً من الوجاهة. ولكن النقطة الهامة هى أن تلك البحوث والعلوم استهدفت أول من استهدفت الطاقة: أى القوة. وعن طريقها أصبحت الدول الأوربية أقوى دول العالم وتمكنت من استعمار العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر، ثم واصلت المسيرة فى الولايات المتحدة – حتى نقلت الحروب من الأرض إلى السماء وأصبحت سماوات العالم

مكشوفة أمام الطائرات والصواريخ الخ... من هنا ظهر خطأ الفكرة التى استولت على أذهان المفكرين الإسلاميين سواء كانوا مفسرين أو محدثين أو فقهاء، أو شعراء، عن تسخير الحياة الدنيا للآخرة بالعبادة من صلوات أو ابتهالات أو صوم الخ... وكان قمينا بهم أن يعملوا لجعل إثراء الحياة الدنيا وأن تكون مجال قوة تجعل المسلمين أعزة، ولا عزة إلا بالقوة .

وبجانب هذا الانغلاق الدينى، وجد الاستبداد السياسى لطغاة حكموا حكماً مطلقاً وأهدروا ضمانات العدالة وآليات الشورى التى أوجبها الإسلام، وكان الكثير منهم قادة عسكريين ولم يكن معظمهم من أهل المنطقة ولم يكن لديهم شعور بأن الحكم وظيفة لتعمير الأرض وإصلاح المجتمع وإسعاد الناس. وبينما كان ملوك أوربا وأمراؤها يشجعون "العلم ويقدرون المكتشفين كان ملوك الشرق وخلفاؤه يكافحون الشعراء الذين يمدحونهم ويجزبون لهم العطاء. فكانوا من أكبر أسباب تأخر العالم الإسلامى .

هذا استطراد رأينا فيما يبدو أنه هام لأنه يجيب على علامة استفهام مزعجة، ولأنه قد يسهم فى تصحيح وضع خاطئ ...

ولنعد مرة أخرى إلى السياق ..

فنرى أن عملية اكتشاف قوى الطبيعة بدأت فى مجال الطاقة – أى القوة التى كانت حتى ذلك الوقت هى العضلات الإنسانية أو قوى الحيوان. وبدأت مع استخدام ظاهرة "قوة البخار" وطرأت فكرة حبسه فى قناة ضيقة بعد غلى الماء بنار الفحم حتى يصبح له قوة دافعة تسلك طريقها فى سلسلة من القنوات بحيث تحرك تروساً أو روافع. أو أجهزة فى آلات وبدا استخدام الفكرة فى صناعة الغزل والنسيج، وضمت المجموعة التى توصلت إلى ذلك غزالاً، وحلاقاً، وقسيساً، وراعباً بحيث ظهر فى النهاية المغزل الآلى ونول النسيج الميكانيكى، بينما كان هناك محاولات جادة لاستخدام البخار فى المضخات التى تسحب الماء من مناجم الفحم، ودفع بإحدى هذه المضخات إلى ميكانيكى نابغ هو جيمس وات الذى عكف على إصلاحها بحيث أصبحت تؤدى المهمة بكفاءة .

وانتقلت الفكرة إلى مجال آخر هو مجال النقل الذى كان بدء التقدم فيه هو إقامة قضبان حديدية تسير عليها عربات تجرها الخيول. وكان هذا بالطبع يكفل سرعة أكثر من

سرعة العربات على الأرض. ولكن جورج استفنس – وقد كان وقادا وميكانيكيا – فكر فى استخدام قوة البخار فى آلة تقوم بجر العربات – أى القطار وذلك بتحويل الطاقة من المحرك إلى عجلات الجر عن طريق عجلات مسننة، وعكف على ذلك حتى توصل إلى صنع قاطرته التى أطلق عليها "الروكت" التى ركبها خمسة وثلاثون راكبا وسارت بسرعة ٢٥ ميلاً فى الساعة وكانت تلك هى البداية المتواضعة التى سارت قدماً حتى ظهرت القطارات التى تسير بسرعة مائة ومائتى كيلو وتجر عشرين عربة وكانت أكبر عامل فى بلوغ الأراضى البعيدة واستثمارها وربطها وإنتاجها بالأسواق .

كان البحث عن "الطاقة" فى حقيقته تعبيراً عن إرادة المجتمع الأوربى التوصل إلى "القوة" وهذا هو ما كان فى ذهن جيمس وات. وعندما زاره ملك إنجلترا فى ورشته هو وشريكه بولتن وقال له فى آنفة الملوك .

- ماذا تصنعون .

- أجاب إننا نصنع يا مولاى ما يريده كل الناس "القوة" Power .

ولهذا لم يكن اكتشاف البخار إلا الخطوة الأولى فى سبيل استكشاف القوى التى وصلت إلى الكهرباء ثم إلى الذرة..

وكان المجتمع الأوربى فى بحثه عن القوة، وفى استخدامه العلم لتسخير الطبيعة وعناصرها لخدمة الحياة مسوقاً بتلك بروح الحيوية، وحب الحياة وجعلها محوراً ومنطلقاً للنشاط الإنسانى .

وعبرت كتابات فرانسيس بيكون ١٥٦١ – ١٦٢٦ عن التكييف الجديد للعالم والوسائل العلمية للتعامل مع قوى الطبيعة فى مؤلفه Novm Organum الذى رزق انتشاراً وأثار انتباه الجمهور للعلم والبحث العلمى ثم جاء ديكارت فحرر الفكر من إسار الاتباع الأعمى وضرورة التثبت من صحة الأحكام واختبارها على محك العقل والتجربة .

"ومما أمتاز به القرن السابع عشر إنشاء جمعيات علمية فى مختلف الحواضر الأوربية. غايتها أن تضم رجال البحث العلمى والفلسفى، للمباحثة والمناقشة حثاً للهمم وشحذاً للأذهان فتألفت فى إيطاليا سنة ١٨٠٣ الجمعية اللينوسية (Linneanنسبة إلى لينيوس العالم النباتى) برعاية المركيز

فردريجو شيزى وكان غليليو عضواً فيها ثم انحطت فحلت محلها الجمعية المشهورة باسم مدرسة الطبيعيين الفلورنسيين (نسبة إلى فلورنسة) فى سنة ١٦٥٧ ومن أشهر أعضائها توريشلى صاحب التجارب المشهورة فى ضغط الهواء. وفى فرنسا أنشئت أكاديمية العلوم الملكية سنة ١٩٦٦ فى عهد الملك لويس الرابع عشر. وتألفت جماعة فى اكسفرد سنة ١٦٤٥ تحولت فى عهد الملك تشارلز الثانى سنة ١٦٦٢ إلى معهد ملكى يعرف باسم الجمعية الملكية لتقدم العلوم واسمه المتداول الآن الجمعية الملكية فقط. ومما يتصل بإنشاء هذه الهيئات العلمية تأسيس مرصد باريس القومى سنة ١٦٦٧ ومرصد غرينتش سنة ١٦٧٥ .

أما وهذه هى الأحوال المؤاتية للعلم والبحث، فلا عجب أن يتصف النصف الثانى من القرن السابع عشر بنشاط عجيب فى البحث العلمى، وبتقديم أعجب فى الرياضة والطبيعة، وبطائفة ممتازة من أكبر العلماء والفلاسفة الطبيعيين أمثال بويل وهوك وهالى فى إنجلترا. وليبنتز وهوجنس وتوريشلى وباسكال فى ألمانيا وهولندا وإيطاليا وفرنسا. ولكن نيوتن كان بين معاصريه، كالجبل الشامخ،

كان جباراً بين جبابرة، كان عالماً لا يدانيه عالم آخر فى تنوع مباحثه وجمله ما أضافه من الحقائق والقواعد الأساسية إلى علوم الطبيعة. كان حقاً أميراً لفلاسفة الطبيعيين بلا منازع[١] .

ويضع أمامنا كتاب "أساطين العلم الحديث الذى وضعه فؤاد صروف محرر المقتطف سنة ٣٦ عقداً نظيماً للعلماء والمخترعين والمكتشفين الذين رادوا هذا الطريق من القرن السادس عشر حتى الفترة المعاصرة بدءاً من الذين وجهوا مراصدهم نحو السماء لاستكشاف النجوم والأقمار والكواكب والشمس مثل كوبرينكوس وكيلر وجليليو وهرشل أو الذين عالجوا الطبيعة مثل بريستلى ولافوازيه ودايفى وفاراداى ومكسول وميكلين ودالتون ومندليف وكورى ورذرفورد وماركونى ثم أديسن صاحب الألف اختراع وفورد الذى صنع السيارة والإخوان رايت اللذين صنعا الطائرة .

ومن الغريب أن الثورة الصناعية استهلت بفضل جهود صناع وعمال هم الذين توصلوا إلى استخدام قوة البخار فى

---

(١) أساطين العلم الحديث – الأستاذ فؤاد صروف ص٢٨ – المطبعة العصرية سنة ١٩٣٦ القاهرة .

آلات الغزل والنسيج ثم القطار البخارى.. ثم كادت الثورة تتكال ببضعه من الصناع والعمال هم أديسن الذى توصل إلى اكتشاف المصباح الكهربائى. والجرامفون ومئات الاختراعات الأخرى التى يسرت السينما وكان أديسن بائع صحف وعامل تلغراف وفصل من المدرسة وهو طفل لأنه غبى! فتولت أمه تربيته. وهذا الغبى هو الذى ضرب الرقم القياسى فى براءات الاختراع! أما فورد فكان ميكانيكيا وعامل فى إصلاح الساعات.. وهو الذى جعل من السيارة أداة عملية للركوب فقضى على عهد البغال والحمير وسمح بظهور المدن الكبيرة أما اللاذين صنعا الطائرة لأول مرة وهما الإخوان رايت فكانا أصحاب دكان لإصلاح الدراجات ومن إصلاح الدراجات حتى آفاق السموات أمام الإنسان وقدما "بساط الريح" للجميع ! .

وفى مجال الطب ظهر "غزاة الميكروب" الذين اكتشفوا لأول مرة بالعدسات المكبرة كائنات لا ترى بالعين المجردة. وقد رآها لأول مرة صانع عدسات هولندى يدعى لوفن هوك عندما نظر عبر إحداها فى قطرة ماء فوجدها تعج بمئات الكائنات الدقيقة. ودخل الحلبة باستور وكان ابناً لدباغ وحفيداً

لأحد أقنان الأرض فتوصل إلى ميكروب الكلب وشفا الناس من داء من أسوأ الأمراض ثم واصل المسيرة أطباء وعلماء كيمياء كشفوا جراثيم السل. والدفتريا والجمرة ومعظم الأمراض وخلصوا البشرية منها أو أوجدوا فى الناس مناعة أو حصانة منها .

ومع مشارف العصر ظهر جهاز جديد هو الكومبيوتر أو الحاسوب، وظهر معه "الإنترنت" كما ظهرت قنوات التليفزيون الفضائية التى تنقل مادتها عبر الأقمار الصناعية فأصبحت أخبار العالم كله وأحداثه تشاهد وقت وقوعها فى أفريقيا وإن حدثت فى أمريكا.. وفى أوربا وإن حدثت فى آسيا ..

هذا العالم الرائع – عالم العلم – عالم المعرفة: عالم معالجة الظواهر والعناصر والقوى وأسرار الحياة والموت والصحة والمرض. هذا العالم الذى حقق حلم الأقدمين فى الطيران إلى الكواكب.. والنزول على القمر.. العالم الذى أمسك "الجوهر الفرد" وحجر الفلاسفة والأكسير الذى يجعل الرصاص ذهباً واستخرج أقوى قوة من أصغر "ذرة" كل هذه العوالم توصل إليها الإنسان من بدايات متواضعة حتى

نهايات فاقت الخيال وجعلها العلماء فى خدمة البشرية.. هذه المعايشة هى التى يمكن أن ينفسها الملوك على العلماء.. أكثر مما ينفسها على الصوفى القديم (كما قالوا) ...

إن العالم الحديث وضع تحت تصرف العامل والعاملة من وسائل الحياة ما لم يصل إليه الملوك والأباطرة.. وجعله هنيا سهلاً سائغا يتم بضغطه من إصبع .

فالعصر الحديث يدين سدى ولحمة، إلى العلماء والمكتشفين والمخترعين وهم الذين بنوه طوبة ودفعوا المجتمع الإنسانى ونهضوا به كما لم ينهض أحد من قبل .

* * *

إن هذا التقدم والبحث والعلم والتوصل إلى الاكتشافات والاختراعات وأن كان قد بدأت متواضعة على ما أوضحنا فإن استمراره ومواصلة ما كان يمكن أن يتم لولا أن المجتمع الأوربى كان مجتمعاً واحداً رغم تعدد دوله. فكان العالم فى إنجلترا يستفيد من العالم فى فرنسا، وهذا يستفيد من إيطاليا، حتى روسياذر القضية قدمت الرجل الذى وضع جدول العناصر طبقا لوزنها الزى. فكان الجديد يبدأ حيث انتهى

القديم وكان العلماء فى الشرق والغرب يتبادلون المعارف ويستكمل بعضهم ما ببعض. وكان المناخ القائم هو مناخ الطموح نحو التقدم والثقة فى الإنسان .

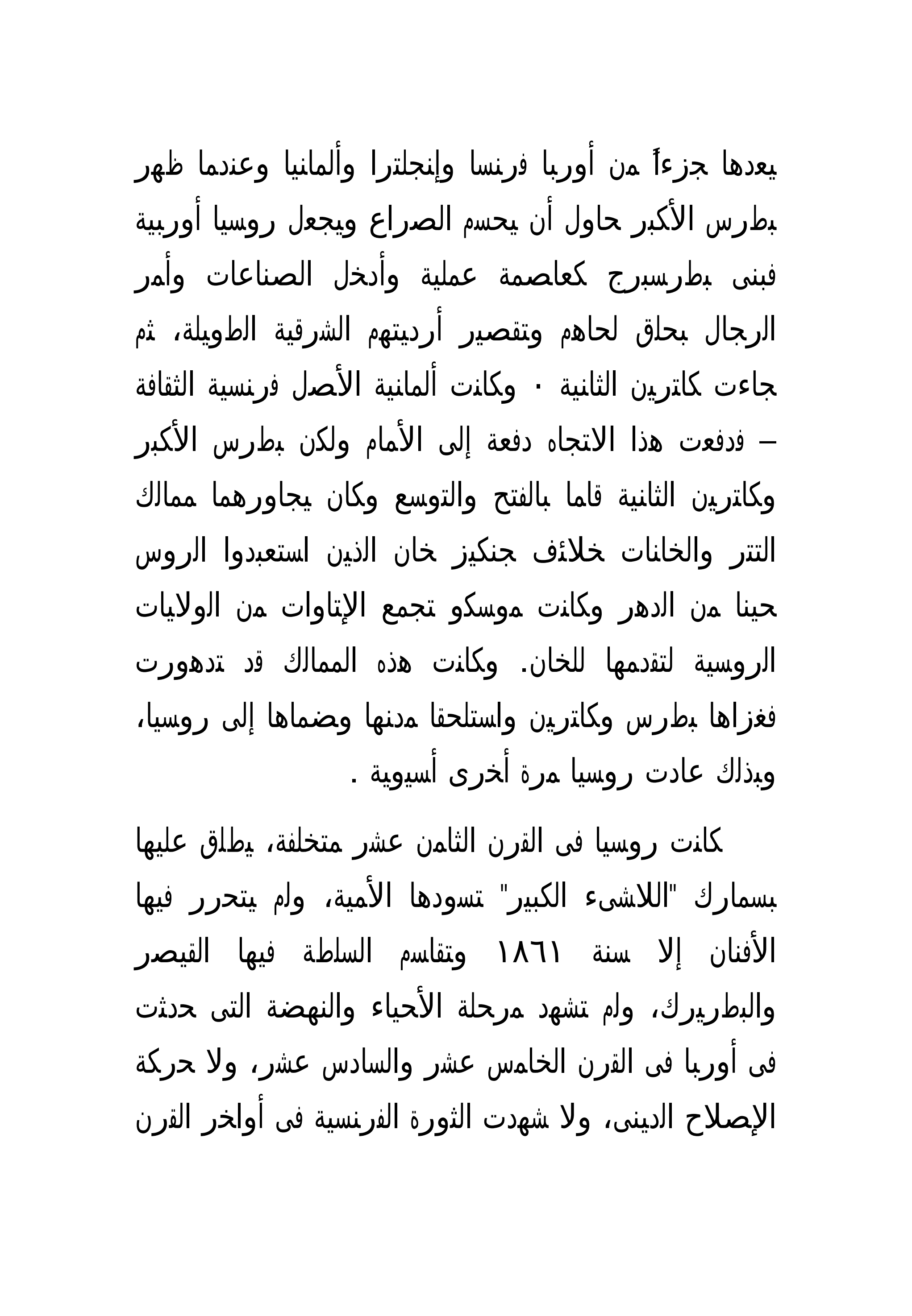
ظهر بجانب المخترعين والمكتشفين ورجال العلم الشعراء والفنانين الذين اسهموا فى تقدم المجتمع. إن مسرحية "لعبة البيت" للمسرحى النرويجى أيسن كانت دفعة نحو تحرير المرأة كما دفعت رواية "كوخ العم توم" دعوة تحرير العبيد فى الولايات المتحدة حتى أوقدت الحرب ورحب لنكولن بمؤلفتها "السيدة الصغيرة التى أضرمت الحرب الكبيرة" كما كان هناك الفلاسفة الذين وضعوا القيم للمجتمع ولا يتسع المجال لتعدادهم وحسبنا أن نذكر ديكارت الفرنسى الذى حرر الفكر من ربقة الاتباع والتقليد واجست كونت فيلسوف التقدم وكانت صاحب القيم والواجب وهيجيل الذى أبرز "الجدلية" التى قضت على منطق أرسطو الجامد وماركس الذى نقل الفلسفة من أبراج العاج إلى منابر الشعب وحولها دعوة للعدالة والانتصاف.. كل هؤلاء استكملوا للمجتمع الأوربى قيمه، وآدابه، وهذبوا طباعه .

فأنى للحكومات والدول أن تقوم بشىء مما قام هؤلاء العلماء وما كان السبب الحقيقى لنهضة الشعوب وتقدمها ..

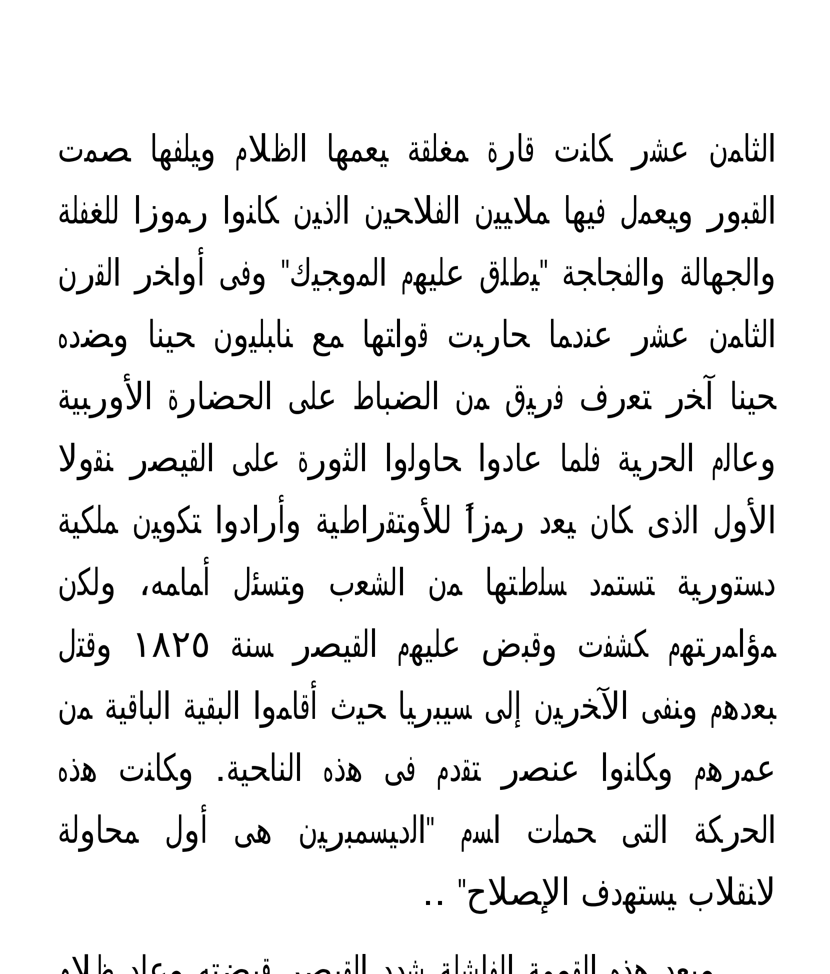
هل قامت الدول والحكومات باكتشافات واختراعات؟ هل عكفت على علوم وأبحاث؟ هل قدمت فلسفة للحياة.. هيهات. إن الحكومات لا تعنى بالعلوم والأبحاث إلا عندما تتعلق بالتسليح. وعنده تستغل ثمرتها فى قتل الملايين وتدمير المدن وإشاعة الفوضى والخراب، وقد ندم ندماً شديداً علماء الذرة من إينشتين حتى أوبنيهمر أنهم وضعوا أسرارها فى خدمة الحكومة الأمريكية فصنعت قنبلتين أزالتا مدينتين آهلتين بمئات الألوف من السكان فى غمضة عين .



قد لا تكون بعض البلاد محظوظة كالدول الأوربية التى تحدثنا عنها، ومع ذلك فإنها لم تحرم قوة تنهض بها، لم تكن هذه القوة هى اكتشافات العلماء.. ولا هى الإصلاحات السياسية ولكنها الأداب والفنون والدعاة وهذا ما حدث فى روسيا القصية البعيدة التى كانت على أطراف أوربا وأطراف آسيا وتمزقت هويتها بين الاثنين فكان هناك فريق سلافى يعود بها إلى آسيا البيزنطية وكان هناك فريق أوربى


يعدها جزءاً من أوربا فرنسا وإنجلترا وألمانيا وعندما ظهر بطرس الأكبر حاول أن يحسم الصراع ويجعل روسيا أوربية فبنى بطرسبرج كعاصمة عملية وأدخل الصناعات وأمر الرجال بحلق لحاهم وتقصير أرديتهم الشرقية الطويلة، ثم جاءت كاترين الثانية ٠ وكانت ألمانية الأصل فرنسية الثقافة – فدفعت هذا الاتجاه دفعة إلى الأمام ولكن بطرس الأكبر وكاترين الثانية قاما بالفتح والتوسع وكان يجاورهما ممالك التتر والخانات خلائف جنكيز خان الذين استعبدوا الروس حينا من الدهر وكانت موسكو تجمع الإتاوات من الولايات الروسية لتقدمها للخان. وكانت هذه الممالك قد تدهورت فغزاها بطرس وكاترين واستلحقا مدنها وضماها إلى روسيا، وبذلك عادت روسيا مرة أخرى أسيوية .

كانت روسيا فى القرن الثامن عشر متخلفة، يطلق عليها بسمارك "اللاشىء الكبير" تسودها الأمية، ولم يتحرر فيها الأفنان إلا سنة ١٨٦١ وتقاسم السلطة فيها القيصر والبطريرك، ولم تشهد مرحلة الأحياء والنهضة التى حدثت فى أوربا فى القرن الخامس عشر والسادس عشر، ولا حركة الإصلاح الدينى، ولا شهدت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن



الثامن عشر كانت قارة مغلقة يعمها الظلام ويلفها صمت القبور ويعمل فيها ملايين الفلاحين الذين كانوا رموزا للغفلة والجهالة والفجاجة "يطلق عليهم الموجيك" وفى أواخر القرن الثامن عشر عندما حاربت قواتها مع نابليون حينا وضده حينا آخر تعرف فريق من الضباط على الحضارة الأوربية وعالم الحرية فلما عادوا حاولوا الثورة على القيصر نقولا الأول الذى كان يعد رمزاً للأوتقراطية وأرادوا تكوين ملكية دستورية تستمد سلطتها من الشعب وتسئل أمامه، ولكن مؤامرتهم كشفت وقبض عليهم القيصر سنة ١٨٢٥ وقتل بعدهم ونفى الآخرين إلى سيبريا حيث أقاموا البقية الباقية من عمرهم وكانوا عنصر تقدم فى هذه الناحية. وكانت هذه الحركة التى حملت اسم "الديسمبرين هى أول محاولة لانقلاب يستهدف الإصلاح" ..

وبعد هذه القومة الفاشلة شدد القيصر قبضته وعاد ظلام الليل الدامس وصمت القبور الموحشة ..

ولكن بدا وسط تلك الظلمات الموحشة شهاب ثاقب بدد الظلمات وأحيى النفوس وأوجد وعياً وإحساساً بالحياة وأخترق الحجب حتى وصل إلى الريف الموحش المظلم .

كان هذا الشهاب هو الفنون والآداب. وبوجه خاص الشعر والرواية وظهر الشعراء والروائيون العظام بوشيكين، وتورجنيف، ودستوفيسكى وتولستوى وليونبيف الخ... كما ظهر الكتاب الاجتماعيون ودعاة التورات فأخذت الظلمات تنقشع.. والوعى يتيقظ، بل قد جاوزت الرواية الروسية بفضل عمالقتها الثلاث دستوفيسكى وتورجيف وتلستوى حدود روسيا ووصلت إلى أوربا حيث أثارت موجة من الإعجاب والحماسة كما ظهر الثوريون الذين دعوا إلى الثورة بمختلف أطيافها .

فانظر إلى التربة الهامدة وقد سقط عليها المطر فأحياها وأثمر فيها من كل زوج بهيج. تلك حالة روسيا عندما انقدها الشعر والأدب من سباتها وهمومها، ويأسها واستسلامها ..

ولاحظ كاتب أن الأدب الروسى هو أكثر آداب العالم تنبؤية وهو ملىء بالنذر والتنبؤات. والتحذير من الكارثة المقبلة سمة مميزة له. وقد شعر كثير من الكتاب الروس فى القرن التاسع عشر أن روسيا معلقة على شفا هاوية تكاد تتردى فيها. وكان القرن التاسع عشر بأسره وهو من جميع

القرون فى التاريخ الروسى – أعظمها فى القدرة الخلاقة – قرن الثورة الآخذة فى النمو ولم يولد الأدب الروسى من وفرة خلاقة سعيدة، بل من العذاب ومن يعيد البشرية المؤلمة ومن البحث عن الخلاص للناس كافة"[1] .

ومع أن الأدب الروسى كان روسيا صميما، فقد كان مضمونه إنسانيا بصورة مكنته من أن يحتل منزلة عالمية مرموقة. وأن يشغل مؤلفوه تروجنيف – ودستوفسكى وتلستوى محلاً رفيعاً فى العواصم الفنية الأوربية، وهذا بالطبع لأن هذا الأدب أنبثق من أعماق العذاب وآلام المعاناة واستهدف الخلاص .

كان بوشكين شاعر "الإمبراطورية" والمقرب من البلاط ومع ذلك فإنه كان يهيم بالحرية، ويستشعر الآم الجماهير ويصب لعنته على الطغاة .

ويذهب البعض إلى أن الدوائر الرجعية فى البلاط القيصرى هى التى استفزته لكى يبارز ضابطا محترفاً غازل زوجته وهى تعلم أنه مقتول لا محالة .

---

(١) أصل الشيوعية الروسية – تأليف نقولا برديـائف – ترجمـة فؤاد كامل. مراجعة د. راشد البراوى ص٨٢ .

وجاء فى بعض أشعاره :

نحن ننتظر وقلوبنا المشوقة تخفق
بالأمل فى الحرية المقدسة، كما ينتظر
عاشق شاب لحظة لقائه بحبيبته
كما لم يكن اتصاله بالبلاط ينسب الشعب ..
وسيتذكرنى القوم البسطاء طويلاً
لأن قيثارى جعل قلوبهم إلى الحنان تميل
وبالرحمة أهبت لأولئك الذين يسقطون ويهلكون

وبمدائح الحرية تفتت فى هذا العصر القاسى
ولا نعدم تنديداً عنيفاً بالقياصرة ..

أيها الطاغية الشرير
عليك وعلى أهلك لعنتى !
وفى سرور غامر أهب بذرتك
للموت، وأقدمك للهلاك الأبدى !

وتنبأ لرمنتوف فى قصيدته المسماة "نبؤه" التى نشرها سنة ١٨٣٠ .

سيـأتى ذلك اليـوم، ذلك اليـوم المظـلم لـ روسيـا،

حين يهوى تـاج القيصر.. وهؤلاء الذين أحبـوه يوما
لن يحبوه بعد، وسيعيش الكثيرون على الموت والدماء.
لن يمنح القانـون الـذى وطئ بالأقـدام مأوى للطفل
أو المرأة البـريئة. وسيجـوب الطاعون المنبعث من
الجـثث المتعفنة الأرض التى نـزل الحـزن بساحتها،
وينتـقل مـن كـوخ إلـى كـوخ طالبـا معـونـة
لا يستطيع أن يقدمها أحد،
وستقبـض آلام المجـاعة الرهيـبة على مخنق الريف
بمخالب لا ترحم .

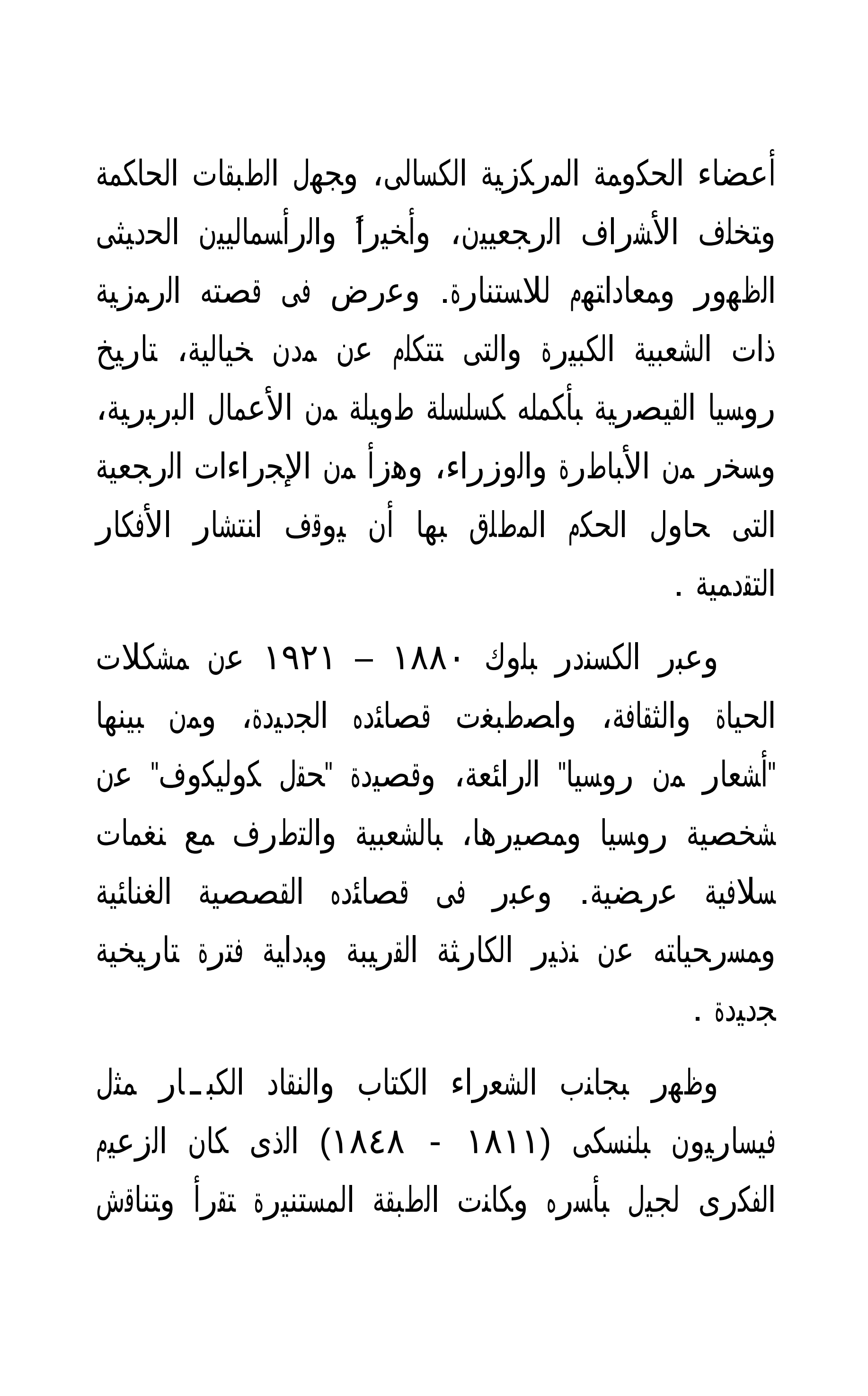
ووجد الضمير المعذب لشقاء الجماهير شاعره فى نيقولا نكراسوف ١٨٢١ – ١٨٧٧ الذى جاء ليقود القراء فى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر وصور فى قصائده أنواع الفلاحين والمناظر الطبيعية الروسية "جاك فروست"، "أورينا"، و "أم الجندى" الملحمية، الخ... بأسلوب واقعى دارج. وعبرت قصائده الأخيرة عن حزن الملايين من أبناء وطنه وشقائهم، وبدا لمعاصريه أن سوداويتهم ومزاجهم الذى يقرب من اليأس، يمثل الواقع حقيقة. ومعظم قصائده الطويلة مثل قصيدته الشائعة "من يجد الحياة طيبة فى

روسيا؟" أو "النساء الروسيات" (عن زوجات الديسمبريين اللاتى تبعن أزواجهن إلى منفاهم) .

وكان نكراسوف يؤمن برسالة الشعر الاجتماعية، وكانت تعليقاته على الأحداث الجارية تخاطب بوضوح أمثاله الذين يؤمنون بـ "أمتنا روسيا التعسة الثرية المظلومة ذات البطش. الضعيفة القوية .

وكانت مادة شعره ولغته أيضاً شديدتى التحدى، وتحدث عن الطرق الحديدية، والبنوك، والعمل اليدوى، ومعسكرات السجن، و"نوتيه الفالوجا". وقد صاحب الغرض الاجتماعى الواضح لهذا الشعر الهادف جرأة فى التعبير. وأخذ نكراسوف عن التقليد الشعبى، واستخدم كل أفانين الأدب الشعبى. وقد كان نقادة النبلاء على حق تام فى شكواهم من أن قصائده "تفوح منها رائحة الفلاحين" فقد أدخل نكراسوف أحوال الفلاحين وحركاتهم فى الشعر المكتوب .

بالإضافة إلى بوشكين، وليرامنوف ونكراسوف فقد وجد ميخائيل لتيكوف ١٨٢٦ – ١٨٨٩ الذى كان يكتب تحت اسم شهره "شتشيدرن" وكان من أبرز ممثلى المعارضة للسياسة القيصرية وهاجم بعنف أخطاء الساسة الأغبياء، وفساد



أعضاء الحكومة المركزية الكسالى، وجهل الطبقات الحاكمة وتخاف الأشراف الرجعيين، وأخيراً والرأسماليين الحديثى الظهور ومعاداتهم للاستنارة. وعرض فى قصته الرمزية ذات الشعبية الكبيرة والتى تتكلم عن مدن خيالية، تاريخ روسيا القيصرية بأكمله كسلسلة طويلة من الأعمال البربرية، وسخر من الأباطرة والوزراء، وهزأ من الإجراءات الرجعية التى حاول الحكم المطلق بها أن يوقف انتشار الأفكار التقدمية .

وعبر الكسندر بلوك ١٨٨٠ – ١٩٢١ عن مشكلات الحياة والثقافة، واصطبغت قصائده الجديدة، ومن بينها "أشعار من روسيا" الرائعة، وقصيدة "حقل كوليكوف" عن شخصية روسيا ومصيرها، بالشعبية والتطرف مع نغمات سلافية عرضية. وعبر فى قصائده القصصية الغنائية ومسرحياته عن نذير الكارثة القريبة وبداية فترة تاريخية جديدة .

وظهر بجانب الشعراء الكتاب والنقاد الكبـار مثل فيساريون بلنسكى (١٨١١ - ١٨٤٨) الذى كان الزعيم الفكرى لجيل بأسره وكانت الطبقة المستنيرة تقرأ وتناقش

بشغف تفسير للأدب والمجتمع ويعكس تطوره الفكرى تطور اتجاهات عصره وانتهى إلى أن الحرية والعدالة السياسية والاجتماعية على حد سواء يجب أن تكون من لزوميات أى تطور تاريخى. والإنسان نفسه يخلق القيم التى تستخدم كمعايير فى استطلاعه للوقع. ويجب ألا يظل الجمال، والعدالة، والحقيقة، أسمى من الحياة بل يجب أن تتخلل الحياة ذاتها، ويجب أن تغير الحياة لتحقيق ذلك .

وفى آخر مراحل حياته أصبح يؤمن أن على روسيا أن تنشد خلاصها فى انتصارات المدنية والثقافة الإنسانية وكان بلنسكى محاربا شجاعاً يصدر عن إيمان عميق وخالص وكان يقول "أن مقالاتى لا يمكن وصفها عن ذات نفس، وأن قوتى لا تكمن فى موهبتى، بل فى انفعالى". الأدب الروسى هو دمى وحياتى .

ووصفة الدكتور لويس عوض :

وفى مناقشاته الكلامية كان بلنسكى إذا غضب يصول ويجول ويقارع غريمه الحجة بالحجة ويهجم عليه بالمحاجة تلو الأخرى كما يهجم الليث على فريسته فلا يتركها إلا جثة بلا حراك. وفى حياته دان له النفوذ الأدبى المروع فأصبح

يعز من يشاء من الأدباء ويذل منهم من يشاء. ولكن لم يصدر أحكامه أبدا عن الغرض والهوى. ورغم أن التوفيق فى آرائه النقدية كان يجانبه أحيانا فإن بصيرته فى اكتشاف مواهب جوجول ولير منتوف وتورجنيف وجورنشاروف فدال وبيكراسوف وهرزين ودستيوفسكى وغيرهم. وبسبب أمانته لم ير أدنى غضاضة فى العدول عما يراه خطأ فى آرائه. هكذا عاش حتى مات بداء السل فى عام ١٨٤٨ .

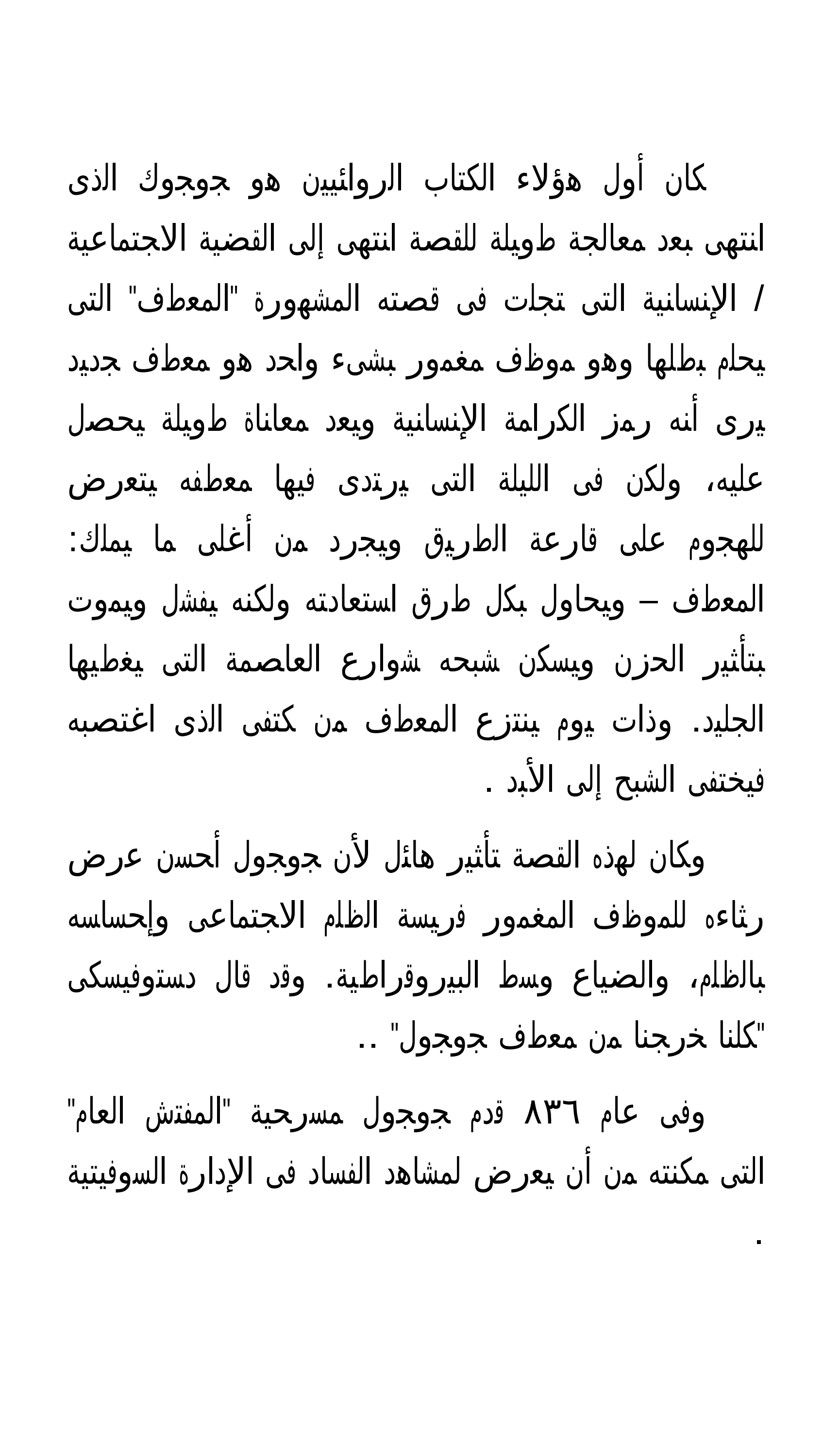
ويماثل تليتسكى فى الأهمية الكاتب تشرنشفسكى الذى – فيما رأى نقولا برديائف "لم يسيطر على فكر الانتلجنسيا المتطرفة فى الستينات فحسب، بل وسيطر أيضاً على فكر الأجيال التالية. وأسهمت الهالة التى أحاطت باسمه عقب الحكم عليه بالأشغال الشاقة إسهاما كبيرا فى شعبيته، فقد اتهم بنشر بيانات تحض الفلاحين على الثورة وسيقت الأسانيد المزيفة والشهادات الزور لتأييد الاتهام، فحكم عليه بالأشغال الشاقة سبع سنوات، وقضى عقب ذلك اثنتى عشرة سنة فى سيبريا الشرقية فى ظروف بالغة القسوة، وتحمل سيبريا والأشغال الشاقة كما يتحملها زاهد أصيل. كان تشرنشفسكى

شخصا وديعا كل الوداعة، يتصف بروح مسيحية، ويتميز بإمارات من القداسة فى شخصيته .

وقد كتب تشرنشفسكى رواية سماها: "ما العمل" أصبحت نوعا من كتب العبادة لدى العدمية الروسية، ومرجعا للانتلجنسيا الثورية الروسية .

وهذه الرواية هى التى جعلت لينين يكتب كتابا بنفس الاسم "ما العمل" كما أن الاتجاهات الاشتراكية لتشرنشفسكى جعلت ماركس يدرس الروسية حتى يستطيع أن يقرأ مؤلفاته – رغم عزوف ماركس عن روسيا وصعوبة اللغة الروسية .

على أن التأثير الأعظم على الأمة الروسية جاء كرد فعل للقصة والرواية لأن الجمهور الذى يقرأ القصة والرواية أكبر من الجمهور الذى يقرأ الشعر أو النقد الأدبى. ولأن المعالجة الروائية – خاصة فى الطويلة منها – تتيح عرض جوانب عديدة من جوانب المجتمع. ومن هنا فيمكن القول إن الرواية الروسية كانت من أكبر عوامل التأثير فى المجتمع الروسى وإيجاد رأى عام. عن عوامل التخاف فى المجتمع الروسى وأبرزها الجهالة والاستبداد وضرورة التخاص من هذين .



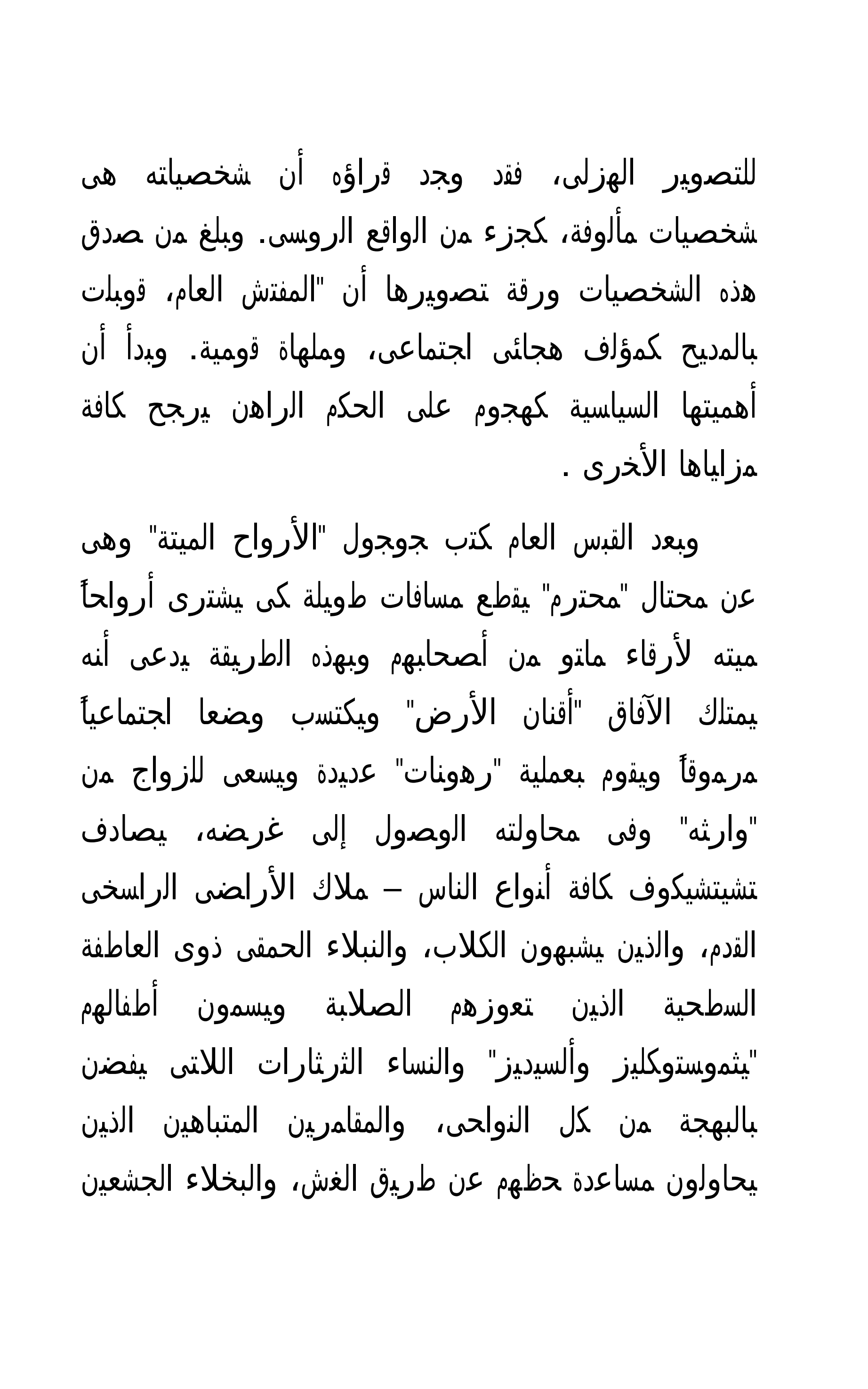
كان أول هؤلاء الكتاب الروائيين هو جوجوك الذى انتهى بعد معالجة طويلة للقصة انتهى إلى القضية الاجتماعية / الإنسانية التى تجلت فى قصته المشهورة "المعطف" التى يحلم بطلها وهو موظف مغمور بشىء واحد هو معطف جديد يرى أنه رمز الكرامة الإنسانية وبعد معاناة طويلة يحصل عليه، ولكن فى الليلة التى يرتدى فيها معطفه يتعرض للهجوم على قارعة الطريق ويجرد من أغلى ما يملك: المعطف – ويحاول بكل طرق استعادته ولكنه يفشل ويموت بتأثير الحزن ويسكن شبحه شوارع العاصمة التى يغطيها الجليد. وذات يوم ينتزع المعطف من كتفى الذى اغتصبه فيختفى الشبح إلى الأبد .

وكان لهذه القصة تأثير هائل لأن جوجول أحسن عرض رثاءه للموظف المغمور فريسة الظلم الاجتماعى وإحساسه بالظلم، والضياع وسط البيروقراطية. وقد قال دستوفيسكى "كلنا خرجنا من معطف جوجول" ..

وفى عام ٨٣٦ قدم جوجول مسرحية "المفتش العام" التى مكنته من أن يعرض لمشاهد الفساد فى الإدارة السوفيتية .

وتدور أحداث المسرحية فى مدينة صغيرة من مدن الأقاليم، يحكمها محافظ فظ مولع بالاستيلاء على الأموال، وزمرة من الموظفين الجهلة غير الأمناء. ويعتقد الجميع خطأ أن خلستاكوف، وهو شاب آفاق مفلس، هو المفتش العام المنتظر قدومه من سانت بطرسبوج. ويستغل خلستاكوف الفوضى، ويتقاضى الرشى، ويخطب ابنة المحافظ، ثم يرحل دون أن يغفل إرسال خطاب إلى صديقه، يسخر فيه من هؤلاء الذين وقعوا فريسة لخداعه. ويطلع مدير البريد على الخطاب فى ويقرأ علنا فيما بعد فى منزل المحافظ، على مسمع من الضحايا المذهولين الذين يسمعون فى النهاية بأن المفتش العام الحقيقى قد وصل لتوه .

وصور جوجول فى قصته شخصيات لا تنسى، كالمحافظ الفظ الجائف وزوجته العابثة، وابنته الفارغة العقل، واثنين من ملاك الأرض الحمقى، والروس القصار المكتنزين، وناظر البريد المتجسس، ومدير المستشفى سوداوى المزاج، حيث يعالج المرضى كالذباب، كما صرح فى زلة لسن، وأخيراً خلستاكوف، الكاذب والدعى الضحل، والرمز الدنىء للتبلد الإنسانى. وعلى الرغم من حب جوجول



للتصوير الهزلى، فقد وجد قراؤه أن شخصياته هى شخصيات مألوفة، كجزء من الواقع الروسى. وبلغ من صدق هذه الشخصيات ورقة تصويرها أن "المفتش العام، قوبلت بالمديح كمؤلف هجائى اجتماعى، وملهاة قومية. وبدأ أن أهميتها السياسية كهجوم على الحكم الراهن يرجح كافة مزاياها الأخرى .

وبعد القبس العام كتب جوجول "الأرواح الميتة" وهى عن محتال "محترم" يقطع مسافات طويلة كى يشترى أرواحاً ميته لأرقاء ماتو من أصحابهم وبهذه الطريقة يدعى أنه يمتلك الآفاق "أقنان الأرض" ويكتسب وضعا اجتماعياً مرموقاً ويقوم بعملية "رهونات" عديدة ويسعى للزواج من "وارثه" وفى محاولته الوصول إلى غرضه، يصادف تشيتشيكوف كافة أنواع الناس – ملاك الأراضى الراسخى القدم، والذين يشبهون الكلاب، والنبلاء الحمقى ذوى العاطفة السطحية الذين تعوزهم الصلابة ويسمون أطفالهم "يثموستوكليز وألسيديز" والنساء الثرثارات اللاتى يفضن بالبهجة من كل النواحى، والمقامرين المتباهين الذين يحاولون مساعدة حظهم عن طريق الغش، والبخلاء الجشعين

الذين يرتعدون فرقا خوفا على بنس، والموظفين الحاذقين الذين ينظرون إلى القانون على أنه عقبة، والثرثارين العاطفيين الذين تزيد خطورتهم على خطورة قطاع الطريق. ويقوم تشيتشيكوف بزيارة القصور المترفة والحدائق المتواضعة، والرقص فى حفلة يقيمها أحد الحكام، وتوزيع الرشى على الكتبة فى المكاتب القذرة، وتدبير الخطط فى غرف فندق. وهو لطيف. حسن الزى، جيد التغذية، محبوب، على الرغم من أن أحداً لا يستطيع أن يحدد ما الذى يحبه فيه وهو لا يورط نفسه فى أقوال، ولا يعبر عن آراء، وبلغ من نعومة وجهه أنه يفقد ذاتيته، وهو إنسان عادى، واحد من أولئك الشياطين المتملقين التافهين الذين يغدون من العدم حاملين معهم عبير اللاوجود وخواء لا قاع له .

و "الأرواح الميتة" من الناحية الواقعية، صورة كاملة للحياة الروسية، أو بتعبير أدق تصوير كاشف لحمأة الغباء والكسل الإقليمى. وقد رسم جوجول مجموعة من اللوحات تكون صالة عرض كاملة وتتسم كافة شخصياتها، وأحاديثها، وسماتها المميزة، وتقلصاتها، ووجوهها العابسة بصفتين: هما الكشف الهجوى والواقع المزعج. وتنتمى الشخصيات إلى

كافة الطبقات – من حوذى وخادم تشيتشيكوف، إلى أثريا الريف ووكلاء النيابة. ولم تكن روسيا قد شهدت من قبل ظهور كتاب له مثل المدى والروعة الفنية. وكان التأثير المتجمع لكل المناظر والشخصيات والحوادث ساحقاً – هل هذه روسيا؟ هل من الممكن أن يمثل هذا الموكب من الأهواء والأوغاد والواقع؟ ووجد آلاف من القراء أنفسهم مضطرين إلى الإقرار بأن ابطال "الأرواح الميتة" هم صور حية لأشخاص يعرفونهم حق المعرفة .

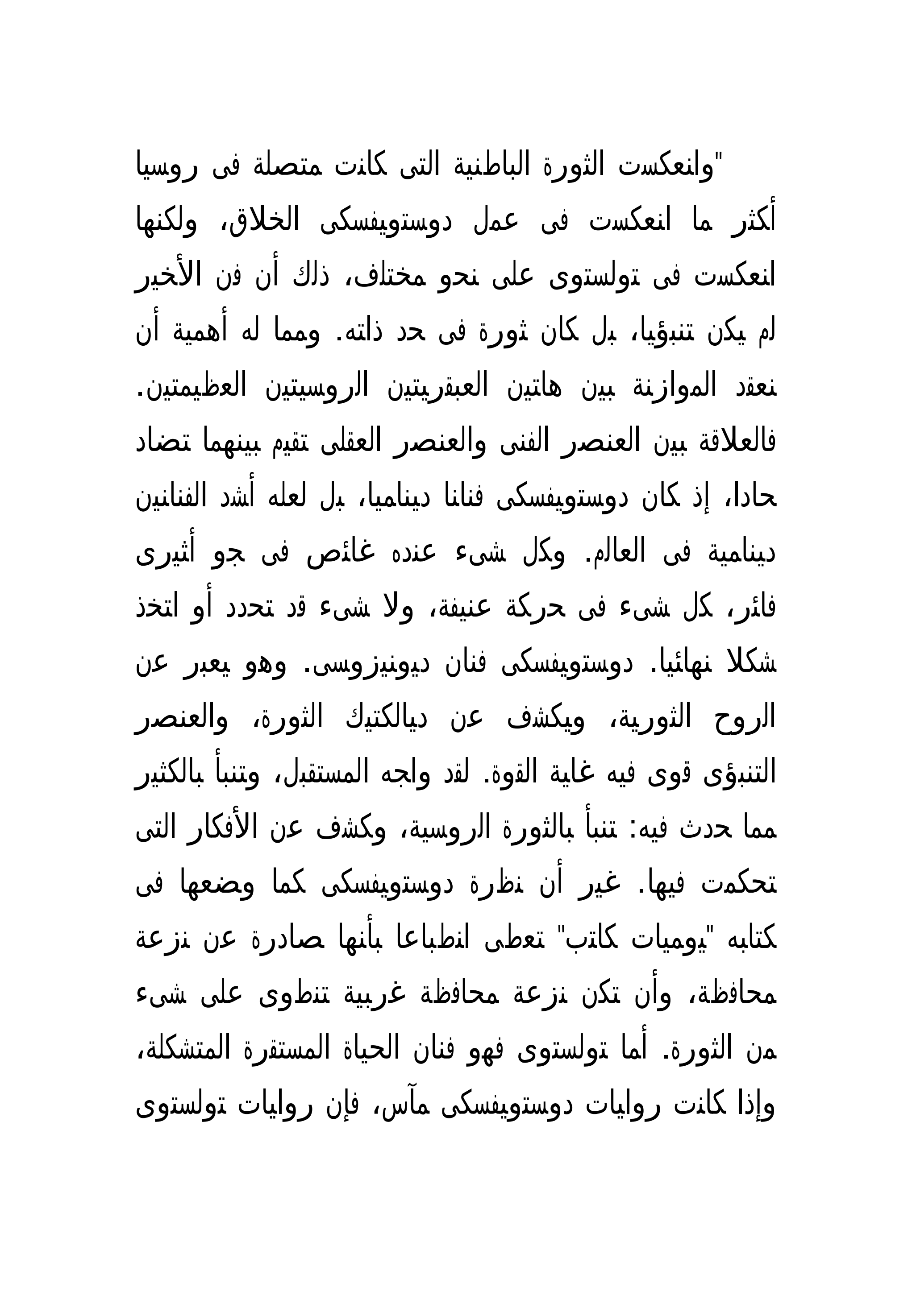
ولم يصل النثر الروسى إلى أصالته الحقيقية إلا فى كتابات جوجول. ولم يكن تأثيره على معاصريه أقل أهمية. والواقع أن كافة الكتاب الروس بين ١٨٤٠ – ١٨٦٠ ربما باستثناء تولستوى وترجنيف الناضج. أسوا إحساساً قويا بتأثير جوجول، بل إنهم قلدوا أسلوبه الأدبى ولا عجب فى أن بلينسكى ومن بعده تشيرتيشفكسى قد أسمياه (عهد جوجول فى الأدب الروسى) ..

وبعد إيفانا تورجنيف ١٨١٨ – ١٨٨٣ أول الثلاثة الذين جعلوا الرواية الطويلة قوة دافعة ومؤثرة فى المجتمع الروسى، وقد كان أكثر الثلاثة إطلاعاً على العالم الأوربى

وكان هدفا لفلوتير وهنرى جيمس وعاش فى ثلاثين عاماً فى ديار فرنسا وألمانيا وكشف عن نفسه ككاتب عظيم عندما بدأ بكتابة "مذكرات صياد" وهى دراسة لشخصية الأقنان والفلاحين وملاك الأراضى وما يحدث فى الحياة الريفية. وأظهرت أن الأقنان كانت بشرية لها نفس الصراعات النفسية والحنين إلى السعادة الذى كان يغرى إلى سادتهم وحدهم .

وفى رواية "الآباء والأبناء"التى كتبت بعد تحرير الأقنان أبرز لنا شخصية "بازاروف" الذى رمز به إلى رجل الكفاح وحتى تعبير "العدميين" الذى سيتردد بعد ذلك كثيراً فى المجتمع الروسى. وفى روايته الطويلة "الأرض العذراء" أبرز نجدانوف المثقف الرخو العاطفى وسولومين المهندس الميكانيكى العملى وماريانا سليلة الأسرة الأرستقراطية التى تضحى بوضعها الاجتماعى وتلتحق بركب المكافحين و "ماشورينا" الفلاحة الريفية المكافحة.. وتنبأ بأن المستقبل بروسيا رهن بالتقدم الصناعى .

وقد تحدث الكاتب الروسى نقولا برديانيف عن دستويفسكى وتلستوى فقال ..



"وانعكست الثورة الباطنية التى كانت متصلة فى روسيا أكثر ما انعكست فى عمل دوستويفسكى الخلاق، ولكنها انعكست فى تولستوى على نحو مختلف، ذلك أن فن الأخير لم يكن تنبؤيا، بل كان ثورة فى حد ذاته. ومما له أهمية أن نعقد الموازنة بين هاتين العبقريتين الروسيتين العظيمتين. فالعلاقة بين العنصر الفنى والعنصر العقلى تقيم بينهما تضاد حادا، إذ كان دوستويفسكى فنانا ديناميا، بل لعله أشد الفنانين دينامية فى العالم. وكل شىء عنده غائص فى جو أثيرى فائر، كل شىء فى حركة عنيفة، ولا شىء قد تحدد أو اتخذ شكلا نهائيا. دوستويفسكى فنان ديونيزوسى. وهو يعبر عن الروح الثورية، ويكشف عن ديالكتيك الثورة، والعنصر التنبؤى قوى فيه غاية القوة. لقد واجه المستقبل، وتنبأ بالكثير مما حدث فيه: تنبأ بالثورة الروسية، وكشف عن الأفكار التى تحكمت فيها. غير أن نظرة دوستويفسكى كما وضعها فى كتابه "يوميات كاتب" تعطى انطباعا بأنها صادرة عن نزعة محافظة، وأن تكن نزعة محافظة غريبة تنطوى على شىء من الثورة. أما تولستوى فهو فنان الحياة المستقرة المتشكلة، وإذا كانت روايات دوستويفسكى مآس، فإن روايات تولستوى

ملاحم. ولم يكن تولستوى تنبؤيا بوصفه فنانا، إذ لم يكن يتطلع إلى المستقبل. وديناميه دوستويفسكى ونزعته التنبؤية راجعتان إلى أنه كان غارقا تماما فى المشكلة الإنسانية، وكان الإنسان هو موضوع فكره. أما فى تولستوى (الذى تعد رواياته أكمل الروايات فى الأدب العالمى) فالحياة الإنسانية ممتزجة بالحياة الكونية، ومختلطة بدورانها. دوستويفسكى يتحرك فى التاريخ، أما تولستوى فيتحرك فى الكون. والدينامية والتنبؤ ى ينتميان إلى الحياة الكونية. وإنما ينتميان إلى التاريخ بالذات .

ومن ناحية أخرى، كان تولستوى ثوريا منم حيث الفكر، بالتأكيد، وثوريا فضح مظالم الحياة، وكان فوضويا وعدميا، تمرد على التاريخ والمدنية بروح راديكالية لم يسمع بها من قبل، فلا ينبغى للإنسان أن يضيع قوانين العالم، بل عليه أن يطيع قانون سيد الحياة الأعظم وأعنى به ا . وكان بالتأكيد معارضا للشيوعية إذ لم يكن يقبل العنف، وكان عدو لكل الحكومات، ويرفض تكنيك الحياة وتنظيمها العقلى، ويؤمن بالأساس الإلهى الذى تقوم عليه الطبيعة والحياة، ويدعو إلى الحب لا إلى البغض، ويمكن أن يعد بطريقة سلبية سلفا

للشيوعية، فهو ينكر الماضى، وتقاليد التاريخ، والثقافة القديمة، والكنيسة والدولة، ويرفض كل ظلم اقتصادى واجتماعى بين الناس. وهو يثور على الطبقات الحاكمة المتمتعة بالامتيازات، ولا يضمر أى حب "للصفوة" المثقفة. وفى "الشعبية" الروسية التى ظهرت فى السبعينات، لم يلعب نمط "النبيل المعذب الضمير" دورا ضئيلا، غير أن تأنيب الضمير الذى تعانيه الطبقات الحاكمة قد بلغ فى تولستوى أوج شدته. وكان تولستوى مشبعا تمام الشبع بفكرة قيام حياة المجتمع المتحضر على الأكاذيب والحيف. وأراد أن يقطع صلته بهذا المجتمع قطعا تاما. وفى هذه الاتجاه كان ثوريا، ولكنه كان يرفض العنف الثورى. وكان دوستويفسكى ثوريا هو أيضاً على الرغم من المظهر المحافظ الذى اصطنعه فى الكثير من آرائه. أنه يبغض الانتلجنسيا الثورية ويدينها، لأنه تنبأ – على وجه الخصوص – بإنكار حرية الروح بوصفها النتيجة النهائية لأفكار ثورة قائمة على الإلحاد، والإلحاد فى نظر دوستويفسكى يؤدى حتما إلى إنكار حرية الروح، ويمكن أن نرى هذا بوضوح فى كشفه عن العبقرية الديالكتيكية فى "أسطورة المحقق العام" وفى شخصية "إيفان

كارامازوف". وهنا تمكن أصالة الاتهام الذى وجهه دوستويفسكى إلى الانتلجنسيا الثورية. وفى توجيهه لهذه الاتهامات بدافع عن حرية الروح، وهذه الحرية عند دوستويفسكى ثورية تماماً، كما يخلع "المحقق العام" من كل كنيسة ودولة. وفى روايته "الممسوسين" يرى بوصفه رسول الثورية الروسية، فلقد تنبأ بأشياء كثيرة، ولكنه لم يكن منصفا فى كثير من الأحيان .

وبعد أن اصدر تولستوى روائعه "الحرب والسلام" آنا كارنينا والبيت تعرض لأزمة نفسية عميقة انتهت بأن ينبذ هذا الماضى وأن يكرس حياته لخدمة الإنسانية، ومن ذلك الحين وهو يكتب القصة. إما ليعبر عن أفكاره الدينية وإما بتأثير رغبة أقوى من كافة قراراته المنطقية .

وكان التغير الذى طرأ عليه نهاية عملية طويلة. ولما كان قد تأثر إلى حد كبير بروسو الذى كان يعشقه، وحياة الفلاحين الروس الفطرية، فقد كان يضع الطبيعة دائماً فى مواجهة الحضارة، وكان يشعر بأن كافة الشرور مبعثها المجتمع والقيم الزائفة، وبأن الإنسان خير فى جوهره. وكان ضميره يقلقه دائماً. وكان مثل الكثيرين من "النبلاء النادمين"

فى فترة الشعبية، يخجل من ثرائه ومركزه الاجتماعى، وأضفى على الفلاحين الفقراء حكمة روحية عظيمة. وفى فترة من الفترات بدا أنه قد وجد راحة البال فى حياته العائلية وفى عمله ككاتب وكنبيل مزارع. ودام هذا بين صعود وهبوط طوال خمسة عشر عاما، ولكن إحساسه بالذنب والحنين إلى القدسية الذى يكمن وراء تطلعه الأخلاقى تغلب عليه فى النهاية، واستهل سلسلة أعماله العظيمة فى إنكار الذات .

وسرعان ما أصبح نبذه لمغريات العالم فعالا فعلى الرغم من أنه كان أبا لثلاثة عشر طفلا، ورجلا ذا طاقة جنسية قوية ومزاج شهوانى فقد هاجم الجنس بعنف ونادى بالعفة. وفى "سوناتا الكروتز" (عملة نمساوية وألمانية قديمة) وهى قصة غاضبة عن الغيرة والعشق الجسدى (١٨٨٩)، هاجم تصنع المجتمع الذى يغلف الجنس بأكاذيب عن "الحب" والعاطفة. ولم يكن رفضه للفن بأقل تطرفا. فقد هاجم معظم الكتابات، والرسومات، والموسيقى المعاصرة، على أنها وسائل ترفيه عن الطبقات العليا، ومكرسة تكريسا شبه تام لمواضيع الجماع الجنسى والبرم بالحياة ولكبرياء. ولم يرض

إلا بمؤلفات الفن الشعبى ذات الهدف الأخلاقى والدينى، على أن تكون بسيطة، تسمو بالمرء ذات جاذبية عالمية ومكتوبة للجماهير. وكل ما كتبه بعد عام ١٨٨٠ كان يستهدف تحقيق هذه المتطلبات. وبسط نظريته الجمالية الجديدة فى مقاله "ما هو الفن؟" (١٨٩٧ – ١٩٩٨) الذى أثر بطريقة غير مباشرة فى نقاد العهد الشيوعى الذين، على أية حال، أحلوا كلمة "اجتماعى" محل كلمة "دينى". وبما أنه آمن بفضيلة العمل اليدوى وطريقة الحياة البسيطة، فقد أعطى لنفسه الحق فى الحكم على الدولة والمجتمع. ولما كان عدو للحرب، والخدمة العسكرية، والعنف، فلم يجد أية صعوبة فى إظهار التباين بين النظم السياسية أو القضائية أو القضائية ومبادئ الحب والرحمة المسيحية. وكان التصنع وأوهام الحياة القائمة على التنافس وغباء الكبرياء وعدم جدوى نشاط الإنسان العقيم هى أهدافه الأثيرة. ثم جاء بعد ذلك التحامل على الطبقة المتعلمة، بما فى ذلك الاعتقاد فى العلم والطب، وممارسات الكنيسة بقداسها الوثنى وطقوسها الدينية التى لا معنى لها. وفى "ما هو الفن؟" (وفى "الحرب والسلام" من قبلها) سخر من سخافة المسرحيات الغنائية والبالية، وبعد ذلك فى "البعث" تحدث

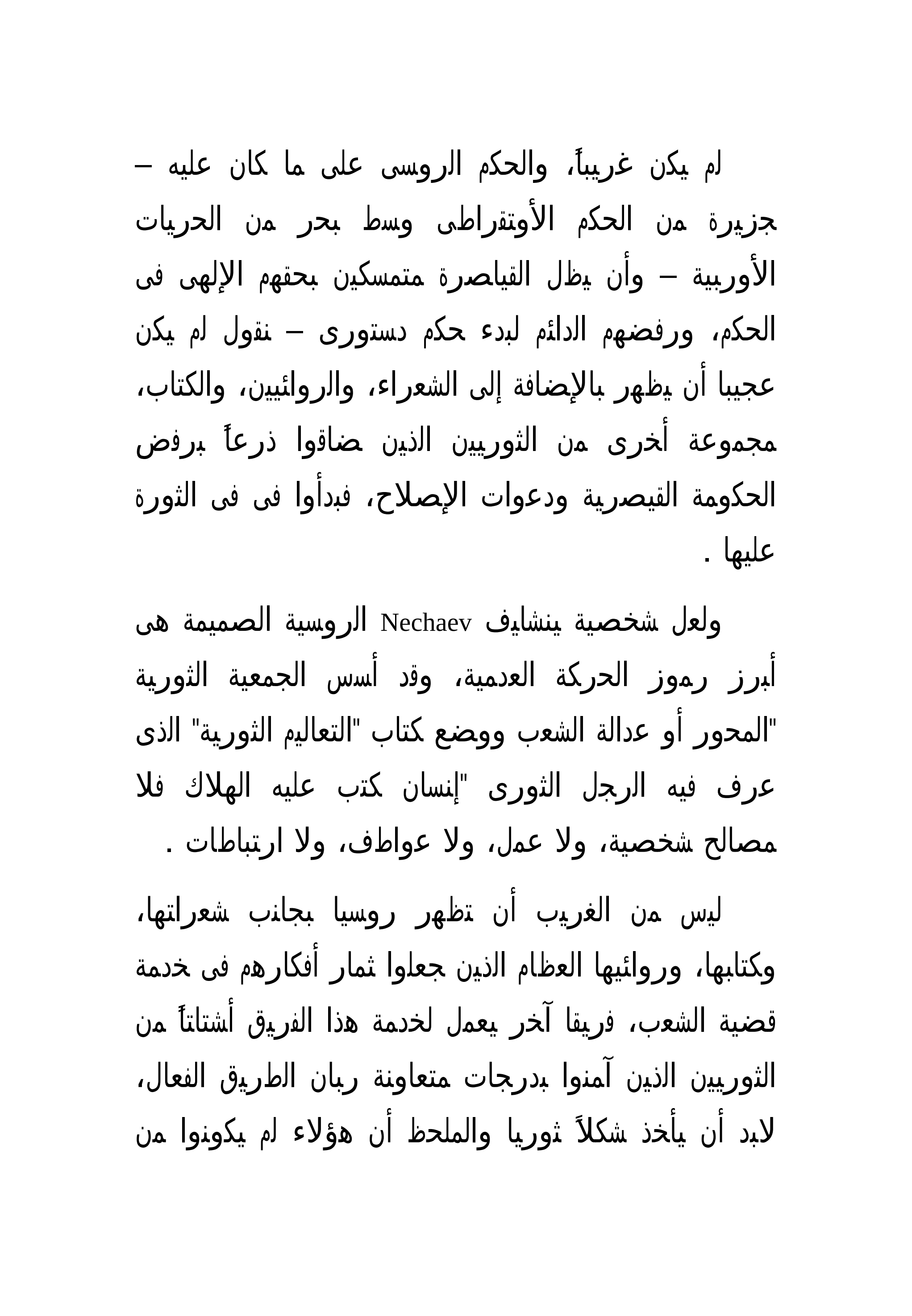
بطريقة تحقيرية عن القداس على أنه "كلام سحر" حتى إن الكنيسة اعتبرت ذلك تجديفا وحرمت تولستوى من الكنيسة. ولكن هذا لم يمنعه على أية حال من التبشير بما أسماه "المسيحية الحقيقية" التى تقوم على موعظة المسيح فوق الجبل وأسس إنجيل المسيح: "أحب جارك" "ولا تقاوم بالعنف". وكانت هاتان الآيتان، فى رأى تولستوى، إرشادا كافيا للحياة وفقا للمشيئة الإلهية. وعلى أية حال، فقد أنكر ألوهية المسيح وخلود الروح، ورفض مناقشة مشكلات ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية)، واقتصر على الأخلاق. ودعم تولستوى هذه الديانة الإنجيلية الفطرية بتوصيات قليلة تعكس إعجابه بالفلاح: يجب على الإنسان أن يرفض الحضارة الآلية، وأن يعيش فى وحدة مع الطبيعة، وأن يعمل بيديه (كان تولستوى يصنع أحذية ويحرث حقوله بنفسه، وكان يستمد من ذلك المتعة التى يصفها ليفين فى "آناكارنينا" وأن يظل نباتيا. وكان حكيم كليرجليدن يرى أن البساطة والطهارة والطبيعة والتسليم، هى الفضائل الأساسية للإنسان، وكان يعتقد أن ممارسة هذه الفضائل تستطيع أن تقود الإنسان إلى الخلاص. ولا تستطيع أية ثورة أو تغيير أن تساعد على

ذلك، إن مملكة ا بداخلنا، ولا يمكن تغيير البشرية إلا بإصلاح الفرد فقط بالمجهودات المركزة لملايين الإرادات المنفصلة .

وبعد أن رفض تولستوى فكرة الملكية على نحو ما فعلت الشيوعية والرسولية البدائية، وصل إلى حد التخلى عن كافة "ممتلكاته المادية" بما فى ذلك حقوق الطبع. ومع ذلك، فقد شعر بأنه لم يؤد واجبه كاملا، وفى سن الثانية والثمانين تخلى عن زوجته وأبنائه، وترك منزل أسلافه العريق وهام على وجهه فى طرق روسيا. وفى أثناء تجواله سقط مريضاً، وتوفى فى محطة سكة حديدية مغمورة عام ١٩٠٠ ودفن رفاته فى حديقة كلير جليدز .

وكان لحياة تولستوى وما زال لها تأثير بالغ الاتساع والعمق. وقد اتبع الآلاف من تلاميذه فى كافة أنحاء العالم، من غاندى فى الهند إلى رومان رولاند فى فرنسا، ومن الفوضويين الدينيين فى اليابان إلى المعارضين الضميريين فى أمريكا .





لم يكن غريباً، والحكم الروسى على ما كان عليه – جزيرة من الحكم الأوتقراطى وسط بحر من الحريات الأوربية – وأن يظل القياصرة متمسكين بحقهم الإلهى فى الحكم، ورفضهم الدائم لبدء حكم دستورى – نقول لم يكن عجيبا أن يظهر بالإضافة إلى الشعراء، والروائيين، والكتاب، مجموعة أخرى من الثوريين الذين ضاقوا ذرعاً برفض الحكومة القيصرية ودعوات الإصلاح، فبدأوا فى فى الثورة عليها .

ولعل شخصية ينشايف Nechaev الروسية الصميمة هى أبرز رموز الحركة العدمية، وقد أسس الجمعية الثورية "المحور أو عدالة الشعب ووضع كتاب "التعاليم الثورية" الذى عرف فيه الرجل الثورى "إنسان كتب عليه الهلاك فلا مصالح شخصية، ولا عمل، ولا عواطف، ولا ارتباطات .

ليس من الغريب أن تظهر روسيا بجانب شعراتها، وكتابها، وروائيها العظام الذين جعلوا ثمار أفكارهم فى خدمة قضية الشعب، فريقا آخر يعمل لخدمة هذا الفريق أشتاتاً من الثوريين الذين آمنوا بدرجات متعاونة ربان الطريق الفعال، لابد أن يأخذ شكلاً ثوريا والملحظ أن هؤلاء لم يكونوا من

الماركسيين الذين يدبرون لثورتهم بغرس فكرهم فى النقابات ووسط العمال والطلبة تمهيداً لثورة عامة. أنهم كانوا يمارسون صنوفاً من العمل الثورى الذى لم يكن له صورة يتقولب فيها ويعبر بها عن نفسه إلا العنف. وقد بدت بوادر ذلك طوال القرن التاسع عشر ورأينا ترجنيف يقدم إرهاصاً بهم فى رواياته "أباء وأبناء" و "الأرض العذراء" وغيرهم، كما تضمنت روايات دستوفسكى وتولستوى أمثلة لهم، ولكن هذا الاتجاه أثبت وجوده بالفعل، أكثر مما قام على الفكر، وأن لم يقدم أساساً فكرياً هو أن الحكومات ليست إلا أجهزة لقمع الشعب والهيمنة على إرادته. ولهذا فإن كل عمل يهز جهاز الحكم يسهم بشكل ما فى الفكرة الرئيسية. وقد وجدت فى وسائل الكتاب والقهر التى مارستها الحكومة الروسية ما يبرر ذلك. بحيث يكون تصرفهم هو "رد الفعل" الطبيعى كل ما فيه فى قبضة مكره واحدة وعاطفة واحده هى الثورة .

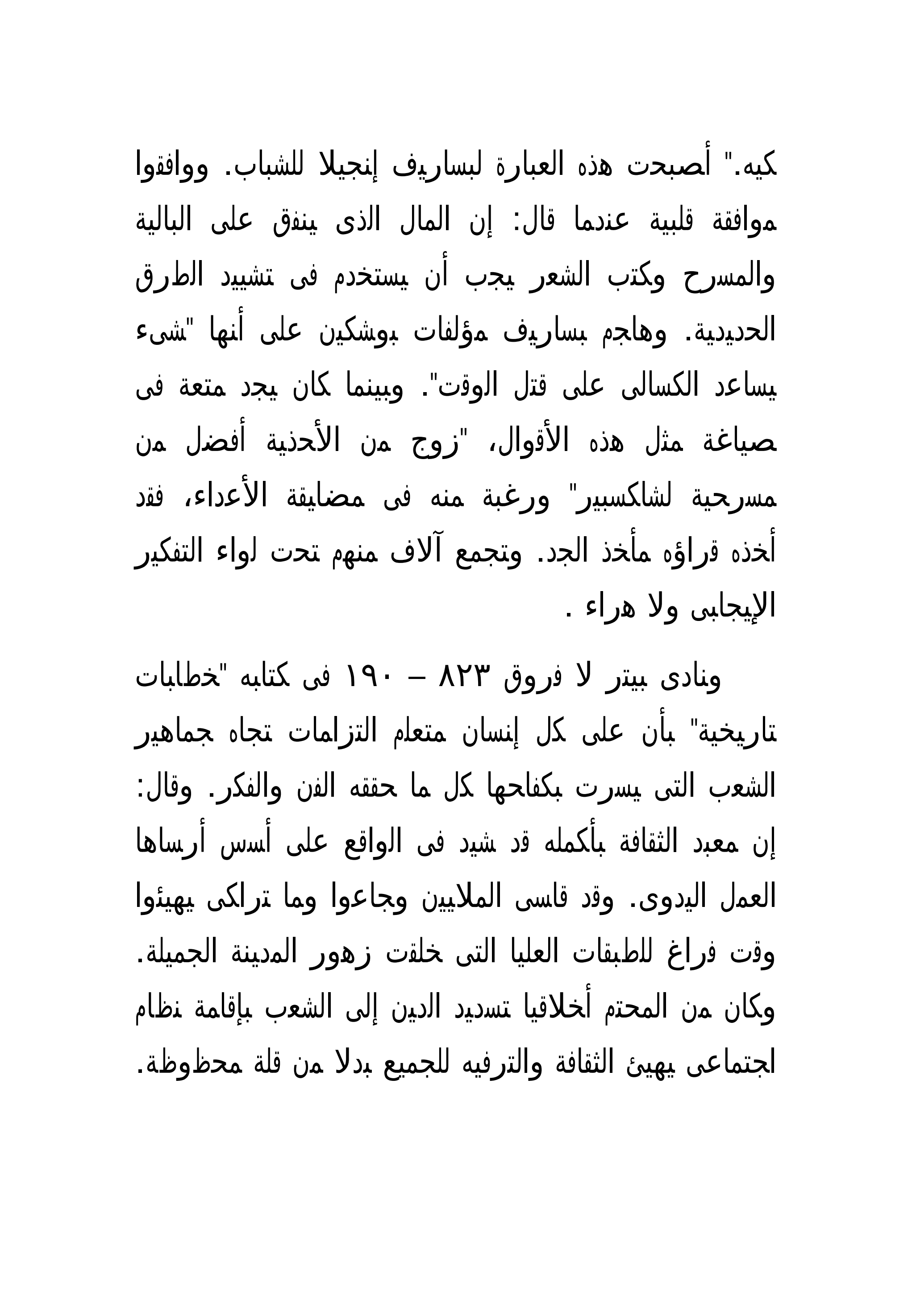
وأمضى تشانف عشرة أعوام فى السجن فى ظروف بشعة، ولكن مضى فى دعايته فحول حراس السجن جميعا إلى أعوان له وعبر طريقهم كان يراسل الجماعات الشعبية .

وأعجب الأشياء هو أن أيدلوجية الفوضوية هى فى شطرها الأكبر من خلق الفئة العليا من طبقة الأعيان الروسى من ذوى الأملاك، وهذه الفوضوية الروسية اكتسبت أهمية أوربية عامة، فقد كان باكونين والأمير كروبوتكين Kropotkin والكونت تولستوى، وكلهم من كبار الأعيان، هم مؤسسو الفوضوية الروسية والعالمية. والشخصية الرئيسية هى باكونين، الذى كان الابن المدلل لطبقة الأعيان الروس، والواقع أنه كان طفلا كبيرا، مشتعل الحماس دائما بأشد الأفكار الثورية .

وكان يعتقد أن الثورة التى تشمل العالم كله سوف يشعلها لشعب الروسى والعنصر الصقلبى، وهو فى هذه النزعة الميسياوية الثورية يعد رائدا للشيوعية. والعبارة القائلة أن "عاطفة الهدم، عاطفة خلاقة" هى من العبارات التى أطلقها باكونين. وفوضوية باكونين هى الثورة، فهو يريد أن يثيرها ثورة عالمية شاملة، وأن يحطم العالم القديم، وكان يعتقد أنه على أطلال العالم القديم، ومن الرماد المتخلف عنه، سينهض تلقائيا عالم جديد، وكان يود أن يدفع جماهير البروليتاريا فى العالم كله إلى التمرد، ولهذا اتجه إلى الدهماء

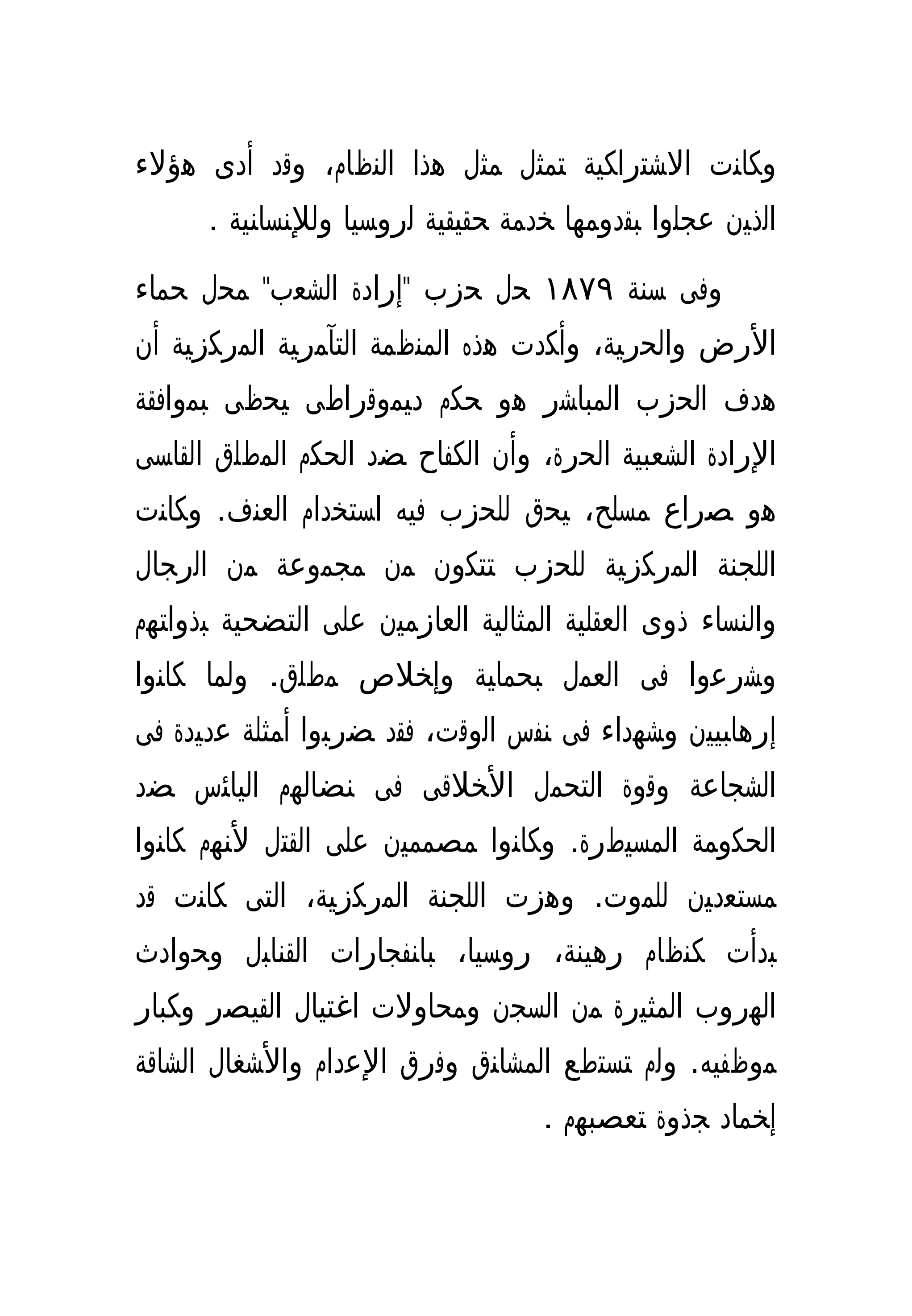
وأحط الطبقات، معتقدا أن الغوغاء الثائرة، بعد أن تطرح عنها كل أغلال التاريخ والمدنية، ستقيم حياة حرة أفضل. أنه يريد أن يطلق الغوغاء من عقالها. وكان باكونين "شعبيا" بمعنى أنه كان يؤمن بأن الحقيقة كامنة فى الشعب الكادح، فى الجماهير غير المستنيرة، وخاصة فى الشعب الروسى، الذى أسستها الطبقات الحاكمة، فأصبحت أداة للاضطهاد .

ووجد الفكر الثورى فى ديمترى بساريف ١٨٤٠ – ١٨٦٨ ممثلاً له، وقد كان نبيلا شاباً يملك قلم الصحفى الحاضر البديهة، وكان مجادلا من الدرجة الأولى. وكانت حياته قصيرة كحياة دوبروليوبوف (فقد توفى فى الثامنة والعشرين وربما مات منتحرا)، ولكن شهرته كانت قد استفاضت وهو فى الثانية والعشرين، وتركت كل مقالة من مقالاته أثرا هائلا – فقد بدا أنه معبر صادق عن معاصريه، ينطق بما يفكرون فيه ويرغبون فى قوله. وقبل كل شىء، فقد نبذ العاطفة والحب الأفلاطونى، والمالية، والأحلام الشاعرية على أنها "حماقة بحتة" أو دليل على الضعف. "كل ما يبعدنا عن واجباتنا الرئيسية: - التعليم، التقدم العلمى، التطور الاجتماعى – هو شىء لا فائده منه فهو إذن أمر



كيه." أصبحت هذه العبارة لبساريف إنجيلا للشباب. ووافقوا موافقة قلبية عندما قال: إن المال الذى ينفق على البالية والمسرح وكتب الشعر يجب أن يستخدم فى تشييد الطرق الحديدية. وهاجم بساريف مؤلفات بوشكين على أنها "شىء يساعد الكسالى على قتل الوقت". وبينما كان يجد متعة فى صياغة مثل هذه الأقوال، "زوج من الأحذية أفضل من مسرحية لشاكسبير" ورغبة منه فى مضايقة الأعداء، فقد أخذه قراؤه مأخذ الجد. وتجمع آلاف منهم تحت لواء التفكير الإيجابى ولا هراء .

ونادى بيتر لا فروق ٨٢٣ – ١٩٠ فى كتابه "خطابات تاريخية" بأن على كل إنسان متعلم التزامات تجاه جماهير الشعب التى يسرت بكفاحها كل ما حققه الفن والفكر. وقال: إن معبد الثقافة بأكمله قد شيد فى الواقع على أسس أرساها العمل اليدوى. وقد قاسى الملايين وجاعوا وما تراكى يهيئوا وقت فراغ للطبقات العليا التى خلقت زهور المدينة الجميلة. وكان من المحتم أخلاقيا تسديد الدين إلى الشعب بإقامة نظام اجتماعى يهيئ الثقافة والترفيه للجميع بدلا من قلة محظوظة.



وكانت الاشتراكية تمثل مثل هذا النظام، وقد أدى هؤلاء الذين عجلوا بقدومها خدمة حقيقية لروسيا وللإنسانية .

وفى سنة ١٨٧٩ حل حزب "إرادة الشعب" محل حماء الأرض والحرية، وأكدت هذه المنظمة التآمرية المركزية أن هدف الحزب المباشر هو حكم ديموقراطى يحظى بموافقة الإرادة الشعبية الحرة، وأن الكفاح ضد الحكم المطلق القاسى هو صراع مسلح، يحق للحزب فيه استخدام العنف. وكانت اللجنة المركزية للحزب تتكون من مجموعة من الرجال والنساء ذوى العقلية المثالية العازمين على التضحية بذواتهم وشرعوا فى العمل بحماية وإخلاص مطلق. ولما كانوا إرهابيين وشهداء فى نفس الوقت، فقد ضربوا أمثلة عديدة فى الشجاعة وقوة التحمل الأخلاقى فى نضالهم اليائس ضد الحكومة المسيطرة. وكانوا مصممين على القتل لأنهم كانوا مستعدين للموت. وهزت اللجنة المركزية، التى كانت قد بدأت كنظام رهينة، روسيا، بانفجارات القنابل وحوادث الهروب المثيرة من السجن ومحاولات اغتيال القيصر وكبار موظفيه. ولم تستطع المشانق وفرق الإعدام والأشغال الشاقة إخماد جذوة تعصبهم .

وفى ١٤ يناير سنة ١٨٧٨ أطلقت فيرا زاسلوتشى رصاصات يسوسها على الجنرال تريبوف رئيس شرطة بطرسبرج فأصابته بجروح قاتله، وقبض عليه وحوكمت ولكن المحلفين رغم ثبوت التهمة عليها براؤوها، وكان هذا أكبر دليل على ما يضمره الناس من الكراهية للجهاز والبوليس .

وحين جن جنون المسئولين وحاولوا القبض عليها، ولكنها استطاعت الهرب منهم ولاذت بالفرار .

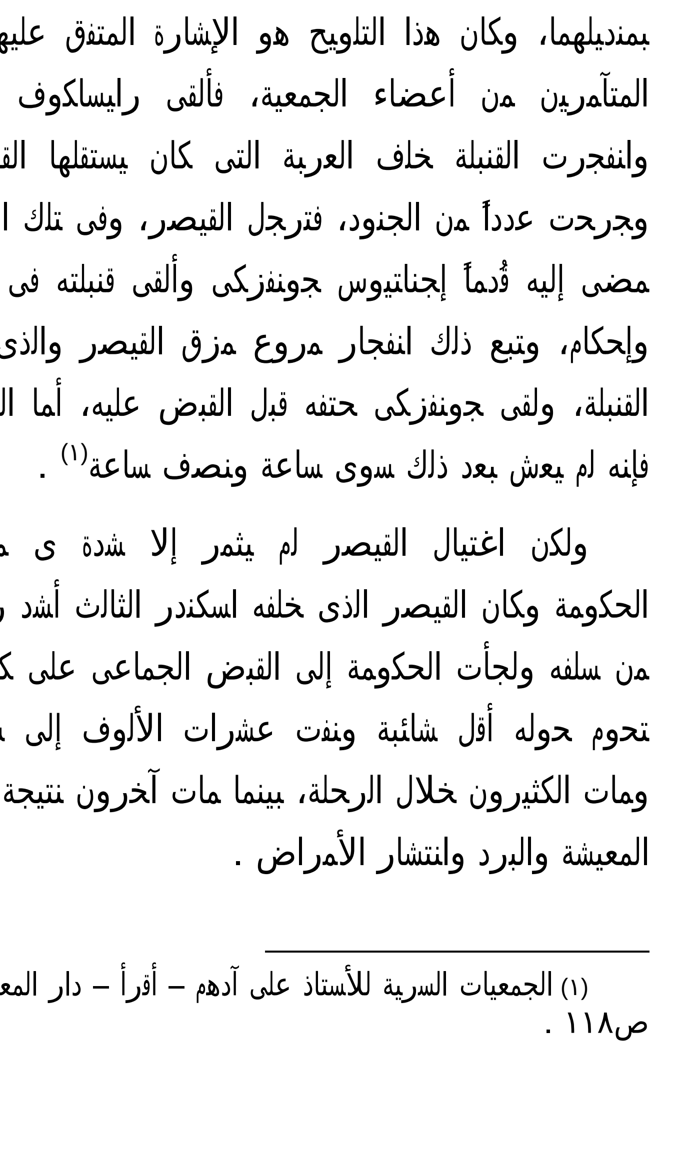
وأعقب ذلك اغتيال الجنرال مسنتسوف الذى عرف بقسوته مع المسجونين. وفى يوم ١٦ أغسطس، بينما كان الجنرال سائراً فى ميدان القديس ميخائيل أطلقت عليه رصاصات فخر صريعاً، وهرب القاتلين. وحاولت الحكومة تعقب أثارهما دون جدوى بل لقد استطاعت الجماعة التى نفذت الاغتيال أن تصدر نشرات تصل إلى المصانع. "بل كان القيصر نفسه يجدها ملقاة فى أركان قصره وفوق مكتبه.

وفى ٩ فبراير سنة ١٨٧٩ أطلق الرصاص على الأمير الكسيس كرابوتكين حاكم خراكوف وكان قد اشتهر بقسوته مع المعتقلين حتى آثر بعضهم الانتحار كما مثل بعده رئيس

الشرطة السريين، كما قتل الجنرال درنتلين وهو الذى كان المسئول عن شنق بعض المسجونين .

وطرأت فكرة اغتيال القيصر، وقائع العدميون بمحاولات عديدة، فأطلق عليه الرصاص فى يوم ١٢ أبريل وهو يتمشى فى ساحة القضاء، ولكن وضعوا خطة لتفجير قطار القيصر إثناء رحلته من القرم إلى بطرسبرج ووضعوا ألغاما فى ثلاث جهات، ولكن فى اللحظة الأخيرة سار القطار من طريق آخر. فوضعوا ألغاما عند اللسندرويسك ولكنه لم ينفجر. وانفجر لغم ثان ولكنه أصاب القطار الذى كان يحمل حقائب القيصر، وكان قد تقدم القطار الذى يحمل القيصر نفسه. ونجحوا فى تدمير إحدى قاعة القوم عن طريق نجار كان يعمل بالقصر وقتل خمسة من الحراس وجرح خمسون ولكن القيصر كان قد تأخر فنجا .

ولم ييأس العدميون رغم ما اتخذته الحكومة من إجراءات قاسية، وأنها زجت بأكثر من ثلاثة آلاف رجل إلى السجون وبلغ عدد من أرسل إلى سيبريا فى سنة واحدة أثنى عشر ألفا وتطوع سبعة وأربعون لقتل القيصر. وقتل القيصر بالفعل يوم ١٣ مارس سنة ١٨٨١ .



كان القيصر عائداً فى عربته من عرض عسكرى قرب بطرسبرج، فلوحت الفتاتان جسى ولقمان وصوفيا بيروسكايا بمنديلهما، وكان هذا التلويح هو الإشارة المتفق عليها بين المتآمرين من أعضاء الجمعية، فألقى رايساكوف قنبلة، وانفجرت القنبلة خلف العربة التى كان يستقلها القيصر، وجرحت عدداً من الجنود، فترجل القيصر، وفى تلك اللحظة مضى إليه قُدماً إجناتيوس جونفزكى وألقى قنبلته فى عناية وإحكام، وتبع ذلك انفجار مروع مزق القيصر والذى ألقى القنبلة، ولقى جونفزكى حتفه قبل القبض عليه، أما القيصر فإنه لم يعش بعد ذلك سوى ساعة ونصف ساعة[1] .

ولكن اغتيال القيصر لم يثمر إلا شدة ى مقاومة الحكومة وكان القيصر الذى خلفه اسكندر الثالث أشد رجعية من سلفه ولجأت الحكومة إلى القبض الجماعى على كل من تحوم حوله أقل شائبة ونفت عشرات الألوف إلى سيبريا ومات الكثيرون خلال الرحلة، بينما مات آخرون نتيجة لسوء المعيشة والبرد وانتشار الأمراض .

---

(١) الجمعيات السرية للأستاذ على آدهم – أقرأ – دار المعـارف ص١١٨ .